تراث الإسلام

تفسير الطبري

جامع البيان عن تأويل آي القرآن

لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري

٢٢٤ - ٣١٠ هـ

٢

حققه وعلق حواشيه

محمود محمد شاكر

راجعه وخرج أحاديثه

أحمد محمد شاكر

الطبعة الثانية

الناشر

مكتبة ابن تيمية

القاهرة ت ٨٦٤٢٤٠

تفسير الطبري

الجزء الثاني

فيه

تفسير سورة البقرة

من ٤٣ – ١٢٣

والآثار من ٨٤٠ – ٩٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحدَه لا شريك لَهُ فى سلطانه ، مُذِلّ الجبابرة ، ومُدِيل الفئة المؤمنة من الفئة الكافرة ، أحمده رضًى بقضائه وقدَره ، وأسبّحه كما سبَّحت له السّموات السبعُ والأرضُ ومن فيهنّ ، ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۝ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾

وصَلَّى الله على محمّدوعلى آل محمَّدٍ كما صَلَّى على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما بارك على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيم فى العالمين إنّه حميدٌ مجيدٌ .

* * *

وبعدُ فقد منّ الله بالمعونة على الفراغِ من الجزء الثانى من تفسير أبى جعفر رضى الله عنه ، فما كان فيه من إحسان فمن الله ، وما كانَ فيه من زَلَل فمنّى . وأسأل الله أن يتغمَّد ما أخطأتُ فيه ، وأن يكتب لنا من السدادِ فى أعمالنا ما هو لَهُ أهلٌ من تفضُّله على خلْقه ، ومنّه على عباده .

هذا وقد فاتنى أن أذكر فى مقدمة الجزء الأوّل أنى وضعت على هامش هذه الطبعة من التفسير ، ما يقابلها من مطبوعة بولاق ، فأثبت الجزء والصفحة معًا ، لطول ما تداول الناس مطبوعة بولاق ، ولكثرة الإشارة إليها فى

الـكتب . هذا ، وقد حرصت أيضاً كلَّ الحرص على أن أثبت فى التعليق كُلَّ ما أحال عليه الطبرى من سالف كلامه، حتى يسهل على الباحث والقارئ أن يتابع ماقاله أبو جعفر، فلا يسقط عليه شيء من معانيه . فإن الـكتابَ يطول ، وأبو جعفر يختصر ، والإحالةُ تكـثُر ، ومن الصَّعب أن يستدلَّ قارئ كتابه على المواضع التى يحيل عليها .

* * *

اللهمَّ إنِّى أسألُك عوناً لا ينقطِعُ ، وسدَادًا لا يُمَنُّ ، وتوفيقاً لايحبَس عنِّى خيرُه ، برئتُ إليك ربِّى من الحَوْلِ والقُوَّة ، كما برئت مِن الشركاء والأندادِ ، فاغفر لى خطيئتى يوم الدين ؟

محمود محمد شاكر

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى معنى « البر » الذى كان المخاطَبون بهذه الآية يأمرون الناسَ به وينسون أنفسهم ، بعد إجماع جميعهم على أن كل طاعة لله فهى تسمى « برًّا » ، فروى عن ابن عباس ما :—

٨٤٠ — حدثنا به ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد ابن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « أتأمرُون الناس بالبرِّ وتنسوْن أنفُسكم وأنتم تتلُونَ الكِتابَ أفلا تعقِلون » ، أى تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعُهْدةِ من التوراة وتترُكون أنفسكم ،[1] أى وأنتم تكفرون بما فيها من عهْدى إليكم فى تصديق رسولى ، وتنقضون مِيثاقى ، وتجحدون ما تعلمون من كتابى .

١/٢٠٤

٨٤١ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر ابن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس ، فى قوله : « أتأمرون الناس بالبر » ، يقول : أتأمرون الناس بالدخول فى دين محمد صلى الله عليه وسلم ، وغير ذلك مما أُمرتم به من إقام الصلاةِ ، وتنسوْن أنفسكم .

* * *

(١) فى المطبوعة ، وفى المراجع : « والعهد من التوراة » . والعهد والعهدة واحد .

وقال آخرون بما : —

٨٤٢ — حدثني به موسى بن هرون قال ، حدثني عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » ، قال : كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه ، وهم يعصونه .

٨٤٣ — وحدثنا الحسن بن يحيي قال ، أخبرنا عبد الرزّاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة ، فى قوله : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » ، قال : كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر ، ويخالفون ، فعيَّرهم الله .

٨٤٤ — وحدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنا الحجاج ، قال قال ابن جريج : « أتأمرون الناس بالبر » ، أهلُ الكتاب والمنافقون ، كانوا يأمرون الناسَ بالصوم والصلاة ، ويدَعون العملَ بما يأمرون به الناس ، فعيَّرهم الله بذلك . فمن أمرَ بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة .

* * *

وقال آخرون بما : —

٨٤٥ — حدثني به يونس بن عبد الأعلى قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : هؤلاء اليهود . كان إذا جاء الرجل يسألهُم ما ليس فيه حقّ ولا رِشوة ولا شيء ، أمروه بالحق . فقال الله لهم : « أتأمرون الناسَ بالبرّ وتنسوْن أنفسكم وأنتم تَتلُونَ الكتاب أفلا تعقلون » .(١)

٨٤٦ — وحدثني على بن الحسن قال ، حدثنا مسلم الجَرْمِي قال ، حدثنا مَخْلد بن الحسين ، عن أيوب السَّخْتِيانى ، عن أبى قِلاَبة ، فى قول الله : « أتأمرون النّاس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب » ، قال قال أبو الدرداء : لا يفْقَهُ الرجل كلَّ الفقه حتى يمقُتَ الناسَ فى ذاتِ الله ، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً .(٢)

(١) الأثر : ٨٤٥ — فى ابن كثير ١ : ١٥٤ ، وفيه « إذا جاء الرجل سألهم عن الشيء ليس فيه . . . » . وفى المخطوطة : « يسألهم ليس فيه » .

(٢) الخبر : ٨٤٦ — نقله ابن كثير ١ : ١٥٤ عن هذا الموضع . وذكره السيوطى ١ : ٦٤ ، ونسبه أيضاً لعبد الرزاق ، وابن أبى شيبة ، والبيهقى فى الأسماء والصفات ، وقلده الشوكانى ١ : ٦٥ . وقد

* * *

قال أبو جعفر : وجميعُ الذى قال — فى تأويل هذه الآية — من ذكرنا قولَه، متقاربُ المعنى. لأنهم وإن اختلفوا فى صفة « البرّ » الذى كان القوم يأمرون به غيرهم، الذين وصفهم الله بما وصفهم به ، فهم متفقون فى أنهم كانوا يأمرون الناس بما لله فيه رضاً من القول أو العمل ، ويخالفون ما أمروهم به من ذلك إلى غيره بأفعالهم .

فالتأويل الذى يدلُّ على صحته ظاهر التلاوة إذاً : أتأمرون الناس بطاعة الله وتتركون أنفسكم تعصيه ؟ فهلاَّ تأمرونها بما تأمرون به الناس من طاعة ربكم ؟ مُعيِّرَهم بذلك ، ومقبِّحاً لهم قبيحَ ما أتوا به .[1]

* * *

ومعنى « نِسْيانهم أنفسَهم » فى هذا الموضع ، نَظيرُ « النسيان » الذى قال جل ثناؤه ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [سورة التوبة : ٦٧] بمعنى : تركوا طاعة الله، فتركهم الله من ثوابه.

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله : « تتلون » ، تدرسون وتقرأون . كما : —

٨٤٧ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك، عن ابن عباس ، « وأنتم تتلُون الكتاب » ،

رواه البيهقى ص : ٢١٠ ، من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، عن أيوب ، به نحوه .

و « مسلم الجرمى » : وقع فى ابن كثير فى هذا الموضع « أسلم » ، وهو خطأ مطبعى . ووقع فيه وفى نسخ الطبرى « الحرمى » ، بالحاء . وقد رجحنا فى ترجمته — فيما مضى : ١٥٤ أنه بالجيم . وذكرنا مصادر ترجمته هناك ، ونزيد هنا أنه ترجمه ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل ٤ / ١ / ١٨٨ ، ووصفه بأنه « من الغزاة » . وشيخه « مخلد بن الحسين » — بفتح الميم واللام بينهما خاء معجمة ساكنة : ثقة معروف ، قال ابن سعد : « كان ثقة فاضلا » وقال أبو داود : « كان أعقل أهل زمانه » . وأبو قلابة : هو عبدالله ابن زيد الجرمى ، أحد الأعلام من ثقات التابعين ، وأرى أن روايته عن أبى الدرداء مرسلة ، فإن أبا الدرداء مات سنة ٣٢ ، وأبو قلابة متأخر الوفاة ، مات سنة ١٠٤ ، وقيل : ١٠٧ .

(١) فى المطبوعة : « ومقبحاً إليهم » .

يقول : تدرسون الكتاب بذلك . ويعنى بـ « الكتاب » ، التوراة .[١]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى : { أَفَلَا تَعْقِلُونَ } (٤٤)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله : « أفلا تعقلون »،[٢] أفلا تفقهون وتفهمُون قبح ما تأتون من معصيتكم ربَّكم التى تأمرون الناس بخِلافها ، وتَنهوْنهم عن رُكوبها وأنتم راكبُوها ، وأنتم تعلمون أن الذى عليكم من حق الله وطاعته، واتّباعِ محمد والإيمان به وبما جاء به ،[٣] مثل الذى على من تأمرونه باتباعه ؟ كما : —

٨٤٨ — حدثنا به محمد بن العلاء قال ، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « أفلا تعقِلون »، يقول : أفلا تفهمون؟ ينهاهم عن هذا الخلُق القبيح .[٤]

* * *

قال أبو جعفر : هذا يدل على صحة ما قلنا ، من أمر أحبار يهود بنى إسرائيل غيرَهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم كانوا يقولون : هو مبعوث إلى غيرنا ! كما ذكر قبل.[٥]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره { وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ }

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « واستعينوا بالصبر » ، استعينوا على الوفاء بعهدى الذى عاهدتمونى فى كتابكم — من طاعتى واتباع أمرى ، وترك ما تَهوَوْنه ١/٢٠٥

(١) الخبر : ٨٤٧ — فى الدر المنثور ١ : ٦٤ ، وتتمته فى الخبر الآتى إلا قوله : « ويعنى بالكتاب التوراة » وأخشى أن تكون من كلام الطبرى .

(٢) فى المخطوطة : «يعنى بذلك أفلا تفقهون » . . . .

(٣) فى المطبوعة : « فى اتباع محمد . . . » .

(٤) الخبر : ٨٤٨ — من تتمة الأثر السالف . وفى المطبوعة : « فنهاهم » .

(٥) انظر ما مضى ص : ١ : ٥٦٧ — ٥٦٨ .

من الرياسة وحبّ الدنيا ، إلى ما تكرهونه من التسليم لأمرى واتباع رسولى محمد صلى الله عليه وسلم — بالصبر عليه والصلاة .

* * *

وقد قيل : إن معنى «الصبر» فى هذا الموضع الصّوم ، و«الصومُ» بعض معانى «الصبر» . وتأويل من تأوّل ذلك عندنا[1] : أن الله تعالى ذكره أمرهم بالصبر على كل ما كرهته نفوسهم من طاعة الله ، وترك معاصيه . وأصل «الصبر» : منعُ النفس محابَّها ، وكفُّها عن هواها ، ولذلك قيل للصابر على المصيبة : «صابرٌ» ، لكفّه نفسه عن الجزع . وقيل لشهر رمضان «شهر الصَّبر» ، لصبر صائميه عن المطاعم والمشارب نهاراً ،[2] وصبرُه إياهُم عن ذلك ،[3] حبسه لهم وكفُّه إياهم عنه ، كما تصبر الرجلَ المسيءَ للقتل فتحبسه عليه حتّى تقتله .[4] ولذلك قيل : «قتل فلانٌ فلاناً صبراً» ، يعنى به : حبسه عليه حتّى قتله ، فالمقتول «مصبور» والقاتلُ «صابر» .

* * *

وأما «الصلاة» ، فقد ذكرنا معناها فيما مضى .[5]

* * *

فإن قال لنا قائل : قد علمنا معنى الأمر بالاستعانة بالصبر على الوفاء بالعهد والمحافظة على الطاعة ، فما معنى الأمر بالاستعانة بالصلاة على طاعة الله وترك معاصيه ، والتعرِّى عن الرياسة وترك الدنيا ؟

قيل : إن الصلاة فيها تلاوة كتابِ الله الداعيةِ آياتُه إلى رفض الدنيا وهجر

---

(١) فى المطبوعة : «. . . بعض معانى الصبر عندنا بل تأويل ذلك عندنا . . .» ، وفى المخطوطة : «. . . بعض معانى الصبر عند تأويل من تأول ذلك عندنا . . .» ، وكأن الصواب ما أثبته .

(٢) فى المطبوعة والمخطوطة : «لصبره صائمه . . .» ، ولكن الكلام لا يستقيم لاختلال الضمائر فى الجملة التالية .

(٣) الضمير فى قوله «وصبره» إلى شهر رمضان .

(٤) فى المخطوطة والمطبوعة : «كما يصبر . . . فيحبسه . . حتّى يقتله» كله بالياء ، والصواب ما أثبته .

(٥) انظر ما مضى : ١ : ٢٤٢ — ٢٤٣ .

نعيمها، المسلية النفوسَ عن زينتها وغرورها، المذكِّرة الآخرةَ وما أعدَّ الله فيها لأهلها ، ففى الاعتبار بها المعونةُ لأهل طاعة الله على الجدّ فيها ، كما روى عن نبيِّنا صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة .

٨٤٩ - حدثنى بذلك إسمعيل بن موسى الفزارى قال ، حدثنا الحسين ابن رتاق الهمدانى ، عن ابن جريج ، عن عكرمة بن عمار ، عن محمد بن عبيد أبى قدامة ، عن عبد العزيز بن اليمان ، عن حذيفة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة .(١)

٨٥٠ - وحدثنى سليمان بن عبد الجبار قال ، حدثنا خلف بن الوليد الأزدى قال ، حدثنا يحيى بن زكريا ، عن عكرمة بن عمار ، عن محمد بن عبد الله الدؤلى ، قال ، قال عبد العزيز أخو حذيفة ، قال حذيفة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه أمر صلَّى .(٢)

---

(١) الحديث : ٨٤٩ - « الحسين بن رتاق الهمدانى » : هكذا ثبت فى المطبوعة . ولم أجد راوياً بهذا الاسم ولا ما يشبهه ، فيما لدى من المراجع ، وفى المخطوطة « الحسين بن زياد الهمدانى » - ولم أجد فى الرواة من يسمى « الحسين بن زياد » إلا اثنين ، لم ينسب واحد منهما همدانياً ، ولا يصلح واحد منهما فى هذا الإسناد : أحدهما : « حسين بن زياد » ، دون وصف آخر ، ترجمه البخارى فى الكبير ١ / ٢ / ٣٨٧ برقم : ٢٨٨١ ، وذكر أنه يروى عن عكرمة ، ويروى عنه جرير بن حازم ، وجرير مات سنة ١٧٥ فهذا قديم جداً ، لا يدركه إسمعيل بن موسى الفزارى المتوفى سنة ٢٤٥ . والثانى « حسين ابن زياد أبو على المروزى » ترجمه البخارى عقب ذاك ، وذكر أنه مات سنة ٢٢٠ . فهذا متأخر عن أن يدرك الرواية عن ابن جريج المتوفى سنة ١٥٠ . وعكرمة بن عمار : هو العجلى اليمامى . وفى المخطوطة « عكرمة عن عمار » . وهو خطأ . والحديث سيأتى عقب هذا بإسناد آخر صحيح .

(٢) الحديث : ٨٥٠ - هو الذى قبله بمعناه : « خلف بن الوليد » : هو أبو الوليد العتكى الجوهرى ، و « العتكى » : نسبة إلى « العتيك » ، بطن من الأزد . وهو من شيوخ أحمد الثقات . يحيى ابن زكريا : هو ابن أبى زائدة . محمد بن عبد الله الدؤلى : هو « محمد بن عبيد أبو قدامة » الذى فى الإسناد السابق . ووقع فى الأصول هنا « محمد بن عبيد بن أبى قدامة » . وهو خطأ . بل « أبو قدامة » كنية « محمد بن عبيد » . وقد حققنا ترجمته فى شرح حديث آخر فى المسند : ٦٥٤٨ ، ورجحنا أن ابن أبى زائدة أخطأ فى اسمه ، فسماه « محمد بن عبد الله » .

والحديث رواه أحمد فى المسند ٥ : ٣٨٨ (حلبى) عن إسمعيل بن عمر ، وخلف بن الوليد ، كلاهما عن يحيى بن زكريا . ورواه أبو داود : ١٣١٩ ، عن محمد بن عيسى ، عن يحيى بن زكريا - بهذا الإسناد . وأشار إليه البخارى فى الكبير ١ / ١ / ١٧٢ ، فى ترجمة « محمد بن عبيد أبى قدامة الحنفى » ،

٨٥١ — وكذلك روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه رَأى أبا هريرة مُنبطِحاً على بطنه فقال له: اشكَنْب دَرْد . قال : نعم . قال: قم فصلّ ، فإن فى الصلاة شفاءً .(١)

قال : «وقال النضر عن عكرمة ، عن محمد بن عبيد أبي قدامة ، سمع عبد العزيز أخا حذيفة ، عن حذيفة : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى . وقال ابن أبي زائدة : عن عكرمة عن محمد ابن عبد الله الدؤلي» . و «النضر» الذى يشير إليه البخارى : هو النضر بن محمد الجريشى اليمامى .

و «عبد العزيز بن اليمان» : هو أخو حذيفة بن اليمان ، كما صرح بنسبه فى الرواية السابقة ، وكما وصف بذلك فى هذه الرواية ، وفى روايتى المسند والبخارى فى الكبير . وأما رواية أبى داود ففيها «عن عبد العزيز ابن أخى حذيفة» . وكذلك فى رواية ابن مندة ، التى أشار إليها الحافظ فى الإصابة ٥ : ١٥٩ . ورجح الحافظ فى ذلك الموضع ، وفى التهذيب ٦ : ٣٦٤ — ٣٦٥ أنه ابن أخى حذيفة ، لا أخوه . ولكن أكثر الرواة ذكروا أنه أخوه ، كما أشرنا ، لم يخالفهم إلا «محمد بن عيسى» شيخ أبى داود — فيما رأيت . فلا أدرى مم هذا الترجيح ؟ بل الذى أراه ترجيح رواية الأكثر ، ومنهم «النضر ابن محمد» ، وكان مكثراً للرواية عن عكرمة بن عمار .

وبذلك جزم ابن أبى حاتم فى ترجمة «عبد العزيز بن اليمان» فى كتاب الجرح والتعديل ٢ / ٢ / ٣٩٩ ، لم يذكر خلافاً ولا قولا آخر .

والحديث ذكره أيضاً ابن كثير ١ : ١٥٧ — ١٥٨ من روايات المسند وأبى داود والطبرى . ثم ذكر نحوه مطولا ، من رواية محمد نصر المروزى فى كتاب الصلاة .

(١) الحديث : ٨٥١ — هكذا ذكره الطبرى معلقاً ، دون إسناد . وقد رواه أحمد فى المسند : ٩٠٥٤ (٢ : ٣٩٠ حلبى) ، عن أسود بن عامر ، عن ذواد أبى المنذر ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن أبى هريرة . ثم رواه مرة أخرى : ٩٢٢٩ (٢ : ٤٠٣ حلبى) ، عن موسى بن داود ، عن ذواد . وكذلك رواه ابن ماجة : ٣٤٥٨ ، بإسنادين عن ذواد .

و «ذواد» : بفتح الذال المعجمة وتشديد الواو وآخره دال مهملة . وضبطه صاحب الخلاصة «ذؤاد» بضم المعجمة وبعدها همزة مفتوحة ، وهو خطأ . وذواد : هو ابن علبة الحارثى ، وكان شيخاً صالحاً صدوقاً ، وضعفه ابن معين ، فقال : «ليس بشىء» . وترجمه البخارى فى الكبير ٢ / ١ / ٢٤١ ، والصغير ، ص : ٢١٤ ، وقال : «يخالف فى بعض حديثه» . وروى هذا الحديث فى الصغير عن ابن الأصبهانى ، عن المحاربى ، عن ليث ، عن مجاهد : «قال لى أبو هريرة : يا فارسى ، شكم درد» ثم قال البخارى : «قال ابن الأصبهانى : ورفعه ذواد ، وليس له أصل ، أبو هريرة لم يكن فارسياً ، إنما مجاهد فارسى» . فهذا تعليل دقيق من ابن الأصبهانى ، ثم من البخارى ، يقضى بضعف إسناد الحديث مرفوعاً .

وقوله فى متن الرواية «اشكنب درد» : كتب عليها فى طبعة بولاق ما نصه : «يعنى : تشتكى بطنك ، بالفارسية . كذا بهامش الأصل» . وكذلك ثبت هذا اللفظ فى المسند ، إلا أن الموضع الأول فيه كتب «ذرد» بنقطة فوق الدال الأولى ، وهو تصحيف . وثبت هذا اللفظ فى رواية البخارى فى التاريخ الصغير ، ص ٢١٤ : «شكم درد» . وفى رواية ابن ماجة «اشكمت درد» . وكتب الأستاذ فؤاد عبد الباقى شارحاً له : «بالفارسية : اشكم ، أى بطن . ودرد ، أى وجع . والتاء للخطاب . والهمزة همزة

فأمر الله جل ثناؤه الذين وصف أمرهم من أحبار بنى إسرائيل ، أن يجعلوا مفزَعهم — فى الوفاء بعهد الله الذى عاهدوه — إلى الاستعانة بالصبر والصلاة ، كما أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بذلك فقال له : ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمدُ ﴿عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [سورة طه : ١٣٠] . فأمره جل ثناؤه فى نوائبه بالفزَع إلى الصبر والصلاة . وقد : —

٨٥٢ — حدثنا محمد بن العلاء ، ويعقوب بن إبراهيم ، قالا : حدثنا ابن علية ، قال : حدثنا عيينة بن عبد الرحمن ، عن أبيه : أنّ ابنَ عباس نُعِيَ إليه أخوه قُثَم ، وهو فى سفر ، فاسترجع . ثم تنحَّى عن الطريق ، فأناخ فصلّى ركعتين أطال فيهما الجلوس ، ثم قام يمشى إلى راحلته وهو يقول : « واستعينوا بالصبْرِ والصلاةِ وإنها لكبيرةٌ إلاّ على الخاشعين » .[1]

* * *

وأما أبو العالية فإنه كان يقول بما : —

٨٥٣ — حدثنى به المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : « واستعينوا بالصبر والصلاة » ، قال يقول : استعينوا

وصل . كذا حققه الدكتور حسين الهمدانى . ومعناه : أتشتكى بطنك ؟ ولكن جاء فى تكملة مجمع بحار الأنوار ، ص ٧ (أشكنب ددم) . وفى رواية بسكون الباء » . وأنا أرى أن النقل الأخير فيه خطأ . لأنى نقلت فى أوراق على المسند قديماً أن صوابها « أشكنب دردم » . وأكبر ظنى الآن أنى نقلت ذلك عن تكملة مجمع بحار الأنوار ، وهو ليس فى متناول يدى حين أكتب هذا .

(١) الخبر : ٨٥٢ — إسناده صحيح . عيينة بن عبد الرحمن : ثقة . وأبوه عبد الرحمن بن جوشن الغطفانى : تابعى ثقة .

والأثر ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١ : ٦٨ ، ونسبه أيضاً لسعيد بن منصور ، وابن المنذر ، والبيهقى فى الشعب .

قثم بن العباس بن عبد المطلب ، أخو عبد الله بن العباس . وأمه أم الفضل . كان يشبه بالنبى صلى الله عليه وسلم ، ولا يصح سماعه عنه ، فإنه كان فى آخر عهد النبى صلى الله عليه فوق ثمان . وخرج مع سعيد بن عثمان زمن معاوية إلى سمرقند ، فاستشهد بها . استرجع : قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

بالصبر والصلاة على مرضاة الله ، واعلموا أنهما من طاعة الله .

* * *

وقال ابن جريج بما : —

٨٥٤ — حدثنا به القاسم قال، حدثنا الحسين قال، حدثنى حجاج قال، قال : ابن جريج فى قوله : « واستعينوا بالصبر والصلاة » ، قال : إنهما مَعوَنتان على رحمة الله .[1]

٨٥٥ — وحدثنى يونس بن عبد الأعلى، قال : أخبرنا ابن وهب قال قال ابن زيد فى قوله: « واستعينوا بالصبر والصلاة »الآية ، قال: قال المشركون : والله يا محمد إنك لتدعونا إلى أمر كبير ! قال : إلى الصلاة والإيمان بالله جل ثناؤه .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (٤٥)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه: « وإنها »، وإن الصلاة . فـ «الهاء والألف» ٢٠٦/١ فى «وإنها» عائدتان على الصلاة . وقد قال بعضهم: إن قوله: « وإنها» بمعنى : إن إجابة محمد صلى الله عليه وسلم - ولم يجر لذلك بلفظ الإجابة ذكر ، فتجعل « الهاء والألف » كناية عنه . وغير جائز ترك الظاهر المفهوم من الكلام ، إلى باطن لا دلالة على صحته.[2]

* * *

ويعنى بقوله: « لكبيرة » ، لشديدة ثقيلة ، كما : —

٨٥٦ — حدثنى يحيى بن أبى طالب قال ، أخبرنا ابن يزيد قال ، أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله: « وإنها لكبيرةٌ إلا عَلى الخاشعين » ، قال: إنها لثقيلة .[3]

---

(١) الأثر : ٨٥٤ — الحسين : هو سنيد بن داود المصيصى . و « سنيد » لقب له ، كما مضى : ١٤٤ .

(٢) الظاهر : هو ما تعرفه العرب من كلامها . والباطن : ما يأتى بالاستنباط من الظاهر على طريق العرب فى بيانها . وانظر ما مضى ١ : ٧٢ تعليق : ٢ .

(٣) الأثر : ٨٥٦ — فى المطبوعة « أخبرنا ابن زيد » ، والصواب « يزيد » من المخطوطة . وهو

* * *

ويعنى بقوله : « إلاّ على الخاشعين » ، إلا على الخاضعين لطاعته . الخائفين سطواته ، المصدقين بوعده ووعيده . كما : —

٨٥٦ — حدثني المثنى بن إبراهيم قال ، حدثنا عبد الله بن صالح قال ، حدثني معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : « إلا على الخاشعين » ، يعني : المصدّقين بما أنزل الله .

٨٥٧ — حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم العسقلاني قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية في قوله : « إلا على الخاشعين »، قال : يعني الخائفين.

٨٥٨ — وحدثني محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا سفيان ، عن جابر ، عن مجاهد : « إلا على الخاشعين »، قال : المؤمنين حقاً .[1]

٨٥٩ — وحدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

٨٦٠ — وحدثني يونس بن عبد الأعلى قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : الخشوع : الخوف والخشية لله ، وقرأ قول الله : ﴿ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ ﴾ [سورة الشورى : ٤٥] ، قال : قد أذلهم الخوف الذى نزل بهم ، وخشعوا له

« يزيد بن هرون » وقد مضى مثل هذا الإسناد على الصواب : ٢٨٤ .

ومن الرواة عن جويبر : « حماد بن زيد » ، ولا يحتمل أن يكون مراداً فى هذا الإسناد ، لأن حماد ابن زيد مات سنة ١٧٩ . فلا يحتمل أن يروى عنه يحيى بن أبى طالب ، لأنه ولد سنة ١٨٢ ، كما فى ترجمته فى تاريخ بغداد للخطيب ١٤ : ٢٢٠ — ٢٢١

(١) الأثر : ٨٥٨ — محمد بن عمرو ، هو : محمد بن عمرو بن العباس ، أبو بكر الباهلى ، وهو من شيوخ الطبرى الثقات . أكثر من الرواية عنه . مات سنة ٢٤٩ . وله ترجمة فى تاريخ بغداد ٣ : ١٢٧ . و « أبو عاصم » هو النبيل ، الضحاك بن مخلد . و « سفيان » : هو الثورى . و « جابر » : هو ابن يزيد الجعفى

وهكذا جاء هذا الإسناد فى هذا الموضع فى المخطوطة . ووقع فى المطبوعة « محمد بن جعفر » بدل « محمد بن عمرو » ، وهو خطأ لا شك فيه .

إنما الشبهة هنا : أن هذا الإسناد « أبو عاصم ، عن سفيان ، عن جابر » — يرويه الطبرى فى أكثر المواضع « عن محمد بن بشار » ، عن أبى عاصم . وأما روايته عن « محمد بن عمرو » ، فإنما هى لإسناد « أبو عاصم ، عن عيسى بن ميمون ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد » . والأمر قريب ، ولعله روى هذا وذاك .

* * *

وأصل « الخشوع » : التواضع والتذلل والاستكانة ، ومنه قول الشاعر [١].

لَمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبيرِ تواضَعَتْ سُورُ المَدِينَةِ والجِبَالُ الخُشَّعُ [٢]

يعنى : والجبال خُشَّع متذللة لعظم المصيبة بفقده .

* * *

فمعنى الآية : واستعينوا، أيها الأحبار من أهل الكتاب ، بحبس أنفسكم على طاعة الله ، وكفِّها عن معاصى الله ، وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر ، المقرِّبةِ من مَراضى الله ، العظيمةِ إقامتُها إلا على المتواضعين لله ، المستكينين لطاعته ، المتذللين من مخافته .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ ﴾

قال أبو جعفر : إن قال لنا قائل : وكيف أخبر الله جل ثناؤه عمّن قد وَصَفه بالخشوع له بالطاعة ، أنه « يظن » أنه ملاقيه ، والظن شكّ ، والشاك فى لقاء الله عندك بالله كافر ؟

قيل له : إن العرب قد تسمى اليقين « ظنًّا » ، والشك « ظنًّا » ، نظيرَ تسميتهم الظُّلمة

---

(١) الشعر لجرير .

(٢) ديوان جرير : ٣٤٥ ، والنقائض : ٩٦٩ ، وقد جاء منسوباً له فى تفسيره (١ : ٧/٢٨٩ : ١٥٧ بولاق) ، وطبقات ابن سعد : ٣ /١/ ٧٩ ، وسيبويه ١ : ٢٥ ، والأضداد لابن الأنبارى : ٢٥٨ ، والخزانة ٢ : ١٦٦ . استشهد به سيبويه على أن تاء التأنيث جاءت للفعل ، لما أضاف « سور » إلى مؤنث وهو « المدينة » ، وهو بعض منها . قال سيبويه : « وربما قالوا فى بعض الكلام : « ذهبت بعض أصابعه » ، وإنما أنث البعض ، لأنه أضافه إلى مؤنث هو منه ، ولو لم يكن منه لم يؤنثه . لأنه لو قال : « ذهبت عبد أمك » لم يحسن . (١ : ٢٥) .

وهذا البيت يعير به الفرزدق بالغدر ويهجوه ، فإن الزبير بن العوام رضى الله عنه حين انصرف يوم الجمل ، عرض له رجل من بنى مجاشع رهط الفرزدق ، فرماه فقتله غيلة . ووصف الجبال بأنها « خشع » . يريد عند موته ، خشعت وطأطأت من هول المصيبة فى حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن قبح ما لقى من غدر بنى مجاشع .

«سُدْفَة» ، والضياء «سُدْفَة» ، والمغيث «صارخاً» ، والمستغيث «صارخاً» ، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تسمى بها الشيء وضده . ومما يدل على أنه يسمى به اليقين ، قولُ دُرَيد بن الصِّمَّة :

فَقُلْتُ لهم ظُنُّوا بِأَلْفَى مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُمُ فى الفَارِسِيِّ المُسَرَّدِ[1]

يعنى بذلك : تيقَّنوا ألفَىْ مدجج تأتيكم . وقول عَميرة بن طارق :

بأن تَغْتَزُوا قَوْمِى وأَقْعُدَ فيكُمُ وأَجْعَلَ مِنِّى الظَّنَّ غيْباً مُرَجَّماً[2]

يعنى : وأجعل منِّى اليقين غيباً مرجَّماً . والشواهد من أشعار العرب وكلامها

(١) الأصمعيات : ٢٣ ، وشرح الحماسة ٢ : ١٥٦ ، ومجاز القرآن لأبى عبيدة : ٤٠ ، وسيأتى غير منسوب فى ٢٥ : ٨٣ ، وغير منسوب فى ١٣ : ٥٨ برواية أخرى : «فظنوا بألفى فارس متلبب» ، وقبل البيت فى رواية الأصمعى :

وقلتُ لِعارضٍ ، وأَصْحابِ عَارِضٍ ورَهْطِ بنى السَّوْداء ، والقومُ شُهَّدِى

عَلاَنِيَةً ظُنُّوا . . . .

ورواية أبى تمام : «نصحت لعارض» . . . «فقلت لهم ظنوا . . . » . وهذا الشعر قاله فى رثاء أخيه عبد الله بن الصمة ، وهو عارض ، المذكور فى شعره . المدجج : الفارس الذى قد تدجج فى شكته ، أى دخل فى سلاحه ، كأنه تغطى به . والسراة جمع سرى : وهم خيار القوم من فرسانهم . والفارسى المسرد : يعنى الدروع الفارسية ، قال عمرو بن امرئ القيس الخزرجى :

إذا مَشَيْنَا فى الفَارِسِيِّ كَمَا يَمْشِى جِمَالٌ مَصَاعِبٌ قُطُفُ

السرد : إدخال حلق الدرع بعضها فى بعض . والمسرد : المحبوك النسج المتداخل الحلق . ينذر أخاه وقومه أنهم سوف يلقون عدواً من ذوى البأس قد استكمل أداة قتاله .

(٢) نقائض جرير والفرزدق : ٥٣ ، ٧٨٥ ، والأضداد لابن الأنبارى . ١٢ . وهو عميرة بن طارق بن ديسق اليربوعى ، قالها فى خبر له مع الحوفزان ، ورواية النقائض : «وأجلس فيكم . . . » ، و «وأجعل علمى ظن غيب مرجما» . وقبل البيت :

فلاَ تَأْمُرَنِّى يا ابنَ أسماء بالتى تَجُرُّ الفتى ذَا الطَّعْمِ أنْ يتكلَّمَا

ذو الطعم : ذو الحزم . وتجر ، من الإجرار : وهو أن يشق لسان الفصيل ، إذا أرادوا فطامه ، لئلا يرضع . يعنى يحول بينه وبين الكلام .

وغزا الأمر واغتزاه : قصده ، ومنه الغزو : وهو السير إلى قتال العدو وانتهابه . والمرجم : الذى لا يوقف على حقيقة أمره ، لأنه يقذف به على غير يقين ، من الرجم : وهو القذف .

هذا ، والبيت ، كما رواه فى النقائض ، ليس بشاهد على أن الظن هو اليقين . ورواية الطبرى هى التى تصلح شاهداً على هذا المعنى

على أنّ «الظنّ» فى معنى اليقين، أكثرُ من أن تحصى، وفيما ذكرنا لمن وُفّق لفهمه ٢٠٧/١ كفايةٌ. ومنه قول الله جل ثناؤه: ﴿ وَرَأَى ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [سورة الكهف : ٥٣] . وبمثل الذى قلنا فى ذلك جاء تفسيرُ المفسرين .

٨٦١ — حدثنى المثنى بن إبراهيم، قال: حدثنا آدم، قال: حدثنا أبو جعفر، عن الربيع، عن أبى العالية فى قوله : « يظنون أنهم مُلاقو ربّهم » قال : إن الظن ههنا يقين .

٨٦٢ — حدثنا محمد بن بشار، قال: حدثنا أبو عاصم، قال: حدثنا سفيان، عن جابر، عن مجاهد قال : كل ظنٍّ فى القرآن يقين ، «إنى ظننتُ»، «وظنّوا» .

٨٦٣ — حدثنى المثنى، قال: حدثنا إسحق، قال : حدثنا أبو داود الحفرى، عن سفيان ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، قال : كل ظنّ فى القرآن فهو عِلْم[1] .

٨٦٤ — حدثنى موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو بن حماد ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى : « الذين يُظنون أنهم مُلاقو ربّهم»، أمّا « يظنون » فيستيقنون .

٨٦٥ — حدثنى القاسم، قال : حدثنا الحسين ، قال : حدثنى حجاج ، قال: قال ابن جريج : « الذين يظنون أنهم مُلاقو ربهم » ، علموا أنهم ملاقو ربهم ، هى كقوله : ﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [سورة الحاقة : ٢٠] يقول : علمت .

٨٦٦ — وحدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال قال ابن زيد فى قوله: « الذين يظنّون أنهم مُلاقو ربّهم»، قال: لأنهم لم يعاينوا، فكان ظنُّهم يقيناً ،

---

(١) الأثر : ٨٦٣ — إسحق : هو ابن راهويه الإمام الحافظ . أبو داود الحفرى — بالحاء المهملة والفاء المفتوحتين — هو : عمر بن سعد بن عبيد . ووقع فى تفسير ابن كثير ١ : ١٥٩ « أبو داود الجبرى » ، وهو تصحيف . وسفيان : هو الثورى .

وليس ظنًّا فى شك ، وقرأ : « إنى ظننتُ أنى مُلاق حسابِيَه » .

* * *

القولُ فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿أَنَّهُمْ مُلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾

قال أبو جعفر : إن قال لنا قائل : وكيف قيل إنهم ملاقو ربّهم ، فأضيف « الملاقون» إلى الرب تبارك وتعالى ، وقد علمتَ أن معناه : الذين يظنون أنهم يَلقَوْن ربهم ؟ وإذْ كان المعنى كذلك ، فن كلام العرب ترك الإضافة وإثبات النون ، وإنما تُسقط النونَ وتضيف ، فى الأسماء المبنية من الأفعال ، إذا كانت بمعنى « فعل » ، فأما إذا كانت بمعنى « يفعل وفاعل » ، فشأنها إثبات النون وترك الإضافة .

قيل : لا تدافع بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب وألسنها ، فى إجازة إضافة الاسم المبنى من « فعل ويفعل » وإسقاط النون ،وهو بمعنى « يفعل وفاعل » ، أعنى بمعنى الاستقبال وحالِ الفعل ولما يَنْقَض . فلاوجه لمسئلة السائل عن ذلك: لم قيلَ ؟ وإنما اختلفَ أهل العربية فى السبب الذى من أجله أضيفَ وأسقطت النون .

فقال نحويّو البصرة، أسقطت النون من «ملاقو ربّهم»، وما أشبه من الأفعال التى فى لفظ الأسماء ، وهى فى معنى « يفعل »، وفى معنى ما لم ينقض ، استثقالا لها وهى مُرادة ،كما قال جل ثناؤه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [سورة آل عمران : ١٨٥ / سورة الأنبياء : ٣٥ / سورة العنكبوت : ٥٧] ، وكما قال ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾ [سورة القمر : ٢٧] ، ولمّا يُرسلها[1] ، وكما قال الشاعر :

---

(١) فى المطبوعة : « ولما يرسلها بعد » .

هلْ أنتَ باعِثُ دِينارٍ لحاجتِنا أوْ عَبْدَ رَبٍّ أخاعَوْنِ بن مِخْرَاقِ؟[1]

فأضاف « باعثاً » إلى « الدينار » ، ولما يبعث ، ونصب « عبد ربّ » . عطفاً على موضع دينار ، لأنه فى موضع نصب وإنْ خُفِض ، وكما قال الآخر[2] : .

الحافِظُو عَوْرَةِ العَشِيرةِ ، لَا يَأْتِيهِمُ مِنْ وَرَائِهِمْ نَطَفُ[3]

بنصب « العورة » وخفضها ، فالخفضُ على الإضافة ، والنصب على حذف النون استثقالا وهى مرادة . وهذا قول نحويى البصرة[4] .

• • •

وأما نحويو الكوفة فإنهم قالوا : جائزٌ فى « ملاقو » الإضافة ، وهو فى معنى « يلقون » ، وإسقاط النون منه ، لأنه فى لفظ الأسماء ، فله فى الإضافة إلى الأسماء حظ الأسماء. وكذلك حكم كل اسم كان له نظيراً . قالوا : وإذا أثبتّ فى شىء من ذلك النون وتركتَ الإضافة ، فإنما تفعل ذلك به ، لأن له معنى « يفعل » ، الذى لم يكن ولم يجب بعد . قالوا : فالإضافة فيه للفظ ، وترك الإضافة للمعنى . ٢٠٨/١

---

(١) سيبويه ١ : ٨٧ ، والخزانة ٣ : ٤٧٦ ، والعينى ٣ : ٥٦٣ . قال صاحب الخزانة : « البيت من أبيات سيبويه التى لم يعرف قائلها . وقال ابن خلف : قيل هو لجابر بن رألان السنبسى ، وسنبس أبو حى من طيء . ونسبه غير خدمة سيبويه إلى جرير ، وإلى تأبط شراً ، وإلى أنه مصنوع ، والله أعلم بالحال ! » . دينار وعبد رب ، رجلان . والشاهد فيه نصب « عبد رب » على موضع « دينار » ، لأن المعنى : هل أنت باعث ديناراً أو عبد رب .

(٢) هو عمرو بن امرئ القيس ، من بنى الحارث بن الخزرج ، وهو جد عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ، جاهلى قديم .

(٣) جمهرة أشعار العرب : ١٢٧ ، سيبويه ١ : ٩٥ ، واللسان (وكف) والخزانة ٢ : ١٨٨ ، ٣٣٧ ، ٣/٤٨٣ : ٤٠٠ ، ٤٧٣ . وهو من قصيدة يقولها لمالك بن العجلان النجارى فى خبر مذكور . والعورة : المكان الذى يخاف منه مأتى العدو . والنطف : العيب والريبة ، يقال : هم أهل الريب والنطف . وهذه رواية سيبويه والطبرى ، وأما رواية غيره فهى : « من ورائنا وكف » ، والوكف : العيب والنقص .

(٤) قال سيبويه ١ : ٩٥ : « لم يحذف النون للإضافة ، ولا ليعاقب الاسم النون ، ولكن حذفوها كما حذفوها من اللذين والذين ، حين طال الكلام ، وكان الاسم الأول منتهاه الاسم الآخر » .

* * *

فتأويل الآية إذاً : واستعينوا على الوفاء بعهدى بالصبّر عليه والصلاة ، وإن الصلاة لكبيرة إلا على الخائفين عقابى ، المتواضعين لأمرى ، الموقنين بلقائى والرجوع إلىّ بعد مماتهم .

وإنما أخبر الله جل ثناؤه أن الصلاة كبيرةٌ إلا على من هذه صفته ، لأن من كان غيرَ مُوقن بَمعادٍ ، ولا مصدّق بمرجع ولا ثواب ولا عقاب ، فالصلاة عنده عناء وضلال ، لأنه لا يرجو بإقامتها إدراكَ نفع ولا دفعَ ضُرّ . وُحقّ لمن كانت هذه الصفةُ صفته أنْ تكون الصلاة عليه كبيرة ، وإقامتها عليه ثقيلة وله فادحة . وإنما خفّت على المؤمنين المصدّقين بلقاء الله ، الراجين عليها جزيل ثوابه ، الخائفين بتضييعها أليم عقابه ، لِـمَا يرجون بإقامتها فى مَعادهم من الوصول إلى ما وعد الله عليها أهلها ، ولما يحذرون بتضييعها ما أوعد مُضيعَها . فأمر الله جل ثناؤه أحبار بنى إسرائيل الذين خاطبهم بهذه الآيات ، أن يكونوا من مُقيميها الراجين ثوابها ، إذا كانوا أهلَ يقين بأنهم إلى الله راجعون ، وإياه فى القيامة مُلاقون .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (٤٦)

قال أبو جعفر : و «الهاء والميم» اللتان فى قوله : «وأنهم» ، من ذكر الخاشعين ، و « الهاء » فى « إليه » ، من ذكر الرب تعالى ذكره فى قوله : « ملاقو ربّهم » .
فتأويل الكلمة ، وإنها لكبيرة إلاّ على الخاشعين الموقنين أنهم إلى ربّهم راجعون .

* * *

ثم اختلف فى تأويل «الرجوع» الذى فى قوله : « وأنهم إليه راجعون» . فقال بعضهم ، بما :—

٨٦٧ — حدثنى به المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم ، قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله : « وأنهم إليه راجعون »، قال : يستيقنون أنهم يرجعون إليه يوم القيامة .

* * *

وقال آخرون : معنى ذلك : أنهم إليه يرجعون بموتهم .

* * *

وأولى التأويلين بالآية ، القول الذى قاله أبو العالية . لأن الله تعالى ذكره قال فى الآية التى قبلها : « كيفَ تكفرونَ بالله وكنتمْ أمواتاً فأحياكمْ ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرجعون» . فأخبر جل ثناؤه أن مرجعهم إليه بعد نَشرهم وإحيائهم من مماتهم ، وذلك لاشك يوم القيامة . فكذلك تأويل قوله : « وأنهم إليه راجعون » .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ يَٰبَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾

قال أبو جعفر : وتأويل ذلك فى هذه الآية ، نظيرُ تأويله فى التى قبلها فى قوله : « اذكروا نعمتى التى أنعمتُ عليكم وأوفوا بعهدى » . وقد ذكرته هنالك[1].

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾

قال أبو جعفر : وهذا أيضاً مما ذكّرهم جل ثناؤه من آلائه ونعمه عندهم . ويعنى بقوله: « وأنى فضلتكم على العالمين »، أنى فضلت أسلافكم، فنسب نِعَمه على آبائهم وأسلافهم، إلى أنها نعم منه عليهم، إذ كانت مآثر الآباء مآثرَ للأبناء،

(١) انظر ١ : ٥٥٥ — ٥٥٩ .

والنعم عند الآباء نعماً عند الأبناء ، لكون الأبناء من الآباء . وأخرج جل ذكره قوله : « وأنى فضلتكم على العالمين » مُخرَج العموم، وهو يريد به خصوصاً ، لأن المعنى : وأنى فضلتكم على عَالَمِ من كنتم بين ظَهرَيه وفى زمانه[1]. كالذى :—

٨٦٨ — حدثنا به محمد بن عبد الأعلى الصنعانى قال، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر — وحدثنا الحسن بن يحيى قال، حدثنا عبدالرزاق قال، أخبرنا معمر — عن قتادة، « وأنى فضلتكم على العالمين»، قال : فضلهم على عالمَ ذلك الزمان .

٨٦٩ — حدثنى المثنى قال، حدثنا آدم قال، حدثنا أبوجعفر، عن الربيع، عن أبى العالية : « وأنّى فضّلتكم على العالمين» قال : بما أعْطوا من الملك والرُسل والكتب ، على عالم مَنْ كان فى ذلك الزمان ، فإنّ لكل زمان عالَماً . ١/٢٠٩

٨٧٠ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قال ، قال مجاهد فى قوله : « وأنى فضّلتكم على العالمين » ، قال : على من هم بين ظهرَانيْه

٨٧١ — وحدثنى محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم قال، حدثنا عيسى، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد قال : على من هم بين ظَهرانيه .

٨٧٢ — وحدثنى يونس بن عبد الأعلى قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، سألت ابن زيد عن قول الله: « وأنّ فضلتكم على العالمين»، قال : عالم أهل ذلك الزمان. وقرأ قول الله ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، [سورة الدخان : ٣٢] قال: هذه لمن أطاعه واتبع أمره، وقد كان فيهم القردةُ، وهم أبغض خلقه إليه، وقال لهذه الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، [سورة آل عمران : ١١٠] قال:

---

(١) انظر ١ : ١٤٣ — ١٤٦ ، ثم ١٥١ — ١٥٢ . يقال لكل ما كان فى وسط شىء ومعظمه : « هو بين ظهرينا وظهرانينا » على تقدير أنه مقيم بين ظهر من ورائه وظهر من أمامه ، فهو مكنوف من جانبيه ، ثم كثر حتى استعمل فى الإقامة بين القوم مطلقاً . ويقال أيضاً : « هو بين أظهرهم مقيم » بهذا المعنى . ويقال أيضاً : « لقيته بين ظهرانى الليل » ، أى بين العشاء والفجر ، وعلى هذا فقس استعمال هذه الكلمة .

هذه لمن أطاع الله ، واتبع أمرَه ، واجتنب محارمه .

* * *

قال أبو جعفر : والدليل على صحة ما قلنا من أن تأويل ذلك على الخصوص الذى وصفنا ما :—

٨٧٣ — حدثنى به يعقوب بن إبراهيم ، قال : حدثنا ابن علية — وحدثنا الحسن بن يحيي ، قال: أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر — جميعاً، عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ألا إنكم وَفَّيْتُم سبعين أمّة — قال يعقوب فى حديثه : أنتم آخرها — وقال الحسن : أنتمُ خيرُها وأكرُمها على الله[1] .

* * *

فقد أنبأ هذا الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنّ بنى إسرائيل لم يكونوا مفضَّلين على أمة محمد عليه السلام ، وأنّ معنى قوله : ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ، [سورة الجاثية : ١٦ ، وقوله : « وأنى فضّلتكم على العالمين » ، على مابيّنا من تأويله .

---

(١) الحديث : ٨٧٣ — بهز ، بفتح الباء وسكون الهاء : هو ابن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيرى . وهو ثقة ، وثقه ابن معين وابن المدينى وغيرهما ، ولا حجة لمن تكلم فيه ، وقد ترجمه البخارى فى الكبير ١ / ٢ / ١٤٢ — ١٤٣ ، وابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل ١ / ١ / ٤٣٠ — ٤٣١ . بل أخرج له البخارى فى الصحيح تعليقاً ، كما ذكر الحافظ فى الإصابة ٦ : ١١٢ ، فى ترجمة جده . أبوه حكيم بن معاوية : تابعى ثقة ، ترجمه البخارى ٢ / ١ / ١٢ ، وابن أبى حاتم ١ / ٢ / ٢٠٧ . وجده معاوية بن حيدة : صحابى ثابت الصحبة ، قال ابن سعد فى الطبقات ٧ / ١ / ٢٢ : « وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسلم وصحبه ، وسأله عن أشياء ، وروى عنه أحاديث » . وترجمه البخارى ٤ / ١ / ٣٢٩ ، وقال : « سمع النبى صلى الله عليه وسلم » .

وهذا الحديث رواه الطبرى هنا بإسنادين : من طريق ابن علية عن بهز ، ومن طريق معمر بن راشد عن بهز . وسيأتى بهذين الإسنادين منفصلين (٤ : ٣٠ بولاق) .

ورواه الترمذى ٤ : ٨٢ — ٨٣ ، من طريق عبد الرزاق ، عن معمر ، عن بهز ، عن أبيه ، عن جده : « أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول ، فى قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) ، قال : أنتم تتمون سبعين أمة ، أنتم خيرها وأكرمها على الله » . ثم قال الترمذى : « هذا حديث حسن . وقد روى غير واحد هذا الحديث عن بهز بن حكيم ، نحو هذا ، ولم يذكروا فيه (كنتم خير أمة أخرجت الناس) » .

وقد أتينا على بيان تأويل قوله : « العالمين » بما فيه الكفاية فى غير هذا الموضع ، فأغنى ذلك عن إعادته[1] .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ -

قال أبو جعفر : وتأويل قوله : « واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً » : واتقوا يوماً لا تجزى فيه نفس عن نفس شيئاً . وجائزٌ أيضاً أن يكون تأويله ، واتقوا يوماً لا تجزيه نفس عن نفس شيئاً ، كما قال الراجز :

قَدْ صَبَّحتْ ، صبَّحَهَا السَّلامُ ، بِكَبِدٍ خَالَطَهَا سَنَامُ
فى سَاعَةٍ يُحَبُّهَا الطَّعَامُ[2]

وهو يعنى : يُحب فيها الطعام . فحذفت « الهاء » الراجعة على اليوم ، إذ فيه اجتزاء

ورواه ابن ماجة : ٤٢٨٨ ، من طريق ابن علية ، عن بهز .
ورواه الإمام أحمد فى المسند (٥ : ٣ حلبى) ، عن يزيد بن هرون ، عن بهز . ورواه (٥ : ٥) ، عن يحيي القطان ، عن بهز .
ورواه الدارى ٢ : ٣١٣ ، عن النضر بن شميل ، عن بهز .
ورواه ابن ماجة أيضاً : ٤٢٨٧ ، من طريق ابن شوذب ، عن بهز .
ثم لم ينفرد به بهز عن أبيه حكيم ، إذ رواه أيضاً سعيد بن إياس الجريرى : فرواه الإمام أحمد (٤ : ٤٤٧) ، عن عفان ، عن حماد بن سلمة ، عن الجريرى ، عن حكيم بن معاوية ، عن أبيه ، بنحوه . ورواه أيضاً مطولا (٥ : ٣) ، عن حسن بن موسى ، عن حماد بن سلمة ، عن الجريرى .
والحديث ذكره ابن كثير ١ : ١٦٠ ، نسبه إلى « المسانيد والسنن » . ثم ذكره مرة أخرى ٢ : ٢١٤ ، عن « مسند الإمام أحمد ، وجامع الترمذى ، وسنن ابن ماجة ، ومستدرك الحاكم » . ثم قال عقبه : « وهو حديث مشهور . وقد حسنه الترمذى » .

(١) انظر ما سلف ١ : ١٤٣ - ١٤٦ .

(٢) الكامل ١ : ٢٢ ، وأمالى ابن الشجرى ١ : ٦ ، ١٨٦ وغيرهما . صبح القوم : سقاهم الصبوح ، وهو ما يشرب صباحاً من لبن أو خمر . يدعو لها بالخير من حسن ما أطعمته على مسغبة كابدها.

ـــ بما ظهر من قوله : « واتقوا يوماً لا تَجزْى نفس » ، الدالّ على المحذوف منه ـــ عما حذف . إذ كان معلوماً معناه .

وقد زعم قوم من أهل العربية أنه لا يجوز أن يكون المحذوف فى هذا الموضع إلا «الهاء» . وقال آخرون لا يجوز أن يكون المحذوف إلا «فيه» . وقد دللنا فيما مضى على جواز حذف كل ما دلّ الظاهر عليه[1] .

* * *

وأما المعنى فى قوله : « واتّقوا يوماً لا تجزى نفسٌ عن نفس شيئاً » ، فإنه تحذير من الله تعالى ذكرُه عبادَه الذين خاطبهم بهذه الآية ـــ عقوبتَهُ أن تحلّ بهم يوم القيامة ، وهو اليوم الذى لا تجزى فيه نفسٌ عن نفس شيئاً ، ولا يَجزى فيه والدٌ عن وَلده ولا مولود هُو جازٍ عن وَالده شيئاً[2] .

* * *

وأما تأويل قوله : « لا تَجزى نفسٌ » ، فإنه يعنى : لا تُغنى كما : ـــ

٨٧٤ ـــ حدثنى به موسى بن هرون ، قال : حدثنا عمرو ، قال : حدثنا أسباط ، عن السدى : « واتقوا يوماً لا تجزى نفس » : أما « تجزى » ، فتغنى .

* * *

وأصل «الجزاء» ـــ فى كلام العرب ـــ : القضاء والتعويض . يقال : «جَزيته قَرْضَه ودَينه أجزيه جَزَاءً» ، بمعنى قضَيْته دَينه . ومن ذلك قيل : « جزى الله فلاناً عَنّى خيراً أو شرًّا» ، بمعنى أثابهَ عنى ، وقضاهُ عَنّى ما لزمنى له بفعله الذى سلف منه إلىّ . وقد قال قوم من أهل العلم بلغة العرب : «يقال أجزيتُ عنه كذا » ١/٢١٠ إذا أعنته عليه ، و «جَزَيت عنَك فلاناً» إذا كافأته .

وقال آخرون منهم : بل «جَزَيت عنك» ، قضيت عنك. و «أجزَيتُ» ، كفيت .

---

(١) انظر ١ : ١٣٩ ـــ ١٤١ ، ١٧٩ ، وانظر لسان العرب (جزى) .

(٢) تضمين من آية سورة لقمان : ٣٣ .

وقال آخرون منهم: بل هما بمعنى واحد، يقال: «جزت عنك شاةٌ وأجزَتْ، وَجزى عنك درْهمٌ وأجزَى ، ولا تَجزى عنك شاةٌ ولا تُجزى»، بمعنى واحد . إلا أنهم ذكروا أنّ « جزَتعنك ، ولا تَجزى عنك » من لغة أهل الحجاز ، وأنّ «أجزأ وتُجزئ » من لغة غيرهم . وزعموا أن تميماً خاصّة من بين قبائل العرب تقول : «أَجزأتْ عنك شاة ، وهي تُجزئ عنك » .

وزعم آخرون أن « جَزى » بلا همز ، قضى . « وأجزأ » بالهمز ، كافأ[1] .

* * *

فمعنى الكلام إذاً: واتقوا يَوْماً لا تقضي نفس عن نفس شيأ ولا تُغني عنها غِنًى.

* * *

فإن قال لنا قائل: وما معنى : لاتقضي نفسٌ عن نفس ولا تُغني عنها غِنًى؟

قيل: هو أنّ أحدنا اليوم ربّما قضى عن ولده أو والده أوْ ذي الصداقة والقرابة — دَيْنه . وأما في الآخرة فإنه — فيما أتتنا به الأخبار عنها — يسرُّ الرجلَ أن يَبرُدَ لهُ على وَلده أو والده حَقٌّ[2] . وذلك أن قضاء الحقوق في القيامة من الحسنات والسيّآت ، كما :

٨٧٥ — حدثنا أبو كريب ونصر بن عبد الرحمن الأزديّ قالا ، حدثنا المحاربي، عن أبي خالد الدالانيّ يزيد بن عبد الرحمن ، عن زيد بن أبي أنيسة ، عن سعيد ابن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رَحم الله عبدًا كانت عنده لأخيه مَظلمة في عِرْض— قال أبو كريب في حديثه :أو مال، أو جاهٍ — فاستحلّه قبل أن يُؤخذ منه، وليس ثَمّ دينارٌ ولا درْهمٌ؛ فإنْ كانتْ له حَسناتٌ أخذوا من حَسناته ، وإن لم تَكنْ له حسناتٌ حَملوا عليه من سيّآتهم[3] .

(١) انظر ما جاء في ذلك في لسان العرب (جزى) ، والذي جاء به الطبري أتم وأبين .

(٢) برد عليه حق : وجب ولزم . وبرد لي عليه كذا وكذا : أي ثبت . ويقال : لي عليه ألف بارد ، أي ثابت .

(٣) الحديث : ٨٧٥ — هذا إسناد صحيح . نصر بن عبد الرحمن الأزدي : سبق في : ٤٢٣ ،

٨٧٦ — حدثنا أبو عثمان المقدمى قال، حدثنا الفَرْوِىّ، قال حدثنا مالك، عن المقبرى، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى صلى الله عليه وسلم، بنحوه[١].

٨٧٧ — حدثنا خلاد بن أسلم قال، حدثنا أبو همام الأهوازى قال، أخبرنا عبد الله بن سعيد، عن سعيد، عن أبى هريرة، عن النبى صلى الله عليه وسلم، بنحوه[٢].

وأثبت فى الشرح هناك « التاجى » ، وهو سهو ، صوابه « الناجى » بالنون . و « الأزدى » بالزاى ، وفى المطبوعة هنا « الأودى » بالواو ، وهو خطأ . المحاربى : هو عبد الرحمن بن محمد ، سبق فى : ٢٢١ . أبو خالد الدالانى ، يزيد بن عبد الرحمن : تكلموا فيه ، والحق أنه ثقة ، وثقه أبو حاتم وغيره ، وترجمه البخارى فى الكبير ٤ / ٢ / ٣٤٦ — ٣٤٧ ، وابن أبى حاتم ٤ / ٢ / ٢٧٧ ، فلم يذكرا فيه جرحاً . وهو مترجم فى التهذيب فى الكنى ، لخلاف فى اسم أبيه ، ولكن رجح الترمذى والطبرى ما ذكرنا ، وكذلك رجح البخارى وابن أبى حاتم . « الدالانى » فى المطبوعة هنا « الدولابى » ، وهو خطأ ، صححناه من المخطوطة .

والحديث رواه الترمذى ٣ : ٢٩٢ ، عن هناد ، ونصر بن عبد الرحمن ، كلاهما عن المحاربى ، بهذا الإسناد . ثم قال : « هذا حديث حسن صحيح . وقد روى مالك بن انس ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه سلم ، نحوه » .

وقوله أثناء الحديث « قال أبو كريب » ، فى المطبوعة « قال أبو بكر » ، وهو خطأ واضح ، صحته من المخطوطة .

(١) الحديث : ٨٧٦ — هو الحديث السابق ، بمعناه ، ولكن من رواية مالك . وهى الرواية التى نقلنا إشارة الترمذى إليها .

أبو عثمان المقدمى — بضم الميم وفتح القاف وتشديد الدال المهملة المفتوحة : وهو أحمد بن محمد بن أبى بكر ، نسب إلى « مقدم » أحد أجداده . وهو ثقة ، ترجمه ابن أبى حاتم ١ / ١ / ٧٣ ، وقال : « سمعت منه بمكة ، وهو صدوق » ، وترجمه السمعانى فى الأنساب ، فى الورقة : ٥٣٩ ، والخطيب فى تاريخ بغداد ٤ : ٣٩٨ — ٣٩٩ ، مات سنة ٢٦٤ . الفروى : بفتح الفاء وسكون الراء ، نسبة إلى أحد أجداده ، وفى المطبوعة بالقاف بدل الفاء ، وهو تصحيف . وهو : إسحق بن محمد بن أبى فروة ، أحد الرواة عن مالك ، وأحد شيوخ البخارى ، وهو ثقة ، تكلم فيه بعضهم بغير حجة . وقد رجحنا توثيقه فى شرح المسند : ٧٤٢٥ .

والحديث من طريق مالك : رواه البخارى ١١ : ٣٤٣ — ٣٤٤ (فتح البارى) ، عن إسمعيل — وهو ابن أبى أويس ، ابن أخت مالك ونسيبه — عن مالك . ورواه أحمد فى المسند : ٩٦١٣ (٢ : ٤٣٥ حلبى) ، من طريق مالك وابن أبى ذئب ، كلاهما عن المقبرى . ثم رواه أيضاً : ١٠٥٨٠ (٢ : ٥٠٦) ، من طريق ابن أبى ذئب . ورواه البخارى أيضاً ٥ : ٧٣ ، من طريق ابن أبى ذئب . وأوله فى هذه الروايات : « من كانت عنده مظلمة . . . » ، فذكر نحوه ، بمعناه .

(٢) الحديث : ٨٧٧ — هو الحديث السابق ، بنحوه ، من طريق أخرى . أبو همام الأهوازى : هو محمد بن الزبرقان ، وهو ثقة ، وترجمه البخارى فى الكبير ١ / ١ / ٨٧ ، وقال : « معروف الحديث » ، ابن أبى حاتم ٣ / ٢ / ٢٦٠ ، وأخرج له الشيخان فى الصحيحين .

٨٧٨ — حدثني موسى بن سهل الرملي قال ، حدثنا نعيم بن حماد قال ، حدثنا عبد العزيز الدراوردي ، عن عمرو بن أبي عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يموتَنّ أحدُكم وعليه دين، فإنه ليس هُناك دينارٌ ولا درهم ، إنما يَقتسمون هنالك الحسنات والسيآت . وأشارَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده يميناً وشمالاً"(١) .

٨٧٩ — وحدثني محمد بن إسحق قال ، حدثنا سلم بن قادم، قال حدثنا أبو معاوية هاشم بن عيسى ، قال أخبرني الحارث بن مُسلم ، عن الزهريّ ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بنحو حديث أبي هريرة(٢) .

• • •

قال أبو جعفر : فذلك معنى قوله جل ثناؤه : «لا تجزى نفس عن نفس شيئاً».

عبد الله بن سعيد : أنا أرجح أنه « عبد الله بن سعيد بن أبي هند » ، وهو ثقة . وبعيد أن يكون « عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبرى » ، إذ يأباه سياق الإسناد ، لو كان إياه لكان « عبد الله بن سعيد عن أبيه » . أما وهو « عبد الله بن سعيد عن سعيد » — فالظاهر أنه غير ابن سعيد المقبرى . والحديث صحيح بكل حال ، بالأسانيد السابقة .

(١) الحديث : ٨٧٨ — هذا إسناد صحيح متصل عن ابن عباس ، ولم أجده في مسند الإمام أحمد ، ولا في الكتب الستة ، ولا في مجمع الزوائد ، ولا أشار إليه الترمذى في قوله « وفي الباب » . فهو فائدة زائدة ، يستفاد من رواية أبي جعفر رحمه الله .

(٢) الحديث : ٨٧٩ — هذا إسناد فيه إشكال لم أستطع تحقيقه .

أما « سلم بن قادم » : فإنه « سلم » بفتح السين وسكون اللام . وفي المطبوعة هنا « سالم » بالألف بعد السين ، وهو خطأ . وسلم هذا : بغدادى ثقة ، يروى عن سفيان بن عيينة ، وبقية بن الوليد ، وغيرهما . ترجمه ابن أبي حاتم ٢ / ١ / ٢٦٨ ، والخطيب في تاريخ بغداد ٩ : ١٤٥ — ١٤٦ . وله ترجمة موجزة في لسان الميزان ٣ : ٦٥ .

وأبو معاوية هاشم بن عيسى : هو هاشم بن أبي هريرة الحمصى ، اشتهر بالانتساب إلى كنية أبيه ، أعني « هاشم بن أبي هريرة » . ترجمه ابن أبي حاتم ٤ / ٢ / ١٠٥ ، ولم يذكر فيه جرحاً . وله ترجمة غير محررة في لسان الميزان ٦ : ١٨٤ ، ذكر فيها اسم الراوى عنه « مسلم بن قادم » ، وهو تحريف .

وأما الإشكال في الإسناد ، ففي « الحارث بن مسلم » ، الراوى هنا عن الزهرى . فما أدرى من ذا ؟ ولا ما صحته ؟ ولعل فيه تحريفاً لم أستطع إدراكه . ثم لم أجد هذا الحديث من حديث أنس قط ، بعد طول البحث والتتبع . وهناك في المستدرك للحاكم ٤ : ٥٧٦ ، حديث آخر لأنس ، من وجه آخر ، فيه بعض هذا المعنى . إسناده ضعيف .

يعنى : أنها لا تقضى عنها شيئاً لزمها لغيرها ، لأن القضاءَ هنالك من الحسنات والسيآت على ما وصفنا . وكيف يقضى عن غيره ما لزمه ، مَنْ كان يسرّه أن يثبُتَ له على وَلده أو والده حق ، فيؤخذَ منه ولا يُتجافى له عنه ؟ [١]

* * *

وقد زعم بعض نحويى البصرة أن معنى قوله : « لا تجزى نفسٌ عن نفس شيئاً » : لا تَجزى منها أن تكون مكانها .

وهذا قولٌ يشهد ظاهرُ القرآن على فساده[٢]. وذلك أنه غيرُ معقول فى كلام العرب أن يقول القائل : « ما أغنيت عنى شيئاً » ، بمعنى ما أغنيت منّى أن تكون مكانى . بل إذا أرادوا الخبر عن شىء أنه لا يَجزى من شىء قالوا : « لا يجزى هذا من هذا » ، ولا يستجيزون أن يقولوا : « لا يجزى هذا من هذا شيئاً » . فلو كان تأويل قوله : « لا تجزى نفسٌ عَنْ نفس شيئاً » ما قاله من حكينا قوله ، لقال : واتقوا يوماً لا تجزى نفسٌ عن نفس ، كما يقال : لا تجزى نَفسٌ مِنْ نفس ، ولم يقل : « لا تجزى نفسٌ عن نفس شيئاً » . وفى صحة التنزيل بقوله : « لا تجزى نفس عن نفس شيئاً » ، أوضح الدلالة على صحة ما قلنا ، وفسادِ قول من ذكرنا قوله فى ذلك[٣] .

١/٢١١

* * *

القول فى تأويل قوله عز وجل ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾

قال أبو جعفر : و« الشفاعة » مصدر من قول الرجل : « شَفع لى فلانٌ إلى فلان شَفاعة »[٤] ، وهو طلبه إليه فى قضاء حاجته . وإنما قيل للشفيع « شَفيعٌ وشافع » ، لأنه

---

(١) فى المطبوعة : « فيأخذه منه » ، والذى فى المخطوطة أعرب . تجافى له عن الشىء : أعرض عنه ولم يلازمه بطلبه ، وتجاوز له عنه .

(٢) انظر ما مضى فى معنى « ظاهر » ١ : ٧٢ ، تعليق : ٢ ، وهذا الجزء ٢ : ١٥ .

(٣) هذا من جيد البيان عن معانى اللغة ، وهو منهج من النظر سبق به الطبرى كل من تكلم فى الفصل بين معانى الكلام العربى .

(٤) فى المخطوطة : « شفع لى فلان شفاعة » بالحذف .

ثنّي المستشفعَ به فصار به شَفعاً(١)، فكان ذو الحاجة — قبل استشفاعه به في حاجته — فَرداً، فصار صاحبُه له فيها شافعاً، وطلبُه فيه وفي حاجته شَفاعة. ولذلك سُمي الشفيعُ في الدار وفي الأرض «شفيعاً»، لمصير البائع به شفعاً(٢).

* * *

فتأويل الآية إذاً: واتقوا يوماً لا تقضي نفس عن نفس حقًّا لزمها لله جل ثناؤه ولا لغيره، ولا يقبل الله منها شفاعةَ شافع، فيترك لها ما لزمها من حق.

وقيل: إن الله عز وجل خاطب أهل هذه الآية بما خاطبهم به فيها، لأنهم كانوا من يهود بني إسرائيل، وكانوا يقولون: نحنُ أبناء الله وأحباؤه وأولاد أنبيائه، وسيشفع لنا عنده آباؤنا. فأخبرهم الله جلّ وعز أنّ نفساً لا تجزي عن نفس شيئاً في القيامة، ولا يُقبل منها شفاعةُ أحد فيها، حتى يُستوفَى لكل ذي حق منها حقه. كما :—

٨٨٠ — حدثني عباس ابن أبي طالب قال، حدثنا حجاج بن نصير، عن شعبة، عن العوام بن مراجم — رجل من قيس بن ثعلبة —، عن أبي عثمان النهدي، عن عثمان بن عفان: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الجمَّاء لتقتصُّ من القرناء يوم القيامة، كما قال الله عز وجل: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [سورة الأنبياء : ٤٧](٣)

---

(١) في المطبوعة: «المستشفع له»، وهو خطأ، كما يدل عليه تمام الكلام.

(٢) قال ابن قتيبة في تفسير «الشفعة»: «كان الرجل في الجاهلية، إذا أراد بيع منزل، أتاه رجل فشفع إليه فيما باع، فشفعه وجعله أولى بالمبيع ممن بعد سببه. فسميت شفعة، وسمى طالبها شفيعاً». والشفعة في الدار والأرض: القضاء بها لصاحبها (اللسان: شفع).

(٣) الحديث: ٨٨٠ — عباس بن أبي طالب: هو عباس بن جعفر بن الزبرقان البغدادي، وهو ثقة، مترجم في التهذيب، ترجمه ابن أبي حاتم ٣ / ١ / ٢١٥، والخطيب في تاريخ بغداد ١٢: ١٤١ — ١٤٢.

«العوام بن مراجم»: بالراء والجيم، ثبت في الأصول «مزاحم» بالزاي والحاء، وهو تصحيف.

والحديث ضعيف الإسناد، من أجل حجاج بن نصير الفساطيطي. وقد رواه عبد الله بن أحمد، في الزوائد على المسند: ٥٢٠، عن عباس بن محمد وأبي يحيى البزار، كلاهما عن حجاج بن نصير. وقد فصلنا القول في ضعفه هناك

فأيسهم جل ثناؤه مما كانوا أطمعوا فيه أنفسَهم ، من النجاة من عذاب الله — مع تكذيبهم بما عرفوا من الحق، وخلافِهم أمرَ الله فى اتباع محمدٍ صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به من عنده — بشفاعة آبائهم وغيرهم من الناس كلهم ؛ وأخبرهم أنه غيرُ نافعهم عنده إلا التوبة إليه من كفرهم، والإنابة من ضلالهم. وجَعل ما سنّ فيهم من ذلك إماماً لكل من كان على مِثل مِنهاجهم، لئلا يطمع ذو إلحاد فى رحمته[1].

وهذه الآية ، وإن كان مَخرجها عاماً فى التلاوة ، فإنّ المرادَ بها خاصٌّ فى التأويل ، لتظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمّتى » وأنه قال : « ليس من نَبىٍّ إلا وقد أعطى دَعْوةً ، وإنّى اختبأتُ دَعوتى شفاعةً لأمّتى ، وهى نائلةٌ إن شاء اللهُ منهم من لا يشرك بالله شيئاً »[2]. فقد تبين بذلك أن الله جل ثناؤه قد يَصفح لعباده المؤمنين — بشفاعة نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم لهم — عن كثير من عُقوبة إجرامهم بينهم وبينه ، وأن قولَه : « ولا يُقبل منها شفاعة » ، إنما هى لمن مات على كفره غيرَ تائب إلى الله عز وجل . وليس هذا من مواضع الإطالة فى القول فى الشفاعة والوعد والوعيد ، فنستقصى الحِجاجَ فى ذلك . وسنأتى على ما فيه الكفاية فى مواضعه إن شاء الله .

* * *

وأما معناه فصحيح ثابت ، من حديث أبى هريرة ، رواه أحمد فى المسند : ٧٢٠٣ . ورواه مسلم ، والترمذى ، وصححه .

« الجماء » : لا قرن لها . و « القرناء » : ذات القرن .

(١) فى المطبوعة : « فى رحمة الله » ، وليست بجيدة .

(٢) حديث : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » : هكذا ذكره الطبرى دون إسناد . وهو حديث صحيح ، ذكره السيوطى فى الجامع الصغير ، ونسبه لأحمد ، وأبى داود ، والترمذى ، وابن حبان ، والحاكم — عن أنس . والترمذى ، وابن ماجة ، وابن حبان ، والحاكم — عن جابر . انظر شرح المناوى الكبير ، رقم ٤٨٩٢ (ج ٤ ص ١٦٣) .

وحديث « ليس من نبى » إلخ : كذلك جاء به الطبرى دون إسناد . ومعناه ثابت صحيح ، من حديث أنس بن مالك ، رواه البخارى ، ومسلم . انظر الترغيب والترهيب ٤ : ٢١٣ .

(٣) فى المطبوعة : « إجرامهم بينه وبينهم » ، والذى فى المخطوطة هو الصواب الجيد .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾

قال أبو جعفر : و«العَدل» — فى كلام العرب ، بفتح العين — الفِدْية ، كما :—

٨٨١ — حدثنا به المثنى بن إبراهيم ، قال : حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية : « ولا يؤخذ منها عدل » ، قال : يعنى فداء .

٨٨٢ — حدثنى موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حمّاد قال ، حدثنا أسباط بن نصر ، عن السدى : « ولا يُؤخذ منها عَدلٌ » ، أمّا عَدلٌ : فيعدلها ، من العدْل : يقول لو جاءت بملء الأرض ذَهباً تفتدى به مَا تُقبّل منها .

٨٨٣ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبدالرزاق ، أخبرنا مَعمر ، عن قتادة ، فى قوله : «ولا يؤخذ منها عَدل » ، قال : لو جاءت بكل شيء لم يقبل منها . ١/٢١٢

٨٨٤ — حدثنا القاسم بن الحسن قال ، حدثنا حسين ، قال حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قال ، قال مجاهد : قال ابن عباس : «ولا يؤخذ منها عدل» ، قال : بَدَل ، والبدل : الفدية .

٨٨٥ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد : « ولا يؤخذ منها عدل» ، قال : لو أن لها ملء الأرض ذهباً لم يقبل منها فداء . قال : ولو جاءت بكل شيء لم يقبل منها .

٨٨٦ — حدثنى نجيح بن إبراهيم قال ، حدثنا على بن حكيم قال ، حدثنا حميد بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عمرو بن قيس الملائى ، عن رجل من بنى أمية — من أهل الشام أحسن عليه الثناء — قال : قيل يا رسول الله : ما العدل ؟ قال : العدلُ الفديةُ[1] .

---

(١) الحديث : ٨٨٦ — نجيح بن إبرهيم : لم أجد فى كل المراجع التى بين يدى ، غير ترجمة « نجيح بن إبرهيم بن محمد الكرمانى » ، فى لسان الميزان ٦ : ١٤٩ ، وأنه كوفى ثقة ، يروى عن أبى نعيم فهو من طبقة شيوخ الطبرى . فالراجح أنه هو ، على بن حكيم — بفتح الحاء — هو الأودى الكوفى ، وهو

وإنما قيل للفدية من الشيء والبدَل منه : « عدلٌ » ، لمعادلته إياه وهو من غير جنسه ، ومَصيره له مثلاً ، من وَجه الجزاء ، لا من وجه المشابَهة في الصورة والخلقة ، كما قال جل ثناؤه : ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ [سورة الأنعام : ٧٠] ، بمعنى : وإن تَفد كلّ فدية لا يؤخذ منها[1] .

يقال منه : « هذا عَدْله وعَديله » . وأما « العِدل » — بكسر العين — فهو مثل الحمل المحمول على الظهر . يقال من ذلك : « عندى غِلام عِدْل غلامك ، وشاة عِدْل شاتك » — بكسر العين — إذا كان غلامٌ يعدِلُ غلاماً ، وشاة تعدل شاة[2] . وكذلك ذلك في كل مِثل للشيء من جنسه . فإذا أريد أنّ عنده قيمتَه من غير جنسه ، نُصبت العين ، فقيل : « عِندى عَدل شاتِكَ من الدراهم » . وقد ذكر عن بعض العرب أنه يكسر العين من « العدل » الذى هو بمعنى الفِدية ، لمعادلة ما عادَله من جهة الجزاء ، وذلك لتقارب معنى العَدل والعِدْل عندهم . فأما واحد « الأعدال » ، فلم يسمع فيه إلا « عِدل » بكسر العين[3] .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ (٤٨)

وتأويل قوله : « ولاهُم يُنصرون » ، يعنى أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر ، كما لا يَشفعُ لهم شافع ، ولا يُقبل منهم عَدْلٌ ولا فدية . بَطلت هنالك المُحاباة ،

ثقة من شيوخ البخارى ومسلم . حميد بن عبد الرحمن بن حميد الرؤاسى ، وأبوه : ثقتان . عمرو بن قيس الملائى — بضم الميم وتخفيف اللام — الكوفى : ثقة من أتباع التابعين . وقد روى هذا الحديث مرفوعاً ، عن رجل أبهم اسمه وأثنى عليه ، والراجح أنه تابعى . فيكون الإسناد مرسلا أو منقطعاً ، فهو ضعيف . ولم أجده عن غير الطبرى ، نقله عنه ابن كثير ١ : ١٦١ ، والسيوطى ١ : ٦٨ .

(١) الجملة فى تفسير الآية ، ساقط من المخطوطة .

(٢) وهذه الجملة فى المخطوطة جاءت هكذا : « يقال من ذلك : عندى غلام عدل غلاماً ، وشاة عدل شاة » ، واكتفى بهذا القدر منها ، مع الخطأ البين فيها .

(٣) وهذا أيضاً بيان جيد ، قلما تصيبه فى كتاب من كتب اللغة .

واضمحلت الرُّشَى والشفاعات ، وارتفع بين القوم التعاوُن والتناصر[1] ، وصار الُحكم إلى العَدل الجبار الذى لا ينفع لديه الشُّفعاء والنُّصراء ، فيجزى بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها ، وذلك نظير قوله جل ثناؤه : ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [سورة الصافات : ٢٤ - ٢٦]

وكان ابن عباس يقول فى معنى « لا تناصرون » ، ما :-

٨٨٧ - حدثت به عن المنجاب قال، حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « ما لكم لا تناصرون » ، ما لكم لا تمانَعون منا ؟ هيهات ليس ذلك لكم اليومَ ![2]

* * *

وقد قال بعضهم فى معنى قوله : «ولا هُمْ يُنصرون» ، وليس لهم من الله يومئذ نصيرٌ ينتصر لهم من الله إذا عاقبهم . وقد قيل : « ولا هم ينصرون » ، بالطلب فيهم والشفاعة والفدية .

* * *

قال أبو جعفر : والقول الأول أولى بتأويل الآية ، لما وصفنا من أن الله جل ثناؤه إنما أعلم المخاطَبين بهذه الآية، أنّ يوم القيامة يومٌ لا فديةَ - لمن استحق من خَلقه عقوبته - ولا شفاعة فيه ، ولا ناصر له . وذلك أنّ ذلك قد كان لهم فى الدنيا ، فأخبر أنّ ذلك يومَ القيامة معدومٌ لا سبيل لهم إليه .

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾

أما تأويل قوله : « وإذ نجيّناكم »، فإنه عطف على قوله : « يا بنى إسرائيلَ اذكرُوا نِعْمتى » . فكأنه قال : اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، واذكروا

(١) فى المطبوعة : « وارتفع من القوم » ، وهو خطأ . وارتفع هنا : بمعنى ذهب وانقضى ، مجاز من الارتفاع ، وهو العلو .

(٢) الأثر : ٨٨٧ - لم يذكره فى تفسير الآية من سورة الصافات ، انظر (٢٣ : ٣٢ بولاق)

إنعامنا عليكم — إذ نجيناكم من آل فرعون — بإنجائناكم منهم [١] .

* * *

وأما « آل فرعون » ، فإنهم أهلُ دينه وقومُه وأشياعُه .

وأصل « آل » أهل ، أبدلت الهاء همزة ، كما قالوا « ماءٌ » [٢] فأبدلوا الهاء همزة ، فإذا صغّروه قالوا : « مُوَيْهٌ » فردوا الهاء فى التصغير . وأخرجوه على أصله . وكذلك إذا صغّروا « آل » ، قالوا « أُهَيْل » . وقد حكى سماعاً من العرب فى تصغير « آل » « أويل » [٣] . وقد قيل : « فلان من آل النساء » [٤] ، يراد به أنه منهن خلق . ويقال ذلك أيضاً بمعنى أنه يريدُهنّ ويهواهنّ ، كما قال الشاعر .

٢١٣/١

فَإِنَّكَ مِنْ آلِ النِّسَاء ، وَإِنَّمَا يَكُنَّ لِأَدْنَى؛ لَا وِصَالَ لِغَائِبِ [٥]

وأحسن أماكن « آل » أن يُنطق به مع الأسماء المشهورة ، مثلُ قولهم : آل النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وآل على ، وآل عباس ، وآلُ عَقيل . وغيرُ مستحسن استعمالُه مع المجهول وفى أسماء الأرَضين وما أشبه ذلك . غيرُ حسن عند أهل العلم بلسان العرب أن يقال : رأيتُ آلَ الرجل ورآنى آل المرأة — ولا — : رأيتُ آل البصرة وآل الكوفة . وقد ذُكر عن بعض العرب سَماعاً أنها تقول : « رأيتُ آل مكة ، وآل المدينة » . وليس ذلك فى كلامهم بالفاشى المستعمل [٦] .

* * *

(١) فى المطبوعة : « بإنجائنا لكم منهم » ، غيروه ليستقيم وما ألفوه من دارج الكلام .

(٢) فى المطبوعة : « كما قالوا : ماه » ، وهو خطأ بين .

(٣) انظر مادة (أهل) و (أول) فى لسان العرب .

(٤) فى المطبوعة : « وقد يقال : فلان . . . » .

(٥) لم أجد البيت ولم أعرف قائله ، وقوله : « يكن لأدنى » ، يعنى للدانى القريب الحاضر ، يصلن حباله بالمودة ، أما الغائب فقد تقطعت حباله . وتلك شيمتهن ، أستغفر الله بل شيمة أبناء أبينا آدم .

(٦) فى المطبوعة : « بالمستعمل الفاشى » .

وأما « فرعون » فإنه يقال إنه اسمٌ كانت مُلوك العمالِقة بمصر تسمَّى به ، كما كانت مُلوك الروم يسمَّى بعضهم « قيصر »، وبعضهم « هِرَقْل »، وكما كانت ملوك فارس تسمَّى « الأكاسرة » واحدهم « كسرى » ، وملوك اليمن تسمَّى « التبابعة »، واحدهم « تُبَّع » .

وأما « فرعونُ موسى » الذى أخبر الله تعالى عَنْ بنى إسرائيل أنه نجَّاهم منه، فإنه يقال إن اسمه « الوَليد بن مُصْعب بن الرَّيَّان »، وكذلك ذَكر محمد بن إسحق أنه بلغه عن اسمه .

٨٨٨ — حدثنا بذلك محمد بن حميد قال، حدثنا سلمة، عن ابن إسحق: أن اسمه الوليد بن مُصعب بن الرَّيَّان[1].

* * *

وإنما جاز أن يقال : « وإذ نجيناكم من آل فرعون » ، والخطابُ به لمن لم يدرك فرعونَ ولا المنجَّين منه ، لأن المخاطبين بذلك كانوا أبناءَ من نَجَّاهم من فرعون وقومه ، فأضاف مَا كان من نعمه على آبائهم إليهم ، وكذلك ما كانَ من كُفران آبائهم على وجه الإضافة ، كما يقول القائل لآخر : « فعلنا بكم كذا وفعلنا بكم كذا ، وقتلناكم وسبيناكم » ، والمخبِر إما أن يكون يعنى قومه وعشيرته بذلك ، أو أهل بلده ووطنه — كانَ المقولُ له ذلك أدركَ ما فُعِل بهم من ذلك أو لم يدركه ، كما قال الأخطل يُهاجى جَرير بن عَطيَّةَ :

وَلَقَدْ سَمَا لَكُمُ الهُذَيْلُ فَنَالَكُمْ ... بِإِرَابَ ، حَيْثُ يُقَسِّمُ الأَنْفَالاَ[2]

---

(١) انظر تاريخ الطبرى ١ : ١٩٩ .

(٢) ديوانه : ٤٨ ، ونقائض جرير والأخطل : ٧٧ — ٧٨ . قال الطبرى فيما مضى ١ : ٣٦٦ : « سما فلان لفلان : إذا أشرف عليه وقصد نحوه عالياً عليه » . والهذيل ، هو الهذيل بن هبيرة التغلبى غزا بنى يربوع بإراب (وهو ماء لبنى رياح بن يربوع) فقتل منهم قتلا ذريعاً .وأصاب نعماً كثيراً ، وسبى سبياً كثيراً ، منهم « الخطفى » جد جرير ، فسمى الهذيل « مجدعاً » ، وصارت بنو تميم تفزع أولادها

فِي فَيْلَقٍ ، يَدْعُو الأَرَاقِمَ، لَمْ تَكُنْ فُرْسَانُهُ عُزْلاً وَلَا أَكْفَالاَ[١]

ولم يلحق جريرٌ هذيلا ولا أدركه ، ولا أدرك إرابَ ولا شهده[٢] . ولكنه لما كان يوماً من أيام قوم الأخطل على قوم جرير ، أضاف الخطابَ إليه وإلى قومه . فكذلك خطاب الله عز وجل من خاطبه بقوله : « وإذ نجيّناكم من آل فرعون » ، لما كان فعله ما فعل من ذلك بقوم مَنْ خاطبه بالآية وآبائهم ، أضافَ فعله ذلك الذى فعله بآبائهم ، إلى المخاطبين بالآية وقومهم[٣] .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

وفى قوله : « يسومونكم » وجهان من التأويل . أحدهما ، أن يكون خبراً مستأنفاً عن فعل فرعونَ ببنى إسرائيل ، فيكونَ معناه حينئذ : واذكروا نعمتى عليكم إذ نجيّتكم من آل فرعون[٤]، وكانوا من قبل يسومونكم سُوء العذاب . وإذ كان ذلك تأويله ، كان موضع « يسومونكم » رفعاً .

والوجه الثانى : أن يكون يسومونكم حالاً ، فيكون تأويله حينئذ: وإذ نجيّناكم

باسمه . (انظر خبر ذلك فى النقائض ٤٧٣ ، ونقائض جرير والأخطل : ٧٨) نالكم : أدرككم وأصاب منكم ما أصاب . والأنفال جمع نفل (بفتحتين) : وهى الغنائم . وفى المطبوعة : « تقسم » وهى صواب لا بأس بها .

(١) الفيلق : الكتيبة العظيمة . وقوله : « يدعو » الضمير للهذيل . والأراقم : هم جشم ومالك والحارث وثعلبة ومعاوية وعمرو — أبناء بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب ، رهط الهذيل . وإنما سموا الأراقم لأن كاهنتهم نظرت إليهم وهم صبيان ، وكانوا تحت دثار لهم ، فكشفت الدثار ، فلما رأتهم قالت : « كأنهم نظروا إلى بعيون الأراقم » ، والأراقم جمع أرقم : وهو أخبث الحيات ، وأشدها ترقداً وطلباً للناس . والعزل جمع أعزل : وهو الذى لا سلاح معه ، والأكفال جمع كفل (بكسر فسكون) : وهو الذى لا يثبت على متن فرسه ، ولا يحسن الركوب .

(٢) فى المطبوعة : « ولم يلق جرير . . . . » .

(٣) انظر ما سلف قريباً ، ٢٣ — ٢٤

(٤) فى المطبوعة : « إذ نجيناكم . . . » على سياق الآية ، وهذه أجود .

من آل فرعون سائميكم سوء العذاب ، فيكون حالاً من آل فرعون .

* * *

وأما تأويل قوله : « يسومونكم » فإنه : يوردونكم ، ويذيقونكم ، ويولونكم .

١/٢١٤ يقال منه : «سامه خطة ضيم» ، إذا أولاه ذلك وأذاقه ، كما قال الشاعر :

* إنْ سِيمَ خَسْفاً ، وَجْهُهُ تَرَبَّدَا[1] *

* * *

فأما تأويل قوله : « سوء العذاب » ، فإنه يعنى ما ساءهم من العذاب . وقد قال بعضهم : أشدّ العذاب . ولو كان ذلك معناه لقيل : أسوأ العذاب .

* * *

فإن قال لنا قائل : وما ذلك العذاب الذى كانوا يسومونهم ، الذى كان يسوءهم؟[2]

قيل : هو ما وصفه الله تعالى فى كتابه فقال : « يُذَبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم » ، وقد قال محمد بن إسحق فى ذلك ما :-

٨٨٩ - حدثنا به ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، أخبرنا ابن إسحق قال : كان فرعون يعذّب بنى إسرائيل ، فيجعلهم خدماً وخولاً ، وصنّفهم فى أعماله ، فصنف يبنون ، [وصنفٌ يحرثون] ، وصنف يزرعون له ، فهم فى أعماله . ومن لم يكن منهم فى صنعة [له] من عمله : فعليه الجزية - فسامهم - كما قال الله عز وجل . سوء العذاب[3] .

---

(١) لم أجد الرجز . الخسف : الظلم والإذلال والهوان ، وهى شر ما ينزل بالإنسان ، وأقبح ما ينزله أخ بأخيه الإنسان . وتربد وجهه : تلون من الغضب وتغير ، كأنما تسود منه مواضع . وقوله : « وجهه » فاعل مقدم ، أى تربد وجهه .

(٢) قوله : « الذى كان يسوءهم » ، ليس فى المخطوطة ، سقط منها .

(٣) الأثر : ٨٨٩ - من خبر طويل فى تاريخ الطبرى ١ : ١٩٩ ، والزيادة بين الأقواس من موضعها هناك ويقال : هؤلاء خول فلان : إذا اتخذهم عبيداً .

وقال السدى : جعلهم فى الأعمال القذرة ، وجعلَ يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم :

٨٩٠ — حدثنى بذلك موسى بن هرون قال، حدثنا عمرو بن حماد قال، حدثنا أسباط ، عن السدى[1] .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾

قال أبو جعفر : وأضاف الله جل ثناؤه ما كان من فعل آل فرعون ببنى إسرائيل = من سَوْمهم إياهم سُوءَ العذاب ، وذَبْحِهم أبناءَهم ، واستحيائهم نساءَهم = إليهم ، دون فرعون — وإن كان فعلهم ما فعلوا من ذلك كانَ بقوّة فرعون ، وعن أمره — لمباشرتهم ذلك بأنفسهم . فبيّنٌ بذلك أنّ كل مباشرٍ قتلَ نفس أو تعذيبَ حيّ بنفسه ، وإن كان عن أمْر غيره ، ففاعله المتولّى ذلك هو المستحقُّ إضافةَ ذلك إليه ، وإن كان الآمر قاهراً الفاعلَ المأمورَ بذلك — سلطاناً كان الآمرُ ، أو لصًّا خارباً ، أو متغلباً فاجراً[2] . كما أضاف جلّ ثناؤه ذَبْح أبناء بنى إسرائيل واستحياء نسائهم ، إلى آل فرعون دون فرعون ، وإنْ كانوا بقوة فرعون وأمرِه إياهم بذلك، فعلوا ما فعلوا ، مَعَ غلبته إياهم وقهره لهم . فكذلك كل قاتلٍ نفساً بأمر غيره ظلماً ، فهو المقتولُ عندنا به قِصاصاً، وإن كان قتله إيّاها بإكراه غيره له على قتله[3] .

* * *

(١) الأثر : ٨٩٠ — من خبر طويل فى تاريخ الطبرى ١ : ٢٠٠ ، وانظر ما سيأتى رقم : ٨٩٥ .

(٢) الخارب : اللص الشديد الفساد ، من قولهم : فلان صاحب خربة (بضم فسكون) أى فساد وريبة ، ومنه الخارب : من شدائد الدهر . وأما أصحاب اللغة فيقولون : الخارب : سارق الإبل خاصة ، ثم نقل إلى غيره من اللصوص اتساعاً .

(٣) فى المطبوعة : « وإن كان قتله إياه » ، وهو تصرف لا خير فيه .

وأما تأويل ذبحهم أبناء بنى إسرائيل واستحيائهم نساءهم[1] ، فإنه كان فيما ذُكر لنا عن ابن عباس وغيره ، كالذى : —

٨٩١ — حدثنا به العباس بن الوليد الآملى ، وتميم المنتصر الواسطى قالا ، حدثنا يزيد بن هرون قال ، أخبرنا الأصبغ بن زيد [الجهنى] قال ، حدثنا القاسم ابن أبى أيوب قال ، حدثنا سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعدَ إبراهيمَ خليلَه — : أن يجعل فى ذرّيته أنبياء وملوكاً ؛ وائتمروا وأجمعوا أمرَهم على أن يبعثَ رجالاً معهم الشِّفار[2] ، يطوفون فى بنى إسرائيل ، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه . ففعلوا . فلما رأوا أنّ الكبارَ من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم ، وأن الصغار يُذَبحون ، قال : توشِكون أن تفنوا بنى إسرائيل ، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة ما كانوا يَكفُونكم ! فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر ، فتقلّ أبناؤهم ؛ ودعوا عاماً . فحملتْ أم موسى بهارونَ فى العام الذى لا يُذبحَ فيه الغلمانَ ، فولدته علانية آمنة ، حتى إذا كان القابل حملتْ بموسى[3] .

٨٩٢ — وقد حدثنا عبد الكريم بن الهيثم قال ، حدثنا إبراهيم بن بَشار الرَّمادى

---

(١) فى المطبوعة : « ذبح » ، مكان « ذبحهم » ، وسقط من المخطوطة قوله : « أبناء » .

(٢) الشفار جمع شفرة : وهى السكين العريضة العظيمة الحديدة ، تمتهن فى قطع اللحم وغيره .

(٣) الأثر : ٨٩١ — هذا موقوف ، وإسناده صحيح إلى ابن عباس . أما صحة المتن ، فلا نستطيع أن نجزم بها ، لعله مما كان يتحدث به الصحابة عن التاريخ القديم نقلا عن أهل الكتاب .

العباس بن الوليد بن مزيد الآملى البيروتى : ثقة ، مترجم فى التهذيب ، وترجمه ابن أبى حاتم ٣/١/ ٢١٤ — ٢١٥ . وتميم بن المنتصر بن تميم الواسطى : ثقة ، مترجم فى التهذيب ، وترجمه ابن أبى حاتم ١/١/٤٤٤—٤٤٥ . والأصبغ بن زيد بن على الجهنى الواسطى الوراق : ثقة ، وثقه ابن معين وغيره ، مترجم فى التهذيب ، وترجمه البخارى فى الكبير ١/٢/ ٣٦ ، وابن أبى حاتم ١/١/٣٢٠ — ٣٢١ . القاسم بن أبى أيوب الأسدى الواسطى : ثقة ، مترجم فى التهذيب ، والكبير للبخارى ٤/١/١٦٨ — ١٦٩ ، وابن أبى حاتم ٣/٢/١٠٧ . ووقع فى المطبوعة هنا « القاسم بن أيوب » ، وهو خطأ .

وهو فى تاريخ الطبرى بتمامه ١ : ٢٠٢ ، مع اختلاف يسير فى اللفظ . وفى المخطوطة فى هذا الموضع أخطاء من الناسخ تجافينا عن ذكرها . وفى المطبوعة والمخطوطة : «فولدته علانية أمه» ، والصواب من التاريخ .

قال ، حدثنا سفيان بن عيينة قال ، حدثنا أبو سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قالت الكهنة لفرعون : إنه يولد في هذا العام مولود يَذهبُ بملكك ، قال : فجعل فرعونُ على كل ألف امرأة مئة رجل ، وعلى كل مئة عشرة ، وعلى كل عشرة رجلا ، فقال : انظروا كلَّ امرأة حاملٍ في المدينة ، فإذا وضعت حَمْلها فانظروا إليه ، فإن كان ذكراً فاذبحوه ، وإن كان أنثى فخلُّوا عنها . وذلك قوله : « يذبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءَكم وفي ذلكم بَلاءٌ من ربكم عَظيم»[1]. ٢١٥/١

٨٩٣ — حدثني المثنى بن إبراهيم قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية في قوله : « وإذ نجَّيناكمْ منْ آل فرعونَ يَسومُونكم سُوءَ العذاب » ، قال : إن فرعون مَلَكهم أربعمئة سنة ، فقالت الكهنة إنه سيولد العامَ بمصر غلامٌ يكون هلاكُكَ على يديه . فبعث في أهل مصر نساءً قَوابل[2] ، فإذا ولدت امرأةٌ غلاماً ، أُتي به فرعون فقتله ، ويستحيي الجواري .

٨٩٤ — حدثني المثنى قال ، حدثنا إسحق بن الحجاج قال ، حدثنا عبد الله ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، في قوله : « وإذْ نجَّيناكم من آل فرعون » الآية ، قال : إن فرعون مَلكهم أربعمئة سنة ، وإنه أتاه آتٍ فقال : إنه سينشأ في مصر غلامٌ من بني إسرائيل، فيظهرُ عليك ، ويكون هلاكُكَ على يديه . فبعث في مصر نساء . فذكر نحو حديث آدم .

٨٩٥ — وحدثني موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا

---

(١) الأثر : ٨٩٢ — وهذا كالذي قبله ، موقوف ، إسناده إلى ابن عباس صحيح . وقد رواه الطبري بهذا الإسناد ، في التاريخ أيضاً ١ : ٢٢٥ .

عبد الكريم بن الهيثم بن زياد القطان : ثقة مأمون ، مات سنة ٢٧٨ . ترجمه الخطيب في تاريخ بغداد ١١ : ٧٨ — ٧٩ ، وياقوت في معجم الأدباء ٤ : ١٥٤ . إبرهيم بن بشار الرمادي : ثقة ، يهم في الشيء بعد الشيء . مترجم في التهذيب ، وفي الكبير ٢٧٧/١/١ ، وابن أبي حاتم ٨٩/١/١ — ٩٠ .

أبو سعيد — الراوي عن عكرمة : هو عبد الكريم بن مالك الجزري .

ولم أجد الأثر في مكانه من تاريخ الطبري .

(٢) قوابل جمع قابلة : وهي المرأة التي تتلقى الولد عند الولادة .

أسباط بن نصر ، عن السدى ، قال : كان من شأن فرعون أنه رأى فى منامه أنّ ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر ، فأحرقت القِبْط وتركت بنى إسرائيل، وأخربت بيوت مصر . فدعا السَّحَرة والكهنة والعافة والقافة والحازة فسألهم عن رؤياه[1] ، فقالوا له : يخرجُ من هذا البلد الذى جاء بنو إسرائيل منه — يعنون بيت المقدس — رجلٌ يكون على وجهه هلاك مصر . فأمر ببنى إسرائيل أن لا يولد لهم غلام إلاّ ذبحوه ، ولا تولد لهم جارية إلا تُركت ، وقال للقبط : انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجاً فأدخلوهم، واجعلوا بنى إسرائيل يلُون تلك الأعمال القذرة . فجعل بنى إسرائيل فى أعمال غلمانهم ، وأدخلوا غلمانهم . فذلك حين يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى الْأَرْضِ ﴾ — يقول: تجبّر فى الأرض — ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً ﴾ — يعنى بنى إسرائيل ، حين جعلهم فى الأعمال القذرة — ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ﴾[سورة القصص : ٤] . فجعل لا يُولدُ لبنى إسرائيل مولودٌ إلاّ ذُبح ، فلا يكبر الصغير . وقذف اللهُ فى مشيخة بنى إسرائيل الموتَ ، فأسرع فيهم . فدخل رؤوس القبط على فرعونَ فكلموه ، فقالوا : إن هؤلاء قد وقع فيهم الموت ، فيوشك أن يقع العمل على غلماننا ! نذبح أبناءهم ، فلا تبلغ الصغار وتفنى الكبار ![2] فلو أنك كنت تُبقى من أولادهم ! فأمر أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة . فلما كان فى السنة التى لا يذبحون

---

(١) الكهنة جمع كاهن : وهو الذى يتعاطى الخبر عن الكائنات فى مستقبل الزمان . والعافة جمع عائف : وهو الذى يتعاطى العيافة ، وهو تكهن كان فى الجاهلية ، ذكروا أنها زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها . وفى اللسان (حزا) : العائف : العالم بالأمور ، ولا يستعاف إلا من علم وجرب وعرف. فلعل الذى وصفه أصحاب كتب اللغة إنما هو ضرب واحد من ضروب العيافة . والقافة جمع قائف : وهو الذى يتبع الآثار ويعرفها ، ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه ، وليست من السحر والكهانة ولا الجبت . ولعل زيادة ذكرها هنا زيادة من النساخ ، فإن الذى جاء فى رواية التاريخ : « القافة » ، ولم يذكر « العافة » ، فلعل الذى فى التاريخ تصحيف صوابه « العافة » ، والحازة جمع حاز ، والحازى : هو الذى ينظر فى النجوم وأحكامها بظنه وتقديره ، فربما أصاب ، وهو الحزاء (بتشديد الزاى) .

(٢) فى المطبوعة : « بذبح أبنائهم » ، والصواب من التاريخ .

فيها ، وُلِدَ هارون فترك . فلما كان فى السنة التى يذبحون فيها ، حملت بموسى [١] .

٨٩٦ — حدثنا محمد بن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق قال : ذُكر لى أنه لما تقارب زمان موسى ، أتى منجمو فرعون وحُزاته إليه [٢] ، فقالوا له : تعلَّمْ أنَّا نجد فى علمنا أن مولوداً من بنى إسرائيل قد أظلَّك زمانه الذى يولد فيه [٣] ، يسلُبك ملكك ، ويغلبك على سلطانك ، ويخرجك من أرضك ، ويبدّل دينك . فلما قالوا له ذلك ، أمر بقتل كل مولود يولد من بنى إسرائيل من الغلمان ، وأمرَ بالنساء يُستحيَيْن . فجمع القوابل من نساء [أهل] مملكته ، فقال لهن : لا يسقطنّ على أيديكُنَّ غلام من بنى إسرائيل إلا قتلتُنَّه . فكنّ يفعلن ذلك . وكان يذبح مَنْ فوقَ ذلك من الغلمان ، ويأمُر بالحبالَى فيعذَّبن حتى يطرَحنَ ما فى بطونهن [٤] .

٨٩٧ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق ، عن عبد الله بن أبى نجيح ، عن مجاهد قال : لقد ذُكر [لى] أنه كان ليأمُر بالقصَب فيُشقّ حتى يُجعل أمثالَ الشِّفار ، ثم يُصَفّ بعضُه إلى بعض ، ثم يأتى بالحبالى من بنى إسرائيل فيوقفهن عليه [٥] ، فيحزّ أقدامهن . حتى إن المرأة منهن لتمصَع بولدها فيقع من بين رجليها [٦] ، فتظل تطؤه تتّقى به حدّ القصب عن رجلها ، لما بلغ من جَهدِها ، حتى أسرَف فى ذلك وكاد يُفنيهم . فقيل له : أفنيت الناس ٢١٦/١

---

(١) الأثر : ٨٩٥ — فى تاريخ الطبرى ١ : ٢٠٠ ، وإسناده هناك هو الإسناد الذى يدور فى فى التفسير وتمامه : « . . . عن السدى فى خبره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . » .

(٢) فى المطبوعة : « فرعون وأحزابه » ، وهو خطأ محض ، صوابه فى المخطوطة وتاريخ الطبرى . والحزاة جمع حاز أيضاً ، كقاض وقضاة . والحازى : سلف شرحه فى ص : ٤٤ ، تعليق : ٢ .

(٣) فى المطبوعة : « نعم ، إنا نجد فى علمنا » ، وهو خطأ معرق . وتعلم (بتشديد اللام) : بمعنى : اعلم ، وهى فاشية فى سيرة ابن إسحق وغيره . وانظر تعليقنا فيما مضى ١ : ٢١٧ . وأظلك : صار كالظل ، أى قارب ودنا دنواً شديداً .

(٤) الأثر : ٨٩٦ — فى تاريخ الطبرى ١ : ١٩٩ ، والزيادة بين القوسين ، والتصحيح منه .

(٥) فى المطبوعة : « ثم يؤتى . . . فيوقفن » بالبناء للمجهول . وذاك نص التاريخ والمخطوطة .

(٦) مصعت المرأة بولدها : زحرت زحرة واحدة فرمته من بطنها وألقته .

وقطعتَ النسل! وإنهم خولَك وعُمَّالك ! فأمر أن يُقتل الغلمانُ عاماً ويُستحيَوا عاماً. فوُلِد هارون فى السَّنة التى يُستحيَى فيها الغلمان، وولد موسى فى السنة التى فيها يُقتلون[1]

* * *

قال أبو جعفر : والذى قاله من ذكرنا قوله من أهل العلم : كان ذَبحُ آلِ فرعون أبناءَ بنى إسرائيل واستحياؤهم نساءهم[2] ، فتأويل قوله إذاً — على ما تأوله الذين ذكرنا قولهم —: «ويَستحيونَ نساءكم» ، يَستبقونهن فلا يَقتلونهن .

وقد يجبُ — على تأويل من قال بالقول الذى ذكرنا عن ابن عباس وأبى العالية والربيع بن أنس والسدى فى تأويل قوله : « ويَستحيون نساءَكم » ، أنه تركُهمُ الإناثَ من القتل عند ولادتِهنّ إياهن — أن يكون جائزاً أن يُسمَّى الطفلُ من الإناث فى حال صباها وبعد ولادها: « امرأة »[3] ، والصبايا الصغارُ وهنَّ أطفال: « نساء » . لأنهم تأوّلوا قول الله عز وجل: « ويستحيون نساءكم» ، يستبقون الإناث من الولدان عند الولادة فلا يقتلونهن .

وقد أنكر ذلك من قوليهم ابنُ جريج ، فقال بما :—

٨٩٨ — حدثنا به القاسم بن الحسن قال، حدثنا الحسين بن داود قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قوله : « ويستحيون نساءكم » قال : يَسترِقُّون نساءكم .

---

(١) الأثر : ٨٩٧ — فى تاريخ الطبرى ١ : ١٩٩ — ٢٠٠ .

(٢) هذه جملة سقط منها خبر « كان » ، وهى هكذا فى الأصول ، وأظن أن صوابها : كان ذبح آل فرعون أبناء بنى إسرائيل واستحياؤهم نساءهم ، أن فرعون أمر ، بقتل كل مولود يولد من أبناء بنى إسرائيل ، وباستحياء نسائهم » كما فى الأثرين : ٨٩١ ، ٨٩٦ ، فكأن سطراً سقط من الناسخ .

(٣) فى المطبوعة : « الطفلة من الإناث» . والعرب تقول : جارية طفل وطفلة ، وجاريتان طفل ، وجوار طفل، قال تعالى : «ثُمَّ يُخرِجُكُمْ طِفلاً » ،وقال: « أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ » .

فحادَ ابن جريج ، بقوله هذا ، عما قاله من ذكرنا قوله فى قوله : « ويستحيون نساءكم » : إنه استحياء الصَّبايا الأطفال ، إذ لم يَجدهُنَّ يلزمُهن اسم «نساء»[١] ، ثم دخل فيما هو أعظمُ مما أنكر ، بتأويله « ويستحيون » ، يسترِقُّون . وذلك تأويلٌ غير موجود فى لغة عربية ولا أعجمية[٢] . وذلك أن «الاستحياء» ، استفعال، من الحياة[٣] ، نظيرُ « الاستبقاء » من « البقاء » ، و« الاستسقاء » من « السقى » . وهو من معنى الاسترقاق بمعزِل .

* * *

وقد تأوَّلَ آخرون قوله[٤] : « يُذبِّحون أبناءَكم » ، بمعنى ، يذبِّحون رجالكم آباءَ أبنائكم ، وأنكروا أن يكون المذبوحون الأطفال ، وقد قَرَن بهم النساء . فقالوا : فى إخبار الله جل ثناؤه أنَّ المستحيَيْن هم النساء ، الدلالةُ الواضحةُ على أن الذين كانوا يُذبَّحون هم الرجال دون الصبيان ، لأن المذبَّحين لو كانوا هم الأطفال ، لوجب أن يكون المستحيَوْن هم الصبايا . قالوا : وفى إخبار الله تعالى ذكره أنهم النساء ، ما بيَّن أن المذبَّحين هم الرِّجال[٥] .

قال أبو جعفر : وقد أَغفَل قائلو هذه المقالة — مع خروجهم من تأويل أهل التأويل من الصحابة والتابعين — موضعَ الصواب . وذلك أن الله جل ثناؤه قد أخبر عن وَحيه إلى أمّ موسى أنّه أمرَها أن تُرضع موسى ، فإذا خافت عليه أن تُلْقيه فى التابوت ، ثم تلقيه فى اليمّ . فمعلوم بذلك أن القوم لو كانوا إنما كانوا يقتلون الرجال ويتركون النساء ، لم يكن بأمّ موسى حاجةٌ إلى إلقاء موسى فى اليم ؛ أو لو أنّ موسى كان رجلا لم تجعله أمه فى التابوت .

(١) فى المطبوعة : « قال : إذ لم يجدهن » بزيادة « قال » ، وهو فساد .

(٢) فى المطبوعة : « عجمية » .

(٣) فى المطبوعة : « إنما هو الا ستفعال من الحياة » ، وليس بشىء .

(٤) فى المطبوعة : « وقد قال آخرون . . . » ، وليست بشىء .

(٥) فى المطبوعة : « ما يبين أن المذبحين . . . » .

ولكنْ ذلك عندنا على ما تأوله ابن عباس ومن حكينا قَوْله قبلُ : من ذبْح آل فرعون الصِّبيانَ وترْكهم من القتل الصَّبايا . وإنما قيل : « وَيستحيون نساءَكم » ، إذ كان الصَّبايا داخلات مع أمهاتهن — وأمهاتهن لا شَك نساء — فى الاستحياء ، لأنهم لم يكونوا يقتلون صغار النساء ولا كبارَهن ، فقيل : « ويستحيون نساءكم » ، يعنى بذلك الوالداتِ والمولودات ، كما يقال : « قد أقبلَ الرجال » ، وإن كان فيهم صبيان . فكذلك قوله : « ويستحيون نساءكم » . وأما من الذكور ، فإنه لمّا لم يكنْ يذبح إلا المولودون ، قيل : « يذبحون أبناءكم » ، ولم يقل : يذبحون رجالكم .

١/٢١٧

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (٤٩)

أما قوله : « وفى ذلكُم بَلاءٌ من رَبكم عَظيمٌ » ، فإنه يعنى : وفى الذى فعلنا بكم ، من إنجائناكم[1] — مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون إياكم ، على ما وصفتُ — بلاءٌ لكم من ربكم عظيم .

* * *

ويعنى بقوله « بلاء » : نعمةٌ ، كما :—

٨٩٩ — حدثنى المثنى بن إبراهيم قال، حدثنا أبو صالح قال ، حدثنى معاوية بن صالح ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، قوله : « بلاءٌ من ربكم عظيم » ، قال : نعمةٌ .

٩٠٠ — وحدثنى موسى بن هرون قال، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ،عن السدّى فى قوله : «وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم »،أما البلاء فالنعمة .

(١) فى المطبوعة : « من إنجائنا إياكم » ، بدلوه ليجرى على دارج كلامهم

٩٠١ ــ وحدثنا سفيان قال، حدثنا أبي ، عن سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد : « وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم »، قال : نعمةٌ من ربّكم عظيمة .

٩٠٢ ــ حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثل حديث سُفيان .

٩٠٣ ــ حدثني القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج ، عن ابن جريج : « وفي ذلكم من ربكم عظيم » ، قال : نعمة عظيمة[1] .

* * *

وأصل « البَلاء » ــ في كلام العرب ــ الاختبارُ والامتحان ، ثم يستعمل في الخير والشر . لأن الامتحان والاختبارَ قد يكون بالخير كما يكون بالشر ، كما قال ربُّنا جل ثناؤه : ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٦٨] ، يقول : اختبرناهم ، وكما قال جل ذكره : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [سورة الأنبياء : ٣٥] . ثم تسمِّي العربُ الخيرَ «بلاءً» والشر «بلاءً» . غير أن الأكثر في الشر أن يقال : «بلوته أبلوه بَلاءً» ، وفي الخير : «أبليتُه أبْليه إبلاءً وبلاءً» ، ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى :

جَزَى اللهُ بِالإِحْسَانِ مَا فَعَلاَ بِكُمْ وَأَبْلاَهُمَا خَيْرَ الْبَلاَءِ الَّذِي يَبْلُو[2]

فجمع بين اللغتين ،لأنه أراد: فأنعم الله عليهما خير النِّعم التي يَختبرُ بها عبادَه .

* * *

(١) الأثر : ٩٠٣ – مقدم في المخطوطة على الذى قبله .

(٢) ديوانه : ١٠٩ ، و روايته « رأى الله . . . فأبلاهما » . وهذا بيت من قصيدة من جيد شعر زهير وخالصه .

القول فى تأويل قوله : ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ﴾

أما تأويلُ قوله: « وإذ فرقنا بكم » ، فإنه عطفٌ على « وإذ نجَّيْناكم »، بمعنى : واذكروا نعمتى التى أنعمتُ عليكم، واذكروا إذ نجَّيناكم من آل فرعون، وإذ فرَقنا بكم البحر .

ومعنى قوله : « فرَقنا بكم » ، فصَلنا بكم البحر. لأنهم كانوا اثنَىْ عشر سِبْطاً؛ ففرَقَ البحرَ اثنى عشر طريقاً، فسلك كل سِبْط منهم طريقاً منها . فذلك فَرْقُ الله بهم عز وجلّ البحرَ وفصلُه بهم ، بتفريقهم فى طرُقه الاثنى عشر ، كما : —

٩٠٤ — حدثنى موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط بن نصر ، عن السدى : لما أتى موسى البحر كنَّاه «أبا خالد»، وضربَه فانفلق، فكان كل فِرْق كالطَّوْد العظيم، فدخلت بنو إسرائيل . وكان فى البحر اثنا عشر طريقاً ، فى كل طريق سِبْط[1] .

* * *

وقد قال بعض نحويى البصرة : معنى قوله : « وإذْ فرَقنا بكم البحر » ، فرَقْنا بينكم وبين الماء . يريد بذلك : فصَلنا بينكم وبينه ، وحجزْناه حيث مررتم به . وذلك خلاف ما فى ظاهر التلاوة،[2] لأن الله جل ثناؤه إنما أخبر أنه فرَق البحرَ بالقوم ، ولم يخبر أنه فرّق بين القوم وبين البحر ، فيكونَ التأويلُ ما قاله قائلو هذه المقالة . وفرقُه البحر بالقوم، إنما هو تفريقه البحرَ بهم ، على ما وصفنا من افتراق سبيله بهم ، على ما جاءت به الآثار

* * *

(١) الأثر ٩٠٤ — من خبر طويل فى تاريخ الطبرى ، وهذه الفقرة منه فى ١ : ٢١٤ ، وانظر أيضاً رقم ٩١٠

(٢) انظر تفسير « الظاهر » فيما مضى : ٢ : ١٥ ، والمراجع

القول فى تأويل قوله ﴿ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (٥٠) ١/٢١٨

قال أبو جعفر : إن قال لنا قائل وكيف غرق الله جل ثناؤه آلَ فرعون ونجَّى بنى إسرائيل ؟

قيل له ، كما : —

٩٠٥ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد ابن كعب القرظى ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال : لقد ذُكر لى أنه خرج فرعونُ فى طلب موسى على سبعين ألفاً من دُهْمِ الخيل ، سوى ما فى جنده من شُهْب الخيل .[١] وخرج موسى ، حتى إذا قابله البحر ولم يكن له عنه مُنصرَف ، طلع فرعونُ فى جنده من خلفهم . ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ ﴾ — موسى — ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [سورة الشعراء : ٦١، ٦٢] أى للنجاة ، وقد وعدنى ذلك ، ولا خُلف لوَعده .[٢]

٩٠٦ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثنى ابن إسحق قال : أوحى الله إلى البحر — فيما ذُكر لى : إذا ضرَبك موسى بعصاه فانفلِقْ له. قال: فباتَ البحر يضرب بعضه بعضاً فَرَقاً من الله وانتظاره أمرَه .[٣] فأوحى الله عز وجل إلى موسى أنِ اضْرب بعصاك البحر ، فضربه بها ، وفيها سُلطان الله الذى أعطاه ، فانفلق فكانَ كل فِرْق كالطَّوْد العظيم ، أى كالجبل على نَشَزٍ من الأرض[٤] .

---

(١) فى المخطوطة والمطبوعة : « من شية الخيل » ، وشية الفرس : لونه ، فكان الأجود أن يقول : « من شيات الخيل » . وفى التاريخ . « من شهب الخيل » ، كما أثبتناه . والشهب جمع أشهب ، والشهبة فى ألوان الخيل : أن تشق معظم لونه شعرة أو شعرات بيض ، كميتاً كان الفرس أو أشقر أو أدهم .

(٢) الأثر : ٩٠٥ — فى تاريخ الطبرى ١ : ٢١٧ ، وفيه « ولا خلف لموعوده » . والموعود كالوعد ، وهو من المصادر التى جاءت على مفعول .

(٣) فى المطبوعة : « فثاب البحر . . . » ، وهو تصحيف ، والصواب فى المخطوطة والتاريخ . وفى المطبوعة : « وانتظار أمره » ، وفى التاريخ « وانتظاراً لأمره » ، وأثبت ما فى المخطوطة ، وهو جيد .

(٤) فى المطبوعة : « على يبس من الأرض » ، وأثبت ما فى المخطوطة والتاريخ . والنشز : المتن المرتفع من الأرض — أو ما ارتفع عن الوادى إلى الأرض ، وليس بالغليظ .

يقول الله لموسى : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لاَ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى ﴾ [سورة طه : ٧٧]. فلما استقر لهُ البحر على طريق قائمة يَبَسٍ،[١] سلك فيه موسى ببني إسرائيل وأتْبَعه فرعون بجنوده.[٢]

٩٠٧ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال، حدثني محمد بن إسحق، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن شدّاد بن الهاد الليثي قال: حُدّثت أنه لما دخلت بنو إسرائيل البحر فلم يبق منهم أحد، أقبلَ فرعون وهو على حِصَان له من الخيل، حتّى وقف على شَفير البحر، وهو قائم على حاله، فهاب الحصان أن ينفذ.[٣] فعرض له جبريل على فرس أنثى وَدِيق،[٤] فقرَّبَها منه، فشمَّها الفحل، فلما شمَّها قدَّمها،[٥] فتقدّم معها الحصان عليه فرعون. فلما رأى جُندُ فرعونَ فرعونَ قد دخل، دخلوا معه وجبريل أمامه، وهم يتّبعون فرعونَ، وميكائيل على فرَس من خَلف القوم يسوقهم، يقول: « الحقُوا بصاحبكم». حتى إذا فَصَل جبريلُ من البحر ليس أمامه أحد، ووقف ميكائيل على ناحيته الأخرى، وليس خلفه أحد، طبَّق عليهم البحرُ، ونادى فرعون — حين رأى من سُلطان الله عز وجل وقُدرته ما رأى، وعرفَ ذُلّه، وخذَلته نفسه[٦] — : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[٧] [سورة يونس : ٩٠]

---

(١) في المطبوعة : « فلما استقر لهم . . . » .

(٢) الأثر : ٩٠٦ — في تاريخ الطبري ١ : ٢١٧ .

(٣) هكذا في المخطوطة والمطبوعة « أن ينفذ » ، وفي التاريخ : « أن يتقدم » ، وكأنها الصواب ، والآخر تحريف ، سقط الميم من آخره .

(٤) فرس وديق : مريدة للفحل تشتّهيه .

(٥) في المطبوعة : « فلما شمها تبعها » ، وهو خطأ وخلط . والصواب ما في المخطوطة والتاريخ . وقوله : « قدمها » أي زجرها ، بقولهم للفرس: « أقدم » أي امض قدماً إلى أمام .

(٦) في المطبوعة وحدها : « ذلته » .

(٧) الأثر : ٩٠٧ — في تاريخ الطبري ١ : ٢١٧ . وفي المطبوعة : « آمنت أنه لا إله إلا الذي . . . » وفي التاريخ : « نادى أن لا إله إلا الذي . . . » . وأثبت ما في المخطوطة .

٩٠٨ ـ حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر، عن أبي إسحق الهمداني، عن عمرو بن ميمون الأودى فى قوله : « وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون »، قال: لما خرج موسى ببنى إسرائيل، بلغ ذلك فرعون فقال : لا تتبعوهم حتى يصيح الديك . قال : فوالله ما صاح ليلتئذ ديك حتى أصبحوا : فدعا بشاة فذبحت، ثم قال: لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إلىّ ستمئة ألف من القبط. فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع إليه ستمئة ألف من القبط. ثم سار ، فلما أتى موسى البحر، قال له رجل من أصحابه يقال له يوشع بن نون : أين أمرك ربك يا موسى؟ قال : أمامك . يشير إلى البحر . فأقحم يوشع فرسه فى البحر حتى بلغ الغمر ، فذهب به ، ثم رجع .[1] فقال أين أمرك ربك يا موسى؟ فوالله ما كذبت ولا كُذبت : ففعل ذلك ثلاث مرات. ثم أوحى الله جل ثناؤه إلى موسى : ﴿ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [سورة الشعراء : ٦٣] — يقول: مثل جبل — قال: ثم سار موسى ومن معه وأتبعهم فرعون فى طريقهم، حتى إذا تتاموا فيه أطبقه الله عليهم . فلذلك قال: « وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ». قال معمر، قال قتادة : كان مع موسى ستمئة ألف، وأتبعه فرعون على ألف ألف ومئة ألف حصان .

٩٠٩ ـ حدثني عبد الكريم بن الهيثم قال ، حدثنا إبراهيم بن بشار الرمادى ، قال، حدثنا سفيان قال، حدثنا أبو سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : أوحى الله جل وعز إلى موسى أن أسر بعبادى ليلا إنكم متبعون . قال : فسرى موسى ببنى إسرائيل ليلا ، فاتبعهم فرعون فى ألف ألف حصان سوى الإناث ، وكان موسى فى ستمئة ألف. فلما عاينهم فرعون قال: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ﴾ [سورة الشعراء: ٥٤-٥٦] فسرى موسى ببنى إسرائيل حتى هجموا على البحر ، فالتفتوا فإذا هم برهج دواب فرعون، فقالوا: ياموسى ،

(١) فى ابن كثير ١ : ١٦٥ « فذهب به الغمر ، ثم رجع » .

أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا ! هذا البحر أمامنا ، وهذا فرعون قد رَهِقنا بمن معه ! [١] قال : عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون. قال : فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، وأوحى إلى البحر أنِ اسمع لموسى وأطِع إذا ضربك. قال : فبات البحرُ له أفكَل [٢] — يعنى : له رِعْدة — لا يدرى من أىِّ جوانبه يضربه . قال : فقال يوشع لموسى : بماذا أُمرت ؟ قال : أمرت أن أضربَ البحر . قال : فاضربه . قال : فضرب موسى البحرَ بعصاه ، فانفلق فكان فيه اثنا عشر طريقاً ، كل طريق كالطَّوْد العظيم ؛ فكان لكل سبط منهم طريق يأخذون فيه . فلما أخذوا فى الطريق قال بعضهم لبعض : ما لنا لا نرى أصحابنا ؟ قالوا لموسى : أين أصحابنا لا نراهم ؟ قال : سيروا فإنهم على طريق مثل طريقكم . قالوا : لا نرضى حتى نَرَاهم .

قال سفيان ، قال عمار الدُّهْنى : قال موسى : اللهم أعنِّى على أخلاقهم السيئة . قال : فأوحى الله إليه أنْ قُلْ بعصاكَ هكذا. وأومأ إبراهيم بيده يُديرها على البحر .قال موسى بعصاه على الحيطان هكذا ، [٣] فصار فيها كُوًى ينظر بعضهم إلى بعض .

قال سفيان : قال أبو سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : فساروا حتى خرجوا من البحر . فلما جاز آخر قوم موسى ، هجمَ فرعونُ على البحر هو وأصحابه ، وكان فرعون على فَرَس أدهمَ ذَنُوب حصان [٤] . فلما هجم على البحر ، هابَ الحصان أن يقتحم فى البحر ، فتمثل له جبريل على فرس أنثى وَدِيق ، [٥]

---

(١) رهقه : غشيه وأوشك أن يدركه .

(٢) فى المطبوعة : « فثاب له » ، وهو تصحيف مضى مثله فى : ٥١ ، تعليق : ٣

(٣) قال بعصاه أو بيده : أشار بها . والإشارة ضرب من التعبير والبيان ، فكان مجاز القول إلى معنى الإشارة جيداً .

(٤) الأدهم : الأسود . والذنوب : الفرس الوافر الذنب الطويله . وقوله : « حصان » هنا : أى فحل ، قد ضن بمائه فلم ينز على أنثى .

(٥) الوديق : مضى تفسيرها فى ص : ٥٢ تعليق : ٤

فلما رآها الحصان تقحَّم خلفها. وقيل لموسى : اترك البحر رَهْواً — قال : طُرقاً على حاله [١] — قال : ودخل فرعون وقومُه فى البحر ، فلما دخل آخر قوم فرعون ، وجاز آخر قوم موسى ، أطبق البحر على فرعون وقومه ، فأغرِقوا . [٢]

٩١٠ — حدثنا موسى بن هرون قال، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط بن نصر ، عن السدى : أن الله أمر موسى أن يخرج ببنى إسرائيل ، فقال : أسرِ بعبادى ليلاً إنكم مُتَّبَعون . فخرج موسى وهرون فى قومهما ، وأُلقِيَ على القبط الموتُ ، فمات كل بكر رَجل ، فأصبحوا يدفنونهم ، فشغلوا عن طلبهم حتى طلعت الشمس. فذلك حين يقول الله جل ثناؤه : ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ [سورة الشعراء : ٦٠] فكان موسى على سَاقة بنى إسرائيل وكان هرون أمامهم يقدُمُهم [٣] : فقال المؤمن لموسى : يا نبيَّ الله، أين أمرت ؟ قال : البحرَ. فأراد أن يقتحم فمنعه موسى ، وخرج موسى فى ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل — لا يعدُّون ابنَ العشرين لصغره ، ولا ابن الستين لكبره ، وإنما عَدُّوا ما بينَ ذلك ، سوى الذرِّية . وتبعهم فرعون ، وعلى مقدمته هَامان فى ألف ألف وسبعمئة ألف حصان ، ليس فيها ما ذِيانَة [٤] — يعنى الأنثى — وذلك حين يقول الله جل ثناؤه : ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ • إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [سورة الشعراء : ٥٣ ، ٥٤] يعنى بنى إسرائيل . فتقدم هرون فضرَب البحرَ، فأبى البحرُ أن يَنفتح ، وقال : من هذا الجبار الذى يضربنى؟ حتى أتاه موسى فكنَّاه ُ «أبا خالد» وضربه فانفْلق ، ١/٢٢٠

---

(١) فى المخطوطة : « على حياله » ، وهو خطأ ، وانظر ما مضى ص : ٥٢ ، وانظر أيضاً تفسير : « رهواً » فى ٢٥ : ٧٣ (بولاق) .

(٢) الأثر : ٩٠٩ — هو كالأثر الماضى : ٨٩٢ ، وبالإسناد نفسه . انظر تمام هذا الأثر فى رقم : ٩١٨ . وأقحم سفيان روايته عن عمار الدهنى، فى روايته عن أبى سعيد . وعمار ، هو عمار بن معاوية الدهنى (بضم الدال وسكون الهاء) ، وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم والنسائى ، وذكره ابن حبان فى الثقات (تهذيب التهذيب) .

(٣) ساقة الجيش ، وساقة الحاج : هم الذين يكونون فى مؤخره يسوقونه ويحفظونه من ورائه .

(٤) فى المطبوعة : « ما ذبانه » ، وفى المخطوطة : « ما دنانة » بالدال المهملة . ولم أجد الكلمة فيما بين يدى من الكتب .

فكان كل فِرْق كالطَّوْد العظيم- يقول : كالجبل العظيم-، فدخلت بنو إسرائيل . وكان فى البحر اثنا عشر طريقاً ، فى كل طريق سِبْط - وكانت الطرق انفلقت بجدران[1] - فقال كل سِبْط : قد قُتل أصحابنا ! فلما رأى ذلك موسى ، دعا الله فجعلها لهم قناطر كهيئة الطِّيقان،[2] فنظر آخرهم إلى أولهم،حتى خرجوا جميعاً . ثم دنا فرعون وأصحابه ، فلما نظرَ فرعون إلى البحر مُنفلقاً قال : ألا ترون البحر فَرِقَ منى؟[3] قد انفتح لى حتى أدرك أعدائى فأقتلهم ! فذلك حين يقول الله جل ثناؤه : ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴾ [سورة الشعراء : ٦٤] يقول : قرّبنا ثمّ الآخرين ، يعنى آلَ فرعون . فلما قام فرعونُ على أفواه الطُّرُق ، أبتْ خيله أن تقتحم ،فنزل جبريل على ماذِيانة ، فشامّتِ الحُصُن ريحَ الماذِيانة، فاقتحم فى أثرها، [4] حتى إذا همّ أولهم أن يخرج ودخل آخرهم ، أمِر البحر أن يأخذهم ، فالتطم عليهم[5].

٩١١ - حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال، أخبرنا ابن وهب قال ، قال قال ابن زيد : لما أخذَ عليهم فرعونُ الأرضَ إلى البحر ، قال لهم فرعون : قولوا لهم يدخلون البحر إن كانوا صادقين ! فلما رآهم أصحاب موسى قالوا : إنا لمدرَكون! قال : كلا إن معىَ ربى سيهدين. فقال موسى للبحر :ألستَ تعلم أنى رسول الله ؟ قال : بلَى ! قال : وتعلمُ أن هؤلاء عبادٌ من عباد الله أمرنى أن آتى بهم؟ قال : بلى .

---

(١) فى تاريخ الطبرى : « وكأن الطرق إذاً انفلقت بجدران » .

(٢) الطيقان والأطواق ، جمع طاق : وهو عقد البناء حيث كان .

(٣) فرق يفرق فرقاً (بفتحين) : فزع أشد الفزع .

(٤) فى المطبوعة : « ماذبانة . . . الماذبانة » ، وانظر ما سلف : ٥٤ تعليق : ٤ ، وفى المطبوعة « فشام الحصان » بالإفراد ، وهو غير جيد فى سياق الكلام . الصواب من المخطوطة وتاريخ الطبرى. وشام الشىء : تشممه . والحصن ، جمع حصان .

(٥) الأثر : ٩١٠ - فى تاريخ الطبرى ١ : ٢١٣ - ٢١٤ ، ومضت فقرة منه برقم : ٩٠٤ . والتطم البحر عليهم : أطبق عليهم وختم وهو يتلاطم موجه . و لم أجدها فى كتب اللغة . ولكنهم يقولون : التطمت الأمواج وتلاطمت ، ضرب بعضها بعضاً . ويقولون : لطم الكتاب : أى ختمه . فالذى جاء فى الخبر عربى معرق فى مجازه .

قال : أتعلم أنّ هذا عدوٌّ الله ؟ قال: بلى. قال: فافرق لى طريقاً ولمن معى .[١]
قال : يا موسى إنما أنا عبد مملوك ، ليس لى أمرٌ إلا أن يأمرنى الله تعالى . فأوحى الله عز وجل إلى البحر : إذا ضرَبك موسى بعصاه فانفرق . وأوحى إلى موسى أن يضرب البحر ، وقرأ قول الله تعالى : ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِى الْبَحْرِ يَبَساً لاَ تَخَافُ دَرَكاً وَلاَ تَخْشَى ﴾ [سورة طه : ٧٧] وقرأ قوله : ﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً ﴾ [سورة الدخان : ٢٤] — سهلاً ليس فيه نُقَر[٢] — فانفرق اثنتى عشرة فرقة ، فسلك كل سبْط فى طريق . قال: فقالوا لفرعون : إنهم قد دخلوا البحرَ! قال : ادخلوا عليهم . قال : وجبريل فى آخر بنى إسرائيل يقول لهم: ليلحقْ آخرُكم أولَكم . — وفى أوّل آل فرعونَ يقول لهم : رُويداً يلحقْ آخرُكم أوّلَكم . فجعل كلّ سبْط فى البحر يقولون للسّبط الذين دخلوا قبلهم: قد هلكوا ! فلما دخل ذلك قلوبهم أوحى الله جل وعزّ إلى البحر فجعلَ لهم قناطر ، ينظر هؤلاء إلى هؤلاء ، حتّى إذا خرج آخرُ هؤلاء ودخل آخرُ هؤلاء ، أمر الله البحر فأطبقَ على هؤلاء .

* * *

ويعنى بقوله : « وأنتم تنظرون » ، أى تنظرون إلى فَرْق الله لكم البحرَ ، وإهلاكه آل فرعون فى الموضع الذى نجّاكم فيه ، وإلى عظيم سلطانه — فى الذى أراكم من طاعة البحر إياه ، من مصيره رُكاماً فِلَقاً كهيئة الأطواد الشامخة ،[٣] غير زائل عن حدّه ، انقياداً لأمر الله وإذعاناً لطاعته ، وهو سائل ذائبٌ قبل ذلك .

يُوقفهم بذلك جل ذكره على موضع حُججه عليهم ، ويذكّرهم آلاءَه عند أوائلهم ، ويحذّرهم — فى تكذيبهم نبيّنا محمداً صلى الله عليه وسلم — أنّ يحلّ

---

(١) فى المطبوعة « فانفرق لى طريقا . . . » وهو خطأ .

(٢) فى المطبوعة : « ليس فيه تعد » ، وفى المخطوطة : « نفد » والدال تشبه أن تكون راء . فاستظهرت أن تكون ما أثبت . والنقر جمع نقرة : وهى الوهدة المستديرة فى الأرض ، أو الحفرة صغيرة ليست بكبيرة . وهذا أشبه بالكلام والمعنى .

(٣) فى المطبوعة : « ركاماً فرقاً » ، وهو تغيير بلا سبب . ركام : مجتمع بعضه فوق بعض . والفلق جمع فلقة (بكسر فسكون) : وهى الشق .

بهم ما حلَّ بفرعونَ وآله ، فى تكذيبهم موسى صلى الله عليه وسلم .

* * *

وقد زعم بعض أهل العربية أن معنى قوله : « وأنتم تَنظرون » ، كمعنى قول القائل : «ضُرِبت وأهلك ينظرون ، فما أتوك ولا أعانوك» ، بمعنى : وهم قريبٌ بمرأى ومَسمع ، وكقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ ٢٢١/١ [سورة الفرقان : ٤٥] ، وليس هُناك رؤيةٌ ، إنما هُو علم .

قال أبو جعفر : والذى دعاه إلى هذا التأويل ، أنه وجّه قوله : « وأنتم تنظرون » ، أى وأنتم تنظرون إلى غرق فرعون ، فقال : قد كانوا فى شُغل من أن ينظروا — ممّا اكتنفهم من البحر — إلى فرعون وغَرَقه . وليس التأويلُ الذى تأوّله تأويلَ الكلام ، إنما التأويل : وأنتم تنظرون إلى فَرْق الله البحرَ لكم — على ما قد وصفنا آنفاً — والتطام أمواج البحر بآل فرعون ، فى الموضع الذى صيَّر لكم فى البحر طريقاً يَبَساً . وذلك كان ، لاشكَّ ، نظرَ عِيانٍ لا نظرَ علم ، كما ظنّه قائل القول الذى حكينا قوله .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا ﴾

اختلفت القَرَأة فى قراءة ذلك ،[1] فقرأ بعضهم : « وَاعَدْنا » بمعنى أن الله تعالى واعد موسى مُوافاة الطور لمناجاته ،[2] فكانت المواعدة من الله لموسى ، ومن موسى لربه . وكان من حجتهم على اختيارهم قراءة « واعَدنا » على « وَعَدْنا » أنْ قالوا : كل اتّعادٍ كان بين اثنين للالتقاء والاجتماع ،[3] فكل واحد منهما

---

(١) فى المطبوعة فى الموضعين : « القراء » ، كما فعل كثيراً فيما مضى . والقرأة جمع قارئ .

(٢) فى المطبوعة : « ملاقاة الطور » ، ولا أدرى لم غيره من غيره !

(٣) فى المطبوعة : « كل إيعاد . . . أو الاجتماع » ، ولا أدرى لم فعل ذلك ! واتعد اتعاداً افتعل ، من الوعد .

مواعدٌ صاحبَه ذلك. فلذلك — زعموا —[1] وَجب أن يُقْضَى لقراءةمن قرأ « واعَدنا »، بالاختيار على قراءة من قرأ « وعدنا » .

وقرأ بعضهم : « وعدنا » ، بمعنى أن الله الواعدُ والمنفردُ بالوعد دونه . وكان من حجتهم فى اختيارهم ذلك أنْ قالوا : إنما تكون المواعدة بين البشر ، فأما الله جل ثناؤه ، فإنه المنفردُ بالوعد والوعيد فى كل خير وشر. قالوا : وبذلك جاء التنزيل فى القرآن كله ، فقال جل ثناؤه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ ﴾ [سورة إبراهيم : ٢٢] وقال : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ [سورة الأنفال : ٧]. قالوا : فكذلك الواجب أن يكون هو المنفرد بالوعد فى قوله : « وإذ وَعدْنا موسى»

* * *

والصواب عندنا فى ذلك من القول : أنهما قراءتان قد جاءت بهما الأمَّة وقرأت بهما القَرَأة ، وليس فى القراءة بإحداهما إبطال معنى الأخرى ، وإن كان فى إحداهما زيادةُ معنى على الأخرى من جهة الظاهر والتلاوة ،[2] فأما من جهة المفهوم بهما، فهما متفقتان. وذلك أنَّ من أخبرَ عن شخص أنه وعد غيره اللقاءَ بموضع من المواضع ، فمعلوم أن الموعودَ ذلك واعدَ صاحبه من لقائه بذلك المكان، مثل الذى وَعده من ذلك صاحبه ، إذا كان وعدُه ما وَعده إياه من ذلك عن اتفاق منهما عليه . ومعلومٌ أن موسى صلوات الله عليه لم يعدْهُ ربُّه الطورَ إلا عن رضًا موسى بذلك ، إذ كان موسى غير مشكوكٍ فيه أنه كان بكل ما أمر الله به راضياً ، وإلى محبته فيه مسارعاً . ومعقولٌ أن الله تعالى لم يعد موسى ذلك ، إلا وموسى إليه مستجيب . وإذْ كان ذلك كذلك ، فمعلوم أن الله عز ذكره كان وَعد موسى الطورَ، ووعدَه موسى اللقاءَ . فكان الله عز ذكره لموسى واعداً مُواعداً

---

(١) فى المطبوعة : « فلذلك رموا أنه وجب » بزيادة « أنه » ، وهى زيادة مفسدة للمعنى .

(٢) انظر ما مضى فى تفسير « الظاهر » : ٥٠ ، والمراجع

له المناجاة على الطور ، (١) وكان موسى َواعداً لرّبه مواعداً له اللقاءَ . فبأىِّ القراءتين من« وعد » و « واعد » قرأ القارئ، فهو للحق فى ذلك — من جهة التأويل واللغة — مصيبٌ، لما وصفنا من العِلَل قبل(٢) .

ولا معنى لقول القائل : إنما تكون المواعدةُ بين البشر ، وأن الله بالوعد والوعيد منفرد فى كل خير وشر . وذلك أن انفرادَ الله بالوعد والوعيد فى الثواب والعقاب ، والخير والشر ، والنفْع والضرَّ الذى هو بيده وإليه دون سائر خلقه — لا يُحيل الكلامَ الجارىَ بين الناسَ فى استعمالهم إياه عن وجوهه ، ولا يغيِّره عن معانيه . والجارى بين الناس من الكلام المفهوم ما وصفنا : من أنَّ كل اتِّعادكان بين اثنين ، (٣) فهو وعْد من كل واحد منهما صاحبَه ، ومواعدةٌ بينهما ، وأنَّ كلَّ واحد منهما واعدٌ صاحبه مواعدٌ . وأن الوعْد الذى يكون به الانفرادُ من الواعد دون الموعود ، إنما هو ما كان بمعنى « الوعد » الذى هو خلافُ « الوَعيد » . ١/٢٢٢

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره { مُوسَى }

« وموسى » — فيما بلغنا — بالقبطية كلمتان، يُعنى بهما : ماء وشجر . « فمو » ، هو الماء ، و « شا » هو الشجر . (٤) وإنما سمى بذلك — فيما بلغنا — لأن أمه لما جعلته فى التابوت — حين خافت عليه من فرعون وألقته فى اليمِّ ، كما أوحى الله إليها ، وقيل : إن اليمَّ الذى ألقته فيه هو النيل — دفعته أمواجُ اليم حتى أدخلته بين أشجار عند بيت فرعون ، فخرج جوارى آسيةَ امرأةِ فرعون يغتسلنَ، فوجدن

(١) فى المطبوعة : « قد كان وعد موسى » بزيادة « قد » ، وفيها أيضاً « وكان الله عز وجل لموسى واعد ومواعداً » ، والواو هنا ليست بشىء فى قوله « وكان » ، و « ومواعداً » .

(٢) فى المطبوعة : « فهو الحق فى ذلك . . . » ، وهو خطأ .

(٣) فى المطبوعة هنا أيضاً كما سلف : « كل إيعاد » ، وهو فساد وخطأ .

(٤) فى المطبوعة والمخطوطة : « سا » وأثبت ما فى التاريخ .

التابوت فأخذنه . فسمى باسم المكان الذى أصيب فيه ، ، وكان ذلك بمكان فيه ماء وشجر ،[١] فقيل : موسى ، ماء وشجر . كذلك : —

٩١٢ — حدثنى موسى بن هرون، قال حدثنا عمرو بن حماد، عن أسباط بن نصر، عن السدى .[٢]

* * *

وقال أبو جعفر : وهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله ، فيما زعم ابن إسحق .

٩١٣ — حدثنى بذلك ابن حميد قال، حدثنا سلمة بن الفضل، عنه .[٣]

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

ومعنى ذلك : وإذ وَاعَدنا موسى أربعين ليلة بتمامها . فالأربعون ليلة كلها داخلة فى الميعاد .

وقد زعم بعض نحويّى البصرة أن معناه : وإذ وَاعدنا موسَى انقضاء أربعين ليلة، أى رأسَ الأربعين . ومثّل ذلك بقوله : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ [سورة يوسف : ٨٢] وبقولهم : « اليوم أربعون منذ خرج فلان » ، « واليوم يومان » . أى اليوم تمامُ يومين ، وتمام أربعين .

قال أبو جعفر : وذلك خلاف ما جاءت به الرواية عن أهل التأويل ، وخلافُ ظاهر التلاوة . فأما ظاهر التلاوة، فإن الله جل ثناؤه قد أخبر أنه واعد موسى أربعين ليلة ، فليس لأحد إحالة ظاهر خبره إلى باطن،[٤] بغير برهان دالّ على صحته.

---

(١) فى المطبوعة : « وكان ذلك المكان فيه » وليست بشىء .

(٢) الأثر : ٩١٢ تاريخ الطبرى ١ : ٢٠١ فى خبر طويل .

(٣) الأثر : ٩١٣ — مختصر من خبر نسبه فى تاريخ الطبرى ١ : ١٩٨ .

(٤) انظر تفسير « ظاهر » و « باطن » فيما سلف ص : ٥٠ ، والمراجع قبلها

* * *

وأما أهل التأويل فإنهم قالوا فى ذلك ما أنا ذاكره ، وهو ما : —

٩١٤ — حدثنى به المثنى بن إبراهيم قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، قوله : « وإذ واعدْنا موسَى أربعين ليلة » ، قال : يعنى ذا القَعْدة وعشراً من ذى الحِجَّة . وذلك حين خلَّف موسى أصحابه واستخلف عليهم هرون ، فمكث على الطُّور أربعين ليلة ، وأنزل عليه التوراةُ فى الألواح — وكانت الألواح من بَرَد[1] — فقربه الرّب إليه نجيًّا وكلَّمه ، وسمع صَرِيفَ القلم . وبلغنا أنه لم يُحدث حدثاً فى الأربعين ليلةً حتى هبط من الطُّور .[2]

٩١٥ — وحدثت عن عمار بن الحسن ، حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بنحوه .

٩١٦ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة بن الفضل ، عن ابن إسحق قال : وعد الله موسى — حين أهلك فرعونَ وقومَه . ونجَّاه وقومَه — ثلاثين ليلة ثم أتمَّها بعشر، فتمّ ميقات ربِّه أربعين ليلة، يلقاه ربه فيها ما شاء .[3] واستخلف موسى هرونَ على بنى إسرائيل، وقال : إنىّ متعجِّل إلى ربى، فاخلُفنى فى قومى ولاتتَّبع سبيلَ المفسدين. فخرج موسَى إلى ربه متعجلاً لِلُقِيِّه شوقاً إليه،[4] وأقام هرون فى بنى إسرائيلَ ومعه السامرىّ ، يسيرُ بهم على أثر موسى ليلحقهم به .[5]

٩١٧ — حدثنى موسى بن هرون قال، حدثنا عمرو بن حماد قال، حدثنا

---

(١) فى المطبوعة : « وكانت الألواح من زبرجد » ، والصواب ما أثبته من المخطوطة ، وبما جاء عن أبى العالية ، فى صفة الألواح ٩ : ٤٦ (بولاق) .

(٢) صريف الأقلام : صوتها وصريرها وهى تجرى بما تكتبه الملائكة . وقوله : « لم يحدث حدثاً » ، أى لم يكر به ما يكرب الناس من قضاء الحاجة .

(٣) فى المطبوعة : « تناه ربه فيها بما شاء » .

(٤) فى المطبوعة : « للقائه » ، وهما سواء فى المعنى .

(٥) الأثر : ٩١٦ — صدر هذا الأثر فى تاريخ الطبرى ١ : ٢١٧ — ٢١٨ ، ولكن قطعه الطبرى ، وأتمه من خبر السدى .

أسباط ، عن السدى ، قال : انطلق موسى ، واستخلف هرون على بنى إسرائيل ، وواعدَهم ثلاثين ليلة ، وأتمها الله بعشر .[١]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

وتأويل قوله : « ثم اتخذتم العجلَ من بَعده » ، ثم اتخذتم فى أيام مُواعَدة مُوسى العجلَ إلهاً ، من بعد أن فارقكم موسى متوجّهاً إلى الموعد . و «الهاء» فى قوله : « من بَعْدِه » عائدةٌ على ذكر موسى .

فأخبر جل ثناؤه المخالفين نبيَّنا صلى الله عليه وسلم من يهود بنى إسرائيل ، المكذّبين ، المخاطَبين بهذه الآية — عن فِعل آبائهم وأسلافهم ، وتكذيبهم رُسُلهم ، ١/٢٢٣ وخلافهم أنبياءَهم ، مع تَتابع نِعَمه عليهم ، وشُيوع آلائه لديهم ،[٢] معرِّفهم بذلك أنهم — من خلاف محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم به ، وجحودهم لرسالته ، مع علمهم بصدقه[٣] — على مثل منهاج آبائهم وأسلافهم ، ومحذِّرَهم من نزول سَطوته بهم = بمُقامهم على ذلك من تكذيبهم = ما نزلَ بأوائلهم المكذبين بالرسُل : منَ المسخ واللعن وأنواع النَّقِمات .

وكان سببُ اتخاذهم العجل ، ما : —

٩١٨ — حدثنى به عبد الكريم بن الهيثم قال ، حدثنا إبراهيم بن بشار الرمادى قال ، حدثنا سفيان بن عيينة قال ، حدثنا أبو سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما هجم فرعون على البحر هو وأصحابه ، وكان فرعونُ على فرس أدهم

---

(١) الأثر : ٩١٧ — فى تاريخ الطبرى فى خبر طويل ١ : ٢١٨ ، وسيأتى تمامه فى رقم : ٩١٩.

(٢) فى المطبوعة : « سبوغ آلائه » . وشيوع آلائه : ظهورها وعمومها حتى استوى فيها جميعهم . وانظر ما سيأتى بعد ص : ٨١ ، تعليق : ٣ .

(٣) فى المطبوعة : « من خلافهم محمداً . . . »

ذَنُوب حِصَان ، فلما هجم على البحر ، هابَ الحصان أن يقتحم فى البحر ، فتمثل له جبريل على فرس أنثى وَدِيق ، فلما رآها الحصان تقحَّم خلفها.[1] قال : وعرف السامرىُّ جبريلَ ، لأن أمه حين خافت أن يُذبح خلَّفته فى غار وأطبقت عليه ، فكان جبريل يأتيه فيغذُوه بأصابعه ، فيجد فى بعض أصابعه لبناً ، وفى الأخرى عسلاً ، وفى الأخرى سمناً ، فلم يزل يغذوه حتى نشأ . فلما عاينه فى البحرَ عرَفه ، فقبض قبضةً من أثر فَرَسه ، قال : أخذ من تحت الحافر قبضةً . — قال سفيان: فكان ابن مسعود يقرؤها: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ فَرَسِ الرَّسُولِ﴾ [سورة طه : ٩٦] —

قال أبو سعيد قال ، عكرمة ، عن ابن عباس : وألقى فى رُوْع السامرىّ:[2] إنك لا تُلقيها على شىء فتقول : «كنْ كذا وكذا»، إلا كان . فلم تزل القَبْضة معه فى يده حتى جاوز البحرَ . فلما جاوز موسى وبنو إسرائيل البحرَ ، وأغرق الله آل فرعون ، قال موسى لأخيه هرون : اخلُفْنى فى قومى وأصْلح. ومضى موسى لموعد ربّه.قال: وكان مع بنى إسرائيل حَلْىٌ من حَلْىِ آل فرعون قد تعوَّرُوه،[3] فكأنهم تأثَّموا منه، فأخرجوه لتنزلَ النارُ فتأكله . فلما جمعوه، قال السامرى بالقبضة التى كانت فى يده هكذا ،[4] فقذفها فيه — وأومأ ابن إسحق بيده هكذا — وقال : كن عِجلاً جسداً له خُوارٌ . فصار عجلاً جسداً له خوارٌ، وكان تدخل الريح فى دُبُره وتخرج من فيه، يسمع له صوت ، فقال : هذا إلهكم وإله موسى . فعكفوا على العجل يعبدُونه ، فقال هرون : ياقوم ، إنما فُتِنتم به، وإن ربَّكم الرحمنُ فاتَّبعونى وأطيعوا أمرى ! قالوا : لن نَبرَح عليه عاكفين حتى يرجعَ إلينا موسى .

٩١٩ — حدثنى موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا

---

(١) انظر آخر الأثر رقم : ٩٠٩ فهو هذا بنصه ، ثم يأتى تمامه .

(٢) الروع (بضم الراء) : القلب والعقل . وقع ذلك فى روعى : أى فى نفسى وخلدى و بالى .

(٣) تعور الشىء واستعاره : أخذه عارية ، كما تقول : تعجب واستعجب .

(٤) قال بالقبضة : رفعها مشيراً بيده ليلقيها . وقد مضى تفسير ذلك فى ص : ٥٤ تعليق : ٣

أسباط بن نصر ، عن السدى : لما أمر الله موسى أن يخرج ببنى إسرائيل — يعنى من أرض مصر — أمر موسى بنى إسرائيل أن يخرجوا ، وأمرهم أن يستعيروا الحلى من القِبْط . فلما نجَّى اللهُ موسى ومن معه من بنى إسرائيل من البحر ، وغرق آل فرعون ، أتى جبريلُ إلى موسى يذهب به إلى َ الله . فأقبل على فرسٍ ، فرآه السامرىُّ فأنكره وقال : إنه فَرَسُ الحياة ! فقال حين رآه : إنّ لهذا لشأناً ! فأخذ من تربة الحافر — حافر الفرس — فانطلقَ موسى ، واستخلف هرون على بنى إسرائيل ، وواعدهم ثلاثين ليلة ، وأتمها الله بعشر . فقال لهم هرون : يا بنى إسرائيل ، إن الغنيمةَ لا تحلُّ لكم ، وإن حلّى القبط إنّما هو غنيمة ، فاجمعوها جميعاً واحفروا لها حفرة فادفنوها ، فإن جاء موسى فأحلّها أخذتموها ، وإلاّ كان شيئاً لم تأكلوه . فجمعوا ذلك الحلى فى تلك الحفرة ، وجاء السامرى بتلك القبضة فقذَفها ، فأخرج الله من الحلى عجلاً جسداً له خُوَار . وعدَّت بنو إسرائيل موعِدَ موسى ، فعدُّوا الليلة يوماً واليومَ يوماً . فلما كان تمام العشرين ، خرج لهم العجلُ . فلما رأوهُ قال لهم السامرى : هذا إلهكم وإله موسَى فنسِيَ — يقول ترك موسى إلهه ههنا وذهب يطلبه . فعكفوا عليه يَعبدونه ، وكان يَخور ويمشى . ١/٢٢٤ فقال لهم هرون : يا بنى إسرائيل إنما فُتنتم به — يقول : إنما ابتليتم به ، يقول : بالعجل — وإنّ ربكم الرّحمن . فأقام هرون ومن معه من بنى إسرائيل لا يقاتلونهم ، وانطلق موسى إلى إلهه يكلمه ، فلما كلّمه قال له : ما أعجلك عن قومِك يا موسى ؟ قال : هم أولاء على أثرى وَعجلتُ إليكَ ربِّ لترضى . قال : فإنا قد فتنّا قومك من بعدِك وأضلَّهم السامرىّ : فأخبره خبرهم . قال موسى : ياربّ ، هذا السامرىّ أمرهم أن يتخذوا العجلَ ، أرأيت الرّوح من نَفَخها فيه ؟ قال الرب : أنا . قال : ربّ أنت إذاً أضللْتَهم .[1]

٩٢٠ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق قال : كان

---

(١) الأثر : ٩١٩ — مضى صدره فى رقم : ٩١٧ . وفى التاريخ ١ : ٢١٨ .

– فيما ذُكر لى – أن موسى قال لبنى إسرائيلَ فيما أمرهُ الله به : استعيروا منهم – يعنى من آل فرعون – الأمتعة والحلى والثيابَ ، فإنى مُنفِّلكم أموالَهم مع هلاكهم. فلما أذّن فرعون فى الناس، كان مما يحرِّض به على بنى إسرائيل أنْ قالَ : حين ساروا لم يرضوا أن خرجوا بأنفسهم ، حتى ذهبوا بأموالكم معهم ![1]

٩٢١ – حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثنى محمد بن إسحق عن حكيم بن جبير ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان السامرى رجلًا من أهل باجَرْمَا ، وكان من قوم يعبدون البقر ، وكان حُبّ عبادةِ البقر فى نفسه ، وكان قد أظهر الإسلام فى بنى إسرائيل . فلما فَصَل هرون فى بنى إسرائيل ، وفصل موسى إلى ربه ،[2] قال لهم هرون: أنتم قد حمِّلتم أوزاراً من زينة القوم – آل فرعون – وأمتعةً ، وحليًّا ، فتطهَّروا منها فإنها نَجَسٌ . وأوقد لهم ناراً فقال: اقذِفوا ما كان معكم من ذلك فيها . قالوا : نعم . فجعلوا يأتون بما كان فيهم من تلك الأمتعة وذلك الحلى ،[3] فيقذفون به فيها . حتى إذا تكسّر الحلى فيها ، ورأى السامرىّ أثر فرس جبريل ، فأخذ تراباً من أثر حافره ،[4] ثم أقبل إلى النار فقال لهرون:[5] يانبى الله، ألقِى ما فى يدى؟ قال : نعم . ولا يظن هرون إلا أنه كبعض ما جاء به غيرُه من ذلك الحلى والأمتعة، فقذفه فيها وقال : «كن عجلا جسداً له خوار» ، فكان ، للبلاء والفتنة . فقال: هذا إلهكم وإلهُ موسى. فعكفوا عليه ، وأحبُّوه حبًّا لم يحبّوا مثله شيئا قط. يقول الله عز وجل : ﴿فَنَسِيَ﴾ ، [سورة : طه ٨٨] أى ترك ما كان عليه من الإسلام – يعنى السامرى – ﴿أفلا

---

(١) الأثر : ٩٢٠ – فى تاريخ الطبرى ١ : ٢١٦ . وفى المطبوعة «أن يخرجوا بأنفسهم» ، وأثبت ما فى المخطوطة والتاريخ . نفله الشىء : جعله نفلا ، أى غنيمة مستباحة .

(٢) فصل فلان عن البلد يفصل فصولا : إذا خرج وفارقها .

(٣) فى المطبوعة : «بما كان معهم» ، غيروه ليستقيم على دارج ما ألفوه .

(٤) فى المطبوعة : «أخذ تراباً» ، حذفوا الفاء ليستقيم على ما بينهم ، فيما زعموا .

(٥) فى تاريخ الطبرى : «ثم أقبل إلى الحفرة . . .»

يَرَوْنَ أَنْ لاَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا ﴾ [سورة طه : ٨٩] وكان اسم السامرىّ . موسى بن ظَفَر — وقع فى أرض مصرَ فدخل فى بنى إسرائيل.(١) فلما رأى هرون ماوقعوا فيه قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوا أَمْرِى * قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾[سورة طه : ٩٠ – ٩١] . فأقام هرون فيمن معه من المسلمين ممن لم يُفتتَن ، وأقام من يعبُد العجل على عبادة العجل، وتخوّف هرون، إنْ سار بمن معه من المسلمين، أن يقول له موسى: فرّقت بَين بنى إسرائيل ولم ترقُبْ قَوْلى . وكان له هائباً مطيعاً(٢) .

٩٢٢ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال،أخبرنا ابن وهب، قال، قال ابن زيد : لما أنجى الله عز وجل بنى إسرائيل من فرعون ، وأغرق فرعون ومن معه ، قال موسى لأخيه هرون: اخلفنى فى قومى وأصْلح ولا تَتبع سبيلَ المفسدين . قال: لما خرج موسى وأمر هرون بما أمره(٣) ، وخرج موسى مُتعجِّلاً مسروراً إلى الله، قد عرَف موسى أنّ المرء إذا أنجح فى حاجة سيده ، كان يسرُّه أن يتعجَّل إليه(٤).

قال: وكان حين خرجوا استعاروا حَلياً وثياباً من آل فرعون ، فقال لهم هرون : ١/٢٢٥ إنّ هذه الثياب والحَلْى لا تحلُّ لكم ، فاجمعوا ناراً فألقوه فيها فأحرقوه . قال : فجمعوا ناراً . قال : وكان السامرىُّ قد نظر إلى أثر دابّة جبريل ، وكان على فرس أنثى — وكان السامرى فى قوم موسى — قال : فنظر إلى أثره فقبض منه قبضة ، فيبست عليها يده . فلما ألقى قومُ موسى الحلى فى النار، وألقى السامرى

---

(١) هو كما ذكر فى أول الخبر من أهل « باجرما » ، وباجرما : قرية من أعمال البليخ قرب الرقة ، من أرض الجزيرة . (ياقوت) . ويقال : موضع قبل نصيبين (معجم ما استعجم) . وقال الميدانى فى شرح المثل : [خطب يسير فى خطب كبير] أن الزباء كانت من أهل باجرما وتتكلم العربية .

(٢) الأثر : ٩٢١ — فى تاريخ الطبرى ١ : ٢١٩ — ٢٢٠ .

(٣) فى المطبوعة: « بما أمره به » .

(٤) فى المطبوعة : « نجح »، وأنجح : أدرك طلبته وبلغ النجاح . وإن كنت أخشى أن يكون فى الكلمة تصحيف خفى على .

مَعهم القبضة ، صَوَّر الله جل وعز ذلك لهم عجلاً ذهباً ، فدخلته الريحُ فكان له خُوَار . فقالوا : ما هذا ؟ فقال السامريُّ الخبيث : ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ ، الآية — إلى قوله ﴿ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [سورة طه : ٨٨ – ٩١] قال : حتى إذا أتى موسى الموعدَ قال الله : ﴿ مَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ [سورة طه : ٨٤ – ٨٦]

٩٢٣ — حدثنا القاسم بن الحسن قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد في قوله : « ثُمّ اتخذتم العجل من بَعده » . قال : العجل : حَسِيلُ البقرة[1]. قال : حليٌّ استعاروه من آل فرعون ، فقال لهم هرون : أخرجوه فتطهّروا منه وأحرقوه . وكان السامري أخذَ قبضة من أثر فرس جبريل فطرحه فيه ، فانسبك ، فكان له كالجوف تهوى فيه الرياح .

٩٢٤ — حدثني المثنى بن إبراهيم قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية قال : إنما سُمّيَ العِجل ، لأنهم عَجِلوا فاتخذوه قبلَ أن يأتيهم موسى .

٩٢٥ — حدثني محمد بن عمرو الباهلي قال ، حدّثنا أبو عاصم قال ، حدثني عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، بنحو حديث القاسم عن الحسن .

٩٢٦ — حدثني المثنى بن إبراهيم قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد بنحوه[2]

* * *

(١) الحسيل (بفتح فكسر) : ولد البقرة .

(٢) الأثران : ٩٢٥ ، ٩٢٦ — في المخطوطة ساق إسناد الأثرين جميعاً في موضع واحد قال : « قال حدثنا عيسى — وحدثني المثنى بن إبراهيم ، قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل — جميعاً عن أبي نجيح ، عن مجاهد في قوله : « ثم اتخذتم العجل » قال : العجل : حسيل البقرة . . . » ثم ساق نص ما في الأثر : ٩٢٤ . فآثرت ترك ما في المطبوعة على حاله .

تأويل قوله ﴿ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (٥١)

يعنى : وأنتمُ واضعو العبادة فى غير موضعها ، لأن العبادة لا تَنبغى إلا لله عز وجل ، وعبدتُم أنتم العجل ظلماً منكم ، ووضعاً للعبادة فى غير موضعها . وقد دللنا — فى غير هذا الموضع مما مضى من كتابنا — أنّ أصلَ كل ظُلم ، وضع الشىء فى غير مَوْضعه . فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا الموضع [1] .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٥٢)

قال أبو جعفر : وتأويل قوله : « ثم عفونا عنكم من بعد ذلك » ، يقول : تركنا معاجلتكم بالعقوبة ، « من بعد ذلك » ، أى من بعد اتخاذكم العجل إلهاً ، كما :—

٩٢٧ — حدثنى به المثنى بن إبراهيم قال ، حدثنا آدم العسقلانى قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : « ثُم عفونا عنكم من بعد ذلك » ، يعنى : من بعد ما اتخذتم العجلَ .

* * *

وأما تأويل قوله : « لعلكم تشكرون » ، فإنّه يعنى به : لتشكروا . ومعنى « لعل » فى هذا الموضع معنى « كى » . وقد بينتُ فيما مضى قبلُ أن أحد معانى « لعل » « كى » ، بما فيه الكفاية عن إعادته فى هذا الموضع [2] .

* * *

فمعنى الكلام إذاً : ثم عفونا عنكم من بعد اتخاذكم العجلَ إلهاً ، لتشكرونى على عفوى عنكم ، إذ كان العفوُ يوجب الشكرَ على أهل اللبّ والعقل .

* * *

---

(١) انظر ما مضى ١ : ٥٢٣ — ٥٢٤ .

(٢) انظر ما مضى ١ : ٣٦٤ — ٣٦٥ .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله : « وإذ آتينا موسى الكتابَ » : واذكروا أيضاً إذْ آتينا مُوسى الكتاب والفُرقان. ويعنى بـ «الكتاب» : التوراة ، وبـ «الفرقان» : الفصل بين الحق والباطل، كما : —

٩٢٨ — حدثنى المثنى بن إبراهيم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية فى قوله : « وَإذ آتينا مُوسَى الكتابَ والفرقان » ، قال : فَرَقَ به بينَ الحقّ والباطل .

١/٢٢٦ ٩٢٩ — حدثنى محمد بن عمرو الباهلى قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله : « وإذْ آتينا مُوسَى الكتاب والفرقان » ، قال : الكتاب : هو الفرقان ، فُرقانٌ بين الحق والباطل[1] .

٩٣٠ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

٩٣١ — وحدثنى القاسم بن الحسن قال، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد ، قوله : « وإذْ آتينا مُوسَى الكتابَ والفرقَان » ، قال: الكتاب هو الفُرقان ، فرَق بين الحق والباطل .

٩٣٢ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج قال ، وقال ابن عباس : « الفُرقان » جِمَاعُ اسم التوراة والإنجيل والزّبور والفُرقَان .

وقال ابن زيد فى ذلك بما : —

٩٣٣ — حدثنى به يونس بن عبد الأعلى قال ، أخبرنا ابن وهب . قال ،

---

(١) فى المخطوطة : « هو الفرقان بين الحق والباطل » ، والذى فى المطبوعة أجود .

سألته — يعنى ابن زيد — عن قول الله عز وجل : « وإذْ آتينا موسَى الكتابَ والفرقان » فقال : أمّا « الفُرْقان » الذى قال الله جل وعز : « ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ [سورة الأنفال : ٤١] ، فذلك يومُ بدر ، يومَ فَرَق الله بين الحق والباطل ، والقضاءُ الذى فرق به بين الحق والباطل . قال : فكذلك أعطى الله موسى الفُرْقان ، فرق الله بينهم ، وسلّمه وأنجاه ، فرقَ بينهم بالنصر . فكما جعل الله ذلك بين محمد صلى الله عليه وسلم و بين المشركين ، فكذلك جعله بين موسى وفرعون.[1]

* * *

قال أبو جعفر : وأولى هذه التأويلات بتأويل الآية ،[2] ما روى عن ابن عباس وأبى العالية ومجاهد : من أنّ « الفرقان » ، الذى ذكر الله أنه آتاه موسى فى هذا الموضع ، هو الكتاب الذى فَرَق به بين الحق والباطل ، وهو نعتٌ للتوراة وصفة لها.

فيكون تأويل الآية حينئذ : وإذ آتينا موسى التوراة التى كتبناها له فى الألواح وفرّقنا بها بين الحق والباطل .

فيكون « الكتاب » نعتاً للتوراة أقيم مقامَها ، استغناء به عن ذكر التوراة ، ثم عَطف عليه بـ « الفرقان » ، إذ كان من نعتها .

* * *

وقد بينا معنى «الكتاب» فيما مضى من كتابنا هذا ، وأنه بمعنى المكتوب .[3]

* * *

وإنما قلنا هذا التأويل أولى بالآية ، وإن كان محتملاً غيرُه من التأويل ، لأن الذى قبله من ذِكْر «الكتاب» ، وأن معنى « الفرقان » الفصل[4] — وقد دللنا على ذلك فيما مضى من كتابنا هذا[5] — ، فإلحاقُه ، إذْ كان كذلك ، بصفة ما وَليه ، أولَى من إلحاقه بصفة ما بَعُد منه .

---

(١) فى المطبوعة : « بين محمد والمشركين » ، وأثبت ما فى المخطوطة .

(٢) فى المطبوعة : « فأولى هذين التأويلين . . . » .

(٣) انظر ما مضى ١ : ٩٧ — ٩٩ .

(٤) فى المطبوعة : « لأن الذى قبله ذكر الكتاب » بإسقاط « من » .

(٥) انظر ما مضى ١ : ٩٨ — ٩٩ .

وأما تأويل قوله : « لعلكم تهتدون » ، فنظير تأويل قوله : « لعلكم تشكرون » ، ومعناه لتهتدوا[1] .

وكأنه قال : واذكروا أيضاً إذ آتينا موسى التوراة التى تفرق بين الحق والباطل لتهتدوا بها ، وتتبعوا الحق الذى فيها ، لأنى جعلتها كذلك هدًى لمن اهتدى بها ، واتبع ما فيها .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوٓا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥٤)

وتأويل ذلك : واذكروا أيضاً إذ قال موسى لقومه من بنى إسرائيل : يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم. وظلمهم إياها ، كان فعلهم بها ما لم يكن لهم أن يفعلوه بها ، مما أوجب لهم العقوبة من الله تعالى . وكذلك كل فاعل فعلاً يستوجب به العقوبة من الله تعالى ، فهو ظالم لنفسه بإيجابه العقوبة لها من الله تعالى . وكان الفعل الذى فعلوه فظلموا به أنفسهم ، هو ما أخبر الله عنهم : من ارتدادهم باتخاذهم العجل ربًّا بعد فراق موسى إياهم .

ثم أمرهم موسى بالمراجعة من ذنبهم ، والإنابة إلى الله من ردتهم ، بالتوبة ١/٢٢٧ إليه ، والتسليم لطاعته فيما أمرهم به . وأخبرهم أن توبتهم من الذنب الذى ركبوه قتلهم أنفسهم .

* * *

وقد دللنا فيما مضى على أن معنى « التوبة » : الأوبة مما يكرهه الله إلى مايرضاه

(١) انظر ما مضى ٢ : ٦٩ .

من طاعته .[١]

* * *

فاستجاب القوم لما أمرهم به موسى من التوبة مما ركبوا من ذنوبهم إلى ربهم، على ما أمرهم به ، كما : —

٩٣٤ — حدثنا محمد بن المثنى قال ، حدثنا محمد بن جعفر قال ، حدثنا شعبة بن الحجاج ، عن أبي إسحق ، عن أبي عبد الرحمن أنه قال في هذه الآية : « فاقتلوا أنفسكم » ، قال : عَمَدوا إلى الخناجر فجعل يطعُن بعضُهم بعضاً .

٩٣٥ — حدثني عباس بن محمد قال ، حدثنا حجاج بن محمد ، قال ابن جريج ، أخبرني القاسم بن أبي بزة أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهداً قالا : قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتُل بعضهم بعضاً ، لا يَحِنُّ رجلٌ على رجل قريب ولا بعيد ،[٢] حتى ألْوى موسى بثوبه ،[٣] فطرَحوا ما بأيديهم ، فتكشَّف عن سبعين ألف قتيل . وإنّ الله أوحى إلى موسى : أنْ حَسْبِي ، فقد اكتفيت ! فذلك حين ألوَى بثوبه .[٤]

٩٣٦ — حدثني عبد الكريم بن الهيثم قال ، حدثنا إبراهيم بن بَشار قال ، حدثنا سفيان بن عيينة قال ، قال أبو سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال موسى لقومه : « تُوبُوا إلى بَارئكم فَاقتلوا أنفسكم ذلكم خيرٌ لكم عند بَارئكم فتابَ عليكمْ إنه هو التَّوّاب الرحيم » . قال : أمر موسى قومَه — عن أمر ربه عز وجل — أن يقتلوا أنفسهم ، قال : فاحتبى الذين عكفوا على العجل فجلسوا ،[٥]

---

(١) انظر ما سلف ١ : ٥٤٧ .

(٢) حن عليه : عطف عليه . وفي ابن كثير ١ : ١٦٩ « لا يحنو » ، وهو مثله في المعنى .

(٣) ألوى بثوبه : لمع به وأشار . يأمرهم موسى بالكف عما هم فيه .

(٤) في المطبوعة : « قد اكتفيت ، فذلك حين ألوى . . . » . وفي المخطوطة « بذلك » ، واخترت ما نقله ابن كثير ١ : ١٦٩ .

(٥) في المخطوطة : « فاختبأ الذي عكفوا . . . » ، وفي ابن كثير ١ : ١٦٩ : « فأخبر » ، وهو خطأ محض . واحتبى بثوبه : ضم رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره ، يشده عليها ، وقد يكون الاحتباء باليدين عوض الثوب . وانظر البغوي ١ : ١٦٩ ، فهو دال على صواب ما استظهرته في قراءة الكلمة .

وقام الذين لم يعكفوا على العجل ، وأخذوا الخناجر بأيديهم ، وأصابتهم ظلمة شديدةٌ ، فجعل يقتل بعضهم بعضاً ، فانجلت الظلمة عنهم وقد أجلَوْا عن سبعين ألف قتيل ،[1] كلّ من قُتل منهم كانت له توبة ، وكل من بَقِى كانت له توبة .

٩٣٧ — حدثنى موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى قال : لما رجع موسى إلى قومه قال : ﴿يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ إلى قوله ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [سورة طه : ٨٦ – ٨٧] . فألقى موسى الألواحَ وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [سورة طه : ٩٤] . فترك هرونَ ومال إلى السامرى ، فقال : ﴿ما خَطْبُكَ يا سَامِرِيُّ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [سورة طه : ٩٥ – ٩٧] ثم أخذه فذبحه ، ثم حرقه بالمبرد ،[2] ثم ذرّاه فى اليم ، فلم يبق بحر يجرى يومئذ إلا وقع فيه شىء منه . ثم قال لهم موسى : اشربوا منه . فشربوا ، فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب . فذلك حين يقول : ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [سورة البقرة : ٩٣] . فلما سُقط فى أيدى بنى إسرائيل حين جاء موسى ، ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا : «لئن لم يرحمنا ربُّنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين» . فأبى الله أن يقبل توبة بنى إسرائيل ، إلا بالحال التى كرهوا أن يقاتلهم حين عبدوا العجل ،[3] فقال لهم موسى : «يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجلَ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم» . قال : فصَفُّوا صفَّين ، ثم اجتلدوا بالسيوف . فاجتلد الذين عبدوه

(١) أجلى عن كذا : انكشف عنه .

(٢) حرق الحديد بالمبرد حرقاً ، وحرقه (بتشديد الراء) : برده وحك بعضه ببعض . وكذلك جاء عن ابن إسحاق فى تاريخ الطبرى ١ : ٢٢٠ قال : «سمعت بعض أهل العلم يقول : إنما كان إحراقه سحله» . والسحل : السحق والحك بالمبرد .

(٣) فى المطبوعة : «أن يقاتلوهم» ، وأثبت ما فى المخطوطة ، وتاريخ الطبرى .

والذين لم يعبدوه بالسيوف ، فكان من قتل من الفريقين شهيداً ، حتى كثُر القتل ، حتى كادوا أن يَهلكوا ، حتى قُتل بينهم سبعون ألفاً ، حتى دعا موسى وهرون[1] : ربَّنا هلكت بنو إسرائيل ! ربنا البقية البقية ! [2] فأمرهم أن يضعوا السلاح وتاب عليهم . فكان من قتل شهيداً ، ومن بقى كان مكفَّراً عنه . فذلك قوله : « فتاب عليكم إنه هو التوابُ الرحيم » .[3]

٩٣٨ — حدثنى محمد بن عمرو الباهلى قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله تعالى : « باتخاذكم العجل » ، قال : كان موسى أمر قومَه — عن أمر ربه — أن يقتل بعضُهم بعضاً بالخناجر ، فجعل الرجل يقتل أباه ويقتل ولده ، فتاب الله عليهم . ٢٢٨/١

٩٣٩ — وحدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : « باتخاذكم العجل » ، قال : كانَ أمر موسى قومه — عن أمر ربه — أن يقتل بعضهم بعضاً ، ولا يقتل الرجل أباه ولا أخاه . فبلغ ذلك فى ساعة من نهار سبعين ألفاً .[4]

٩٤٠ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله : « وإذْ قَالَ مُوسَى لقومه يَاقوم إنكم ظلمتم أنفسكم » الآية ، قال : فصاروا صَفَّين ، فجعل يقتل بعضهم بعضاً ، فبلغ القتلى ما شاء الله . ثم قيل لهم : قد تِيبَ على القاتل والمقتول .

٩٤١ — حدثنا المثنى قال ، حدثنا أبو صالح قال ، حدثنى الليث قال ، حدثنى عقيل ، عن ابن شهاب قال : لما أُمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها ، برزوا

---

(١) فى المخطوطة والمطبوعة : « وحتى دعا موسى » ، وأثبت ما فى التاريخ بحذف واو العطف .
(٢) البقية : الإبقاء عليهم ، يدعوان ربهما أن يبقى بقية ، فلا يستأصلهم بقتل أنفسهم .
(٣) الأثر : ٩٣٧ — فى تاريخ الطبرى ١ : ٢١٩ .
(٤) الأثر : ٩٣٩ — سقط هذا الأثر كله من المطبوعة .

ومعهم موسى ، فاضطربوا بالسيوف ، (١) وتطاعنوا بالخناجر ، وموسى رافع يديه . حتّى إذا فتر ، أتاه بعضهم فقالوا : يانبي الله، ادعُ الله لنا . وأخذوا بعضديه يسندون يديه .(٢) فلم يزل أمرهم على ذلك ، حتّى إذا قبل الله توبتهم قبض أيدى بعضهم عن بعض ، فألقوا السلاح . وحزن موسى وبنو إسرائيل للذى كان من القتل فيهم ، فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى : ما يحزنك؟ (٣) أما من قتل منكمُ ، فحيٌّ عندى يرزق ؛ وأما من بقى، فقد قبلت توبته ! فبشّر بذلك موسى بنى إسرائيل(٤) .

٩٤٢ ــ حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر ، عن الزهرى وقتادة فى قوله: « فاقتلوا أنفسكم »، قال : قاموا صفّين يقتل بعضهم بعضاً ،(٥) حتّى قيل لهم : كُفّوا ! قال قتادة : كانت شهادةً للمقتول وتوبة للحىّ .

٩٤٣ ــ حدثنا القاسم بن الحسن قال، حدثنا الحسين بن داود قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، قال : قال لى عطاء : سمعت عبيد بن عمير يقول : قام بعضهم إلى بعض، يقتل بعضهم بعضاً، ما يترابأ الرجل أخاه ولا أباه ولا ابنه ولا أحداً، حتّى نزلت التوبة .(٦)

قال ابن جريج ، وقال ابن عباس: بلغ قتلاهم سبعين ألفاً، ثم رفع الله جل وعز عنهم القتل وتاب عليهم .

---

(١) فى المطبوعة : « فتضاربوا » وأثبت ما فى المخطوطة وابن كثير ١ : ١٧٠ . وتضارب الرجلان بسيفيهما واضطربا : تجالدا بالسيف، بمعنى واحد .

(٢) فى المطبوعة : « يشدون » ، والصواب من المخطوطة وابن كثير . يريد : يسندون يديه وموسى رافع يديه يدعو الله .

(٣) فى المطبوعة : « لا يحزنك » ، والصواب من المخطوطة وابن كثير .

(٤) فى المطبوعة وابن كثير : « فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل » .

(٥) فى المطبوعة : « فقتل بعضهم بعضاً » ، ليست بشىء .

(٦) فى المطبوعة « ما يتوق الرجل » ، وفى المخطوطة « ما يترانا » . ورابأت فلاناً : اتقيته واتقانى. ومن مادته: «أربأ بك عن كذا» . أى أرفعك عنه ولا أرضاه لك . ويقال: «ما عبأت به ولا ربأت»: أى ما باليت به ولا حفلت . فقوله : « ما يترابأ » أى ما يبالى الرجل أن يقتل أخاه .

قال ابن جريج : قاموا صَفَّين فاقتتلوا بينهم ، فجعل الله القتل لمن قُتل منهم شهادةً ، وكانت توبةً لمن بقى . وكان قتلُ بعضهم بعضاً : أنّ الله علم أنّ ناساً منهم علموا أن العجلَ باطل ، فلم يمنعهم أن ينكروا عليهم إلا مخافة القتال ، فلذلك أمر أن يقتُل بعضهم بعضاً .

٩٤٤ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق قال : لما رجع موسى إلى قَوْمه — وأحرَق العِجل وذَرَّاه فى اليمّ ،[١] وخرج إلى ربّه بمن اختار من قومه ، فأخذتهم الصاعقة ، ثم بعثوا — سأل موسى ربَّه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل ، فقال : لا ، إلا أن يقتلوا أنفسهم . قال : فبلغنى أنهم قالوا لموسى : نصبرُ لأمر الله ! فأمر موسى من لم يكن عبَدَ العجلَ أن يقتُلَ من عبَدَه. فجلسوا بالأفنية ، وأصْلتَ عليهم القوم السيوف ، [٢] فجعلوا يقتلونهم . وبكى موسى ، وبَهِش إليه النساءُ والصبيانُ يطلبون العفو عنهم ،[٣] فتابَ عليهم وعفا عنهم ، وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف .[٤]

٩٤٥ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : لما رجع موسى إلى قومه وكان سبعون رجلا قد اعتزلوا مع هرون العجلَ لم يعبدوه ، فقال لهم موسى : انطلقوا إلى موعد ربكم . فقالوا : يا موسى ، أمَا من توبة ؟ قال : بلى ! « اقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتابَ عليكم »

(١) فى صدر هذا الخبر من التاريخ ١ : ٢٢٠ أن إحراق العجل : سحله ، كما مضى فى ص : ٧٤ تعليق : ٢

(٢) فى المطبوعة : « وسلت القوم عليهم السيوف » . وأثبت ما فى تاريخ الطبرى وابن كثير ١ : ١٧٠. وأصلت السيف : جرده من غمده .

(٣) بهش إليه : أقبل عليه وأسرع إليه ، وتهيأ للبكاء .

(٤) الأثر : ٩٤٤ — فى تاريخ الطبرى ١ : ٢٢١ ، وابن كثير ١ : ١٧٠ ، وفى التاريخ وحده : « أن يرفع عنهم السيف » .

هذا ، وفى النسخة المخطوطة التى اعتمدناها ، خرم من عند قوله فى هذا الأثر : « سأل ربه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة » — إلى أن يأتى قوله : « القول فى تأويل قوله تعالى : « ثم بعثناكم من بعد موتكم » . وهو أول المجلد الثانى من هذه النسخة ، وتدل وثيقة الوقف التى كتبت على ظهر هذا المجلد ، أن هذه النسخة مجزأة فى اثنين وعشرين جزءاً .

الآية . فاخترطوا السيوف والجِرَزة والخناجرَ والسكاكين .(١) قال : وبعث عليهم ضبابةً . قال : فجعلوا يتلامسون بالأيدى ، ويقتل بعضهم بعضاً . قال : ويلقَى الرجل أباه وأخاه فيقتله ولا يدرى ، ويتنادون فيها : رحم الله عبداً صَبَر نفسَهُ حتى يبلغ الله رضاه .(٢) وقرأ قول الله جل ثناؤه : ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُبِينٌ﴾ [سورة الدخان : ٣٣] . قال : فقتلاهم شُهداء ، وتِيبَ على أحيائهم ، وقرأ : « فتابَ عليكم إنه هو التوابُ الرحيم » .(٣)

١/٢٢٩

* * *

فالذى ذكرنا — عمن روينا عنهُ الأخبار التى رويناها — كان توبةُ القوم من الذنْب الذى أتوه فيما بينهم وبين ربهم ، بعبادتهم العجلَ ، مع ندمهم على ما سلفَ منهم من ذلك .

* * *

وأما معنى قوله : « فتوبوا إلى بَارئكم » ، فإنه يعنى به : ارجعوا إلى طاعة خالقكم ، وإلى ما يرضيه عنكم ، كما : —

٩٤٦ — حدثنى به المثنى بن إبراهيم قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : « فتوبُوا إلى بارئكم » ، أى : إلى خالقكم .

* * *

وهو من « بَرَأ الله الخلق يبرؤه فهو بارئ » . و « البريَّة » : الخلْق . وهى « فَعيلة » بمعنى « مفعولة » ، غير أنها لا تُهمز . كما لا يهمز « مَلَك » وهو من « لأك » ، لكنه جرى بترك الهمز كذلك .(٤) قال نابغة بنى ذبيان :

إلاَّ سُلَيْمَانَ إذْ قَالَ المَلِيكُ لَهُ : قُمْ فِى البَرِيَّةِ فَاحْدُدْهَا عَنِ الفَنَدِ(٥)

(١) اخترط السيف : سله . والجرزة (بكسر الجيم وفتح الزاى) جمع جرز (بضم فسكون) ، وهو عمود من الحديد ، سلاح يقاتل به .

(٢) فى المطبوعة : « صبر حتى يبلغ » بحذف « نفسه » . والزيادة من ابن كثير ١ : ١٧٠

(٣) الأثر : ٩٤٥ — فى ابن كثير ١ : ١٧٠ .

(٤) انظر ما مضى ١ : ٤٤٤ — ٤٤٧

(٥) ديوانه : ٢٩ ، من قصيدته التى قالها يذكر النعمان ويعتذر إليه ، وقبل البيت :

وقد قيل: إنّ «البرية» إنما لم تُهمز، لأنها «فعيلة» من « البَرَى »، والبَرَى: التراب. فكأن تأويله على قول من تأوله كذلك: أنه مخلوقٌ من التراب.

* * *

وقال بعضهم: إنما أخذت «البريّة» من قولك: «بريتُ العود». فلذلك لم يُهمز.

* * *

قال أبو جعفر: وترك الهمز من « بارئِكم » جائز، والإبدال منها جائز. فإذ كان ذلك جائزاً فى « باريكم »، فغير مستنكر أن تكون «البرية» من: « بَرَى الله الخلق »، بترك الهمزة.

* * *

وأما قوله: « ذلكم خيرٌ لكم عند بَارِئِكم »، فإنه يعنى بذلك: توبتُكم بقتلكم أنفسَكم، وطاعتُكم ربكم، خير لكم عند بارئكم، لأنكم تنجون بذلك من عقاب الله فى الآخرة على ذنبكم، وتستوجبون به الثواب منه.

* * *

وقوله: « فتاب عليكم »، أى: بما فعلتم مما أمركم به من قتل بعضكم بعضاً. وهذا من المحذوف الذى استغنى بالظاهر منه عن المتروك. لأن معنى الكلام: فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم، ذلكم خير لكم عند بارئكم، فتُبتم، فتاب عليكم. فترك ذكر قوله: «فتبتم»، إذْ كان فى قوله: « فتاب عليكم » دلالةٌ بينة على اقتضاء الكلام « فتبتم ».

* * *

ويعنى بقوله: « فتاب عليكم »، رجعَ لكم ربكم إلى ما أحببتم: من العفو عن ذنوبكم وعظيم ماركبتم، والصفح عن جرمكم، « إنه هو التواب الرحيم » يعنى: الراجعُ لمن أناب إليه بطاعته إلى ما يحب من العفو عنه.

ويعنى بـ « الرحيم »، العائد إليه برحمته المنجيةِ من عقوبته.

* * *

وَلَا أَرَى فَاعِلاً فِى النَّاسِ يُشْبِهُهُ وَلَا أُحَاشِى مِنَ الأَقْوَامِ مِنْ أَحَدِ

حددت فلان عن الشر: منعته وحبسته. والفند: الخطأ فى الرأى وفى القول.

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾

قال أبو جعفر : وتأويل ذلك : واذكروا أيضاً إذ قلتم يا موسى لن نصدّقك ولن نُقرّ بما جئتنا به، حتّى نرى الله جهرة — عياناً برفع الساتر بيننا وبينه، وكشف الغطاء دوننا ودونه، حتّى ننظر إليه بأبصارنا ، كما تُجهرَ الرَّكيّةُ . وذلك إذا كان ماؤها قد غطّاهُ الطين ، فنُقّى ما قد غطاه حتّى ظهرَ الماء وصفا . يقال منه :[1] «قد جَهرت الركية أجهرُها جَهْراً وجَهْرة» .[2] ولذلك قيل : « قد جاهر فلان بهذا الأمر مُجاهَرة وجِهاراً» ،[3] إذا أظهره لرأى العين وأعلنه ، كما قال الفرزدق بن غالب :

مِنَ اللَّائِى يَظَلُّ الأَلفُ مِنْهُ مُنِيخاً مِنْ مَخَافَتِـهِ جِهَارَا [4]

---

(١) هذا نص كلام الأخفش (اللسان جهر) . وفى المطبوعة « فنقى ما قد غطاه » ، ولا بأس بها ، ولكنى أثبت ما فى اللسان .

(٢) قوله « وجهرة » ، مصدر لم أجده فى اللسان ولا فى غيره .

(٣) فى المطبوعة : « جهر فلان بهذا الأمر مجاهرة وجهاراً » ، وليس حسناً أن يقال كذلك . فإن « مجاهرة » لا تكون مصدر « جهر » ألبتة ، وإن جاز أن يكون « جهار » مصدراً له كما فى اللسان : « جهر بكلامه يجهر جهراً وجهاراً » . فمن أجل ذلك آثرت أن أضع مكان « جهر » « جاهر » ، حتى يستقيم على الجادة .

(٤) ديوانه : ٤٤٣ ، والنقائض : ٢٥٥ ، يهجو جريراً ، وقبل البيت :

عَوَى ، فأَثَارَ أَغْلَبَ ضَيْغَمِيًّا فَوَيْلَ ابنِ المَرَاغَةِ ! مَا أسْتَثَارَا ؟

وقوله « عوى » يعنى جريراً . وقوله « من اللائى » ، أصله : من اللائين . و « اللاؤن » جمع « الذى » من غير لفظه ، بمعنى « الذين » . وفيه لغات : اللاؤون ، فى الرفع ، واللائين، فى الخفض والنصب . واللاؤو ، بلا نون، واللائى ، بإثبات الياء فى كل حال . يستوى فيه الرجال والنساء ، ومنه قول عباد بن طهفة، وهو أبو الربيس ، شاعر أموى :

مِنَ النَّفَرِ اللائى الَّذِينَ إِذَا هُمُ يَهَابُ اللِّئَامُ حَلْقَةَ البَابِ قَعْقَعُوا

وأجاز أبو الربيس أن يجمع بين « اللائى » و « الذين » ، لاختلاف اللفظين ، أو على إلغاء أحدهما .

٩٤٧ـ وكما حدثنا به القاسم بن الحسن قال، حدثنا الحسين قال، حدثني حجاج، عن ابن جريج قال، قال ابن عباس: «حتى نرى الله جهرةً»، قال: علانيةً.

٩٤٨ ـ وحدثت عن عمار بن الحسن قال، ثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع: «حتى نرى الله جهرة»، يقول: عياناً. ٢٣٠/١

٩٤٩ ـ وحدثني يونس بن عبد الأعلى قال، أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد: «حتى نرى الله جهرةً»، حتى يطلُع إلينا.

٩٥٠ ـ حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة: «حتى نرى الله جهرة»، أي عياناً.

فذكّرهم بذلك جل ذكرُه اختلافَ آبائهم، وسوءَ استقامة أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة مُعاينتهم من آيات الله جل وعز وعِبَره ما تَثلَج بأقلّها الصدور،[1] وتطمئن بالتصديق معها النفوس. وذلك مع تتابع الحجج عليهم، وسبوغ النعم من الله لديهم،[2] وهم مع ذلك مرة يسألون نبيَّهم أن يجعل لهم إلهاً غيرَ الله. ومرةً يعبُدون العجل من دون الله. ومرة يقولون: لا نصدِّقك حتى نرى الله جهرةً. وأخرى يقولُون له، إذا دعوا إلى القتال: اذْهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا إنا ههنا

فقول الفرزدق: «من اللائى»، يعني: من الذين. ثم قطع القول وحذف، لدلالة الكلام على ما أراد، كأنه قال: هو من الذين عرفت يا جرير. ثم استأنف فقال: يظل الألف منه...، والضمير في «منه» عائد إلى قوله: «أغلب ضيغمياً»، هو الأسد، ويعني نفسه. والألف: يعني ألف رجل. وقوله: «منيخاً»: أي قد أناخ «الألف» ركابهم من مخافته، وقد قطع عليهم الطريق.

هذا، ورواية النقائض والديوان: «نهاراً» مكان «جهاراً» جاء تفسيرها في النقائض: «قال: نهاراً، ولم يقل: ليلا، لأن الأسد أكثر شجاعته وقوته بالليل. فيقول: هذا الأسد يظل الألف منه منيخاً بالنهار، فكيف بالليل!».

ورواية الطبري: «جهاراً» قريبة المعنى من رواية من روى «نهاراً». وهم يقولون: لقيته جهاراً نهاراً. لأن النهار يكشف كل شيء ويعلنه ويجهره. أي أناخوا وهم يرونه رأي العين، وذلك في النهار.

(١) ثلجت نفسه بالشيء (بكسر اللام) تثلج وتثلج (بفتح اللام وضمها) ثلوجاً: اشتفت واطمأنت وسكنت إليه، ووثقت به.

(٢) مضى في ص: ٦٣ التعليق على مثل هذه الكلمة، وكانت في المخطوطة: «شيوع آلائه لديهم». وسبوغ النعمة: كمالها وتمامها واتساعها. ولا أزال أستحسن أن تكون هنا «شيوع»، لقوله «لديهم»، فأما إن قال «وسبوغ النعم عليهم»، كما سيأتي في آخر هذه الفقرة، فهي «سبوغ» ولا شك.

قاعدون . ومرة يقال لهم: "قولوا حِطّة" وادخلوا الباب سُجّداً نغفر لكم خطاياكم . فيقولون : حِنطة فى شعيرة! ويدخلون البابَ من قبل أستاههم ، مع غير ذلك من أفعالهم التى آذوا بها نبيهم عليه السلام ، التى يكثر إحصاؤها .

فأعلم رَبُّنا تبارك وتعالى ذكره الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بنى إسرائيل، الذين كانوا بين ظَهرانَىْ مُهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنهم لن يَعْدُوا أن يكونوا — فى تكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم، وجحودهم نبوّته ، وتركهم الإقرار به وبما جاء به، مع علمهم به ، ومعرفتهم بحقيقة أمره — كأسلافهم وآبائهم الذين فصَّل عليهم قَصَصهم ، فى ارتدادِهم عن دينهم مرةً بعد أخرى ، وتوثُّبهم على نبيهم موسى صلوات الله وسلامه عليه تارة بعد أخرى ، مع عظيم بلاء الله جل وعزّ عندهم، وسُبوغ آلائه عليهم .[1]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (٥٥)

اختلفَ أهل التأويل فى صِفة الصاعقة التى أخذتهم . فقال بعضهم بما :—

٩٥١ — حدثنا به الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « فأخذتكمُ الصاعقة »، قال : ماتُوا .

٩٥٢ — وحُدِّثت عن عمار بن الحسن قال، حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه، عن الربيع : « فأخذتكم الصاعقةُ »، قال: سمعوا صوتاً فصَعِقوا، يقول: فماتوا .

* * *

وقال آخرون بما :—

٩٥٣ — حدثنى موسى بن هرون الهمدانى قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ،

---

(١) انظر التعليق السالف : ٨١ تعليق : ٢

حدثنا أسباط ، عن السدى : « فأخذتكمُ الصاعقة » ، والصاعقة نارٌ .

* * *

وقال آخرون بما : —

٩٥٤ — حدثنا به ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق قال : أخذتهم الرَّجفة ، وهى الصاعقة ، فماتوا جميعاً .

* * *

وأصل « الصاعقة » ، كل أمر هائل رآه [المرء] أو عاينه أو أصابه —[1] حتى يصيرَ من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وَعطب ، وإلى ذهاب عقلٍ وُغمور فهم ،[2] أو فقدِ بعض آلات الجسم — صوتاً كان ذلك أو ناراً أو زِلْزَلة أو رَجْفاً . ومما يدلُّ على أنه قد يكونُ مصعوقاً وهو حيٌّ غيرُ ميت ، قول الله عز وجل : ﴿ وخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ [سورة الأعراف : ١٤٣] ، يعنى : مغشيًّا عليه ، ومنه قول جرير بن عطية :

وهَلْ كَانَ الفَرَزْدَقُ غَيْرَ قِرْدٍ أَصَابَتْهُ الصَّوَاعِقُ فَاسْتَدَارَا ؟[3]

فقد عُلم أنّ موسى لم يكن — حين غُشِي عليه وصَعِق — ميتاً ، لأن الله

---

(١) الزيادة بين القوسين من عندى . ليستقيم بها الكلام .

(٢) قوله « غمور فهم » لم أجد هذا المصدر فى كتب اللغة . وكأنه مصدر غمر عليه (بالبناء للمجهول) : أغمى عليه . وفى الحديث أنه أول ما اشتكى بأبى وأمى صلى الله عليه وسلم — فى بيت ميمونة ، اشتد مرضه حتى غمر عليه — أى : أغمى عليه ، حتى كأنه غطى على عقله وستر ، من قولهم : غمرت الشيء : إذا سترته ، وغشى عليه وأغمى عليه من معنى الستر أيضاً (اللسان ، الفائق) .

(٣) ديوانه : ٢٨١ ، والنقائض : ٢٥١ وبعده فى هجاء الفرزدق ، وهو من أشده :

وَكُنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بِدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخِزْيَةٍ وتَرَكْتَ عارَا

وما أشد ما قال ! وقال فى النقائض فى شرح البيت : « ولغته — يعنى جريراً — الصواقع . فاستدار : أى استدار إنساناً بعد أن كان قرداً » . وكأنه أخطأ المعنى ، فإنه أراد أنه مسخ قرداً على هيئته التى كان عليها قبل أن يكون إنساناً . فقوله : « استدار » : عاد إلى الموضع الذى ابتدأ منه ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع : « إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أى عاد كما بدأ . فهو يقول : كان الفرزدق فى أصل نشأته قرداً ، ثم تحول إنساناً . فلما أصابته صواعق شعرى عاد كما كان فى أصل نشأته قرداً صريحاً .

جل وعز أخبر عنه أنه لما أفاق قال : ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٤٣] — ولا شبَّه جريرٌ الفرزدقَ وهو حيٌّ بالقرد ميتاً . ولكن معنى ذلك ما وصفنا .

* * *

ويعني بقوله : « وأنتم تنظرون » ، وأنتم تنظرون إلى الصاعقة التي أصابتكم ، يقول : أخذتكم الصاعقة عياناً جهاراً وأنتم تنظرون إليها .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى[1] ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٥٦)

يعني بقوله : « ثم بعثناكم » ، ثم أحييناكم .

* * *

وأصل « البعث » إثارة الشيء من محلّه . ومنه قيل : « بعث فلان راحلته » . ٢٣١/١ إذا أثارها من مبركها للسير ، كما قال الشاعر :

فأَبْعَثُهَا وَهِيَّ صَنِيعُ حَوْلٍ كَرُكْنِ الرَّعْنِ ، ذِعْلِبَةً وَقَاحَا[2]

---

(١) عند هذا انتهى الخرم الذي ذكرناه في ص : ٧٧ وبدأت المخطوطة .

(٢) لم أجد البيت في مكان . وقوله : « هي » بتشديد الياء ، وهي لغة همدان ، يشددون الواو من « هو » كقول القائل .

وإنَّ لِسَانِي شُهْدَةٌ يُشْتَفَى بها وهُوَّ ، عَلَى مَنْ صَبَّه اللهُ ، عَلْقَمُ

ويشدد الياء من « هي » كقول القائل :

وَالنَّفْسُ مَا أُمِرَتْ بِالعُنْفِ آبِيَةٌ وَهِيَّ - إِنْ أُمِرَتْ بِاللُّطْفِ تَأْتَمِرُ

والضمير في « أبعثها » إلى ناقته . وقوله : « صنيع حول » أي قد رعت حولا — عاماً — حتى سمنت وقويت . يقال صنع فرسه صنعاً وصنعة ، فهو فرس صنيع ، والأنثى بغير هاء : إذا أحسن القيام عليه فغذاه وعلفه وسمنه . وكل ما تعهدته حتى جاد فهو صنيع . والرعن : الأنف العظيم من الجبل تراه متقدماً . شبه ناقته في جلالها وقوتها بركن الجبل . ذعلبة : ناقة سريعة باقية على السير . وقاح : صلبة صبور ، الذكر والأنثى سواء .

و «الرَّعن» : منقطَع أنف الجبل ، و «الذَّعلبة» : الخفيفة. و «الوَقاح» : الشديدة الحافر أو الخف . ومن ذلك قيل : «بعثت فلاناً لحاجتى» ، إذا أقمته من مكانه الذى هو فيه للتوجه فيها . ومن ذلك قيل ليوم القيامة : «يوم البَعْث» ، لأنه يومٌ يثار الناس فيه من قبورهم لموقف الحساب .

* * *

ويعنى بقوله : «من بعد موتكم» ، من بعد موتكم بالصاعقة التى أهلكتكم .

* * *

وقوله : «لعلكم تشكرون» ، يقول : فعلنا بكم ذلك لتشكرونى على ما أوليتكم من نعمتى عليكم ، بإحيائى إياكم ، استبقاءً منّى لكم ، لتراجعوا التوبة من عظيم ذنبكم ، بعد إحلالى العقوبة بكم بالصاعقة التى أحللتها بكم ، فأماتتكم بعظيم خطئكم الذى كان منكم فيما بينكم وبين ربكم .

وهذا القول على تأويل من تأول قوله : «ثم بَعثناكم» ، ثم أحييناكم .

* * *

وقال آخرون : معنى قوله «ثم بعثناكم» ، أى بعثناكم أنبياء .

٩٥٥ ـــ حدثنى بذلك موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط عن السدى .

* * *

قال أبو جعفر : وتأويل الكلام على ما تأوله السدى : فأخذتكم الصاعقة ، ثم أحييناكم من بعد موتكم ، وأنتم تنظرون إلى إحيائنا إياكم من بعد موتكم ، ثم بعثناكم أنبياءَ لعلكم تشكرون .

وزعم السدى أن ذلك من المقدّم الذى معناه التأخير ، والمؤخر الذى معناه التقديم .

٩٥٦ ـــ حدثنا بذلك موسى قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى .

وهذا تأويل يدل ظاهرُ التلاوة على خلافه ، مع إجماع أهل التأويل على تخطئته .

والواجبُ على تأويل السدّى ، الذى حكيناه عنه ، أن يكون معنى قوله : «لعلكم تشكرون» ، تشكرونى على تصييرى إيّاكم أنبياء .

* * *

وكان سببُ قيلهم لموسى ما أخبر الله جل وعز عنهم أنّهم قالوه له ، من قولهم : « لنْ نُؤْمن لكَ حتّى نرى الله جَهرةً » ، ما : —

٩٥٧ — حدثنا به محمد بن حميد قال ، حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق قال : لما رجع موسى إلى قومه ، ورأى ما هم فيه من عبادة العجل ، وقال لأخيه وللسامرىّ ما قال ، وحرّق العجل وذراه فى اليمّ ،[1] اختار موسى منهم سبعين رُجلا ، الخيّرَ فالخيّرَ ، وقال : انطلقوا إلى الله عز وجل فتوبوا إليه مما صنعتم ، وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ؛ صُوموا وتطهّروا وطهّروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طُورسَيْناء لميقاتٍ وقّته له ربه ، وكان لا يأتيه إلاّ بإذن منه وعلم . فقال له السبعون — فيما ذُكرلى — حين صنعوا ما أمرهم به ، وخرجوا للقاء ربّه :[2] يا موسى ، اطلب لنا إلى ربك نسْمع كلام ربنا ،[3] قال : أفعل . فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عَمُود غمامٍ حتّى تغشى الجبل كله ،[4] ودنا موسى فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا . وكان موسى ، إذا كلمه ربّه ، وقع على جَبهته نور ساطعٌ لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه . فضُرِب دُونه الحجاب ، ودنا القوم ، حتّى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه : افعل ، ولا تفعل . فلما فرغ إليه من أمره ، انكشف عن موسى الغمام.[5] فأقبل إليهم ، فقالوا لموسى : « لن نُؤمن لكَ حتّى نرى الله جَهرةً » ، فأخذتهم

---

(١) فى المخطوطة : « وذراه فى البحر » .

(٢) فى المطبوعة : « للقاء الله » ، وأثبت ما فى المخطوطة وتاريخ الطبرى . وفى المخطوطة بعد قوله : « ربه » : « لموسى » ، وأما التاريخ ، فلم يذكر « يا موسى » ، ولا « لموسى » .

(٣) فى المطبوعة : « لنسمع كلام . . . » وفى التاريخ : « اطلب لنا نسمع كلام ربنا » بحذف « إلى ربك » .

(٤) فى المطبوعة : « وقع عليه الغمام » ، وفى التاريخ : « وقع عليه عمود الغمام » .

(٥) فى المطبوعة : « فلما فرغ من أمره » ، وأثبت ما فى المخطوطة والتاريخ . وفيها أيضاً : « وانكشف » بزيادة الواو ، وهو خطأ .

الرَّجفة — وهي الصاعقة — [فافتُلِتت أرواحُهم] فما توا جميعاً.[١] وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : ربِّ لَو شئتَ أهلكتَهم منْ قَبلُ وإياي! قد سَفِهوا، أفتهلك مَنْ ورائي من بني إسرائيل بما تفعل السُّفهاء منا؟[٢] — أي: إن هذا لهم هَلاكٌ — اخترتُ منهم سبعين رجلاً ، الخيِّرَ فالخيِّرَ، أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد! فما الذي يصدقوني به أو يأمَنوني عليه بعدَ هذا ؟ «إنا هُدْنا إليك». فلم يزل موسى يناشد ربه ويسأله ويطلب إليه،[٣] حتى ردَّ إليهم أرْواحهم، فطلب إليه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل ، فقال : لا ، إلا أنْ يقتُلوا أنفسهم.[٤]

١/٢٣٢

٩٥٨ — حدثني موسى بن هرون قال، حدثنا عمرو بن حماد، حدثنا أسباط بن نصر ، عن السدّي : لما تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل ، وتاب الله عليهم بقتل بعضهم بعضاً كما أمرهم به ، أمر الله تعالى موسى أن يأتيَه في ناسٍ من بني إسرائيل ، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موْعِداً . فاختار موسى قوْمَه سبعينَ رجلاً على عَيْنه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: «لن نؤمن لك حتى نرى الله جَهرة»، فإنك قد كلمته فأرِناه: فأخذتهم الصاعقة فماتوا . فقام موسى يبكي ويدعوا الله ويقول : ربِّ ماذَا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتُهم وقد أهلكتَ خيارهم ؟ ربِّ لو شِئتَ أهلكتَهم من قبلُ وإياي، أتُهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ فأوحى اللهُ إلى موسى : إنَّ هؤلاء السبعين ممن اتخذ العجلَ . فذلك حين يقولُ موسى : ﴿إنْ هِيَ إلاّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهاَ مَنْ تَشَاءُ وتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [إلى قوله]

---

(١) الذي بين القوسين زيادة من تاريخ الطبري ، وهي هناك : «فانفلتت أرواحهم» ، والصواب ما أثبته . يقال : «افتلتت نفسه» (بالبناء للمجهول) ، مات فلتة ، أي بغتة ، وفي الحديث : أن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن أمي افتلتت نفسها ، فماتت ولم توص ، أفأتصدق عنها ؟ قال : نعم .

(٢) في التاريخ : «قد سفهوا ، فيهلك من ورائي . . . إن هذا لهم هلاك» ، بحذف «أي» .

(٣) قوله : «ويسأله» ليست في المطبوعة .

(٤) الأثر : ٩٥٧ — في تاريخ الطبري ١ : ٢٢٠ — ٢٢١ .

﴿ إنّا هُدْنا إليكَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٥ – ١٥٦] . [يقول تُبنا إليك][1] . وذلك قوله : « وإذْ قُلتم يا موسى لَنْ نُؤمِنَ لك حتّى نَرَى الله جَهرة فأخذتكمُ الصاعقة » . ثم إنّ الله جل ثناؤه أحياهم فقامُوا وعاشوا رجلاً رجلاً ، ينظرُ بعضُهم إلى بعض كيفَ يَحيون ، فقالوا : يا موسى أنتَ تدعو الله فلا تسأله شيئاً إلا أعطاك ، فادْعه يجعلنا أنبياءَ . فدعا الله تعالى فجعلهم أنبياءَ . فذلك قوله : « ثم بَعثناكم من بَعد مَوْتكم » ، ولكنه قدَّم حرفاً وأخَّر حرفاً .[2]

٩٥٩ — حدثني يونس بن عبد الأعلى قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : قال لهم موسى — لما رجع من عند ربّه بالألواح ، قد كتِبَ فيها التوراة ، فوجدهم يعبدون العجلَ ، فأمرهم بقتل أنفسهم ، ففعلوا فتاب الله عليهم — :[3] إن هذه الألواح فيها كتاب الله ، فيه أمرُه الذى أمركم به ، ونَهيُه الذى نهاكم عنه . فقالوا : ومن يأخذُه بقولك أنت ! لا والله حتّى نرَى الله جهرةً ، حتّى يطلُع اللهُ إلينا[4] فيقول : هذا كتابى فخذُوه ، فما له لا يكلّمنا كما كلمك أنت يا موسى ،[5] فيقول : هذا كتابى فخذوه ؟ وقرأ قول الله تعالى : « لن نُؤمن لك حتّى نَرَى الله جهرةً » ، قال: فجاءت غضبةٌ من الله ، فجاءتهم صاعقةٌ بعد التوبة ، فصَعقَتهم فماتوا أجمعون . قال : ثم أحياهم الله من بعد موتهم ، وقرأ قول الله تعالى : « ثم بَعثناكم من بَعد موتكم لعلكم تشكرون » . فقال لهم موسى : خُذوا كتاب الله . فقالوا : لا . فقال : أىّ شيء أصابكم ؟ قالوا: أصابنا أنّا مِتنا ثم حَيينا ! قال : خذوا كتابَ الله . قالوا : لا . فبعث الله تعالى ملائكة فَنتَقَت الجبل

---

(١) الزيادة التى بين الأقواس من تاريخ الطبرى ، والأولى منهما زيادة لابد منها .

(٢) الأثر : ٩٥٨ فى تاريخ الطبرى ١ : ٢٢١ . وقوله : « قدم حرفاً وأخر حرفاً » ، هو ما ذكره فى تأويل الآية على ما ذهب إليه السدى (ص : ٨٥) « فأخذتكم الصاعقة ، ثم أحييناكم . . . »

(٣) فى المطبوعة : « فقال : إن هذه الألواح . . . » .

(٤) فى المطبوعة : « يطلع الله علينا » .

(٥) فى المطبوعة : « كما يكلمك أنت » . وسيأتى على الصواب فى رقم : ١١١٥ .

فوقهم .(١)

٩٦٠ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بَعد موتكم » ، قال : أخذتْهم الصاعقة ، ثم بَعثهم الله تعالى ليكملوا بقيةَ آجالهم .

٩٦١ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس فى قوله : « فأخذتكم الصاعقة » ، قال : هم السبعون الذين اختارَهم موسَى فسارُوا معه ، قال : فسمعوا كلاماً ، فقالوا : « لن نؤمنَ لك حتّى نَرَى الله جهرةً » . قال : فسمعوا صوتاً فصَعِقوا — يقول : ماتوا — فذلك قوله : « ثم بَعثناكم من بعد موتكم » ، فبُعثوا من بعد موتهم ، لأن موتهم ذاك كان عقوبة لهم ، فبُعثوا لبقية آجالهم .

* * *

فهذا ما روى فى السبب الذى من أجله قالوا لموسى : « لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرةً » . ولا خبر عندنا بصحة شيء مما قاله من ذكرنا قوله فى سبب قِيلهم ذلك لموسى ، تقومُ به حجة فيُسلّم له .(٢) وجائز أن يكون ذلك بعض ما قالوه . فإذْ كان لاَ خبر بذلك تقوم به حُجة ، فالصوابُ من القول فيه أن يقال : إن الله جل ثناؤه قد أخبر عن قوم موسى أنهم قالوا له : « يا موسى لن نُؤمنَ لك حتّى نَرَى الله جهرةً » ، كما أخبر عنهم أنهم قالوه . وإنما أخبر الله عز وجل بذلك عنهم الذين خوطبوا بهذه الآيات ، توبيخاً لهم فى كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد قامت حجتّه على من احتجّ به عليه ، ولا حاجة لمن ١/٢٣٢

(١) الأثر : ٩٥٩ — سيأتى أيضاً رقم : ١١١٥ ، وفيه تمام الخبر نتقوا الجبل : اقتلعوه من أصله ورفعوه فوقهم .

(٢) فى المطبوعة : « فسلم لهم » ، وهو خطأ وتعبير فاسد . وإنما أراد التسليم للخبر الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا الذى قاله الطبرى دليل على صحة ما ذكرنا من أنه لم يستدل بهذه الأخبار إلا للبيان عن بعض المعانى ، وإن كانت لا تقوم بها الحجة فى التفسير ، كما قلنا فى التذكرة التى كتبناها فى الجزء الأول : ٤٥٣ — ٤٥٤ . وانظر بقية كلام الطبرى فى هذه الفقرة . فإنه كلام بليغ الدلالة ، مفيد فى معرفة أسلوب الطبرى فى تفسيره .

انتهت إليه إلى معرفة السبب الداعي لهم إلى قيل ذلك . وقد قال الذين أخبرنا عنهم الأقوال التي ذكرناها ، وجائز أن يكون بعضها حقًّا كما قال .

* * *

القول في تأويل قوله ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾

« وظللنا عليكم الغمام » عطف على قوله : « ثم بعثناكم من بعد موتكم » . فتأويل الآية : ثم بعثناكم من بعد موتكم وظللنا عليكم الغمام — وعدّد عليهم سائر ما أنعم به عليهم — لعلكم تشكرون .

* * *

و « الغمام » جمع « غمامة » ، كما السحاب جمع سحابة . و « الغمام » هو ما غمّ السماء فألبسها من سحاب وقتام ، وغير ذلك مما يسترها عن أعين الناظرين . وكل مغطًّى فالعرب تسميه مغموماً .[1]

* * *

وقد قيل إن الغمام التي ظللها الله على بني إسرائيل لم تكن سحاباً .

٩٦٢ — حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازي قال ، حدثنا أبو أحمد قال ، حدثنا سفيان ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قوله : « وظللنا عليكم الغمام » ، قال : ليس بالسحاب .

٩٦٣ — حدثني المثنى بن إبراهيم قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن أبي نجيح ، عن مجاهد قوله : « وظللنا عليكم الغمام » ، قال : ليس بالسحاب ، هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة ، لم يكن إلا لهم .[2]

٩٦٤ — حدثني محمد بن عمرو الباهلي قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قول الله جل ثناؤه : « وظللنا عليكم

---

(١) في المطبوعة : « فإن العرب تسمية » .

(٢) الأثر ٩٦٣ — في المخطوطة ، ساق هذا الأثر إلى قوله « قال : ليس بالسحاب » ثم قال بعده ما نصه : « وبإسناده عن مجاهد قال : ليس بالسحاب ، هو الغمام الذي . . . » إلى آخر الخبر .

الغمام » ، قال : هو بمنزلة السحاب .

٩٦٥ — حدثني القاسم بن الحسن قال، حدثنا الحسين قال، حدثني حجاج ، عن ابن جريج قال: قال ابن عباس : « وظللنا عليكم الغمام »، قال : هو غمامٌ أبردُ من هذا وأطيبُ ، وهو الذى يأتى الله عز وجل فيه يوم القيامة فى قوله :[1] ﴿ فى ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٠] ، وهو الذى جاءت فيه الملائكة يوم بدر . قال ابن عباس: وكان معهم فى التّيه .[2]

* * *

وإذا كان معنى الغمام ما وصفنا، مما غمّ السماء من شىء يُغطى وجهها عن الناظر إليها ،[3] فليس الذى ظلله الله عز وجل على بنى إسرائيل — فوصفه بأنه كان غماماً — بأولى ، بوصفه إياه بذلك أن يكون سحاباً ، منه بأن يكون غير ذلك مما ألبس وجهَ السماء من شىء .

* * *

وقد قيل : إنه ما ابيضّ من السحاب .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ ﴾

اختلفَ أهل التأويل فى صفة « المنّ » . فقال بعضهم بما : —

٩٦٦ — حدثنى به محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله عز وجل: « وأنزلنا عليكمُ المنّ » ، قال : المن صمغة .

٩٦٧ — حدثنا المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن

---

(١) فى المخطوطة : « فيه فى قوله » بحذف « يوم القيامة » .

(٢) الضمير فى قوله : « وكان ... » للغمام .

(٣) فى المطبوعة : « يغطى وجهها » ، وتلك أجود .

أبي نجيح ، عن مجاهد مثله .

٩٦٨ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « وأنزلنا عليكم المن والسلوى » ، يقول : كان المنّ ينزل عليهم مثل الثلج .

* * *

وقال آخرون : هو شرابٌ . * ذكر من قال ذلك :

٩٦٩ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس قال : المنُّ ، شراب كان ينزل عليهم مثل العسل ، فيمزجونه بالماء ثم يشربونه .

* * *

وقال آخرون : « المنّ » ، عسلٌ . * ذكر من قال ذلك :

١/٢٣٤ ٩٧٠ — حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : المنّ ، عسل كان ينزل لهم من السماء .

٩٧١ — حدثنا أحمد بن إسحق قال ، حدثنا أبو أحمد قال ، حدثنا إسرائيل ، عن جابر ، عن عامر قال : عسلُكم هذا جزءٌ من سبعين جزءً من المنّ .

* * *

وقال آخرون : « المنّ » الخبز الرّقاق .(١) * ذكر من قال ذلك :

٩٧٢ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا إسمعيل بن عبد الكريم قال ، حدثنى عبد الصمد قال : سمعت وهباً — وسئل : ما المنُّ ؟ — قال : خبز الرقاق ، مثل الذرةُ ومثل النقى .(٢)

* * *

وقال آخرون : « المن » ، الزنجبيل .(٣) * ذكر من قال ذلك :

---

(١) فى المطبوعة : « خبز الرقاق » . خبز رقاق ورقيق ، كطويل وطوال ، صفة . وهو خبز منبسط رقيق .

(٢) الأثر : ٩٧٢ — بعض أثر سيأتى برقم : ٩٩٥ . وفى المخطوطة : « من الذرة » ، وفى ابن كثير كما فى المطبوعة ، وسيأتى كذلك فى رقم : ٩٩٥ .

(٣) فى المطبوعة « الترنجبين » ، وكذلك فى البغوى « الترنجبين » . وفى تاج العروس : « الترنجبين »

٩٧٣ - حدثني موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : المن كان يسقط على شجر الزَّنجبيل .[1]

* * *

وقال آخرون : «المن» ، هو الذى يسقط على الشجر ، الذى يأكله الناس .

* ذكر من قال ذلك :

٩٧٤ - حدثني القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج ، عن ابن جريج قال ، قال ابن عباس : كان المنّ ينزل على شجرهم ، فيغدون عليه ، فيأكلون منه ما شاؤا .[2]

٩٧٥ - حدثني المثنى قال ، حدثنا الحمانى قال ، حدثنا شريك ، عن مجالد ، عن عامر فى قوله : « وأنزلنا عليكم المنّ » ، قال : المنّ الذى يقع على الشجر .

٩٧٦ - حدثت عن المنجاب بن الحارث قال ، حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : « المن » ، قال : المن الذى يسقط من السماء على الشجر فتأكله الناس .

٩٧٧ - حدثنا أحمد بن إسحق قال ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، قال حدثنا شريك ، عن مجالد ، عن عامر قال : المنّ ، هذا الذى يقع على الشجر .

* * *

وقد قيل : إن « المن » ، هو الترنجبين .

* * *

وقال بعضهم : «المنُّ» ، هو الذى يسقط على الثمام والعُشَر ، وهو حلو كالعسل ، وإياه عَنَى الأعشى - ميمون بن قيس - بقوله :

بالضم ، هو المن المذكور فى القرآن » . وسيأتى ذلك بعد رقم : ٩٧٧ ، وهو هنا « الزنجبيل » كما فى ابن كثير ، والمخطوطة . وانظر لسان العرب : (منن) .

(١) فى المطبوعة : « شجر الترنجبين » .

(٢) الأثر : ٩٧٤ - هو فى المخطوطة بعد رقم : ٩٧٦ .

لَوْ أُطْعِمُوا المَنَّ والسَّلْوَى مَكَانَهُمُ ... مَا أَبْصَرَ النَّاسُ طُعْمًا فِيهِمُ نَجَعَا[١]

وتظاهرت الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

٩٧٨ — « الكَمأةُ من المنّ ، وماؤها شفاء للعين »[٢] .

* * *

وقال بعضهم : « المن » ، شرابٌ حلو كانوا يطبخونه فيشربونه .

* * *

وأما أميّة بن أبي الصلت ، فإنه جعله فى شعره عَسلاً ، فقال يصف أمرهم فى التِّيه وما رُزقوا فيه :

فَرَأَى اللهُ أَنَّهُمْ بِمَضِيعٍ ... لاَ بِذِى مَزْرَعٍ ولاَ مَعْمُورَا[٣]

---

(١) ديوانه : ٨٧ من قصيدة طويلة ، يذكر فيها ذا التاج هوذة بن على الحنفى صاحب اليمامة . وكانت بنو تميم قد وثبت على مال وطرف كانت تساق إلى كسرى ، فأوقع بهم المكعبر الفارسى ، والى كسرى على البحرين ، وأدخلهم المشقر — وهو حصن بالبحرين — بخديعة خدعهم بها ، فقتل رجالهم واستبقى الغلمان . وكلم هوذة بن على الحنفى المكعبر يومئذ فى مئة من أسرى بنى تميم ، فوهبهم له يوم الفصح ، فأعتقهم ، فقال الأعشى ، يذكر ما كان من فعل هوذة فى بنى تميم :

سَائِلْ تَمِيماً بِهِ أَيَّامَ صَفْقَتِهِم ... لَمَّا أَتَوْهُ أَسَارَى كُلُّهُمْ ضَرَعَا

وَسْطَ المُشَقَّرِ فى عَيْطَاءَ مُظْلِمَةٍ ... لا يَسْتَطِيعُونَ فيها ثَمَّ مُمْتَنَعَا

لَوْ أطعموا المن . . . .

فوصف بنى تميم بالكفر لنعمته (تاريخ الطبرى ٢ : ١٣٢ — ١٣٤) . والطعم : ما أكل من الطعام . ونجع الطعام فى الإنسان : هنأ آكله وتبينت تنميته ، واستمرأه وصلح عليه .

(٢) الحديث : ٩٧٨ — هكذا رواه الطبرى دون إسناد . وقد صدق فى أنه تظاهرت به الأخبار . فقد رواه أحمد والشيخان والترمذى ، من حديث سعيد بن زيد . ورواه أيضاً أحمد والشيخان وابن ماجة ، من حديث أبى سعيد وجابر . ورواه أبو نعيم فى الطب ، من حديث ابن عباس وعائشة . انظر مثلا ، المسند : ١٦٢٥ ، ١٦٢٦ . والجامع الصغير : ٦٤٦٣ . وزاد المعاد لابن القيم ٣ : ٣٨٣ . وتفسير ابن كثير ١ : ١٧٤ — ١٧٦ ، وقد ساق كثيراً من طرقه .

(٣) ديوانه : ٣٤ — ٣٥ . فى الأصول والديوان . « ولا مشموراً » . مضيع : بموضع ضياع وهوان وهلاك . يقال : هو بدار مضيعة (بفتح الميم وكسر الضاد) ، كأنه فيها ضائع . وهو مفعلة ، وطرح التاء منها كما يقولون : المنزل والمنزلة . ومزرع : مصدر ميمى من « زرع » يعنى ليس بذى زرع ، ومعمور : أى آهلا ذهب خرابه . ونصب « ولا معموراً » ، عطفاً على محل « بذى مزرع » ، وهو نصب . وآثرت هذه الكلمة ، لأنها هى التى تتفق مع سياقة الشعر ، ولأن التحريف فى « معمور » و« مشمور » سهل ، ولما سترى فى شرح البيت الثالث .

فَنَسَاهَا عَلَيْهِمْ غَادِيَاتٍ ، وَمَرَى مُزْنَهُمْ خَلاَيَا وَخُورَا[١]

عَسَلاً نَاطِفاً ، وَمَاءً فُرَاتاً ، وَحَلِيباً ذَا بَهْجَةٍ مَثْمُورا[٢]

المثمور : الصافى من اللبن[٣] . فجعل المن الذى كان ينزل عليهم عسلاً ناطفاً ، والناطف : هو القاطر[٤] .

* * *

(١) فى المطبوعة : « فعفاها » وفى المخطوطة : « فسناها » ، وفى الديوان « فعفاها » ولا معنى لشيء منها ، فاستظهرت أن أقرأها من المخطوط « فنساها » ، أصلها « فنسأها » مهموزة ، كما قالوا : برأ الله الخلق و براهم بطرح الهمزة . ونسأ الدابة والإبل ينسؤها نسأ : زجرها وساقها . يقول : ساق عليهم السحاب . غاديات جمع غادية : وهى السحابة التى تنشأ غدوة . ومرى الناقة مرياً : مسح ضرعها لتدر . والمزن جمع مزنة : وهى السحابة ذات الماء . وخلايا جمع خلية : وهى الناقة التى خليت للحلب لكرمها وغزارة لبنها . الخور : إبل حمر إلى الغبرة ، رقيقات الجلود ، طوال الأوبار ، لها شعر ينفذ وبرها ، وهى أطول من سائر الوبر ، فإذا كانت كذلك فهى غزار كثيرة اللبن . شبه السحاب الغزير الماء بهذين الضربين من النوق الغزيرة اللبن ، يحلب مطرها عليهم حلباً ، ثم فصل فى البيت التالى أنواع ما نزل عليهم من السماء .

(٢) ناطف ، من نطف ينطف : قطر . وهو مشروح بعد — أى يقطر من السماء . والفرات : أشد الماء عذوبة . ووصف اللبن بأنه ذو بهجة . وهى الحسن والنضارة ، لأنه لم يؤخذ زبده ، فيرق ، وتذهب لمعة الزبد منه ، فاستعار البهجة لذلك . أما قوله : « مثموراً » ، فهى فى المطبوعة : « ممروراً » ، وفى المخطوطة فى الصلب كانت تقرأ « مشوراً » ، ثم لعب فيها قلم الناسخ فى الثاء والميم ، ثم كتب هو نفسه فى الهامش : « مزموراً » ، ثم شرح فى طرف الصفحة فقال : « المزمور : الصافى من اللبن » . وذلك شيء لا وجود له فى كتب اللغة ، وقد رأيت أنه كتب فى البيت الأول « مشوراً » ، ورجحت أن صوابها « معموراً » ، ورجحت فى هذا البيت أن يكون اختلط عليه حين كتب « مشوراً » فعاد فجعلها « مزموراً » .

ولم أجد « مثموراً » فى كتب اللغة ، ولكن يقال : الثمير والثميرة : اللبن الذى ظهر زبده وتحبب . قال ابن شميل : إذا مخض رؤى عليه أمثال الحصف فى الجلد ، ثم يجتمع فيصير زبداً ، وما دامت صغاراً فهو ثمير . ويقولون : إن لبنك لحسن الثمر ، وقد أثمر مخاضك . فكأنه قال : « مثموراً » ويعنى « ثميراً » ، لأن فعيلا بمعنى مفعول هنا .

(٣) كانت فى المطبوعة « الممرور » ، وقد ذكرت فى التعليقة السالفة ، أنها بهامش المخطوطة « المزمور » .

(٤) قوله : « فجعل المن . . . » إلى آخر الجملة ليس فى المخطوطة .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ وَالسَّلْوَىٰ ﴾

قال أبوجعفر : «والسلوى» اسم طائر يشبه السُّمانَى ، واحده وجِماعه بلفظ واحد ، كذلك السُّمانَى لفظ جماعها وواحدها سواء. وقد قيل: إن واحدةَ السلوى ، سَلواةٌ.

• ذكر من قال ذلك :

٩٧٩ — حدثني موسى بن هرون قال ، حدثني عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى ، فى خبر ذكره عن أبى مالك ، وعن أبى صالح ، عن ابن عباس — وعن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : السلوى ، طير يُشبه السُّمانَى .[1]

١/٢٣٥

٩٨٠ — حدثني موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى قال : كان طيراً أكبرَ من السُّمانَى .

٩٨١ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة قال : السلوى طائر كانتْ تحشُرها عليهم الريح الجَنوب .

٩٨٢ — حدثني محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد قال : السلوى طائر .

٩٨٣ — حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : السلوى طير .

٩٨٤ — حدثني المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا إسمعيل بن عبد الكريم قال ، حدثني عبد الصمد قال : سمعت وهباً — وسئل : ما السلوى؟ فقال —: طير سمين مثلُ الحمام[2] .

---

(١) الأثر : ٩٧٨ — اختصر فى المخطوطة على بعض هذا الإسناد ، إلى قوله : عن السدى » ، وأسقط الباقى ، وهو الإسناد الدائر فى تفسيره ، فكأن كل إسناد وقف على السدى ، هو هذا الإسناد ، ثم اجتزأ ببعضه عن جميعه ، كما مضى آنفاً ، وكما سيأتى بعد .

(٢) الأثر ٩٨٤ — بعض أثر سيأتى برقم : ٩٩٥ .

٩٨٥ — حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : السلوى طير .

٩٨٦ — حدثنا المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : السلوى كان طيراً يأتيهم مثل السُّماني .

٩٨٧ — حدثني المثنى ، حدثنا الحماني قال ، حدثنا شريك ، عن مجالد ، عن عامر قال : السلوى السُّماني .

٩٨٨ — حدثت عن المنجاب قال ، حدثنا بشر ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : السلوى ، هو السُّماني .

٩٨٩ — حدثنا أحمد بن إسحق قال ، أخبرنا أبو أحمد قال ، حدثنا شريك ، عن مجالد ، عن عامر قال : السلوى السُّماني .

٩٩٠ — حدثنا ابن بشار قال ، حدثنا أبو عامر قال ، حدثنا قُرّة ، عن الضحاك ، قال : السُّماني هو السلوى .

* * *

فإن قال قائل : وما سببُ تظليل الله جل ثناؤه الغمامَ ، وإنزالُه المنَّ والسلوى على هؤلاء القوم ؟

قيل : قد اختلف أهل العلم في ذلك . ونحن ذاكرون ما حضرنا منه : —

٩٩١ — فحدثنا موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط بن نصر ، عن السدي : لما تاب الله على قوم موسى ، [١] وأحيَى السبعين الذين اختارهم موسى بعد ما أماتهم ، أمرهم الله بالسير إلى أريحا ، [٢] وهي أرض بيت المقدس . فساروا ، حتى إذا كانوا قريباً منهم ، بعثَ موسى اثني عشر نقيباً . فكان من أمرهم وأمر الجبّارين وأمر قوم موسى ، ما قد قص الله في كتابه . [٣]

---

(١) في المخطوطة : « على موسى » بحذف « قوم » .

(٢) في المطبوعة : « بالمسير » ، وهما سواء .

(٣) هذا اختصار ، وتفصيله في التاريخ في موضعه ، كما سيأتي في موضعه من ذكر مراجعه .

فقال قوم موسى لموسى : « اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا إنا ههنا قاعدُون » . فغضب موسى فدعا عليهم فقال : «ربِّ إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين» . فكانت عجلةً من موسى عجلها ، فقال الله تعالى : «إنها محرَّمة عليهم أربعينَ سنةً يتيهون فى الأرض» . فلما ضُرب عليهم التّيه ، ندم موسى ، وأتاه قومه الذين كانوا معه يطيعونه فقالوا له : ما صنعت بنا يا موسى ؟ فلما ندم ، أوحى الله إليه : أنْ لا تأسَ على القوم الفاسقين — أى لا تحزَنْ على القوم الذين سميتهم فاسقين — فلم يحزن ، فقالوا : يا موسى كيف لنا بماء ههنا ؟ أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المنَّ — فكان يسقط على شجر التُرَنْجبين[1] — والسلوى = وهو طير يشبه السُّمانى = فكان يأتى أحدهم فينظرُ إلى الطير ، إن كان سميناً ذبحه وإلا أرسله ، فإذا سمن أتاه . فقالوا : هذا الطعام ، فأين الشراب ؟ فأُمر موسى فضرب بعصاه الحجرَ فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، فشرب كل سِبْط من عين . فقالوا : هذا الطعام والشراب ؟ فأين الظلّ ؟ فظلّل عليهم الغمام . فقالوا : هذا الظل ، فأين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطولُ معهم كما تطولُ الصبيان ، ولا يتخرَّق لهم ثوب ، فذلك قوله : « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى » وقوله : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾ . [سورة البقرة : ٦٠][2]

١/٢٣٦

٩٩٢ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق قال : لما تابَ الله عز وجل على بنى إسرائيل ، وأمر موسى أن يَرفع عنهم السيف من عبادة العجل ، أمر موسى أن يسيرَ بهم إلى الأرض المقدسة ،[3] وقال : إنّى قد كتبتُها لكم داراً وقراراً ومنزلاً ، فاخرجْ إليها ، وجاهدْ من فيها من العدوّ ، فإنى ناصركُم

(١) فى المخطوطة وحدها : « الزنجبيل » . وانظر ما مضى : ٩٢

(٢) الأثر : ٩٩١ — فى تاريخ الطبرى ١ : ٢٢١ — ٢٢٢

(٣) فى المخطوطة : « أن يسبق بهم » ، وأراد الناسخ أن يصححها فى الهامش ، فكتب « — » ولم يتمها .

عليهم . فسار بهم موسى إلى الأرض المقدّسة بأمر الله عز وجل . حتى إذا نزل التِّيه — بين مصر والشام ، وهي أرض ليس فيها خَمَرٌ ولا ظلٌّ[1] — دعا موسى ربَّه حين آذاهم الحرّ ، فظلّل عليهم بالغمام ؛ ودعا لهم بالرزق ، فأنزل الله لهم المنّ والسلوَى .

٩٩٣ — حدثني المثنى بن إبراهيم قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس —

٩٩٤ — وحدثت عن عمار بن الحسن ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع[2] قوله : « وظللنا عليكم الغمام » ، قال : ظلل عليهم الغمام في التِّيه ، ما هو في قدر خمسة فراسخ أو ستة ،[3] كلما أصبحوا ساروا غادين ، فأمسوا فإذا هم في مكانهم الذى ارتحلوا منه . فكانوا كذلك حتى مرّت أربعون سنة .[4] قال : وهم في ذلك ينزل عليهم المن والسلوى ، ولا تبلى ثيابهم . ومعهم حجرٌ من حجارة الطُّور يحملونه معهم ، فإذا نزلوا ضربه موسى بعصاه ، فانفجرتْ منه اثنتا عشرة عيناً .

٩٩٥ — حدثني المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا إسمعيل بن عبد الكريم قال ، حدثني عبد الصمد قال ، سمعت وهباً يقول : إن بني إسرائيل — لما حرم الله عليهم أن يدخلوا الأرض المقدّسة أربعين سنةً يتيهون في الأرض — شكوا إلى موسى فقالوا : ما نأكل ؟ فقال : إن الله سيأتيكم بما تأكلون . قالوا : من أين لنا ؟ إلا أن يُمطر علينا خُبزاً ! قال : إن الله عز وجل سينزل عليكم خُبزاً مخبوزاً . فكان ينزل عليهم المنّ — سئل وهب : ما المنّ ؟ قال : خُبز الرقاق مثل الذرة أو

---

(١) الخمر (بفتحتين) : كل ما سترك من شجر أو بناء أو غيره .

(٢) هذا الإسناد الثاني ساقط من المخطوطة .

(٣) في المخطوطة : « فإذا هو في قدر » مصحفة ، وانظر تفسير الطبرى ٦ : ١١٦ — ١١٧ ، ١١٩ (بولاق) وقوله : « قدر » ليست في المطبوعة .

(٤) في المخطوطة : « حتى قمرت أربعين سنة » محرفاً .

مثل النقىّ — [١] قالوا . وما نأتدم ؟ وهل بُدٌّ لنا من لحم ؟ قال : فإن الله يأتيكم به . فقالوا : من أين لنا ؟ إلا أن تأتينا به الريح ! قال : فإن الريح تأتيكم به . فكانت الريح تأتيهم بالسلوى — فسُئل وهب : ما السلوى ؟ قال : طيرٌ سمين مثل الحمام ، [٢] كانت تأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت — [٣] قالوا : فما نلبس؟ قال : لا يَخلَقُ لأحد منكم ثوب أربعين سنة . قالوا : فما نحتذى ؟ قال : لا ينقطع لأحدكم شِسْع أربعين سنة . [٤] قالوا : فإن يولد فينا أولاد ، فما نكسوهم؟ [٥] قال : ثوبُ الصغير يَشِبُّ معه . قالوا : فمن أين لنا الماء ؟ قال : يأتيكم به الله . قالوا : فمن أين ؟ إلا أن يخرج لنا من الحجر ! فأمر الله تبارك وتعالى موسى أن يضرب بعصاه الحجر . قالوا : فما نبصر ! تغشانا الظُّلمة ! [٦] فضرَب لهم عموداً من نور فى وسط عسكرهم ، أضاء عسكرهم كله . قالوا : فبم نستظِلُّ ؟ فإن الشمس علينا شديدة ! قال : يُظِلّكم الله بالغمام . [٧]

٩٩٦ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال ، أخبرنا ابن وهب ، قال ابن زيد ، فذكر نحو حديث موسى بن هرون ، عن عمرو بن حماد ، عن أسباط ، عن السدّى .

٩٩٧ — حدثنى القاسم بن الحسن قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج قال ، قال ابن جريج : قال عبد الله بن عباس : خُلق لهم فى التِّيه ثيابٌ لا تخلَق

(١) هذه الجملة سلفت فى الأثر رقم : ٩٧٢

(٢) هذه الجملة سلفت فى الأثر رقم : ٩٨٤

(٣) فى المطبوعة : « من السبت إلى السبت » .

(٤) الشسع : أحد سيور النعل الذى يدخل بين الإصبعين .

(٥) فى المطبوعة : « فإن فينا أولاداً » .

(٦) فى المطبوعة : « فبم نبصر » ، خطأ .

(٧) الأثر : ٩٩٥ — إسحق : هو ابن راهويه الإمام الكبير . إسمعيل بن عبد الكريم بن معقل ابن منبه الصنعانى : ثقة ، مترجم فى التهذيب ، ترجمه البخارى ١/١/٣٦٧ ، وابن أبى حاتم ١/١/١٨٧ . وهو ميروى هنا عن عمه : عبد الصمد بن معقل بن منبه ، وهو ثقة أيضاً ، مترجم فى التهذيب ، وابن أبى حاتم ٣/١/٥٠ . وعبد الصمد يروى عن عمه : وهب بن منبه ، هذا الأثر .

ولا تدْرَن.[1] قال، وقال ابن جريج: إن أخذ الرَّجُل من المنّ والسلوى فوقَ طعام يوم ١/٢٣٧ فسَد، إلا أنهم كانوا يأخذون فى يوم الجمعة طعامَ يوم السبت، فلايصبح فاسداً.

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَٰتِ مَارَزَقْنَٰكُمْ ﴾

وهذا مما استغنى بدلالة ظاهره على ما تُرِك منه. وذلك أن تأويل الآية: وظللنا عليكم الغمامَ، وأنزلنا عليكم المنّ والسلوى، وقلنا لكم: كلوا من طيبات ما رزقناكم. فترك ذكر قوله: «وقلنا لكم»، لما بيّنا من دلالة الظاهر فى الخطاب عليه.

وعنى جلّ ذكره بقوله «كلوا من طيبات ما رزقناكم»: كلوا من شهيّات رزقْنا الذى رزقناكموه.[2]

وقد قيل: عنى بقوله: «من طيبات ما رزقناكم»، من حلاله الذى أبحناه لكم فجعلناه لكم رزقاً.

والأول من القولين أولى بالتأويل، لأنه وصف ما كان القوم فيه من هَنِىء العيش الذى أعطاهم، فوصف ذلك بـ «الطيب»، الذى هو بمعنى اللذة، أحرى من وصْفه بأنه حلال مباح.

و«ما» التى مع «رزقناكم»، بمعنى «الذى». كأنه قيل: كلوا من طيبات الرزق الذ رزقناكموه.

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿٥٧﴾

وهذا أيضاً من الذى استغنى بدلالة ظاهره على ما ترك منه. وذلك أن معنى

---

(١) درن الثوب يدرن درناً فهو درن وأدرن: تلطخ بالوسخ.

(٢) فى المطبوعة: «من مشتّهيات»، ليست بشىء.

الكلام : كلوا من طيبات ما رزقناكم . فخالفوا ما أمرناهم به وعصوا ربهم ، ثم رسولَنا إليهم ، و« ما ظلمونا » ، فاكتفى بما ظهر عما تُرك .

وقوله : « وما ظلمونا » يقول : وما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ويعنى بقوله : «وما ظلمونا» ، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانَهم إيَّانا ، موضع مَضرَّةٍ علينا ومنقصةٍ لنا ، ولكنهم وضعُوه من أنفسهم موضع مضرّةٍ عليها ومنقصةٍ لها . كما : —

٩٩٨ — حدثت عن المنجاب قال ، حدثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « وما ظلمونَا ولكن كانوا أنفسَهم يَظلمون » ، قال : يَضرُّون .

* * *

وقد دللنا فيما مضى ، على أن أصل «الظلم» : وضعُ الشيء فى غير موضعه — بما فيه الكفاية ، فأغنى ذلك عن إعادته .[1]

* * *

وكذلك ربُّنا جل ذكره ، لاتضرُّه معصية عاص ، ولا يتحيَّف خزائنه ظلم ظالم ، ولاتنفعه طاعةُ مطيعٍ ، ولا يزيد فى ملكه عَدْلُ عادل ، بل نفسَه يظلمُ الظالمُ ، وحظَّها يَبْخَسُ العاصى ، وإياها ينفعُ المطيع ، وحظَّها يُصيب العادلُ .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾

و «القرية» — التى أمرهم الله جل ثناؤه أن يدخلوها ، فيأكلوا منها رغداً حيث شاؤا — فيما ذُكر لنا : بيت المقدس . ذكر الرواية بذلك :

٩٩٩ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أنبأنا عبدالرزاق . قال ، أنبأنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « ادخلوا هذه القرية » ، قال : بيت المقدس .

١٠٠٠ — حدثنى موسى بن هرون قال ، حدثنى عمرو بن حماد قال ، حدثنا

---

(١) انظر ما مضى ١ : ٥٢٣ — ٥٢٤ ، وهذا الجزء ٢ : ٦٩

أسباط ، عن السدّى : « وإذ قُلنا ادخلوا هذه القرية » ، أما القرية ، فقرية بيت المقدس.

١٠٠١ — حُدثت عن عمار بن الحسن قال ، حدثنا عبد الله بن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « وإذْ قُلنا ادخلوا هذه القرية » ، يعنى بيتَ المقدس .

١٠٠٢ — حدثنى يونس قال ، أخبرنا ابن وهب ، قال : سألته — يعنى ابن زيد — عن قوله : « ادخلوا هذه القريةَ فكلوا منها حيث شئتمْ » ، قال : هى أريحا ، وهى قريبة من بيت المقدس .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾

يعنى بذلك : فكلوا من هذه القرية حيث شئتم عيْشاً هنيًّا واسعاً بغير حساب .

وقد بينا معنى « الرغد » فيما مضى من كتابنا ، وذكرنا أقوال أهل التأويل فيه .[1]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾

أما «البابُ» الذى أمروا أن يدخلوه ، فإنه قيل: هو باب الحِطّة من بيت المقدس.

• ذكر من قال ذلك :

١٠٠٣ — حدثنى محمد بن عمرو الباهلى قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : « ادخُلوا البابَ سُجّداً » ، قال : باب الحِطّة ، من باب إيلياء ، من بيت المقدس . ٢٣٨/١

١٠٠٤ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد مثله .

---

(١) انظر ما مضى ١ : ٥١٥ – ٥١٦ .

١٠٠٥ — حدثني موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : «وادخلوا البابَ سُجَّداً» ، أما الباب ، فباب من أبواب بيت المقدس.

١٠٠٦ — حدثني محمد بن سعد قال ، حدثني أبي قال ، حدثني عمي قال ، حدثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله : « وادخلوا البابَ سجداً » أنه أحد أبواب بيت المقدس ، وهو يدعى باب حِطَّة. وأما قوله : « سجّداً » ، فإن ابن عباس كان يتأوّله بمعنى الرُّكَّع .

١٠٠٧ — حدثني محمد بن بشار قال ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى قال ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : « ادخلوا البابَ سجَّداً » ، قال : رُكَّعاً من باب صغير .

١٠٠٨ — حدثنا الحسن بن الزبرقان النخعي قال ، حدثنا أبو أسامة ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد ، عن ابن عباس فى قوله : « ادخلوا البابَ سُجَّداً ، قال : أمِروا أن يدخلوا ركَّعاً .

* * *

قال أبو جعفر : وأصل « السجود » الانحناء لمن سُجِدَ له معظَّماً بذلك. فكلّ مُنحنٍ لشيء تعظيماً له فهو « ساجد » . ومنه قول الشاعر :(1)

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ فِي حَجَرَاتِهِ تَرَى الأُكْمَ مِنْهُ سُجَّداً لِلحَوَافِرِ(2)

(1) هو زيد الخيل بن مهلهل الطائى ، الفارس المشهور .

(2) سيأتى بعد فى هذا الجزء ١ : ٢٨٩ (بولاق) والكامل ١ : ٢٥٨ ، والمعانى الكبير : ٨٩٠ ، والأضداد لابن الأنبارى : ٢٥٦ ، وحماسة ابن الشجرى : ١٩ ، ومجموعة المعانى : ١٩٢ ، وغيرها . والباء فى قوله « بجمع » متعلقة ببيت سالف هو :

بَنِي عَامِرٍ ، هَلْ تَعرِفونَ إِذَا غَدَا أَبُو مِكْنَفٍ قَدْ شدَّ عَقْدَ الدَّوَابِرِ ؟

والبلق جمع أبلق و بلقاء : الفرس يرتفع تحجيلها إلى الفخذين . والحجرات جمع حجرة (بفتح فسكون) : الناحية . والأكم (بضم فسكون ، وأصلها بضمتين) جمع إكام ، جمع أكمة : وهى تل يكون أشد ارتفاعاً مما حوله ، دون الجبل ، غليظ فيه حجارة . قال ابن قتيبة فى المعانى الكبير : « يقول : إذا ضلت البلق فيه مع شهرتها فلم تعرف ، فغيرها أحرى أن يضل . يصف كثرة الجيش ، ويريد أن الأكم قد خشعت من وقع الحوافر » . وفى المطبوعة هنا « فيه » ، والجيد ما أثبته ، والضمير فى « منه » للجيش أو الجمع .

يعنى بقوله : « سجَّداً » خاشعة خاضعة . ومن ذلك قول أعشى بنى قيس بن ثعلبة .

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ المَلِيــــكِ ،طَوْراً سُجُوداً وَطَوْراً جُؤَارَا[1]

فذلك تأويل ابن عباس قوله: «سجّداً» ركّعاً. لأن الراكع مُنحنٍ ، وإن كان الساجدُ أشدَّ انحناءً منه .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾

وتأويل قوله: «حِطَّةٌ»، فِعْلَةٌ، من قول «القائل: حطَّ الله عنك خطاياك فهو يَحُطُّها حِطَّةً » ، بمنزلة الردّة والحِدّة والمِدّة ، من حددتَ ومددتَ .

* * *

واختلف أهل التأويل فى تأويله . فقال بعضهم بنحو الذى قلنا فى ذلك .

ذكر من قال ذلك:[2]

١٠٠٩ — حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر : « وقولوا حِطَّة »، قال قال : الحسن وقتادة : أى احطُطْ عنا خطايانا .

١٠١٠ — حدثنا يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : « وقولوا

---

(١) ديوانه : ٤١ ، وسيأتى فى ١٨ : ٢٨ (بولاق) ، ومعه بيت آخر فى ١٤ : ٨٢ (بولاق) راوح يراوح مراوحة : عمل عملين فى عمل ، يعمل ذا مرة وذا مرة ، قال لبيد يصف فرساً .

وَوَلَّى عامداً لِطِيَّاتِ فَلْجٍ يُرَاوِحُ بَيْنَ صَوْنٍ وابتذالِ

وقوله : « من صلوات » « من » هنا لبيان الجنس ، مثل قوله تعالى : « يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق» . وحذف «بين» التى تقتضيها «يراوح»، لدلالة ما يأتى عليها ، وهو قوله : « طوراً . . . وطوراً » . والجؤار : رفع الصوت بالدعاء مع تضرع واستغاثة وجزع . جأر إلى ربه يجأر جؤاراً .

(٢) فى المطبوعة : « ذلك منهم » بالزيادة .

حِطّة »، يحط الله بها عنكم ذنبكم وخطيئتكم .[1]

١٠١١ ــ حدثنا القاسم بن الحسن قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج قال ، قال ابن جريج ، قال ابن عباس : «قولوا حطّة» قال : يُحطّ عنكم خطاياكم .

١٠١٢ ــ حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قوله : « حِطّة » ، مغفرة .

١٠١٣ ــ حُدثت عن عمار بن الحسن قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، قوله : « حِطّة » ، قال : يحط عنكم خطاياكم .

١٠١٤ ــ حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، أخبرني حجاج ، عن ابن جريج قال : قال لي عطاء في قوله : « وقولوا حِطّة » ، قال : سمعنا أنه : يحطّ عنهم خطاياهم .

* * *

وقال آخرون : معنى ذلك : قولوا « لا إله إلاّ الله » ، كأنهم وجهوا تأويله : قولوا الذي يحطّ عنكم خطاياكم ، وهو قول لا إله إلا الله . * ذكر من قال ذلك :

١٠١٥ ــ حدثني المثنى بن إبراهيم وسعد بن عبد الله بن عبد الحكم المصري قالا ، أخبرنا حفص بن عمر ، قال حدثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة : « وقولوا حِطّة » ، قال : قولوا ، « لا إله إلا الله »

* * *

وقال آخرون بمثل معنى قول عكرمة ، إلا أنهم جعلوا القول الذي أمروا بقيله : الاستغفارَ . * ذكر من قال ذلك :

١٠١٦ ــ حدثنا الحسن بن الزبرقان النخعي ، حدثنا أبو أسامة ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « وقولوا حِطّة » ، قال : أُمروا أن يستغفروا .

* * *

---

(١) في المطبوعة : « وخطاياكم » .

وقال آخرون نظيرَ قول عكرمة ، إلا أنهم قالوا : القولُ الذى أمروا أن يقولوه ، ٢٣٩/١ هو أن يقولوا : هذا الأمر حقٌّ كما قيل لكم . * ذكر من قال ذلك :

١٠١٧ — حدثت عن المنجاب قال ، حدثنا بشر ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : « وقولوا حِطّةٌ » ، قال : قولوا : هذا الأمر حقٌّ كما قيل لكم .

* * *

واختلفَ أهل العربية فى المعنى الذى من أجله رُفعت « الحطة » .

فقال بعض نحويى البصرة : رفعت « الحطة » بمعنى « قولوا » ، ليكن منك حِطّةٌ لذنوبنا ، كما يقول للرجل : سَمْعُك .

وقال آخرون منهم : هى كلمة أمرَهم الله أن يقولوَها مرفوعةً ، وفرض عليهم قيلها كذلك .

وقال بعض نحويى الكوفيين : رُفعت « الحطة » بضمير « هذه » ، كأنه قال : وقولوا : « هذه » حطة .[1]

وقال آخرون منهم : هى مرفوعة بضميرٍ معناهُ الخبر ، كأنه قال : قولوا ما هوَ حطةٌ . فتكون « حطة » حينئذ خبراً لـ « ما »

* * *

قال أبو جعفر : والذى هو أقرب عندى فى ذلك إلى الصواب ، وأشبه بظاهر الكتاب : أن يكون رفع « حطة » بنيّة خبر محذوف قد دل عليه ظاهر التلاوة ، وهو : دخولُنا البابَ سُجَّداً حطةٌ ، فكفى من تكريره بهذا اللفظ ، ما دلّ عليه الظاهر من التنزيل ، وهو قوله : « وادخلوا البابَ سُجداً » ، كما قال جل ثناؤه :

---

(١) الضمير : المضمر أو الإضمار ، كما سلف فى ١ : ٤٢٧ تعليق : ١ ، وقد رأيتها أيضاً فى كلام نقله الشريف المرتضى فى أماليه ١ : ٣٣٤ عن أبى بكر بن الأنبارى قال : « كاد ، لا تضمر ، ولا بد من أن يكون منطوقاً بها ، ولو جاز ضميرها لجاز : قام عبد الله ، بمعنى كاد عبد الله يقوم . . . » ، وهى هنا بمعنى الإضمار لا شك . وسيأتى فى الفقرة التالية أيضاً ، بمعنى المضمر .

﴿ وإذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةٌ إلى رَبِّكُمْ ﴾ [سورة الأعراف : ١٦٤]، [1] يعنى : موعظتنا إياهم معذرة إلى ربّكم. فكذلك عندى فى تأويل قوله: «وقولوا حطة»، يعنى بذلك: وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية، وادخلوا الباب سُجّداً، وقولوا : دخولنا ذلك سُجداً حطةٌ لذنوبنا . وهذا القول على نحو تأويل الربيع بن أنس وابن جريج وابن زيد ، الذى ذكرناه آنفاً .

[2]قال أبو جعفر : وأما على تأويل قول عكرمة، فإن الواجبَ أن تكون القراءةُ بالنصب فى «حطة»، لأن القومَ إن كانوا أُمروا أن يقولوا: «لا إله إلا الله»، أو أن يقولوا : «نستغفر الله» ، فقد قيل لهم: قولوا هذا القول ، ف«قولوا» واقع حينئذ على «الحطة» ، لأن «الحطة» على قول عكرمة — هى قول «لا إله إلا الله» . وإذا كانت هى قول «لا إله إلا الله»، فالقول عليها واقع ، كما لو أمر رجلٌ رجلاً بقول الخير فقال له : «قل خيراً» نَصْباً ، ولم يكن صواباً أن يقول له : «قل خير» ، إلا على استكراه شديد .

وفى إجماع القرَأة على رفع «الحطة»[3] بيانٌ واضح على خلاف الذى قاله عكرمة من التأويل فى قوله: «وقولوا حطة». وكذلك الواجب على التأويل الذى رويناه عن الحسن وقتادة فى قوله : «وقولوا حطة»، [4] أن تكون القراءة فى «حطة» نصباً . لأن من شأن العرب — إذا وضعوا المصادرَ مواضع الأفعال ، وحذفوا الأفعال — أن ينصبوا المصادر . كما قال الشاعر : [5]

---

(١) قراءتنا : «معذرة» بالنصب فى مصاحفنا . وقد ذكر الطبرى فى تفسير الآية ٩ : ٦٣ (بولاق) أن الرفع قراءة عامة قراء الحجاز والكوفة والبصرة ، وقرأ بعض أهل الكوفة «معذرة» بالنصب .

(٢) من هنا أول جزء فى التجزئة القديمة التى نقل عنها كاتب مخطوطتنا . وأولها :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ رَبِّ يَسِّرْ بِرَحْمَتِكَ

(٣) فى المطبوعة «القراء» ، كما جرت عليه فى كل ما مضى .

(٤) انظر رقم : ١٠١٠ فيما سلف .

(٥) هو الفرزدق .

أُبِيدُوا بِأَيْدِي عُصْبَةٍ ، وسُيُوفُهُمْ عَلَى أُمَّهَاتِ الهَامِ ضَرْبًا شآمِيَا[1]

وكقولِ القائل للرجل: «سمعاً وطاعةً» بمعنى: أسمعُ سمعاً وأطيع طاعة، وكما قال جل ثناؤه : ﴿ معاذَ الله ﴾ [سورة يوسف : ٢٣ ، ٧٩]، بمعنى : نعوذ بالله .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ نَغْفِرْ لَكُمْ ﴾

يعنى بقوله « نغفرْ لكم » نتغمَّد لكم بالرَّحمة خطاياكم، ونستّرها عليكم ، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها .

* * *

وأصل « الغفر » التغطية والسّتر ، فكل ساتر شيئاً فهو غافرُه . ومن ذلك قيل للبيضة من الحديد التى تُتخذ جُنّة للرأس: «مِغْفر»، لأنها تغطى الرأس وتُجِنُّه. ومثله «غِمْدُ السيف»، وهو ما تغمَّده فواراه .[2] ولذلك قيل لزئبر الثَّوب: «غَفْرة»، لتغطيته الثوب ،[3] وحَوْلِه بين الناظر والنظر إليه . ومنه قول أوس بن حجر :

---

(١) ديوانه : ٨٩٠ فى قصيدة يمدح فيها — يزيد بن عبد الملك ، ويذكر إيقاعه بيزيد بن المهلب فى سنة ١٠٢ (انظر خبره فى تاريخ الطبرى ٨ : ١٥١ — ١٦٠) . ورواية ديوانه :

« أنَاخُوا بِأيدى طَاعةٍ ، وسيوفهم »

وقوله : « أناخوا » ، أى ذلوا وخضعوا ، أو صرعوا فماتوا ، كأنهم إبل أناخت واستقرت . وقوله : « أيدى طاعة » ، أى أهل طاعة .

(٢) فى المطبوعة والمخطوطة : « ومنه غمد السيف » ، وهذا يجعل الكلام مضطرباً مقحماً ، فرجح عندى أن تكون « ومنه » ، و « مثله » لأنه فسر « نغفر » بقوله « نتغمد » . وفى المطبوعة : « ما يغمده فيواريه » ، وأثبت ما فى المخطوطة .

(٣) فى المطبوعة : « غفر » . والغفر جمع غفرة ، وزئبر الثوب : هو ما يعلو الثوب الجديد من مائه ، كالذى يعلو القطيفة والخز ، ويسمونه « درز الثوب » أيضاً . وفى المطبوعة : « لتغطيته العورة . . . والنظر إليها » ، وهى عبارة غريبة فاسدة ، والذى فى المخطوطة «لتغطيته الثوب » كما أثبتناها ، يعنى الزئبر كما

فَلاَ أُعْتِبُ ابْنَ العَمِّ إنْ كَانَ جَاهِلاً وَأَغْفِرُ عَنْهُ الجَهْلَ إنْ كَانَ أَجْهَلاَ [1]

١/٢٤٠ يعنى بقوله : « وأغفرُ عنه الجهلَ » ، أستر عليه جهله بحلمى عنه .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ خَطَايَاكُمْ ﴾

«والخطايا» جمع «خَطية» ، بغير همز ، كما «المطايا» جمع «مطيّة» ، و«الحشايا» جمع «حَشيّة» . وإنما تُرك جمع «الخطايا» بالهمز ، لأن ترك الهمز فى «خَطيئة» أكثر من الهمز ، فجمع على « خطايا » ، على أن واحدتها غير مهموزة . ولو كانت « الخطايا » مجموعةً على « خطيئة » بالهمز : لقيل : خطائى ، على مثل قبيلة وقبائل ، وصحيفة وصحائف . وقد تجمع « خطيئة » بالتاء ، فيهمز فيقال «خطيئات» . و « الخطيئة » فعيلة ، من «خَطِئَ الرجل يَخْطَأ خِطْأً» ، وذلك إذا عَدَل عن سبيل الحق . ومنه قول الشاعر :[2]

وَإنَّ مُهَاجِرَيْنِ تَكَنَّفَاهُ لَعَمْرُ اللهِ قَدْ خَطِئَا وَخَابَا [3]

يعنى : أضَلاَّ الحق وأثِما .

* * *

وصفنا . ويقال غفر الثوب : إذا أثار زئبره ، يكون كالمنتفش على وجه الثوب .

هذا ، وقد انتهت المخطوطة التى اعتمدنا عند قوله : «لتغطيته الثوب» . ويأتى بعدها خرم طويل سيستغرق أجزاء برمتها ، كما سنبينه فى مواضعه .

(١) ديوانه ، قصيدة : ٣١ . وهذه الرواية جاءت فى شرح شواهد المغنى: ١٣٧ ، وأما فى سائر الكتب : « إن كان ظالماً » ، وهى أجود . وقوله : « أجهل » بمعنى جاهل ، كما قالوا « أوجل » بمعنى وجل ، وأميل بمعنى مائل ، وأوحد بمعنى واحد ، وغيرها . ورواية صدر البيت على الصواب : « ألا أعتب » كما فى المفضليات ٥٩٠ وغيره ، أو « وقد أعتب » كما فى القرطين ٢ : ٦٩. ويروى « ولا أشتم ابن العم » . يقول : أبلغ رضاه إذا ظلم أو جهل ، فأترك له ما لا يحب إلى ما يرضاه .

(٢) هو أمية بن الأسكر (طبقات فحول الشعراء : ١٥٩ - ١٦٠)

(٣) أمالى القالى ٣ : ١٠٩ ، وكتاب المعمرين : ٦٨ والخزانة ٢ : ٤٠٥ ، ويروى صدره

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿٥٨﴾

وتأويل ذلك ما روى لنا عن ابن عباس، وهو ما :—

١٠١٨ — حدثنا به القاسم بن الحسن قال : حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج قال ، قال ابن جريج ، قال ابن عباس : « وَسنزيد المحسنين » ، من كان منكم مُحسناً زيدَ فى إحسانه، ومن كان مخطِئاً نغفر له خطيئته .

* * *

فتأويل الآية : وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية مُباحاً لكم كل ما فيها من الطيبات، مُوسَّعاً عليكم بغير حساب ؛ وادخلوا البابَ سُجَّداً، وقولوا: سجودنا هذا لله حِطَّةٌ من ربنا لذنوبنا يحُطُّ به آثامنا، نتغمَّدْ لكم ذنوبَ المذنب منكم فنسترها عليه ، ونحط أوزارَه عنه ، وَسنزيد المحسنَ منكم — إلى إحساننا السالف عنده — إحساناً. ثم أخبر الله جل ثناؤه عن عظيم جهالتهم ، وسوء طاعتهم ربَّهم ، وعِصيانهم لأنبائهم ، واستهزائهم برُسله — مع عظيم آلاء الله عز وجل عندهم ، وعجائب ما أراهم من آياته وعِبرَه ؛ موبِّخاً بذلك أبناءهم الذين خوطبوا بهذه الآيات، ومعلِّمَهم أنهم إنْ تعدَّوْا[1] — فى تكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم، وجحودهم نبوَّته، مع عظيم إحسان الله بمبعثه فيهم إليهم ، وعجائب ما أظهر على يديه من الحجج بين أظهرهم — أن يكونوا كأسلافهم الذين وصفَ صفتَهم ، وقص علينا أنباءَهم فى

« أتاه مهاجران تكنفاه » . وأما عجزه فاختلفت رواياته : «بترك كبيره خطئاً ...» و « ليترك شيخه خطئاً . . . » ، « ففارق شيخه ، . . . » وكان أمية قد أسن ، عمر فى الجاهلية عمراً طويلا ، وألفاه الإسلام هرماً . ثم جاء زمن عمر ، فخرج ابنه كلاب غازياً ، وتركه هامة اليوم أو غد . فقال أبياتاً منها هذا البيت ، فلما سمعها عمر ، كتب إلى سعد بن أبى وقاص : أن رحل كلاب بن أمية بن الأسكر ، فرحله . وله مع عمر فى هذه الحادثة قصة جيدة (فى القالى ١ : ١٠٩)

(١) سياق الجملة : « . . إن تعدوا . . . أن يكونوا » ، و « إن » هنا ، نافية بمعنى « ما » ، كالتى فى قوله تعالى : « قل إن أدرى أقريب ما توعدون » ، وقوله : « إن أدرى لعله فتنة لكم » .

هذه الآيات ، فقال جل ثناؤه : « فبدَّلَ الذين ظلموا قولاً غير الذى قيلَ لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء » الآية .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾

وتأويل قوله : « فبدَّل »، فغيَّر . ويعنى بقوله : «الذين ظلموا» ، الذين فعلوا ما لم يكن لهم فعله . ويعنى بقوله : « قولاً غيرَ الذى قيل لهم »، بدَّلوا قولاً غير الذى أمروا أن يقولوه، فقالوا خلافه . وذلك هو التبديل والتغيير الذى كان منهم . وكان تبديلُهم — بالقول الذى أمروا أن يقولوا — قولاً غيره ، [1] ما :—

١٠١٩ — حدثنا به الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن همام بن منبه ، أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله لبنى إسرائيل : «ادخلوا الباب سُجَّداً وقولوا حِطَّةٌ نغفرْ لكم خطاياكم»، فبدَّلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم ، وقالوا : حبَّة فى شعيرة. [2]

١٠٢٠ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة وعلى بن مجاهد قالا ، حدثنا محمد بن إسحق ، عن صالح بن كيسان ، عن صالح مولى التوأمة ، عن أبى هريرة، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : —

١٠٢١ — وحدثت عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن سعيد

---

(١) قوله : « قولا » مفعول « تبديلهم » . وأما خبر « كان » فهو قوله : « ما حدثنا به الحسن . . . »

(٢) الحديث : ١٠١٩ — رواه أحمد فى المسند : ٨٢١٣ (ج ٢ ص ٣١٨ حلبى) ، عن عبد الرزاق ، بهذا الإسناد ، لكن بلفظ « حبة فى شعرة » . وكذلك رواه البخارى ٦ : ٣١٢ ، و ٨ : ٢٢٨ — ٢٢٩ (فتح البارى) ، من طريق عبد الرزاق . وذكر الحافظ (٨ : ٢٢٩) أن لفظ « شعرة » رواية أكثر رواة البخارى ، وأن رواية الكشميهنى « شعيرة » . وذكره ابن كثير ١ : ١٨٠ ، ونسبه أيضاً لمسلم والترمذى ، من رواية عبد الرزاق .

ابن جبير ، أو عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم — قال : دخلوا الباب — الذى أمروا أن يدخلوا منه سُجَّداً — يَزحفون على أستاههم ، يقولون : حنطة فى شعيرة .(١)

١٠٢٢ — حدثنى محمد بن عبد الله المحاربى قال ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، عن معمر ، عن همام ، عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : «حطة» ، قال : بدلوا فقالوا : حبة .(٢)

١٠٢٣ — حدثنا ابن بشار قال ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى قال ، حدثنا ٢٤١/١ سفيان ، عن السدى ، عن أبى سعيد ، عن أبى الكنود ، عن عبد الله : « ادخُلوا البابَ سُجَّدًا وقولوا حِطَّة» ، قالوا : حنطة حمراء فيها شعيرة. فأنزل الله : «فبدَّل الذين ظلَمُوا قولاً غيرَ الذى قيل لهم » .

١٠٢٤ — حدثنا محمد بن بشار قال ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى قال ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن بن عباس فى قوله : « ادخلوا البابَ سجَّداً » — قال : ركوعاً — من باب صغير ، فجعلوا يدخلون من قبل أستاههم ويقولون : حنطةٌ . فذلك قوله : «فبدَّل الذين ظلَمُوا قولاً غيرَ الذى قيل لهم » .

١٠٢٥ — حدثنا الحسن بن الزبرقان النخعى قال ، حدثنا أبو أسامة ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد ، عن ابن عباس قال : أمروا

(١) الحديث : ١٠٢٠ ، ١٠٢١ — هو الحديث السابق ، ولكن رواه الطبرى هنا بإسنادين : أحدهما صحيح متصل ، والآخر ضعيف فيه راو مبهم بين ابن إسحق ومحمد ابن أبى محمد .

صالح بن كيسان المدنى : تابعى ثقة . وصالح مولى التوأمة : هو ابن نبهان ، وهو ثقة أيضاً ، إلا أنه تغير بأخرة ، فمن روى عنه قديماً فحديثه صحيح . وصالح بن كيسان قديم ، وهو بلديه ، فالراجح أن يكون من سمع منه قبل تغيره .

(٢) الحديث : ١٠٢٢ — هو مختصر من الحديث : ١٠١٩ . وقد رواه أحمد فى المسند : ٨٠٩٥ (ج ٢ ص ٣١٢ حلبى) عن يحيى بن آدم ، عن ابن المبارك ، بهذا الإسناد ، مطولا . وكذلك رواه البخارى ٨ : ١٢٥ (فتح البارى) ، مطولا ، من طريق عبد الرحمن بن مهدى . عن ابن المبارك .

أن يدخلوا رُكَّعاً ويقولوا : حِطَّة . قال : أمروا أن يستغفروا ، قال : فجعلوا يدخلون من قبل أستاههم من باب صغير ويقولون : حِنْطة — يستهزئون . فذلك قوله : « فبدَّل الذين ظلموا قولاً غيرَ الذى قيل لهم » .

١٠٢٦ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أنبأنا عبد الرزاق قال ، أنبأنا معمر ، عن قتادة والحسن : « ادخلوا البابَ سجَّداً » قالا : دَخلوها على غير الجهة التى أمِروا بها ، فدخلوها متزَحِّفين على أوْرَاكهم ، وبدّلوا قولاً غير الذى قيل لهم ، فقالوا : حبَّة فى شعيرة .

١٠٢٧ — حدثنى محمد بن عمرو الباهلى . قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن نجيح ، عن مجاهد قال : أمر موسى قومَه أن يدخلوا الباب سجَّدًا ويقولوا : حِطَّةٌ ، وُطوطِئ لهم الباب ليسجدوا ، فلم يسجدوا ، ودخلوا على أدبارهم ، وقالوا : حِنْطة .[1]

١٠٢٨ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد قال : أمر موسى قومه أن يدخلوا المسجد ويقولوا : حطة . وُطوطِئ لهم الباب ليخفضوا رؤسهم ، فلم يسجدوا ودخلوا على أستاههم إلى الجبل — وهو الجبل الذى تجلى لهُ ربُّه — وقالوا : حِنْطة . فذلك التبديل الذى قال الله عز وجل : « فبدَّل الذين ظلمُوا قولاً غيرَ الذى قيل لهم » .[2]

١٠٢٩ — حدثنى موسى بن هرون الهمدانى [قال ، حدثنى عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدىّ ، عن مرّة الهمدانى] ، عن ابن مسعود أنه قال : إنهم قالوا : « هطى سمقا يا ازبة هزبا » ، وهو بالعربية : حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعيرة سوداء . فذلك قوله : « فبدَّل الذين ظلموا قولاً غيرَ الذى قيل لهم » .

١٠٣٠ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن الأعمش ،

---

(١) الأثر : ١٠٢٧ . سيأتى تمامه فى رقم : ١١١٦ .

(٢) الأثر : ١٠٢٨ — انظر ما سيأتى رقم : ١١١٧ ، فهو منه .

عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « وادخلوا البابَ سُجَّدًا » قال : فدخلوا على أستاههم مُقْنعى رؤُسهم .

١٠٣١ — حدثنا سفيان بن وكيع قال ، حدثنا أبى ، عن النضر بن عدى ، عن عكرمة : «وادخلوا الباب سجداً» ، فدخلوا مُقنعى رؤسهم — « وقولوا حِطَّةٌ » فقالوا : حنطة حمراء فيها شعيرة . فذلك قوله : « فبدَّل الذين ظلموا قولاً غيرَ الذى قيل لهم » .

١٠٣٢ — حُدثت عن عمار بن الحسن قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس : « وادْخلوا البابَ سُجَّداً وقولوا حِطَّةٌ » ، قال : فكان سجود أحدهم على خَدِّه . و « قولوا حطة » نحطّ عنكم خطاياكم ، فقالوا : حنطة . وقال بعضهم : حبة فى شعيرة ، « فبدَّل الذين ظلموا قولاً غيرَ الذى قيل لهم » .

١٠٣٣ — حدثنى يونس قال ، أخبرنا ابن وهب . قال ، قال ابن زيد : «وادخلوا البابَ سُجَّدًا وقولوا حطة» ، يحطّ الله بها عنكم ذنبكم وخطيئاتكم ، قال : فاستهزأوا به — يعنى بموسى — وقالوا : ما يَشاءُ موسى أن يلعب بنا إلاّ لعب بنا ، حِطَّةٌ حِطَّةٌ !! أى شىء حطة ؟ وقال بعضهم لبعض : حنطة .

١٠٣٤ — حدثنا القاسم بن الحسن قال ، حدثنى الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، وقال ابن عباس : لما دخلُوا قالوا : حبة فى شعيرة .

١٠٣٥ — حدثنى محمد بن سعد قال ، حدثنى أبى سعدُ بن محمد بن الحسن قال ، أخبرنى عمى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : لما دخلوا البابَ قالوا : حبة فى شَعيرة ، « فبدّلوا قولاً غير الذى قيل لهم » . ٢٤٢/١

• • •

القول في تأويل قوله تعالى ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾

يعنى بقوله : « فأنزلنا على الذين ظلموا » ، = على الذين فعلوا ما لم يكن لهم فعلُه ، من تبديلهم القولَ — الذى أمرهم الله جل وعز أن يقولوه — قولاً غيره ، ومعصيتهم إياه فيما أمرهم به ، وبركوبهم ما قد نهاهم عن ركوبه ، = « رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون » .

* * *

و « الرِّجز » ، فى لغة العرب ، العذابُ . وهو غير « الرُّجْز » .[1] وذلك أنّ « الرِّجز » : البَثْر ،[2] ومنه الخبر الذى روى عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الطاعون أنه قال : إنه رِجْز عُذِّب به بعضُ الأمم الذين قبلكم .

١٠٣٦ — حدثني يونس بن عبد الأعلى قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، أخبرنى يونس ، عن ابن شهاب قال ، أخبرنى عامر بن سعد بن أبى وقاص ، عن أسامة ابن زيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن هذا الوَجع — أو السُّقم — رِجْزٌ عُذِّب به بعض الأمم قبلكم .[3]

١٠٣٧ — وحدثني أبو شيبة بن أبى بكر بن أبى شيبة قال ، حدثنا عمر بن حفص قال ، حدثنا أبى ، عن الشيبانى ، عن رياح بن عبيدة ، عن عامر بن سعد قال : شهدتُ أسامة بن زيد عند سعد بن مالك يقول : قال رسول الله صلى

---

(١) الرجز (بضم فسكون) ، وهو الذى جاء فى قوله تعالى فى سورة المدثر : « والرجز فاهجر » . وذكر الطبرى فرق ما بينهما فى ٢٩ : ٩٢ (بولاق) فقال : « الرجز بضم الراء . . . الأوثان »

(٢) البثر : خراج صغار ، كالذى يكون من الطاعون والجدرى .

(٣) الحديث : ١٠٣٦ — إسناده صحيح . وقد ذكره ابن كثير ١ : ١٨٢ ، وقال : « وهذا الحديث أصله مخرج فى الصحيحين ، من حديث الزهرى ، ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم أبى النضر — عن عامر بن سعد ، بنحوه » . ورواه أحمد فى المسند ، من طريق الزهرى (٥ : ٢٠٧ — ٢٠٨ حلبى) . ورواه أيضاً (٥ : ٢٠٩) ، من طريق حبيب بن أبى ثابت ، عن إبرهيم بن سعد ، عن أسامة بن زيد ، مطولا .

الله عليه وسلم : إن الطاعون رِجزٌ أنزِل على من كان قبلكم — أو على بنى إسرائيل .[1]

* * *

وبمثل الذى قلنا فى تأويل ذلك قالَ أهل التأويل . * ذكر من قال ذلك :

١٠٣٨ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « رِجزْاً » ، قال : عذاباً .

١٠٣٩ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا آدم العسقلانى قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله : « فأنزلنا على الذين ظلمُوا رِجزْا من السماء » ، قال : الرجز ، الغضب .

١٠٤٠ — حدثنى يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : لما قيل لبنى إسرائيل : — ادخلوا الباب سجّدًا ، وقولوا : حطّة ، فبدّل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذى قيل لهم — بعث الله جل وعزّ عليهم الطاعون ، فلم يُبق منهم أحداً . وقرأ : « فأنزلنا على الذين ظلموا رِجزْاً من السماء بما كانوا يفسقون » ، قال : وبَقِى الأبناء = ففيهم الفضلُ والعبادةُ — التى توصف فى بنى إسرائيل — والخيرُ = وَهلك الآباء كلُّهم ، أهلكهم الطاعون .

١٠٤١ — حدثنى يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : الرِّجز ، العذابُ . وكل شىء فى القرآن « رِجزْ » ، فهو عذاب .

---

(١) الحديث ١٠٣٧ — وهذا إسناد آخر صحيح ، للحديث السابق . أبو شيبة بن أبى بكر بن أبى شيبة : هو « إبرهيم بن عبد الله بن محمد » ، وهو ثقة ، روى عنه أيضاً النسائى وأبو زرعة وأبو حاتم ، مترجم فى التهذيب ، وابن أبى حاتم ١/١/١١٠ . عمر بن حفص بن غياث : ثقة ، روى عنه البخارى ومسلم فى الصحيحين . أبوه حفص بن غياث : ثقة مأمون ، معروف ، أخرج له الجماعة . الشيبانى : هو أبو إسحق ، سليمان بن أبى سليمان ، ثقة حجة . رياح بن عبيدة : هو بكسر الراء وفتح الياء التحتية المخففة ، ووقع فى المطبوعة « رباح » بالموحدة ، وهو تصحيف . و « عبيدة » بفتح العين وكسر الباء الموحدة ، ورياح هذا بصرى ثقة ، وثقه ابن معين وأبو زرعة ، وهو مترجم فى التهذيب ٣ : ٢٩٩ — ٣٠٠ ، والكبير للبخارى ٢/١/٣٠٠ ، وابن أبى حاتم ١/٢/٥١١ ، والمشتبه للذهبى ، ص : ٢١٢ . وهو غير « رياح بن عبيدة السلمى الكوفى » ، فرق بينهما المزى فى التهذيب . والذهبى فى المشتبه . وأنكر الحافظ ابن حجر ذلك على المزى ، ولكنه تبع الذهبى فى تبصير المنتبه ، ولم يعقب عليه ، وهو الصواب ، إن شاء الله .

١٠٤٢ — حدثت عن المنجاب قال ، حدثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : « رِجزًا » ، قال : كل شىء فى كتاب الله من « الرجز » ، يعنى به العذابَ .

• • •

وقد دللنا على أن تأويل « الرجز » العذاب . وعذابُ الله جل ثناؤه أصناف مختلفة . وقد أخبر الله جل ثناؤه أنه أنزل على الذين وصفْنا أمرَهم الرجزَ من السماء . وجائز أن يكون ذلك طاعوناً ، وجائز أن يكون غيره . ولا دلالة فى ظاهر القرآن ولا فى أثر عن الرسول ثابت ،[1] أى أصناف ذلك كان .

فالصواب من القول فى ذلك أن يقال كما قال الله عز وجل : فأنزلنا عليهم رجزاً من السماء بفسقهم .

غيرَ أنه يغلب على النفس صحة ما قاله ابن زيد ، للخبر الذى ذكرتُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى إخباره عن الطاعون أنه رِجْز ، وأنه عُذّب به قوم قبلنا . وإن كنتُ لا أقول إنّ ذلك كذلك يقيناً ، لأن الخبرَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بيان فيه أىُّ أمّة عُذبت بذلك . وقد يجوز أن يكونَ الذين عُذبوا به ، كانوا غيرَ الذين وصفَ الله صفتَهم فى قوله : « فبدَّل الذين ظلموا قولاً غيرَ الذى قيل لهم » . ٢٤٣/١

• • •

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

وقد دللنا — فيما مضى من كتابنا هذا — على أن معنى « الفِسْق » ، الخروج من الشىء .[2]

---

(١) انظر تفسير قوله « ظاهر القرآن » فيما مضى : ٢ : ١٥ والمراجع.

(٢) انظر ما سلف ١ : ٤٠٩ — ٤١٠ ، وقد ذكر الآية هناك فى أثر عن ابن عباس ، فيه : « أى بما بعدوا عن أمرى » ، (ص ٤١٠) .

فتأويل قوله : « بما كانوا يفسقون » إذاً : بما كانوا يتركون طاعةَ الله عز وجل، فيخرُجون عنها إلى معصيته وخلاف أمره .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ﴾

يعنى بقوله : « وإذ استَسْقَى مُوسَى لقومه » ، وإذ استسقانا موسى لقومه ، أى سألنا أن نسقى قومه ماءً . فترك ذكر المسئول ذلك، والمعنى الذى سأل موسى ،[1] إذ كان فيما ذُكر من الكلام الظاهر دلالة على معنى ما تُرك .

وكذلك قوله « فقلنا اضربْ بعصَاك الحجرَ فانفجرت منه اثنتا عشر عيناً » ، مما استغنى بدلالة الظاهر على المتروك منه . وذلك أن معنى الكلام : فقلنا اضرب بعصاك الحجر ، فضربَه ، فانفجرت . فترك ذكر الخبر عن ضَرْب موسى الحجر ، إذ كان فيما ذكر دلالة على المراد منه .

وكذلك قوله : « قد علم كل أناس مشربَهم » ، إنما معناه : قد علم كل أناس منهم مشربهم . فترك ذكر « منهم » لدلالة الكلام عليه .

* * *

وقد دللنا فيما مضى على أن « أناس » جمع لا واحد له من لفظه ،[2] وأن « الإنسان » لو جمع على لفظه لقيل : أناسىّ وأناسية .[3]

* * *

(١) قوله « والمعنى الذى سأل موسى » ، يعنى « والشيء » وهو الماء .

(٢) فى المطبوعة : « أن الناس جمع لا واحد له » ، وقد مضى ذلك ، ولكنه هنا أراد « أناس » ، المذكور فى الآية ، وهو أيضاً جمع لا واحد له من لفظه ، وإن قال بعضهم إنه جمع إنس .

(٣) انظر ما سلف ١ : ٢٦٨ .

وقومُ موسى ، هم بنو إسرائيل ، الذين قصَّ الله عز وجل قَصَصهم فى هذه الآيات . وإنما اسْتسقى لهم ربَّه الماءَ فى الحال التى تاهوا فيها فى التِّيه ، كما :—

١٠٤٣ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ابن أبى عروبة ، عن قتادة قوله : « وإذ استَسقَى مُوسَى لقومه » الآية ، قال : كان هذا إذْ هم فى البرِّيَّة ، اشتكوا إلى نبيهم الظمأ ، فأُمروا بحجر طُورِىٍّ — أى من الطور — أن يضربه موسى بعصاه . فكانوا يحملونه مَعهم ، فإذا نزلوا ضربه موسى بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، لكل سِبْط عينٌ معلومة مستفيضٌ ماؤها لهم .

١٠٤٤ — حدثنى تميم بن المنتصر قال ، حدثنا يزيد بن هرون قال ، حدثنا أصبغ بن زيد ، عن القاسم بن أبى أيوب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : ذلك فى التيه ؛ ظلّل عليهم الغمامَ ، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى ، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتَسخ ، وجُعل بين ظهرَانيهم حَجر مربَّع ، وأُمر موسى فضرَب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، فى كل ناحيةٍ منه ثلاثُ عيون ، لكل سبط عَين ؛ ولا يَرْتحلون مَنقلةً إلا وجدُوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذى كان به معهم فى المنزل الأول .(١)

١٠٤٥ — حدثنى عبد الكريم قال ، أخبرنا إبراهيم بن بشار قال ، حدثنا سفيان ، عن أبى سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : ذلك فى التيه . ضرَب لهم موسى الحجرَ فصار فيه اثنتا عَشرة عيناً من ماء ، لكل سِبْطٍ منهم عينٌ يشربون منها .

١٠٤٦ — وحدثنى محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « فقلنا اضرِب بعصَاكَ الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً » ، لكلّ سِبط منهم عين . كل ذلك كان فى تيهم حين تاهوا .

١٠٤٧ — حدثنا القاسم بن الحسن قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ،

---

(١) المنقلة : المرحلة من مراحل السفر ، والجمع مناقل .

عن ابن جريج ، عن مجاهد قوله : « وإذ استسقى موسى لقومه » ، قال : خافوا الظمأ فى تيههم حين تاهوا ، فانفجر لهم الحجر اثنتى عشرة عيناً ، ضربه موسى . قال ابن جريج : قال ابن عباس : « الأسباط » بنو يعقوب ، كانوا اثنى عشر رجلاً ، كل واحد منهم ولد سبطاً ، أمةً من الناس .[1]

١٠٤٨ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : استسقى لهم موسى فى التيه ، فسقوا فى حجر مثل رأس الشاة ، قال : يلقونه فى جانب الجوالق إذا ارتحلوا ،[2] ويقرعه موسى بالعصا إذ نزل ، فتنفجر ٢٤٤/١ منه اثنتا عشرة عيناً ، لكل سبط منهم عين ، فكان بنو إسرائيل يشربون منه ، حتى إذا كان الرحيل استمسكت العيون ، وقيل به فألقى فى جانب الجوالق[3] . فإذا نزل رمى به ، فقرعه بالعصا ، فتفجرت عينٌ من كل ناحية مثل البحر .

١٠٤٩ — حدثنى موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنى أسباط ، عن السدى قال : كان ذلك فى التيه .

* * *

وأما قوله : « قد علم كلّ أناس مشربهم » ، فإنما أخبر الله عنهم بذلك . لأن معناهم — فى الذى أخرج الله عز وجل لهم من الحجر ، الذى وصف جل ذكره فى هذه الآية صفته —[4] من الشرب ، كان مخالفاً معانى سائر الخلق فيما أخرج الله لهم من المياه من الجبال والأرضين ، التى لا مالك لها سوى الله عز وجل . وذلك

(١) فى المطبوعة : « ولد سبطاً وأمة من الناس » ، والصواب حذف واو العطف فإن قوله : « أمة من الناس » تفسير قوله « سبطاً » .

(٢) الجوالق : وعاء كبير منسوج من صوف أو شعر ، تحمل فيه الأطعمة ، وهو الذى نسميه فى بلادنا « الشوال » محرفة عن « الجوالق » .

(٣) « قيل به » مبنى للمجهول من « قال به » . وقال بالشىء : رفعه أو حمله . والعرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان . يقولون : قال برجله : إذا بدأ يتقدم ومشى ، أو إذا أشار بها الركل . ويقولون : قال بالماء على يده أى قلبه وصبه . وما أشبه ذلك . وقد مضى مثل ذلك آنفاً ص ٥٤ تعليق : ٣ ، ص : ٦٤ تعليق : ٤

(٤) سياق الجملة « لأن معناهم . . . من الشرب ، كان مخالفاً معانى » ، وفصل كعادته فيما بينا مراراً . يعنى لأن شربهم كان مخالفاً شرب سائر الناس . . .

أن الله كان جعل لكل سِبْط من الأسباط الاثنى عشر ، عيناً من الحجر الذى وصف صفته فى هذه الآية ، يشربُ منها دون سائر الأسباط غيرِه ، لا يدخل سِبْط منهم فى شُرب سبط غيره . وكان مع ذلك لكل عين من تلك العيون الاثنتى عشرة ، موضعٌ من الحجر قد عرفه السِّبط الذى منه شربه . فلذلك خصّ جل ثناؤه هؤلاء بالخبر عنهم : أن كلّ أناس منهم كانوا عالمين بمشرَبهم دون غيرهم من الناس . إذْ كان غيرهم — فى الماء الذى لا يملكه أحدٌ — شُركاءَ فى منابعه ومسايله . وكان كل سِبط من هؤلاء مفرداً بشُرب مَنبَعٍ من منابع الحجر — دون سائر منابعه — خاصٌّ لهم دون سائر الأسباط غيرهم . فلذلك خُصوا بالخبر عنهم : أن كل أناس منهم قد عَلموا مشرَبهم .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ ﴾

وهذا أيضاً مما استغنى بذكر ما هو ظاهر منه ، عن ذكره ما تُرك ذكره . وذلك أن تأويل الكلام : فقلنا اضرب بعصاك الحجرَ ، فضربه ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، قد علم كل أناس مشربهم ، فقيل لهم : كلوا واشربوا من رزق الله . أخبر الله جل ثناؤه أنه أمرهم بأكل ما رزَقهم فى التِّيه من المنّ والسلوى ، وبشرب ما فجَّر لهم فيه من الماء من الحجر المُتعاوَر ،[1] الذى لا قَرار له فى الأرض ، ولا سبيل إليه [إلاّ] لمالكيه ،[2] يتدفق بعيون الماء ، ويزخَرُ بينابيع العَذْب الفرات ، بقدرة ذى الجلال والإكرام .

ثم تَقدم جل ذكره إليهم[3] — مع إبَاحتهم ما أباح ، وإنعامه عليهم بما

---

(١) الحجر المتعاور : الحجر المتبادل ، ينقل من يد إلى يد . من تعاوروا الشيء : إذا تبادلوه ، ولا يتعاور شيء حتى يكون منقولا ، أما الثابت فلا يتعاوره الناس ولا يتبادلونه .

(٢) فى المطبوعة : « لا سبيل إليه لمالكية » ، وهو كلام بلا معنى . والصواب ما أثبتناه بزيادة « إلا » ويدل على صواب ذلك ما مضى منذ قليل فى تفسير ما سبق من الآية .

(٣) تقدم إليه بكذا : إذا أمره .

أنعم به عليهم من العيش الهنىء — بالنهى عن السعى فى الأرض فساداً ، والعَثَا فيها استكباراً ، [١] فقال جل ثناؤه لهم : « ولا تَعثَوْا فى الأرْض مُفسدين » .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٦٠)

يعنى بقوله : « لا تَعثَوْا » لاتطغوا ، ولا تسعوا فى الأرض مفسدين . كما : —

١٠٥٠ — حدثنى به المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : « ولا تَعثَوْا فى الأرْض مُفسدين » ، يقول : لا تَسعوا فى الأرض فساداً .

١٠٥١ — حدثنى يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد فى قوله : « ولا تَعثَوْا فى الأرض مفسدين » ، لا تَعثَ ، لا تطغَ .

١٠٥٢ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « ولا تعثَوْا فى الأرض مفسدين » ، أى لا تسيرُوا فى الأرض مفسدين .

١٠٥٣ — حدثت عن المنجاب قال ، حدثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « ولا تعثَوْا فى الأرض مفسدين » ، لا تسعوا فى الأرض .

* * *

وأصل « العَثَا » شدة الإفساد ، بل هو أشدّ الإفساد . [١] يقال منه : « عَثِىَ فلانٌ فى الأرض » — إذا تجاوز فى الإفساد إلى غايته — « يَعْثَى عَثًا » ، مقصور [١] ، وللجماعة : هم يَعثَوْن . وفيه لغتان أخريان ، إحداهما : « عَثَا يعثو عُثُوًّا » . ومن قرأها بهذه اللغة ، فإنه ينبغى له أن يضمَّ الثاء من « يعثُو » ، ولا أعلم قارئاً يُقتدَى بقراءته ٢٤٥/١

(١) العثا : مصدر : عثى يعثى ، كرضى يرضى ، وهى لغة الحجاز . ولم أجد هذا المصدر إلا فى تاج العروس ولست أعلم أهو بفتح العين أم بكسرها . ولكنى أستظهر أن يكون فتح العين هو الأرجح .

قرأ به .[١] ومن نطق بهذه اللغة مخبراً عن نفسه قال: «عَشَوْتُ أعثو»، ومن نطق باللغة الأولى قال : «عَثِيتُ أعثَى» .

والأخرى منهما: «عَاثَ يعيثُ عَيثاً وعُيُوثاً وعَيَثاناً»، كل ذلك بمعنى واحد .

ومن «العيث»، قول رؤبة بن العجاج :

وَعَاثَ فِينَا مُسْتَحِلٌّ عَائِثُ : مُصَدِّقٌ ، أو تَاجِرٌ مُقاعِثُ[٢]

يعنى بقوله : «عاث فينا» ، أفسد فينا .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ ، فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾

قد دللنا — فيما مضى قبل — على معنى «الصبر» وأنه كَفُّ النفس وَحبسُها عن الشيء .[٣] فإذْ كان ذلك كذلك ، فمعنى الآية إذاً : واذكروا إذ قلتم — يا مَعشر بنى إسرائيل — : لنْ نُطيق حَبس أنفسنا على طعام واحد — وذلك «الطعام الواحد»، هو ما أخبر الله جل ثناؤه أنه أطعمهُموه فى تيههم، وهو «السلوى»

---

(١) «القراءة سنة ، ولا يقرأ إلا بما قرأ به القراء» . لسان العرب (عثى) .

(٢) ديوانه : ٣٠ . مستحل : قد استحل أموالهم واستباحها . والمصدق : هو العامل الذى يقبض زكاة أموال الناس ، وهو وكيل الفقراء فى القبض ، وله أن يتصرف لهم بما يؤديه إليه اجتهاده ، فربما جار إذا لم يكن من أهل الورع . قعث الشيء يقعثه : استأصله واستوعبه . وقعثه فانقعث : إذا قلعه من أصله فانقلع . ولم تذكر معاجم اللغة : «قاعث فهو مقاعث» ، ولكنه لما أراد أن التاجر يأتى بظلمه وجوره وإغلائه السعر ، فيستأصل أموال الناس ويقتلعها ، والناس يدافعونه عن أموالهم — اشتق له من المفاعلة التى تكون بين اثنين : «وقاعث فهو مقاعث» ، أى يحاول استئصال أموال الناس ، والناس يدافعونه عن أموالهم .

(٣) انظر ما مضى فى هذا الجزء ٢ : ١١

فى قول بعض أهل التأويل ، وفى قول وهب بن منبه هو « الخبز النقىّ مع اللحم » — فاسأل لنا ربّك يُخرج لنا مما تنبتُ الأرض من البقْل والقِثّاء ، وما سمى الله مع ذلك ، وَذكر أنهم سألوه موسى .

* * *

وكان سبب مسألتهم موسى ذلك فيما بلغنا ، ما : —

١٠٥٤ — حدثنا به بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « وإذ قلتم يا موسى لن نصبرَ على طعام واحد » قال : كان القوم فى البرّية قد ظلّل عليهم الغمامَ ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ، فملُّوا ذلك ، وذكروا عيشاً كان لهم بمصر ، فسألوه موسى . فقال الله تعالى : « اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سَألتم » .

١٠٥٥ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبدالرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « لن نصبرَ على طعام واحد » ، قال : ملُّوا طعامهم ، وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه قبل ذلك ، قالوا : « ادع لنا ربك يخرج لنا مما تُنبت الأرض من بقلها وقثائها وفُومها » الآية .

١٠٥٦ — حدثنى المثنى بن إبراهيم قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله : « وإذْ قُلتم يا موسى لن نصبرَ على طعام واحد » ، قال : كان طعامهم السلوَى وشرابُهم المن ، فسألوا ما ذُكر ، فقيل لهم : « اهبطوا مصرًا فإنّ لكم ما سَألتم » .

* * *

قال أبو جعفر : وقال قتادة : إنهم لما قدموا الشأم فقدُوا أطعمتهم التى كانوا يأكلونها ، فقالوا : « ادع لنا ربّك يُخرج لنا مما تنبت الأرضُ من بَقلها وقِثّائها وفُومها وَعدَسها وَبصلها » ، وكانوا قد ظُلّل عليهم الغمامُ ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ، فملّوا ذلك ، وذكروا عيشاً كانوا فيه بمصر .

١٠٥٧ — حدثنى محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى

قال ، سمعت ابن أبي نجيح في قوله عز وجل : « لن نَصْبر على َطعام واحد » ، المنّ والسلوى ، فاستبدَلوا به البقلَ وما ذُكر معه .

١٠٥٨ — حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد بمثله سواء .

١٠٥٩ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد بمثله .

١٠٦٠ — حدثني موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : أعطوا في التِّيه ما أعطوا ، فملُّوا ذلك وقالوا : « يا مُوسى لَنْ نصبر على َطعام واحد فادْعُ َلنا رَبَّك يُخرجْ لنا مما ُتنبت الأرض من َبقلها وقِثَّائها وفُومها وَعدَسها وبصلها » .

١٠٦١ — حدثني يونس بن عبد الأعلى قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، أنبأنا ابن زيد قال : كان طعامُ بني إسرائيل في التِّيه واحدًا، وشرابهم واحدًا . كان شرابُهم َعسلاً ينزل َلهم من السماء يقال له المنّ، وطعامهم طيرٌ يقال له السَّلوى ، يأكلون الطيرَ ويشربون العسل ، لم يكونوا يعرفون ُخبزاً ولا غيرَه . فقالوا : « يا ُموسى لن نصبرَ على َطعام واحد فادعُ لنا رَبَّك يخرجْ لنا مما ُتنبت الأرض من َبقلها» ، فقرأ حتى بلغ : « اهبطوا مصرًا فإنّ لكم ما َسألتم » . ٢٤٦/١

* * *

وإنما قال جل ذكره : « يُخرجْ لنا مما ُتنبتُ الأرض» — ولم يذكر الذى سألوه أن يدعُو ربَّه ليخرُجَ لهم من الأرض ، فيقول : قالوا ادع لنا ربك يخرج لنا كذا وكذا مما تنبته الأرضُ من بقلها وقثائها — لأن « من » تأتى بمعنى التبعيض لما بعدها ، فاكتفى َبها عن ذِكْر التبعيض ، إذْ كان معلوماً بدخولها معنى ما أريد بالكلام الذى هى فيه . كقول القائل : «أصبحَ اليوم عند فلان من الطعام» ، يريد شيئاً منه .

وقد قال بعضهم : « من » ههنا بمعنى الإلغاء والإسقاط . كأن َمعنى الكلام

عندَه : يُخرج لنا مَا تنبتُ الأرض من بقلها . واستشهد على ذلك بقول العرب : « ما رأيت من أحد » بمعنى : ما رأيت أحداً ، وبقول الله : « وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ » [سورة البقرة : ٢٧١] ، وبقولهم : « قد كان من حديثٍ ، فخَلِّ عَنى حتى أذهب » ، يريدون : قد كان حديث .

وقد أنكر من أهل العربية جماعةٌ أن تكون « من » بمعنى الإلغاء فى شىء من الكلام ، وادَّعوا أن دخولها فى كل موضع دخلت فيه ، مُؤذِنٌ أن المتكلمَ مُريد لبعض ما أدخلت فيه لا جميعه ، وأنها لا تدخل فى موضع إلا لمعنى مفهوم .

* * *

فتأويل الكلام إذاً — على ما وصفنا من أمر « من »[1] — : فادع لنا ربك يخرج لنا بعض ما تنبت الأرض من بقلها وقثائها .

* * *

و « البَقْل » و « القِثَّاء » و « العَدَس » و « البَصَل » ، هو ما قد عرفه الناس بينهم من نبات الأرض وَحبِّها .

* * *

وأما « الفُوم » ، فإن أهل التأويل اختلفوا فيه . فقال بعضهم : هو الحِنطة والخبز . * ذكر من قال ذلك :

١٠٦٢ — حدثنا محمد بن بشار قال ، حدثنا أبو أحمد ومؤمل قالا ، حدثنا سيفان ، عن ابن أبى نجيح ، عن عطاء قال : الفُومُ ، الخبز .

١٠٦٣ — حدثنى أحمد بن إسحق قال ، حدثنا أبو أحمد ، حدثنا سفيان ، عن ابن جريج ، عن عطاء ومجاهد قوله : « وفُومها » ، قالا : خبزها .

١٠٦٤ — حدثنى زكريا بن يحيى بن أبى زائدة ومحمد بن عمرو قالا ، حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى بن ميمون ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « وفُومها » ، قال : الخبز .

---

(١) فى المطبوعة : « على ما وصفنا من أمر من ذكرنا » ، و « ذكرنا » زائدة ولا شك ، كما تبين من سياق كلامه السالف والآتى .

١٠٦٥ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة والحسن : الفُوم ، هو الحب الذى تختبزه الناس .

١٠٦٦ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة والحسن ، بمثله .

١٠٦٧ — حدثنى يعقوب بن إبراهيم قال ، حدثنا هشيم . قال ، أخبرنا حصين ، عن أبى مالك فى قوله : « وفُومها » ، قال : الحنطة .

١٠٦٨ — حدثنى موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط بن نصر ، عن السدى : « وفُومها » ، الحنطة .

١٠٦٩ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا عمرو بن عون قال ، حدثنا هشيم ، عن يونس ، عن الحسن وحصين ، عن أبى مالك فى قوله : «وفُومها » ، الحنطة .

١٠٧٠ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر الرازى ، عن قتادة قال : الفُوم ، الحب الذى يختبز الناس منه .

١٠٧١ — حدثنى القاسم قال ، حدثنا الحسين ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قال : قال لى عطاء بن أبى رباح : قوله : «وفُومها» ، قال : خبزها ، قالها مجاهد .

١٠٧٢ — حدثنى يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال لى ابن زيد : الفوم ، الخبزُ .

١٠٧٣ — حدثنى يحيى بن عثمان السهمى قال ، حدثنا عبد الله بن صالح قال ، حدثنى معاوية ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : « وفُومها » يقول : الحنطة والخبز . ٢٤٧/١

١٠٧٤ — حُدثت عن المنجاب قال ، حدثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : « وفُومها » قال : هو البُرُّ بعينه ، الحنطةُ .

١٠٧٥ — حدثنا على بن الحسن قال ، ثنا مسلم الجرمى قال ، حدثنا عيسى ابن يونس ، عن رشدين بن كريب ، عن أبيه ، عن ابن عباس فى قول الله عز

وجل : « وفُومها » قال : الفوم ، الحنطةُ بلسان بنى هاشم .[1]

١٠٧٦ — حدثنى عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم قال ، حدثنا عبد العزيز بن منصور ، عن نافع بن أبى نعيم ، أن عبد الله بن عباس سئل عن قول الله : «وفُومها» ، قال : الحنطة ، أما سمعتَ قولَ أُحيْحة بن الجُلاَح وهو يقول :

قَدْ كُنْتُ أغْنَى النَّاسِ شَخْصاً وَاحِداً وَرَدَ المَدِينةَ عَنْ زِرَاعَةِ فُومِ[2]

* * *

وقال آخرون : هو الثوم . * ذكر من قال ذلك :

١٠٧٧ — حدثنى أحمد بن إسحق الأهوازىّ قال ، حدثنا أبو أحمد قال ، حدثنا شريك ، عن ليث ، عن مجاهد قال : هو هذا الثّوم .

١٠٧٨ — حدثنى المثنى بن إبراهيم قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قال : الفُوم ، الثّوم .

* * *

وهو فى بعض القراآت « وثُومها » .

* * *

(١) الحديث : ١٠٧٥ — مسلم الجرمى : سبق أن رجحنا فى : ١٥٤ ، ٦٤٩ ، ٨٤٦ أنه « الجرمى » بالجيم . وقد ثبت هنا فى المطبوعة بالجيم على ما رجحنا . رشدين — بكسر الراء وسكون الشين المعجمة وكسر الدال المهملة — بن كريب : ضعيف ، بينا القول فى ضعفه فى شرح المسند : ٢٥٧١ . وأبوه ، كريب بن أبى مسلم : تابعى ثقة .

(٢) الحديث : ١٠٧٦ — عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصرى : ثقة ، كان من أهل الحديث عالماً بالتواريخ ، صنف تاريخ مصر وغيره ، كما فى التهذيب ، مات سنة ٢٥٧ . وهو مؤلف كتاب (فتوح مصر) المطبوع فى أوربة ، شيخه ، عبد العزيز بن منصور : لم أجد له ذكراً فيما بين يدى من المراجع ، إلا فى فتوح مصر ، ص ٤٠ س ٧ — ٨ ، قال ابن عبد الحكم هناك : « حدثنا عبد العزيز بن منصور اليحصبى ، عن عاصم بن حكيم . . . » . وشيخه ، نافع : هو نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم المدنى ، أحد القراء السبعة المعروفين . وهو لم يدرك ابن عباس ، إنما يروى عن التابعين . وله ترجمة فى التهذيب ، والكبير للبخارى ٤/٢/٨ ، وابن أبى حاتم ٤/١/٤٥٦ — ٤٥٧ ، وتاريخ إصبهان لأبى نعيم ٢ : ٣٢٦ — ٣٢٧ .

والبيت فى اللسان (فوم) ، ونسبه لأبى محجن الثقفى ، أنشده الأخفش له ، وروايته :

قدْ كنتُ أَحْسِبُنِى كأغْنَى واحدٍ نزل المدينة ... ...

وفى الروض الأنف ٢ : ٤٥ نسبه لأحيحة ، أو لأبى محجن ، ورواه « سكن المدينة »

وقد ذُكر أن تسمية الحِنطة والخبز جميعاً « فوماً » من اللغة القديمة . حكى سماعاً من أهل هذه اللغة : « فوِّموا لنا » ، بمعنى : اختبزوا لنا .

* * *

وذُكر أن ذلك قراءة عبد الله بن مسعود : « ثُومها » بالثاء.[١] فإن كان ذلك صحيحاً ، فإنه من الحروف المبدّلة كقولهم : « وقعوا فى عَاثُور شَرّ : وعافور شر » وكقولهم : « للأثافى ، أثَاثىّ ؛ وللمغافير ، مَغاثير » ، وما أشبه ذلك مما تقلب الثاء فاء والفاء ثاء ، لتقارب مخرج الفاء من مخرج الثاء . و « المغافير » شبيه بالشىء الحلو ، يُشبّه بالعسل ، ينزل من السماء حلواً ، يقع على الشجر ونحوها .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾

يعنى بقوله : « قال أتستبدلون الذى هو أدْنَى بالذى هو خَير » ، قال : لهم موسى : أتأخذون الذى هو أخسُّ خطراً وقيمةً وقدراً من العيش ، بَدلاً بالذى هو خير منه خطرًا وقيمةً وقدراً ؟ وذلك كان استبدالهم .

* * *

وأصل « الاستبدال » : هو ترك شىء لآخر غيره مكانَ المتروك .

* * *

ومعنى قوله : « أدنى » أخس وأوضعُ وأصغرُ قدراً وخطراً . وأصله من قولهم : « هذا رجل دَنِيٌّ بين الدَّناءة» و « إنه ليُدنىٌّ فى الأمور » بغير همز ، إذا كان يتتبع خَسيسها . وقد ذُكر الهمزُ عن بعض العرب فى ذلك ، سماعاً منهم . يقولون : « ما كنت دَانئاً ، ولقد دَنأتْ » ،[٢] وأنشدنى بعض أصحابنا عن غيره ، أنه سمع بعضَ بنى كلاب يُنشد بيت الأعشى[٣] :

---

(١) انظر معانى القرآن للفراء ١ : ٤١

(٢) هذا كله من قول الفراء فى معانى القرآن ١ : ٤٢ . وكان فى المطبوعة «ما كنت دنيئاً» ، والصواب ما أثبته من كتاب الفراء .

(٣) الذى سمع هذا هو الفراء . انظر معانى القرآن له ١ : ٤٢ ، والطبرى يجهله دائماً .

بَاسِلَةُ الوَقْعِ سَرَابِيلُهَا بِيضٌ إِلَى دَانِئِها الظَّاهِرِ[1]

بهمز الدانئ ، وأنه سمعهم يقولون : « إنه لدانئ خبيث » بالهمز.[2] فإن كان ذلك عنهم صحيحاً ، فالهمز فيه لغة ، وتركه أخرى .

* * *

ولاشك أن من استبدل بالمن والسلوى البقل والقثاء والعدس والبصل والثوم ، فقد استبدل الوضيع من العيش بالرفيع منه .

* * *

وقد تأول بعضهم قوله : « الذى هو أدنى » بمعنى : الذى هو أقرب . ووجه قوله : « أدنى » ، إلى أنه أفعل من « الدنو » ، الذى هو بمعنى القرب .

* * *

وبنحو الذى قلنا فى معنى قوله « الذى هو أدنى » قاله عدد من أهل التأويل فى تأويله . * ذكر من قال ذلك :

١٠٧٩ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة قال : « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » ، يقول : أتستبدلون الذى هو شر بالذى هو خير منه .

١٠٨٠ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ،

---

(١) ديوانه : ١٠٨ ، وروايته « إلى جانبه الظاهر » . يصف حصناً . قال قبله :

فى مِجْدَلٍ شُيِّدَ بُنْيَانُه يَزِلُّ عَنْهُ ظُفُرُ الطَّائِرِ

يَجْمَعُ خَضْرَاء لَهَا سَوْرَةٌ تَعْصِفُ بِالدَّارِعِ وَالحَاسِرِ

بَاسِلَةُ الوَقْعِ ... ...

والضمير فى قوله : « سرابيلها » راجع إلى « خضراء » يقال : كتيبة خضراء ، وهى التى غلب عليها لبس الحديد وعلاها سواده ، والخضرة سواد عندهم . والسرابيل هنا : الدروع ، جمع سربال : وهو كل ما لبس كالدرع وغيره . وقال الفراء : « يعنى الدروع على خاصتها — يعنى الكتيبة — إلى الخسيس منها » . كأنه أراد : يلبسون الدروع من شريف إلى خسيس . وأما رواية الديوان : فالضمير فى « جانبه » ، راجع إلى « المجدل » وهى أبين الروايتين معنى وأصحهما .

(٢) فى معانى الفراء زيادة بين قوسين من بعض النسخ : [إذا كان ماجنا] .

١/٢٤٨ عن ابن جريج ، عن مجاهد قوله : « الذى هو أدْنى » ، قال : أرْدأ .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾

وتأويل ذلك : فدعا مُوسى ، فاستجبنا له ، فقلنا لهم : « اهبطوا مصرًا » ، وهو من المحذوف الذى اجتُزِئ بدلالة ظاهره على ذكر ما حُذف وتُرك منه .

* * *

وقد دللنا — فيما مضى — على أن معنى « الهُبُوط » إلى المكان، إنما هو النزول إليه والحلول به .[1]

* * *

فتأويل الآية إذاً : وإذ قُلتم يا موسى لنْ نَصبر على طعام واحد ، فادْع لنا ربك يُخرجْ لنا مما تُنبت الأرضُ من بقلها وقِثائها وفُومها وَعدَسها وَبصَلها . قال لهم موسى : أتستبدلون الذى هو أخس وأردأ من العيش ، بالذى هو خير منه . فدعا لهم موسى ربَّه أن يعطيهم ما سألوه ، فاستجاب الله له دعاءه ، فأعطاهم ما طلبوا ، وقال الله لهم : اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم .

* * *

ثم اختلف القرّأة فى قراءة قوله[2] : « مصرًا » فقرأه عامة القرأة « مصرًا » بتنوين « المِصْر » وإجْرائه . وقرأه بعضهم بترْك التنوين وحذف الألف منه . فأمّا الذين نَوّنوه وأجروه ، فإنهم عنوا به مصرًا من الأمصار ، لا مصرًا بعينه . فتأويله — على قراءتهم — : اهبطوا مصرًا من الأمصار ، لأنكم فى البدو ، والذى طلبتم لا يكون فى البَوادى والفيافى ، وإنما يكون فى القرى والأمصار ، فإنّ لكم — إذا هبطتموه — ما سألتم من العيش . وقد يجوز أن يكون بعضُ من قرأ ذلك بالإجراء

---

(١) انظر ما مضى ١ : ٥٣٤

(٢) فى المطبوعة : « القراء » ، ورددناها إلى الذى جرى عليه لفظ الطبرى فيما سلف ، فى كل المواضع التى جروا على تبديلها من « قرأة » ، إلى « قراء » .

والتنوين ، كان تأويل الكلام عنده : « اهبطوا مصرًا » ، البلدةَ التى تُعرفُ بهذه الاسم ، وهى مصر التى خَرَجوا عنها . غير أنه أجراها ونوّنها اتّباعاً منه خطَّ المصحف ، لأن فى المصحف ألفاً ثابتةً فى « مصر » ، فيكونُ سبيلُ قراءته ذلك بالإجراء والتنوين ، سبيلَ من قرأ « قَوَارِيراً قَوَارِيراً مِنْ فِضَّةٍ » [سورة الإنسان : ١٥ ، ١٦] منونةً ، اتباعاً منه خطَّ المصحف . وأما الذى لم ينوّن« مصر » فإنه لا شك أنه عنى « مصرَ » التى تعرف بهذا الاسم بعينها دون سائر البلدان غيرها.[1]

* * *

وقد اختلف أهل التأويل فى ذلك ، نظيرَ اختلاف القرأة فى قراءته .

١٠٨١ — فحدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة : « اهبطوا مصرًا » ، أى مِصْراً من الأمصار ، فإن لكم ما سألتم .

١٠٨٢ — حدثنى موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « اهبِطوا مصرًا » من الأمصار ، فإن لكم ما سألتم . فلما خرجوا من التّيه ، رُفع المنّ والسلوى وأكلوا البقول .

١٠٨٣ — حدثنى المثنى قال ، حدثنى آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن قتادة فى قوله : « اهبطوا مِصْرًا » قال : يعنى مصرًا من الأمصار .

١٠٨٤ — حدثنا القاسم بن الحسن قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد : « اهبطوا مصرًا » قال : مِصراً من الأمصار . زعمُوا أنهم لم يرجعوا إلى مصر .

١٠٨٥ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : « اهبطوا مصرًا » ، قال : مصرًا من الأمصار . و « مصرُ » لا تُجرَى فى الكلام . فقيل : أىُّ مِصْرٍ . فقال : الأرض المقدسة التى كتبَ الله لهم ، وقرأ قول الله جل ثناؤه : ﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ المقدَّسة الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ ﴾ [سورة المائدة : ٢١]

* * *

(١) انظر ما قاله الفراء فى معانى القرآن ١ : ٤٢ — ٤٣ .

* * *

وقال آخرون : هي مصر التى كان فيها فرعون * ذكر من قال ذلك :

١٠٨٦ — حدثنى المثنى ، حدثنا آدم، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله: « اهبطوا مصرًا »، قال : يعنى به مصرَ فرعون .

١٠٨٧ — حُدِّثت عن عمار بن الحسن ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع مثله .

* * *

ومن حُجة مَن قال إنّ الله جل ثناؤه إنما عنَى بقوله : « اهبطوا مصرًا »، مصرًا من الأمصار دون «مصر» فرعونَ بعينها —: أنّ الله جعلَ أرضَ الشام لبنى ١/٢٤٩ إسرائيل مساكنَ بعد أن أخرجهم من مصر . وإنما ابتلاهم بالتِّيه ، بامتناعهم على موسى فى حرب الجبابرة ، إذْ قال لهم: ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ البَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هٰهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٢١ — ٢٤] ، فحرَّم الله جل وعز على قائلى ذلك — فيما ذُكر لنا — دخولَها حتى هلكوا فى التِّيه . وابتلاهم بالتَّيَهان فى الأرض أربعين سنة ، ثم أهبط ذريتهم الشأم، فأسكنهم الأرضَ المقدَّسة ، وجعل هلاكَ الجبابرة على أيديهم مع يُوشَع بن نُون — بعد وَفاة موسى بن عمران . فرأينا الله جل وعز قد أخبرَ عنهم أنّه كتب لهم الأرضَ المقدَّسة ، ولم يخبرنا عنهم أنه ردَّهم إلى مصر بعد إخراجه إياهم منها ، فيجوزَ لنا أن نقرأ : « اهبطوا مصرَ » ، ونتأوّله أنه ردَّهم إليها .

قالوا: فإن احتجّ محتجٌّ بقول الله جل ثناؤه : ﴿فأخرجناهم من جنّات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾ [سورة الشعراء : ٥٧ - ٥٩]

قيل له : (١) فإنّ الله جل ثناؤه إنما أورثهم ذلك، فملّكهم إياها ولم يردّهم إليها ، وجعل مساكنهم الشأم .

* * *

وأما الذين قالوا : إن الله إنّما عنى بقوله جل وعز : « اهبطوا مصرًا» مصرَ، فإن من حجتهم التى احتجوا بها الآية التى قال فيها : ﴿ فأخرجناهم من جنّات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني اسرائيل ﴾ [سورة الشعراء : ٥٧ - ٥٩]، وقوله : ﴿ كم تركوا من جنّات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قومًا آخرين ﴾ [سورة الدخان : ٢٥-٢٨] ، قالوا : فأخبر الله جل ثناؤه أنه قد ورّثهم ذلك وجعلها لهم ، فلم يكونوا يرثونها ثم لا ينتفعون بها . قالوا : ولا يكونون منتفعين بها إلا بمصير بعضهم إليها ، وإلا فلا وجه للانتفاع بها ، إن لم يصيروا ، أو يصرْ بعضهم ، إليها . قالوا : (٢) وأخرى ، أنها فى قراءة أبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود : « اهبطوا مصرَ » بغير ألف . قالوا : ففى ذلك الدلالة البينة أنها « مصرُ » بعينها .

* * *

قال أبو جعفر: والذى نقول به فى ذلك، أنه لا دلالة فى كتاب الله على الصواب من هذين التأويلين ، ولا خبر به عن الرسول صلى الله عليه وسلم يقطع مجيئه العذرَ . وأهل التأويل متنازعون تأويله ، فأولى الأقوال فى ذلك عندنا بالصواب أن يقال : (٣) إن موسى سأل ربه أن يعطى قومه ما سألوه من نبات الأرض — على ما بينه الله جل وعز فى كتابه — وهم فى الأرض تائهون ، فاستجاب الله لموسى دعاءه ، وأمره أن يهبط بمن معه من قومه

(١) فى المطبوعة : « قيل لهم » ، وهو خطأ . والضمير فى «له» راجع إلى قوله : «فإن احتج محتج» .
(٢) قوله : « وأخرى » ، أى وحجة أخرى . وانظر معانى القرآن للفراء ١ : ٤٣
(٣) فى المطبوعة : « عندنا والصواب » ، وهو سهو ناسخ .

قراراً من الأرض التى تُنبتلهم ما سأل لهم من ذلك . إذ كان الذى سألوه لا تُنبته إلا القُرى والأمصار ، وأنه قد أعطاهم ذلك إذْ صارُوا إليه . وجائز أن يكون ذلك القرار « مصرَ » ، وجائز أن يكون « الشأم » .

فأما القراءةُ ، فإنها بالألف والتنوين : « اهبطوا مصرًا » . وهى القراءة التى لا يجوز عندى غيرها ، لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين ، واتفاق قراءة القرأة على ذلك . ولم يقرأ بترك التنوين فيه وإسقاط الألف منه ، إلا من لا يجوز الاعتراض به على الحجة ،[1] فيما جاءت به من القراءة مستفيضاً بينها .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَةُ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله : « وضُربت » . أى فُرضت ووُضعت عليهم الذلةُ وألزِمُوها . من قول القائل : «ضرَبَ الإمامُ الجزيةَ على أهل الذمة» و «ضربَ الرجل على عبده الخراج » ، يعنى بذلك وضعه فألزمه إياه ، ومن قولهم : «ضرَبَ الأمير على الجيش البَعْثَ » ، يراد به : ألزمهموه .[2]

* * *

وأما « الذلة » فهى «الفِعْلة» من قول القائل : «ذَلَّ فلان يَذِل ذُلاًّ وذِلَّة» ، ك « الصِّغرة » من «صَغُر الأمر» ، و « القِعْدة » من «قَعَد» .[3]

١/٢٥٠ و « الذِّلَّة » هى الصَّغارُ الذى أمرَ الله جل ثناؤه عبادَه المؤمنين أنْ لا يُعطوهم أماناً — على القرار على ما هم عليه من كفرهم به وبرسوله — إلا أن يبذُلوا الجزية عليه لهم ، فقال جل وعز : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِاليَوْمِ الآخِرِ

---

(١) الحجة هنا : الذين يحتج بهم .

(٢) البعث : بعث الجند إلى الغزو .

(٣) لم أجد فيما بين يدى من الكتب من نص على أن « صغرة » و « قعدة » مصدر على فعلة مثل : نشد الدابة نشدة ، ليس للهيئة ، وإن وافقها فى الوزن .

وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٢٩] كما :—

١٠٨٨ — حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر، عن الحسن وقتادة فى قوله : « وضُرِبت عليهم الذلة » ، قالا : يُعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون .

* * *

وأما « المَسْكنة » فإنها مصدر « المسكين » . يقال : « ما فيهم أسكنُ من فلان » ،[1] و« ما كان مِسكيناً » و « لقد تَمسْكن مسكنة » . ومن العرب من يقول : « تَمسكن تَمسكُناً » . و« المسكنة » فى هذا الموضع مسكنة الفاقة والحاجة ، وهى خُشُوعها وذلها ، كما :—

١٠٨٩ — حدثنى به المثنى بن إبراهيم قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله : « والمسكنة » قال : الفاقة .

١٠٩٠ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى قوله : « وضُربتْ عليهم الذلة والمسْكنة » ، قال : الفقر .

١٠٩١ — وحدثنى يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد فى قوله : « وضُرِبت عليهم الذلّة والمسكنة » ، قال : هؤلاء يهود بنى إسرائيل . قلت له : هم قِبط مصر ؟ قال : وما لِقبط مصر وهذا ، لا والله ما هُم هُم ، ولكنهم اليهودُ يهودُ بنى إسرائيل .

* * *

فأخبرهم الله جل ثناؤه أنه يُبْدلهم بالعزّ ذُلاًّ ، وبالنعمة بؤساً ، وبالرِّضا عنهم غَضباً ، جزاءً منه لهم على كُفرهم بآياته ، وقتلهم أنبياءَه ورسلَه ، اعتداءً وظلماً منهم بغير حق ، وعصيانهم لَهُ ، وخلافاً عليه .

* * *

(١) قاله أبو عبيدة فى مجاز القرآن : ٤٢ ، وفسره فقال : « أى أفقر منه » .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله : « وَباؤوا بغضَبٍ منَ الله » ، انصرفوا ورَجعوا . ولا يقال « باؤوا » إلاّ موصولاً : إمّا بخير ، وإمّا بشر . يقال منه : « باء فُلان بذنبه يَبوء به بَوْءاً وبَواءً » . ومنه قول الله عز وجل ﴿ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ ﴾ [سورة المائدة : ٢٩] ، يعنى : تنصرفَ متحمّلهما وترجعَ بهما ، قد صارا عليك دُونى .

* * *

فمعنى الكلام إذاً : ورجعوا منصرفين متحمّلين غَضَبَ الله ، قد صار عليهم من الله غَضَبٌ ، ووَجب عليهم منه سُخط . كما : —

١٠٩٢ — حدثت عن عمار بن الحسن قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله : « وَباؤوا بغضَبٍ من الله » فحدَث عليهم غَضَبٌ من الله .

١٠٩٣ — حدثنا يحيى بن أبى طالب قال ، أخبرنا يزيد قال ، أخبرنا جويبر ، عن الضحاك فى قوله : « وَباؤوا بغضَبٍ من الله » قال : استحقوا الغضَب من الله .

* * *

وقدّمنا معنى غَضَب الله على عبده فيما مضى من كتابنا هذا ، فأغنى عن إعادته فى هذا الموضع .[1]

* * *

(١) انظر ما سلف ١ : ١٨٨ — ١٨٩ .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « ذلك » ، ضربَ الذلة والمسكنة عليهم ، وإحلالَه غضبَه بهم . فدّل بقوله « ذلك » — وهو يعنى به ما وصفنا — على أن قول القائل : « ذلك »، يشملُ المعانىَ الكثيرةَ إذا أشير به إليها .

* * *

ويعنى بقوله: « بأنهم كانوا يكفرون »، من أجْل أنهم كانوا يكفرون . يقول : فعلنا بهم — من إحلال الذلّ والمسكنة والسُّخط بهم — من أجل أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، كما قال أعشى بنى ثعلبة :

مَلِيكِيَّةٌ جَاوَرَتْ بِالحِجَا زِ قَوْماً عُدَاةً وأَرْضاً شَطِيرَا[1]
بِمَا قَدْ تَرَبَّعُ رَوْضَ القَطَا وَرَوْضَ التَّنَاضِبِ، حَتَّى تَصِيرَا[2]

يعنى بذلك: جاوَرتْ بهذا المكان، هذه المرأة، قوماً عُداة وأرضاً بعيدةً من أهله — لمكان قُرْبها كانَ منه ومن قومه وبلده —[3] من تربُّعها رَوضَ القطا ورَوض التناضب . ٢٥١/١

---

(١) ديوانه : ٦٧ . مليكية ، منسوبة إلى « المليك » : وهو الملك ، يعنى من بنات الملوك . العداة ، جمع عاد ، وهو العدو . الشطير : البعيد ، والغريب ، أراد أنها فى أرض مجهولة . وذكره الأرض فى هذا البيت . يعنى أنها نزلت ديار قوم نشبت العداوة بينا و بينهم ، فى غربة بعيدة . فصرت لا أقدر عليها .

(٢) قوله « بما » بمعنى بسبب تربعها . وتربع القوم المكان وارتبعوه : أقاموا فيه فيه زمن الربيع. وروض القطا ، من أشهر رياض العرب ، فى أرض الحجاز . وروض التناضب أيضاً بالحجاز عند سرف . وقوله : « حتى تصيرا » ، من قولهم صار الرجل يصير فهو صائر : إذا حضر الماء ، والقوم الذين يحضرون الماء يقال لهم : الصائرة . والصير (بكسر الصاد) الماء الذى يحضره الناس . يقول : اغتربت فى غير قومها ، لما دفعها إلى ذلك طلب الربيع والخصب ومساقط الماء فى البلاد .

(٣) كانت هذه الجملة فى المخطوطات والمطبوعة هكذا : « وأرضاً بعيدة من أهله بمكان قربها كان منه ومن قومه و بدلا من تربعها . . . » ، وهو كلام لا معنى له . وقد جعلت « بمكان » ، « لمكان » و « بدلا » ، « بلده » . فصار لها معنى تطمئن إليه النفس والجملة بين الخطين اعتراض ، وتفسير لقوله : « أرضاً بعيدة من أهله » .

فكذلك قوله : « وضُرِبَتْ عليهم الذِّلة والمسكنةُ وباؤوا بغضَب من الله ذلك بأنّهم كانوا يكفرون بآيات الله »، يقول: كان ذلك منَّا بكفرهم بآياتنا ، وجزاءً لهم بقتلهم أنبياءَنا .

* * *

وقد بينا فيما مضى من كتابنا أن معنى « الكفر »: تغطية الشيء وستره ،[1] وأن « آيات الله » حُججه وأعلامُه وأدلتُه على توحيده وصدق رسله .[2]

فمعنى الكلام إذاً . فعلنا بهم ذلك ، من أجل أنهم كانوا يجحدون حُجج الله على توحيده وتصديق رسله ، ويدفعون حقيتّها ، ويكذبون بها .

* * *

ويعنى بقوله : « ويقتلونَ النبيين بغير الحق » : ويقتلون رسلَ الله الذين ابتَعثهم — لإنباء ما أرسلهم به عنه — لمن أرسلوا إليه .

* * *

وهم جِماعٌ، واحدهم « نبيّ »، غير مهموز ، وأصله الهمز ، لأنه من « أنبأ عن الله فهو يُنبِيء عنه إنباءً » ، وإنما الاسم منه : «مُنْبِيء»، ولكنه صُرِفَ وهو « مُفعل » إلى « فعيل » ، كما صرف « سميع » إلى « فعيل » من « مُسمِع » ، و « بصير » من «مُبصر»، وأشباه ذلك .[3] وأبدل مكان الهمزة من« النبيء » الياء ، فقيل : « نبيّ ». هذا ويجمع«النبيّ» أيضاً على«أنبياء»، وإنما جمعوه كذلك، لإلحاقهم «النبيء»، بإبدال الهمزة منه ياء، بالنعوت التى تأتى على تقدير « فعيل » من ذوات الياء والواو . وذلك أنّهم إذا جمعوا ما كان من النعوت على تقدير « فعيل » من ذوات الياء والواو ، جمعوه على« أفعلاء » كقولهم : «وَلِيّ وأولياء»، و « وصيّ وأوصياء »،

---

(١) انظر ما سلف ١ : ٢٥٥ .

(٢) انظر ما سلف ١ : ٥٥٢ .

(٣) كان فى المطبوعة : « مفعل » مكان « مسمع » . وليس يعنى بقوله « سميع » ، صفة الله عز وجل ، بل يعنى ما جاء فى شعر عمرو بن معد يكرب .

أَمِنْ رَيحانَةَ الدَّاعِي السميعُ ؟ يُؤَرِّقُنى ، وأصحابِي هُجُوعُ

أى الداعى المسمع . وانظر ما سلف ١ : ٢٨٣ .

و «دَعِىٌّ وأدعياء» . ولو جمعوه على أصله الذى هو أصله، وعلى أن الواحد «نبىء» مهموز، لجمعوه على «فُعَلاء»: فقيل لهم «النبآء»، على مثال «النبهاء»،[1] لأن ذلك جمعُ ما كان على «فعيل» من ذوات الياء والواو من النعوت، كجمعهم: الشريك شركاء. والعليم علماء، والحكيم حكماء، وما أشبه ذلك. وقد حُكى سماعاً من العرب فى جمع «النبىّ» «النبآء»، وذلك من لغة الذين يهمزون «النبىء»، ثم يجمعونه على «النبآء» — على ما قد بيّنت. ومن ذلك قول عباس بن مِرْداس فى مدح النبي صلى الله عليه وسلم.

يَا خَاتَمَ النُّبآءِ إِنَّكَ مُرْسَلٌ بِالْخَيْرِ، كُلُّ هُدَى السَّبِيلِ هُدَاكَا[2]

فقال: «ياخاتم النبآء»، على أن واحدهم «نبىء» مهموز. وقد قال بعضهم:[3] «النبىّ» و «النبوّة» غير مهموز، لأنهما مأخوذان من «النَّبْوَة»، وهى مثل «النَّجْوة»، وهو المكان المرتفع، وكان يقول: إن أصل «النبىّ» الطريق، ويستشهد على ذلك ببيت القطامى:

لَمَّا وَرَدْنَ نَبِيًّا وَاسْتَتَبَّ بِهَا مُسْحَنْفِرٌ كَخُطُوطِ السَّيْحِ مُنْسَحِلُ[4]

---

(١) فى المطبوعة: «النبهاء» وفى المخطوطات «النبآء».

(٢) من أبيات له فى سيرة ابن هشام ٤ : ١٠٣ وغيرها. والضمير الفاعل فى قوله «هداكا»، لله سبحانه وتعالى، دل عليه ما فى قوله «إنك مرسل بالخير»، فإن الله هو الذى أرسله. وهو مضبوط فى أكثر الكتب «كل» بالرفع، و «هدى»، و «هداكا» بضم الهاء.

(٣) كأنه يريد الكسائى (البحر المحيط ١ : ٢٢٠). ووجدت فى معجم البلدان ٨ : ٢٤٩ «وقال أبو بكر بن الأنبارى فى «الزاهر» فى قول القطامى ... إن النبى فى هذا البيت هو الطريق»، وليس يعنيه أبو جعفر، فإن أبا بكر قد ولد سنة ٢٧١ وتوفى ٣٢٨. وقد رد هذا القول أبو القاسم الزجاج — فيما نقل ياقوت — فقال: «كيف يكون ذلك من أسماء الطريق، وهو يقول: «لما وردن نبياً»، وقد كانت قبل وروده على الطريق؟ فكأنه قال: «لما وردن طريقاً»، وهذا لا معنى له، إلا أن يكون أراد طريقاً بعينه فى مكان مخصوص، فيرجع إلى أنه اسم مكان بعينه، قيل: هو رمل بعينه، وقيل: هو اسم جبل». وانظر تحقيق ذلك فى معجم البلدان، ومعجم ما استعجم، وغيرهما.

(٤) ديوان : ٤، فى قصيدته الجيدة المشهورة، والضمير فى «وردن» للإبل ذكرها قبل. وروايته «واستتب بنا». نبى: كثيب رمل مرتفع فى ديار بنى تغلب، ذكره القطامى فى كثير من شعره. واستتب الأمر والطريق: استوى واستقام وتبين واطرد وامتد. مسحنفر، صفة للطريق: واسع

يقول : إنما سمى الطريق « نبيًّا » ، لأنه ظاهر مستبين ، من « النَّبْوة » .

ويقول : لم أسمع أحداً يهمز « النبيّ » . قال : وقد ذكرنا ما فى ذلك ، وبينا ما فيه الكفاية إن شاء الله .

* * *

ويعنى بقوله : « ويقتلون النبيين بغير الحق » ، أنهم كانوا يقتلون رُسُلَ الله ، بغير إذن الله لهم بقتلهم ، منكرين رسالتهم ، جاحدين نبوتهم .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٦١)

وقوله : « ذلك » ، رد على « ذلك » الأولى . ومعنى الكلام : وضُربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباؤوا بغضب من الله من أجل كفرهم بآيات الله وقتلهم النبيين بغير الحق ، من أجل عِصْيانهم ربَّهم واعتدائهم حدوده ، فقال جل ثناؤه . « ذلك بما عَصَوْا » ، والمعنى : ذلك بعصيانهم وكفرهم مُعتدين .

* * *

و « الاعتداء » ، تجاوز الحد الذى حدّه الله لعباده إلى غيره . وكل متجاوز حدَّ شىء إلى غيره ، فقد تَعدَّاه إلى ما جاوزَ إليه. ١/٢٥٢

* * *

ومعنى الكلام : فعلت بهم ما فعلتُ من ذلك ، بما عَصَوا أمرى ، وتجاوزوا حدّى إلى ما نهيتهم عنه .

* * *

ممتد ذاهب بين . والسيح : ضرب من البرود أو العباء مخطط ، يلبس ، أو يستتر به ويفرش . شبه آثار السير عليها بخطوط البرد . وسحلت الريح الأرض فانسحلت : كشطت ما عليها . ووصف الطريق بذلك ، لأنه قد استتب بالسير وصار لاحباً واضحاً .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ﴾

قال أبو جعفر : أمَّا « الذين آمنوا »، فهم المصدِّقون رسولَ الله فيما أتاهم به من الحقّ من عند الله . وإيمانهم بذلك، تصديقهم به — على ما قد بيّنّاه فيما مضى من كتابنا هذا .(١)

* * *

وأما « الذين هادوا »، فهم اليهود . ومعنى : « هادوا »، تابوا . يقال منه : «هادَ القوم يَهودُون هَوداً وهادَةً» .(٢) وقيل: إنما سُميت اليهودُ « يَهودَ »، من أجل قولهم : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٦]

١٠٩٤ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، قال : إنما سُميت اليهُود من أجل أنهم قالوا : « إنا هُدْنا إليك »

* * *

القول فى تأويل قوله عز وجل ﴿ وَالنَّصَارَىٰ ﴾

قال أبو جعفر : و « النصارى » جمع ، واحدهم نَصْرَان ، كما واحد السَّكارَى سَكران ، وواحد النَّشاوى نَشوان . وكذلك جمع كل نعت كان واحده على « فَعْلان » فإن جمعه على « فعالى » . إلا أن المستفيضَ من كلام العرب فى واحد « النصارى » « نصرانيٌّ » . وقد حُكى عنهم سماعاً « نَصْران » بطرح الياء ، ومنه قول الشاعر :

تَرَاهُ إِذَا زَارَ العَشِيَّ مُحَنَّفاً ... وَيُضْحِي لَدَيْهِ وَهْوَ نَصْرَانُ شَامِسُ(٣)

---

(١) انظر ما سلف ١ : ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٢) قوله « هادة » ، مصدر لم أجده فى كتب اللغة .

(٣) لم أعرف قائله . الأضداد لابن الأنبارى : ١٥٥ ، ورواه: « تراه ويضحى وهو . . » ونقله أبو حيان فى البحر المحيط ١ : ٢٣٨ عن الطبرى، وفيهما « إذا دار العشى » وأخطأ القرطبى (تفسيره ١ : ٣٦٩) فقال: « وأنشد سيبويه » وذكر البيت ، ولم ينشده سيبويه . وروى صدره .

وُسمع منهم فى الأنثى : « نصرانة » ، قال الشاعر :[١]

فَكِلْتَاهُمَا خَرَّتْ وَأَسْجَدَ رَأْسُهَا كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَحَنَّفِ[٢]

يقال : أسجد، إذا مال .[٣] وقد سُمع فى جمعهم « أنصار »، بمعنى النصارى . قال الشاعر :

لَمَّا رَأَيْتُ نَبَطاً أَنْصَارَا شَمَّرْتُ عَنْ رُكْبَتِىَ الإِزَارَا
كُنْتُ لَهُمْ مِنَ النَّصَارَى جَارَا[٤]

* * *

وهذه الأبيات التى ذكرتها، تدلّ على أنهم سُمُّوا « نصارى » لنصرة بعضهم بعضا، وتَناصُرِهم بينهم . وقد قيل إنهم سموا « نَصَارى »، من أجل أنهم نزلوا أرضاً يقال لها « ناصرة » .

﴿ تراه إذا دار العشا متحنِّفاً ﴾

والبيت فى صفة الحرباء . و « محنفاً » : قد تحنف ، أو صار إلى الحنيفية . ويعنى أنه مستقبل القبلة. وقوله : « لديه » ، أى لدى العشى ، ويريد قبل أن يستوى العشى أو لدى الضحى ؛ ويكون قد ذكره فى بيت قبله . وقوله : « شامس » ، يريد مستقبل الشمس ، قبل المشرق . يقول يستقبل الشمس كأنه نصرانى ، وهو كقول ذى الرمة فى صفة الحرباء أيضاً :

إِذَا حَوَّلَ الظِّلُّ العَشِيُّ رَأَيْتَهُ حَنِيفاً ، وَفِى قَرْنِ الضُّحَى يَتَنَصَّرُ

(١) هو أبو الأخزر الحمانى .

(٢) سيبويه ٢ : ٢٩ ، ١٠٤ ، واللسان (حنف) ، يصف ناقتين ، طأطأتا رؤوسهما من الإعياء ، فشبه رأس الناقة فى طأطأتها ، برأس النصرانية إذا طأطأته فى صلاتها . وأسجد الرجل : طأطأ رأسه وخفضة وانحنى . قال حميد بن ثور ، يصف نوقاً :

فَلَمَّا لَوَيْنَ عَلَى مِعْصَمٍ وَكَفٍّ خَضِيبٍ وَأَسْوَارِهَا
فُضُولَ أَزِمَّتِهَا أَسْجَدَتْ سُجُودَ النَّصَارَى لِأَحْبَارِهَا

(٣) بيان الطبرى عن معنى « أسجد » ليس بجيد .

(٤) لم أعرف صاحب الرجز . والأبيات، فى معانى القرآن للفراء ١ : ٤٤ أمالى ابن الشجرى ١ : ٧٩ ، ٣٧١ ، أنشده شاهداً على حذف واو العطف : أى « وكنت لهم من النصارى جاراً » ، ثم أنشده فى الموضع الآخر شاهداً على حذف الفاء العاطفة أى « فكنت لهم . . . »

١٠٩٥ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج : « النصارى » ، إنما سُموا نصارى من أجل أنهم نزلوا أرْضاً يقال لها « ناصرة » .

* * *

ويقول آخرون لقوله : ﴿ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ ﴾ [سورة الصف : ١٤]

* * *

وقد ذكر عن ابن عباس من طريق غير مرتضًى ، أنه كان يقول : إنما سَمِّيت النصارى نَصَارى، لأن قرية عيسى بن مريم كانت تسمى «ناصرة» ، وكان أصحابه يسمون النَّاصِرِيِّين ، وكان يقال لعيسى « الناصرىّ» .

١٠٩٦ — حدثت بذلك عن هشام بن محمد ، عن أبيه ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس .

١٠٩٧ — حدثنا بشر قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قال: إنما سُمّوا نَصَارى ، لأنهم كانوا بقرية يقال لها نَاصِرة ينزلها عيسى بن مريم ، فهو اسم تسمَّوا به ، ولَم يُؤمروا به .

١٠٩٨ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ﴾ [سورة المائدة : ٢٢] قال : تسمَّوا بقرية يقال لها « ناصرة » ، كان عيسى بن مريم ينزلها .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ وَالصَّابِئِينَ ﴾

قال أبو جعفر : و « الصابئون » جمع «صَابِئ» . وهو المستحدث سِوَى دِينه ديناً . كالمرتد من أهل السلام عن دينه . وكلّ خارج من دين كان عليه إلى آخر غيره ، تسميه العرب : «صابئاً» . يقال منه : «صَبَأ فلان يَصبْأ صَبْأً». ويقال : صَبأت «النُّجوم» : إذا طلعت . «وصَبأ علينا فُلان موضعَ كذا وكذا» ، يعنى به : طلع .

* * *

واختلف أهلُ التأويل فيمن يَلزمه هذا الاسم من أهل الملل . فقال بعضهم : يلزمَ ذلك كل من خرج من دين إلى غير دين . وقالوا : الذين عَنى الله بهذا الاسم، قومٌ لا دين لَهم . ذكر من قالَ ذلك :

٢٥٣/١

١٠٩٩ – حدثنا محمد بن بشار قال ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى

١١٠٠ – وحدثنا الحسن بن يحيي قال ، أخبرنا عبد الرزاق – جميعاً، عن سفيان ، عن ليث ، عن مجاهد قال : الصابئون ليسوا بيهود ولا نصارى ، ولا دين لهم .

١١٠١ – حدثنا ابن بشار قال، حدثنا عبد الرحمن قال ، حدثنا سفيان ، عن الحجاج بن أرطاة ، عن القاسم بن أبي بزة ، عن مجاهد مثله .

١١٠٢ – حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا حكام ، عن عنبسة ، عن الحجاج ، عن مجاهد قال : الصابئون بين المجوس واليهود ، لا تُؤكل ذبائحهم ، ولا تُنكح نساؤهم .

١١٠٣ – حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا حكام ، عن عنبسة ، عن حجاج ، عن قتادة ، عن الحسن مثل ذلك .

١١٠٤ – حدثني محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح : « الصابئين » بين اليهود والمجوس ، لا دين لهم

١١٠٥ – حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد مثله .

١١٠٦ – حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين . قال ، حدثني حجاج ، قال قال ابن جريج : قال مجاهد : « الصابئين » بين المجوس واليهود ، لا دين لهم . قال ابن جريج : قلت لعطاء : « الصابئين » ، زعموا أنها قبيلة من نحو السواد ،[1] ليسوا بمجوس ولا يهود ولا نصارى . قال : قد سمعنا ذلك ، وقد قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم : قد صبأ .

---

(١) يعنى سواد العراق .

١١٠٧ ـ وحدثني يونس بن عبد الأعلى قال، أخبرنا ابن وهب ، قال قال ابن زيد في قوله : «والصابئين» قال : الصابئون ، [أهل] دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل[1] ، يقولون : لا إله إلا الله ، وليس لهم عملٌ ولا كتاب ولا نبي ، إلا قول لا إله إلا الله . قال : ولم يؤمنوا برسول الله ، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه : « هؤلاء الصابئون » ، يشبهونهم بهم .

* * *

وقال آخرون هم قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة * ذكر من قال ذلك :

١١٠٨ ـ حدثنا محمد بن عبد الأعلى . قال ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن الحسن قال حدثني زياد[2] : أن الصابئين يصلُّون إلى القبلة ، ويصلون الخمسَ . قال : فأراد أن يَضعَ عنهم الجزية . قال : فخُبِّر بعد أنهم يعبدون الملائكة .

١١٠٩ ـ وحدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « والصابئين » قال : الصابئون قوم يعبدون الملائكة ، يصلُّون إلى القبلة ، ويقرأون الزَّبُور .

١١١٠ ـ حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية قال : الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزَّبور . قال أبو جعفر الرازي : وبلغني أيضاً أنّ الصابئين قومٌ يعبدون الملائكة ، ويقرأون الزبور ، ويصلُّون إلى القبلة .

* * *

وقال آخرون : بل هم طائفة من أهل الكتاب * ذكر من قال ذلك :

١١١١ ـ حدثنا سفيان بن وكيع قال ، حدثنا أبي ، عن سفيان ، قال : سئل السدّي عن الصابئين ، فقال : هم طائفة من أهل الكتاب .

* * *

(١) في المطبوعة «الصابئون دين من الأديان» ، والزيادة بين القوسين لا بد منها .

(٢) زياد ، هو زياد بن أبيه ، والي العراق في زمن معاوية رضي الله عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ مَنْ ءامَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الأخرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله : « من آمن بالله واليوم الآخر » ، من صدّق وأقر بالبعث بعد الممات يوم القيامة ، وعمل صالحاً فأطاع الله ، فلهم أجرهم عند ربهم. يعنى بقوله: «فلهمُ أجرهم عند ربهم»، فلهم ثوابُ عملهم الصالح عند ربهم .

* * *

فإن قال لنا قائل: فأين تمام قوله: « إنّ الذين آمنوا وَالذين َهادوا وَالنصارى وَالصابئين » ؟

قيل : تَمامه جملة َقوله: « َمنْ آمن بالله واليوم الآخر » . لأن معناه : من آمن منهم بالله واليوَم الآخِر ، فترك ذكْر « منهم » لدلالة الكلام عليه ، استغناءً بما َذكر عما َترك ذكره . ١/ ٢٥٤

فإن قال : وما معنى هذا الكلام ؟

قيل : إن معناه : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، َمنْ يؤمنْ بالله َواليوَم الآخر ، فلهُم أجْرُهم عند ربّهم .

فإن قال : وكيف ُيؤمن المؤمن ؟

قيل : ليس المعنى فى المؤمن المعنى الذى ظننتَهُ ، من انتقال من دين إلى دين ، كانتقال اليهودىّ والنصرانىّ إلى الإيمان = وإن كان قد قيل إنّ الذين ُعنُوا بذلك ، من كان من أهل الكتاب على إيمانه بعيسى وبما جاء به ، حتى أدرك محمداً صلى الله عليه وسلم فآمن به وصدّقه ، فقيل لأولئك الذين كانوا مؤمنين بعيسى وبما جاء به ، إذ أدْركوا محمدًا صلى الله عليه وسلم : آمنوا بمحمد وبما َجاء به = ولكن معنى إيمان المؤمن فى هذا الموضع ، ثباُته على إيمانه وتركُه تبديلَه .

وأما إيمان اليهود والنصارى والصابئين ، فالتصديقُ بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما

جاء به ، فمن يؤمن منهم بمحمد وبما جاء به واليوم الآخر ، ويعمل صالحاً ، فلم يبدّل ولم يغيّر حتى توفى على ذلك ، فله ثواب عمله وأجره عند ربه، كما وصف جل ثناؤه .

فإن قال قائل: وكيف قال: « فلهم أجرُهم عند ربهم » ، وإنما لفظ « مَنْ » لفظ واحد ، والفعل معه موحَّد ؟

قيل : « مَنْ » ، وإن كان الذى يليه من الفعل موحّد ، فإن له معنى الواحد والاثنين والجمع ، والتذكير والتأنيث ، لأنه فى كل هذه الأحوال على هيئة واحدة وصورة واحدة لا يتغير . فالعرب توحّد معه الفعل — وإن كان فى معنى جمع — للفظه ، وتجمع أخرى معه الفعل لمعناه ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [سورة يونس : ٤٢ ، ٤٣]. فجمع مرة مع « مَنْ » الفعلَ لمعناه ، ووحّد أخرى معه الفعل لأنه فى لفظ الواحد ، كما قال الشاعر :

أَلِمَّا بِسَلْمَى عَنْكُمَا إِنْ عَرَضْتُمَا ، وَقُولَا لَهَا : عُوجِي عَلَى مَنْ تَخَلَّفُوا[1]

---

(١) فى ديوان لامرىء القيس ، منسوب إليه من قصيدة عدتها ٢٣ بيتاً ، وفيه : « ويقال إنها لرجل من كندة » وأولها :

دِيَارٌ بِهَا الظِّلْمَانُ وَالعِينُ تَعْكُفُ وَقَفْتَ بِهَا تَبْكِى ودَمْعُكَ يَذْرِفُ

والأضداد لابن الأنبارى : ٢٨٨ ، قال أنشده الفراء ، وروايته صدره :

﴿ أَلِمَّا بِسَلْمَى لَمَّةً إِذْ وَقَفْتُمَا ﴾

والذى فى رواية الطبرى من قوله : « عنكما » زائدة فى الكلام ، والعرب تقول : « سر عنك » ، و « انفذ عنك » أى امض ، وجز — لا معنى لـ « عنك » . وفى حديث عمر رضى الله عنه : أنه طاف بالبيت مع يعلى بن أمية، فلما انتهى إلى الركن الغربى الذى يلى الأسود ، قال له : ألا تستلم ؟ فقال : انفذ عنك ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم لم يستلمه . وفى الحديث تفسيره : أى دعه وتجاوزه . وقوله « عرضتما » من قولهم : عرض الرجل : إذا أتى العروض (بفتح العين) ، وهى مكة والمدينة وما حولهما .

فقال : « تخلفوا » ، وجعل « مَنْ » بمنزلة « الذين » ، وقال الفرزدق :

تَعَالَ فَإِنْ عَاهَدْتَنِي لاَ تَخُونُنِي نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَاذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ[1]

فثنّى « يصطحبان » لمعنى « مَنْ » . فكذلك قوله : « من آمنَ بالله واليوم الآخر فلهُم أجرُهم عند ربهم » ، وحّد « آمن وعمل صالحاً » للفظ « مَنْ » ، وجمع ذكرهم فى قوله : « فلهُمْ أجرهم » ، لمعناه ، لأنه فى معنى جمع .

* * *

وأما قوله ﴿ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦٢)

فإنه يعنى به جل ذكره : ولا خوفٌ عليهم فيما قدِموا عليه من أهوال القيامة ، ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم من الدنيا وعيشها ، عند معاينتهم ما أعدّ الله لهم من الثواب والنعيم المقيم عنده .

* * *

* ذِكْرُ من قال : عُنى بقوله : « مَنْ آمن بالله » ، مؤمنو أهل الكتاب الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

١١١٢ — حدثنى موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو قال، حدثنا أسباط ابن نصر ، عن السدّى : « إنّ الذينَ آمنوا والذين هادُوا » الآية ، قال : نزلت هذه الآية فى أصحاب سلمان الفارسى . وكان سلمان من جُنْدَيْسابور ، وكان من أشرافهم ، وكان ابنُ الملك صديقاً له مُؤاخياً ، لا يقضى واحد منهما أمراً دون صاحبه ، وكانا يركبان إلى الصيد جميعاً . فبينما هما فى الصَّيد ، إذ رُفع لهما بيت من عباء ،[2] فأتياهُ ، فإذا هُما فيه برجل بين يديه مُصْحفٌ يقرأ فيه

(١) ديوانه : ٨٧٠ ، وسيبويه ١ : ٤٠٤ ، والكامل ١ : ٢١٦ ، وطبقات فحول الشعراء : ٣١٠ ، والأضداد : ٢٨٨ ، وأمالى ابن الشجرى ٢ : ٣١١ . ورواية ديوانه «تعش فإن واثقتنى» . وهو بيت من قصيدته الجيدة التى قالها حين نزل به ذئب فأضافه .

(٢) رفع له الشىء (بالبناء للمجهول) : أبصره من بعد . وفى المطبوعة : « بيت من خباء »

وهو يبكي . فسألاه: ما هذا ؟ فقال : الذى يُريد أن يعلم هذا لا يقف موقفكما ، فإن كنتما تريدان أن تعلما مَا فيه فانزِلا حَتّى أعلّمكما. فنزلا إليه، فقال لهما : هذا كتابٌ جاء من عند الله أمرَ فيه بطاعته ونَهى عن معصيته ، فيه : أنْ لا تزنى ، ولا تسرق ، ولا تأخذَ أموال الناس بالباطل . فقص عليهما ما فيه ، وهو الإنجيل الذى أنزله الله على عيسى . فوقع فى قلوبهما، وتابعاه فأسلما. وقال لهما : إن ذبيحة قومكما عليكما حرامٌ .

١/٢٥٥

فلم يزالا معه كذلك يتعلمان منه ، حتى كان عيدٌ للملك ، فجعل طعاماً،[١] ثم جمع الناس والأشرافَ ، وأرسل إلى ابن الملك فدعاه إلى صَنيعه ليأكل مع الناس . فأبى الفتى ، وقال : إنىّ عنك مشغول ، فكلْ أنت وأصحابك . فلما أكثر عليه من الرُّسل ، أخبرهم أنه لا يأكل من طعامهم. فبعث الملك إلى ابنه فدعاه . وقال : ما أمرك هذا ؟ قال : إنا لا نأكل من ذبائحكم ، إنكم كفّار ، ليس تحل ذبائحكُم . فقال الملك : من أمرَك بهذا ؟ فأخبره أن الراهب أمره بذلك . فدعا الراهب فقال : ماذا يقولُ ابنى ؟ قال : صَدَق ابنُك . قال له: لولا أن الدَّمَ فينا عظيمٌ لقتلتك ، ولكن اخرج من أرضنا . فأجّله أجَلاً . فقال سلمان: فقمنا نبكى عليه، فقال لهما : إن كنتما صادقين ، فإنّا فى بِيعة بالموصل مع ستين رجلاً نعبُد الله فيها ، فأتونا فيها .

فخرج الراهبُ ، وبقى سلمان وابن الملك ، فجعل يقول لابن الملك : انطلق بنا ! وابن الملك يقول : نعم . وجعل ابن الملك يبيع متاعَهُ يريد الجهاز . فلما أبطأ على سلمان ، خرج سلمان حتى أتاهم ، فنزل على صاحبه ، وهو ربُّ البيِّعة .

والخباء بيت من وبر أو صوف . فهو كلام لا معنى له . وفى الدر المنثور ١ : ٧٣ وروى الخبر بطوله: « من عباءة » . والصواب ما أثبته . والعباء ضرب من الأكسية فيه خطوط سود كبار ، وهو هنا مفرد ، وجمعه أعبية . والعباء أيضا جمع عباءة .

(١) فى الدر المنثور : « فجمع طعاماً » ، وأظن أن الصواب : « فصنع طعاماً » ، ويدل على صواب ذلك قوله بعد : « فدعاه إلى صنيعه » . يقال : صنع لهم طعاماً ، وكنت فى صنيع فلان : أى مأدبته ومدعاته .

وكان أهل تلك البيعة من أفضل الرهبان ،[1] فكان سلمان معهم يجتهد فى العبادة ويتعب نفسه ، فقال له الشيخ : إنك غلام حدث تتكلف من العبادة ما لا تطيق، وأنا خائف أن تفتر وتعجز : فارفق بنفسك وخفف عليها . فقال سلمان : أرأيت الذى تأمرنى به ، أهو أفضل أو الذى أصنع ؟ قال : بل الذى تصنع . قال : فخل عنى .

ثم إن صاحب البيعة دعاه فقال : أتعلم أن هذه البيعة لى ، وأنا أحق الناس بها ، ولو شئت أن أخرج هؤلاء منها لفعلتُ ! ولكنى رجل أضعف عن عبادة هؤلاء ، وأنا أريد أن أتحول من هذه البيعة إلى بيعة أخرى هم أهونُ عبادة من هؤلاء ، فإن شئت أن تقيم ههنا فأقم ، وإن شئت أن تنطلق معى فانطلق . قال له سلمان : أى البيعتين أفضل أهلاً ؟ قال : هذه . قال سلمان : فأنا أكون فى هذه . فأقام سلمان بها وأوصى صاحبُ البيعة عالِمَ البيعة بسلمان، فكان سلمان يتعبد معهم .

ثم إن الشيخ العالم أراد أن يأتى بيت المقدس ، فقال لسلمان : إن أردت أن تنطلق معى فانطلق ، وإن شئت أن تقيم فأقم . فقال له سلمان : أيهما أفضل ، أنطلقُ معك أم أقيم ؟ قال : لا ، بل تنطلق معى . فانطلق معه . فمروا بمُقعد على ظهر الطريق ملقى ، فلما رآهما نادى : يا سيد الرهبان ، ارحمنى يرحمك الله ! فلم يكلمه ولم ينظر إليه . وانطلقا حتى أتيا بيت المقدس ، فقال الشيخ لسلمان : اخرج فاطلب العلم ، فإنه يحضر هذا المسجد علماء أهل الأرض . فخرج سلمان يسمع منهم ، فرجع يوماً حزيناً ، فقال له الشيخ : مالك يا سلمان؟ قال : أرى الخير كله قد ذهب به من كان قبلنا من الأنبياء وأتباعهم ! فقال له الشيخ : يا سلمانُ لا تحزن ، فإنه قد بقى نبى ليس من نبى بأفضل تبعاً منه ، وهذا زمانه الذى يخرج فيه ، ولا أُرانى أدركه ، وأما أنت فشاب لعلك أن تدركه ، وهو

(١) فى الدر المنثور : « فكان أهل تلك البيعة ، أفضل مرتبة من الرهبان »

يخرج فى أرض العرَب فإن أدركته فآمن به واتّبعه . فقال له سلمان : فأخبرنى عن علامته بشىء . قال : نعم ، هو مختوم فى ظهره بخاتم النُّبُوّة ، وهو يأكل الهدية ولا يأكل الصدَقة .

٢٥٦/١ ثم رَجعا حتى بلغا مكان المُقْعَد ، فناداهما فقال : يا سيّد الرهبان، ارحمنى يرحمك الله ! فعطف إليه حمارَه ، فأخذ بيده فرَفعه ، فضرب به الأرض ، ودعا له وقال : قُمْ بإذن الله ! فقام صحيحاً يشتدّ .[١] فجعل سلمان يتعجب وهو ينظر إليه يَشتدّ . وسار الراهب فتغيب عن سلمان ، ولا يعلم سلمان .

ثم إن سلمان فزع فطلبَ الراهب . فلقيه رجلان من العرب من كلْب ، فسألهما : هل رأيتما الراهب؟ فأناخ أحدهما راحلته ، قال : نعمْ رَاعى الصِّرمة هذا ![٢] فحمله فانطلق به إلى المدينة .

قال سلمان : فأصابنى من الحزن شىء لم يصبنى مثله قط . فاشترته امرأة من جُهيْنة ، فكان يَرْعى عليها هو وغلام لها يتراوحان الغنم ، هذا يوماً وهذا يوماً . فكان سلمان يجمع الدراهم ينتظر خروجَ محمد صلى الله عليه وسلم . فبينا هو يوماً يرعى ، إذْ أتاه صاحبه الذى يَعقُبُه ،[٣] فقال : أشعَرْت أنه قد قدِم اليوم المدينةَ رجل يزعمُ أنه نبىّ ؟[٤] فقال له سلمان : أقم فى الغنم حتى آتيك .

فهبط سلمانُ إلى المدينة . فنظرَ إلى النبى صلى الله عليه وسلم ودارَ حوله . فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم عرَف ما يريد ، فأرسل ثوبه حتى خرج خاتَمه ، فلما رآه أتاه وكلمه . ثم انطلق فاشترى بدينار ، ببعضه شاةً وببعضه خبزاً ، ثم أتاه به . فقال : ما هذا ؟ قال سلمان : هذه صدقة . قال : لا حاجة لى بها ،

---

(١) اشتد : عدا وأسرع .
(٢) الصرمة : القطيع من الإبل والغنم .
(٣) عقبه يعقبه : جاء بعده فى نوبته ، ومنه التعاقب : أن يأتى هذا ويذهب ذاك .
(٤) أشعرت : علمت .

فأخرجها فليأكلها المسلمون . ثم انطلق فاشترى بدينار آخر خبزاً ولحماً ، فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذا ؟ قال : هذه هديّة . قال : فاقعد [فكُل] .(١) فقعد فأكلا جميعاً منها . فبينا هو يحدّثه ، إذ ذكر أصحابَه فأخبره خبرهم فقال : كانوا يَصومون ويصلُّون ويؤمنون بك ، ويشهدون أنك ستبعث نبيًّا . فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم ، قال له نبي الله صلى الله عليه وسلم : يا سلمان ، هم من أهل النار . فاشتدّ ذلك على سلمان ، وقد كان قال له سلمان : لو أدْركوك صدّقوك واتّبعوك . فأنزل الله هذه الآية : « إن الذين آمنوا والذين هادُوا والنصارَى والصابئين مَنْ آمن بالله واليوم الآخر » .(٢)

* * *

فكان إيمانُ اليهود : أنه من تمسَّك بالتوراة وسُنة موسى ، حتى جاء عيسى . فلما جاء عيسى كان من تمسَّك بالتوراة وأخذ بسُنة موسى — فلم يدعها ولم يتبع عيسى — كان هالكاً . وإيمان النصارى : أنه من تمسك بالإنجيل منهم وشرَائع عيسى كان مؤمناً مقبولا منه ، حتى جاءَ محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن لم يتبعْ محمداً صلى الله عليه وسلم منهم ويَدَعْ ما كان عليه من سُنة عيسى والإنجيل — كان هالكاً .

* * *

١١١٣ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد قوله : « إنّ الذين آمنوا والذين هادُوا » الآية ، قال :(٣)

---

(١) الزيادة من الدر المنثور ١ : ٧٤ .

(٢) الحديث : ١١١٢ — هذا حديث منقطع ، في شأن إسلام « سلمان الفارسي » . وقال الحافظ في الإصابة ٣ : ١١٣ : « وروِيت قصته من طرق كثيرة ، من أصحها ما أخرجه أحمد من حديثه نفسه . وأخرجها الحاكم من وجه آخر عنه أيضاً . وأخرجه الحاكم من حديث بريدة . وعلق البخاري طرفاً منها . وفي سياق قصته في إسلامه اختلاف يتعسر الجمع فيه » . وإشارته إلى رواية أحمد ، هي في المسند ٥ : ٤٤١ — ٤٤٤ (حلبي) ، وهي بالإسناد نفسه في ابن سعد ٤ : ٥٣ — ٥٧ . وانظر المستدرك للحاكم ٣ : ٥٩٩ — ٦٠٤ . وتاريخ إصبهان لأبي نعيم ١ : ٤٨ — ٥٧ ، والحلية لأبي نعيم ١ : ١٩٠ — ١٩٥ .

(٣) في المطبوعة : « قال سلمان الفارسي للنبي صلى الله عليه وسلم » ، بحذف « سأل » . والصواب من الدر المنثور ١ : ٧٤ .

سأل سلمانُ الفارسىّ النبىّ صلى الله عليه وسلم عن أولئك النصارى وما رأى من أعمالهم ، قال : لم يموتوا على الإسلام . قال سلمان : فأظلمتْ علىّ الأرضُ ، وذكرت اجتهادهم ، [1] فنزلت هذه الآية : « إنّ الذين آمنوا والذين هادوا » . [2] فدعا سلمان فقال : نزلت هذه الآية فى أصحابك . ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم من َمات َ على دين عيسَى ومات على الإسلام قبل أن يسمع بى ، فهو على خير ؛ ومن سمع بى اليوم ولم يؤمن بى فقدْ هَلَك . [3]

* * *

وقال ابن عباس بما : —

١١١٤ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو صالح قال ، حدثنى معاوية بن صالح ، عن ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : « إنّ الذين آمنوا والذين َهادُوا والنصارَى والصابئين » إلى قوله : « ولا هم يحزنون » . فأنزل الله تعالى بعدَ هذا ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران : ٨٥]

وهذا الخبر يدلّ على أن ابن عباس كانَ يرى أن الله جل ثناؤه كان قد وَعَد َمنْ عمل صالحاً — من اليهود والنصارى والصابئين — على عمله ، فى الآخرة ١/٢٥٧ الجنة ، ثم نسخ ذلك بقوله : « ومَنْ يَبتغ غيرَ الإسلام ديناً فلنْ يُقبل منه » .

* * *

فتأويل الآية إذاً ، على ما ذكرنا عن مجاهد والسدى : إنّ الذين آمنوا منْ هذه الأمة ، والذين هادوا ، والنصارَى ، والصابئين — َمن آمَن منَ اليهود والنصارَى والصابئين بالله واليوم الآخر — فلهم أجرُهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون.

* * *

والذى قلنا من التأويل الأوّل ، أشبهُ بظاهر التنزيل . لأن الله جل ثناؤه لم

---

(١) فى المطبوعة : « وذكر اجتهادهم » ، والصواب من الدر المنثور .

(٢) الآية لم ترد فى المطبوعة ، ووردت فى نص الدر المنثور .

(٣) الحديث : ١١١٣ — وهذا منقطع أيضاً .

يخصّص — بالأجر على العمل الصالح مع الإيمان — بعضَ خلقه دون بعض منهم ، والخبرُ بقوله : « من آمن بالله واليوم الآخر » ، عن جميع ما ذكر فى أول الآية .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ ﴾

قال أبو جعفر : « الميثاق » ، « المفعال » ، من « الوثيقة » ، إمّا بيمين ، وإما بعهد ، أو غير ذلك من الوثائق .[1]

ويعنى بقوله: « وإذْ أخذْنا ميثاقكم »، الميثاقَ الذى أخبرَ جل ثناؤه أنه أخذَ منهم فى قوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ [سورة البقرة : ٨٣ — ٨٥]، الآيات التى ذكر معها . وكان سببُ أخذَ الميثاق عليهم — فيما ذكره ابن زيد — ما : —

١١١٥ — حدثنى به يونس بن عبد الأعلى قال، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : لما رجع موسى من عند ربه بالألواح . قال لقومه بنى إسرائيل : إن هذه الألواح فيها كتاب الله ، فيه أمره الذى أمركم به ونهيه الذى نهاكم عنه .[2] فقالوا : ومن يأخُذه بقولك أنت ؟ لا والله حتى نرَى الله جهرةً ، حتى يطلع الله إلينا فيقول: هذا كتابى فخذوه ! فماله لا يكلمنا كما كلمك أنت يا موسى ، فيقول : هذا كتابى فخذوه ؟ قال : فجاءت غضبة من الله ، فجاءتهم صاعقة فصعقتهم ، فماتوا أجمعون . قال : ثم أحياهم الله بعد موتهم ، فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله . فقالوا : لا . قال : أى شىء أصابكم ؟ قالوا : متنا ثم حيينا ![3] قال: خذوا

---

(١) انظر ما سلف ١ : ٤١٤ ، فى قوله تعالى : « من بعد ميثاقه »[سورة البقرة : ٢٧] .

(٢) فى المطبوعة : « وأمره الذى أمركم » ، والتصحيح من روايته فى رقم : ٩٥٩ .

(٣) فى رقم : ٩٥٩ : « قالوا أصابنا أنا متنا . . . » .

كتاب الله . قالوا : لا . فبعث ملائكته فنتقت الجبل فوقهم، فقيل لهم : أتعرفون هذا ؟ قالوا : نعم ، هذا الطور ! قال : خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم . قال: فأخذوه بالميثاق، وقرأ قولَ الله: ﴿ وإذْ أخذْنا ميثاقَ بَنِي إسْرائيلَ لا تَعبُدُونَ إلاَّ اللهَ وبالوَالِدَيْنِ إحْسَاناً ﴾ حتى بلغ ﴿ وَما اللهُ بغَافِلٍ عمَّا تَعملون ﴾ [سورة البقرة : ٨٣- ٨٥] ، قال : ولو كانوا أخذوه أول مرة، لأخذوه بغير ميثاق .(١)

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ ﴾

قال أبو جعفر : وأما « الطور » فإنه الجبل فى كلام العرب ، ومنه قول العجاج :

دَانَى جَنَاحَيْهِ مِنَ الطُّورِ فَمَرّْ تَقَضِّيَ البَازِى إذَا البَازِى كَسَرْ(٢)

وقيل : إنه اسم جبل بعينه. وذُكر أنه الجبلُ الذى ناجَى الله عليه موسى .

وقيل : إنه من الجبال ما أنبتَ دون ما لم يُنبت .(٣)

---

(١) الأثر رقم : ١١١٥ — مضى أكثره فى رقم : ٩٥٩ .

(٢) ديوانه : ١٧ ، وهو من قصيدة جيدة يذكر فيها مآثر عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى ، وقد ولى الولايات العظيمة، وفتح الفتوح الكثيرة ، وقاتل الخوارج . والضمير فى قوله : « دانى » يعود إلى متأخر ، وهو « البازى » المذكور فى البيت بعده . فإن قبله ، ذكر عمر بن عبيد الله وكتائبه من حوله :

حَوْلَ ابْنِ غَرَّاء حَصَانٍ إنْ وَتَرْ فَاتَ، وَإنْ طَالَبَ بالوَغْمِ اقتدَرْ
إذَا الكِرَامُ ابْتَدَروا البَاعَ ابْتَدَرْ دَانَى جَنَاحيه . . . .

يريد : « ابتدر منقضاً انقضاض البازى من الطور ، دانى جناحيه ... فر » . فقدم وأخر . وهو من جيد التقديم والتأخير . وقوله : « دانى » أى ضم جناحيه وقربهما وضيق ما بينهما تأهباً للانقضاض من ذروة الجبل . ومر : أسرع إسراعاً شديداً . وقوله : « تقضى » أصلها « تقضض » ، فقلب الضاد الأخيرة ياء ، استثقل ثلاث ضادات ، كما فعلوا فى « تظنن » « وتظنى » على التحويل . وتقضض الطائر : هوى فى طيرانه يريد الوقوع . والبازى : ضرب من الصقور ، شديد . وكسر الطائر جناحيه : ضم منهما شيئاً — أى قليلا — وهو يريد السقوط .

(٣) هذا قول لم أجده فى كتب اللغة فى مادته .

* * *

• ذكر من قال : هو الجبلُ كائناً ما كان :

١١١٦ — حدثني محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : أمر موسى قومَه أن يدخُلوا الباب سُجَّداً ويقولوا : « حِطَّة » ، وطُوطئ لهم البابُ ليسجدوا ، فلم يسجدوا ودخلوا على أدبارهم ، وقالوا : حِنْطة . فنتق فوقَهم الجبل — يقول : أخْرَجَ أصْلَ الجبل من الأرض فرَفعه فَوقهم كالظُّلة = و « الطور » ، بالسريانية ، الجبل = تخويفاً ، أو خوفاً ، شكَّ أبو عاصم ، فدَخلوا سجداً على خَوف ، وأعينهم إلى الجبل . هو الجبل الذى تجلَّى لَه ربّه .[1]

١١١٧ — حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : رفع الجبل فَوْقهم كالسحابة ، فقيل لهم : لتؤمنُنَّ أو ليقعَنَّ عليكم . فآمنوا . والجبل بالسريانية « الطور » .

١١١٨ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « وإذْ أخذْنا ميثاقكم ورَفعنا فَوقكمُ الطور » قال : الطور الجبلُ ؛ كانوا بأصله ، فرُفع عليهم فَوقَ رؤسهم ، فقال : لتأخُذُنّ أمْرى ، أوْ لأرمينَّكم به . ٢٥٨/١

١١١٩ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة : « ورَفعنا فَوْقكم الطور » ، قال : الطورُ الجبل . اقتلعه الله فرَفعه فوقهم ، فقال : « خُذُوا مَا أتيناكم بُقوة » فأقرّوا بذلك .

١١٢٠ — حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية : « ورفعنا فوقكم الطور » قال : رفع فوقهم الجبل ، يُخوِّفهم به .

---

(١) الأثر رقم : ١١١٦ — مضى صدر منه برقم : ١٠٢٧ .

١١٢١ — حدثنا ابن وكيع قال، حدثنا أبى، عن النضر ، عن عكرمة قال : الطُّور الجبلُ .

١١٢٢ — وحدثنا موسى قال، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى: لما قال الله لهم: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة . فأبوا أن يسجدوا، أمر الله الجبل أن يقع عليهم، فنظروا إليه وقد غشيهم ، فسقطوا سجداً على شق، ونظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله فكشفه عنهم فذلك قوله : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ ﴾ [سورة الأعراف : ١٧١]، وقوله: « وَرَفعنا فَوْقكم الطُّورَ » .

١١٢٣ — وحدثنى يونس بن عبد الأعلى قال، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : الجبل بالسُّريانية الطُّور .

* * *

وقال آخرون : « الطور » اسم للجبل الذى نَاجَى الله موسى عليه . ذكر من قال ذلك :

١١٢٤ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قال: قال ابن عباس : الطُّور، الجبل الذى أنزلت عليه التوراة — يعنى على موسى — ، وكانت بنو إسرائيل أسفلَ منه . قال ابن جريج : وقال لى عطاء : رُفع الجبل على بنى إسرائيل، فقال : لتؤمنُنّ به أو ليقعَنّ عليكم . فذلك قوله: « كأنه ظُلّة » .

* * *

وقال آخرون : الطُّور، من الجبال ، ما أنبت خاصّةً. ذكر من قال ذلك :

١١٢٥ — حدثت عن المنجاب قال، حدثنا بشر بن عمارة، عن أبى روق ، عن الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: « الطور » قال: الطور من الجبال ما أنبتَ ، وما لم يُنبت فليس بطُور .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل العربية فى تأويل ذلك . فقال بعض نحويى أهل البصرة : هو مما استغنى بدلالة الظاهر المذكور عما تُرك ذكره له . وذلك أن معنى الكلام : ورفعنا فوقكم الطور ، وقلنا لكم : خذوا ما آتيناكم بقوة، وإلاّ قذفناهُ عليكم .

وقال بعض نحويى أهل الكوفة : أخذُ الميثاق قولٌ ، فلا حاجة بالكلام إلى إضمار قولٍ فيه ، فيكون من كلامين ، غير أنه ينبغى لكلّ ما خالف القولَ من الكلام — الذى هو بمعنى القول — أن يكون معه « أنْ » ، كما قال الله جل ثناؤه ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ ﴾ [سورة نوح : ١] قال : ويجوز أن تحذف « أن » .

والصوابُ فى ذلك عندنا : أن كل كلام نُطِق به — مفهومٍ به معنى ما أريد — ففيه الكفاية من غيره .

ويعنى بقوله : « خُذوا مَا آتيناكم » ، ما أمرناكم به فى التوراة .

* * *

وأصلُ « الإيتاء » ، الإعطاء .(1)

* * *

ويعنى بقوله : « بقُوّة »، بجدٍّ فى تأدية ما أمركم فيه وافترض عليكم، كما :—

١١٢٦ — حدثت عن إبراهيم بن بشار قال :، حدثنا ابن عيينة ، قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « خذوا مَا آتيناكم بقوة » . قال : تَعملوا بما فيه .

١١٢٧ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

١١٢٨ — حدثنى المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن

---

(١) انظر ما سلف ١ : ٥٧٤

الربيع ، عن أبي العالية : «خُذُوا ما آتيناكم بقوة» ، قال : بطاعة .

١١٢٩ — حدثنا الحسن بن يحيي قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة : «خُذوا ما آتيناكم بقوة». قال : «القوة» الجدّ ، وإلا قذفتُه عليكم . قال : فأقرّوا بذلك : أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة .

٢٥٩/١

١١٣٠ — حدثني موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : «بقوة» ، يعنى : بجدّ واجتهاد .

١١٣١ — حدثني يونس بن عبد الأعلى قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد — وسألته عن قول الله «خُذُوا مَا آتيناكم بقوة» — قال : خُذوا الكتاب الذى جاء به موسى بصدق وبحق .

* * *

فتأويل الآية إذاً : خُذُوا ما افترضناه عليكم فى كتابنا من الفرائض ، فاقبلوه ، واعملوا باجتهادٍ منكم فى أدائه ، من غير تقصير ولا توانٍ . وذلك هو معنى أخذهم إياه بقُوَّةٍ ، بجدٍّ .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٦٣)

قال أبو جعفر : يعنى : واذكروا مَا فيما آتيناكم من كتابنا من وعد ووعيد شديد ، وترغيب وترهيب ، فاتلوه ، واعتبروا به ، وتدبّروه إذا فعلتم ذلك ، كى تتقوا وتخافوا عقابى ،[1] بإصراركم على ضلالكم ، فتنتهوا إلى طاعتى ، وتنزعوا عما أنتمُ عليه من مَعصيتى . كما : —

١١٣٢ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثنى ابن إسحق ، عن

(١) انظر ما مضى فى بيان «لعل» بمعنى «كى» ١ : ٣٦٤ — ٣٦٥ ، وهذا الجزء ٢ : ٦٨ .

داود بن الحصين، عن عكرمة ، عن ابن عباس: «لعلكم تتقون» ، قال: تنزعون عما أنتم عليه .

* * *

والذى آتاهم الله ، هو التوراة . كما : —

١١٣٣ — حدثنى المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : «واذكروا ما فيه »، يقول : اذكروا ما فى التوراة .

١١٣٤ — كما حدثت عن عمار بن الحسن قال ، حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله :« واذكروا ما فيه » يقول : أمروا بما فى التوراة .

١١٣٥ — وحدثنى يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال، سألت ابن زيد عن قول الله: « واذكروا ما فيه »، قال: اعملوا بما فيه بطاعة لله وصدق .[١] قال : وقال : اذكروا ما فيه ، لا تنسوه ولا تغفلوه .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه:« ثم توليتم » :ثم أعرضتم. وإنما هو « تفعلتم » من قولهم: « ولانى فلان دبره » إذا استدبر عنه وخلفه خلف ظهره . ثم يستعمل ذلك فى كل تارك طاعة أمر بها ، ومعرض بوجهه.[٢] يقال : «قد تولى فلان عن طاعة فلان ، وتولى عن مواصلته» ، ومنه قول الله جل ثناؤه ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [سورة التوبة: ٧٦]، يعنى بذلك: خالفوا ما كانوا وعدوا الله من قولهم: ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ

---

(١) فى المطبوعة : « بطاعة الله وصدق » خطأ .

(٢) فى المطبوعة : « طاعة أمر : أعز وجل » ، بزيادة الثناء على ربنا سبحانه ، وعلى أن « أمر » مبنى للمعلوم . وهذا مخالف للسياق ، وسهو من النساخ .

﴿لَنَكُونَنَّ من الصَّالِحِين﴾ [سورة التوبة : ٧٥] ، ونبذوا ذلك وراء ظهورهم.

* * *

ومن شأن العرب استعارةُ الكلمةَ ووضعها مكانَ نظيرها ، كما قال أبو خِرَاش الهذلى :[1]

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يَا أُمَّ مَالِكٍ وَلٰكِنْ أَحَاطَتْ بِالرِّقَابِ السَّلَاسِلُ[2]
وَعَادَ الفَتَى كَالْكَهْلِ، لَيْسَ بِقَائِلٍ سِوَى الحَقِّ شَيْئًا، واسْتَرَاحَ العَوَاذِلُ[3]

يعنى بقوله : « أحاطتْ بالرِّقاب السلاسل » ، أن الإسلام صارَ — فى مَنعه إيانا ما كنا نأتيه فى الجاهلية ، مما حرَّمه الله علينا فى الإسلام — بمنزلة السلاسل المحيطة برقابنا ، التى تحول بين مَنْ كانت فى رقبته ، مع الغُلّ الذى فى يده ، وبين ما حاول أن يتناوله .

ونظائر ذلك فى كلام العرب أكثر من أن تُحصى . فكذلك قوله : « ثم تَوليتم

---

(١) كان فى المطبوعة : « قال أبو ذؤيب الهذلى » ، وهو خطأ فاضح ، لا يقع فى مثله مثل أبى جعفر .

(٢) ديوان الهذليين ٢ : ١٥٠ ، وسيرة ابن هشام ٤ : ١١٩ ، والأغانى ٢١ : ٤١ ، والكامل ١ : ٢٦٧ . وهى أبيات جياد فى رثاء صديق . وذلك أن زهير بن العجوة الهذلى من بنى عمرو بن الحارث — وكان ابن عم أبى خراش ، وله صديقاً — خرج يطلب الغنائم يوم حنين فأسر ، وكتف فى أناس أخذهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرآه جميل بن معمر الجمحى — وكانت بينهما إحنة فى الجاهلية — فقال له : أنت الماشى لنا بالمغايظ ؟ فضرب عنقه ، فقال أبو خراش يرثيه . وقال لجميل بن معمر :

وَإِنَّكَ لَوْ وَاجَهْتَهُ إِذْ لَقِيتَهُ فَنَازَلْتَهُ ، أَوْ كُنْتَ مِمَّنْ يُنَازِلُ
لَظَلَّ جَمِيلٌ أَسْوَأَ القَوْمِ تَلَّةً وَلٰكِنَّ قِرْنَ الظَّهْرِ لِلْمَرْءِ شَاغِلُ
فَلَيْسَ كَعَهْدِ . . . .

وفى المطبوعة : « فليس لعهد الدار » خطأ . ويعنى بقوله : « الدار » : مكة وما حولها وما جاورها . يقول : ليس الأمر كما عهدت بها وعهدنا ، جاء الإسلام فهدم ذلك كله .

(٣) يقول : فارق الفتى أخلاق فتوته وعرامه ، وصار كالكهل فى أناته وتثبته ، فإن الدين قد وقذ الفتيان ذوى البأس وسكنهم من مخافة عقاب ربهم فى القتل من غير قتال ومعركة . فاستراحت العواذل لأنهن أصبحن لا يجدن ما يعذلن فيه أزواجهن من التعرض للهلاك .

من بعد ذلك »، يعنى بذلك: أنكم تركتم العمل بما أخذنا ميثاقكم وعهودكم على العمل به بجدّ واجتهاد ، بعد إعطائكم ربكم المواثيق على العمل به، والقيام بما أمركم به فى كتابكم ، فنبذتموه وراء ظهوركم .

وكنّى بقوله جل ذكره: « ذلك »، عن جميع ما قبله فى الآية المتقدمة ، أعنى قوله : « وإذا أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطورَ » .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾

١/٢٦٠ قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ذكره: « فلولا فضلُ الله عليكم » ، فلولا أن الله تفضّل عليكم بالتوبة = بعد نكثكم الميثاقَ الذى واثقتموه — إذ رفع فوقكم الطور — بأنكم تجتهدون فى طاعته ، وأداء فرائضه ، والقيام بما أمركم به ، والانتهاء عما نهاكم عنه فى الكتاب الذى آتاكم ، فأنعم عليكم بالإسلام ورحمته التى رحمكم بها — وتجاوز عنكم خطيئتكم التى ركبتموها — بمراجعتكم طاعة ربكم = لكنتم من الخاسرين .

وهذا ، وإنْ كان خطاباً لمن كان بين ظهرانَىْ مُهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب أيامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنما هو خبر عن أسلافهم — فأخرجَ الخبر مُخرج المخبَر عنهم — على نحو ما قد بينا فيما مضى ، من أنّ القبيلة من العرب تخاطب القبيلة عند الفخار أو غيره ، بما مضى من فعل أسلاف المخاطَب بأسلاف المخاطِب ، فتضيف فعل أسلاف المخاطِب إلى نفسها فتقول : فعلنا بكم وفعلنا بكم. وقد ذكرنا بعضَ الشواهد فى ذلك من شعرهم فيما مضى.[1]

* * *

(١) انظر ما مضى فى هذا الجزء ٢ : ٣٨ — ٣٩

وقد زعم بعضهم أن الخطاب فى هذه الآيات ، إنما أخرج بإضافة الفعل إلى المخاطَبين به ، والفعلُ لغيرهم ، لأن المخاطَبين بذلك كانوا يتولَّوْن من كان َفعل ذلك من أوائل بنى إسرائيل، فصيَّرهم الله منهم من أجل ولايتهم لهم .

* * *

وقال بعضهم : إنما قيل ذلك كذلك ، لأن سامعيه كانوا عالمين — وإن كان الخطابُ َخرَج خطاباً للأحياء من بنى إسرائيل وأهل الكتاب —[1] أنَّ المعنى فى ذلك إنَّما هو َخبرٌ عما َقصَّ الله من أنباء أسلافهم . فاستغنى بعلم السامعين بذلك ، عن ذكر أسلافهم بأعيانهم . ومثَّل ذلك بقول الشاعر :[2]

إِذَا مَا ٱنْتَسَبْنَا لَمْ تَلِدْنِى لَئِيمَةٌ ، وَلَمْ تَجِدِى مِنْ أَنْ تُقِرِّى بِهِ بُدًّا[3]

فقال: « إذا ما انتسبنا »، و« إذا » تقتضى من الفعل ُمستقبلاً ، ثم قال : « لمَ َتلدنى لئيمة »، فأخبر عن ماض من الفعل . وذلك أن الولادة قد َمضَت وتقدَّمت . وإنما فعل ذلك — عند المحتج به — لأن السامع قد فهم معناه . فجعل ما ذكرنا — منْ خطاب الله أهلَ الكتاب الذين كانوا بين ظهرانَىْ ُمهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بإضافة أفعال أسلافهم إليهم — نظيرَ ذلك .

والأول الذى ُقلنا ، هو المستفيض من كلام العرب وخطابها .

---

(١) فى المطبوعة : « إذ المعنى فى ذلك ... »، وهو كلام لا يستقيم . وسياق الجملة يقتضى أن توضع « أن » مكان « إذ » أى : « لأن سامعيه كانوا عالمين ... أن المعنى فى ذلك ... » ، وما بينهما فصل واعتراض .

(٢) فى حاشية الأمير على مغنى اللبيب ١ : ٢٥ ، قال : « فى حاشية السيوطى : قائله زائدة ابن صعصعة الفقعسى، يعرض بزوجته ، وكانت أمها سرية » ، ولم ينسبه السيوطى فى شرحه على شواهد المغنى : ٣٣ .

(٣) سيأتى فى هذا الجزء ١ : ٣٣٣ (بولاق)، وفى ٣ : ٤٩ (بولاق)، ومعانى الفراء: ١ : ٦١، ١٧٨. وقبل البيت يقول لامرأته :

رَمَتْنِى عَنْ قَوْسِ العَدُوِّ ، وَبَاعَدَتْ عُبَيْدَةُ ، زَادَ اللهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدَا

* * *

وكان أبو العالية يقول فى قوله : « فلولا فضلُ الله عليكم ورحمته » — فيما ذُكر لنا — نحو القول الذى قلناه :

١١٣٦ — حدثنى المثنى بن إبراهيم قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو النضر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : « فلولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه »، قال : « فضل الله »، الإسلام ، « ورحمته »، القرآن .

١١٣٧ — وحدثت عن عمار ، قال، حدثنا ابن أبى جعفر ، [عن أبيه] ، عن الربيع بمثله .[١]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٦٤)

قال أبو جعفر : فلولا فضل الله عليكم ورحمته إياكم — بإنقاذه إياكم بالتَّوبة عليكم من خطيئتكم وجُرْمكم — لكنتم الباخسين أنفسكم حُظوظَها دائماً، الهالكين بما اجترمتم من نَقض ميثاقكم ، وخلافكم أمرَه وطاعته .

وقد تقدم بياننا قبلُ بالشواهد ، عن معنى « الخسار » ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .[٢]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله : « ولَقدْ علمتم »، ولقد عَرَفتم .[٣] كقولك :

---

(١) ما بين القوسين زيادة لابد منها ، وانظر آخر إسناد عن عمار بن الحسن رقم : ١١٣٤ .

(٢) انظر ما مضى ١ : ٤١٧ .

(٣) سيأتى دليل هذا من تفسير ابن عباس فى رقم : ١١٣٨

« قد علمتُ أخاك، ولم أكن أعلمه »، يعنى عرفته، ولم أكن أعرفه، كما قال جل ثناؤه : ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٦٠]، يعنى : لا تعرفونهم الله يعرفهم .

* * *

وقوله : « الذينَ اعتَدَوا منكم فى السبت » ، أى الذين تجاوزوا حدّى ، وركبوا ما نهيتهم عنه فى يوم السبت ، وعصَوا أمْرى .

وقد دللت — فيما مضى — على أنّ « الاعتداء » ، أصله تجاوز الحدّ فى كل شىء . بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .[1] ٢٦١/١

* * *

قال أبو جعفر : وهذه الآية وآيات بعدها تتلوها ، مما عدّد جل ثناؤه فيها على بنى إسرائيل — الذين كانوا بين خِلال دور الأنصار زمانَ النبى صلى الله عليه وسلم، الذين ابتدأ بذكرهم فى أول هذه السورة من نكث أسلافهم عهد الله وميثاقه — [2]ما كانوا يُبرمون من العقود ، وحذّر المخاطَبين بها أن يحل بهم — بإصرارهم على كفرهم ، ومُقامهم على جحود نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتركهم اتباعَه والتصديقَ بما جاءهم به من عند ربّه — مثلُ الذى حلّ بأوائلهم من المسخ والرَّجْف والصعق ، وما لاقِبَلَ لهم به من غضب الله وسخَطه . كالذى :—

١١٣٨ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « ولقد علمتم الذينَ اعْتدَوْا منكم فى السبت » يقول : ولقد عرَفتم . وهذا تحذير لهم من المعصية . يقول : احذرُوا أنْ يصيبكم ما أصابَ أصحابَ السبت ، إذ عصونى ، اعتدوا — يقول : اجترأوا — فى السبت. قال: لم يبعث الله نبيًّا إلا أمرَه بالجمُعة ،

---

(١) انظر ما مضى من هذا الجزء : ٢ : ١٤٢

(٢) سياق عبارته : مما عدد الله على بنى إسرائيل . . . ما كانوا يبرمون من العقود » ، وما بينهما فصل بصفة « بنى إسرائيل » .

وأخبرَه بفضلها وعِظَمها فى السموات وعند الملائكة ، وأنّ الساعة تقوم فيها . فمن اتبعَ الأنبياء فيما مَضى ، كما اتبعتْ أمةُ محمد صلى الله عليه وسلم محمداً ، قَبِلَ الجمعةَ وَسمع وأطاع ، وعرَف فضلها وثبت عليها ، كما أمر الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم . [1] ومن لم يفعل ذلك ، كان بمنزلة الذين ذكر الله فى كتابه فقال : « ولقد علمتمُ الذينَ اعتدَوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قِرَدَةً خاسئين » . وذلك أن اليهود قالت لموسى — حين أمرهم بالجمعة ، وأخبرهم بفضلها — : ياموسى ، كيف تأمرنا بالجمعة وتفضلها على الأيام كلها ، والسبت أفضلُ الأيام كلها ، لأن الله خلق السموات والأرض والأقوات فى ستة أيام ، وَسبَتَ له كلّ شىء مطيعاً يوم السبت ، [2] وكان آخر الستة ؟ قال : وكذلك قالت النصارى لعيسى ابن مريم — حين أمرهم بالجمعة — قالوا له : كيف تأمرُنا بالجمعة وأول الأيام أفضلها وسيِّدها ، والأوّل أفضل ، والله واحد ، والواحد الأول أفضلُ ؟ فأوحى الله إلى عيسى : أنْ دعهم والأحدَ ، ولكنْ ليفعلوا فيه كذا وكذا . — مما أمرهم به . فلم يَفعلوا ، فقصّ الله تعالى قَصَصهم فى الكتاب بمعصيتهم . قال : وكذلك قال الله لموسى — حين قالت له اليهود ما قالوا فى أمر السبت — : أنْ دعهم والسبتَ ، فلا يصيدُوا فيه سمكاً ولا غيره ، ولا يعملون شيئاً كما قالوا . قال : فكان إذا كان السبت ظهرت الحيتانُ على الماء ، فهو قوله : ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً﴾ [سورة الأعراف : ١٦٣] ، يقول : ظاهرةً على الماء ، ذلك لمعصيتهم موسى — وإذا كان غير يوم السبت ، صارت صيداً كسائر الأيام فهو قوله : ﴿وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِم﴾ [سورة الأعراف : ١٦٣] . ففعلت الحيتان ذلك ما شاء الله . فلما رأوها كذلك ، طمعوا فى أخذها وخافوا العقوبة ، فتناوَل بعضهم

---

(١) فى المطبوعة : « بما أمره الله تعالى به ونبيه صلى الله عليه وسلم » ، وهى جملة غير صحيحة ، صححتها كما ترى .

(٢) سبت : سكن ، وقولهم : « سبت له » ، يريدون : خشع له وانقطع عن كل عمل إلا عبادته سبحانه وانظر ما سيأتى ص : ١٧٤

منها فلم تمتنع عليه ، وحذِر العقوبةَ التى حذّرهم موسى من الله تعالى . فلما رأوا أن العقوبة لا تحلّ بهم ، عادوا ، وأخبرَ بعضهم بعضاً بأنهم قد أخذوا السمك ولم يصبهم شىء ، فكثّروا فى ذلك ، وظنوا أن ما قال لهم موسى كان باطلاً . وهو قول الله جل ثناؤه : « ولقدْ عَلمتم الذين اعتدَوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قِرَدةً خاسئين » — يقول : لهؤلاء الذين صادوا السمك — فمسخهم الله قردة بمعصيتهم . يقول : إذاً لم يحيوا فى الأرْض إلاّ ثلاثة أيام . [قال : ولم يعش مِسْخٌ قطّ فوق ثلاثة أيام] ،[1] ولم يأكل ولم يشرب ولم يَنسل . وقد خلق الله القردةَ والخنازير وسائر الخلق فى الستة الأيام التى ذكر الله فى كتابه . فمسخَ هؤلاء القوم فى صورة القِرَدة ، وكذلك يفعل بمن شاء ، كما يشاء ، ويحوّله كما يشاء . ١/٢٦٢

١١٣٩ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة بن الفضل قال ، حدثنا محمد ابن إسحق ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، مولى ابن عباس قال : قال ابن عباس : إن الله إنّما افترضَ على بنى إسرائيل اليومَ الذى افترض عليكم فى عيدكم — يومَ الجمعة — . فخالفوا إلى السبت فعظّموه ، وتركوا ما أمِروا به . فلمّا أبوْا إلا لزوم السبت ، ابتلاهم الله فيه ، فحرّم عليهم ما أحل لهم فى غيره . وكانوا فى قرْية بين أيْلة والطُّور يقال لها : « مَدْين » . فحرّم الله عليهم فى السبت الحيتانَ : صَيدَها وأكلَها . وكانوا إذا كان يومُ السبتَ أقبلت إليهم شُرَّعاً إلى ساحل بحرهم ، حتى إذا ذهب السبت ذهبنَ ، فلم يروْا حُوتاً صغيراً ولا كبيراً . حتى إذا كان يوم السبت أتينَ إليهم شُرّعاً ، حتىّ إذا ذهب السبت ذهبْنَ . فكانُوا كذلك ، حتى إذا طالَ عليهم الأَمدُ وقَرِموا إلى الحيتان ،[2] عَمد رجلٌ منهم فأخذ حوتاً سرًّا يوم السبت ، فخزمه بخيط ، ثم أرسله فى الماء ، وأوْتد له وَتداً فى الساحل فأوثقه ، ثم تركه . حتى إذا كان الغدُ ، جاء فأخذَهُ — أىْ : إنّى لم آخذه فى

---

(١) هذه الزيادة من تفسير ابن كثير ١ : ١٩٣ ، والدر المنثور ١ : ٧٥ ، وهى زيادة لابد منها . وفى المطبوعة بعدها : « ولم تأكل ولم تشرب ، ولم تنسل » خطأ .

(٢) القرم : شدة الشهوة إلى اللحم ، قرم يقرم (بفتح الراء) قرماً (بفتحتين) .

يوم السبت — ثم انطلق به فأكله . حتى إذا كان يوم السبت الآخر ، عاد لمثل ذلك ، وَوجد الناسُ ريح الحيتان ، فقال أهل القرية : والله لقد وجدنا ريحَ الحيتان! ثم عَثروا على صنيع ذلك الرجل .(١) قال : ففعلوا كما فعل ، وأكلوا سرًّا زماناً طويلاً ، لم يعجل الله عليهم بعقوبة ، حتى صادُوها علانيةً وباعُوها بالأسواق . وقالت طائفة منهم من أهل البقّية :(٢) وَيحكم! اتقوا الله ! ونَهوْهم عما كانوا يصنعون . وقالت طائفةٌ أخرى لم تأكلْ الحيتان ، ولم تنهَ القوم عما صَنعوا : ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ لسخطنا أعمالهم — ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [سورة الأعراف : ١٦٤] ،

قال ابن عباس : فبينما هم على ذلك ، أصبحت تلك البقية فى أنديتهم ومساجدهم ، وَفقدوا الناس فلا يَروْنهم . فقال بعضهم لبعض : إنّ للناس لَشأناً! فانظروا ما هو! فذهبوا ينظرون فى دورهم ، فوجدوها مغلقة عليهم ، قد دخلوا ليلاً فغلّقوها على أنفسهم ، كما يُغلّق الناس على أنفسهم ، فأصبحوا فيها قرَدة ، وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لَقرد ، والمرأة بعينها وإنّها لقردة ، والصبيّ بعينه وأنه لقردٌ . قال : يقول ابن عباس : فلولا مَاذكر الله أنه أنجى الذين نَهوْا عن السوء ، لقلنا أهلك الجميعَ منهم . قالوا : وهى القرية التى قال الله لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ الآية [سورة الأعراف : ١٦٣] .

١١٤٠ — حدثنا بشر قال ، حدثنا يزيد بن زريع قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « وَلقدْ عَلمتم الذين اعتَدَوا منكم فى السبت فقلنا لهمْ كونوا قرَدة

(١) عثر على الأمر : اطلع عليه وكان خافياً . وفى المطبوعة : «على ما صنع» ، وأثبت نص ابن كثير فى التفسير ١ : ١٩٤ .

(٢) فى المطبوعة : « من أهل التقية » ، وهو خطأ محض . أهل البقية : هم أهل التمييز والفهم ، يبقون على أنفسهم بطاعة الله ، وبتمسكهم بالدين المرضى . وفلان بقية : فيه فضل وخير فيما يمدح به . وسيأتى بعد على الصواب . وقال الله تعالى : ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة هود : ١١٦] .

خاسئين » : أحِلَّت لهمُ الحيتان ، وحُرِّمت عليهم يوم السبت بلاءً من الله، ليعلمَ من يُطيعه ممن يَعصِيه . فصارَ القوم ثلاثة أصناف : فأما صنف فأمسك ونَهى عن المعصية ، وأمّا صنف فأمسك عن حُرمة الله ، وأما صنف فانتهك حُرْمة الله ومرَد على المعصية . فلما أبوا إلاَّ الاعتداء إلى ما نُهوا عنه، قال الله لهم : « كونوا قرَدة خاسئين » ، فصاروا قرَدة لها أذنابٌ ، تَعاوَى ، بعد ما كانوا رجالاً ونساءً .

١١٤١ — حدثنا الحسن بن يحيي قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « وَلَقدْ عَلمتمُ الذين اعتدَوا منكم فى السبت » ، قال : نُهوا عن صَيد الحيتان يوم السبت ، فكانت تَشرَع إليهم يوم السبت ، وبُلُوا بذلك، فاعتدوا فاصطادُوها ، فجعلهم الله قردة خاسئين .

١١٤٢ — حدثني موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « ولقدْ علمتم الذين اعتدَوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قرَدةً خاسئين» قال : فهم أهل . « أيلة » ، وهى القرية التى كانت حاضرةَ البحر ، فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت — وقدْ حرَّم الله على اليهود أن يَعملوا فى السبت شيئاً — لم يبقَ فى البحر حُوت إلاَّ خرج ، حتى يخرجن خراطيمَهنَّ من الماء . فإذا كان يوم الأحد لَزِمْنَ سُفْلَ البحر ، فلم يُرَ منهن شيء حتى يكون يوم السبت . فذلك قوله : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ [سورة الأعراف : ١٦٣] ، فاشتهى بعضهم السمك ، فجعل الرجل يحفِر الحفيرة ويجعلُ لها نَهراً إلى البحر . فإذا كان يومُ السبت فتح النهر ، فأقبل الموجُ بالحيتان يضربُها حتى يلقيها فى الحفيرة . ويُريد الحوت أن يخرج ، فلا يطيق من أجل قلّة ماء النهر ، فيمكث [فيها] .[1] فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه . فجعل الرجل يَشوى

١/٢٦٣

(١) الزيادة من تفسير ابن كثير ١ : ١٩٥ .

السَّمك ، فيجد جارُه ريحَه ، فيسأله فيخبره ، فيصنع مثل ما صَنعَ جارُه . حتى إذا فشا فيهم أكل السمك ، قال لهم علماؤهم : ويحكم ! إنما تصطادون السمك يوم السبت وهو لا يحل لكم ! فقالوا : إنما صدْناه يوم الأحد حين أخذْناه ! فقال الفقهاء : لا ، ولكنكم صِدْتموه يوم فتحتم له الماء فدَخل . فقالوا : لا ! وعتوْا أن ينتهوا . فقال بعض الذين نُهوهم لبعض : ﴿ لِمَ تَعِظُون قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُمْ أوْ مُعذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيدًا ﴾ [سورة الأعراف : ١٦٤] ، يقول : لم تعظُونهم ، وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم ؟ فقال بعضهم : ﴿ مَعْذِرةً إلى رَبِّكم وَلَعَلَّهُم يَتَّقُون ﴾ [سورة الأعراف : ١٦٤] . فلما أبوا قال المسلمون : والله لا نُساكنكم في قرية واحدة . فقسموا القريةَ بجدار ، ففتح المسلمون باباً والمعتدون في السبت باباً ، ولعنهم داود . فجعل المسلمون يخرجون من بابهم والكفار من بابهم . فخرج المسلمون ذات يوم ، ولم يفتح الكفار بابهم . فلما أبطأوا عليهم ، تسوَّر المسلمون عليهم الحائط ، فإذا هم قِرَدةٌ يَثب بعضهم على بعض ، ففتحوا عنهم ، فذهبوا في الأرض . فذلك قول الله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئين ﴾ [سورة الأعراف : ١٦٦] ، فذلك حين يقول : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ﴾ [سورة المائدة : ٧٨] ، فهم القردة .

١١٤٣ — حدثني محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قوله : « الذين اعتدَوا منكمْ في السبت فقلنا كونوا قِرَدة خاسئين » . قال : لمْ يُمسخوا ، إنما هو مثل ضرَبه الله لهم ، مثل ما ضرَب مثل الحمار يَحملُ أسفاراً .[1]

١١٤٤ — حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن

---

(١) سورة الجمعة : ٥ .

ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : « ولقدْ علمتم الذين اعتدَوا منكم في السبْت فقلنا لهم كونوا قرَدةً خاسئين » . قال : مُسخت قلوبهم ، ولم يُمسخوا قرَدة . وإنما هو مَثل ضرَبه الله لهم ، كمثل الحمار يحمل أسفاراً .

* * *

قال أبو جعفر : وهذا القول الذي قاله مجاهد ، قولٌ لظاهرِ ما دلّ عليه كتابُ الله مُخالفٌ .[1] وذلك أن الله أخبر في كتابه أنه جعل منهم القرَدَة والخنازير وعبَدَ الطاغوتِ ،[2] كما أخبر عنهم أنهم قالوا لنبيهم : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [سورة النساء : ١٥٣] ، وأن الله تعالى ذكره أصعقهم عند مسألتهم ذلك ربَّهم ، وأنهم عبدوا العجل فجعل توبتهم قتل أنفسهم ، وأنهم أمِروا بدُخول الأرض المقدسة فقالوا لنبيهم : ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ [سورة المائدة : ٢٤] فابتلاهم بالتيه . فسواءٌ قائلٌ قال :[3] هم لم يمسخهم قرَدة ، وقد أخبر جل ذكره أنه جعل منهم قردة وخنازير — وآخرُ قال : لم يكن شيء مما أخبر الله عن بني إسرائيل أنّه كان منهم — من الخلاف على أنبيائهم ، والنكال والعقوبات التي أحلها الله بهم .[4] ومن أنكر شيئاً من ذلك وأقرّ بآخر منه ، سُئل البرهان على قوله ، وعورض — فيما أنكر من ذلك — بما أقرّ به . ثم يُسأل الفرقَ من خبرٍ مستفيض أو أثر صحيح . ٢٦٤/١

هذا مع خلاف قوْل مجاهد قولَ جميع الحُجة التي لا يجوز عليها الخطأ والكذب فيما نقلته مجمعةً عليه . وكفَى دليلاً على فسادِ قولٍ ، إجماعُها على تخطئته .

* * *

---

(١) انظر معنى « ظاهر » فيما سلف ٢ : ١٥ والمراجع .

(٢) سورة المائدة : ٦٠ .

(٣) في المطبوعة : « فسواء قال قائل » ، وسياق العبارة يقتضي التقديم . لقوله « وآخر قال » .

(٤) في المطبوعة : « والعقوبات والأنكال » ، وليس صواباً . والنكال : العذاب الشديد يكون عبرة الناس حتى ينكلوا عن شيء ويخافوه . وأما « الأنكال » فجمع نكل : وهو القيد .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (٦٥)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله : «فقلنا لهم» أى : فقلنا للذين اعتدَوْا فى السبت — يعنى فى يوم السبت

* * *

وأصل «السبت» ، الهدوُّ والسكون فى راحة ودَعة ، ولذلك قيل للنائم «مَسْبُوت» لهدوّه وسكون جسده واستراحته ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ [سورة النبأ : ٩] أى راحة لأجسادكم . وهو مصدر من قول القائل : « سبت فلان يَسْبُتُ سَبْتاً » .

وقد قيل : إنّه سمى « سبْتاً » ، لأن الله جل ثناؤه فَرَغ يوم الجمعة — وهو اليوم الذى قبله — من خلق جميع خلقه .

* * *

وقوله : « كونُوا قرَدةً خاسئين » ، أى : صيرُوا كذلك .

* * *

و « الخاسىء » المبعَد المطرُود ، كما يخسأ الكلب يقال منه : « خسأتُه أخسؤُه خَسأً وخُسوءاً ، وهو يَخسأ خُسوءاً » . قال : ويقال : « خسأته فخسأ وانخسأ » . ومنه قول الراجز :

* كَالْكَلْبِ إنْ قُلْتَ لَهُ اخْسَأْ انْخَسَأْ[(١)] *

يعنى : إن طردته انطردَ ذليلاً صاغراً .

* * *

فكذلك معنى قوله : « كونُوا قرَدة خاسئين » أى ، مُبعدين من الخير أذلاَّء صُغَراء ،[(٢)] كما : —

١١٤٥ — حدثنا محمد بن بشار ،[(٣)] قال ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى قال ،

---

(١) لسان العرب : (خسأ) ، وروايته : « إن قيل له » .

(٢) صاغر ، جمعه صغرة (بفتحات) . وهذا ما نصوا عليه ، ولم أجد « صغراء » على وزن جهلاء ، وهو جمع فى بعض الصفات التى على وزن « فاعل » ، مثل شاعر وشعراء ، وعالم وعلماء . فهم يشبهون « فاعلا » بـ « فعيل » ، نحو كريم وكرماء ، فيجمعونه كجمعه .

(٣) فى المطبوعة « حدثنا بشار » وهو خطأ لاشك فيه ، وأقرب إسناد مثله مر بنا هو رقم : ١٠٦٢ .

حدثنا سفيان، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله : « كونوا قردةً خاسئين » قال : صاغرين .

١١٤٦ — حدثنا أحمد بن إسحق قال، حدثنا أبو أحمد ، قال : حدثنا سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد مثله .

١١٤٧ — حدثني المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد مثله .

١١٤٨ — حدثني الحسن بن يحيي قال، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة : « خاسئين » ، قال : صاغرين .

١١٤٩ — حدثني المثنى قال، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع في قوله: « كونوا قردة خاسئين » ، أي أذِلَّة صاغرين .

١١٥٠ — وحُدثت عن المنجاب قال ،حدثنا بشر بن عمارة، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : خاسئاً، يعني ذليلاً .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ فَجَعَلْنَـهَا ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل في تأويل « الهاء والألف » في قوله : «فجعلناها» ، وعلامَ هي عائدة ؟ فروى عن ابن عباس فيها قولان : أحدهما ما :—

١١٥١ — حدثنا به أبو كريب قال، حدثنا عثمان بن سعيد قال، حدثنا بشر بن عمارة قال، حدثنا أبو روق، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « فجعلناها» فجعلنا تلك العُقوبة — وهي المَسخة — « نكالاً » .

فالهاءُ والألف من قوله : « فجعلناها » — على قول ابن عباس هذا — كناية

عن « المَسْخة »، وهى « فَعلة » من مَسخهم الله مَسخة[1] .

فمعنى الكلام على هذا التأويل : فقلنا لهم : كونوا قردة خاسئين ، فصاروا قِرَدة ممسوخين ، « فجعلناها »، فجعلنا عقوبتنا ومسخنا إياهم، « نكالاً لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين » .

* * *

والقول الآخر من قولى ابن عباس ، ما : —

١١٥١ — حدثنى به محمد بن سعد قال، حدثنى أبى قال ، حدثنى عمى قال ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس : « فجعلناها »، يعنى الحيتان .

« والهاء والألف » — على هذا القول — من ذكر الحيتان ، ولم يجر لها ذكرٌ. ولكن لما كان فى الخبر دلالة ، كنَى عن ذكرها . والدلالة على ذلك قوله : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت » .

* * *

وقال آخرون : فجعلنا القرية التى اعتدى أهلها فى السبت. ف « الهاء والألف» — فى قول هؤلاء — كنايةٌ عن قرية القوم الذين مسخوا .

* * *

وقال آخرون : معنى ذلك فجعلنا القِردة الذين مُسخوا « نكالاً لما بين يديها وما خلفها » ، فجعلوا « الهاء والألف » كناية عن القردة . ٢٦٥/١

* * *

وقال آخرون : « فجعلناها »، يعنى به: فجعلنا الأمة التى اعتدت فى السبت « نكالاً » .

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ نَكَالًا ﴾

و « النَّكال» مصدرٌ من قول القائل: «نكَّل فلان بفلان تنكيلاً ونكالاً» . وأصل « النَّكال »، العقوبة ، كما قال عدىّ بن زيد العِبَادىّ :

---

(١) كأنه يريد أنه مصدر : كقولهم : رحمه الله رحمة، ولم يرد المرة، وسيدل على ذلك ما يقوله بعد سطرين.

لا يسخط الضليل ما يسَع العـ ـبد ، وَلاَ فى نَكاَلِه تَنْكِير[1]

* * *

وبمثل الذى قلنا فى ذلك روى الخبر عن ابن عباس :—

١١٥٢ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر ابن عمارة قال ، حدثنا أبو روق، عن الضحاك ، عن ابن عباس: « نَكالاً » يقول : عقوبة .

١١٥٣ — حدثنى المثنى قال، حدثنى إسحق قال ، حدثنى ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله: « فجعلناها نَكالا » ، أى عقوبةً .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك . فقال بعضهم بما : —

١١٥٤ — حدثنا به أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق، عن الضحاك ، عن ابن عباس: « لما بين يَديها » يقول: ليحذرَ مَنْ بعدَهم عُقوبتى . « وما خلفها » ، يقول : الذين كانوا بقُوا معهم.

١١٥٥ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : «لما بين يديها وما خلفها» ، لما خَلاَ لهم من الذنوب ،[2] «وما خلفها» ، أى عبرة لمن بَقى من الناس .

---

(١) لم أجد البيت فى جميع المراجع التى ذكرت قصيدة عدى بن زيد التى كتبها إلى النعمان من محبسه . وقد أثبت البيت كما هو فى النسخ السقيمة التى بقيت من تفسير الطبرى ، وظنى أن يكون البيت :

لا يكُظُّ المليكَ ما يَسَعُ العَـ ـبْدَ ، وَلاَ فِى نَكالِهِ تَنكِيرُ

فلم يحسن الناسخ قراءة « يكظ » فكتبها « لسخط » ، ووضع مكان « المليك » « الضليل ». وكظه الأمر : بهظه وشق عليه . يقول للنعمان : أنت مليك قادر ، فلا يبهظك ما يسع عبيدك من العفو عمن أساء واجترم ، فإن عاقبت ، فما فى عقابك ما يستنكر ، فأنت السيد المطاع النافذ أمرك فى رعيتك صغيرهم وكبيرهم .

(٢) خلا : مضى وذهب وانقضى .

* * *

وقال آخرون بما : —

١١٥٦ — حدثني ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال ، حدثني ابن إسحق ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة مولى ابن عباس . قال ، قال ابن عباس : « فجعلناَها َنكالاً لما بين َيدَيها وما َخلفها » ، أي من القُرَى .

* * *

وقال آخرون بما : —

١١٥٧ — حدثنا به بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال الله: « فجعلناَها َنكالاً لما َبين َيدَيها » — من ذنوب القوم — « وما َخلفها » ، أي للحيتان التي أصاُبوا .

١١٥٨ — حدثنا الحسن بن يحيي قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر ، عن قتادة في قوله: « لما بين َيدَيها »، من ذنوبها ، « وما َخلفها »، من الحيتان .

١١٥٩ — حدثني محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال، حدثني عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قول الله تعالى: « لما بين َيدَيها »، ما َمضَى من َخطاياهم إلى أن هلكوا به .

١١٦٠ — حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: « َنكالاً لما بين يَدَيها وما َخلفها »، يقول : « بين َيدَيها »، ما مضى من خطاياهم ، « وما َخلفها » خطاياهم التي هلكوا بها .

١١٦١ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد مثله — إلا أنه قال : « وما خلفها »، خطيئتهم التي هلكوا بها

* * *

وقال آخرون بما : —

١١٦٢ — حدثني به موسى بن هرون قال، حدثنا عمرو قال، حدثنا أسباط ، عن السدي : « فجعلناها َنكالاً لما بين يديها وما خلفها» قال: أمَّا «ما بين يديها» فاسلف من عملهم ، « وما خلفها »، فمن كانَ بعدهم من الأمم ، أنْ َيعْصُوا فيصْنع الله بهم مثل ذلك.

* * *

وقال آخرون بما :—

١١٦٣ — حدثني به ابن سعد قال ، حدثني أبي قال ، حدثني عمي قال ، حدثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله : « فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها » ، يعني الحيتان ، جعلها نكالاً « لما بين يديها وما خلفها » ، من الذنوب التي عملوا قبل الحيتان ، وما عملوا بعد الحيتان . فذلك قوله : « ما بين يديها وما خلفها » .

* * *

قال أبو جعفر : وأولى هذه التأويلات بتأويل الآية ، ما رواه الضحاك عن ابن عباس . وذلك لما وصفنا من أن « الهاء والألف » — في قوله : « فجعلناها نكالاً » — بأن تكون من ذكر العقوبة والمسخة التي مسخها القوم ، أولى منها بأن تكون من ذكر غيرها . من أجل أن الله جل ثناؤه إنما يحذر خلقه بأسه وسطوته ، بذلك يخوفهم[1] . وفي إبانته عز ذكره — بقوله : « نكالاً » : أنه عنى به العقوبة التي أحلها بالقوم — ما يعلم أنه عنى بقوله : « فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها » ، فجعلنا عقوبتنا التي أحللناها بهم عقوبة لما بين يديها وما خلفها — دون غيره من المعاني . وإذ كانت « الهاء والألف » — بأن تكون من ذكر المسخة والعقوبة ، أولى منها بأن تكون من ذكر غيرها ؛ فكذلك العائد في قوله : « لما بين يديها وما خلفها » من « الهاء والألف » : أن يكون من ذكر « الهاء والألف » اللتين في قوله : « فجعلناها » ، أولى من أن يكون من [ذكر] غيره .[2]

١/٢٦٦

فتأويل الكلام — إذ كان الأمر على ما وصفنا — : فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ، فجعلنا عقوبتنا لهم عقوبة لما بين يديها من ذنوبهم السالفة منهم ، بمسخنا إياهم وعقوبتنا لهم —[3] ولما خلف عقوبتنا لهم من أمثال ذنوبهم : أن يعمل

---

(١) في المطبوعة : « وبذلك يخوفهم » ، ولعل الأجود ما أثبت .

(٢) ما بين القوسين زيادة لا بد منها في سياق الجملة .

(٣) في المطبوعة « مسخنا إياهم » بحذف حرف الجر ، وهو غير مستقيم ، وقوله : « ولما خلف عقوبتنا لهم » معطوف على قوله : « لما بين يديها . . . »

بها عامل ، فيمسخوا مثل ما مُسخوا ، وأنْ يحلّ بهم مثل الذى حل بهم ، تحذيراً من الله تعالى ذكرُه عبادَه : أنْ يأتوا من مَعاصيه مثل الذى أتى الممسوخون ، فيعاقَبوا عقوبتهم .

وأما الذى قال فى تأويل ذلك : — « فجعلناها » ، يعنى الحيتان ، عقوبةً لما بين يدى الحيتان من ذنوب القوم وما بعدها من ذنوبهم — فإنه أبعد فى الانتزاع . وذلك أن الحيتان لم يجرِ لها ذكرٌ فيقال : « فجعلناها » . فإن ظنّ ظانّ أن ذلك جائز — وإن لم يكن جرى للحيتان ذكر — لأن العرب قد تكنى عن الاسم ولم يجر له ذكر ، فإنّ ذَلك ، وإن كان كذلك ، فغير جائز أن يُترك المفهوم من ظاهر الكتاب — والمعقولُ به ظاهرٌ فى الخطاب والتنزيل — إلى باَطنٍ لا دلالة عليه من ظاهر التنزيل ، ولا خبرٍ عن الرسول صلى الله عليه وسلم منقول ، [1] ولا فيه من الحجة إجماع مستفيض .

وأما تأويل من تأوّل ذلك : لما بين يديها من القرى وما خلفها ، فينظرُ إلى تأويل من تأول ذلك : بما بين يدى الحيتان وما خلفها .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾

و « الموعظة » ، مصدر من قول القائل : « وَعظتُ الرجل أعِظه وَعظاً وَموْعظة » ، إذا ذكّرته .

* * *

فتأويل الآية : فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها وَتذْكرَة للمتقين ، ليتّعظوا بها ، ويعتبرُوا ، ويتذكروا بها ، كما :—

١١٦٤ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد ، قال ، حدثنا

(١) انظر تفسير « ظاهر » و « باطن » فيما سلف من هذا الجزء ٢ : ١٥ والمراجع .

بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « وموعظة » يقول : وتذكرة وعبرةً للمتَّقين.

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٦)

وأمّا « المتقون » ، فهم الذين اتقوا ، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ، كما : —

١١٦٥ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر بن عمارة قال ، حدثنا أبو روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « وموعظة للمتقين » ، يقول : للمؤمنين الذين يتقون الشِّرك ويعملون بطاعتى.

* * *

فجعل تعالى ذكرُه ما أحلّ بالذين اعتدَوْا فى السبت من عقوبته ، موعظةً للمتقين خاصّةً ، وعبرة للمؤمنين ، دون الكافرين به — إلى يوم القيامة — ، كالذى : —

١١٦٦ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثنى ابن إسحق ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة مولى ابن عباس ، عن عبد الله بن عباس فى قوله : « وَموعظة للمتقين » ، إلى يوم القيامة .

١١٦٧ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « وموعظة للمتقين » ، أى : بعدهم .

١١٦٨ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة مثله . ٢٦٧/١

١١٦٩ — حدثنا موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : أمّا « موعظة للمتقين » ، فهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

١١٧٠ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « وموعظة للمتقين » ، قال : فكانت موعظة للمتقين خاصّةً .

١١٧١ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسن ، قال ، حدثني حجاج ، عن ابن جريج في قوله : « ومَوعظةً للمتقين » ، أي لمن بعدهم .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٦٧)

قال أبو جعفر : وهذه الآية مما وبَّخ الله بها المخاطبين من بني إسرائيل ، نَقْض أوائلهم الميثاقَ الذي أخذه الله عليهم بالطاعة لأنبيائه ، فقال لهم : واذكروا أيضاً من نكثكم ميثاق ، « إذ قال موسى لقومه » — وقَوْمُه بنو إسرائيل ، إذ ادّارأُوا في القتيل الذي قُتل فيهم إليه — « إنّ الله يأمرُكم أن تذبحوا بقرةً قالوا أتتخذنا هزُوًا » .

* * *

و « الهزُو » اللعب والسخرية ، كما قال الراجز : [1]

قَدْ هَزِئَتْ مِنِّيَ أُمُّ طَيْسَلَهْ قَالَتْ : أَرَاهُ مُعْدِماً لا شَيْءَ لَهْ [2]

يعني بقوله : « قد هَزئت » ، قد سَخرت ولعبت .

ولا ينبغي أن يكون من أنبياء الله — فيما أخبرتْ عن الله من أمر أو نهي — هزؤ أو لعب . فظنوا بموسى أنه في أمره إيّاهم — عن أمر الله تعالى ذكره بذبح البقرة عند تدارُئهم في القتيل إليه — أنه هازئٌ لاعبٌ . ولم يكن لهم أن يُظنوا ذلك بنبيّ الله ، وهو يخبرهم أنّ الله هو الذي أمرَهم بذبح البقرة .

* * *

(١) هو صخير بن عمير التميمي ، ويقال إن القصيدة للأصمعي نفسه .

(٢) الأصمعيات : ٥٨ ، وأمالي القالي ٢ : ٢٨٤ ، وانظر تحقيق ما قيل فيها في تعليق سمط اللآلىء للراجكوتي : ٩٣٠ . وروايتهم جميعاً :

* تَهْزَأُ مِنِّي أُخْتُ آلِ طَيْسَلَهْ *

ويروى « ملقاً لا شيء له » و « مبلطاً » ، وكلها بمعنى واحد : فقيراً لا شيء له .

وحذفت « الفاء » من قوله : « أتتخذنا هُزُواً » ، وهو جواب ، لاستغناء ما قبله من الكلام عنه ، وحَسُن السكوت على قوله : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » ، فجاز لذلك إسقاط « الفاء » من قوله : « أتتخذنا هُزُوًا » ، كما جاز وحسن إسقاطها من قوله تعالى ﴿ قال فَمَا خَطْبُكُمْ أيُّها المرسَلُون * قالُوا إنّا أُرْسِلْنا ﴾ [سورة الحجر : ٥٧ ، ٥٨ / سورة الذاريات : ٣١ ، ٣٢] ، ولم يقل : فقالوا إنا أرسلنا. ولو قيل « فقالوا » ، كان حسناً أيضاً جائزاً . ولو كان ذلك على كلمة واحدة ، لم تُسقط منه « الفاء » . وذلك أنك إذا قلت : « قمت ففعلت كذا وكذا » ، لم تقل : قمت فعلت كذا وكذا »[1] ، لأنها عطف ، لا استفهامٌ يُوقَفُ عليه .

فأخبرهم موسى — إذْ قالوا له ما قالوا — أن المخبر عن الله جل ثناؤه بالهزء والسخرية ، من الجاهلين .[2] وبرّأ نفسه مما ظنوا به من ذلك فقال : « أعوذ بالله أن أكونَ من الجاهلين » ، يعنى : من السفهاء الذين يروُون عن الله الكذب والباطل .

* * *

وكان سببُ قيل موسى لهم : « إنّ الله يأمرُكم أنْ تذْبحوا بقرةً » ، ما : —

١١٧٢ — حدثنا به محمد بن عبد الأعلى قال ، حدثنا المعتمر بن سليمان قال ، سمعت أيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن عَبيدة قال : كان فى بنى إسرائيل رجلٌ عقيم — أو عاقر — قال : فقتله وليُّه ، ثم احتمله فألقاه فى سِبْط غير سِبْطه . قال : فوقع بينهم فيه الشرُّ حتى أخذوا السلاح . قال : فقال أولو النُّهى : أتقتتلون وفيكم رسول الله ؟ قال : فأتوا نبى الله . فقال : اذبحوا بقرة . فقالوا : أتتخذنا هُزُوًا ، قال : «أعوذ بالله أن أكونَ من الجاهلين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هيَ قال إنه يقولُ إنها بقرةٌ » ، إلى قوله : « فذبحوها وما كادُوا يفعلون » قال : فضُرب ، فأخبرهم بقاتله . قال : ولم تؤخذ البقرةُ إلا بوزنها ذهباً ، قال :

---

(١) فى المطبوعة : « قمت وفعلت » وفى المطبوعة : « ولم تقل : قمت . . . » بزيادة الواو ، وهو فاسد . وانظر معانى القرآن للفراء ١ : ٤٤ .

(٢) سياق معناه : أخبرهم موسى أن المخبر عن الله بهزء وسخرية ، هو من الجاهلين .

ولو أنهم أخذُوا أدْنى بقرة لأجزأت عنهم . فلم يُورَّثْ قاتل بعد ذلك .[١]

١١٧٣ — حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثني أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية في قول الله : «إنّ الله يأمرُكم أن تَذبحوا بَقرةً » . قال : كانَ رجل من بني إسرائيل ، وكان غنيًّا ولم يكن له ولد، وكان له قريبٌ وارثُه، فقتله ليرثُه، ثم ألقاه على مَجمع الطريق ،[٢] وأتى موسى فقال له : إنّ قريبي قُتل وأتى إلىّ أمرٌ عظيم ، وإني لاأجد أحداً يبيّن لي مَن قتله غيرك يا نبي الله . قال : فنادى موسى في الناس : أنشُدُ الله مَنْ كان عنده من هذا علم إلا بيَّنه لنا . فلم يكن عندهم علمه . فأقبل القاتل على موسى فقال : أنت نبي الله ، فاسأل لنا ربك أن يبيّن لنا . فسأل ربه ، فأوحى الله إليه : « إن اللهَ يأمرُكم أن تَذبحوا بَقرة » . فعجبوا وقالوا : « أتتخذنا هُزُواً قال أعوذ بالله أن أكونَ من الجاهلين » قالوا ادعُ لَنا ربَّك يُبين لنا ما هى ، قال إنه يقولُ إنها بَقرَة لا فارضٌ » — يعني : لا هَرمة — « ولا بكر » — يعني : ولا صغيرة — « عوان بين ذلك » — أي : نَصَف، بين البكر والهرمة — « قالوا ادْعُ لَنا رَبَّك يبيِّن لَنا ما لونها، قال : إنه يقولُ إنها بَقرةٌ صفراء فَاقعٌ لونها » — أي : صاف لونها — « تسُر الناظرين » — أي: تعجب الناظرين — « قالوا ادْعُ لَنا ربك يُبيّن لنا ما هيَ إن البقر تَشابهَ علينا وَإنا إن شاء الله لمهتدون » قال إنه يقول إنها بَقرة لا ذَلول » — أي: لم يُذللها العمل — « تثير الأرض » — يعني ليست بذَلول فتثير الأرض — « ولا تَسقى الحرْث » — يقول: ولا تعمل في الحرْث — « مُسلَّمة »، يعني مسلَّمة من العيوب، « لاشِيَة فيها » — يقول: لا بياض فيها — « قالوا الآنَ جئتَ بالحق فذبحوها وما

٢٦٨/١

(١) الأثر : ١١٧٢ — عبيدة ، بفتح العين وبعد الباء الموحدة ياء تحتية : هو عبيدة السلماني . وهذا الأثر نقله ابن كثير ١ : ١٩٧ — ١٩٨ ، من رواية ابن أبي حاتم ، من طريق هشام بن حسان « عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة السلماني » . ثم أشار إلى رواية الطبري هذه .
وقد مضى أثر آخر : ٢٤٥ من رواية أيوب وابن عون ، عن ابن سيرين ، عن « عبيدة » . ورجحنا هناك أن صوابه « عبيدة » . فهذا الإسناد الذي هنا يؤيد ما رجحنا .

(٢) مجمع الطريق : هو حيث يلتقي الناس ويجتمعون ، أو حيث تلتقي الطرق .

كادُوا يَفعلون » . قال : ولو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة ، استعرَضوا بقرة من البقر فذَبحوها ، [1] لكانتْ إيّاها ، ولكنهم شدَّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم . ولولا أنّ القوم استثنوا فقالوا : « وإنّا إن شاء الله لمهتدون » ، لما هُدُوا إليها أبداً. فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التى نُعِتَتْ لهم ، إلا عند عجوز عندَها يَتامَى ، وهى القيِّمة عليهم . فلما علمت أنهم لا يَزْكو لهم غيرها ، [2] أضعفت عليهم الثمن . فأتوا موسى فأخبروه أنّهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة ، وأنها سألتهم أضعاف ثَمنها . فقال لهم موسى : إنّ الله قد كان خفف عليكم فشدَّدتم على أنفسكم ، فأعطوها رضَاها وحُكمها . ففعلوا ، واشتروها فذبحوها . فأمرهم موسى أن يأخذوا عظْماً منها فيضربُوا به القتيل . ففعلوا ، فرجع إليه روحه ، فسمَّى لهم قاتله ، ثم عاد ميتاً كما كان . فأخذوا قاتله — وهو الذى كان أتى موسى فشكى إليه — فقتله الله على أسوأ عمله .

١١٧٤ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو ، قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « وإذْ قال مُوسَى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » . قال : كان رجل من بنى إسرائيل مكثِراً من المال ، وكانت له ابنة ، وكان له ابن أخ محتاجٌ . فخطب إليه ابنُ أخيه ابنتَه ، فأبى أن يزوِّجه إياها ، فغضب الفتى وقال : والله لأقتُلنّ عمى ، ولآخذنّ ماله ، ولأنكِحنّ ابنته ، ولآكلنّ دِيَته ! فأتاه الفتى ، وقد قدم تِجارٌ فى أسباط بنى إسرائيل ، فقال : ياعم ، انطلق معى فخذْ لى من تجارة هؤلاء القوم ، لعَلِّى أصيب منها ، [3] فإنهم إذا رأوك معى أعطَوْنى . فخرج العم مع الفتى ليلاً ، فلما بلغ الشيخُ ذلك السِّبطَ ، قتله الفتى ، ثم رجع إلى أهله .

---

(١) استعرضوا : أخذوا من عرض البقر (بضم العين وسكون الراء) فلم يبالوا أيها أخذوا. والعرض : الوجه والناحية ، أى ما يعرض لك من الشىء .

(٢) تقول : « هذا الأمر لا يزكو بفلان » ، أى لا يليق به ولا يصلح له . فقوله : « لا يزكو لهم غيرها » ، أى لا يصلح لهم غيرها ولا ينفع فيما أمرهم الله به .

(٣) فى المطبوعة : « أصيب فيها » ، وهو خطأ ، والصواب من تفسير ابن كثير ١ : ٢٠٠ . أصاب الإنسان من المال وغيره : تناول وأخذ . ويريد أصيب منها ربحاً .

فلما أصبح ، جاء كأنه يطلب عمه ، كأنه لا يدرى أين هو ، فلم يجده . فانطلق نحوه ، فإذا هو بذلك السِّبط مجتمعين عليه ، فأخذهم وقال : قتلتم عمىّ فأدوا إلىّ ديته . وجعل يبكى ويحثو التراب على رأسه ويُنادى : وا عمَّاه ! فرفعهم إلى موسى ، فقضى عليهم بالدية ، فقالوا له : يا رسول الله ، ادع لنا ربَّك حتى يبين له مَنْ صاحبه ، فيؤخذ صاحب الجريمة ،[1] فوالله إنّ ديته علينا لهيّنة ، ولكنا نستحى أن نُعيَّر به . فذلك حين يقول الله جل ثناؤه : « وإذْ قتلتُم نفساً فادّارَأتم فيها والله مخرجٌ ما كنتم تكتمون » . فقال لهم موسى : « إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » . قالوا : نسألك عن القتيل وعمَّن قتله ، وتقول : اذبحوا بقرة ! أتهزأ بنا ؟ قال موسى : « أعوذُ بالله أن أكون من الجاهلين » — قال ، قال ابن عباس : فلو اعترضُوا بقرةً فذبحوها لأجزأت عنهم ، ولكنهم شدّدوا وتعنّتوا موسى فشدد الله عليهم —[2] فقالوا : « ادعُ لنا ربك يُبين لنا ما هى قال إنه يقول إنها بقرة لا فارضٌ ولا بكر عوانٌ بين ذلك » — والفارضُ : الهرمة التى لا تلد ، والبكر : التى لم تلد إلا ولداً واحداً ، والعوان : النَّصَف التى بين ذلك ، التى قد ولدت وولدَ ولدُها — « فافعلوا ما تؤمرون . قالوا ادْع ربّك يبيِّنْ لنا ما لونُها قال إنه يقولُ إنها بقرة صفراء فاقعٌ لونُها تسُر الناظرين » — قال : تعجب الناظرين — « قالوا ادْع لنا ربّك يُبيِّن لنا ما هىَ إن البقر تشابه علينا وإنّا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلولٌ تُثير الأرض ولا تسقى الحرثَ مُسلَّمة لا شيةَ فيها » — من بياض ولا سواد ولا حُمرة — « قالوا الآنَ جئتَ بالحق » . فطلبوها فلم يقدروا عليها .

٢٦٩/١

وكانَ رجلٌ من بنى إسرائيل ، من أبرِّ الناس بأبيه ، وإنّ رجلاً مرّ به معه لؤلؤ يبيعه ، فكان أبوه نائماً تحت رأسه المفتاح ، فقال له الرجل : تشترى

---

(١) فى المطبوعة : « ادع لنا حتى يتبين » . ونص ابن كثير فى تفسيره ١ : ٢٠٠ « ادع لنا ربك حتى يبين لنا من صاحبه ، فيؤخذ صاحب القضية » .

(٢) أعنته وتعنته : سأله عن شىء أراد به اللبس عليه والمشقة .

منى هذا اللؤلؤ بسبعين ألفاً ؟ فقال له الفتى : كما أنتَ حتى يستيقظ أبى فآخذه بثمانين ألفاً : فقال له الآخر : أيقظ أباك وهو لك بستّين ألفاً . فجعل التاجر يَحُطّ له حتى بلغ ثلاثين ألفاً ، وزادَ الآخرَ على أن ينتظر حتى يستيقظ أبوه ، حتى بلغ مئة ألف . فلما أكثر عليه قال : لا والله ، لا أشتريه منك بشيء أبداً . وأبى أن يوقظ أباه ، فعوَّضه الله من ذلك اللؤلؤ أن َجعل له تلك البقرة . فمرّت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة ، فأبصروا البقرة عندَه ، فسألوه أن يبيعهم إياها بقرَةً ببقرة ، فأبى ، فأعطوه ثنتين فأبى ، فزادوه حتى بلغوا عشراً ، فأبى ، فقالوا: والله لانتركك حتى نأخذها منك . فانطلقوا به إلى موسى فقالوا : يا نبيَّ الله ، إنا وجدنا البقرة عند هذا فأبَى أن يعطيناها ، وقد أعطيناه ثمناً . فقال له موسى : أعطهم بقرتك . فقال : يا رسول الله ، أنا أحقُّ بمالى . فقال : صدقت. وقال للقوم : أرْضُوا صاحبكم . فأعطوه وزنها ذهباً فأبى ، فأضعفوا له مثلَ ما أعطوه وزنها ، حتى أعطوْه وزنها عشر مرات ، فباعهم إياها وأخذ ثمنها. فقال : اذبحوها. فذبحوها فقال : اضرِبُوه ببعضها . فضربوه بالبَضْعة التى بين الكتفين ، فعاشَ ، فسألوه : من قتلك؟ فقال لهم : ابن أخى ، قال: أقتلُه ، وآخُذ مالَه ، وأنكح ابنته. فأخذوا الغلام فقتلوه.

١١٧٥ — حدثنا بشر قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة —

١١٧٦ — وحدثنى يونس قال ، أخبرنا ابن وهب ، عن ابن زيد ، عن مجاهد —

١١٧٧ — وحدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة . قال ، حدثنا شبل ، قال حدثنى خالد بن يزيد ، عن مجاهد —

١١٧٨ — وحدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا إسمعيل بن عبد الكريم قال ، حدثنى عبد الصمد بن معقل : أنه سمع وهباً يذكر —

١١٧٩ — وحدثنى القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج عن مجاهد — وحجاج عن أبى معشر ، عن محمد بن كعب القرظى ، ومحمد بن قيس —

١١٨٠ — وحدثني محمد بن سعد قال ، حدثني أبي ، قال ، حدثني عمي قال ، أخبرني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس —

— فذكر جميعهم أن السبب الذي من أجله قال لهم موسى : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » ، نحو السبب الذي ذكره عبيدة وأبو العالية والسدي ، غير أن بعضهم ذكر أن الذي قتل القتيل الذي اختُصم في أمره إلى موسى ، كان أخا المقتول ، وذكر بعضهم أنه كان ابن أخيه ، وقال بعضهم : بل كانوا جماعة ورثة استبطأوا حياتَه . إلا أنهم جميعاً مجمعون على أن موسى إنما أمرهم بذبح البقرة من أجل القتيل إذ احتكموا إليه — عن أمر الله إياهم بذلك —[1] فقالوا له : وما ذبح البقرة ؟ يبيِّن لنا خصومتنا التي اختصمنا فيها إليك في قتل من قتل ، فادُّعِي على بعضنا أنه القاتل ! أتهزأ بنا ؟ كما : —

١/٢٧٠ ١١٨١ — حدثني يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : قُتِل قتيل من بني إسرائيل ، فطُرح في سبط من الأسباط ، فأتى أهل ذلك القتيل إلى ذلك السبط فقالوا : أنتم والله قتلتم صاحبنا . قالوا : لا والله . فأتوا موسى فقالوا : هذا قتيلنا بين أظهرهم ، وهمْ والله قتلوه ! فقالوا : لا والله يانبي الله ، طُرِح علينا ! فقال لهم موسى : إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . فقالوا : أتستهزئ بنا ؟ وقرأ قول الله جل ثناؤه : « أتتخذنا هزُواً » . قالوا : نأتيك فنذكر قتيلنا والذي نحن فيه ، فتستهزئ بنا ؟ فقال موسى : أعوذُ بالله أنْ أكون من الجاهلين .

١١٨٢ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد — وحجاج ، عن أبي معشر — عن محمد بن كعب القرظي ، ومحمد بن قيس : لما أتى أولياءُ القتيل والذين ادَّعَوا عليهم قتل صاحبهم — موسَى وقصوا قصَّتهم عليه ، أوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة ، فقال لهم موسى : « إنّ الله يأمرُكم أن تذبحوا بقرةً قالوا أتتخذنا هزُواً قال أعوذُ بالله أن أكونَ من

(١) الأجود أن يكون « عن أمر الله إياه بذلك » .

الجاهلين » . قالوا : وما البقرةُ والقتيل؟ قال : أقول لكم : « إنّ الله يأمركم أن تذبحُوا بقرةً » ، وتقولون: « أتتخذنا هُزُواً » .

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ ﴾[1]

قال أبو جعفر : فقال الذين قيل لهمُ : « إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » — بعد أنْ علموا واستقرّ عندهم ، أنّ الذى أمرهم به موسى عليه السلام من ذلك عن أمر الله من ذَبْح بقرة — جدّ وحقّ ،[2] « ادعُ لنا ربك يُبين لنا ما هِيَ » ، فسألوا موسى أن يسأل ربّه لهم ما كان الله قد كفاهم بقوله لهم : « اذبحوا بقرة » . لأنه جل ثناؤه إنما أمرهم بذبح بقرة من البقر — أىّ بقرة شاؤا ذَبحها من غير أن يحصر لهم ذلك على نوع منها دون نوع أو صنف دون صنف — فقالوا بجفاء أخلاقهم وغِلَظ طبائعهم ، وسُوء أفهامهم ، وتكلُّف ما قد وضع الله عنهم مؤُونته ، تعنُّتاً منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما : —

١١٨٣ — حدثنى محمد بن سعد قال ، حدثنى أبى قال ، حدثنى عمى قال ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : لما قال لهم موسى : : « أعوذُ بالله أن أكونَ من الجاهلين » . قالوا له يتعنَّتونه : « ادعُ لنا ربك يبين لنا ما هى » .

فلما تكلَّفوا جهلاً منهم ما تكلَّفوا — من البحث عما كانوا قد كُفُوه من صِفة البقرة التى أُمِروا بذبحها ، تعنُّتاً منهم نبيَّهم موسَى صلوات الله عليه ، بعد الذى كانوا أظهروا له من سوء الظنّ به فيما أخبرهم عن الله جل ثناؤه ، بقولهم : « أتتخذنا هزواً »[3] — عاقبهم عز وجل بأن حصرَ ذَبح ما كان أمرهم بذبحه

(١) الآية كلها ساقطة من الأصول ، فوضعتها فى موضعها .

(٢) قوله « جد وحق » ، خبر قوله « أن الذى أمرهم به موسى . . . »

(٣) سياق العبارة : « فلما تكلفوا جهلا منهم ما تكلفوا ... عاقبهم . . . » ، وما بينهما فصل .

من البقر ، على نوع منها دون نوع ، [١] فقال لهم جل ثناؤه — إذ سألوه فقالوا: ما هي؟ ما صفتها ؟ وما حِليتها ؟ حلِّها لنا لنعرفها! [٢] — قال: « إنها بقرة لا فارض ولا بكر » .

* * *

يعني بقوله جل ثناؤه: « لا فارض »، لا مسنة هرمة . يقال منه: « فرضت البقرة تفرِض فُروضاً » ، يعني بذلك : أسنَّتْ . ومن ذلك قول الشاعر :

يَا رُبَّ ذِي ضِغْنٍ عَلَيَّ فَارِضِ ... لَهُ قُرُوءٌ كَقُرُوءِ الحَائِضِ [٣]

يعني بقوله : « فارض » ، قديم . يصف ضغناً قديماً . ومنه قول الآخر :

لَهَا زِجَاجٌ وَلَهَاةٌ فَارِضُ ... حَدْلَاءُ كَالوَطْبِ نَحَاهُ المَاخِضُ [٤]

---

(١) في المطبوعة « بأن خص بذبح ما كان أمرهم » ، وعبارة الطبري فيما أرجح هي ما أثبته ، وقد قال آنفاً: ١٨٩ « من غير أن يحصر لهم ذلك على نوع منها دون نوع »، وسيقول بعد : ١٩٧ « فحصروا على نوع دون سائر الأنواع » .

(٢) الحلية (بكسر فسكون) الصفة والصورة : حلى الرجل يحليه تحلية : وصف صورته وهيأته . وتحليت الرجل : عرفت صفته .

(٣) مجالس ثعلب : ٣٦٤ ، والمعاني الكبير : ٨٥٠ ، ١١٤٣ ، والحيوان ٦ : ٦٦ — ٦٧ ، والأضداد : ٢٢ ، وكتاب القرطين ١ : ٤٤ ، ٧٧ ، واللسان (فرض) ، وغيرها ، وصواب إنشاده :

يا رُبَّ مَوْلًى حاسِدٍ مباغِضِ ... عَلَيَّ ذِي ضِغْنٍ وضَبٍّ فارِضِ

والضب : الغيظ والحقد تضمره في القلب . وقروء وأقراء جمع قرء (بضم فسكون) : وهو وقت الحيض . قال ابن قتيبة : « أي له أوقات تهيج فيها عداوته » ، وقال الجاحظ : « كأنه ذهب إلى أن حقده يخبو ثم يستعر ، ثم يخبو ثم يستعر » .

(٤) البيت الأول في اللسان (زجج) ، والثاني في المخصص ١ : ١٦٢ . وكان في الأصل :

لهُ زجاج ولهاة فارض ... هدلاء كالوطب تجاه الماخض

وهو تصحيف . والزجاج جمع زج : وهو الحديدة التي تركب في أسفل الرمح يركز به في الأرض . فاستعاره للأنياب . واللهاة : لحمة حمراء في الحنك ، معلقة على عكدة اللسان ، مشرفة على الحلق . والفارض في هذا البيت : الواسع العظيم الضخم يقال : لحية فارض ، وشقشقة فارض . (وهي لهاة البعير) ، ودلو فارض ، قال أبو محمد الفقعسي يذكر دلواً واسعاً (وهو الغرب)

وبمثل الذى قلنا فى تأويل « فارض» قال المتأولون * ذكر من قال ذلك:

١١٨٤ – حدثنى على بن سعيد الكندى قال، حدثنا عبد السلام بن حرب، عن خصيف، عن مجاهد: «لا فارض»، قال: لا كبيرة.[1]

١١٨٥ – حدثنا أبو كريب قال، حدثنا ابن عطية قال، حدثنا شريك، عن خصيف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس – أو عن عكرمة، شك شريك –: «لا فارض»، قال: الكبيرة.

١١٨٥م – حدثنى محمد بن سعد قال، أخبرنى أبى قال، حدثنى عمى قال، حدثنى أبى، عن أبيه، عن ابن عباس قوله: «لا فارض»، الفارض: الهَرِمة. ٢٧١/١

١١٨٦ – حُدثت عن المنجاب قال، حدثنا بشر، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: «لا فارض»، يقول: ليست بكبيرة هرمة.

١١٨٧ – حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال، حدثنى حجاج، قال قال ابن جريج، عن عطاء الخراسانى، عن ابن عباس: «لا فارض»، الهرمة.

١١٨٨ – حدثنى المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال، حدثنا شبل، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد: «الفارضُ» الكبيرة.

١١٨٩ – حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى قال، حدثنا أبو أحمد الزبيرى قال،

---

* والغَرْبُ غَرْبٌ بَقَرِىٌّ فارِضُ *

وحدلاء وأحدل: وهو الذى يمشى فى شق، وفى منكبيه ورقبته إقبال على صدره، وانحناء. والوطب: سقاء اللبن، يكون من جلد. ونحاه: صرفه وأماله. والماخض: من مخض اللبن: إذا وضع فى الممخضة، ليخرج زبده. لعله يهجو امرأته، ويذكر قبح أفيابها، وسعة لهاتها، من شدة شرهها. ويصف مشيتها مائلة على شق، وتكدس بدنها بعضه على بعض، كأنها وطب أماله الماخض يمنة ويسرة يحركه.

(١) الخبر ١١٨٤ – على بن سعيد بن مسروق الكندى، شيخ الطبرى: كوفى ثقة، مترجم فى التهذيب، وابن أبى حاتم ٣/١/١٨٩ – ١٩٠، مات سنة ٢٤٩. عبد السلام بن حرب الملائى الكوفى الحافظ: ثقة حجة، أخرج له أصحاب الكتب الستة. وترجمه ابن أبى حاتم ٣/١/٤٧.

حدثنا شريك ، عن خصيف ، عن مجاهد قوله : « لا فارض »، قال : الكبيرة .

١١٩٠ — حدثنا المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية : « لا فارض »، يعني : لاهَرِمة .

١١٩١ — حدثت عن عمار قال ،حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع مثله .

١١٩٢ — حدثنا بشر قال ،حدثنا يزيد ، قال حدثنا سعيد ، عن قتادة : « الفارض »، الهرمة .

١١٩٣ —حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال ، قال معمر ، قال قتادة : « الفارض » الهرمة . يقول: ليست بالهرِمة ولا البِكر ،َعوَانٌ بين ذلك .

١١٩٤ — حدثني موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « الفارض » ، الهرمة التي لا تلد .

١١٩٥ — حدثني يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال ،قال ابن زيد: «الفارض»، الكبيرة .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَلاَ بِكْرٌ ﴾

قال أبو جعفر : و« البِكر » من إناث البهائم وبني آدم ، ما لم يفتَحِلْه الفَحْل، وهي مكسورة الباء. لم يسمع منه «َفعَل » ولا«يفعل» . وأما «البَكْرُ» بفتح الباء ، فهو الفَتيُّ من الإبل .

* * *

وإنما عنَى جل ثناؤه بقوله « وَلا بِكْرٌ » ولا صغيرة لم تلد ، كما : —

١١٩٦ — حدثني على بن سعيد الكندى قال ، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن خصيف، عن مجاهد : « ولا بكر » ، صَغيرة .

١١٩٧ — حدثني المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة . قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : « البِكر »، الصغيرة .

١١٩٨ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا الحسن بن عطية قال، حدثنا شريك، عن خصيف ، عن سعيد، عن ابن عباس — أو عكرمة، شك — : « ولا بكر »، قال : الصغيرة .

١١٩٩ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسن قال ، حدثني حجاج قال ، قال ابن جريج ، عن عطاء الخراساني ، عن ابن عباس: « ولا بِكْر »، الصغيرة .

١٢٠٠ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثني أبو سفيان ، عن معمر ، عن قتادة : « ولا بكر »، ولا صغيرة .

١٢٠١ — حدثت عن المنجاب قال، حدثنا بشر ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « ولا بكر »، ولا صغيرة ضَعيفة .

١٢٠٢ — حدثني المثنى قال، حدثنا آدم قال، حدثنا أبو جعفر، عن الربيع ، عن أبي العالية : « ولا بكر »، يعني : ولا صغيرة .

١٢٠٣ — حدثت عن عمار قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع مثله .

١٢٠٤ — وحدثني موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو قال، حدثنا أسباط ، عن السدى : في « البكر »، لم تلدْ إلا وَلداً واحداً .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ عَوَانٌ ﴾

قال أبو جعفر : « العوان » النَّصَف التي قد وَلدتَ بطناً بعد بطن، وليست بنعت للبكر. يقال منه : « قد عوَّنت »، إذا صارت كذلك .

وإنما معنى الكلام أنه يقول : إنها بقــرة لا فارض ولا بكر بَلْ عوانٌ

بين ذلك . ولا يجوز أن يكون « عوانٌ » إلا مبتدأ . لأن قوله « بين ذلك » ، كناية عن الفارض والبكر ، فلا يجوز أن يكون متقدّماً عليهما ، ومنه قول الأخطل :

وَمَا بِمَكَّةَ مِنْ شُمْطٍ مُحَفِّلَةٍ وَمَا بِيَثْرِبَ مِنْ عُونٍ وأَبْكَارِ (١)

١/٢٧٢ وجمعها « عُون » . يقال : « امرأة عَوانٌ ، من نسوة عُون » . ومنه قول تميم بن مقبل :

ومَأْتَمٍ كالدُّمَى حُورٍ مَدَامِعُهَا لَمْ تَبْأَسِ العَيْشَ أَبْكاراً ولاَ عُونَا (٢)

وبقرة « عَوانٌ ، وبقر عُونٌ » . قال : وربما قالت العرب : « بقر عُونٌ » مثل « رُسُلٌ » ، يطلبون بذلك الفرق بين جمع « عَوان » من البقر ، وجمع « عانَة » من الحُمُر . ويقال : « هذه حرب عَوان » ، إذا كانت حرباً قد قوتل فيها مرة بعد مرة . يُمثَّلُ ذلك بالمرأة التي ولدت بطناً بعد بطن . وكذلك يُقال : « حاجة عَوانٌ » ، إذا كانت قد قُضيت مرة بعد مرة .

---

(١) ديوانه : ١١٩ ، وهو يخالف ما رواه الطبرى ، وقبله :

إنِّى حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ ومَا أَضْحَى بِمَكَّةَ مِنْ حُجْبٍ وأَسْتَارِ

وبالهَدِيِّ — اذا احْمَرَّتْ مَذَارِعُهَا فى يوم نُسْكٍ وتشريقٍ وتَنْحَارِ

وَمَا بِزَمْزَمَ من شُمْطٍ مُحَلِّقَةٍ وَمَا بِيَثْرِبَ مِنْ عُونٍ وأَبْكارِ

يعنى : حلقوا رؤوسهم ، وقد تحللوا من إحرامهم وقضوا حجتهم ، والشمط جمع أشمط : وهو الذى خالط سواد شعره بياض الشيب . فإن صحت رواية الطبرى « شمط محفلة » ، فكأنها من الحفيل والاحتفال : وهو الجد والاجتهاد ، يقال منه : رجل ذو حفيل ، وذو حفل وحفلة : له جد واجتهاد ومبالغة فيما أخذ فيه من الأمور . فكأنه عنى : مجتهدون فى العبادة والنساك .

(٢) جمهرة أشعار العرب : ١٦٢ ، من جيد شعر تميم بن أبى بن مقبل . والمأتم عند العرب : جماعة النساء — أو الرجال — فى خير أو شر . قالوا : والعامة تغلط فتظن أن « المأتم » النوح والنياحة . والدمى جمع دمية : الصورة أو التمثال ، يتنوق فى صنعتها ويبالغ فى تحسينها ، والعرب تكثر من تشبيه النساء بالدمى . والحور جمع حوراء . والحور أن يشتد بياض بياض العين ، وسواد سوادها ، وتستدير حدقتها ، وترق جفونها ، ويبيض ما حولها . وقوله : « لم تبأس » أى لم يلحقها بؤس عيش ، أو لم تشك بؤس عيش . بئس يبأس بؤساً ، فهو بائس وبئيس ، افتقر واشتد عليه البؤس . وفى الأصل المطبوع ، وفى اللسان (أتم) : « لم تيأس » بالياء المثناة ، وهو خطأ .

١٢٠٥ — حدثني يونس قال، أخبرنا ابن وهب ، أنّ ابن زيد أنشده :

قُعُودٌ لَدَى الأَبْوَابِ طُلَّابُ حاجَةٍ عَوَانٍ مِنَ الحَاجَاتِ أَوْ حاجَةً بِكْرَا (١)

قال أبو جعفر : والبيتُ للفرزدق .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك تأوَّله أهلُ التأويل * ذكر من قال ذلك :

١٢٠٦ — حدثنا على بن سعيد الكندى، حدثنا عبد السلام بن حرب ، عن خصيف ، عن مجاهد : «عَوانٌ بين ذلك » ، وَسَطٌ ، قد ولدَت بطناً أو بطنين .(٢)

١٢٠٧ — حدثني محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد: « عوان »، قال: « العوان »، العانِسُ النَّصَف .

١٢٠٨ — حدثني المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « العوان »، النَّصَف .

١٢٠٩ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا ابن عطية قال ، حدثنا شريك ، عن خصيف ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس — أو عكرمة ، شك شريك — « عَوَان » ، قال : بين ذلك .

١٢١٠ — حدثت عن المنجاب قال ، حدثنا بشر ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « عوان »، قال : بين الصغيرة والكبيرة ، وهى أقوى

---

(١) ديوان الفرزدق : ٢٢٧ ، وطبقات فحول الشعراء : ٢٥٦ ، وتاريخ الطبرى : ١٣٨ ، وغيرها . وسيأتى فى ٧ : ١٨٨ (بولاق)، والشعر فى زياد ، وقبله :

دَعَانى زِيادٌ لِلعطَاء ولَمْ أكُنْ لأَقْرَبهُ ما ساقَ ذُو حَسَبٍ وَفْرَا
وعِندَ زِيادٍ ، لَوْ يُرِيدُ عَطَاءَهُمْ، رجالٌ كثيرٌ قدْ يَرَى بِهِمُ فقْرَا

ويروى: « قعوداً »، ورواية ابن سلام « طالب حاجة » ، ونصب « أو حاجة بكرا » ، عطفاً على محل « حاجة عوان » ، فحلها نصب بقوله: « طلاب » .

(٢) الخبر : ١٠٢٦ — « على بن سعيد الكندى » : ترجمنا له فى : ١١٨٤ ، وفى الأصول هنا « سعد » بدل « سعيد » ، وهو خطأ .

ما تَكون من البقر والدواب ، وأحسنُ ما تكون .

١٢١١ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسن قال ، حدثني حجاج قال ، قال ابن جريج ، عن عطاء الخراساني ، عن ابن عباس : « عوان » ، قال : النَّصَف .

١٢١٢ — حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية : « عوان » ، نَصَف .

١٢١٣ — وحدثت عن عمار ، عن ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله .

١٢١٤ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة : « العوان » ، نَصَف بين ذلك .

١٢١٤ — حدثنا أحمد بن إسحق قال ، حدثنا أبو أحمد الزبيري قال ، حدثنا شريك ، عن خصيف ، عن مجاهد : « عوان » ، التي تُنتج شيئاً بشرط أن تكون التي قد نُتِجت بَكْرة أو بَكْرتين .

١٢١٥ — حدثنا موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدي : « العوان » ، النصف التي بين ذلك ، التي قد وَلدت وولد وَلدُها .

١٢١٦ — حدثني يونس ، قال أخبرنا ابن وهب ، قال قال ابن زيد : « العوان » ، بين ذلك ، ليست ببكر ولا كبيرة .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾

قال أبو جعفر : يعني بقوله « بين ذلك » بين البكر والهرمة ، كما : —

١٢١٧ — حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية : « بين ذلك » ، أي بين البكر والهرمة .

* * *

فإن قال قائل : قد علمت أن « بين » لا تصلح إلا أن تكون مع شيئين

فصاعداً ، فكيف قيل: « بين ذلك »، و « ذلك » واحد فى اللفظ ؟

قيل : إنما صَلحت مع كونها واحدة ، لأن « ذلك » بمعنى اثنين ، والعرب تجمع فى « ذلك » و « ذاك » شيئين ومعنيين من الأفعال ، كما يقول القائل : « أظن أخاك قائماً، وكان عمروٌ أباك»،[1] ثم يقول: «قد كانَ ذاك ، وأظنّ ذلك» . فيجمع بـ « ذلك » و« ذاك » الاسمَ والخبرَ، الذى كان لابد لـ « ظنّ » و « كان » منهما .[2]

* * *

فمعنى الكلام : قال إنه يقول إنها بقرة لا مسنة هرِمة ، ولا صغيرةٌ لم تلد ، ولكنها بقرة نَصَفٌ قد ولدت بطناً بعد بطن، بين الهرَم والشباب. فجمع « ذلك » ٢٧٣/١ معنى الهرم والشباب لما وصفنا . ولو كان مكان الفارض والبكر اسما شخصين، لم يجمع مع « بين» « ذلك ». وذلك أن « ذلك » لا يؤدِّى عن اسم شخصين . وغيرُ جائز لمنْ قال : « كنت بين زيد وعمرو » ، أن يقول :«كنت بين ذلك » ، وإنما يكونُ ذلك مع أسماء الأفعال دون أسماء الأشخاص .[3]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ (٦٨)

قال أبو جعفر : يقول الله لهم جل ثناؤه : افعلوا ما آمركم به ، تُدْرِكوا حاجاتكم وطلباتكم عندى؛ واذبحوا البقرة التى أمرتكم بذبحها ، تَصلوا — بانتهائكم إلى طاعتى بذبحها — إلى العلم بقاتل قتيلكم .

* * *

(١) عبارة الفراء هنا أوضح قال : « فلا بد لـ « كان » من شيئين » ، ولا بد لـ « أظن » من شيئين، ثم يجوز أن تقول : « قد كان ذاك ، وأظن ذلك » . معانى القرآن ١ : ٤٥ .

(٢) كان فى المطبوعة : « الذى كان لا بد للظن وكان منهما » ، وهو كلام يضطرب .

(٣) انظر معانى القرآن للفراء ١ : ٤٥ .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ ﴾

قال أبو جعفر : ومعنى ذلك : قال قومُ موسى لموسى : ادْعُ لنا ربك يُبين لنا ما لونها ؟ أى لون البقرة التى أمرتنا بذبحها . وهذا أيضاً تعنُّت آخرُ منهم بعد الأول، وتكلُّف طلب ما قد كانوا كُفُوه فى المرة الثانية والمسألة الآخرة . وذلك أنهم لم يكونوا حُصِروا فى المرة الثانية — إذ قيل لهم بعد مسألتهم عن حلية البقرة التى كانوا أمروا بذبحها ، فأبوا إلا تكلف ما قد كُفُوه من المسألة عن صفتها ، فحُصِروا على نوع دون سائر الأنواع ، عقوبةً من الله لهم على مسألتهم التى سألوها نبيَّهم صلى الله عليه وسلم ، تعنُّتاً منهم له . ثم لم يحصُرهم على لون منها دون لون، فأبوْا إلا تكلف ما كانوا عن تكلُّفه أغنياء، فقالوا — تعنُّتاً منهم لنبيهم صلى الله عليه وسلم، كما ذكر ابن عباس — : « ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها »، فقيل لهم عقوبةً لهم : « إنها بقرةٌ صفراءُ فاقعٌ لونُها تسر الناظرين ». فحُصِروا على لون منها دون لون. ومعنى ذلك : أنّ البقرة التى أمرتكم بذبحها صفراءُ فاقعٌ لونها .

* * *

قال أبو جعفر : ومعنى قوله : « يبيّن لنا ما لونُها »، أىُّ شىء لونُها ؟ فلذلك كان اللون مرفوعاً، لأنه مُرافع « ما » . وإنّما لم ينصب « ما » بقوله : « يبين لنا » ، لأن أصل « أى » ، و « ما » ، جمعُ متفرق الاستفهام . يقول القائل[1] : بيِّن لنا أسوداءُ هذه البقرةُ أم صفراءُ؟ فلما لم يكن لقوله : « بين لنا » أن يقع على الاستفهام متفرِّقاً ، لم يكن له أن يقعَ على «أىّ»، لأنه جمعُ ذلك المتفرق.[2] وكذلك كل ما كان من نظائره فالعمل فيه واحد ، فى « ما » و « أىٍّ » .

(١) فى الأصل المطبوعة « كقول القائل » ، وهو فساد .

(٢) كانت هذه الجملة فى المطبوعة : « فلما لم يكن كقوله : بين لنا ، ارتفع على الاستفهام منصرفاً ، لم يكن له ارتفع على أى . . . » ، وهو كلام ضرب عليه التصحيف ضرباً . وانظر ما جاء فى معانى الفراء ١ : ٤٦ — ٤٨ ، ففيه بيان شاف كاف .

واختلف أهل التأويل فى معنى قوله : « صفراء » . فقال بعضهم : معنى ذلك: سوداء شديدةُ السواد . ذكر من قال ذلك منهم :

١٢١٨ — حدثنى أبومسعود إسمعيل بن مسعود الجحدرى قال ، حدثنا نوح ابن قيس ، عن محمد بن سيف ، عن الحسن : « صَفراء فاقعٌ لونُها » ، قال : سوداء شديدة السواد .[١]

١٢١٩ — حدثنى أبوزائدة زكريا بن يحيى بن أبى زائدة . والمثنى بن إبراهيم . قالا ، حدثنا مسلم بن إبراهيم قال ، حدثنا نوح بن قيس ، عن محمد بن سيف أبى رجاء ، عن الحسن مثله .[٢]

* * *

وقال آخرون: معنى ذلك: صفراء القَرْن والظِّلف . ذكر من قال ذلك:

١٢٢٠ — حدثنى هشام بن يُونس النهشلى قال ، حدثنا حفص بن غياث ، عن أشعث ، عن الحسن فى قوله: « صفراء فاقعٌ لونها » ، قال: صفراء القَرن والظِّلف .[٣]

١٢٢١ — حدثنى يعقوب بن إبراهيم قال ، حدثنى هشيم قال، أخبرنا جويبر ، عن كثير بن زياد، عن الحسن فى قوله : «صفراء فاقع لَوْنُها» ، قال :كانت وَحشيَّة.[٤]

---

(١) الخبر : ١٢١٨ — أبو مسعود إسمعيل بن مسعود الجحدرى البصرى : ثقة ، روى عنه أيضاً النسائى وأبو حاتم. مترجم فى التهذيب ، وابن أبى حاتم ١/١/٢٠٠ . مات سنة ٢٤٨ . نوح بن قيس بن رباح الأزدى الحدانى : ، ثقة ، مترجم فى التهذيب ، والكبير ٤/١/١١١ — ١١٢ ، وابن أبى حاتم ٤/١/٤٨٣ .

(٢) الخبر : ١٢١٩ — أبو زائدة زكريا بن يحيى بن أبى زائدة: ثقة، روى عنه أبو حاتم وغيره، وذكر بعضهم أن البخارى روى عنه . وهو مترجم فى التهذيب ، وابن أبى حاتم ١/٢/٦٠١ — ٦٠٢ . مسلم بن إبرهيم : هو الأزدى الفراهيدى الحافظ . محمد بن سيف : ترجمنا له فيما مضى : ١٣٥ ، وكنيته « أبو رجاء »، ووقع هنا فى المطبوعة « محمد بن سيف عن أبى رجاء » . وهو خطأ ، صوابه حذف « عن » .

(٣) الخبر : ١٢٢٠ — هشام بن يونس بن وابل النهشلى اللؤلؤى : ثقة ، روى عنه الترمذى ، وسمع منه أبو حاتم . مترجم فى التهذيب ، وابن أبى حاتم ٤/٢/٧٢ .

(٤) الخبر : ١٢٢١ — كثير بن زياد أبو سهل البرسانى — بضم الموحدة وسكون الراء — الأزدى العتكى : ثقة من أكابر أصحاب الحسن . مترجم فى التهذيب ، والكبير ٤ /١/٢١٥ ، وابن أبى حاتم ٣/٢/١٥١ . والإسناد ضعيف ، من أجل « جويبر بن سعيد » ، كما ذكرنا ضعفه فى : ٢٨٤ . وسيأتى قريباً برقم : ١٢٥٤ .

١٢٢٢ – حدثني يعقوب قال، حدثنا مروان بن معاوية ، عن إبراهيم ، عن أبي حفص ، عن مَغْراء – أو عن رجل – ، عن سعيد بن جبير : « بقرةٌ صَفراء فاقعٌ لونُها »، قال : صفراء القرن والظلف .(١)

٢٧٤/١

١٢٢٣ – حدثني يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد : هي صَفراء .

١٢٢٤ – حدثني محمد بن عمرو قال ، حدثنا الضحاك بن مخلد ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد : « إنها بَقرة صَفراءُ فاقعٌ لونُها » ، قال : لو أخذوا بقرة صَفراءَ لأجزأت عنهم .

* * *

قال أبو جعفر : وأحسب أن الذى قال فى قوله: « صفراء »، يعنى به سوداء ، ذهب إلى قولهم فى نعت الإبل السود :(٢) « هذه إبل صُفر ، وهذه ناقة صفراء » ، يُعْنَى بها سوداء . وإنما قيل ذلك فى الإبل ، لأن سوادها يَضرب إلى الصُّفرة ، ومنه قول الشاعر :(٣)

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي، هُنَّ صُفْرٌ ، أَوْلاَدُهَا كالزَّبِيبِ(٤)

(١) الخبر : ١٢٢٢ – مروان بن معاوية : هو الفزارى الكوفى الحافظ ، من شيوخ أحمد وإسحق والأئمة . مغراء ، بفتح الميم وسكون الغين المعجمة : تابعى روى عن ابن عمر ، وذكره ابن حبان فى الثقات ، وترجمه البخارى فى الكبير ٤/٢/٦٥ ، وابن أبي حاتم ٤/١/٤٢٩ ، فلم يذكرا فيه جرحاً . ولكن هذا الإسناد ضعيف ، لتردد الراوى : أنه عن مغراء ، أو عن رجل ، فتردد بين ثقة وبين مبهم .

(٢) فى المطبوعة : « ذهب إلى قوله »، وليس بشيء .

(٣) هو الأعشى الكبير .

(٤) ديوانه : ٢١٩ ، والأضداد : ١٣٨ ، واللسان (صفر) ، وغيرها . من قصيدة يمدح بها أبا الأشعث قيس بن معد يكرب الكندى . وكان فى الأصل : « تلك خيل منها » وهو خطأ ، فسياق الشعر :

إنَّ قَيْساً، قيسَ الفَعَالِ أبا الأشْـ ـعَثِ أمْسَتْ أَمْدَاؤُهُ لِشَعُوبِ

كُلَّ عَامٍ يُمِدُّنِى بِجُمُومٍ عِنْدَ وَضْعِ العِنَانِ أوْ بِنَجِيبِ

... ...

تلك خيلى منه ... ...

وما أظن الطبرى يخطىء فى رواية هذا الشعر ، والركاب : الإبل التى يسار عليها ، لا واحد لها من لفظها ، واحدتها راحلة . والزبيب : ذاوى العنب ، وأسوده أجوده ، ولكنه ليس خالص السواد . يقول : كل ما أملك من خيل ، ومن إبل قد ولدت لى خير ما تلد الإبل ، فهو من جود أبى الأشعث .

يعنى بقوله: «هنّ صُفر» ، هن سُود وذلك إن وُصِفت الإبل به، فليس مما توصف به البقر . مع أنّ العرب لا تصف السواد بالفقوع ، وإنّما تَصف السواد — إذا وصفته بالشدة — بالحلوكة ونحوها ، فتقول : «هو أسود حالكٌ وحَانك وحُلكوك، وأسود غِرْبيبٌ ودَجوجى» — ولا تقول: هو أسودُ فاقع. وإنما تقول : «هو أصفر فاقعٌ» . فوصفه إياه بـ « الفقوع ، من الدليل البين على خلاف التأويل الذى تأوّل قوله : « إنّها بَقرَة صَفراء فَاقعٌ » المتأوِّلُ ، بأن مَعناه سَوداء شديدة السواد .[1]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾

قال أبو جعفر : يعنى : خالِص لونُها . و « الفقوع » فى الصفرة ، نظير « النُّصُوع » فى البياض ، وهو شدته وصفاؤه، كما : —

١٢٢٥ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، قال قال قتادة : « فاقعٌ لونُها »، هى الصافى لونها .

١٢٢٦ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : « فاقعٌ لونُها »، أى صاف لونها .

١٢٢٧ — حدثت عن عمار قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بمثله .

١٢٢٨ — حدثنا موسى قال، حدثنا عمرو قال، حدثنا أسباط، عن السدى : « فاقعٌ » ، قال : نَقِىٌّ لونها .

١٢٢٩ — حدثنى محمد بن سعد قال، حدثنى أبى قال ، حدثنى عمى قال ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس: « فاقعٌ لونها »، شديدةُ الصفرة ، تكاد

---

(١) مجرى العبارة : الذى تأول المتأول بأن معناه . « المتأول » فاعل مرفوع .

من صُفرتها تبيَضّ . وقال أبو جعفر : أُرَاه أبيض ![1]

١٢٣٠ ــ حدثنى يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد فى قوله : « فاقع لونُها »، قال : شديدة صُفرتها .

* * *

يقال منه : « فَقع لونه يفقَعُ ويفقُعُ فَقعاً وفُقوعاً، فهو فاقعٌ »، كما قال الشاعر :

حَمَلْتُ عليهِ الوَرْدَ حَتّى تَرَكْتُهُ ذَلِيلاً يَسُفُّ التُّرْبُ واللَّوْنُ فَاقِعُ[2]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ تَسُرُّ النَّٰظِرِينَ ﴾ ﴿٦٩﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله « تسر الناظرين »، تُعجب هذه البقرة ــ فى حُسن خَلقها ومَنظرها وَهيئتها ــ الناظرَ إليها ، كما : ــ

١٢٣١ ــ حدثنا بشر قال، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « تسر الناظرين »، أى تعجب الناظرين .

١٢٣٢ ــ حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا إسمعيل بن عبد الكريم . قال ، حدثنى عبد الصمد بن معقل ، أنه سمع وهباً : « تسر الناظرين »، إذا نظرت إليها يُخيَّل إليك أن شُعاع الشمس يخرج من جلدها .

١٢٣٣ ــ حدثنا موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « تسرّ الناظرين »، قال : تعجب الناظرين .

* * *

---

(١) كأن أبا جعفر أراد أن يعترض على قوله : « تكاد من صفرتها تبيض » ، فقال ما معناه : لو صح ذلك لكان قوله : « فاقع لونها » ، أى أبيض ، والصفرة تشتد ، فإذا خفت ابيضت . هذا هو معنى ما قاله فيما أرجح .

(٢) لم أعرف قائله . والورد : فرسه .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ (٧٠)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله : « قالوا » ، قال قوم موسى — الذين أمروا بذبح البقرة — لموسى. فترك ذكرَ موسى، وذكر عائد ذكره، اكتفاءً بما دل عليه ظاهرُ الكلام. وذلك أن معنى الكلام: قالوا له: ادعُ ربّك. فلم يذكر «له» لما وصفنا . ٢٧٥/١

وقوله : « يبيّن لنا ما هى » ، خبرٌ من الله عن القوم بجَهْلةٍ منهم ثالثة . وذلك أنهم لو كانوا، إذْ أمروا بذبح البقرة، ذبحوا أيَّتَها تيسرتْ مما يقع عليه اسمُ بقرة، كانت عنهم مجزئة ، ولم يكن عليهم غيرُها، لأنهم لم يكونوا كلِّفوها بصفة دون صفة . فلما سألوا بيانها بأىّ صفة هى ، بيّن لهم أنها بسنٍّ من الأسنان دون سنٍّ سائر الأسنان،[1] فقيل لهم : هى عوان بَين الفارض والبكر والضرع .[2] فكانوا — إذ بيِّنت لهم سنّها — لو ذبحوا أدنى بقرَة بالسنّ التى بُيِّنت لهم ، كانت عنهم مُجزئة ، لأنهم لم يكونوا كُلِّفوها بغير السن التى حُدِّتْ لهم ، ولا كانوا حُصِروا على لون منها دون لون . فلما أبوا إلا أن تكون معرَّفة لهم بنعوتها، مبينةً بحدودها التى تفرِّق بينها وبين سائر بهائم الأرض، فشدَّدوا على أنفسهم — شَدَّد الله عليهم بكثرة سُؤالهم نبيَّهم واختلافِهم عليه .

ولذلك قال نبينا صلى الله عليه وسلم لأمته : —

١٢٣٤ — « ذرُونى ما تركتُكم ، فإنما أُهلِك من كان قبلكم بكثرة سُؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بشىء فأتوه ، وإذا نهيتكم عن شىء فانتهوا عنه ما استطعتم » .[3]

---

(١) فى المطبوعة : « فبين لهم أنها بسن . . . » ، والفاء لا مكان لها هنا .

(٢) الضرع : الضعيف الضاوى الجسم .

(٣) الحديث : ١٢٣٤ — رواه هنا دون إسناد . وهو من حديث أبى هريرة . ووقع فى آخره خطأ ، قلب معناه . واللفظ الصحيح ، بالمعنى الصحيح : « فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم». هذا لفظ البخارى . وقد أفاض الحافظ فى شرحه ، فى الفتح ١٣ : ٢١٩—

قال أبو جعفر : ولكنّ القوم لما زَادوا نبيَّهم موسى صلى الله عليه وسلم أذًى وَتعنُّتاً ، زادهم الله عقوبةً وتشديداً ، كما : —

١٢٣٥ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا عثام بن على ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : لو أخذُوا أدنى بَقرة اكتفوا بها، لكنهم شدّدوا فشدّد الله عليهم .

١٢٣٦ — حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال ، حدثنا المعتمر قال ، سمعت أيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن عَبيدة قال: لو أنهم أخذوا أدنَى بقرة لأجزأت عنهم . (١)

١٢٣٧ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن أيوب —

١٢٣٨ — وحدثنى المثنى قال: حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن هشام بن حسان — جميعاً، عن ابن سيرين، عن عبيدة السلمانى قال : سألوا وشدّدوا فشُدّد عليهم .

١٢٣٩ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا ابن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة قال : لو أخذ بنو إسرائيل بقرةً

---

٢٢٦ . ورواه أيضاً أحمد : ٧٣٦١ ، بنحو معناه . وأشرنا هناك إلى كثير من طرقه فى المسند وغيره . وكذلك رواه مسلم ٢ : ٢٢١ ، بنحوه ، من طرق . وكذلك رواه ابن حبان فى صحيحه ، من طرق : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ (بتحقيقنا) وفى رواية ابن حبان : ١٧ ، « قال ابن عجلان : فحدثت به أبان بن صالح ، فقال لى : ما أجود هذه الكلمة ، قوله : فأتوا منه ما استطعتم » . وهو الحديث التاسع من الأربعين النووية ، وقد شرحه ابن رجب ، فى جامع العلوم والحكم ، شرحاً مسهباً . ولعل الخطأ الذى وقع هنا خطأ من الناسخين . فما أظن الطبرى يخفى عليه ما فى هذا اللفظ من تهافت .

(١) الخبر : ١٢٣٦ — جاء شيخ الطبرى هنا باسم « عمرو بن عبد الأعلى » ! وما وجدت راوياً يسمى بهذا . وإنما هو « محمد بن عبد الأعلى الصنعانى » ، من شيوخ مسلم وأبى داود وغيرهما ، كما مضى مثل هذا الإسناد على الصواب : ١١٧٢ . ومحمد بن عبد الأعلى : بصرى ثقة، مات سنة ٢٤٥ ، مترجم فى التهذيب ، والكبير للبخارى ١/١/١٧٤ ، وابن أبى حاتم ٤/١/١٦ .

لأجزأت عنهم . ولولا قولهم : « وإنا إن شاء اللهُ لمهتدون » ، لما وجدُوها .

١٢٤٠ — حدثني محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قول الله : « وإذ قالَ موسى لقومه إنّ الله يأمرُكم أن تذبحوا بقرة »، لو أخذُوا بقرةً ما كانت ، لأجزأت عنهم . « قالوا ادْعُ لنا ربَك يبين لنا ما هيَ قال إنه يقول إنها بقرةٌ لا فارض ولا بكرٌ »، قال: لو أخذوا بقرةً من هذا الوصف لأجزأت عنهم . « قالوا ادْعُ لنا ربّك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صَفراءُ فاقعٌ لونُها تسر الناظرين » ، قال : لو أخذوا بقرة صفراء لأجزأت عنهم. « قالوا ادعُ لنا ربَك يبين لنا ما هى »، « قال إنّه يقول إنها بقرةٌ لا ذَلُولٌ تُثيرُ الأرْضَ ولا تسقى الحرث » الآية .

١٢٤١ — حدثني المثنى بن إبراهيم قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد بنحوه — وزاد فيه : ولكنهم شدّدوا فشُدد عليهم .

١٢٤٢ — حدثني القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج قال ، قال ابن جريج قال ، مجاهد : « لو أخذوا بقرة مَّا ، كانتْ أجزأت عنهم . قال ابن جريج ، قال لي عطاء: لو أخذوا أدنىَ بقرة كفَتْهم . قال ابن جريج ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أمرُوا بأدْنى بقرة ، ولكنهم لما شدّدوا على أنفسهم شدد الله عليهم ؛ وَايْمُ الله لوأنهم لم يستثنوا لما بُيِّنت لهم آخرَ الأبد .[1]

١٢٤٣ — حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية قال : لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة ، استعرضوا ٢٧٦/١

(١) الخبر : ١٢٤٢ — جاء في آخره حديث مرفوع ، ذكره ابن جريج . وهو مرسل لا تقوم به حجة . وسيأتي أيضاً : ١٢٤٤ ، عن قتادة مرسلا . وذكر معناه ابن كثير ١ : ٢٠٣ ، من تفسيرى ابن أبي حاتم وابن مردويه ، بإسناديهما ، من رواية الحسن ، عن أبي رافع ، عن أبي هريرة ، مرفوعاً ، بنحوه . قال ابن كثير : « وهذا حديث غريب من هذا الوجه . وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة كما تقدم مثله عن السدى » .

بقرةً فذبحوها، لكانت إيّاها ، ولكنهم شدّدوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم . ولولا أن القوم استثنوا فقالوا : « وإنّا إن شاء الله لمهتدون »، لما هُدُوا إليها أبداً .

١٢٤٤ — حدثنا بشر قال، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال : ذُكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : إنما أمِر القوم بأدنى بقرة ، ولكنهم لما شددوا على أنفسهم شُدد عليهم . والذى نفس محمد بيده ، لو لم يستثنوا لما بُيِّنت لهم آخرَ الأبد .

١٢٤٥ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : فى خبر ذكره ، عن أبى مالك ، وعن أبى صالح . عن ابن عباس قال : لو اعترضُوا بقرة فذبحُوها لأجزأت عنهم ، ولكنهم شددوا وتعنّتوا موسى فشدد الله عليهم .

١٢٤٦ — حدثنا أبو كريب قال: قال أبو بكر بن عياش ، قال ابن عباس: لو أن القوم نظروا أدْنى بقرة — يعنى بنى إسرائيل— لأجزأت عنهم، ولكن شدّدوا فشدّد عليهم ، فاشتروها بملء جلدها دنانير .[1]

١٢٤٧ — حدثنى يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : لو أخذوا بقرَة كما أمرهم الله كفاهم ذلك ، ولكنّ البلاء فى هذه المسائل ، فقالوا ادعُ لنا ربَك يبين لنا ما هى ، فشدّد عليهم ، فقال: « إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوَان بينَ ذلك»، فقالوا: « ادع لنا ربك يبين لنا ما لونُها ، قال إنه يقول إنّها بقرة صفراءُ فاقعٌ لونها تسر الناظرين » ، قال : وشدد عليهم أشدّ من الأوّل ، فقرأ حتى بلغ : « مسلَّمة لاشيَة فيها »، فأبوا أيضاً فقالوا: « ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إنّ البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون » فشدد عليهم، فقال: « إنه يقولُ إنّها بقرة لا ذلول تثير الأرضَ ولا تسقى الحرثَ مُسلَّمة لاشيَة فيها » ،

---

(١) الخبر : ١٢٤٦ — هذا الإسناد منقطع بين أبى بكر بن عياش وابن عباس ، كما هو ظاهر . لأن أبا بكر إنما يروى عن التابعين، ومولده بعد موت ابن عباس بدهر . وهذا الخبر ذكره السيوطى ١ : ٧٧، ونسبه لابن جرير ، وابن أبى حاتم « من طرق » .

قال : فاضطروا إلى بقرة لا يُعلم على صفتها غيرُها، وهى صفراءُ ليس فيها سواد ولا بياضٌ . (١)

* * *

قال أبو جعفر : وهذه الأقوال التى ذكرناها عمن ذكرناها عنه — من الصحابة والتابعين والخالفين بعدهم ، من قولهم إنّ بنى إسرائيل لو كانوا أخذُوا أدنى بقرة فذبحوها أجزأت عنهم ، ولكنهم شددوا فشدّد الله عليهم — من أوضح الدلالة على أن القوم كانوا يرون أنّ حكم الله ، فيما أمر ونهى فى كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، على العموم الظاهر ، دون الخصوص الباطن، (٢) إلا أن يخص بعضَ ما عمّه ظاهرُ التنزيل، كتابٌ من الله أو رسولُ الله؛ وأن التنزيل أو الرسول، إن خصّ بعضَ ما عمّه ظاهرُ التنزيل بحكمٍ خلافِ ما دلّ عليه الظاهر ، فالمخصوص من ذلك خارجٌ من حكم الآية التى عمّت ذلك الجنس خاصة، وسائرُ حكم الآية على العموم ؛ على نحو ما قد بيناه فى كتابنا ﴿ كتاب الرسالة ﴾ من ﴿ لطيف القول فى البيان عن أصول الأحكام ﴾ — فى قولنا فى العموم والخصوص ، وموافقةِ قولهم فى ذلك قولَنا ومذهبِهم مذهبَنا ، وتخطئتهم قولَ القائلين بالخصوص فى الأحكام ، وشهادتِهم على فساد قول من قال: حكمُ الآية الجائية مجىء العموم على العموم ، ما لم يُختصّ منها بعض ما عمّته الآية . فإن خُص منها بعضٌ، فحكم الآية حينئذ على الخصوص فيما خُصّ منها، وسائر ذلك على العموم .

وذلك أن جميع مَنْ ذكرنا قوله آنفاً — ممن عابَ على بنى إسرائيل مسألتَهم نبيَّهم صلى الله عليه وسلم عن صِفة البقرة التى أمروا بذبحها وسِنّها وحِليتها — رأوا أنهم كانوا فى مسألتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم موسى ذلك مخطئين ، وأنهم لو كانوا استعرضوا أدنى بقرة من البقر — إذْ أُمروا بذبحها بقوله : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة »، فذبحوها — كانوا للواجب عليهم من أمر الله فى ذلك ١/٢٧٧

(١) الأثر : ١٢٤٧ — سيأتى تمامه فى رقم : ١٢٧٣ .
(٢) انظر ما مضى فى تفسير « الظاهر ، والباطن » : ٢ : ١٥ والمراجع

مؤدِّين، وللحق مُطيعين، إذ لم يكن القوم حُصروا على نوع من البقر دون نوع، وسنّ دون سنّ.

ورأوا مع ذلك أنّهم — إذْ سألوا موسى عن سنها فأخبرهم عنها، وحَصرهم منها على سنّ دون سنّ ونوع دون نوع، وخصّ من جميع أنواع البقر نوعاً منها — كانوا في مسألتهم إيّاه في المسألة الثانية، بعد الذي خصّ لهم من أنواع البقر، من الخطأ على مثل الذي كانوا عليه من الخطأ في مسألتهم إيّاه المسألةَ الأولى.

وكذلك رأوا أنهم في المسألة الثالثة على مثل الذي كانوا عليه من ذلك في الأولى والثانية، وأن اللازمَ كان لهم في الحالة الأولى، استعمالُ ظاهر الأمر، وذَبح أيِّ بهيمة شاؤُوا مما وقع عليها اسم بقرة.

وكذلك رأوا أنّ اللازم كان لهم في الحال الثانية، استعمالُ ظاهر الأمر وذبح أيّ بهيمة شاؤوا مما وقع عليها اسم بقرة عوَان لا فارض ولا بكر، ولم يَرَوا أنّ حكمهم — إذْ خُصّ لهم بعض البقر دون البعض في الحالة الثانية — انتقل عن اللازم الذي كان لهم في الحالة الأولى، من استعمال ظاهر الأمر إلى الخصوص.

ففي إجماع جميعهم على ما روينا عنهم من ذلك — مع الرواية التي رويناها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموافقة لقولهم — دليلٌ واضح على صحّة قولنا في العموم والخصوص، وأنّ أحكام الله جل ثناؤه في آي كتابه — فيما أمر ونَهى — على العموم، ما لم يَخصّ ذلك ما يجبُ التسليم له. وأنه إذا خُصّ منه شيء، فالمخصوص منه خارجٌ حكمه من حكم الآية العامّة الظاهرِ، وسائر حُكم الآية على ظاهرها العام — ومؤيدٌ حقيقةَ ما قلنا في ذلك،[1] وشاهدٌ عدلٌ على فساد قول من خالف قولنا فيه.

---

(١) في المطبوعة: «ويؤيد حقيقة ما قلنا . . .»، وهو خطأ، وقوله «ومؤيد حقيقة ما قلنا» معطوف على قوله آنفاً: «ففي إجماع جميعهم . . . دليل واضح . . . ومؤيد حقيقة ما قلنا . . . وشاهد عدل . . .»

وقد زعم بعض من عظمت جهالته ، واشتدت حيرتُه ، أنّ القوم إنما سألوا مُوسى ما سَألوا بَعد أمر الله إياهم بذبح بَقرة من البقر ، لأنّهم ظَنوا أنهم أمِروا بذبح بقرة بعينها خُصَّت بذلك ، كما خُصَّت عصَا موسى فى معناها ، فسألوه أن يحلِّيها لهم ليعرفُوها .

ولو كان الجاهلُ تدبَّر قولَه هذا ، لسهل عليه ما استصعب من القول . وذلك أنه استعظمَ من القوم مسألتهم نبيَّهم ما سألوه تشدداً منهم فى دينهم ، ثم أضافَ إليهم من الأمر ما هو أعظم مما استنكره أن يكونَ كانَ منهم . فزعم أنّهم كانوا يَرون أنه جائز أن يفرضَ الله عليهم فرضاً ، ويتعبَّدهم بعبادة ، ثم لا يبيِّن لهم ما يفرض عليهم ويتعبَّدهم به ، حتى يسألوا بيانَ ذلك لهم ! فأضاف إلى الله تعالى ذكرُه ما لا يجوز إضافته إليه ، ونَسب القومَ من الجهل إلى مالاَ يُنسَب المجانين إليه ! فزعم أنهم كانوا يسألون ربهم أن يفرض عليهم الفرائض ، فنعوذ بالله من الحَيْرة ، ونسأله التوفيق والهداية .

* * *

وأما قوله : « إنّ البقر تَشابه علينا » ، فإن « البقر » جماع بَقرة .

وقد قرأ بعضهم : « إنّ الباقِر » ، وذلك — وإن كانَ فى الكلام جائزاً ، لمجيئه فى كلام العرب وأشعارها ، كما قال ميمون بن قيس:[1]

وَما ذَنْبُه أنْ عافَتِ المـاء بَاقِرٌ ... وَمَا إنْ تَعافُ المَاء إلاّ لِيُضرَبَا [2]

---

(١) يعنى الأعشى الكبير .

(٢) ديوانه : ٩٠ ، والحيوان ١ : ١٩ (وانظر أيضاً ١ : ٣٠١ ، ٦ : ١٧٤) ، واللسان (ثور) وغيرها ـ من قصيدة يقولها لبنى قيس بن سعد ، وما كان بينه وبينهم من قطيعة بعد مواصلة ومودة ، وقبل البيت :

وإنِّى وما كلَّفتمونى — وربِّكُمْ ... لَيَعْلَمُ مَنْ أمْسى أعَقَّ وَأحْرَبَا

لَكَالثَّوْرِ، والجِنِّىُّ يَضْرِبُ ظَهْرَهُ ... وَمَا ذَنْبُهُ إنْ عافتِ المَاء مَشْرَبَا

قال الجاحظ : «كانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب ، إما لكدر الماء أو لقلة العطش ، ضربوا الثور ليقتحم الماء ، لأن البقر تتبعه كما تتبع الشول الفحل ، وكما تتبع أتن الوحش الحمار . . . وكانوا يزعمون

وكما قال أمية :[١]

وَيَسُوقُونَ باقِرَ السَّهْلِ لِلطَّـوْدِ مَهَازِيلَ خَشْيَةً أَنْ تَبُورَا[٢]

— فغير جائزةٍ القراءةُ به، لمخالفته القراءة الجائية مجيءَ الحجّة، بنقل مَنْ لا يجوز عليه — فيما نقلوه مجمعين عليه — الخطأ والسهو والكذب .

* * *

وأما تأويل قوله : « تَشابَهَ علينا » ، فإنه يعني به : التبَسَ علينا. والقرَأةُ مختلفة في تلاوته .[٣] فبعضهم كانوا يتلونه : « تَشَابَهَ علينا » ، بتخفيف الشين ونصب الهاء ، على مثال « تَفاعل » ، ويذكِّر الفعلَ ، وإن كان « البقر » جماعاً . لأن من شأن العرب تذكيرُ كل فعلِ جمع كانت وحدانُهُ بالهاء ، وجمعه بطرح الهاء — وتأنيثُه ،[٤] كما قال الله تعالى في نظيره في التذكير : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ [سورة القمر : ٢٠] ، فذكَّر « المنقعر » وهو من صفة النخل ، لتذكير لفظ « النخل » — وقال في موضع آخر : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [سورة الحاقة : ٧] ، فأنَّث « الخاوية » — وهي من صفة « النخل » — بمعنى النخل.[٥] لأنها وإنْ كانت في لفظ الواحد المذكر — على ما وصفنا قبل — فهي جماع « نخلة » .

٢٧٨/١

أن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء ، حتى تمسك البقر عن الشرب ، حتى تهلك . . . كأنه قال : إذا كان يضرب أبداً لأنها عافت الماء، فكأنها إنما عافت الماء ليضرب » .

(١) يعني : أمية بن أبي الصلت .

(٢) ديوانه : ٣٥ ، والحيوان ٤ : ٤٦٧ ، والأزمنة والأمكنة ٢ : ١٢٤ ، وغيرها . وفي الأصل المطبوع : « باقر الطود للسهل » ، وفي الديوان والحيوان « باقراً يطرد السهل » ، وصواب الرواية ما أثبته من الأزمنة . قال الجاحظ في ذكر نيران العرب : « ونار أخرى : وهي النار التي كانوا يستمطرون بها في الجاهلية الأولى . فإنهم كانوا إذا تتابعت عليهم الأزمات ، وركد عليهم البلاء ، واشتد الجدب ، واحتاجوا إلى الاستمطار ، اجتمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر ، ثم عقدوا في أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر ، ثم صعدوا بها في جبل وعر ، وأشعلوا فيها النيران ، وضجوا بالدعاء والتضرع ، فكانوا يرون أن ذلك من أسباب السقيا » ، وقال ابن الكلبي : « كانوا يضرمون تفاؤلا للبرق » والمهازيل جمع مهزول ، مثل هزيل وجمعه هزلى : وهي التي ضعفت ضعفاً شديداً وذهب سمنها . وتبور : تهلك .

(٣) في المطبوعة : « والقراء » ، ورددتها إلى ما جرى عليه لفظ الطبري ، كما سلف مراراً .

(٤) وحدان جمع واحد : ويعني أفراده . وقوله « وتأنيثه » معطوف على قوله « تذكير كل فعل »

(٥) السياق : « فأنث (الخاوية) . . . بمعنى النخل » ، يعني أنها من أجل معناه وهو جمع مؤنث ، ولم يذكره من أجل لفظه ، وهو مذكر .

* * *

وكان بعضهم يتلوه: « إنّ البقرَ تشّابهُ علينا » ، بتشديد الشين وضم الهاء ، فيؤنث الفعل بمعنى تأنيث « البقر »، كما قال : « أعجازُ نخلٍ خاوية » ، ويدخل فى أول « تشابه» «تاء» تدل على تأنيثها ، ثم تُدغم التاء الثانية فى «شين» «تشابه» لتقارب مخرجها ومخرج «الشين»، فتصير «شيناً» مشدّدة،وتُرْفع«الهاء» بالاستقبال والسلامةِ من الجوازم والنواصب .

* * *

وكان بعضهم يتلوه:« إنّ البقرَ يشّابهُ علينا»، فيخرج «يشّابه» مُخرج الخبر عن الذّكَر ، لما ذكرنا من العلة فى قراءة من قرأ ذلك « تشابه » بالتخفيف ونصْب «الهاء» ، غير أنه كان يرفعه بـ «الياء» التى يحدثها فى أول «تشابه» التى تأتى بمعنى الاستقبال ، وتدغم«التاء» فى «الشين» كما فعله القارئ فى « تَشّابه » بـ «التاء» والتشديد .

* * *

قال أبو جعفر : والصواب فى ذلك من القراءة عندنا : « إنّ البقرَ تشابهَ علينا »، بتخفيف «شين» « تشابه» ونصب «هائه»، بمعنى « تفاعل»، لإجماع الحجة من القراء على تصويب ذلك، ودَفعهم ما سوَاه من القرآآت .[1] ولا يُعترض على الحجَّة بقول مَنْ يجوز عليه فيما نَقل السهوُ والغفلة والخطأ .

* * *

وأما قوله « وإنّا إن شاءَ الله لَمهتدونَ » ، فإنهم عنوا : وإنّا إن شاء اللهُ لمبيَّنٌ لنا ما التبسَ علينا وتَشابه من أمر البقرة التى أمرنا بذبحها . ومعنى « اهتدائهم » فى هذا الموضع معنى : « تبيُّنهم » أىَّ ذلك الذى لزمهم ذَبْحه مما سواه من أجناس البقر.[2]

* * *

(١) فى المطبوعة : « ورفعهم » ، والصواب ما أثبته .

(٢) يعنى أن ذلك من قولهم : هداه، أى بين له،ومنه قوله تعالى: «وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ» ، أى بينا لهم طريق الهدى .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِى الحَرْثَ ﴾

قال أبو جعفر : وتأويل ذلك : قال موسى : إن الله يَقول إنّ البقرةَ التى أمرتكم بذَبْحها بقرَة لا ذَلولٌ . ويعنى بقوله : « لا ذلولٌ » ، أى لم يُذلّلها العمل . فمعنى الآية : إنها بقرة لم تُذلّلها إثارة الأرض بأظلافها ، ولا سُنِيَ عليها الماءُ فيُسقَى عليها الزرع .[1] كما يقال للدابة التى قد ذَلّلها الركوب أو العمل : « دابة ذَلول بينةُ الذِّل » بكسر الذال .[2] ويقال فى مثله من بنى آدم : « رجل ذَليل بين الذُّلّ والذِّلة » .

١٢٤٨ — حدثنا بشر قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « إنها بَقرَة لا ذلولٌ » ، يقول : صَعبة لم يُذِلها عملٌ ، « تثير الأرض ، ولا تَسقى الحرْث » .

١٢٤٩ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « إنّها بَقرَة لا ذَلولٌ تُثير الأرض » ، يقول : بقرة ليست بِذَلول يُزْرع عليها ، وليست تَسقى الحرث .

١٢٥٠ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : « إنّها بقرَةٌ لاذلول » ، أى لم يذللها العمل . « تُثير الأرض » يعنى : ليست بذلول فَتثير الأرض . « ولا تَسقى الحرث » ، يقول : ولا تعمل فى الحرث .

١٢٥١ — حُدثت عن عمار قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن

---

(١) سنت الناقة تسنو ، وسنا الرجل يسنو سنواً وسناية : إذا سقى الأرض . والسانية : هى الناضحة ، وهى الناقة أو غيرها مما يسقى عليها الزرع ، والجمع : السوانى .

(٢) الذل : اللين ، ضد الصعوبة .

الربيع : « إنّها بقرة لا ذلول » ، يقول : لم يذلّها العملُ ، « تثيرُ الأرض » ، يقول : تثير الأرض بأظلافها ،[1] « ولا تسقى الحرث » ، يقول : لا تعمل فى الحرث .

١٢٥٢ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج قال ، قال ابن جريج ، قال الأعرج ، قال مجاهد ، قوله : « لا ذلول تُثير الأرْض ولا تسقى الحرْث » ، يقول : ليست بذلول فتفعل ذلك .

١٢٥٣ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنا أبو سفيان ، عن معمر ، عن قتادة : ليست بذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث . ٢٧٩/١

* * *

قال أبو جعفر : ويعنى بقوله « تُثير الأرض » ، تقلبُ الأرض للحرث . يقال منه : « أثرت الأرض أثيرها إثارة » ، إذا قلّبتها للزرع . وإنما وصفها جل ثناؤه بهذه الصفة ، لأنها كانت — فيما قيل — وَحْشيّة .

١٢٥٤ — حدثنى يعقوب بن إبراهيم قال ، حدثنا هشيم قال ، أخبرنا جويبر ، عن كثير بن زياد ، عن الحسن قال : كانت وَحْشيّة .[2]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ مُسَلَّمَةٌ ﴾

قال أبو جعفر : ومعنى « مُسلّمة » « مفعّلة » من « السّلامة » . يقال منه : « سلِّمتْ تُسلَّم فهى مُسلَّمة » .

* * *

ثم اختلف أهل التأويل فى المعنى الذى سُلّمت منه ، فوصفها الله بالسلامة منه . فقال مجاهد بما : —

١٢٥٥ — حدثنا به محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « مسلّمة » ، يقول : مسلمة من الشّية ، و « لا شية فيها » ،

(١) فى المطبوعة : « تبين الأرض » ، وهو تصحيف .

(٢) الأثر : ١٢٥٤ — سلف قريباً برقم : ١٢٢١ .

لا بياضَ فيها ولا سواد .

١٢٥٦ – حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد مثله .

١٢٥٧ – حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج ، عن ابن جريج قال ، قال مجاهد : « مسلمة » ، قال : مسلَّمة من الشيَة ، « لاشِيَةَ فيها » ، لا بياضَ فيها ولا سواد .

* * *

وقال آخرون : مسلَّمة من العيوب . ذكر من قال ذلك :

١٢٥٨ – حدثنا بشر قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « مسلَّمة لاشيَة فيها » ، أي مسلَّمة من العيوب .

١٢٥٩ – حدثنا الحسن بن يحيي قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة : « مسلَّمة » ، يقول : لا عيب فيها .

١٢٦٠ – حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية : « مسلَّمة » ، يعني : مسلمة من العيوب .

١٢٦١ – حُدثت عن عمار قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بمثله .

١٢٦٢ – حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج قال ، قال ابن جريج ، قال ابن عباس قوله : « مسلمة » ، لا عَوارَ فيها .[١]

* * *

قال أبو جعفر : والذي قاله ابن عباس وأبو العالية ومن قال بمثل قولهما في تأويل ذلك ، أولى بتأويل الآية مما قاله مجاهد . لأن سَلامَتها لو كانت من سائر أنواع الألوان سِوَى لون جلدها ، لكان في قوله : « مسلَّمة » مُكتفًى عن قوله : « لاشيَةَ فيها » . وفي قوله « لاشِيَة فيها » ، ما يوضح عن أنّ معنى قوله : « مسلَّمة » ، غيرُ معنى قوله : « لاشية فيها » . وإذْ كان ذلك كذلك ، فمعنى الكلام : إنه

(١) العوار (بفتح العين ، وتضم) : العيب .

يقول إنها بقرة لم تذلَّلها إثارة الأرض وقلبُها للحراثة، ولا السُّنُوُّ عليها للمزارع،[1] وهي مع ذلك صحيحةٌ مسلَّمة من العيوب .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿لَاشِيَةَ فِيهَا﴾

قال أبو جعفر : يعني بقوله : « لاشية فيها »، لا لونَ فيها يخالف لونَ جلدها . وأصله من « وَشْيِ الثَّوب »، وهو تحسين عيوبه التي تكون فيه ، بضروب مختلفة من ألوان سَداه ولُحمته.[2] يقال منه : « وَشيب الثوب فأنا أشيه شِيةً ووَشْياً »، ومنه قيل للساعي بالرجل إلى السلطان أو غيره : « وَاشٍ »، لكذبه عليه عنده، وتحسينه كذَبه بالأباطيل . يقال منه : « وَشَيْتُ به إلى السلطان وِشايةً » ، ومنه قول كعب بن زهير :

تَسْعَى الْوُشَاةُ جَنَابَيْهَا، وقَوْلُهُمُ: إنّكَ يَاابْنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ[3]

و « الوُشاة جمع واش » ، يعني أنهم يتقوّلون بالأباطيل ، ويخبرونه أنه إن لحق بالنبي صلى الله عليه وسلم قتَله .

وقد زعم بعض أهل العربية أن « الوشْيَ » ، العلامة . وذلك لا معنى له ، إلا أن يكون أراد بذلك تحسينَ الثَّوب بالأعلام . لأنه معلوم أن القائل : « وشَيْت بفلان إلى فلان »، غيرُ جائز أن يُتوَهم عليه أنه أراد : جعلت له عنده علامة .

---

(١) انظر ما سلف في هذا الجزء : ٢١١ تعليق : ١

(٢) السدى : الأسفل من الثوب ، واللحمة : الأعلى منه يداخل السدى .

(٣) ديوانه : ١٩ ، وسيرة ابن هشام ٤ : ١٥٣ ، والروض الأنف ٢ : ٣١٤ ، والفائق (قحل) ، ورواية الديوان « بجنبيها » ورواية ابن هشام : « تسعى الغواة » . وقوله : « جنابيها » . والجناب : الناحية ، ويريد ناحية الجنب . يقال : «جنبيه ، وجانبيه ، وجنابيه » . والضمير في قوله : « جنابيها » لناقته التي ذكرها قبل . وقوله : « وقولهم : إنك ... » ، حال ، أي : وهم يقولون ، والمعنى يكثرون القول عليه : إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول ، كأنهم لا يقولون غير ذلك ، ترهيباً له وتخويفاً .

وإنما قيل : « لاشيةَ فيها » وهي من « وَشَيت » ، لأن «الواو» لما أسقطت من أولها أبدلتْ مكانَها «الهاءُ» في آخرها . كما قيل : «وَزنته زِنة» و « وسِن سِنة »[1] و « وَعدته عِدة » و « ودَيْتهُ دِية » .

٢٨٠/١

* * *

وبمثل الذي قلنا في معنى قوله : « لاشيةَ فيها » ، قال أهل التأويل :

١٢٦٣ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « لاشية فيها » ، أي لا بياض فيها .

١٢٦٤ — حدثنا الحسن قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة مثله .

١٢٦٥ — حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية : « لا شِيَة فيها » ، يقول : لا بياض فيها .

١٢٦٦ — حدثني محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : « لا شية فيها » ، أي لا بياض فيها ولا سواد .

١٢٦٧ — حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد مثله .

١٢٦٨ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا ابن إدريس ، عن أبيه ، عن عطية : « لا شية فيها » ، قال : لونها واحد ، ليس فيها سِوَى لونها .

١٢٦٩ — حدثني موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدي : « لا شية فيها » ، من بياض ولا سَواد ولا حمرة .

١٢٧٠ — حدثني يونس بن عبد الأعلى قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : « لا شية فيها » ، هي صفراء ، ليس فيها بياض ولا سواد .

١٢٧١ — حدثت عن عمار قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « لا شية فيها » ، يقول : لا بياض فيها .

* * *

---

(١) في المطبوعة : « ووسيته سية » ، وهو كلام لا أصل له ، وكأنه مصحف ما أثبت .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ قَالُوا ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله : « قالوا الآن جئتَ بالحق ». فقال بعضهم : معنى ذلك : الآن بيَّنت لنا الحق، فتبيَّناه، وعرَفنا أيَّة بقرة عَنيتَ.(١) وممن قال ذلك، قتادة :

١٢٧٢ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « قالوا الآنَ جئتَ بالحق »، أى الآن بيَّنتَ لنا .

* * *

وقال بعضهم : ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن القوْم أنهم َنسبوا نبي الله موسى صلواتُ الله عليه ، إلى أنه لم يكن يأتيهم بالحق فى أمر البقرة قبل ذلك . وممن روى عنه معنى هذا القول ، عبدُالرحمن بن زيد :

١٢٧٣ — حدثنى يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : اضطُرُّوا إلى بقرة لا َيعلمون على صفتها غيرَها ، وهى صفراء ليس فيها سواد ولا بياض، فقالوا: هذه بقرةُ فلان: « الآن جئت بالحق»، وقبل ذلك والله قد َجاءَهم بالحق .(٢)

* * *

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين عندنا بقوله: « قالُوا الآنَ جِئتَ بالحق»، قولُ قتادة . وهو أن تأويله : الآن بيَّنتَ لنا الحق فى أمر البقر ، فعرفنا أيُّها الواجبُ علينا َذبحها منها.(٣) لأن الله جل ثناؤه قد أخبر عنهم أنهم قد أطاعوه فذَبحوها، بعد

(١) فى المطبوعة : « فتبيناه وعرفناه أنه بقرة عينت » ، تصحيف وتحريف ، وهو فاسد جداً . مضى فى ص : ٢٠٩ نقض الطبرى لقول من زعم أنهم ظنوا أنهم أمروا بذبح بقرة بعينها . فسألوه أن يصفها لهم ليعرفوها ، وسمى قائل ذلك : جاهلا ، وشنّى فى بيان جهله ، فلو كان الله تعالى « عينها » لهم ، لبينُ لهم ما عين ، إذا أمر بذبحها .

(٢) الأثر : ١٢٧٣ — بعض الأثر : ١٢٤٧ ، وهنا زيادة عليه من تمامه .

(٣) فى المطبوعة : « الآن بينت لنا الحق فى أمر البقرة ، فعرفنا أنها الواجب علينا ذبحها منها » ، و « البقرة » و « أنها » تصحيف وتحريف ، يفسد معنى ما قال الطبرى آنفاً ص : ٢٠٩ ، وما سيأتى بعد هذه الجملة . وانظر التعليق السالف رقم : ١

قِيلهم هذا . مع غِلظ مؤونة ذَبحها عليهم، وثِقل أمرها ، فقال : « فذَبحوها وما كادوا يفعلون » ، وإن كانوا قد قالوا — بقولهم : الآن بيَّنت لنا الحق — هُراءً من القول، وأتوْا خطأً وَجهلاً من الأمر . وذلك أن نبيَّ الله موسى صلى الله عليه وسلم كانَ مبيِّناً لهم — فى كل مسألةٍ سألوها إيّاه، وردٍّ رادُّوه فى أمر البقر —[1] الحقَّ . وإنما يقال : « الآن بينت لنا الحق » ، لمن لم يكن مبيِّناً قبلَ ذلك، فأما من كان كُلَّ قيله — فيما أبانَ عن الله تعالى ذكره — حقًّا وبياناً، فغير جائز أن يقال له = فى بعض ما أبانَ عن الله فى أمره ونهيه ، وأدّى عنه إلى عباده من فرائضه التى أوجبها عليهم = : « الآن جئتَ بالحق » ، كأنه لم يكن جاءهم بالحق قبل ذلك !

* * *

وقد كان بعض من سَلف يزعُم أن القوم ارتدُّوا عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى : « الآن جئتَ بالحق » ، ويزعم أنهم نَفوْا أن يكون موسى أتاهم بالحق فى أمر البقرة قبل ذلك ، وأن ذلك من فعلهم وقيلهم كفر .

وليس الذى قال مِنْ ذلك عندنا كما قال، لأنهم أذعنوا بالطاعة بذبْحها ، وإن كان قيلُهم الذى قالوه لموسى جَهْلةً منهم ، وهفوَةً من هفواتهم . ١/٢٨١

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله : « فذَبحوها » ، فذبح قوم موسى البقرة ، التى وَصفها الله لهم وأمرَهم بذبحها .

ويعنى بقوله: « وَما كادُوا يَفعلونَ » ، أى : قاربوا أن يَدَعوا ذبحَها ، ويتركوا فرضَ الله عليهم فى ذلك .

* * *

ثم اختلف أهل التأويل فى السبب الذى من أجله كادوا أن يُضيعوا فرضَ الله عليهم ، فى ذبح ما أمرهم بذبحه من ذلك . فقال بعضهم : ذلك السببُ كان

(١) السياق : « كان مبيناً لهم . . . الحق » ، ما بينهما فصل ، كعادته فى الفصل .

غلاءَ ثمن البقرة التي أمِروا بذبحها ، وبُيِّنَت لهم صفتها * ذكر من قال ذلك :

١٢٧٤ - حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا أبو معشر المدني ، عن محمد بن كعب القُرَظيّ في قوله : «فذَبحوها وما كادُوا يَفعلون» قال : لغلاء ثمنها .

١٢٧٥ - حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد الهلالي قال ، حدثنا عبد العزيز ابن الخطاب قال ، حدثنا أبو معشر ، عن محمد بن كعب القرَظي : «فذَبحوها وما كادُوا يَفعلون» ، قال : من كثرة قيمتها .[1]

١٢٧٦ - حدثنا القاسم قال ، أخبرنا الحسين قال ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد - وحجاج ، عن أبي معشر ، عن محمد بن كعب القُرظي ومحمد بن قيس - في حديث فيه طول ، ذكر أن حديث بعضهم دخل في حديث بعض - قوله : «فذبحوها وما كادُوا يَفعلون» ، لكثرة الثمن ، أخذوها بملء مَسْكها ذهباً من مال المقتول ،[2] فكان سواءً ، لم يكن فيه فَضْل ، فذبحوها .

١٢٧٧ - حُدثت عن المنجاب قال ، حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : «فذبحوها وما كادُوا يفعلون» ، يقول : كادُوا لا يَفعلون ، ولم يكن الذي أرادوا ، لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها : وكل شيء في القرآن «كاد» أو «كادوا» أو «لو» ، فإنه لا يكون . وهو مثل قوله : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [سورة طه : ٢٠]

* * *

وقال آخرون : لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة ، إن أطلع الله على

---

(١) الخبر : ١٢٧٥ - محمد بن عبد الله بن عبيد بن عقيل الهلالي ، شيخ الطبري : ثقة ، روى عنه أيضاً أبو داود والنسائي وابن ماجة وغيرهم . مترجم في التهذيب ، ولم أجد له ترجمة في غيره . عبد العزيز ابن الخطاب الكوفي أبو الحسن : ثقة ، روى عنه أبو زرعة وأبو حاتم وغيرهما ، مترجم في التهذيب ، وابن أبي حاتم ٢/٢/٣٨١ . أبو معشر : هو نجيح - بفتح النون - بن عبد الرحمن السندي - بكسر السين - المدني ، وهو ضعيف . البخاري في الكبير ٤/٢/١١٤ ، وقال : «منكر الحديث» . وابن أبي حاتم ٤/١/٤٩٥ . محمد بن كعب القرظي : تابعي ثقة معروف .

(٢) المسك (بفتح فسكون) : جلد البقرة وغيرها من الحيوان .

قاتل القتيل الذى اختصموا فيه إلى موسى .

* * *

قال أبو جعفر : والصواب من التأويل عندنا : أن القوم لم يكادوا يفعلون ما أمرَهم الله به من ذبح البقرة ، للخلَّتين كلتيهما : إحداهما : غلاء ثمنها ، مع ما ما ذُكر لنا من صِغَر خطرها وقلة قيمتها؛ والأخرى : خوفُ عظيم الفضيحة على أنفسهم ، بإظهار الله نبيَّه موسى صلوات الله عليه وأتباعَه — على قاتله .

* * *

فأما غلاءُ ثمنها ، فإنه قد رُوى لنا فيه ضروب من الروايات :

١٢٧٨ — فحدثنى موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى . قال : اشتروها بوزنها عَشر مرات ذهباً ، فباعهم صاحبها إيّاها وأخذ ثمنها .

١٢٧٩ — حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال : حدثنا المعتمر بن سليمان قال ، سمعت أيوب ، عن محمد بن سيرين ، عن عَبيدة قال : اشتروها بملء جلدها دنانير .

١٢٨٠ — حدثنى محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد قال : كانت البقرة لرجل يَبَرُّ أمَّه ، فرزقه الله أن جعل تلك البقرة له ، فباعها بملء جلدها ذهباً .

١٢٨١ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل قال ، حدثنى خالد بن يزيد ، عن مجاهد قال : أعطوا صاحبَها ملء مَسْكِها ذهباً فباعها منهم .

١٢٨٢ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا إسمعيل بن عبد الكريم قال ، حدثنى عبد الصمد بن معقل ، أنه سمع وهباً يقول : اشتروها منه على أن يملأوا له جلدها دنانير ، ثم ذبَحوها فعمدوا إلى جلد البقرة فملأوه دنانير ، ثم دفعوها إليه .

١٢٨٣ — حدثنى محمد بن سعد قال حدثنى أبى قال ، حدثنى عمى[1]

---

(١) فى المطبوعة : « محمد بن سعيد قال حدثنى أبى ، قال حدثنى يحيى » ، وهذا ، خطأ ، والصواب ما أثبته . وقد مضى الكلام على هذا الإسناد وفى ١ : ٢٦٣ — ٢٦٤ ، وهو كثير الدوران فى تفسير الطبرى» ، وسيأتى بعد فى رقم : ١٢٩٠ على الصواب .

قال ، حدثنى أبى ، عن أبيه، عن ابن عباس قال : وجدُوها عند رجل يزعُم أنه ليس بائعَها بمال أبداً، ، فلم يزالوا به حتى جعلوا له أن يسلُخوا له مَسْكها ١/٢٨٢ فيملأوه له دنانير ، فرَضى به ، فأعطاهم إياها .

١٢٨٤ ـ حدثنى المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ،عن أبى العالية قال: لم يجدُوها إلا عند عجوز ، وإنّها سألتهم أضعاف ثمنها ، فقال لهم موسى : أعطوها رضَاها وُحكمها . ففعلوا ، واشتروها فذبحوها .

١٢٨٥ ـ حدثنا الحسن بن يحيي قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر قال ، قال أيوب ، عن ابن سيرين ، عن عبيدة قال: لم يجدوا هذه البقرةَ إلا عند رجل واحد ، فباعها بوزنها ذهباً ــ أو ملء َمسْكِها ذهباً ــ فذبحوها .

١٢٨٦ ـ حدثنى المثنى قال ، حدثنا آدم قال، حدثنا أبو جعفر ، عن هشام ابن حسان ، عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة السلمانى ، قال : وجدوا البقرة عند رجل، فقال: إنى لا أبيعها إلا بملء جلدها ذهباً: فاشتروها بملْءِ جلدها ذهباً.

١٢٨٧ ـ حدثنى يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : جعلوا يزيدون صاحبَها حتى ملأوا له َمسْكَها ــ وهو جلدها ــ ذهباً .

* * *

وأما صِغر َخطَرها وقلة قيمتها، فإن الحسن بن يحيي :ـ

١٢٨٨ ـ حدثنا قال، حدثنا عبد الرزاق قال،أخبرنا ابن عيينة قال، حدثنى محمد بن سوقة ، عن عكرمة قال : َما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير .

* * *

وأما ما ُقلنا من خوفهم الفضيحة على أنفسهم،فإن وهب بن منبه كان يقول: إن القوم إذْ أُمروا بذبح البقرة، إنما قالوا لموسى : «أتتخذنا ُهزُوا »، لعلمهم بأنهم سيفتضحون إذا ُذبحت ، فحادُوا عن ذبحها .

١٢٨٩ ـ حدثت بذلك عن إسمعيل بن عبد الكريم ، عن عبد الصمد بن معقل ، عن وهب بن منبه .

وكان ابن عباس يقول : إن القومَ ، بعد أنْ أحيا الله الميِّت فأخبرهم بقاتله،

أنكرت قتَلتُه قتله، فقالوا: والله ما قتلناهُ، بعد أن رأوا الآية والحق .

١٢٩٠ — حدثني بذلك محمد بن سعد قال ، حدثني أبي قال ، حدثني عمي قال ، حدثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا ﴾

قال أبو جعفر : يعني بقوله جل ثناؤه: « وإذْ قتلتم نفساً » ، واذكروا يا بني إسرائيل إذ قتلتم نفساً . « والنفسُ » التي قتلوها ، هي النفس التي ذكرنا قصّتها في تأويل قوله: « وإذْ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أنْ تذبحوا بقرة » .

* * *

وقوله: « فادّارأتُم فيها » ، يعني: فاختلفتم وتنازعتم. وإنما هو « تدارأتم فيها » على مثال « تفاعلتم » ، من الدَّرء . و « الدَّرْء » العوَج ، ومنه قول أبي النَّجم العِجلي:

خَشْيَةَ ضَغَّامٍ إذَا هَمَّ جَسَرْ يَأْكُلُ ذَا الدَّرْءِ ويُقْصِي مَنْ حَقَرْ[1]

يعني : ذا العِوج والعُسْر . ومنه قول رُؤبة بن العجّاج :

أَدْرَكْتُهَا قُدَّامَ كُلِّ مِدْرَهِ بِالدَّفْعِ عَنِّي دَرْءَ كُلِّ عُنْجُهِ[2]

---

(١) لم أجد البيت في مكان ، وكان في المطبوعة :

* خشية طغام إذا هم حسر *

وهو كلام مختل . والضغام من الضغم : وهو أن يملأ فمه مما أهوى إليه . وجسر يجسر جسوراً وجسارة : مضى ونفذ من شدة إقدامه .

(٢) ديوانه: ١٦٦ من قصيدة يصف بها نفسه. والضمير في قوله: « أدركتها » إلى ما سبق في رجزه.

* وَحقَّةٍ لَيْسَتْ بِقَوْلِ التُّرَّهِ *

وقوله : « حقة » ، يعني خصومة أو منافرة أو مفاخرة ، أو ما أشبه ذلك . والمدره : هو المدافع الذي يقدم عند الخصومة ، بلسان أو يد . والعنجه والعنجهي : ذو الكبر والعظمة حتى كاد يبلغ الجهل والحمق . ومنه العنجهية .

ومنه الخبر الذى : —

١٢٩١ — حدثنا به أبو كريب قال، حدثنا مصعب بن المقدام، عن إسرائيل، عن إبراهيم بن المهاجر، عن مجاهد، عن السائب قال : جاءنى عُثمانُ وزُهير ابنا أمية ، فأستأذنا لى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أعلم به منكما ، ألم تكن شَريكى فى الجاهلية ؟ قلت : نعم ، بأبى أنت وأمى، فنِعْمَ الشريكُ كنتَ لا تُمارِى ولا تُدارِى .(١)

---

(١) الحديث : ١٢٩١ — فى هذا الإسناد ضعف ، وفى الحديث نفسه اضطراب ، كما سيأتى :
أبو كريب : هو محمد بن العلاء بن كريب الحافظ ، ثقة كبير ، من شيوخ أصحاب الكتب الستة ، روى عنه الطبرى كثيراً . مات سنة ٢٤٨ . مصعب بن المقدام الخثعمى : ثقة ، وضعفه بعضهم ، وأخرج له مسلم فى صحيحه ، مترجم فى التهذيب، والكبير للبخارى ٤/١/٣٥٤ ، وابن أبى حاتم ٤/١/٣٠٨ إسرائيل : هو ابن يونس بن أبى إسحق السبيعى ، وهو ثقة حافظ معروف . إبرهيم بن المهاجر بن جابر البجلى : ثقة ، تكلم فيه بغير حجة ، وأخرج له مسلم . مترجم فى التهذيب ، والكبير للبخارى١/١/٣٢٨، وصرح بأنه سمع مجاهداً ، وابن أبى حاتم ١/١/١٣٢ — ١٣٣ . السائب : صحابى — كما هو ظاهر من هذا الحديث وغيره ، واختلف فيه كثيراً ، فقيل : « السائب بن أبى السائب صيفى بن عائذ . . . » ، وقيل : « السائب بن عبد الله المخزومى » ، بل قيل أيضاً : « قيس بن السائب » ! والذى جزم به البخارى فى الكبير ٢/٢/١٥٢ واقتصر عليه : « السائب بن أبى السائب القرشى المكى ، له صحبة » . وكذلك صنع ابن أبى حاتم ٢/١/٢٤٢ ، وقال : « منهم من يقول : له صحبة ، ومنهم من يقول : لأبيه صحبة . روى عنه مجاهد . يقال : إنه مولى مجاهد من فوق » . وفى الإصابة ٣ : ٦٠ نقلا عن ابن أبى شيبة ، أنه روى من طريق يونس بن خباب عن مجاهد : « كنت أقود السائب ، فيقول لى : يا مجاهد . . . » . ولو صح هذا لثبت اتصال الإسناد، لكن يونس بن خباب ضعيف .

والحديث روى أحمد فى المسند : ١٥٥٦٦ (٣ : ٤٢٥ حلبى) نحو معناه ، بزيادة ونقص ، عن أسود بن عامر ، عن إسرائيل ، عن إبرهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، « عن السائب بن عبد الله » ، ثم روى بعده مثله ، بمعناه ، مطولا ومختصراً ، من طرق ، وفى بعضها « عن مجاهد ، عن قائد السائب ، عن السائب » .

وروى أبو داود : ٤٨٣٦ ، نحوه ، من طريق الثورى ، عن إبرهيم بن المهاجر ، عن مجاهد ، عن قائد السائب ، عن السائب . وقال المنذرى فى تهذيب السنن : ٤٦٦٩ « وأخرجه النسائى وابن ماجة . . . وهذا الحديث قد اختلف فى إسناده اختلافاً كثيراً . وذكر أبو عمر يوسف بن عبد البر النمرى : أن هذا الحديث مضطرب جداً . . . وهذا الاضطراب لا تقوم به حجة » .

وقد وقع فى متن الحديث هنا خطأ ، لا ندرى : أهو من الرواية ، أم من الناسخين . وذلك قوله « جاءنى عثمان وزهير ابنا أمية » . فلا يوجد فى الصحابة من يسمى بهذا ولا بذاك . والصواب ما فى رواية المسند : ١٥٥٦٦ « جاء بى عثمان بن عفان ، وزهير » . وزهير : هو ابن أبى أمية ، أخو أم سلمة ، أم المؤمنين ، وهى بنت أبى أمية . كما بين ذلك فى الإصابة ٣ : ١٣ — ١٤ ، إذ قال : « وروى ابن مندة من طريق

يعنى بقوله « لا تُدَارى » ، لا تخالف رفيقك وشريكك ولا تنازعه ولا تُشارّه .

* * *

وإنما أصل «فادّارأتم » ، فتدارأتم ، ولكن التاء قريبة من مخرج الدال — وذلك أن مخرج التاء من طرف اللسان وأصول الشفتين ، ومخرج الدال من طرف اللسان وأطراف الثنيّتين — فأدغمت التاء فى الدال ، فجعلت دالاً مشدّدة كما قال الشاعر :

١/٢٨٣ تُولِى الضَّجِيعَ إِذَا مَا اسْتَافَهَا خَصِراً، عَذْبَ المَذَاقِ، إِذَا مَا اتَّابَعَ القُبَلُ(١)

يريد : إذا ما تتابع القُبَل ، فأدغم إحدى التاءين فى الأخرى . فلما أدغمت التاء فى الدّال فجعلت دالاً مثلها ، سكنت ، فجلبوا ألفاً ليصلوا إلى الكلام بها ، وذلك إذ كان قبله شىء ، لأن الإدغام لا يكون إلاّ وقبله شىء ، ومنه قول الله جل ثناؤه : ﴿ حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً ﴾ [سورة الأعراف : ٣٨] ، إنما هو « تداركوا » ، ولكن التاء منها أدغمت فى الدال ، فصارت دالاً مشدّدة ، وجعلت فيها ألف — إذ وُصِلت بكلام — قبلها ليسلم الإدغام . وإذا لم يكن قبل ذلك ما يُواصله وابتدئ به ، قيل : تداركوا ، وتثاقلوا ، فأظهروا الإدغام . وقد قيل يقال : « ادّاركوا ، وادّارأوا » » .

وقد قيل إن معنى قوله : «فادّارأتم فيها» ، فتدافعتم فيها . من قول القائل : «درأت هذا الأمر عنى » ، ومن قول الله ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ ﴾ [سورة النور : ٨] ، بمعنى

مجاهد ، عن السائب شريك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ذهب بنى عثمان ، وزهير بن أبى أمية . . . »

وانظر نسب قريش للمصعب ، ص : ٣٣٣ . حيث جزم بأن « السائب بن أبى السائب صيفى » قتل يوم بدر كافراً ؛ وانظر أيضاً الإشارة إلى أصل القصة فى الإصابة ٣ : ١٣ — ١٤ ، ٦٠ ، و ٤ : ٧٤ ، و ٥ : ٢٥٣ — ٢٥٤ . والموضوع لا يزال محتاجاً إلى تحقيق وبحث .

(١) لم أعرف قائله ، وسيأتى فى ١٠ : ٩٤ (بولاق) ، وفى المطبوعة هنا « اشتاقها » وهو خطأ والصحيح ما أثبته من هناك . وساف الشىء يسوفه سوفاً واستافه : دنا منه وشمه . واستعاره للقبلة ، كما استعاروا الشم للقبلة ، لأن دنو الأنف يسبق ما أراد المريد . قال الراعى يصف ما يصف من القبلة :

يَثْنِى مُسَاوِفُهَا غُضْرُوفَ أَرْنَبَةٍ شَمَّاءَ ، مِن رَخْصَةٍ فِي جِيدِهَا غَيَدُ

قال الزمخشرى : « ساوفها » ضاجعها ، ولكنه فى البيت : الذى يقبل .

يدفع عنها العذابَ وهذا قولٌ قريبُ المعنى من القول الأول لأن القوم إنما تدافعوا قَتْل قتيل، فانتفَى كل فريق منهم أن يكون قاتِلَه، كما قد بينا قبلُ فيما مضى من كتابنا هذا .(١) وبنحو الذى قلنا فى معنى قوله : « فادّارَأتم فيها » قال أهل التأويل :

١٢٩٢ — حدثنى محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنى عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله: « فادّارَأتم فيها »، قال : اختلفتم فيها .

١٢٩٣ — حدثنا المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

١٢٩٤ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج . «وإذْ قتلتمْ نفساً فادّارأتم فيها »، قال بعضُهم: أنتم قتلتموه . وقال الآخرون : أنتم قتلتموه

١٢٩٥ — حدثنى يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد فى قوله «فادّارأتم فيها » ، قال: اختلفتم. وهو التنازع . تنازعوا فيه قال : قال هؤلاء: أنتم قتلتموه . وقال هؤلاء لا .

* * *

وكان تدارُؤهم فى النفس التى قتلوها كما : —

١٢٩٦ — حدثنى محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد قال : صاحب البقرة رجلٌ من بنى إسرائيل ، قتله رجلٌ فألقاه على باب ناس آخرين ، فجاء أولياءُ المقتول فادّعوا دمَه عندهم، فانتفوا — أو« انتفلوا » — منه . شكّ أبو عاصم .(٢)

١٢٩٧ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن

(١) انظر ما سلف رقم : ١١٧٢ ، ١١٨٠ .

(٢) انتفل من الشىء : انتفى منه وتبرأ ، وأنكر أن يكون فعله أو عرفه وفى حديث ابن عمر : « إن فلاناً انتفل من ولده » أى تبرأ منه .

ابن أبي نجيح ، عن مجاهد بمثله سواء — إلا أنه قال : فادّعوا دَمَه عندهم فانتفَوْا — ولم يشك — منه .[1]

١٢٩٨ — حدثنا بشر قال، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال : قتيلٌ كان في بني إسرائيل . فقذَف كل سبط منهم [سبطاً به] ،[2] حتى تفاقم بينهم الشرُّ ، حتى ترافعوا في ذلك إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم . فأوحى الله إلى موسى : أن اذبحْ بقرة فاضرب ببعضها . فذُكر لنا أنّ وليه الذي كان يطلب بدَمه هو الذي قتله ، من أجل ميراث كان بينهم .

١٢٩٩ — حدثني ابن سعد قال حدثني عمي قال حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس في شأن البقرة. وذلك أن شيخاً من بني إسرائيل على عهد موسى كان مكثراً من المال وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم، وكان الشيخ لا ولد له ، وكان بنُو أخيه ورثته . فقالوا ليتَ عمّنا قدْ مات فورِثنا ماله ! وأنه لما تطاول عليهم أن لا يموت عمُّهم، أتاهم الشيطانُ فقال : هلْ لكم إلى أنْ تقتلوا عمكم ، فترثوا ماله، وتُغرِموا أهل المدينة التي لستم بها ديتَه ؟ — وذلك أنهما كانتا مدينتين ، كانوا في إحداهما ، فكان القتيل إذا قُتل وُطرح بين المدينتين ، قيس ما بين القتيل وبين المدينتين ، فأيهما كانت أقرب إليه غرِمت الديةَ — وأنهم لما سوَّل لهم الشيطان ذلك ، وتطاول عليهم أن لا يموتَ عمهم ، عَمدوا إليه فقتلوه ، ثم عَمدوا فطرحوه على باب المدينة التي ليسوا فيها . فلما أصبح أهل المدينة ، جاء بنو أخي الشيخ ١/٢٨٤ فقالوا : عمُّنا ، قُتل على باب مدينتكم ، فوالله لتغرَمُن لنا دية عمِّنا. قال أهل المدينة : نقسم بالله ما قَتلنا ولا علمنا قاتلاً ، ولا فتحنا بابَ مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا . وأنهم عَمدوا إلى موسى ، فلما أتوا قال بنو أخي الشيخ : عمُّنا وجدناهُ مقتولا على باب مدينتهم . وقال أهل المدينة : نقسم بالله ما قتلناه ، ولا فتحنا بابَ المدينة من حين أغلقناهُ حتى أصبحنا . وأن جبريل جاء بأمر ربِّنا السميع العليم إلى موسى ،

(١) في المطبوعة : « ولم يشك فيه » ، وهو خطأ وتصحيف . « لم يشك » فاصلة بين الفعل وحرفه .

(٢) الزيادة بين القوسين ، لا بد منها ليستقيم معناه ، وأخشى أن يكون كان في الأصول تحريف لم أعثر على صوابه .

فقال : قل لهم : إن الله يأمرُكم أن تذبَحوا بقرة فتضربوه ببعضها .

١٣٠٠ – حدثنا القاسم قال، حدثنا حسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد – وحجاج، عن أبى معشر عن محمد بن كعب القرظى ومحمد بن قيس – دخل حديث بعضهم فى حديث بعض ، قالوا : إن سِبْطاً من بنى إسرائيل، لمّا رأوا كثرةَ شرور الناس ، بنوا مدينة فاعتزلوا شرورَ الناس ، فكانوا إذا أمسوْا لم يتركوا أحد منهم خارجاً إلا أدخلوه، وإذا أصبحوا قام رئيسُهم فنظر وتَشرَّف ،[1] فإذا لم ير شيئاً فتح المدينة، فكانوا مع الناس حتى يُمسوا . وكان رجل من بنى إسرائيل له مال كثير ، ولم يكن له وارثٌ غيرُ ابن أخيه ، فطالَ عليه حياته ، فقتَله ليرثه ، ثم حمله فوضعه على باب المدينة ، ثم كَمَنَ فى مَكان هو وأصحابه . قال : فتشرَّف رئيس المدينة على باب المدينة ، فنظر فلم ير شيئاً . ففتح الباب ، فلما رأى القتيلَ ردَّ الباب: فناداه ابن أخى المقتول وأصحابه: هيهات ! قتلتموه ثم تردُّون البابَ ؟ وكان موسى لما رأى القَتْل كثيراً فى أصحابه بنى إسرائيل ،[2] كان إذا رأى القتيلَ بين ظَهرَىْ القوم . أخذَهم . فكاد يكون بين أخى المقتول وبين أهل المدينة قتال ، حتى لَبِس الفريقان السلاح ، ثم كفَّ بعضهم عن بعض . فأتوا موسى فذكروا له شأنهم ، فقالوا : يا رسول الله ، إن هؤلاء قتلوا قتيلاً ثم رَدُّوا الباب. وقال أهل المدينة : يا رسول الله ، قد عرفتَ اعتزالنا الشرورَ ، وبَنيْنا مدينة – كما رأيتَ – نعتزلُ شرورَ الناس، ما قتَلْنا ولا علِمنا قاتلاً . فأوحى الله تعالى ذكره إليه : أنْ يذبحوا بقرةً ، فقال لهم موسى : إن الله يأمرُكم أن تَذبَحوا بقرة .

١٣٠١ – حدثنى المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة قال : كان فى بَنى إسرائيل رجل عَقيمٌ وله مال كثير ، فقتله ابن أخ له ، فجرّه فألقاه على باب ناس آخرين .

(١) تشرف الشيء واستشرفه: وضع يده على حاجبه كالذى يستظلّ من الشمس ، حتى يبصره و يستبينه.
(٢) لعل الصواب : « كثر فى أصحابه » .

ثم أصبحوا ، فادّعاه عليهم ، حتى تسلّح هؤلاء وهؤلاء ، فأرادوا أن يقتتلوا ، فقال ، ذوو النهى منهم : أتقتتلون وفيكم نبي الله ؟ فأمسكوا حتى أتوا موسى ، فقصّوا عليه القصة ، فأمرهم أن يذبحوا بقرة فيضربوه ببعضها ، فقالوا : أتتخذنا هُزُوًا؟ قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين .

١٣٠٢ — حدثني يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : قَتيلٌ من بني إسرائيل ، طُرح في سبط من الأسباط ، فأتى أهل ذلك السبط إلى ذلك السبط فقالوا : أنتم والله قتلتم صاحبنا . فقالوا : لا والله . فأتوا إلى موسى فقالوا: هذا قتيلنا بين أظهُرِهم ، وهم والله قتلوه . فقالوا : لا والله يا نبي الله ، طُرِح علينا . فقال لهم موسى صلى الله عليه وسلم : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة .

* * *

قال أبو جعفر : فكان اختلافُهم وتنازُعهم وخصامُهم بينهم — في أمر القتيل الذي ذكرنا أمره ، على ما روينا عن علمائنا من أهل التأويل — هو « الدَّرْء » الذي قال الله جل ثناؤه لذرِّيتهم وبقايا أولادهم : « فادّارأتم فيها والله مُخرجٌ ما كنتم تكتمون » .

* * *

القول في تأويل قوله ﴿ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (٧٢)

قال أبو جعفر : يعني بقوله : « واللهُ مُخرج ما كنتم تكتمون » ، والله معلن ما كنتم تُسِرُّونه من قَتل القتيل الذي قَتلتم ، ثم ادارأتم فيه . ١/٢٨٥

* * *

ومعنى « الإخراج » — في هذا الموضع — الإظهارُ والإعلان لِمَنْ خفي ذلك عنه ، وإطلاعُهم عليه ، كما قال الله تعالى ذكره : ﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [سورة النمل : ٢٧] ، يعني بذلك : يُظهره ويطلِعه من مَخبئه بعد خفائه .

* * *

والذي كانوا يكتمونه فأخرجه ، هو قتلُ القاتلِ القتيلَ . لما كتم ذلك ،

القاتلُ وَمن َعلمه ممن شايعه على ذلك ،[1] َحتى أظهره الله وأخرَجه ، فأعلن أمرَه لمن لا يعلم أمره .

* * *

وعنى جل، ذكره بقوله: « تكتمون »، ُتسرُّون وتُغيِّبون، كمَا : —

١٣٠٣ — حدثنا محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد فى قول الله : « والله ُمخرجٌ ما كنتم تكتمون »، قال : تغيِّبُون .

١٣٠٤ — حدثنى المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : « ما كنتم َتكتمون » ، ما كنتم تُغيِّبون .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾

قال أبو جعفر : يعنى جل ذكره بقوله: « َفقلنا » ، فقلنا لقوم موسى الذين ادّارؤا فى القتيل[2] — الذى قد تقدم وصفُنا أمره — : اضربوا القتيلَ . و « الهاء » التى فى قوله: « اضربوه »، من ذكر القتيل؛ « ببعضها » أى : ببعض البقرة التى أمرَهم الله بذبحها فذَبحوها .

* * *

ثم اختلف العلماءُ فى البعض الذى ُضرب به القتيل من البقرة ، وأى عضو كان ذلك منها . فقال بعضهم : ُضرب بفخذ البقرة القتيلُ . ذكر من قال ذلك :

١٣٠٥ — حدثنى محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : ُضرب بفخذ البقرَة فقام حيًّا ، فقال: َقتلنى فلانٌ . ثم عاد فى ميتَته .

---

(١) « ذلك» فى قوله : « لما كتم ذلك » مفعول ،هو كناية عن قوله : « هو قتل القاتل القتيل »

(٢) فى المطبوعة : « . . . بقوله فقلنا لقوم موسى » ، والصواب زيادة لفظ الآية ، كما فعلت .

١٣٠٦ — حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : ضُرب بفخذ البقرة ، ثم ذكر مثله .

١٣٠٧ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا جابر بن نوح ، عن النضر بن عربي ، عن عكرمة : « فقلنا اضربوه ببعضها » ، قال : بفخذها ، فلما ضُرب بها عاش ، وقال : قتلني فلان . ثم عاد إلى حاله .[1]

١٣٠٨ — حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن خالد بن يزيد ، عن مجاهد قال : ضُرب بفخذها الرجلُ ، فقام حيًّا فقال : قتلني فلان . ثم عاد في ميتته .

١٣٠٩ — حدثنا الحسن بن يحيي قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر قال ، قال أيوب ، عن ابن سيرين ، عن عبيدة : ضربوا المقتول ببعض لحمها — وقال معمر ، عن قتادة — : ضربوه بلحم الفخذ فعاش ، فقال : قتلني فلان .

١٣١٠ — حدثنا بشر قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال : ذُكر لنا أنهم ضربوه بفخذها ، فأحياه الله فأنبأ بقاتله الذي قتله ، وتكلّم ثم مات .

* * *

وقال آخرون : الذي ضُرب به منها ، هو البَضْعةُ التي بين الكتفين .[2]

* ذكر من قال ذلك :

١٣١١ — حدثني موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدي : « فقلنا اضربوه ببعضها » ، فضربوه بالبَضْعة التي بين الكتفين فعاش ، فسألوه : من قتلك ؟ فقال لهم : ابن أخي .

---

(١) الخبر : ١٣٠٧ — النضر بن عربي الباهلي : ثقة من أتباع التابعين ، وثقه ابن معين وغيره ، مات سنة ١٦٨ ، مترجم في التهذيب ، والكبير للبخاري ٤/٢/٨٩ ، وابن أبي حاتم ٤/١/٤٧٥ .

(٢) البضعة : القطعة من اللحم ، من قولهم : بضع اللحم : قطعه .

وقال آخرون: الذى أمروا أن يضربوه به منها، عظمٌ من عظامها.

• ذكر من قال ذلك:

١٣١٢ — حدثنى المثنى قال، حدثنا آدم قال، حدثنا أبو جعفر، عن الربيع، عن أبى العالية قال: أمرهم موسى أن يأخذوا عظماً منها فيضربوا به القتيل. ففعلوا، فرجع إليه رُوحه، فسمَّى لهم قاتله، ثم عاد ميتاً كما كان. فأخذ قاتله، وهو الذى أتى موسى فشكا إليه، فقتله الله على أسوإ عمله.

* * *

وقال آخرون بما : —

١٣١٣ — حدثنى به يونس بن عبد الأعلى قال، أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد: ضرَبوا الميِّت ببعض آرابها فإذا هو قاعد —[1] قالوا: من قتلك؟ قال: ابن أخى. قال: وكان قتله وطرحه على ذلك السِّبط، أراد أن يأخذ ديته.

* * *

قال أبو جعفر: والصواب من القول عندنا فى تأويل قوله: « فقلنا اضربوه ببعضها »، أنْ يقال: أمرهم الله جل ثناؤه أن يضربُوا القتيلَ ببعض البقرة ليحيا المضروبُ. ولا دلالةَ فى الآية، ولا [فى] خبر تقوم به حجة،[2] على أىّ أبعاضها التى أمر القوم أن يضربُوا القتيل به. وجائز أن يكونَ الذى أمِروا أن يضربوه به هو الفخذ، وجائزٌ أن يكون ذلك الذَّنبُ وغضروفُ الكتف، وغيرُ ذلك من أبعاضها. ولا يضرّ الجهل بأىِّ ذلك ضربوا القتيل، ولا ينفع العلم به، مع الإقرار بأن القوم قد ضربوا القتيل ببعض البقرة بعد ذبحها فأحياه الله. ١/٢٨٦

* * *

قال أبو جعفر: فإن قال قائل: وما كان معنى الأمر بضرب القتيل ببعضها؟

قيل: ليحيا فينبئَ نبىَّ الله موسى صلى الله عليه وسلم والذين ادارؤا فيه — مَنْ قاتلُه.

---

(١) آراب جمع إرب (بكسر فسكون): وهو العضو، يقال: قطعه إرباً إرباً، أى عضواً عضواً.

(٢) الزيادة بين القوسين، أولى من حذفها.

فإن قال : وأين الخبر عن أنّ الله جل ثناؤه أمرَهم بذلك لذلك ؟

قيل: تُرِك ذلك اكتفاءً بدلالة ما ذكر من الكلام الدالّ عليه — نحوَ الذى ذكرنا من نظائر ذلك فيما مضى . ومعنى الكلام : فقلنا اضربوه ببعضها ليحيا ، فضربوه فحيي — : كما قال جل ثناؤه: ﴿أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ﴾ [سورة الشعراء : ٦٣] ، والمعنى : فضرَب فانفلق — دلّ على ذلك قوله:[1] «كذلك يُحيي الله الموتى ويُريكم آياته لعلكم تعقلون »

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾

قال أبو جعفر : وقوله : « كذلك يُحيي الله الموتى »، مخاطبةٌ من الله عبادَه المؤمنين ، واحتجاجٌ منه على المشركين المكذبين بالبعث ، وأمرُهم بالاعتبار بما كان منه جل ثناؤه من إحياء قتيل بنى إسرائيل بعد مماته فى الدنيا . فقال لهم تعالى ذكره : أيها المكذبون بالبعث بعدَ الممات ، اعتبروا بإحيائى هذا القتيل بعد مماته ، فإنى كما أحييته فى الدنيا ، فكذلك أحيي الموتَى بعد مماتهم ، فأبعثهم يوم البعث .

وإنما احتج جل ذكره بذلك على مشركى العرب ،[2] وهم قومٌ أمّيّون لا كتابَ لهم ، لأن الذين كانوا يعلمون عِلم ذلك من بنى إسرائيل كانوا بين أظهُرِهم ، وفيهم نزلت هذه الآياتُ . فأخبرهم جل ذكره بذلك ، ليتعرفوا عِلم مَنْ قِبَلهم .

* * *

---

(١) فى المطبوعة : « يدل على ذلك قوله . . . » ، وليست بشىء .

(٢) فى المطبوعة : « فإنما احتج . . . » ، والفاء ليست بشىء هنا .

القول فى تأويل قوله تعالى﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٧٣)

قال أبو جعفر : يعنى جل ذكره : ويريكم الله أيها الكافرون المكذّبون بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبما جاء به من عند الله — من آياته = وآياته : أعلامُه وحججه الدالةَ على نبوّته =[1] لتعقلوا وتفهموا أنه مُحِق صادق ، فتؤمنوا به وتتّبعوه .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بذلك كفار بنى إسرائيل ، وهم — فيما ذكر — بنو أخى المقتول ، فقال لهم : « ثم قَستْ قُلوبكم » ، أى جَفَّت وَغلظت وَعسَتْ ، كما قال الراجز :

* وَقدْ قسَوْتُ وَقسا لِدَاتِى *[2]

يقال « قسا » و « عسا » و « عتا » بمعنى واحد ، وذلك إذا جَفا وغلظ وصلُب. يقال : منه : « قَسا قلبه يَقسُو قَسْوًا وَقسْوَة وقسَاوةً وَقسَاءً » .[3]

* * *

ويعنى بقوله : « من بَعد ذلك » ، من بعد أن أحيا المقتولَ لهم — الذى ادارأوا

---

(١) انظر ما سلف ١ : ٥٥٢ ، وهذا الجزء ٢ : ١٣٩

(٢) لم أعرف قائله ، وسيأتى فى ٦ : ٩٩ (بولاق) ، وكان فى الأصل هنا « وقسا لدنى » ، وهو خطأ . ولداتى جمع لدة ، ولدة الرجل : تربه ، ولد معه . وقسا هنا بمعنى : أسن وكبر وولى شبابه ، وجف عوده . ولم ترد بذلك المعنى فى المعاجم .

(٣) أنا فى شك فى ضبطه المصدر الأول من هذه المصادر الأربعة وهو « قسوا » ، وتبعت فى ضبطه القاموس المحيط ، وإن كان قد ضبط بالقلم ، وأخشى أن يكون مصدراً على « فعول » مثل دنا يدنو دنواً ، وسما يسمو سمواً .

فى قتله ، فأخبرَهم بقاتله ، وبالسبب الذى من أجله قتله ،[1] كما قد وصفنا قبل على ما جاءت الآثار والأخبار — وفصل الله تعالى ذكره بخبره بين المحق منهم والمبطل . وكانت قساوة قلوبهم التى وصفهم الله بها ، أنهم — فيما بلغنا — أنكروا أن يكونوا هُم قتلوا القتيلَ الذى أحياه الله، فأخبر بنى إسرائيل بأنهم كانوا قَتَلَته، بعد إخباره إياهم بذلك ، وبعد ميتته الثانية ، كما : —

١٣١٤ — حدثنى محمد بن سعد قال ، حدثنى أبى قال، حدثنى عمى قال ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : لما ضُرب المقتول ببعضها — يعنى ببعض البقرة — جلس حيًّا ، فقيل له : من قتلك ؟ فقال : بنو أخى قتلونى . ثم قُبض فقال بنو أخيه حين قُبض : والله ما قتلناه ! فكذَّبوا بالحقّ بعد إذ رأوه ، فقال الله : « ثم قَستْ قلوبكم من بَعد ذلك » — يعنى بنى أخى الشيخ — « فهى كالحجارة أو أشد قَسوةً » .

٢٨٧/١ ١٣١٥ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد، عن سعيد ، عن قتادة : « ثم قَست قُلوبكم من بَعد ذلك »، يقول: من بعد ما أراهم الله من إحياء الموتى، وبعدَما أراهم من أمر القتيل — مَا أراهم ، « فهى كالحجارة أو أَشدُّ قَسوة » .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿فَهِىَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله : « فهى » : « قلوبكم » . يقول : ثم صلبت قلوبكم — بعد إذ رأيتم الحق فتبيَّنتموه وعرفتموه — عن الخضوع لهُ ، والإذعان لواجب حق الله عليكم ،فقلوبكم كالحجارة صَلابة ويُبْساً وغِلَظاً وشِدَّة، « أو أشدّ قَسوةً » ،

(١) فى المطبوعة : « وما السبب » وليست بشىء .

(٢) سياق العبارة بلا فصل « من بعد أن أحيي المقتول لهم . . . وفصل بخبره بين المحق منهم والمبطل » .

يعنى : قلوبُهم — عن الإذعان لواجب حق الله عليهم ، والإقرار له باللازم من حقوقه لهم — أشدّ صلابةً من الحجارة .(١)

* * *

فإن سأل سائل فقال: وما وجه قوله : « فهى كالحجارة أو أشدُّ قسوة »، و « أو» عند أهل العربية ، إنما تأتى فى الكلام لمعنى الشك ، والله تعالى جل ذكره غيرُ جائزٍ فى خبره الشك ؟

قيل : إن ذلك على غير الوجه الذى توهّمته، من أنه شك من الله جل ذكره فيما أخبر عنه ، ولكنه خبرٌ منه عن قلوبهم القاسية ، أنها — عند عباده الذين هُم أصحابها ، الذين كذبوا بالحق بعد ما رأوا العظيم من آيات الله — كالحجارة قسوةً أو أشد من الحجارة ، عندهم وعند من عرف شأنهم

* * *

وقد قال فى ذلك جماعة من أهل العربية أقوالاً . فقال بعضهم : إنما أراد الله جل ثناؤه بقوله « فهى كالحجارة أو أشدُّ قسوةً »، وما أشبه ذلك من الأخبار التى تأتى بـ «أو» كقوله ﴿وأَرْسَلْنَاهُ إلى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُون﴾ [سورة الصافات: ١٤٧] ، وكقول الله جل ذكره ﴿ وإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِين ﴾ [سورة سبأ: ٢٤] — [الإبهامَ على من خاطبه]،(٢) فهو عالمٌ أىُّ ذلك كان . قالوا : ونظير ذلك قول القائل : « أكلتُ بُسرة أو رُطَبَة » ، وهو عالمٌ أىَّ ذلك أكل ، ولكنه أبهم على المخاطب ، كما قال أبو الأسْوَد الدُّؤَلىّ :

أُحِبُّ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا وَعَبَّاساً وحَمْزَةَ وَالوَصِيَّا (٣)

---

(١) كانت هذه الجملة فى المطبوعة هكذا : « كالحجارة صلابة و يبساً وغلظاً وشدة ، أو أشد صلابة ، يعنى قلوبكم عن الإذعان لواجب حق الله عليهم ، والإقرار له باللازم من حقوقه لهم من الحجارة ». وكأنها سهو من الناسخ ، فرددته إلى أصله بحمد الله .

(٢) ما بين القوسين زيادة لابد منها حتى يستقيم الكلام ، استظهرته من قوله بعد : « ولكنه أبهم على المخاطب » ، ومن تفسير ابن كثير ١ : ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٣) ديوانه : ٣٢ (من نفائس المخطوطات) ، والأغانى ١١ : ١١٣ ، وإنباه الرواة ١ : ١٧ ، وسيأتى البيت الثانى وحده فى ٢٢ : ٦٥ (بولاق) ورواية الديوان : « وفيهم أسوة إن كان غيا » .

فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رَشَدًا أُصِبْه ... وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غَيًّا

قالوا: ولاشك أن أبا الأسود لم يكن شاكًّا فى أن حُبَّ من سَمَّى — رَشَدٌ، ولكنه أبهم على من خاطبه به . وقد ذُكر عن أبى الأسود أنه لما قال هذه الأبيات قيل له : شككت ! فقال : كلا والله ! ثم انتزع بقول الله عز وجل: « وإنا أو إياكُمْ لَعلى هُدًى أَوْ فى ضَلال مُبين »، فقال: أوكان شاكًّا — من أخبرَ بهذا — فى الهادى من الضلال .[1]

* * *

وقال بعضهم : ذلك كقول القائل : « ما أطعمتك إلا حُلواً أو حامضاً »، وقد أطعمه النوعين جميعاً . فقالوا: فقائل ذلك لم يكن شاكًّا أنه قد أطعم صاحبَه الحلوَ والحامضَ كليهما ، ولكنه أراد الخبر عمَّا أطْعمه إياه أنه لم يخرج عن هذين النوعين. قالوا: فكذلك قوله: « فهى كالحجارة أو أشد قسوة »، إنّما معناه: فقلوبهم لا تخرج من أحد هذين المثَلين، إما أن تكون مِثْلاً للحجارة فى القسوة ، وإما أن تكون أشدَّ منها قسوة . ومعنى ذلك على هذا التأويل : فبعضُها كالحجارة قسوةً ، وبعضُها أشدُّ قسوة من الحجارة .

* * *

وقال بعضهم: « أو » فى قوله: « أو أشدّ قسوة » ، بمعنى ، وأشد قسوة ، كما قال تبارك . وتعالى : ﴿ ولاَ تُطِعْ مِنْهُم آثِماً أَوْ كَفُورًا ﴾ [سورة الإنسان : ٢٤] بمعنى : وكفُوراً، وكما قال جرير بن عطية :

نَالَ الخِلاَفَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدَرًا ... كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرِ[2]

يعنى : نال الخلافة ، وكانت له قدَراً، وكما قال النابغة :

٢٨٨ قَالَتْ :أَلاَ لَيْتَمَا هٰذَا الْحَمَامُ لَنَا ... إِلَى حَمَامَتِنَا، أَوْ نِصْفُهُ فَقَدِ[3]

(١) قوله « فى الهادى من الضلال » يعنى نبيه صلى الله عليه وسلم . وعبارة الأغانى : « أفترى الله عز وجل شك فى نبيه » .

(٢) سلف هذا البيت وتخريجه فى ١ : ٣٣٧ .

(٣) ديوانه : ٣٢ ، وروايته هناك « ونصفه» . وهو من قصيدته المشهورة التى يعتذر فيها

يريد . ونصفه .

* * *

وقال آخرون، « أو » فى هذا الموضع بمعنى « بل » ، فكأن تأويله عندهم : فهى كالحجارة بل أشد قسوة ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وأَرْسَلناه إلى مِئَة أَلفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [سورة الصافات : ١٤٧] ، بمعنى : بل يزيدون .

* * *

وقال آخرون : معنى ذلك فهى كالحجارة ، أو أشد قسوةً عندكم .

* * *

قال أبو جعفر : ولكلٍّ مما قيل من هذه الأقوال التى حكينا وجهٌ ومَخرج فى كلام العرب. غيرَ أن أعجبَ الأقوال إلىّ فى ذلك ما قلناهُ أوّلاً ، ثم القولُ الذى ذكرناه عمن وجّه ذلك إلى أنه بمعنى : فهى أوجُهٌ فى القسوة : إما أن تكون كالحجارة، أو أشدّ، [(١)] على تأويل أن منها كالحجارة، ومنها أشدّ قسوةً. لأن « أو » ، وإن استُعملت فى أماكنَ من أماكن « الواو » حتى يلتبس معناها ومعنى « الواو » ، لتقارب معنييهما فى بعض تلك الأماكن — [(٢)] فإنّ أصلها أن تأتى بمعنى أحد الاثنين . فتوجيهها إلى أصلها — ما وَجدْنا إلى ذلك سبيلاً — [(٣)] أعجبُ إلىّ من إخراجها عن أصلها ، ومعناها المعروف لها .

* * *

قال أبو جعفر : وأما الرفع فى قوله : « أو أشد قسوة » ، فمن وجهين :

أحدهما : أن يكون عطفاً على معنى « الكاف » فى قوله : « كالحجارة » ، لأن معناها الرفع . وذلك أن معناها معنى « مثل » ، [فيكون تأويله] [(٤)] : فهى مثل الحجارة أو أشد قسوة من الحجارة .

إلى النعمان . والضمير فى قوله : « قالت » إلى « فتاة الحى » ، المذكورة فى شعر قبله ، وهى زرقاء اليمامة. وهو خبر مشهور ، لا نطيل بذكره .

(١) فى المطبوعة : « فهى أوجه فى القسوة من أن تكون كالحجارة أو أشد » ، واستظهرت تصويبه مما مضى آنفاً ، ومن تأويله بعد ، فوضعت « إما » مكان « من » .

(٢) انظر ما سلف فى ١ : ٣٢٧ — ٣٢٨ .

(٣) فى المطبوعة : « من وجد إلى ذلك سبيلا » . وهو خطأ .

(٤) زدت ما بين القوسين ، ليستقيم الكلام .

والوجه الآخر : أن يكون مرفوعاً ، على معنى تكرير « هى » عليه . فيكون تأويل ذلك: فهى كالحجارة ، أو هى أشد قسوة من الحجارة .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ذكره « وإن من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار » : وإن من الحجارة حجارةً يتفجر منها الماءُ الذى تكون منه الأنهار ، فاستغنى بذكر الأنهار عن ذكر الماء.[1] وإنما ذكّر فقال « منه »، للفظ « ما ».[2]

* * *

« والتفجّر » «التفعّل» من « تفجّر الماء »،[3] وذلك إذا تنزّل خارجاً من مَنبعه. وكل سائل َشخَص خارجاً من موضعه ومكانه ، فقد « انفجر » ، ماءً كان ذلك أو دماً أو صَديداً أو غير ذلك ، ومنه قول عمر بن لجأ :

وَلَمَّا أنْ قُرِنتُ إلَى جَرِيرٍ أَبَى ذُو بَطْنِهِ إلاّ انْفِجَارَا [4]

يعنى : إلا خروجاً وَسيَلاناً .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « وَإِنَّ منها لما يَشّقّق » ،

---

(١) فى المطبوعة : « بذكر الماء عن ذكر الأنهار » ، وهو خطأ بين .

(٢) فى المطبوعة : « وإنما ذكر فقيل . . . » ، وهو لا شىء .

(٣) فى المطبوعة : « من : فجر الماء » ، وهو خطأ يدل السياق على خلافه ، وهو ما أثبت .

(٤) طبقات فحول الشعراء : ٣٦٩ ، والأغانى ٨ : ٧٢ ، وروايتهما « إلا انحداراً » ، ورواية الطبرى أعرق فى الشعر . وفى المطبوعة « قربت » ، وهو خطأ محض . قاله عمر بن لجأ حين أخذهما أبو بكر ابن حزم — بأمر الوليد بن عبد الملك — فقرنهما ، وأقامهما على البلس يشهر بهما ، فكان التيمى ينشد هذا البيت فى هجاء جرير . وقوله : « ذو بطنه » ، كناية جيدة عما يشمأز من ذكره .

وإنَّ منَ الحجارة لحجارةٌ يَشَّقَّق . وتشقُّقها : تصدّعها .[١] وإنما هى : لَما يتشقّق ، ولكن التاء أدغمت فى الشين فصارت شيناً مشددة .

وقوله : « فيخرُجُ منهُ الماء » ، فيكون عيناً نابعةً وأنهاراً جاريةً .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بذلك جل ثناؤه : وإن من الحجارة لما يَهبط — أى يتردَّى منَ رأس الجبل إلى الأرض والسفح —[٢] من خوف الله وَخشيته . وقد دللنا على معنى « الهبوط » فيما مضى ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .[٣]

* * *

قال أبو جعفر : وأدخلت هذه « اللامات » اللواتى فى « ما » ، توكيداً للخبر .

* * *

وإنما وصف الله تعالى ذكره الحجارةَ بما وصفها به — منْ أنَّ منها المتفجرَ منه الأنهار ، وأنَّ منها المتشققَ بالماء ، وأنَّ منها الهابطَ من خشية الله ، بعد الذى جَعل منها لقلوب الذين أخبر عن قسوة قلوبهم من بنى إسرائيل ،[٤] مثلا — معذرةً منه جل ثناؤه لها ،[٥] دون الذين أخبر عن قسوة قلوبهم من بنى إسرائيل ، إذْ كانوا بالصفة التى وصفهم الله بها من التكذيب لرُسله ، والجحود لآياته ، بعد الذى أراهم من الآيات والعبر ، وعاينوا من عجائب الأدلة والحجج ، مع ما أعطاهم تعالى ذكره من صحّة العقول ، ومنّ به عليهم من سَلامة النفوس التى لم يعطها الحجر

(١) أسقط ذكر الآية فى المطبوعة ، كأنه استطال التكرار ؛ وأقمنا الكلام على نهج أبى جعفر . وفى المطبوعة : « لحجارة تشقق » ، ورددتها إلى الصواب أيضاً .

(٢) تردى من الجبل تردياً : طاح وسقط .

(٣) انظر ما سلف ١ : ٥٣٤ ، وهذا الجزء ٢ : ١٣٢

(٤) سياق هذه العبارة : جعل منها مثلا لقلوب الذين . . . .

(٥) وسياق هذه الجملة : وإنما وصف الله الحجارة بما وصفها به ... معذرة منه لها » أى للحجارة ، وما بين ذلك فصل كدأب أبى جعفر رحمه الله .

٢٨٩/١ والمدَر ، ثم هو مع ذلك منهُ ما يتفجّر بالأنهار ، ومنهُ ما يتشقّق بالماء، ومنه ما يهبط من خشية الله ، فأخبر تعالى ذكره أنّ منَ الحجارة ما هو ألينُ من قُلوبهم لما يُدعَوْن إليه من الحق ، كما : —

١٣١٦ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق .

• • •

وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك ، قال أهل التأويل • ذكر من قال ذلك :

١٣١٧ — حدثنى محمد بن عمرو قال ،حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله جل ثناؤه : «ثم قسَت قُلوبكم منْ بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشدُّ قسوةً وإنّ منَ الحجارة لما يتفجّر منه الأنهارُ وإنّ منها لما يَشقّقُ فيخرجُ منه الماءُ وإنّ منها لما يَهبطُ من خشية الله »، قال : كل حجر يتفجّر منه الماء ، أو يتشقّق عن ماء، أو يتردّى من رأس جبل ، فهو من خشية الله عز وجل . نزَل بذلك القرآن .

١٣١٨ — حدثنى المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

١٣١٩ — حدثنى بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « فهى كالحجارة أو أشدُّ قسوةً »، ثم عذَر الحجارة ولم يعذِرْ شقىّ ابن آدم . فقال: « وإن من الحجارة لما يتفجّرُ منهُ الأنهار ، وإنّ منها لما يَشقّقُ فيخرجُ منه الماءُ وإنّ منها لما يَهبِط من خشية الله » .

١٣٢٠ — حدثنا الحسن بن يحيى قال،أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر ، عن قتادة مثله .

١٣٢١ — حدثنى محمد بن سعد قال، حدثنى أبى قال ، حدثنى عمى قال ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال: ثم عذَر الله الحجارة فقال: « وإن من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار وإنّ منها لما يشّقّق فيخرج منهُ الماء » .

١٣٢٢ — حدثنا القاسم قال ،حدثنا الحسين قال، حدثنا حجاج ، عن ابن

جريج أنه قال فيها : كل حجر انفجر منه ماء ، أو تشقق عن ماء ، أو تردَّى من جبل ، فمن خشية الله . نَزَل به القرآن .

* * *

قال أبو جعفر : ثم اختلف أهل التأويل فى معنى هُبُوط ما هبط من الحجارة من خشية الله .

فقال بعضهم: إن هبوطَ ما هبط منها من خشية الله تَفيُّؤ ظلاله .[1]

وقال آخرون : ذلك الجبلُ الذى صَارَ دكًّا إذْ تجلَّى له ربه .[2]

وقال بعضهم : ذلك كان منه ويَكون ، بأن الله جل ذكره أعطى بعض الحجارة المعرفةَ والفهم ، فعقل طاعةَ الله فأطاعه .

١٣٢٤— كالذى رُوى عَن الجذع الذى كان يَستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خطب، فلما تحوَّل عنه حَنَّ .[3]

١٣٢٥ — وكالذى رُوى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن حجراً كان يُسلِّم علىّ فى الجاهلية إنّى لأعرفه الآن » .[4]

---

(١) يريد قوله تعالى فى سورة النحل: ٤٨ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ . وانظر تفسير الآية من تفسير الطبرى ١٤ : ٧٨ ، ٧٩ (بولاق) .

(٢) يريد قوله تعالى فى سورة الأعراف : ١٤٣ : ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾

(٣) الحديث : ١٣٢٤ — قصة حنين الجذع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، متواترة صحيحة ، لا يشك فى صحتها إلا من لا يريد أن يؤمن . وقد عقد الحافظ ابن كثير فى التاريخ باباً لذلك ٦ : ١٢٥ — ١٣٢ ، قال فى أوله : « باب حنين الجذع شوقاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشفقاً من فراقه . وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة، بطرق متعددة ، تفيد القطع عند أئمة هذا الشأن، وفرسان هذا الميدان » ، ثم ساق من الأحاديث الصحاح من دواوين السنة . وانظر منها فى المسند: ٢٢٣٦ ، ٣٤٣٠ ، من حديث ابن عباس . و ٢٢٣٧ ، ٣٤٣١ ، من حديث أنس . و ٣٤٣٢ من حديث ابن عباس وأنس . وصحيح البخارى ٦ : ٤٤٣ (من الفتح) .

(٤) الحديث : ١٣٢٥ — روى مسلم فى صحيحه ٢ : ٢٠٣ — ٢٠٤ ، عن جابر بن سمرة ، قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى لأعرف حجراً بمكة ، كان يسلم على قبل أن أبعث ، إنى لأعرفه الآن » . وذكره ابن كثير فى التاريخ ٦ : ١٣٤ ، من مسند أحمد ، ثم نسبه لصحيح مسلم ، ومسند الطيالسى .

وقال آخرون: : بل قوله: « يهبط من خشية الله » كقوله: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ [سورة الكهف : ٧٧] ،ولا إرادة له . قالوا وإنما أريد بذلك أنه من عظم أمر الله، يُرى كأنه هابط خاشعٌ، من ذلّ خشية الله، كما قال زيد الخيل:

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ فِي حَجَرَاتِهِ ... تَرَى الأُكْمَ مِنْهُ سُجَّدًا لِلْحَوَافِرِ(١)

وكما قال سُوَيد بن أبي كاهل، يصف عدوًّا له :

سَاجِدَ المَنْخِرِ لا يَرْفَعُهُ ... خَاشِعَ الطَّرْفِ أَصَمَّ المُسْتَمَعْ(٢)

يريد أنه ذليل .(٣)

وكما قال جرير بن عطية :

لَمَّا أَتَى خبرُ الرسول تَضَعْضَعَتْ ... سُورُ المَدِينةِ والجِبَالُ الخُشَّعُ(٤)

* * *

وقال آخرون: معنى قوله: «يهبط من خشية الله»، أى : يُوجب الخشية لغيره ، بدلالته على صانعه ، كما قيل : « نَاقَة تَاجرة » ، إذا كانت من نجابتها وفراهتها تدعو الناس إلى الرغبة فيها ، كما قال جرير بن عطية :

---

(١) مضى هذا البيت فى هذا الجزء ٢ : ١٠٤ ، وورد هنا « ترى الأكم فيها » والصواب ما أثبته ، كما مضى آنفاً ، وفى الأضداد لابن الأنبارى «منها» مكان « فيها » .

(٢) المفضليات : ٤٠٧ ، والأضداد لابن الأنبارى: ٢٥٧ . من قصيدته المحكمة . و « ساجد » منصوب إذ قبله ، فى ذكر عدوه هذا :

ثُمَّ وَلَّى وَهْوَ لاَ يَحْمِي اُسْتَهُ ... طَائِرُ الإِتْرَافِ عَنْه قَدْ وَقَعْ

وفى الأصل المطبوع : « إذ يرفعه » ، وهو خلل فى الكلام . وأثبت ما فى المفضليات ، ورواية ابن الأنبارى: « ما يرفعه » . يقول أذله فطأطأ رأسه خزياً ، وألزم الأرض بصره ، وصار كأنه أصم لا يسمع ما يقال له ، فهو لا حراك به ، مات وهو حى قائم ، لا يحير جواباً . ولذلك قال بعده :

فَرَّ مِنِّي هَارِبًا شَيْطَانُهُ ... حَيْثُ لاَ يُعْطِي، وَلاَ شَيْئًا مَنَعْ

(٣) هذه الجملة كانت قبل البيت ، فرددتها إلى حيث ينبغى أن ترد .

(٤) سلف هذا البيت وتخرجه فى هذا الجزء ٢ : ١٧ ، وروايته هناك « خبر الزبير » ، وهى أصح وأجود .

وأغْوَرُ من نَبْهَانَ ، أمَّا نَهَارُهُ فَأَعْمَى ، وأمَّا ليلُهُ فَبَصِيرُ [1]

فجعل الصِّفة لليل والنهار ، وهو يُريد بذلك صاحبَه النبهانىَّ الذى يهجوه ، ١/ ٢٩٠ من أجل أنه فيهما كان ما وصفه به .

* * *

وهذه الأقوال ، وإن كانت غير بعيداتِ المعنى مما تحتمله الآية من التأويل ، فإن تأويلَ أهل التأويل من علماء سلف الأمة بخلافها ، فلذلك لم نستجز صَرْفَ تأويل الآية إلى معنى منها . [2]

* * *

وقد دللنا فيما مضى على معنى « الخشية » ، وأنها الرهبة والمخافة ، فكرهنا إعادة ذلك فى هذا الموضع . [3]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٧٤)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله : « وما الله بغافل عما تعملون » ، وما الله بغافل — يَا معشر المكذِّبين بآياته ، والجاحدين نبوّة رسوله محمد صلى الله عَليه وسلم ، والمتقوِّلين عليه الأباطيلَ من بنى إسرائيل وأحبارِ اليهود — عما تعملون من أعمالكم الخبيثة ، وأفعالكم الرديئة ، ولكنه مُحصيها عليكم ، فجازيكم بها فى الآخرة ، أو مُعاقبكم بها فى الدنيا . [4]

---

(١) سلف هذا البيت وتخريجه فى ١ : ٣١٧ من طبعتنا هذه ، وأغفلت هناك أن أرده إلى هذا الموضع من التفسير ، فقيده .

(٢) ليت من تهور من أهل زماننا ، فاجترأ على جعل كتاب ربه منبعاً يستق منه ما يشاء لأهوائه وأهواء أصحاب السلطان — سمع ما يقول أبو جعفر ، فيما تجيزه لغة العرب ، فكيف بما هو تهجم على كلام ربه بغير علم ولا هدى ولا حجة ؟ اللهم إنا نبرأ إليك منهم ، ونستعيذ بك أن نضل على آثارهم .

(٣) انظر ما سلف ١ : ٥٥٩—٥٦٠ ، وهو من تفسير « فارهبون » ، ولم ترد مادة (خشى) فى القرآن قبل هذا الموضع ، فلذلك قطعت بأنه أحال على هذه الآية .

(٤) كانت فى المطبوعة « يحصيها ، . . . فيجازيكم . . . أو يعاقبكم » بالياء فى أولها جميعاً ، واستجزت أن أردها إلى الاسمية ، لأن الطبرى هكذا يقول ، وقد سلف مثل ذلك مراراً ، ورأيت النساخ تصرفوا فيه كما بيناه فى موضعه . فاستأنست بنهجه فى بيانه ، وهو أبلغ وأقوم .

وأصل « الغَفْلة » عن الشيء، تركه على وجه السهوِ عنه ، والنسيان له .

* * *

فأخبرهم تعالى ذكره أنه غير غافل عن أفعالهم الخبيثة، ولا ساه عنها ، بل هو لها مُحصٍ ، ولها حافظٌ .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « أفتطمعون » يا أصحاب محمد ، أى : أفترْجُون يا معشر المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والمصدّقين ما جاءكم به من عند الله ، أن يؤمن لكم يهودُ بنى إسرائيل ؟

* * *

ويعنى بقوله : « أنْ يُؤمنوا لكم » ، أن يُصدقوكم بما جاءكم به نبيكم صلى الله عليه وسلم محمد من عند ربكم ، كما : —

١٣٢٦ — حدثت عن عمار بن الحسن ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم » ، يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، « أن يُؤمنوا لكم » ، يقول : أفتطمعون أن يؤمنَ لكم اليهود ؟

١٣٢٧ — حدثنا بشر قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم » الآية ، قال : هم اليهود ؟

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ ﴾

قال أبو جعفر : أما « الفريق » فجمع ، كالطائفة ، لا واحد له من لفظه . وهو « فعيل » من « التفرق » ، سمّى به الجِماع ، كما سميت الجماعة بـ « الحزب » ، من « التحزُّب » ، وما أشبه ذلك . ومنه قول أعشى بنى ثعلبة :

أَجَدُّوا ، فَلَمَّا خِفتُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا فَرِيقَيْنِ ، مِنْهُمْ مُصْعِدٌ وَمُصَوِّبُ(١)

* * *

يعني بقوله : « منهم »، من بنى إسرائيل. وإنما جعل الله الذين كانوا على عهد موسى ومن بعدهم من بنى إسرائيل ، من اليهود الذين قال الله لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم: «أفتطمعون أن يؤمنوا لكم» — لأنهم كانوا آباءهم وأسلافهم ، فجعلهم منهم ، إذ كانوا عشائرهم وفرطهم وأسلافهم ، كما يذكر الرَّجلُ اليوم الرَّجلَ، وقد مضى على منهاج الذاكر وطريقته . وكان من قومه وعشيرته ، فيقول : «كان منا فلان »،(٢) يعنى أنه كان من أهل طريقته ومذهبه، أو من قومه وعشيرته . فكذلك قوله : « وقد كان فريقٌ منهم » .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى الذين عنى الله بقوله : « وقد كان فريق منهم يسمعون كلامَ الله ثم يُحرِّفونه من بعد ما عقلُوه وهم يعلمون». فقال بعضهم بما : —

١٣٢٨ — حدثنى به محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام الله ثم يحرِّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » ،

---

(١) ديوانه : ١٣٧ ، وفى المطبوعة : « أخذوا » خطأ . أجد السير : انكمش فيه وأسرع . مصعد : مبتدىء فى صعوده إلى نجد والحجاز . ومصوب منحدر فى رجوعه إلى العراق والشام وأشباه ذلك . وبعد البيت من تمامه :

طَلَبْتُهُمُ ، تَطْوِى بِىَ البِيدَ جَسْرَةٌ شُوَيْقِئَةُ النَّابَيْنِ وَجْنَاءُ ذِعْلِبُ

(٢) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٣٨ ، ٣٩

فالذين يُحرِّفونه، والذين يكتمونه، هم العلماءُ منهم .

٢٩١/١

١٣٢٩ – حدثني المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد بنحوه .

١٣٣٠ – حدثني موسى قال، حدثنا عمرو بن حماد قال، حدثنا أسباط، عن السدى : « أفتطمعون أنْ يُؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يَسمعون كلامَ الله ثم يُحرِّفونه من بَعد ما عَقلوه »، قال : هي التوراة، حرَّفوها .

١٣٣١ – حدثني يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد في قوله : « يَسمعون كلامَ الله ثم يحرِّفونه »، قال : التوراة التي أنزلها عليهم، يُحرِّفونها، يَجعلونَ الحلالَ فيها حراماً، والحرامَ فيها حلالاً، والحق فيها باطلاً، والباطلَ فيها حقًّا، إذا جاءهم المحِقّ برِشوة أخرجُوا له كتابَ الله، وإذا جاءهم المبطِل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب،[1] فهو فيه محقّ. وإن جَاء أحدٌ يسألهم شيئاً ليس فيه حقٌّ ولا رِشوة ولا شيء، أمروه بالحق. فقال لهم : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٤٤].

* * *

وقال آخرون في ذلك بما : –

١٣٣٢ – حدثت عن عمار بن الحسن قال، أخبرنا ابن أبي جعفر : عن أبيه، عن الربيع في قوله : « وقد كان فريق منهم يسمعون كلامَ الله ثم يُحرِّفونه من بَعد ما عَقلوه وهم يعلمون »، فكانوا يسمعون من ذلك كما يسمع أهل النبوّة، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

١٣٣٣ – حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة، عن ابن إسحق في قوله : « وقد كان فريقٌ منهم يَسمعون كلام الله » الآية، قال : ليس قوله : « يَسمعون كلامَ الله »، يسمعون التوراةَ. كلُّهم قَدْ سمعها، ولكنهم الذين سألوا موسى رؤية ربِّهم فأخذتْهم الصاعقة فيها .

(١) يعني : « ذلك الكتاب » المحرف، لا « كتاب الله » الصادق .

١٣٣٤ ــ حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة ، عن محمد بن إسحق قال : بلغني عن بعض أهل العلم أنهم قالوا لموسى : يا موسى ، قد حيل بيننا وبين رؤية الله عز وجل، فأسمعنا كلامه حين يكلمك . فطلب ذلك موسى إلى ربه فقال : نعم، فمُرْهم فليتطهَّرُوا ، وليطهّروا ثيابهم ، ويصوموا . ففعلوا . ثم خرج بهم حتى أتى الطُّور ، فلما غشيهم الغَمام أمرهم موسى عليه السلام [أن يسجدوا] فوقعوا سجوداً ،[1] وكلَّمه ربه فسمعوا كلامَه، يأمرهم وَينهاهم ، حتى عَقَلُوا ما سمعوا . ثم انصَرَف بهم إلى بني إسرائيل . فلما جاؤهم حرَّف فريقٌ منهم ما أمرهم به ، وقالوا حين قال موسى لبني إسرائيل : إن الله قد أمركم بكذا وكذا ، قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله: إنّما قال كذا وكذا ــ خلافاً لما قال الله عز وجل لهم. فهم الذين عَنى الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين اللذين ذكرت بالآية ، وأشبههما بما دَلّ عليه ظاهرُ التلاوة، ما قاله الربيع بن أنس، والذى حكاه ابن إسحق عن بعض أهل العلم : من أن الله تعالى ذكره إنّما عَنىَ بذلك من سَمع كلامَه من بني إسرائيل ، سماعَ موسى إيّاه منه ، ثم حرّف ذلك وبدَّل، من بعد سماعه وعلمه به وفهمه إياه . وذلك أن الله جل ثناؤه إنما أخبرَ أن التحريف كان من فريق منهم كانوا يسمعون كلام الله عزّ وجل ، استعظاماً من الله لما كانوا يأتون من البهتان ، بعد توكيد الحجة عليهم والبرهان، وإيذاناً منه تعالى ذكره عبادَه المؤمنين ، قطعَ أطماعهم من إيمان بَقايا نسلهم بما أتاهم به محمد من الحق والنور والهدى،[2] فقال لهم: كيف تطمعون فى تصديق هؤلاء اليهود إيّاكم ، وإنما تخبرونهم ــ بالذى تُخبرونهم من الأنباء عن الله عز وجل ــ عن غيب لم يشاهدوه ولم يعاينوه، وقد كان بعضُهم يسمع من الله كلامَه وأمرَه ونهيه ، ثم يبدّله ويحرّفه ويجحده ؟ فهؤلاء الذين بين

(١) ما بين القوسين زيادة من ابن كثير ١ : ٢١٢ .

(٢) فى المطبوعة « وإيذاناً منه . . . وقطع أطماعهم » بالعطف بالواو ، وليس يستقيم . وآذنه الأمر وآذنه به يذاناً : أعلمه . فقوله : « قطع » منصوب مفعول ثان للمصدر « إيذاناً » .

أظهُرِكم من بقايا نَسلهم ، أحرى أن يجحدوا ما أتيتموهم به من الحق ، وهم لا يسمعونه من الله ، وإنما يسمعونه منكم — [١] وأقربُ إلى أن يحرفوا ما فى كتبهم من صفة نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم ونعته ويبدّلوه ، وهم به عالمون ، فيجحدوه ويكذّبوا — [٢] من أوائلهم الذين بَاشروا كلام الله من الله جل ثناؤه ، ثم حرفوه من بعد ما عقلوه وَعلموه ، متعمِّدين التحريف .

٢٩٢/١

ولو كان تأويل الآية على ما قاله الذين زعموا أنه عنى بقوله : « يسمعُون كلام الله » ، يسمعون التوراة ، لم يكنْ لذكر قوله : « يسمعون كلامَ الله » معنى مفهوم . لأن ذلك قد سمعه المحرِّف منهم وغير المحرِّف ، فخصوص المحرِّف منهم بأنه كان يسمع كلام الله — إن كان التأويل على ما قاله الذين ذكرنا قولهم — دون غيرهم ، ممن كان يسمع ذلك سماعَهم ، لا معنى له [٣] .

فإن ظَنّ ظانٌّ [أنه] إنما صَلَح أن يقال ذلك لقوله : « يُحرِّفونه » ، فقد أغفل وجه الصواب فى ذلك [٤] . وذلك أن ذلك لو كان كذلك لقيل : أفتطمعون أن يُؤمنوا لكم وقد كان فَريق منهم يحرفونَ كلام الله من بعد مَا عَقلوه وهم يعلمون . ولكنه جل ثناؤه أخبر عن خاصٍّ من اليهود ، كانوا أعطوا — من مباشرتهم سَماعَ كلام الله — ما لم يُعطه أحدٌ غيرُ الأنبياء والرسل ، ثم بدلوا وحرفوا ما سمعوا من ذلك . فلذلك وصفهم بما وصفهم به ، للخصوص الذى كان خَصَّ به هؤلاء الفريق الذى ذكرهم فى كتابه تعالى ذكره .

* * *

ويعنى بقوله : « ثم يُحرِّفونه » ، ثم يبدلون معناهُ وتأويله ويغيِّرونه . وأصله من « انحراف الشىء عن جهته » ، وهو ميله عنها إلى غيرها . فكذلك قوله : « يحرِّفونه »

---

(١) قوله : « وأقرب » ، معطوف على قوله : « أحرى . . . »

(٢) قوله : « من أوائلهم . . . » متعلق بقوله آنفاً : « أحرى أن يجحدوا . . . وأقرب إلى أن يحرفوا . . . » .

(٣) سياق العبارة : فخصوص المحرف بأنه . . . لا معنى له » .

(٤) الزيادة بين القوسين لا بد منها .

أى يُميلونه عن وجهه ومعناهُ الذى هو معناه ، إلى غيره . فأخبر الله جل ثناؤه أنهم فعلوا ما فعلوا من ذلك ، على علم منهم بتأويل ما حرّفوا ، وأنّه بخلاف ما حرّفوه إليه . فقال : « يحرّفونه من بعد ما عقلوه » ، يعنى : من بعد ما عقلوا تأويله ، « وهم يعلمون » ، أى : يعلمون أنّهم فى تحريفهم ما حرفوا من ذلك مبطلون كاذبون .

وذلك إخبارٌ من الله جل ثناؤه عن إقدامهم على البَهْتِ ، ومناصبتهم العداوةَ له ولرسوله موسى صلى الله عليه وسلم ، وأنّ بقاياهم — من مُناصبتهم العداوةَ لله ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلم بَغياً وحسداً — على مِثل الذى كان عليه أوائلهم من ذلك فى عصر موسى عليه الصلاة والسلام .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ﴾

قال أبو جعفر : أما قوله : « وإذا لقوا الذينَ آمنوا قالوا آمنّا » ، فإنه خبر من الله جل ذكره عن الذين أيأس أصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم من إيمانهم — من يهود بنى إسرائيل ، الذين كان فريقٌ منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون — وهُم الذين إذا لقوا الذين آمنوا بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم قالوا : آمنا . يعنى بذلك : أنهم إذا لقوا الذين صدّقوا بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاءَ به من عند الله ، قالوا : آمنا — أى صدقنا بمحمد وبما صدّقتم به ، وأقررنا بذلك . أخبرَ الله عزّ وجل عنهم أنهم تخلّقوا بأخلاق المنافقين ، وسلكوا منهاجَهم ، كما :—

١٣٣٥ — حدثنى محمد بن سعد قال ، حدثنى أبى قال ، حدثنى عمى قال ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن جده ، عن ابن عباس قوله : « وإذا لقوا الذينَ آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتحَ الله عليكم » ، وذلك أن نفراً من اليهود كانوا إذا لقوا محمداً صلى الله عليه وسلم قالوا :

آمنَّا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم .

١٣٣٦ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا » ، يعني المنافقين من اليهود ، كانوا إذا لقوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قالوا : آمنا .

* * *

٢٩٣/١ وقد روى عن ابن عباس فى تأويل ذلك قول آخر ، وهو ما : —

١٣٣٧ — حدثنا به ابن حميد قال ، حدثنا سلمة بن الفضل ، عن محمد بن إسحق عن محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « وإذا لَقوا الذين آمنوا قَالوا آمنَّا » ، أى : بصاحبكم رسول الله صلى الله وسلم ، ولكنه إليكم خاصة .

١٣٣٨ — حدثنا موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « وإذا لَقوا الذين آمنوا قالوا آمنَّا » الآية ، قال : هؤلاء ناس من اليهود ، آمنوا ثم نافقوا .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٧٦)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله : « وإذا خَلا بعضُهم إلى بَعض » أى : إذا خلا بعضُ هؤلاء اليهود — الذين وصف الله صفتهم — إلى بعض منهم ، فصاروا فى خَلاءٍ من الناس غيرِهم ، وذلك هو الموضع الذى ليس فيه غيرهم — « قالوا » يعنى : قال بعضُهم لبعض : « أتُحدِّثونهم بما فَتحَ الله عليكم » .

* * *

ثم اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله : « بما فَتحَ الله عَليكم » فقال بعضهم بما : —

١٣٣٩ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن

عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك عن ابن عباس : « وإذا خَلا بعضهم إلى بعض قالوا أتُحدِّثونهم بما فَتح الله عليكم » ، يعني : بما أمركم الله به . فيقول الآخرون : إنما نَستهزئ بهم ونَضحك .

* * *

وقال آخرون بما : —

١٣٤٠ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس « وإذا لَقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا » ، أي : بصاحبكم رسول الله ، ولكنه إليكم خاصة ، وإذا خلا بعضُهم إلى بعض قالوا : لا تحدّثوا العربَ بهذا ، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم ، فكان منهم[1]. فأنزل الله : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضُهم إلى بعض قالوا أتُحدثونهم بما فَتح الله عليكم ليُحاجُّوكم به عند ربكم » ، أي : تُقِرّون بأنه نبي ، وقد علمتم أنه قد أخِذ له الميثاق عليكم باتباعه ، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجده في كتابنا ؟ اجحدوه ولا تقِرُّوا لهم به : يقول الله : « أوَ لا يَعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يُعلنون » .

١٣٤١ — حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال : حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية في قوله : « أتحدِّثُونهم بما فَتحَ الله عَليكم » ، أي بما أنزل الله عليكم في كتابكم من نَعْت محمد صلى الله عليه وسلم .

١٣٤٢ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة : « قالوا أتحدِّثُونهم بما فتح الله عليكم » ، أي : بما مَنَّ الله عليكم في كتابكم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنكم إذا فعلتم ذلك احتجُّوا به عليكم ، « أفَلا تعقلون » .

---

(١) قوله : « فكان منهم » ، أي كان منهم النبي الذي كانوا يستفتحون به على مشركي العرب وتستنصرون ، و يرجون أن يكون منهم ، فكان من العرب . وسيأتي خبر استفتاحهم بعد في تفسير الآية : ٨٩ من سورة البقرة في هذا الجزء .

١٣٤٣ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة : « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم » ، ليحتجوا به عليكم .

١٣٤٤ — حدثنى المثنى قال ، حدثنى آدم قال ، حدثنا أبو جعفر قال ، قال قتادة : « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم » ، يعنى : بما أنزل الله عليكم من أمر محمد صلى الله عليه وسلم ونعته .

* * *

وقال آخرون فى ذلك بما : —

١٣٤٥ — حدثنى محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم » قال : قول يهود بنى قريظة ،[1] حين سبهم النبى صلى الله عليه وسلم بأنهم إخوة القردة والخنازير ، قالوا : من حدثك ؟ — هذا — حين أرسل إليهم عليا فآذوا محمدا ، فقال : يا إخوة القردة والخنازير[2] .

١٣٤٦ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله — إلا أنه قال : هذا ، حين أرسل إليهم على بن أبى طالب رضى الله عنه وآذوا النبى صلى الله عليه وسلم فقال : اخسأوا يا إخوة القردة والخنازير . ٢٩٤/١

١٣٤٧ — حدثنا القاسم قال ، حدثنى الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قال ، أخبرنى القاسم بن أبى بزة ، عن مجاهد فى قوله : « أتحدثونهم بما فتح الله عليكم » ، قال : قام النبى صلى الله عليه وسلم يوم قريظة تحت حصونهم فقال : يا إخوان القردة ، ويا إخوان الخنازير ، ويا عبدة الطاغوت . فقالوا : من أخبر هذا محمدا ؟ ما خرج هذا إلا منكم ! « أتحدثونهم بما فتح

(١) فى المطبوعة : « يهود من قريظة » ، ليست بشىء .

(٢) من أول قوله : « قالوا من حدثك ؟ . . . » إلى آخر العبارة ، تفسير للقصة قبله . وقوله « فقال : يا إخوة القردة والخنازير » من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا كلام على رضى الله عنه . وسيظهر ذلك فى الخبرين بعده .

الله عليكم»! بما حكم الله، للفتح، ليكون لهم حجة عليكم . قال ابن جريج ، عن مجاهد : هذا حين أرسل إليهم عليًّا فآذوا محمداً صلى الله عليه وسلم[١] .

* * *

وقال آخرون بما : —

١٣٤٨ — حدثني موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « قالوا أتحدِّثونهم بما فتحَ الله عليكم » — من العذاب — « ليحاجُّوكم به عند ربكم » : هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا ، فكانوا يحدِّثون المؤمنين من العرب بما عُذِّبوا به . فقال بعضهم لبعض: أتحدِّثونهم بما فَتحَ الله عليكم من العذاب ، ليقولوا نحن أحبُّ إلى الله منكم ، وأكرمُ على الله منكم ؟

* * *

وقال آخرون بما : —

١٣٤٩ — حدثني يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد فى قوله : « وإذا خَلا بعضُهم إلى بعض قالوا أتحدِّثونهم بما فَتح الله عليكم ليُحاجُّوكم به عندَ ربكم » ، قال : كانوا إذا سئلوا عن الشيء قالوا : أما تعلمون فى التوراة كذا وكذا ؟ قالوا : بلى! — قال: وهم يهود — فيقول لهم رؤساؤهم الذين يرجعون إليهم : ما لكم تُخبرونهم بالذى أنزَل الله عليكم فيحاجُّوكم به عندَ ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يدخُلَنَّ علينا قَصبة المدينة إلا مؤمن[٢] . فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق: اذهبوا فقولوا : آمنّا، واكفروا إذا رجعتم . قال : فكانوا يأتون المدينة بالبُكَر ، ويرجعون إليهم بعد العصر[٣]. وقرأ قول الله : ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[سورة آل عمران : ٧٢] . وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة : نحن مسلمون . ليعلموا خَبرَ رسول الله صلى الله

(١) الأثر : ١٣٤٧ — فى ابن كثير ١ : ٢١٤ وفيه : « من أخبر بهذا الأمر محمداً ؟ ما خرج هذا القول إلا منكم » .

(٢) قصبة القرية : وسطها وجوفها . وقصبة البلاد : مدينتها ، لأنها تكون فى أوسطها .

(٣) البكر جمع بكرة (بضم فسكون) : وهى الغدوة ، أول النهار .

عليه وسلم وأمرَه ، فإذا رجعوا رَجعوا إلى الكفر . فلما أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بهم قَطَعَ ذلك عنهم فلمْ يكونوا يدخلون . وكان المؤمنون الذين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يظنُّون أنّهم مؤمنون ، فيقولون لهم : أليسَ قد قال الله لكم كذا وكذا؟ فيقولون : بلى! فإذا رجعوا إلى قومهم [يعني الرؤساء] — قالوا : أتُحدِّثونهم بما فتح الله عليكم »، الآية[1]

* * *

وأصل « الفتح » في كلام العرب : النصرُ، والقضَاءُ، والحكْم. يقال منه : « اللهمّ افتحْ بيني وبين فلان »، أي احكم بيني وبينه ، ومنه قول الشاعر :

أَلاَ أَبْلِغْ بَنِى عُصْمٍ رَسُولاً بِأَنِّى عَنْ فُتَاحَتِكُمْ غَنِىُّ

قال أبو جعفر : ويقال للقاضي : « الفتَّاح » . ومنه قول الله عز وجلّ ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [سورة الأعراف : ٨٩] أي : احكمْ بيننا وبينهم .

* * *

فإذا كان معنى الفتح ما وصفنا ، تبين أنّ معنى قوله : « قالوا أتُحدِّثونهم بما فَتحَ الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربكم » ، إنما هو : أتحدثونهم بما حَكم الله به عليكم ، وقَضَاه فيكم ؟ ومن حُكمه جل ثناؤه عليهم ما أخذ به ميثاقهم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به في التوراة . ومن قَضَائه فيهم أنْ جعل منهم القِرَدَة والخنازير ، وغير ذلك من أحكامه وقضائه فيهم . وكل ذلك كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به ، حُجةً على المكذبين به من اليهود ١/٢٩٥

---

(١) الأثر : ١٣٤٩ في ابن كثير ١ : ٢١٣ — ٢١٤ ، والزيادة بين القوسين منه .

(٢) ينسب للأسعر الجعفي ، ومحمد بن حمران بن أبي حمران . انظر تعليق الراجكوتي في سمط اللآلىء : ٩٢٧ .

(٣) أمالي القالي ٢ : ٢٨١ واللسان (فتح) (رسل) ، وغيرهما ، وبنو عصم، هم رهط عمرو ابن معديكرب الزبيدي . وقد اختلفت روايات البيت اختلافاً شديداً ، ليس هذا مكان تحقيقها ، لطولها .

المقرِّين بحكم التوراة ، وغير ذلك [من أحكامه وقضائه] .[1]

فإذْ كان ذلك كذلك .[2] فالذى هو أولى عندى بتأويل الآية قولُ من قال : معنى ذلك : أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم من بَعْثِ محمد صلى الله عليه وسلم إلى خلقه ؟ لأنّ الله جل ثناؤه إنما قصّ فى أوّل هذه الآية الخبرَ عن قولهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه : آمنا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فالذى هو أولى بآخرِها أن يكون نظيرَ الخبر عما ابتُدِئ به أولها .

وإذا كان ذلك كذلك ، فالواجب أن يكون تلاوُمهم ، كان فيما بينهم ، فيما كانوا أظهروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه من قولهم لهم : آمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به . وكان قيلهم ذلك ، من أجل أنّهم يجدون ذلك فى كتُبهم ، وكانوا يخبرُون أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك . فكان تلاوُمُهم — فيما بينهم إذا خلوا — على ما كانوا يُخبرونهم بما هو حُجّة للمسلمين عليهم عند ربهم . وذلك أنهم كانوا يخبرونهم عن وُجود نَعت محمد صلى الله عليه وسلم فى كتبهم ، ويكفرون به . وكان فتحُ الله الذى فَتحه للمسلمين على اليهود ، وحُكمه عليهم لهم فى كتابهم ، أنْ يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم إذا بُعث . فلما بُعث كفرّوا به ، مع علمهم بنبوته .

* * *

قال أبو جعفر : وقوله : «أفَلا تَعقلون» ، خبرٌ من الله تعالى ذكره — عن اليهود اللائمين إخوانَهم على ما أخبرُوا أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فَتحَ الله لَهم عليهم — أنهم قالوا لهم : أَفَلا تفقهون أيها القوم وتعقلون ، أن إخباركم أصحابَ النبي صلى الله عليه وسلم بما فى كتبكم أنه نبيٌّ مبعوث ، حجّةٌ لهم عليكم عند ربكم ، يحتجون بها عليكم؟ أى : فلا تفعلوا ذلك ، ولا تقولوا لهمْ مثلَ ما قلتم ، ولا تخبروهم

(١) ما بين القوسين ، زيادة استظهرتها من سابق بيانه ، ليستقيم الكلام .

(٢) فى المطبوعة : «فإن كان كذلك» ، والزيادة ماضية على نهج أبى جعفر .

بمثل ما أخبرتموهم به من ذلك . فقال جل ثناؤه : « أوَ لا يَعلمونَ أنّ الله يَعلم مَا يُسِرُّون ومَا يُعلنون » .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٧٧)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « أوَ لا يَعلمونَ أنّ الله يعلمُ مَا يسِرُّون وما يُعلنون » ، أوَ لا يَعلم — هؤلاء اللائمون من اليهود إخوانَهم من أهل ملّتهم ، على كونهم إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وعلى إخبارهم المؤمنين بما فى كتبهم من نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعثه ، القائلون لهم : أتحدثونهم بما فَتحَ الله عليكم ليحاجُّوكم به عند رَبّكم — أنّ الله عالمٌ بما يُسِرُّون ، فيخفونَه عن المؤمنين فى خَلائهم = من كفرهم ، وتلاوُمهم بينهم على إظهارهم ما أظهرُوا لرسول الله وللمؤمنين به من الإقرار بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى قيلهم لهم : آمنا ، ونَهى بعضهم بعضاً أن يخبروا المؤمنين بما فتحَ الله للمؤمنين عليهم ، وقضى لهم عليهم فى كتبهم ، من حقيقة نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ونَعته ومبعثه = وما يُعلنون ، فيظهرونه لمحمد صلى الله عليه وسلم ولأصحابه المؤمنين به إذا لقوُهم ، من قيلهم لهم : آمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، نفاقاً وخِداعاً لله ولرسوله وللمؤمنين ؟ كما : —

١٣٥٠ — حدثنا بشر قال ، حدثنا يزيد . قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « أوَ لا يعلمون أنّ الله يعلمَ ما يُسرون » ، من كفرهم وتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم إذا خَلا بعضهم إلى بعض ، « وما يُعلنون » إذا لقوا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قالوا : آمنا . ليرضوهم بذلك .

١٣٥١ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن

الربيع ، عن أبي العالية : « أوَ لا يعلمون أن الله يعلم ما يُسِرُّون وما يُعلنون » ، يعنى : ما أسرُّوا من كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوباً عندهم ، « وَما يُعلنون » ، يعنى : ما أعلنوا حين قالوا للمؤمنين : آمنَّا . ٢٤٣/١

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « ومنهم أمِّيُّون » ، وَمن هؤلاء اليهود — الذين قصَّ الله قَصَصهم فى هذه الآيات ، وأيأسَ أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم منْ إيمانهم فقال لهم : أفتطمعون أن يُؤمنوا لكم وقد كان فريقٌ منهم يَسمعون كلام الله ، ثم يحرِّفونه من بعد ما عَقلوه ، وهم إذا لقوكم قالوا : آمنا ، كما : —

١٣٥٢ — حدثنا المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية : « ومنهم أميون » ، يعنى : من اليهود .

١٣٥٣ — وحدثت عن عمار قال، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع مثله .

١٣٥٤ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج، عن مجاهد : « ومنهم أميُّون »، قال : أناسٌ من يَهود .

* * *

قال أبو جعفر : يعنى بـ« الأميين » ، الذين لا يكتبون ولا يقرأون .

١٣٥٥ — ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : «إنَّا أمة أميَّة لا نكتب ولا نحسب».[1]

يقال منه : « رجلٌ أمىٌّ بَيّن الأميّة »،[2] كما : —

١٣٥٦ — حدثنى المثنى قال ، حدثنى سويد بن نصر قال ، أخبرنا ابن

---

(١) الحديث : ١٣٥٥ — هو حديث صحيح . رواه البخارى ٤ : ١٠٨ — ١٠٩ (من الفتح)، ورواه أيضاً مسلم وأبو داود والنسائى ، كما فى الجامع الصغير للسيوطى ، رقم : ٢٥٢١ .

(٢) كان فى المطبوعة : « أى بين الأمية » ، فحذفت « أى » ، فليس ذلك مما يقال .

المبارك ، عن سفيان ، عن منصور ، عن إبراهيم : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب » ، قال : منهم من لا يحسن أن يكتب.(١)

١٣٥٧ — حدثني يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد فى قوله : « ومنهم أميون » ، قال : أميون لا يقرأون الكتاب من اليهود .

* * *

وروى عن ابن عباس قول خلافَ هذا القول ، وهو ما :—

١٣٥٨ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق، عن الضحاك ، عن ابن عباس: « ومنهم أميون »، قال : الأميون قوم لم يصدّقوا رسولاً أرسله الله، ولا كتاباً أنزله الله، فكتبوا كتاباً بأيديهم ،

---

(١) قوله « لا يحسن أن يكتب » نفى لمعرفة الكتابة ، لا لجودة معرفة الكتابة ،كما يسبق إلى الوهم . وقديماً قام بعض أساتذتنا يدعى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يعرف الكتابة ، ولكنه لا يحسنها ، لخبر استدل به هو — أو اتبع فيه من استدل به من أعاجم المستشرقين— وهو ما جاء فى تاريخ الطبرى ٣ : ٨٠ فى شرح قصة الحديبية ، حين جاء سهيل بن عمرو ، لكتابة الصلح . روى الطبرى عن البراء بن عازب قال : « . . . فلما كتب الكتاب ، كتب : « هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله » ، فقالوا لو نعلم أنك رسول الله ما منعناك ، ولكن أنت محمد بن عبد الله . قال : أنا رسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله . قال لعلى : امح « رسول الله » . قال : لا والله لا أمحاك أبداً . فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم — وليس يحسن يكتب . . . فكتب مكان رسول الله » « محمد » ، فكتب : هذا ما قاضى عليه محمد » .

فظن أولا أن ضمير الفاعل فى قوله : « فكتب مكان رسول الله — محمد » ، هو رسول الله صلى الله عليه . وليس كذلك بل هو : على بن أبى طالب الكاتب . وفى الكلام اختصار ، فإنه لما أمر علياً أن يمحو الكتاب فأبى ، أخذه رسول الله ، وليس يحسن يكتب ، فمحاه . وتفسير ذلك قد أتى فى حديث البخارى عن البراء بن عازب أيضاً ٣ : ١٨٤ : « فقال لعلى : امحه . فقال على : ما أنا بالذى أمحاه فمحاه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده » .

وأخرى أنه أخطأ فى معنى « يحسن » ، فإنها هنا بمعنى « يعلم » ، وهو أدب حسن فى العبارة ، حتى لا ينفى عنه العلم ، وقد جاء فى تفسير الطبرى ٢١ : ٦ فى تفسير قوله تعالى : « أحسن كل شىء خلقه » ، ما نصه : « معنى ذلك : أعلم كل شىء خلقه . كأنهم وجهوا تأويل الكلام إلى أنه ألهم كل خلقه ما يحتاجون إليه . وأنه قوله : « أحسن » ، إنما هو من قول القائل : « فلا يحسن كذا » ، إذا كان يعلمه » .

هذا ، والعرب تتأدب بمثل هذا ، فتضع اللفظ مكان اللفظ ، وتبطل بعض معناه ، ليكون تنزيهاً للسان ، أو تكرمة للذى تخبر عنه . فمعنى قوله : « ليس يحسن يكتب » ، أى ليس يعرف يكتب . وقد أطال السهيلى فى الروض الأنف ١ : ٢٣٠ بكلام ليس يغنى فى تفسير هذا الكلمة .

ثم قالوا لقوم سِفْلة جُهّال: هذا من عند الله. وقال: قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم، ثم سماهم أمّيّين، لجحودهم كتب الله ورسله.(١)

وهذا التأويل تأويلٌ على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم. وذلك أن «الأمى» عند العرب: هو الذى لا يكتب.

* * *

قال أبو جعفر: وأرى أنه قيل للأمى «أمى»؛ نسبة له بأنه لا يكتب إلى «أمّه»، لأن الكتاب كان فى الرجال دون النساء، فنُسِب من لا يكتب ولا يَخُطّ من الرجال — إلى أمّه — فى جهله بالكتابة، دون أبيه، كما ذكرنا عن النبي صلى الله عليه وسلم من قوله: «إنّا أمّة أميّة لا نكتب ولا نحسب»، وكما قال: ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [سورة الجمعة: ٢].(٢)

فإذا كان معنى «الأمى» فى كلام العرب ما وصفنا، فالذى هو أولى بتأويل الآية ما قاله النخعىّ، من أن معنى قوله: «ومنهم أمّيون»: ومنهم من لا يُحسن أن يكتب.

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾

قال أبو جعفر: يعنى بقوله: «لا يَعلمون الكتاب»، لا يعلمون ما فى الكتاب الذى أنزله الله، ولا يدرون ما أودعه الله من حدوده وأحكامه وفرائضه، كهيئة البهائم، كالذى: —

١٣٥٩ — حدثنى الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا

(١) قال ابن كثير فى تفسيره ١ : ٢١٥، وساق الخبر وكلام الطبرى، ثم قال: «قلت: فى صحة هذا عن ابن عباس — بهذا الإسناد — نظر، والله أعلم».

(٢) اقتصر فى المطبوعة على قوله: «رسولا منهم»، وأتممت الآية، لأنه يستدل بها على أنه جاء يعلم الأميين «الكتاب».

معمر ، عن قتادة فى قوله : « ومنهم أمّيُّون لا يَعلمون الكتابَ إلا أَمانى » : إنما هم أمثال البهائم ، لا يعلمون شيئاً .

١٣٦٠ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « لا يعلمون الكتاب » ، يقول : لا يعلمون الكتاب ولا يدرون ما فيه .

١٣٦١ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : « لا يَعلمون الكتاب » ، لا يدرون ما فيه .

١٣٦٢ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد ابن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « لا يَعلمون الكتاب » ، قال : لا يدرون بما فيه .

٢٩٧/١ ١٣٦٣ — حدثنا يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : « لا يَعلمون الكتاب » ، لا يعلمون شيئاً ، لا يقرأون التوراةَ . ليست تستظهر ، إنما تقرأ هكذا . فإذا لم يكتب أحدهم ، لم يستطع أن يقرأ .[١]

١٣٦٤ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : « لا يعلمون الكتاب » ، قال : لا يعرفون الكتاب الذى أنزله الله .

* * *

قال أبو جعفر : وإنّما عنى بـ « الكتاب » التوراةَ ، ولذلك أدخلت فيه « الألف واللام » ، لأنه قصد به كتاب معروف بعينه .

ومعناه : ومنهم فريقٌ لا يكتبون ، ولا يدرُون ما فى الكتاب الذى عرفتموه الذى هو عندهم — وهم ينتحلونه ويدّعون الإقرار به — من أحكام الله وفرائضه ، وما فيه من حدوده التى بينها فيه .

* * *

[واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله][٢] : « إلاّ أمَانى » فقال: بعضهم بما :—

(١) الأثر : ١٣٦٣ — كان فى المطبوعة : « حدثنا بشر قال أخبرنا ابن وهب . . . » ، وهو سهو من الناسخ ، والإسناد كثير الدوران فى التفسير ، أقربه رقم : ١٣٥٧ .

(٢) ما بين القوسين زيادة يقتضيها الكلام . وكأن الناسخ سها فأغفلها .

١٣٦٥ — حدثنا به أبو كريب قال، حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس: « إلاّ أمانيّ »، يقول : إلا قولاً يقولونه بأفواههم كذباً .

١٣٦٦ — حدثني محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : « لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانيّ » : إلاّ كذباً .

١٣٦٧ — حدثني المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

* * *

وقال آخرون بما : —

١٣٦٨ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « إلا أمانيّ »، يقول: يتمنون على الله ما ليس لهم .

١٣٦٩ — حدثنا الحسن بن يحيي قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة: « إلاّ أماني »، يقول : يتمنون على الله الباطل وما ليس لهم .

١٣٧٠ — حدثني المثنى قال، حدثنا أبو صالح ، [عن معاوية بن صالح] ، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: « لا يعلمون الكتابَ إلاّ أمانيّ »، يقول: إلا أحاديث .

١٣٧١ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج ، عن ابن جريج، عن مجاهد : « ومنهم أمّيّون لا يعلمونَ الكتابَ إلاّ أمانيّ »، قال : أناس من يَهود ، لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً، وكانوا يتكلمون بالظنّ بغير ما في كتاب الله ، يقولون: هو من الكتاب . أمانيُّ يَتمنّونها .

١٣٧٢ — حدثنا المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية: « إلاّ أمانيّ »، يتمنون على الله ما ليس لهم .

١٣٧٣ — حدثني يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد في قوله: « إلا أمانيّ »، قال : تمنوا فقالوا: نحن من أهل الكتاب . وليسُوا منهم .

* * *

قال أبو جعفر : وأولى ما روينا فى تأويل قوله « إلا أمانى » ، بالحق ، وأشبهه بالصواب ، الذى قاله ابن عباس — الذى رواه عنه الضحاك — ، وقولُ مجاهد : إن « الأمّيّين » الذين وصفهم الله بما وصفهم به فى هذه الآية ، أنهم لا يفقهون من الكتاب الذى أنزله الله على موسى شيئاً ،[1] ولكنهم يتخرّصون الكذب ويتقوّلون الأباطيل كذبا وزوراً .

* * *

و « التمنى » فى هذا الموضع ، هو تخلّق الكذب وتخرّصه وافتعالُه . يقال منه : « تمنَّيت كذا » ، إذا افتعلته وتخرَّصته . ومنه الخبر الذى رُوى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه : « ما تغنَّيت ولا تَمنَّيت » ،[2] يعنى بقوله : « ما تمنَّيت » ، ما تخرَّصت الباطل ، ولا اختلقت الكذب والإفك .

* * *

والذى يدل على صحة ما قلنا فى ذلك — وأنه أولى بتأويل قوله : « إلاّ أمانىّ » من غيره من الأقوال — قول الله جل ثناؤه : « وَإنْ هُم إلاّ يظُنُّون » . فأخبر عنهم جلّ ثناؤه أنّهم يتمنَّون ما يتمنَّون من الأكاذيب ، ظنَّا منهم لا يقيناً . ولوْ كان معنى ذلك أنهم « يَتلُونه » ، لم يكونوا ظانّين ، وكذلك لو كان معناه « يَشتهونه » . لأن الذى يتلوه ، إذا تدبَّره علمه . ولا يستحق — الذى يتلو كتاباً قرأه ، وإن لم يتدبَّره — بتركه التدبّر أن يقال : هو ظانٌّ لما يتلو ، إلا أن يكون شاكًّا فى نفس ما يتلوه ، لا يدرى أحق هو أم باطل . ولم يكن القوم — الذين كانوا يتلون التوراةَ على عصر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود — فيما بلغنا —

٢٩٨/١

(١) فى المطبوعة : « وأنهم لا يفقهون » بزيادة الواو ، وهو خطأ لا يستقم ، والصواب ما أثبته من ابن كثير ١ : ٢١٦ .

(٢) فى الفائق ١ : ١٦٣ عن عثمان رضى الله عنه : « قد اختبأت عند الله خصالا : إنى لرابع الإسلام ، وزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته ثم ابنته ، وبايعته بيدى هذه اليمنى فما مسست بها ذكرى ، وما تغنيت ولا تمنيت ، ولا شربت خمراً فى جاهلية ولا إسلام » . وروى الطبرى فى تاريخه فى خبر مقتله رضى الله عنه ٥ : ١٣٠ ، أن الرجل الذى انتدب لقتله دخل عليه فقال له : « اخلعها وندعك . فقال : ويحك ! ما كشفت امرأة فى جاهلية ولا إسلام ، ولا تغنيت ولا تمنيت ، ولا وضعت يمينى على عورتى منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولست خالعاً قيصاً كسانيه الله عز وجل » .

شاكّين فى التوراة أنها من عند الله . وكذلك « المتمنى » الذى هو فى معنى « المتشهى » غير جائز أن يقال : هو ظان فى تمنّيه. لأن التمنّى من المتمنّى ، إذا تمنّى ما قد وجد عينه. فغير جائز أن يقال : هو شاكّ ، فيما هو به عالم . لأن العلم والشكّ معنيان ينفى كل واحد منهما صاحبه ، لا يجوز اجتماعهما فى حيّز واحد . والمتمنى فى حال تمنّيه ، موجودٌ تمنّيه ، فغيرُ جائز أن يقال : هو يظنّ تمنيه.(١)

* * *

وإنما قيل : « لا يعلمونَ الكتابَ إلاّ أمانى » ، و « الأمانى » من غير نوع « الكتاب » ، كما قال ربنا جل ثناؤه : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ [سورة النساء: ١٥٧] ، و « الظن » من «العلم» بمعزل . وكما قال: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ [سورة الليل : ١٩ ، ٢٠] ، وكما قال الشاعر :(٢)

لَيْسَ بَيْنِى وَبَيْنَ قَيْسٍ عِتابٌ غَيْرَ طَعْنِ الْكُلَى وَضَرْبِ الرِّقَابِ (٣)

وكما قال نابغة بنى ذبيان :

حَلَفْتُ يَمِيناً غَيْرَ ذِى مَثْنَوِيَّةٍ ، وَلاَ عِلْمَ ، إلاَّ حُسْنَ ظَنٍّ بصَاحِبِ (٤)

---

(١) فى المطبوعة : « غير جائز » ، والصواب إثبات الفاء .

(٢) هو عمرو بن الأيهم التغلبى النصرانى ، وقيل اسمه : عمير ، وقيل هو أعشى تغلب . روى عن الأخطل أنه قيل له وهو يموت : على من تخلف قومك ؟ قال : على العميرين . يعنى القطامى عمير ابن أشيم ، وعمير بن الأهتم .

(٣) سيبويه ١ : ٣٦٥ ، والوحشيات رقم : ٥٥ ، ومعجم الشعراء : ٢٤٢ ، وحماسة البحترى : ٣٢ ، وانظر تحقيق الراجكوتى فى سمط اللآلىء : ١٨٤ . والشعر يقوله فى هجاء قيس عيلان يقول فيها :

قَاتَلَ اللهُ قَيسَ عَيْلاَنَ طُرًّا مَا لَهُمْ دُون غَدْرَةٍ من حِجَابِ

ثم إن سيبويه أنشد البيت برفع « غير » ، على البدل من « عقاب » ، اتساعاً ومجازاً .

(٤) ديوانه : ٤٢ ، وسيبويه ١ : ٣٦٥ ، وغيرهما ، وروايتهم جميعاً : « بصاحب » ، وكان فى الأصل المطبوع « بغائب » ، وأظن أن ما كان فى الطبرى خطأ من النساخ ، لأنه لايتفق مع الشعر. فالنابغة يمدح بهذه الأبيات عمرو بن الحارث الأعرج الغسانى ، فيقول قبله :

عَلَىَّ لِعَمْرٍو نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ لِوَالِدِهِ ، لَيْسَتْ بِذَاتِ عَقَارِبِ

فى نظائرَ لما ذكرنا يطولُ بإحصائها الكتاب .[1]

ويخرُج بـ « إلاّ » ما بعدها من معنى ما قبلها ومن صفته ، وإن كان كل واحد منهما من غير شكل الآخر ومن غير نوعه . ويسمِّى ذلك بعضُ أهل العربية « استثناء منقطعاً » ، لانقطاع الكلام الذى يأتى بعد « إلا » عن معنى ما قبلها . وإنما يكون ذلك كذلك، فى كل موضع حَسُن أن يوضع فيه مكانَ « إلا » « لكن » ؛ فيعلم حينئذ انقطاع معنى الثانى عن معنى الأول . ألا ترى أنك إذا قلت : « ومنهم أميون لا يعلمون الكتابَ إلاّ أمانىّ » ، ثم أردت وضع « لكن » مكان « إلا » وحذف « إلا » ، وجدتَ الكلام صحيحاً معناه ، صحّتَه وفيه « إلا » ؟ وذلك إذا قلت : ومنهم أمّيون لا يعلمون الكتاب لكن أمانىّ. يعنى : لكنهم يتمنون . وكذلك قوله: « ما لهمْ به من علم إلا اتّباعَ الظن » ، لكن اتباع الظن ، بمعنى : لكنهم يتّبعون الظن . وكذلك جميع هذا النوع من الكلام على ما وصفنا .

* * *

وقد ذُكر عن بعض القَرَأة أنه قرأ[2] : « إلا أَمانى » مخففة . ومن خفّف ذلك وجّهه إلى نحو جمعهم « المفتاح » « مفاتح » و « القرقور » « قراقر » ،[3] وأنّ

حلفت يميناً . . . .

لَئِنْ كَانَ لِلْقَبْرَيْنِ : قَبْرٍ بِجِلَّقٍ وَقَبْرٍ بِصَيداء الَّذِى عِنْدَ حَارِبِ

وَلِلحَارِثِ الجَفْنِىِّ سَيِّدِ قَوْمِهِ — لَيَلْتَمِسَنْ بالجَيْشِ دَارَ المَحَارِبِ

قوله : « مثنوية » أى استثناء . فهو يقول لعمرو : حلفت يميناً لئن كان من هو — من ولد هؤلاء الملوك من آبائه ، الذين عدد قبورهم ومآثرهم — ليغزون من حاربه فى عقر داره وليهزمنه ، ولم أقل هذا عن علم إلا ما عندى فى صاحبى من حسن الظن . فرواية الطبرى لا تستقيم ، إن صحت عنه .

(١) انظر سيبويه ١ : ٣٦٣ — ٣٦٦ « هذا باب يختار فيه النصب ، لأن الآخر ليس من نوع الأول » . ثم الباب الذى يليه : « هذا باب ما لا يكون إلا على معنى : ولكن » .

(٢) فى المطبوعة : « بعض القراء » و « لإجماع القراء » ، ورددته إلى ما جرى عليه الطبرى آنفاً .

(٣) انظر معانى القرآن للفراء : ١ : ٤٩ .

ياء الجمع لما حُذفت خففت الياء الأصلية — أعنى من « الأمانى » — كما جمعوا « الأثْفِيَّة » « أثافى » مخففة ، كما قال زهير بن أبى سلمى :

أَثَافِيَ سُفْعًا فِي مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ وَنُؤْيًا كَجِذْمِ الحَوْضِ لَمْ يَتَثَلَّمِ (١)

وأمّا من ثقّل « أمانىّ » فشدد ياءها ، فإنه وجّه ذلك إلى نحو جمعهم « المفتاح مفاتيح ، والقُرقور قراقير ، والزنبور زنابير » ، فاجتمعت ياء « فعاليل » ولامها ، وهما جميعاً ياآن ، فأدغمت إحداهما فى الأخرى ، فصارتا ياء واحدةً مشددة .

* * *

فأما القراءة التى لا يجوز غيرُها عندى لقارئ فى ذلك ، فتشديدُ ياء « الأمانى » ، لإجماع القَرَأة على أنها القراءة التى مضى على القراءة بها السلف — مستفيض ذلك بينهم ، غيرُ مدفوعة صحته — وشُذوذِ القارئ بتخفيفها عما عليه الحجة مجمعة فى ذلك . (٢) وكفى دليلاً على خطأ قارئ ذلك بتخفيفها (٣) ، إجماعُها على تخطئته. ٢٩٩/١

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٧٨)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « وإنْ هم إلا يظنون » ، وما هم ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ [سورة إبراهيم ١١] ، يعنى بذلك : ما نحن إلا بشر مثلكم .

* * *

ومعنى قوله : « إلا يَظنُّون » : إلا يشكون ، ولا يعلمون حقيقتَه وصحته .

و « الظن » — فى هذا الموضع — الشك .

(١) ديوانه : ٧ المرجل : قدر يطبخ فيها ، ومعرس المرجل : حيث يقام فيه ، من التعريس : وهو النزول والإقامة . وسفع جمع أسفع ، والسفعة : سواد تخالطه حمرة ، من أثر النار ودخانها . والنؤى : ما يقام من الحجارة حول الخباء حتى لا يدخله ماء المطر . وجذم الحوض : حرفه وأصله . يعنى : النؤى قد ذهب أعلاه وبقى أصله لم يتحطم ، كبقايا الحوض . يقول : عرفت الدار بهذه الآثار ، قبله : « فلأيا عرفت الدار بعد توهم » ، ونصب « أثافى » بقوله : « توهم » .

(٢) سياق العبارة : لإجماع القرأة على أنها القراءة . . . وعلى شذوذ القارىء بتخفيفها » على العطف .

(٣) فى المطبوعة : « وكفى خطأ على قارىء ذلك » ، وهو ليس بكلام صحيح ، والصواب ما أثبته ، استظهاراً من عبارة الطبرى ، فيما سلف من أشباه ذلك .

فمعنى الآية : ومنهم من لا يكتب ولا يخُطّ ولا يعلم كتاب الله ولا يدرى ما فيه ، إلاّ تخرّصاً وتقوّلاً على الله الباطل ، ظنًّا منه أنه محقّ في تخرّصه وتقوّله الباطلَ .

* * *

وإنما وصفهم الله تعالى ذكرُه بأنهم فى تخرّصهم على ظنّ أنهم محقون وهم مُبطلون ، لأنهم كانوا قد سمعوا من رؤسائهم وأحبارهم أمورًا حَسِبوها من كتاب الله ، ولم تكن من كتاب الله ، فوصفهم جل ثناؤه بأنهم يتركون التصديق بالذى يُوقِنون به أنه من عند الله مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، ويتَّبعون ما هم فيه شاكُّون ، وفى حقيقته مرتابون ، مما أخبرهم به كبراؤهم ورؤساؤهم وأحبارُهم ، عناداً منهم لله ولرسوله ، ومخالفةً منهم لأمر الله ، واغتراراً منهم بإمهال الله إياهم . وبنحو ما قلنا فى تأويل قوله : « وإن هُم إلاّ يَظنُّون » ، قال فيه المتأولون من السلف :

١٣٧٤ — حدثنى محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « وَإنْ هُم إلا يَظنُّون » ، إلا يكذبون .

١٣٧٥ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

١٣٧٦ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد مثله .

١٣٧٧ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانىّ وإن هُمْ إلاّ يَظنُّون » ، أى لا يعلمون ولا يدرون ما فيه ، وهم يجحدون نبوّتك بالظنّ .

١٣٧٨ — حدثنا بشر قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « وإنْ هُم إلاّ يظنون »، قال : يظنون الظنون بغير الحق .

١٣٧٩ — حدثنى المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن

الربيع ، عن أبي العالية قال : يظنون الظنون بغير الحق .

١٣٨٠ — حدثت عن عمار قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع مثله .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل في تأويل قوله : «فَوَيل» . فقال بعضهم بما : —

١٣٨١ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « فوَيْلٌ » ، يقول : فالعذاب عليهم .[1]

* * *

وقال آخرون بما : —

١٣٨٢ — حدثنا به ابن بشار . قال ، حدثنا ابن مهدى . قال ، حدثنا سفيان ، عن زياد بن فيّاض ، قال : سمعت أبا عياض يقول : الوَيْلُ : ما يسيل من صديدٍ في أصل جهنم .[2]

١٣٨٣ — حدثنا بشر بن أبان الحطّاب قال ، حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن زياد بن فياض ، عن أبي عياض في قوله : «فويل» ، قال : صهريج في أصل جهنم ، يسيل فيه صديدهم .[3]

---

(١) في المطبوعة : « فويل لهم » . والصواب حذف « لهم » ، ليست من الآية هنا .

(٢) الخبر : ١٣٨٢ — سفيان : هو الثورى . زياد بن فياض الخزاعى : ثقة ، مات سنة ١٢٩ . مترجم في التهذيب ، والكبير للبخارى ٢ / ١ / ٣٣٤ ، وابن أبي حاتم ١ / ٢ / ٥٤٢ . أبو عياض : هو عمرو بن الأسود العنسى ، تابعى ثقة ، كان من عباد أهل الشأم وزهادهم . مترجم في التهذيب ، وابن أبي حاتم ٣ / ١ / ٢٢٠ — ٢٢١ .

(٣) الخبر : ١٣٨٣ — بشر بن أبان الحطاب ، شيخ الطبرى : لم أجد له ترجمة ولا ذكراً فيما بين يدى من المراجع .

١٣٨٤ – حدثنا على بن سهل الرملى قال ، حدثنا زيد بن أبى الزرقاء قال ، حدثنا سفيان ، عن زياد بن فياض ، عن أبى عياض قال : الويل ، وادٍ من صديد فى جهنم .(١)

١٣٨٥ – حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا مهران ، عن شقيق قال : « ويل » ، ما يسيل من صديد فى أصل جهنم .

* * *

وقال آخرون بما : –

١٣٨٦ – حدثنا به المثنى قال ، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح التسترى . قال ، حدثنا على بن جرير ، عن حماد بن سلمة ، عن عبد الحميد ابن جعفر ، عن كنانة العدوى ، عن عثمان بن عفان ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الويل جبلٌ فى النار .(٢)

---

(١) الخبر : ١٣٨٤ – على بن سهل الرملى ، شيخ الطبرى : ثقة ، مات سنة ٢٦١ . مترجم فى التهذيب ، وابن أبى حاتم ٣ /١/١٨٩ . زيد بن أبى الزرقاء الموصلى ، نزيل الرملة : ثقة ، مات سنة ١٩٤ . مترجم فى التهذيب ، والكبير ٢/١/٣٦١ ، وابن أبى حاتم ١/٢/٥٧٥ . سفيان هو الثورى . « عن زياد بن فياض » ، كالإسنادين اللذين قبله . وفى المطبوعة : « سفيان بن زياد بن فياض » ، وهو تحريف .

(٢) الحديث : ١٣٨٦ – هذا الإسناد مشكل . ووقع فيه هنا خطأ . من الناسخ أو الطابع ، صححناه من الرواية الآتية : ١٣٩٥ فقد كان فيه « حماد بن سلمة بن عبد الحميد بن جعفر » ؛ وصوابه « عن عبد الحميد بن جعفر » ، كما هو بديهى .

وأما ما أشكل علينا فيه : فراويان لم نجد لهما ذكراً ولا ترجمة .

أحدهما : « إبرهيم بن عبد السلام بن صالح التسترى » . وسيأتى فى الإسناد الآخر « إبرهيم بن عبد السلام » فقط . ولم أستطع أن أعرف من هو ؟ وقد نقل ابن كثير ١ : ٢١٧ الحديث الآتى : ١٣٩٥ ، وأكمل نسب هذا الشيخ ، ولكنه وقع فيه هكذا « إبرهيم بن عبد السلام ، حدثنا صالح القشيرى » ! وأنا لست على ثقة من دقة التصحيح فى طبعة تفسير ابن كثير ، وأرى أن ما فى نسخة الطبرى أقرب إلى الصحة .

والراوى الآخر : « على بن جرير » . وقد أتعبنى أن أعرف من هو ؟ مع البحث فى كل المراجع ، وتقليبه على كل الاحتمالات .

وأما عبد الحميد بن جعفر : فإنه الأنصارى الأوسى المدنى ، وهو ثقة ، وثقه أحمد وابن سعد وغيرهما ، مات سنة ١٥٣ ، مترجم فى التهذيب ، وابن أبى حاتم ٣/١/١٠ . و « كنانة العدوى » : هو كنانة ابن نعيم ، وهو تابعى ثقة ، مترجم فى التهذيب ، والكبير للبخارى ٤/١/٢٣٦ ، وابن أبى حاتم ٣/٢/

١٣٨٧ - حدثني يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال ، حدثني عمرو بن ٣٠٠/١ الحارث ، عن درّاج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « ويل » وادٍ في جهنم ، يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ إلى قعره .(١)

* * *

قال أبو جعفر : فمعنى الآية - على ما روى عمن ذكرت قوله في تأويل « ويل » -: فالعذاب = الذي هو شُرب صديد أهل جهنّم في أسفل الجحيم = لليهود الذين يكتبون الباطل بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله .

* * *

---

١٦٩ . ولكني أخشى أن لا يكون أدرك عثمان بن عفان ، فإنهم لم يذكروا له رواية إلا عن أبي برزة الأسلمي وقصيبة بن المخارق ، وهما متأخران كثيراً عن عثمان .

وأيا ما كان ، فهذا الحديث لا أظنه مما يقوم إسناده . وهو مختصر من الحديث الآتي : ١٣٩٥ . والحافظ ابن كثير حين ذكره عن الطبري ، وصفه بأنه « غريب جداً » . وقد ذكره السيوطي أيضاً ١ : ٨٢ ، ولم ينسباه لغير الطبري . فالله أعلم .

(١) الحديث : ١٣٨٧ - إسناده صحيح . عمرو بن الحارث بن يعقوب الأنصاري المصري : ثقة حافظ متقن ، مترجم في التهذيب ، وابن سعد ٧/٢/٢٠٣ وابن أبي حاتم ٣/١/٢٢٥ . دراج ، بفتح الدال وتشديد الراء : هو ابن سمعان ، أبو السمح ، المصري القاص ، وهو ثقة ، فيه خلاف كثير . والراجح عندنا أنه ثقة ، كما بينا ذلك في شرح المسند : ٦٦٣٤ ، وفي تعليقنا على تهذيب السنن : ٢٣٨٨ . أبو الهيثم : هو سليمان بن عمرو العتواري المصري ، كان يتيما لأبي سعيد الخدري ، وكان في حجره . وهو تابعي ثقة ، مترجم في التهذيب ، والكبير للبخاري ٢/٢/٢٨-٢٩ ، وابن أبي حاتم ٢/١/١٣١-١٣٢

والحديث رواه ابن أبي حاتم - كما نقل عنه ابن كثير ١ : ٢١٧ - عن يونس بن عبد الأعلى ، شيخ الطبري هنا ، بهذا الإسناد .

ورواه الحاكم في المستدرك ٤ : ٥٩٦ ، من طريق بحر بن نصر . عن ابن وهب ، بهذا الإسناد ، بزيادة في آخره . وقال : « هذا حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه » . ووافقه الذهبي .

ورواه أحمد في المسند : ١١٧٣٥ (ج ٣ ص ٧٥ حلبي) ، عن حسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، عن دراج ، به ، بزيادة في آخره . وقال ابن كثير - عقب رواية ابن أبي حاتم : « ورواه الترمذي عن عبد بن حميد ، عن الحسن بن موسى ... وقال : هذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة . قلت [القائل ابن كثير] : لم ينفرد به ابن لهيعة كما ترى . ولكن الآفة ممن بعده ! وهذا الحديث بهذا الإسناد مرفوعاً - منكر » !

أقول : وابن كثير يريد بذلك جرح دراج أبي السمح ، وجعله علة الحديث . والصحيح ما ذهبنا إليه . وقد رواه ابن حبان في صحيحه أيضاً . كما في الدر المنثور ١ : ٨٢ .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بذلك الذين حرّفوا كتاب الله من يهود بنى إسرائيل ، وكتبوا كتاباً على ما تأوّلوه من تأويلاتهم ، مخالفاً لما أنزل الله على نبيه موسى صلى الله عليه وسلم ، ثم باعُوه من قوم لاعلم لهم بها ، ولا بما فى التوراة ، جُهّال بما فى كتب الله — لطلب عرَضٍ من الدنيا خسيس ، فقال الله لهم : « فويلٌ لهم مما كتبتْ أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون » ، كما : —

١٣٨٨ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « فويلٌ للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً » ، قال : كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم ، يبيعونه من العرَب ، ويحدّثونهم أنه من عند الله ، ليأخذوا به ثمناً قليلاً .

١٣٨٩ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر ابن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : : الأميّون قوم لم يصدّقوا رسولاً أرسله الله ، ولا كتاباً أنزله الله ، فكتبوا كتاباً بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سِفْلة جُهّال : هذا من عند الله ، « ليشتروا به ثمناً قليلاً » . قال : عَرَضاً من عَرَض الدنيا .

١٣٩٠ — حدثنى محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله : « للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله » ، قال : هؤلاء الذين عرفوا أنه من عند الله ، يحرّفونه .

١٣٩١ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله — إلا أنه قال : ثم يحرّفونه .

١٣٩٢ ــ حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد ، عن قتادة : « فويلٌ للذين يَكتبون الكتاب بأيديهم » الآية ، وهم اليهود .

١٣٩٣ ــ حدثنا الحسن بن يحيي قال، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « فويلٌ للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم ثم يَقولون هذا من عند الله » ، قال : كان ناس من بنى إسرائيل كتبوا كتاباً بأيديهم ، ليتأكّلوا الناس ، فقالوا : هذا من عند الله ، وما هو من عند الله .(١)

١٣٩٤ ــ حدثنى المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية قوله : « فويلٌ للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله لَيشتروا به ثمناً قليلاً » ، قال : عَمدوا إلى ما أنزل الله فى كتابهم من نَعْت محمد صلى الله عليه وسلم فحرّفوه عن مواضعه ، يبتغون بذلك عَرَضاً من عرض الدنيا ، فقال : « فويلٌ لَهم مما كتبت أيديهم ووَيل لَهُم مما يكسِبون » .

١٣٩٥ ــ حدثنى المثنى بن إبراهيم قال، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام قال ، حدثنا على بن جرير ، عن حماد بن سلمة ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن كنانة العدَوىّ ، عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فويل لهم مما كتبتْ أيديهم ووَيلٌ لهم مما يكسبون » ، الويل جبل فى النار ، وهو الذى أنزل فى اليهود ، لأنهم حرّفوا التوراة ، وزادوا فيها ما يحبون ، ومَحوْا منها ما يكرهون ، ومحوْا اسم محمد صلى الله عليه وسلم من التوراة . فلذلك غَضب الله عليهم ، فرفع بعض التوراة ، فقال : « فويل لَهم مما كتبت أيْديهم وَوَيْلٌ لهم مما يَكسبون » .(٢) ٣٠١/١

١٣٩٦ ــ حدثنى يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، أخبرنى سعيد بن أبى

---

(١) يقال فلان يستأكل الضعفاء : يأخذ أموالهم ويأكلها . أما قوله : « ليتأكلوا » ، فلم أجد فى المعاجم « يتأكل » ، فإن صح نص الطبرى ، وإلا فهى عربية معرقة ، صح أو لم يصح .

(٢) الحديث : ١٣٩٥ — مضى الكلام فيه مفصلا : ١٣٨٦ .

أيوب ، عن محمد بن عجلان ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار . قال : وَيلٌ ، واد فى جهنم ، لو سُيرت فيه الجبال لانماعَت من شدة حرِّه .(١)

* * *

قال أبو جعفر : إن قال لنا قائل : وما وجه قوله :(٢) « فَويلٌ للذين يَكتبون الكتاب بأيديهم » ؟ وهل تكون الكتابة بغير اليد ، حتى احتاج المخاطَبون بهذه المخاطبة ، إلى أن يُخبَروا عن هؤلاء القوم — الذين قصَّ قصَّتهم — أنهم كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم ؟

قيل له : إن الكتابَ من بنى آدمَ ، وإن كان منهم باليد ، فإنه قد يضاف الكتاب إلى غير كاتبه وغير المتولّى رسم خطّه فيقال : « كتب فلان إلى فلان بكذا » ، وإن كان المتولّى كتابته بيده ، غيرُ المضاف إليه الكتاب ، إذا كان الكاتبُ كتبه بأمر المضاف إليه الكتاب . فأعلم ربُّنا بقوله : « فوَيلٌ للذين يكتبون الكتابَ بأيديهم » عبادَه المؤمنين ، أنّ أحبارَ اليهود تَلى كتابةَ الكذب والفرْية على الله بأيديهم ، على علم منهم وعمد للكذب على الله ، ثم تَنْحَله إلى أنه من عند الله وفى كتاب الله ،(٣) تكذّباً على الله وافتراءً عليه . فنفَى جل ثناؤه بقوله : « يكتبون الكتابَ بأيديهم » ، أن يكون وَلِى كتابةَ ذلك بعض جُهالهم بأمر علمائهم وأحبارهم . وذلك نظيرُ قول القائل : « بَاعنى فلانٌ عينَه كذا وكذا ، فاشترى فلانٌ نفسَه كذا » ، يراد بإدخال « النفس والعين » فى ذلك ، نفىُ اللَّبس عن سامعه ، أنْ يكون المتولِّى بيعَ ذلك أو شراءَه ، غيرُ الموصوف له أمره ،(٤) ويُوجب حقيقةَ الفعل للمُخبَر

---

(١) سيرت : أدخلت ودفعت لتسير . وانماع الملح فى الماء : ذاب . وفى اللسان روى تفسير عطاء ، وفيه : « لماعت » ، أى ذابت وسالت .

(٢) فى المطبوعة : « فما وجه فويل للذين . . . » ، كأنه سقط حرف من ناسخ أو طابع .

(٣) يقال : نحل فلان فلاناً شعراً : نسبه إليه باطلا . وكره الطبرى أن يقول ما لا يجوز لأحد فى ذكر ربه سبحانه وتعالى ، فانتهج طريقاً فى أساليب العربية ، فقال : « فنحله إلى أنه من عند الله » أى نسبه باطلا إلى أنه من عند الله . ولم يعد الفعل إلى مفعوليه .

(٤) كان فى المطبوعة : « أن يكون المتولى بيع ذلك وشراءه ، غير الموصوف به بأمره » وهو كلام غير واضح ولا مفهوم ، فآثرت أن أصححه ما استطعت .

عنه . فكذلك قوله : « فويلٌ للذين يَكتبون الكتابَ بأيديهم » .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ (٧٩)

قال أبو جعفر: يعنى جل ثناؤه بقوله: «فوَيلٌ لهم مما كتبت أيديهم»، أى: فالعذابُ — فى الوادى السائل من صديد أهل النار فى أسفل جهنم — لهم ، يعنى : للذين يكتبون الكتابَ ، الذى وصفنا أمره، من يهود بنى إسرائيل محرَّفاً، ثم قالوا : هذا من عند الله ، ابتغاءَ عَرَضٍ من الدنيا به قليل ممن يبتاعه منهم .

* * *

وقوله: « مما كتبت أَيْديهم » ، يقول: من الذى كتبت أيديهم من ذلك ، وويل لهم أيضاً «مما يَكسِبون» ، يعنى : مما يعملون من الخطايا، ويجترحون من الآثام ، ويكسِبون من الحرام ، بكتابهم الذى يكتبونه بأيديهم بخلاف ما أنزل الله ، ثم يأكلون ثمنه ، وقد باعوه ممن باعوه منهم على أنه من كتاب الله ، كما : —

١٣٩٧ — حدثنى المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : « وويَل لهم مما يَكسبون » ، يعنى : من الخطيئة .

١٣٩٨ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « فويل لهم »، يقول : فالعذاب عليهم . قال : يقول : من الذى كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب ، « وويل لَهمْ مما يَكسبون » ، يقول : مما يأكلون به من السِّفْلة وغيرهم .

* * *

قال أبو جعفر : وأصل «الكسْب»: العمل . فكل عامل عملاً ، بمباشرة منه لما عَمل، ومُعاناةٍ باحتراف ، فهو كاسبٌ لما عمل ، كما قال لبيد بن ربيعة :

لِمُعَفَّرٍ قَهْدٍ تَنَازَعَ شِلْوَهُ غُبْسٌ كَوَاسِبُ ، لا يُمَنُّ طَعَامُهَا[1]

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾

٣٠٢/١ قال أبو جعفر : يعنى بقوله : «وقالوا» ، اليهودَ . يقول : وقالت اليهود : « لن تمسنا النارُ » ، يعنى : لن تُلاقِىَ أجسامنا النارُ ولن ندخلها ، «إلا أياماً معدودة» . وإنما قيل « معدودة » ، وإن لم يكن مبيناً عددها فى التنزيل ، لأن الله جل ثناؤه أخبر عنهم بذلك ، وهم عارفون عَدَدَ الأيام التى يُوقِّتُونها لمكثهم فى النار . فلذلك تَرَكَ ذكرَ تسمية عددَ تلك الأيام ، وسمَّاها «معدودةً» ، لما وصفنا .

* * *

ثم اختلف أهل التأويل فى مبلغ الأيام المعدودة التى عيَّنها اليهود ، القائلون ما أخبر الله عنهم من ذلك . فقال بعضهم بما : —

١٣٩٩ — حدثنا به أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « وَقالوا لنْ تَمسَّنا النارُ إلاَّ أياماً معدودة » ، قال ذلك أعداءُ الله اليهود ، قالوا : لن يدخلنا الله النار إلاَّ

---

(١) من معلقته النبيلة . واللام فى قوله « لمعفر » ، ترده إلى البيت قبله :

خَنْسَاءُ ضَيَّعتِ الفَرِيرَ ، فلم يَرِمْ عُرْضَ الشَّقَائِقِ طَوْفُها وبُغَامُها

والخنساء : البقرة الوحشية ، والفرير : ولدها . والشقائق : أرض غليظة بين رملتين ، أودعت هناك فيه ولدها . وطوفها : طوافها حائرة . بغامها : صوتها صائحة باكية . ظلت تطوف وتنادى ولدها . وقوله : « لمعفر » ، أى طوفها وبغامها من أجل « معفر » . والمعفر : الذى ألقى فى العفر ، وهو التراب ، صادت ولدها الذئاب . قهد : هو ولد البقر ، لطيف الجسم أبيض اللون . والشلو : العضو من اللحم ، أو الجسد كله . وغبس : غبر ، وهى الذئاب . لا يمن طعامها : تكسب طعامها بنفسها ، فلا يمن عليها أحد .

تحلَّة القسم ، الأيامَ التى أصبنا فيها العجلَ : أربعين يوماً ، فإذا انقضت عنّا تلك الأيام ، انقطع عنا العذَابُ والقسَم .

١٤٠٠ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « لن تمسَّنا النار إلاّ أياماً معدودةً »، قالوا : أياماً معدودة بما أصبْنا فى العجل .

١٤٠١ — حدثنا موسى قال، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « وقالوا لن َتمسَّنا النارُ إلا أياماً معدودةً »، قال : قالت اليهود : إن الله يُدْخلنا النار فنمكث فيها أربعين ليلة، حتى إذا أكلت النارُ خطايانا واستنقتنا ،[١] نادى منادٍ : أخرجوا كُلَّ مختون من ولد بنى إسرائيل. فلذلك أمرنا أن َنختتن . قالوا : فلا يدَعون منا فى النار أحداً إلاّ أخرجوه .

١٤٠٢ — حدثنى المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية قال : قالت اليهود : إن ربنا َعتب علينا فى أمرنا ، فأقسم ليعذبنَّا أرْبعين ليلة ، ثم يخرجنا. فأكذبهم الله .

١٤٠٣ — حدثنى المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن قتادة قال : قالت اليهود : لن ندخل النار إلا تَحِلَّة القسم ، عدَد الأيام التى عبَدْنا فيها العجل .

١٤٠٤ — حدثنى محمد بن سعد قال ، حدثنى أبى قال ، حدثنى عمى قال ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله : « لنْ تمسنا النارُ إلا أياماً معدودة » الآية ، قال ابن عباس: ذُكر أن اليهود وجدوا فى التوراة مكتوباً، أنَّ ما بين َطرَفى جهنمَّ مسيرة أربعين سنة ، إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقُّوم نابتةً فى أصل الجحيم — وكان ابن عباس يقول : إنَّ الجحيم َسقر ، وفيها شجرة الزقوم — فزعم أعداء الله ،

(١) نقيت الثوب (بتشديد القاف) وأنقيته نقاء فهو نقى : نظيف . و« استنقيته » ليست فى المعاجم، ولكنها صحيحة البناء والمعنى .

أنه إذا خلا العدد الذي وجدوا في كتابهم أياماً معدودة — وإنما يعني بذلك المسيرَ الذي ينتهي إلى أصل الجحيم — فقالوا : إذا خلا العدد انتهى الأجل . فلا عذابَ ، وتذهب جهنم وتهلك .[1] فذلك قوله : « لن تمسنا النارُ إلا أياماً معدودة » ، يعنون بذلك الأجل . فقال ابن عباس : لما اقتحموا من باب جهنمّ ، ساروا في العذاب حتى انتهوا إلى شجرة الزقوم آخرَ يوم من الأيام المعدودة ، قال لهم خُزّانُ سقر : زعمتم أنكم لن تمسكم النارُ إلا أياماً معدودة ! فقد خلا العدُد ، وأنتم في الأبد ! فأخذ بهم في الصَّعود في جهنم يُرْهقون .[2]

١٤٠٥ — حدثني محمد بن سعد قال ، حدثني أبي قال ، حدثني عمي قال ، حدثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس : « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة » ، إلا أربعين ليلةً .

١٤٠٦ — حدثني المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة قال : خاصمت اليهُود رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : لن ندخلَ النارَ إلا أربعين ليلة ، وسيخلفنا فيها قوم آخرون — يعنون محمداً وأصحابه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على رؤسهم[3] : بل أنتم فيها خالدون ، لا يخلُفكم فيها أحد . فأنزل الله جل ثناؤه : « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة » . ٣٠٣/١

١٤٠٧ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، قال ، أخبرني الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، قال : اجتمعت يهودُ يوماً تُخاصم النبيَّ صلى الله عليه وسلم . فقالوا : « لن تمسنا النارُ إلا أياما معدودة » ،

---

(١) خلا يخلو : مضى وذهب وانقضى .

(٢) الصعود : مشقة العذاب ، ولكنه أراد هنا ما قالوا : جبل في جهنم من جمرة واحدة ، يكلف الكافر ارتقاءه ، ويضرب بالمقامع ، فكلما وضع عليه رجله ذابت إلى أسفل دركه ، ثم تعود مكانها صحيحة ، والله أعلم .

(٣) قال بيده : أشار . وقد مضى مثل ذلك مراراً .

— وسَموا أربعين يوماً — ثم يَخلُفنا ، أو يلحقنا ، فيها أناس . فأشاروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم ، بل أنتم فيها خالدون مخلَّدون ، لا نلحقكُم ولا نخلُفكم فيها إن شاء الله أبداً.[١]

١٤٠٨ — حدثني يونس بن عبد الأعلى قال ، أخبرنا على بن معبد ، عن أبي معاوية ، عن جويبر ، عن الضحاك فى قوله : « لنْ تمسنا النارُ إلاَّ أياماً معدودة »، قال: قالت اليهود : لا نعذَّب فى النار يوم القيامة إلا أربعين يوماً ، مقدارَ ما عَبدنا العجل .

١٤٠٩ — حدثني يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد ، حدثني أبي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : أنشُدُكم بالله وبالتوراة التى أنزَلها الله على موسى يوم طورسيناء، مَنْ أهلُ النار الذين أنزلهم الله فى التوراة ؟ وقالوا : إن ربَّهم غضب عليهم غضبة ، فنمكث فى النار أربعين ليلة ، ثم نخرج فتخلفوننا فيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتم والله ، لا نخلفكم فيها أبداً. فنزل القرآن تصديقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم وتكذيباً لهم : « وقالوا لن تمسنا النار إلاَّ أياماً مَعدودةً قلْ أتخذتم عندالله عَهداً» إلى قوله : «هم فيها خالدون».[٢]

* * *

وقال آخرون فى ذلك بما : —

١٤١٠ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا يونس بن بكير قال ، حدثنا ابن إسحق قال : حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت قال ، حدثني سعيد ابن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس قال : كانت يهودُ يَقولون : إنما مدَّة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما يعذِّب الله الناسَ يوم القيامة بكل ألف سنة من أيام الدنيا يوماً واحداً من أيام الآخرة ، وإنها سبعة أيام . فأنزل الله فى ذلك من

(١) الحديثان : ١٤٠٦ ، ١٤٠٧ — هما حديث واحد بإسنادين . ونسبه السيوطي أيضاً ١ : ٨٤ ، لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم . وهو حديث مرسل ، لا تقوم به حجة .

(٢) الحديث : ١٤٠٩ — هو حديث مرسل أيضاً .

قولهم : « وقالوا لن تَمسنا النارُ إلا أياماً معدودةً » الآية .

١٤١١ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة، عن محمد بن إسحق قال ، حدثني محمد بن أبي محمد ، عن سعيد بن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ ، ويهودُ تقول : إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما يُعذَّب الناس في النار بكل ألف سنة من أيام الدنيا ، يوماً واحداً في النار من أيام الآخرة ، فإنما هي سبعة أيام ، ثم ينقطعُ العذاب . فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم : « لن تمسَّنا النار » الآية .

١٤١٢ — حدثني محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قول الله : « قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودةً » ، قال : كانتْ تقول : إنما الدنيا سبعة آلاف سنة ، وإنما نعذَّب مكانَ كل ألف سنة يوماً .

١٤١٣ — حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد مثله — إلاّ أنه قال : كانت اليهود تقول : إنما الدنيا ، وسائر الحديث مثله .

١٤١٤ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج قال ، قال ابن جريج ، قال مجاهد : وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة من الدهر . وسمَّوا عِدَّة سبعة آلاف سنة ، من كل ألف سنة يوماً . يهودُ تقوله .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٨٠)

قال أبو جعفر : لما قالت اليهود ما قالت من قولها : « لن تمسنا النارُ إلا أياماً

معدودة » — على ما قد بينا من تأويل ذلك — قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قلْ يا محمد ، لمعشر اليهود : « أتخذتمْ عند الله عهداً » : أأخذتم بما تقولون من ذلك من الله ميثاقاً ، فالله لا يَنقُض ميثاقه ، ولا يُبدِّلُ وعدَه وعقده ، أم تَقولون على الله الباطلَ جهلاً وَجراءةً عليه ؟ كما : —

٣٠٤/١

١٤١٥ — حدثنا محمد بن عمرو قال ،حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد: « قل أتَّخذتم عند الله عَهداً » ، أى : مَوْثِقاً من الله بذلك أنه كما تقولون .

١٤١٦ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد مثله .

١٤١٧ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن قتادة قال : قالت اليهود : لن ندخل النار إلاّ تَحِلَّة القسم ، عدَّةَ الأيام التى عبدنا فيها العجل ، فقال الله : « أتَّخذتمُ عندْ الله عهداً » ، بهذا الذى تقولونه ؟ ألكم بهذا حُجَّة وبرهان ؟ فلن يُخلف الله عهده ، فهاتوا حُجتكم وبرهانكم ، أم تقولون على الله مالا تعلمون ؟

١٤١٨ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد ، عن بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : لما قالت اليهود ما قالت ، قال الله جل ثناؤه لمحمد ، قل: « أتَّخذتُم عند الله عَهداً » ، يقول : أدَّخرتمُ عند الله عهداً ؟ يقول : أقلتم لا إله إلا الله ، لم تشركوا ولم تكفروا به ؟ فإن كنتم قُلتموها فارجوا بها ، وإن كنتمْ لم تقولوها ، فلمَ تقولون على الله ما لا تعلمون؟ يقولون : لو كنتم قلتم لا إله إلا الله ولم تشركوا به شيئاً ، ثم متُّم على ذلك ، لكان لكم ذُخراً عندى ، ولم أخلفْ وعدى لكم : أنى أجازيكم بها .

١٤١٩ — حدثنى موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدّى قال : لما قالت اليهود ما قالت ، قال الله عز وجل : « قل أتَّخذتُم

عند الله عهداً فلن يُخلف الله عهده »— وقال فى مكان آخر: ﴿ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ٢٤] ، ثم أخبر الخبرَ فقال : « بلَى مَنْ كسب سيئة ».

* * *

قال أبو جعفر : وهذه الأقوال التى رويناها عن ابن عباس ومجاهد وقتادة، بنحو ما قلنا فى تأويل قوله : قُل أتخذتم عند الله عهداً . لأن مما أعطاهُ الله عبادَه من ميثاقه : أنّ من آمن به وأطاع أمره ، نجّاه من ناره يوم القيامة . ومن الإيمان به ، الإقرارُ بأنْ لاَ إله إلا الله . وكذلك منْ ميثاقه الذى واثقهم به : أنّ من أتَى الله يوم القيامة بحجة تكون له نجاةٌ من النار ، فيُنجيه منها . وكل ذلك ، وإن اختلفت ألفاظ قائليه ، فتّفق المعانى ، على ما قلنا فيه . والله تعالى أعلم .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً ﴾

قال أبو جعفر : وقوله : « بلَى من كسبَ سيئة »، تكذيبٌ من الله القائلين من اليهود : « لن تمسنا النارُ إلا أياماً معدودةً »، وإخبارٌ منه لهم أنه معذّبٌ من أشرك ومن كفر به وبرسله ، وأحاطت به ذنوبه ، فمخلّده فى النار ،[1] فإن الجنة لا يسكنها إلا أهلُ الإيمان به وبرسوله ، وأهلُ الطاعة له ، والقائمون بحدوده . كما : —

١٤٢٠ — حدثنا محمد بن حميد قال، حدثنا سلمة قال ، حدثنى محمد بن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس : « بلَى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته »، أى : من عمل مثل أعمالكم ، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط كُفره بما لهُ من حسنة ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

* * *

قال أبو جعفر : وأمّا « بلَى »، فإنها إقرار فى كل كلام فى أوله جحدٌ ، كما

(١) فى المطبوعة : « أنه يعذب . . . فخلد فى النار » ، والصواب ما أثبته .

« نعم » إقرار فى الاستفهام الذى لا جحد فيه . وأصلها « بل » التى هى رجوع عن الجحد المحض فى قولك: «ما قام عمرو بَلْ زيد» . فزيدت فيها « الياء » ليصلح عليها الوقوف ، إذ كانت « بل » لا يصلح عليها الوقوف ، إذ كانت عطفاً ورجوعاً عن الجحد . ولتكون — أعنى « بلى » — رجوعاً عن الجحد فقط ، وإقراراً بالفعل الذى بعد الجحد ، فدلَّت « الياء » منها على معنى الإقرار والإنعام .[1] ودل لفظ « بل » على الرجوع عن الجحد .[2] ٣٠٥/١

* * *

قال أبو جعفر : وأما «السيئة» التى ذكرَ اللهُ فى هذا المكان ، فإنها الشرك بالله ، كما : —

١٤٢١ — حدثنا محمد بن بشار قال، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن سفيان قال ، حدثنى عاصم ، عن أبى وائل : «بَلَى مَنْ كسب سَيِّئَةً» ، قال : الشرك بالله .

١٤٢٢ — حدثنى محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « بَلَى من كسب سَيئة » : شِركاً .

١٤٢٣ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

١٤٢٤ — حدثنا بشر بن معاذ قال،حدثنا يزيد بن زريع ، قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، قوله : « بَلَى مَنْ كسب سَيئة » ، قال : أما السيئة فالشِّرك .

١٤٢٥ — حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة مثله .

١٤٢٦ — حدثنى موسى قال، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن

---

(١) الإنعام : التصديق . يقال : أنعم : أجاب بقوله : نعم . وهو تصديق .

(٢) انظر معانى القرآن للفراء ١ : ٥٢ — ٥٣ ، وقد عد الطبرى الحرف الآخر من « بل » « ياء » ، وعدها الفراء « ألفاً » .

السدى : « بلى من كسب سيئة » ، أما السيئة ، فهى الذنوب التى وَعدَ عليها النار .

١٤٢٧ ــ حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قال ، قلت لعطاء : « بلى من كسب سيئة » ، قال : الشرك ــ قال ابن جريج قال ، قال مجاهد : « سيّئةً » ، شركاً .

١٤٢٨ ــ حدثت عن عمار بن الحسن قال : حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله : « بَلَى من كسب سيئة » ، يعنى : الشركَ .

* * *

قال أبو جعفر : وإنما قلنا إنّ « السيئة » ــ التى ذكر الله جل ثناؤه أنّ من كسبها وأحاطت به خطيئته ، فهو من أهل النار المخلدين فيها ــ فى هذا الموضع ، إنما عنى الله بها بعض السيئات دون بعض ، وإن كان ظاهرُها فى التلاوة عامًّا ،(١) لأن الله قَضَى على أهلها بالخلود فى النار . والخلود فى النار لأهل الكفر بالله دون أهل الإيمان به ، لتظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنّ أهل الإيمان لا يخلَّدون فيها ، وأن الخلودَ فى النار لأهل الكفر بالله دون أهل الإيمان . فإن الله جل ثناؤه قد قَرَن بقوله : « بَلَى مَنْ كسب سَيئة وأحَاطَتْ به خَطيئته فأولئك أصحابُ النار هُم فيها خالدون » ــ قولَهُ ــ « والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئكَ أصْحابُ الجنة هُم فيها خالدون » . فكان معلوماً بذلك أن الذين لهم الخلود فى النار من أهل السيئات ، غيرُ الذين لهم الخلود فى الجنة من أهل الإيمان .

* * *

فإن ظن ظان أن الذين لهم الخلود فى الجنة من الذين آمنوا ، هم الذين عملوا الصالحات ، دون الذين عملوا السيئات ، فإنّ فى إخبار الله = أنه مكفِّرٌ ــ باجتنابنا كبائرَ ما نُنهى عنه ــ سيئاتِنا ، ومدخلُنا المدْخلَ الكريم = ما ينبىء عن صحة ما قلنا فى تأويل قوله : « بلى من كسب سَيئة » ، بأن ذلك على خاص من السيئات دون عامِّها .

* * *

فإن قال لنا قائل : فإن الله جل ثناؤه إنَّما ضَمِن لنا تكفيرَ سيئاتنا باجتنابنا

(١) انظر تفسير « الظاهر » فيما سلف : ٢ : ١٥ والمراجع

كبائرَ ما نُنهى عنه ، فما الدلالة على أن الكبائر غيرُ داخلة فى قوله : « بلى مَن كسب سيئة » ؟

قيل : لما صَحّ أن الصغائر غير داخلة فيه ، وأن المعنىّ بالآية خاصٌّ دون عامٍّ ، ثَبت وصحّ أن القضاء والُحكم بها غيرُ جائز لأحد على أحد ، إلا على من وَقفه الله عليه بدلالة من خبر قاطعٍ عُذرَ من بَلَغه. وقد ثَبت وصَحّ أن الله تعالى ذكره قد عَنى بذلك أهلَ الشرك والكفر به ، بشهادة جميع الأمة . فوَجب بذلك القضاءُ على أن أهل الشرك والكفر ممن عَناه الله بالآية . فأما أهل الكبائر ، فإن الأخبار القاطعةَ عُذْرَ من بَلَغته ، قد تظاهرت عندنا بأنهم غيرُ معنيِّين بها .

فمن أنكر ذلك — ممنّ دافع حُجّة الأخبار المستفيضة والأنباء المتظاهرة — فاللازم له تركُ قطع الشهادة على أهل الكبائر بالخلود فى النار ، بهذه الآية ونَظائرها ٣٠٦/١ التى جاءت بعمومهم فى الوعيد . إذْ كان تأويلُ القرآن غيرَ مدْرَك إلا ببيانِ مَنْ جعل الله إليه بَيانَ القرآن ، وكانت الآية يأتى عامًّا فى صنفٍ ظاهرُها ، وهى خاصٌّ فى ذلك الصنف باطنها.[1]

* * *

ويُسأل مُدَافعو الخبر بأنّ أهلَ الكبائر من أهل الاستثناء ، سُؤالَنا مُنكرَ رَجْم الزانى المحْصن ، وزوال فَرْض الصلاة عن الحائض فى حال الحيض . فإن السؤالَ عليهم ، نظيرُ السؤال على هؤلاء ، سَواءً .[2]

* * *

(١) انظر تفسير « الظاهر والباطن » آنفاً : ٢ : ١٥ والمراجع

(٢) هذا رد على المعتزلة ، فى إيجابهم خلود أهل الكبائر من أهل الإيمان فى النار . ورجم الزانى المحصن ، وزوال فرض الصلاة عن الحائض فى حال الحيض ، مما جاء فى الأخبار ، ولم يأت به نص قرآن .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « وأحاطتْ به خطيئته » ، اجتمعتْ عليه فمات عليها، قبل الإنابة والتوبة منها .

* * *

وأصلُ « الإحاطة بالشيء » ، الإحداق به، بمنزلة «الحائط» الذى تُحاط به الدار فتُحدِق به . ومنه قول الله جل ثناؤه : ﴿ نارًا أحاط بهمْ سُرَادِقُها ﴾ [سورة الكهف : ٢٩]

* * *

فتأويل الآية إذاً : مَنْ أشرك بالله ، واقترفَ ذنوباً جمة فمات عليها قبل الإنابة والتوبة ، فأولئك أصحاب النار هم فيها مخلَّدون أبداً . وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك قال المتأولون . ذكر من قال ذلك :

١٤٢٩ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا ابن يمان ، عن سفيان ، عن الأعمش عن أبى روق ، عن الضحاك : « وأحاطتْ به خطيئته » ، قال : مات بذنبه .

١٤٣٠ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا جابر بن نوح قال ، حدثنا الأعمش ، عن أبى رزين ، عن الربيع بن خُثَيْم : « وأحاطت به خطيئته » ، قال : مات عليها .(١)

١٤٣١ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال، أخبرنى ابن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس : « وأحاطت به خطيئته » ، قال : يُحيط كفرُه بما لهُ من حسنة .

١٤٣٢ — حدثنى محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم قال، حدثنى عيسى ،

(١) الخبر : ١٤٣٠ — الربيع بن خثيم الثورى الكوفى : من كبار التابعين وخيارهم ، ثقة لا يسأل عن مثله . مترجم فى التهذيب ، والكبير للبخارى ٢/١/٢٤٦ وابن أبى حاتم ١/٢/٤٥٩ . وأبوه « خثيم » بضم الخاء المعجمة مصغر ، كما ضبطه ابن دريد فى الاشتقاق : ١١٢ — ١١٣ ، والحافظ فى التقريب ، ووقع فى المطبوعة « خيثم » بتقديم الياء على الثاء ، وبذلك ضبطه صاحب الخلاصة . وهو خطأ صرف .

عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « وأحاطتْ به خَطيئته »، قال: ما أوْجب الله فيه النارَ .

١٤٣٣ ـ حدثنا بشر قال ، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد ، عن قتادة « وأحاطت به خَطيئته »، قال : أما الخَطيئة فالكبيرةُ الموجبة .

١٤٣٤ ـ حدثنا الحسن قال،أخبرنا عبد الرزاق [قال، أخبرنا معمر]، عن قتادة : « وأحاطت به خطيئته »، قال : الخطيئة الكبائر .

١٤٣٥ ـ حدثنى المثنى قال، حدثنا إسحق قال، حدثنا وكيع ويحيى بن آدم، عن سلاّم بن مسكين قال : سَأل رجل الحسن عن قوله:«وأحاطَت به خطيئته»، فقال: ما نَدْرى ما الخطيئة، يا بُنىّ اتْلُ القرآنَ، فكل آية وعدَ الله عليها النارَ، فهى الخطيئة .

١٤٣٦ ـ حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى قال، حدثنا أبو أحمد الزبيرى قال، حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد فى قوله : « بلى مَنْ كسب سيئة وأحاطت به خطيئته »، قال : كل ذنب مُحيط ، فهو ما وعد الله عليه النار .

١٤٣٧ ـ حدثنا أحمد ابن إسحق قال ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى قال،حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى رزين:«وأحاطتْ به خَطيئته» ، قال : مات بخطيئته .

١٤٣٨ ـ حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو نعيم قال، حدثنا الأعمش قال ، حدثنا مسعود أبو رزين ، عن الربيع بن خُثَيْم فى قوله:« وأحاطت به خطيئته »، قال : هو الذى يموت على خَطيئته قبل أن يتوب .

١٤٣٩ ـ حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال، قال وكيع : سمعت الأعمش يقول فى قوله : « وأحاطت به خطيئته » ، مات بذنوبه .

١٤٤٠ ـ حدثت عن عمار قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « وأحاطت به خطيئته » ، الكبيرة المُوجبة .

١٤٤١ — حدثني موسى قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدي : « أحَاطتْ به خطيئته » ، فمات ، ولم يَتُبْ .

١٤٤٢ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثني حسان ، عن ابن جريج قال ، قلت لعطاء : « وأحَاطَت به خطيئته » ، قال : الشِّرك ، ثم تلا ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ﴾ [سورة النمل : ٩٠].[1] ٣٠٧/١

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (٨١)

قال أبو جعفر : يعني بقوله جل ثناؤه : «فأولئك أصحابُ النار هُمْ فيها خالدون » ، فأولئك الذين كسبوا السيئات وأحاطت بهم خطيئاتهم ، أصحابُ النار هم فيها خالدون .

* * *

ويعني بقوله جل ثناؤه : « أصحابُ النار » ، أهل النار. وإنما جعلهم لها أصحاباً لإيثارهم — في حياتهم الدنيا ما يُورِدُ هُموها ويوردهم سعيرَها — على الأعمال التي توردهم الجنة فجعلهم جل ذكره = بإيثارهم أسبابَها على أسباب الجنة = لها أصحاباً ، كصاحب الرجل الذي يُصاحبه مُؤثراً صحبته على صحبة غيره ، حتى يعرف به

* * *

« هُم فيها » ، يعني : هم في النار خالدون. ويعني بقوله : «خالدون» مقيمون ، كما :

١٤٤٣ — حدثني محمد بن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثني محمد بن أبي محمد ، عن سعيد بن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس : « هم فيها خالدون» ، أي خالدون أبداً .

١٤٤٤ — حدثني موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ،

(١) انظر ما مضى في كلامه عن « الخطيئة » في هذا الجزء ٢ : ١١٠

عن السدى : « هم فيها خالدُون »، لا يخرجون منها أبداً .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (٨٢)

قال أبو جعفر : ويعنى بقوله : « والذين آمنوا » ، أى صدقوا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. ويعنى بقوله: « وعَملوا الصالحات» ، أطاعوا الله فأقاموا حُدودَه، وأدَّوا فرائضه، واجتنبوا محارِمَه . ويعنى بقوله: «فأولئك » ، فالذين هم كذلك « أصحابُ الجنة هُم فيها خالدون» ، يعنى :أهلُها الذين هم أهلُها، هُم فيها « خالدون » ، مقيمون أبداً .

* * *

وإنما هذه الآية والتى قبلها إخبارٌ من الله عبادَه عن بَقاء النار وبقاء أهلها فيها ، [وبقاء الجنة وبقاء أهلها فيها]،(١) وَدوام مَا أعدَّ فى كل واحدة منهما لأهلها ، تكذيباً من الله جل ثناؤه القائلين من يهود بنى إسرائيل : إنّ النار لَنْ تمسَّهم إلا أياماً معدودةً ، وأنهم صائرون بعد ذلك إلى الجنة . فأخبرهم بخلود كفارهم فى النار ، وخُلودُ مؤمنيهم فى الجنة * كما : —

١٤٤٥ — حدثنى ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال، حدثنا ابن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس : « والذين آمنوا وعَملوا الصالحات أولئك أصحابُ الجنة هُمْ فيها خالدون »، أى مَنْ آمن بما كفرتم به ، وعمل بما تركتم من دينه ، فلهم الجنة خالدين فيها . يخبرهم أنّ الثواب بالخير والشرّ مقيم على أهله أبداً ، لا انقطاع له أبداً .

١٤٤٦ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال، أخبرنا ابن وهب قال ، قال

---

(١) ما بين القوسين زيادة لا بد منها ، لسياقة الكلام .

ابن زيد ، « والذين آمنوا وعَملوا الصالحات » ، محمدٌ صلى الله عليه وسلم وأصحابه — « أولئك أصحابُ الجنة ُهمْ فيها خالدون » .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾

قال أبو جعفر : قد دللنا — فيما مضى من كتابنا هذا — على أن « الميثاق » «مِفْعال» من « التوثّق باليمين » ونحوها من الأمور التى تؤكد القول.[1] فمعنى الكلام إذاً : واذكروا أيضاً يا معشرَ بنى إسرائيل ، إذْ أخذنا ميثاقكم لاتعبدون إلا الله ، كمـا : —

١٤٤٧ — حدثنى به ابن حميد قال ،حدثنا سلمة قال،حدثنى ابن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس: « وَإذْ أخَذْنا ميثاقَ بنى إسرائيل » — أى ميثاقكم — « لا َتعبدون إلاّ اللهَ » .

* * *

١/٣٠٨ قال أبو جعفر : والقرأةُ مختلفة فى قراءة قوله[2] : « لا تعبدون » . فبعضهم يقرؤها بالتاء ، وبعضهم يقرؤها بالياء ، والمعنى فى ذلك واحد . وإنما جازت القراءة بالياء والتاء ، وأن يقال « لا تعبدون » و « لا يعبدون » وهم َغيَبٌ ،[3] لأن أخْذ الميثاق ، بمعنى الأستحلاف . فكما تقول : « استحلفتُ أخَاك ليقومَنّ » — فتخبر عنه خبرَك عن الغائب لغيبته عنك . وتقول : « استحلفته لتقومَنّ » ، فتخبرُ عنه َخبرَك عن المخاطَب ، لأنك قد كنتَ خاطبته بذلك — فيكون ذلك صحيحاً جائزاً .

---

(١) انظر ما سلف ١ : ٤١٤ ، وهذا الجزء ٢ : ١٥٦

(٢) فى المطبوعة : « والقراء مختلفة » ، ورددتها إلى ما جرى عليه الطبرى فى كل ما سلف .

(٣) غيب (بفتح الغين والياء) جمع غائب ، مثل خادم وخدم .

فكذلك قوله : « وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله » و « لا يعبدون ». من قرأ ذلك « بالتاء » فمعنى الخطاب، إذ كان الخطاب قد كان بذلك . ومن قرأ « بالياء »، فلأنهم ما كانوا مخاطَبين بذلك فى وقت الخبر عنهم .

* * *

وأما رفعُ « لا تعبدون »، فبالتاء التى فى « تعبدون »، ولا ينصب بـ « أن » التى كانت تصلح أن تدخل مع « لا تعبدون إلا الله » . لأنها إذا صلح دخولها على فعل فحذفت ولم تدخل ، كان وُجه الكلام فيه الرفع ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ [سورة الزمر : ٦٤] ، فرفع « أعبدُ » — إذ لم تدخل فيها « أن » — بالألف الدالّة على معنى الاستقبال ، وكما قال الشاعر : [1]

ألا أيُّهذا الزّاجرِى أحضُرُ الوَغَى وأنْ أشْهَدَ اللّذّاتِ هَلْ أنْتَ مُخْلِدِى[2]

فرفع « أحضرُ » — وإن كان يَصلح دخول « أن » فيها — إذ حُذفت، بالألف التى تأتى بمعنى الاستقبال .

وإنما صلح حذف « أن » من قوله : « وإذْ أخذنا ميثاقَ بنى إسرائيل لا تعبدون » ، لدلالة ما ظهرَ من الكلام عليها ، فاكتفى — بدلالة الظاهر عليها — منها .[3]

* * *

وقد كان بعض نحويى البصرة يقول : معنى قوله : « وإذ أخذْنا ميثاقَ بنى إسرائيل لا تعبدون إلاّ الله »، حِكاية، كأنك قلت : استحلفناهم : لا تعبدون ، أى قلنا لهم : والله لا تعبدون — وقالوا : والله لا يعبدون . والذى قال من ذلك ، قريب معناه من معنى القول الذى قلنا فى ذلك .

---

(١) هو طرفة بن العبد .

(٢) ديوانه : ٣١٧ (أشعار الستة الجاهليين) ، من معلقته النفيسة وسيأتى فى ٢١ : ٢٢/ ٣٠ : ١٣٠ (بولاق) ، وسيبويه ١ : ٤٥٢ .

(٣) انظر معانى القرآن للفراء ١ : ٥٣ — ٥٤ .

وبنحو الذى قلنا فى قوله : « وإذا أخذنا ميثاقَ بنى إسرائيلَ لا تعبدون إلا الله » ، تأوّله أهل التأويل . ذكر من قال ذلك :

١٤٤٨ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : أخذَ مواثيقهم أن يُخلصوا لهَ ، وأن لا يعبدوا غيرَه .

١٤٤٩ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، أخبرنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله : « وإذْ أخذنا ميثاق بَنى إسرائيلَ لا تَعبدون إلاّ الله » ، قال : أخذنا ميثاقهم أن يُخلصوا لله ولا يعبدُوا غيره .

١٤٥٠ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج : « وإذا أخذنا ميثاقَ بَنى إسرَائيل لاتعبدون إلاّ الله »، قال: الميثاق الذى أخذ عليهم فى المائدة .[١]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

قال أبو جعفر : وقوله جل ثناؤه : « وبالوالدين إحساناً » ، عطفٌ على موضع « أنْ » المحذوفة فى « لا تعبدون إلاّ الله » . فكان معنى الكلام : وإذ أخذنا ميثاقَ بنى إسرائيل بأن لا تعبدوا إلا الله ، وبالوالدين إحساناً ، فرفع « لا تعبدون » لمّا حذف « أن » ، ثم عطف « بالوالدين » على موضعها ، كما قال الشاعر :[٢]

مُعاوِىَ إنّنا بَشَرٌ فَأَسْجِحْ فَلَسْنَا بِالجِبالِ وَلا الحدِيدَا [٣]

---

(١) قوله تعالى فى سورة المائدة : ١٢ : ﴿ ولقد أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بنى إسرائيل و بَعَثْنَا مَعَهُم اثْنَى عَشَرَ نقيباً ﴾ إلى آخر الآية .

(٢) عقيبة بن هبيرة الأسدى ، جاهلى إسلامى .

(٣) سيبويه ١ : ٣٤ ، ٣٧٥ ، ٤٤٨ ، والخزانة ١ : ٣٤٣ ، وسمط اللآلىء : ١٤٩ وفيه تحقيق جيد . وهذا البيت مما أخطأ فيه سيبويه ، وكان عقيبة وفد على معاوية ، ودفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات :

فنصب « الحديد » على العطف به على موضع « الجبال » ، لأنها لو لم تكن فيها « باء » خافضة كانت نصباً . فعطف بـ « الحديد » على معنى « الجبال » ، لا على لفظها . فكذلك ما وصفت من قوله : « وبالوالدين إحساناً »

* * *

وأما « الإحسان » فمنصوب بفعل مُضمر يؤدى معناه قوله : « وبالوالدين » ، إذ كان مفهوماً معناهُ . فكان معنى الكلام — لو أظهر المحذوف — : وإذْ أخذنا ميثاقَ بنى إسرائيل، بأنْ لا تَعبدوا إلا الله، وبأن تُحسِنوا إلى الوالديْن إحساناً. فاكتفى بقوله: « وَبالوالدين » من أن يقال: وبأن تُحسنوا إلى الوالدين إحساناً ، إذ كان مفهوماً أن ذلك معناه بما ظَهرَ من الكلام .

٣٠٩/١

* * *

وقد زعم بعض أهل العربية فى ذلك أن معناه : وبالوالدين فأحسنوا إحساناً ، فجعل « الباء » التى فى « الوالدين » من صلة الإحسان ، مقدَّمة عليه .

* * *

وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنْ لا تَعبدوا إلاّ الله، وأحْسنوا بالوالدين إحساناً . فزعموا أن « الباء » التى فى « الوالدين » من صلة المحذوف — أعنى أحسنوا — فجعلوا ذلك من كلامين . وإنما يُصرف الكلام إلى مَا ادَّعوْا من ذلك ، إذا لم يوجد لاتساق الكلام على كلام واحد وَجْهٌ . فأما وللكلام وجهٌ مفهومٌ على اتساقه على كلام واحد ، فلا وجه لصرْفه إلى كلامين . وأخرى ، أنّ القوْلَ فى ذلك لو كان على ما قالوا ، لَقيل : وإلى الوالدين إحساناً ، لأنه إنما يقال : « أحسن

مُعَاوِىَ إِنَّنا بَشَرٌ فَأَسْجِحْ ... فَلَسْنَا بالجبالِ وَلاَ الحَدِيدِ
فَهَبْهَا أُمَّةً ذَهَبَتْ ضَيَاعاً ... يَزِيدُ أَمِيرُها وأَبُو يَزِيدِ
أَكَلتُمْ أَرْضَنَا فَجرَدْتُمُوهَا ... فَهَلْ مِنْ قَائِمٍ أَوْ مِنْ حَصِيدِ؟
ذَرُوا خَوْنَ الخلافَةِ وَاسْتَقِيمُوا ... وَتَأْمِيرَ الأَرَاذِلِ وَالعَبِيدِ
وَأَعْطونا السَّوِيَّةَ ، لا تَزُرْكُمْ ... جُنودٌ مُرْدَفَاتٌ بالجُنُودِ

فدعاه معاوية فقال له : ما أجرأك على ؟ قال : نصحتك إذ غشوك ، وصدقتك إذ كذبوك . فقال معاوية : ما أظنك إلا صادقاً .

فلان إلى والديه » ولا يقال: أحسن بوالديه ، إلا على استكراه للكلام .

ولكن القولُ فيه ما قلنا ، وهو : وإذْ أخذنا ميثاقَ بنى إسرائيل بكذا ، وبالوالدين إحساناً — على ما بيّنا قبل. فيكون الإحسان حينئذ مصدّراً من الكلام لا من لفظه ، كما بينا فيما مضى من نظائره .(١)

* * *

فإن قال قائل: وما ذلك « الإحسانُ » الذى أخذ عليهم بالوالدين الميثاقَ ؟

قيل: نظيرُ ما فرض الله على أمّتنا لهما من فعل المعروف لهما، والقول الجميل، وخفض جناحِ الذّل رحمةً بهما، والتحنّن عليهما، والرأفة بهما ، والدعاء بالخير لهما ، وما أشبه ذلك من الأفعال التى ندب الله عبادَه أن يفعلوا بهما .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿وَذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَـٰمَىٰ وَالْمَسَـٰكِينِ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله « وذى القُرْبى »، وبذى القربى أن يَصلوا قرابته منهم ورَحمه .

* * *

و« القُرْبى » مصدر على تقدير « فُعْلى » ، من قولك : « قَرُبَت منى رحم فلان قَرَابةً وقُرْبى وقُرْباً » ، بمعنى واحد .

* * *

وأما « اليتامى » . فهم جمع « يَتيم »، مثل « أسير وأسارى ». ويدخل فى اليتامى الذكور منهم والإناث .

* * *

ومعنى ذلك : وإذ أخذنا ميثاقَ بنى إسرائيل لا تَعبدون إلاّ الله وحدَه دون من سواه من الأنداد ، وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى : أنْ تَصلوا رَحِمه ، وتعرفوا حقه ، وباليتامى: أن تَتعطّفوا عليهم بالرحمة والرأفة ، وبالمساكين : أنْ تُؤتوهم حقوقهم التى ألزمها الله أموالكم .

* * *

(١) انظر ما سلف ١ : ١٣٨

و « المسكين » ، هو المتخشّع المتذلّل من الفاقة والحاجة ، وهو « مِفْعيل » من « المسْكنة» . و « المسْكنة » هى ذلّ الحاجة والفاقة .[١]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾

قال أبو جعفر : إن قال قائل: كيف قيل: « وقُولوا للناس حُسْناً »، فأخرج الكلام أمرًا ولـمَّا يتقدمه أمر ، بل الكلام جارٍ من أول الآية مجرى الخبر ؟

قيل : إنّ الكلامَ ، وإن كان قد جرى فى أوّل الآية مجرى الخبر ، فإنه مما يحسن فى مَوْضعه الخطاب بالأمر والنهى . فلو كان مكان : « لا تعبدون إلا الله » ، لا تعبدوا إلاّ الله — على وجه النهى من الله لهم عن عبادة غيره — كان حسناً صواباً . وقد ذُكر أن ذلك كذلك فى قراءة أبىّ بن كعب . وإنما حَسُن ذلك وجاز — لو كانَ مقروءًا به — لأنّ أخذ الميثاق قولٌ .

فكان معنى الكلام — لو كان مقروءًا كذلك —: وإذ قلنا لبنى إسرائيل: لا تعبدوا إلا الله ، كما قال جل ثناؤه فى موضع آخر : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ورَفَعْنَا فَوْقَكُم الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ ﴾ [سورة البقرة: ٦٣] . فلما كان حسناً وضعُ الأمر والنهى فى موضع : « لا تعبدون إلاّ الله » ، عطف بقوله : «وقُولُوا للناس حُسْناً »، على موضع « لا تعبدون »، وإن كان مخالفاً كل واحد منهما معناه معنى ما فيه ،[٢] لما وصفنا من جواز وضع الخطاب بالأمر والنهى موضع « لا تعبدون » . ٣١٠/١

فكأنه قيل : وإذ أخذنا ميثاقَ بنى إسرائيل لا تعبدوا إلا الله ، وقولوا للناس حُسناً. وهو نظير ما قدّمنا البيان عنه: من أنّ العرب تَبتدئ الكلام أحياناً على وجه الخبر عن الغائب فى موضع الحكاية لما أخبرت عنه ،[٣] ثم تعود إلى الخبر على

---

(١) انظر ما سلف فى هذا الجزء : ٢ : ١٣٧

(٢) فى المطبوعة : « ومعناه » بزيادة الواو ، والصواب حذفها .

(٣) فى المطبوعة : « فى موضع الحكايات كما أخبرت عنه » ، والصواب ما أثبته .

وجه الخطاب ، وتبتدئ أحياناً على وجه الخطاب ، ثم تعود إلى الإخبار على وجه الخبر عن الغائب ، لما فى الحكاية من المعنيين ،[١] كما قال الشاعر :[٢]

أَسِيئِي بِنا أَوْ أَحْسِنِي لا مَلُومَةً ... لَدَيْنا ولا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ[٣]

يعنى : تقلَّيْتِ .

* * *

وأما « الحسن » فإن القَرَأَة اختلفت فى قراءته .[٤]فقرأته عامة قَرَأة الكوفة غير عاصم : « وقولوا للناس حَسَناً » بفتح الحاء والسين. وقرأته عامة قراء المدينة : « حُسْناً » بضم الحاء وتسكين السين . وقد رُوى عن بعض القرأة أنه كان يقرأ : « وقولوا للناس « حُسْنَى » على مثال « فُعْلَى » .

* * *

واختلف أهل العربية فى فرق ما بين معنى قوله : « حُسْناً » و « حَسَناً » . فقال بعض البصريين : هو على أحد وجهين : إما أن يكون يراد بـ « الحَسن » « الحُسن » وكلاهما لغة ، كما يقال : « البُخْل والبَخَل » ، وإما أن يكون جعل « الحُسن » هو « الحَسن » فى التشبيه . وذلك أن الحُسن « مصدر » و « الحَسن » ، هو الشىء الحسن. ويكون ذلك حينئذ كقولك : « إنما أنت أكْلٌ وشُرب » ، وكما قال الشاعر[٥]

وَخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لَهَا بِخَيْلٍ ... تَحِيَّةُ بَيْنِهِم ضَرْبٌ وَجِيعُ[٦]

---

(١) انظر ما سلف ١ : ١٥٣ - ١٥٤ ، وسيأتى فى هذا الجزء ٢ : ٣٥٧

(٢) هو كثير عزة .

(٣) ديوانه ١ : ٥٣ من قصيدته المشهورة . قلاه يقليه قلى فهو مقلى : كرهه وأبغضه . وتقلى تبغض ، أى استعمل من الفعل أو القول ما يدعو إلى بغضه .

(٤) فى المطبوعة : « فإن القراء » ، ورددته إلى ما مضى عليه أبو جعفر فى عبارته ، كما سلف مراراً .

(٥) يقال هو : عمرو بن معد يكرب الزبيدى . (الخزانة ٤ : ٥٦) ، وليس فى قصيدته التى على هذا الوزن فى الأصمعيات : ٤٣ ، ولكنه أتى فى نوادر أبى زيد : ١٤٩ - ١٥٠ أنه لعمرو بن معد يكرب . فكأنه له ، وكأنه سقط من رواية الأصمعى ، وهو فى رواية غيره .

(٦) نوادر أبى زيد : ١٥٠ ، وسيبويه ١ : ٣٦٥ ، ٤٢٩ ، والخزانة ٤ : ٥٣ . وغيرها .

فجعل « التحية » ضرباً .

وقال آخر : بل « الْحُسْن » هو الاسم العام الجامع جميع معانى الحسن . و« الحَسَن » هو البعض من معانى « الُحسن » . قال : ولذلك قال جل ثناؤه ، إذ أوصى بالوالدين : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً ﴾ [سورة العنكبوت : ٨] ، يعنى بذلك أنه وصاه فيهما بجميع معانى الُحسن ، وأمر فى سائر الناس ببعض الذى أمره به فى والديه ، فقال : « وقولوا للناس حَسَناً » ، يعنى بذلك بعضَ معانى الُحسن

* * *

قال أبو جعفر : والذى قاله هذا القائل فى معنى « الحسن » بضم الحاء وسكون السين ، غيرُ بعيد من الصواب ، وأنه اسم لنوعه الذى سُمِّى به . وأما « الحَسَن » فإنه صفة وقعت لما وصف به ، وذلك يقع بخاصٍّ . وإذا كان الأمر كذلك ، فالصواب من القراءة فى قوله : « وَقُولُوا للناس حَسَناً » ، لأن القوم إنما أمِروا فى هذا العهد الذى قيل لهم : « وقولوا للناس » باستعمال الحَسَن من القول ، دون سائر معانى الحسن الذى يكون بغير القول . وذلك نعتٌ لخاص من معانى الُحسن ، وهو القول . فلذلك اخترت قراءته بفتح الحاء والسين ، على قراءته بضم الحاء وسكون السين .

* * *

وأما الذى قرأ ذلك : « وقُولُوا للناس حُسْنَى » ، فإنه خالف بقراءته إياه كذلك ، قراءةَ أهل الإسلام . وكفى شاهداً على خطأ القراءة بها كذلك ، خروُجها من قراءة أهل الإسلام ، لو لم يكن على خطئها شاهدٌ غيره . فكيف وهى مع ذلك خارجةٌ من المعروف من كلام العرب ؟ وذلك أن العرب لا تكاد أن تتكلم بـ « فُعلى » « وأفعل » إلاّ بالألف واللام أو بالإضافة . لايقال : « جاءنى أحْسَنُ » ، حتى يقولوا : «الأحسن» . ولايقال : « أجمل » ، حتى يقولوا ، « الأجمل » . وذلك أن « الأفعل والفُعلى » ، لا يكادان يوجدان صفة إلا لمعهود معروف ، كما تقول : «بَلْ أخوك الأحسن — وبل أختك الحسنى » . وغير جائز أن يقال : امرأة حُسنى ، ورجل أحسَن.

* * *

وأما تأويل القول الحسن الذى أمرَ الله به الذين وصف أمرَهم من بنى إسرائيل

فى هذه الآية ، أن يقولوه للناس ،[١] فهو ما : —

١٤٥١ — حدثنا به أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : « وقولوا للناس حسناً » ،أمرهم أيضاً بعد هذا الخلُق :أن يقولوا للناس حسناً، أن يأمروا بـ « لا إله إلا الله » من لم يقُلها ورَغب عنها ، حتى يقولوها كما قالوها ، فإن ذلك قُرْبةٌ من الله جل ثناؤه . وقال: الحسن أيضاً ، ليِّن القول،من الأدب الحسن الجميل والخلُق الكريم، وهو مما ارتضاه الله وأحبه .

٣١١/١

١٤٥٢ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : « وقولوا للناس حسناً » ، قال ، قولوا للناس معروفاً .

١٤٥٣ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج : « وقولوا للناس حسناً »، قال : صدقاً فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم .

١٤٥٤ — وحدثت عن يزيد بن هرون قال: سمعت سفيان الثورى يقول فى قوله : « وقولوا للناس حسناً » ،قال : مُرُوهم بالمعروف وانهوْهم عن المنكر[٢]

١٤٥٥ — حدثنى هرون بن إدريس الأصم قال ،حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى قال ، حدثنا عبد الملك بن أبى سليمان قال ، سألت عطاء بن أبى رباح عن قول الله جل ثناؤه: « وقولوا للناس حسناً »، قال: من لقيتَ من الناس فقل له حسناً من القول . قال : وسألت أبا جعفر ، فقال مثل ذلك[٣]

١٤٥٦ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا القاسم قال، أخبرنا عبد الملك ،

---

(١) فى المطبوعة : « لأن يقولوه للناس » بزيادة اللام ، فاسدة .

(٢) الأثر : ١٤٥٤ — أخشى أن يكون سقط من إسناده شيء .

(٣) الخبر : ١٤٥٥ — هرون بن إدريس الأصم ، شيخ الطبرى : لم أجد له ترجمة ، ولا وجدته فى مكان ، إلا فى رواية الطبرى عنه فى التاريخ أيضاً ١ : ٢٥٣ ، و ٢ : ١٢٦ . روى عنه ، عن المحاربى . عبد الملك بن أبى سليمان : هو العرزمى ، أحد الأئمة الثقات الحفاظ . مترجم فى التهذيب ، وابن أبى حاتم ٢/٢/٣٦٦ — ٣٦٨ .

عن أبي جعفر وعطاء بن أبي رباح فى قوله: « وقولوا للناس حسناً »، قال : للناس كلهم .

١٤٥٧ — حدثني يعقوب قال، حدثنا هشيم قال ، أخبرنا عبد الملك ، عن عطاء مثله .

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾

قال أبو جعفر : يعني بقوله: « وأقيموا الصلاة »، أدُّوها بحقوقها الواجبة عليكم فيها . كما : —

١٤٥٨ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمارة، عن أبي روق ، عن الضحاك، عن ابن مسعود قال : « وأقيموا الصلاة » ، هذه . و « إقامة الصلاة » تمامُ الركوع والسجود والتلاوة والخشوع ، والإقبال عليها فيها . [1]

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾

قال أبو جعفر : قد بينا فيما مضى قبلُ، معنى « الزكاة » وما أصلها[2]

* * *

وأما الزكاة التى كان الله أمر بها بني إسرائيل الذين ذكر أمرهم فى هذه الآية، فهى ما : —

١٤٥٩ — حدثنا به أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس: « وآتوا الزكاة »، قال : إيتاء الزكاة ، ما كان الله فرض عليهم فى أموالهم من الزكاة ، وهى سُنّة كانت لهم غير سُنّة محمد صلى الله عليه وسلم . كانت زكاة أموالهم قرباناً تهبط إليه نار

(١) انظر ما سلف ١ : ٢٤١ ، ٥٧٣ .
(٢) انظر ما سلف ١ : ٥٧٣ — ٥٧٤ .

فتحملها، فكان ذلك تقبُّله . ومن لم تفعل النار به ذلك كان غير متقبَّل ، وكان الذى قرّب، منْ مكسب لا يَحلّ : من ظُلم أو غشْم، أو أخذ بغير ما أمره الله به وبيّنه له .

١٤٦٠ – حدثنى المثنى قال، حدثنا عبد الله بن صالح، قال، حدثنى معاوية بن صالح، عن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: «وآتوا الزكاة»، يعنى «بالزكاة»: طاعةَ الله والإخلاص .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْكُمْ وَأَنْتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (٨٣)

قال أبو جعفر : وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن يهود بنى إسرائيل، أنّهم نكثوا عهدَه ونقضوا ميثاقه، بعد ما أخذ الله ميثاقهم على الوفاء له، بأن لا يعبُدوا غيره، وأن يُحسنوا إلى الآباء والأمهات، ويصِلوا الأرْحام، ويتعطّفوا على الأيتام، ويؤدُّوا حقوق أهل المسكنة إليهم، ويأمرُوا عبادَ الله بما أمرهم الله به ويَحثُّوهم على طاعته، ويُقيموا الصلاة بحدودها وفرائضها، ويؤتوا زكاة أموالهم — فخالفوا أمرَه فى ذلك كله، وتولَّوا عنه معرضين، إلا من عَصَمه الله منهم، فوَفَى لله بعهده وميثاقه، كما : —

٣١٢/١ ١٤٦١ – حدثنا أبو كريب قال، حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمارة، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس قال: لما فرضَ الله جل وعزّ عليهم — يعنى: على هؤلاء الذين وصف الله أمرهم فى كتابه من بنى إسرائيل — هذا الذى ذكَر أنه أخذ ميثاقهم به، أعرضوا عنه استثقالاً له وكراهية، وطلبوا ما خفّ عليهم، إلاّ قليلاً منهم، وهم الذين استثنى الله فقال: «ثم تَولّيتم»، يقول: أعرضتم عن طاعتى، «إلاّ قليلاً منكم»، قال: القليل الذين اخترتُهم

لطاعتى ، وسيحل عقابى عن تولى وأعرض عنها يقول : تركها استخفافاً بها[١]

١٤٦٢ ـــ حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثنا ابن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير ، أو عن عكرمة ، عن ابن عباس : « ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون » ، أى تركتم ذلك كله .

* * *

وقال بعضهم : عنى الله جل ثناؤه بقوله : « وأنتم معرضون » ، اليهودَ الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنى بسائر الآية أسلافَهم . كأنه ذهب إلى أن معنى الكلام : « ثم توليتم إلا قليلاً منكم » : ثم تولى سلفكم إلا قليلاً منهم ، ولكنه جعل خطاباً لبقايا نسلهم ــ على ما ذكرناه فيما مضى قبل ــ[٢] ثم قال : وأنتم يا معشر بقاياهم معرضون أيضاً عن الميثاق الذى أخذ عليكم بذلك ، وتاركوه تركَ أوائلكم .

* * *

وقال آخرون : بل قوله : « ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون » ، خطابٌ لمن كان بين ظهرانىْ مُهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود بنى إسرائيل ، وذمٌّ لهم بنقضهم الميثاقَ الذى أخذ عليهم فى التوراة ، وتبديلهم أمرَ الله ، وركوبهم معاصيه .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾

قال أبو جعفر : قوله : « وإذْ أخذْنا ميثاقكمْ لا تسفكون دماءكم » فى المعنى والإعراب نظيرُ قوله : « وإذْ أخذْنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله » .

---

(١) انظر معنى « تولى » فيما سلف من هذا الجزء ٢ : ١٦٢

(٢) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٣٨ ، ٣٩ ثم : ١٦٤ ، ثم : ٢٤٥ ، ثم : ٣٠٢

* * *

وأما «سفك الدم»، فإنه صَبُّه وإراقته.

* * *

فإن قال قائل: وما معنى قوله: «لا تَسفكون دماءكم ولا تُخرِجُون أنفسَكمْ من دياركم»؟ وقال: أوَ كان القوم يقتلون أنفسهم ويخرجونها من ديارها، فنُهُوا عن ذلك؟

قيل: ليس الأمر فى ذلك على ما ظننت، ولكنهم نُهوا عن أن يقتل بعضهم بعضاً. فكان فى قتل الرجل منهم الرجلَ قتلُ نفسه، إذ كانت ملّتهما [واحدة، فهما] بمنزلة رجل واحد.[1] كما قال عليه السلام:

١٤٦٣ — «إنما المؤمنُون فى تراحُمهم وتَعاطُفهم بَينهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى بعضُه تَداعى له سَائر الجسد بالحمَّى والسهرَ».[2]

* * *

وقد يجوز أن يكون معنى قوله: «لا تَسفكون دماءكم»، أى: لا يقتل الرجلُ منكم الرجلَ منكم، فيقادَ به قِصاصاً، فيكون بذلك قاتلاً نفسَه، لأنه كان الذى سبَّب لنفسه ما استحقَّت به القتل. فأضيف بذلك إليه، قتلُ ولىّ المقتول إياه قِصاصاً بوليّه. كما يقال للرجل يركبُ فعلاً من الأفعال يستحق به العقوبة، فيعاقب العقوبة: «أنت جنيتَ هذا على نفسك».

* * *

وبنحو الذى قلنا فى تأويل ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك:

١٤٦٤ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد بن زريع قال، حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: «وإذ أَخذنا ميثاقَكم لا تَسفكون دماءكم»، أى: لا يقتُلْ بعضكم بعضاً، «ولا تخرجُون أنفسكم من دياركم»، ونفسُك يا ابن آدم أهلُ ملّتك.

---

(١) الزيادة بين القوسين لا بد منها، وإلا فسد الكلام.

(٢) الحديث: ١٤٦٣ — هكذا رواه الطبرى معلقاً. والظاهر أنه رواه بالمعنى أيضاً. ولفظه فى صحيح مسلم ٢ : ٢٨٤، من حديث النعمان بن بشير: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». وكذلك رواه أحمد فى المسند (٤ : ٢٧٠ حلبى). ورواه البخارى بنحو معناه ١٠ : ٣٦٧ (من الفتح).

١٤٦٥ ـ حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع عن أبي العالية في قوله: «وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم»، يقول : لا يقتل بعضكم بعضاً، «ولا تخرجون أنفسكم من دياركم»، يقول : لا يخرج بعضكم بعضاً من الديّار.

١٤٦٦ ـ حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن قتادة في قوله: «لا تسفكون دماءكم»، يقول : لا يقتل بعضكم بعضاً بغير حق ، «ولا تخرجون أنفسكم من دياركم»، فتسفك يا ابن آدم دماء أهل ملّتك ودعوتك . ٣١٣/١

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾

قال أبو جعفر : يعني بقوله : «ثم أقررتم» ، ثم أقررتم بالميثاق الذى أخذنا عليكم : لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ، كما : ـ

١٤٦٧ ـ حدثنا المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية: «ثم أقررتم» ، يقول : أقررتم بهذا الميثاق .

١٤٦٨ ـ وحُدثت عن عمار قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع مثله .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ (٨٤)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فيمن خوطب بقوله: «وأنتم تشهدون» . فقال بعضهم : ذلك خطابٌ من الله تعالى ذكره لليهود الذين كانوا بين ظهرانيْ مُهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام هجرته إليه، مؤنّباً لهم على تضييع أحكام ما في أيديهم من التوراة التي كانوا يقرّون بحكمها ، فقال الله تعالى لهم : «ثم أقررتم» ،

يعنى بذلك ، إقرارَ أوائلكم وَسلفكم، « وأنتم تشهدُون » على إقرارهم بأخذ الميثاق عليهم ، بأن لا يسفكوا دماءَهم ، ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم ، وتصدّقون بأن ذلك حق من ميثاق عليهم . وممن حُكى معنى هذا القول عنه ، ابنُ عباس .

١٤٦٩ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال ، حدثنى ابن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس قال : « وإذ أَخذْنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررْتم وأنتم تَشهدون » أن هذا حق من ميثاق عليكم .

* * *

وقال آخرون : بل ذلك خبرٌ من الله جل ثناؤه عن أوائلهم، ولكنه تعالى ذكره أخرج الخبرَ بذلك عنهم مُخرج المخاطبة ، على النحو الذى وصفنا فى سائر الآيات التى هى نظائرها ، التى قد بينا تأويلها فيما مضى .[1]

* * *

وتأوّلوا قوله : « وأنتم تَشهدُون» ، على معنى : وأنتم شُهود . ذكر من قال ذلك :

١٤٧٠ — حدثنى المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية قوله : « وأنتم تَشهدون » ، يقول : وأنتم شهود .

* * *

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال فى تأويل ذلك بالصواب عندى : أنْ يكون قوله : « وأنتم تَشهدون » خبراً عن أسلافهم، وداخلاً فيه المخاطبون منهم ، الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان قوله : « وإذ أخذنا ميثاقكم » خبراً عن أسلافهم ، وإنْ كان خطاباً للذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم.[2] لأن الله تعالى أخذَ ميثاق الذين كانوا على عهد رسول الله موسى صلى الله عليه وسلم من بنى إسرائيل — على سبيل ما قد بيّنه لنا فى كتابه — فألزم جميعَ مَنْ بعدَهم من ذريتهم من حكم التوراة ، مثلَ الذى ألزم منه من كان على عهد موسى منهم ثم أنّب الذين خاطبهم بهذه الآيات على نَقضهم ونقض سَلفهم

(١) انظر ما سلف : ٢ : ٢٩٨ ، تعليق: ٢ ، والمراجع .
(٢) فى المطبوعة : « بأن كان خطاباً . . . » ، وهو لا يستقيم .

ذلك الميثاق، وتكذيبهم ما وكّدوا على أنفسهم له بالوفاء من العهود،[١] بقوله : « ثم أقررتم وأنتم تشهدون » . فإذ كان خارجاً على وجه الخطاب للذين كانوا على عهد نبيّنا صلى الله عليه وسلم منهم،[٢] فإنه معنىٌّ به كل من واثق بالميثاق منهم على عهد موسى ومن بعده ، وكلُّ من شهد منهم بتصديق ما فى التوراة . لأن الله جل ثناؤه لم يخصص بقوله: «ثم أقررتم وأنتم تشهدون» — وما أشبه ذلك من الآى — بعضَهم دون بعض . والآية محتملةٌ أن يكون أريد بها جميعهم . فإذ كان ذلك كذلك ،[٣] فليس لأحد أن يدّعى أنه أريد بها بعضٌ منهم دون بعض . وكذلك حُكم الآية التى بعدها، أعنى قوله: « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » الآية. لأنه ٣١٤/١ قد ذكر لنا أن أوائلهم قد كانوا يفعلون من ذلك ما كان يفعله أواخرُهم، الذين أدركوا عصرَ نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾

قال أبو جعفر : ويتّجه فى قوله: « ثم أنتمُ هؤلاء » وجهان . أحدهما أن يكون أريد به : ثم أنتم يا هؤلاء ، فترك « يا » استغناءً بدلالة الكلام عليه ، كما قال ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [سورة يوسف : ٢٩] ، وتأويله: يا يوسف أعرض عن هذا . فيكونُ معنى الكلام حينئذ : ثم أنتم يا معشر يهود بنى إسرائيل — بعد إقراركم بالميثاق الذى أخذته عليكم : لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم

(١) سياق العبارة: « وتكذيبهم ما وكدوا من العهود على أنفسهم بالوفاء له ... » ، فقدم وأخر .
(٢) فى المطبوعة : « فإن كان خارجاً . . . » وهو تصحيف لا يستقيم .
(٣) فى المطبوعة : « فإن كان ذلك كذلك » ، وهو تصحيف لا يستقيم أيضاً .

من دياركم، ثم أقررتم =بَعدَ شهادتكم على أنفسكم=[١] بأن ذلك حق لى عليكم، لازم لكم الوفاءُ لى به — تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، متعاونين عليهم ، فى إخراجكم إياهم ، بالإثم والعدوان.[٢]

* * *

والتعاون هو «التظاهر». وإنما قيل للتعاون «التظاهر»،[٣] لتقوية بعضهم ظهرَ بعض. فهو «تفاعل» من «الظهر»، وهو مساندة بعضهم ظهرَه إلى ظهر بعض.

* * *

والوجه الآخر : أنْ يكون معناه : ثم أنتم قومٌ تقتلون أنفسكم . فيرجعُ إلى الخبر عن «أنتم». وقد اعترِض بينهم وبين الخبرِ عنهم «بهؤلاءِ»، كما تقول العرب: «أنا ذا أقوم، وأنا هذا أجلس». وإذ قيل: «أنا هذا أجلس»،[٤] كان صحيحاً جائزاً كذلك: «أنت ذاك تقوم».

* * *

وقد زعم بعض البصريين أن قوله: «هؤلاء» فى قوله: «ثم أنتم هؤلاء»، تنبيه وتوكيد لـ«أنتم». وزعم أن «أنتم» وإن كانت كناية أسماء جماع المخاطبين ، فإنما جاز أن يؤكّدوا بـ«هؤلاء» و«أولاء»،[٥] لأنها كناية عن المخاطبين ، كما قال خُفاف بن ندبة:

أَقُولُ لَهُ ، والرمحُ يَأطِرُ مَتْنَه : تَبَيَّنْ خُفَافًا ، إنَّنِي أنَا ذٰلِكَا[٦]

يريد : أنا هذا، وكما قال جل ثناؤه: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ

(١) فى المطبوعة : «ثم أقررتم وبعد شهادتكم . . .» والواو لا مكان لها هنا .

(٢) فى المطبوعة «متعاونين عليه فى إخراجكم . . .» ، وهذا سهو .

(٣) فى المطبوعة : «وإنما قيل التعاون التظاهر . . .» وهذا لا شىء .

(٤) فى المطبوعة : «ولو قيل . أنا هذا أجلس» . والصواب ما أثبت .

(٥) فى المطبوعة : «وأولى» ، وهو خطأ . ويعنى قوله تعالى فى سورة آل عمران : ١١٩ : «هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُم وَلَا يُحِبُّونَكُمْ» ، وقوله تعالى فى سورة طه : ٨٤ : «قالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي»

(٦) مضى تخريجه فيما سلف ١ : ٢٢٧ .

بهم ﴾[سورة يونس : ٢٢]

* * *

ثم اختلف أهل التأويل فيمن عُنى بهذه الآية ، نحو اختلافهم فيمن عنى بقوله : « وأنتم تَشهدون » . ذكر اختلاف المختلفين فى ذلك :

١٤٧١ ــ حدثنا محمد بن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثنى محمد بن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : « ثُم أنتمْ هؤلاء تَقتلون أنفسكُم وتُخرجون فَريقاً منكم من ديارهمْ تَظاهَرون عليهم بالإثم والعدوان » إلى أهل الشرك ،[1] حتى تسفكوا دماءَهم معهم ، وتخرجوهم من ديارهم معهم.[2] قال : أنَّبهم الله [على ذلك] من فعلهم ،[3] وقد حرّم عليهم فى التوراة سَفك دمائهم ، وافترض عليهم فيها فِداءَ أسْرَاهم ، فكانوا فريقين : طائفة منهم من بنى قَيْنُقاع حُلفاء الخزرج ، والنَّضيرُ وقُريظة حلفاء الأوس . فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حربٌ خرجت بنو قيْنُقاع مع الخزرج ، وخرجت النَّضير وقُرَيظة مع الأوس ، يُظاهر كل من الفريقين حلفاءه على إخوانه ، حتى يتسافكوا دماءَهم بينهم ، وبأيديهم التوراةُ يعرفون منها ما عليهم وما لهم . والأوس والخزرجُ أهل شرك يعبدون الأوثان ،[4] لا يعرفون جنة ولا ناراً ، ولا بعثاً ولا قيامة ، ولا كتاباً ، ولا حراماً ولا حلالاً ، فإذا وضعت الحرب أوزارها ، افتَدوْا أسْراهم ، تصديقاً لما فى التوراة ، وأخذاً به ، بعضُهم من بعض . يفتدى بنو قينقاع ما كان من أسْراهم فى أيدى الأوس ،

(١) فى تفسير ابن كثير ١ : ٢٢٣ ، والدر المنثور ١ : ٨٦ : « أى أهل الشرك » ، والصواب ما فى الطبرى ، وقوله : « إلى أهل الشرك » ، أى تخرجون فريقاً منكم ــ إلى أهل الشرك .

(٢) فى المطبوعة : « فقال أنبهم » ، والأجود حذفها .

(٣) ما بين القوسين زيادة لابد منها . وأما ابن كثير فى تفسيره ١ : ٢٢٣ فكتب : « أنبأهم الله بذلك من فعلهم » ، وهو تحريف .

(٤) فى المطبوعة : « أهل الشرك » ، والصواب فى سيرة ابن هشام ٢ : ١٨٨ ، وابن كثير ١ : ٢٢٤ .

وتفتدى النضير وقريظة ما كان فى أيدى الخزرج منهم ، ويُطِلّون ما أصابوا من الدماء ،[١] وقتلى من قُتلوا منهم فيما بينهم ،[٢] مظاهرةً لأهل الشرك عليهم . يقول الله تعالى ذكره ، حين أنَّبهم بذلك :[٣] «أفتؤمنون ببعض الكتاب وتَكفرون ببعض» ، أى : تُفادونه بحكم التوراة ، وتقتلونه — وفى حكم التوراة أن لا يُقتل ، ولا يخرج من داره ،[٤] ولا يُظاهَر عليه مَنْ يشرك بالله وَيعبُد الأوثان من دونه — ابتغاءَ عَرَض من عَرَض الدنيا . ٣١٥/١

ففى ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج — فيما بلغنى — نزلت هذه القصة .[٥]

١٤٧٢ — وحدثنى موسى بن هرون قال ، حدثنى عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « وإذْ أخَذنا ميثاقكم لا تَسفكون دماءكم ولا تُخرجون أنفسكم من دِيَاركم ثُمّ أقرَرْتم وأنتم تَشهدُون » . قال : إن الله أخذ على بنى إسرائيل فى التوراة : أنْ لا يقتلَ بعضهم بعضاً ، وأيُّما عبد أو أمةٍ وجدتُموه من بنى إسرائيل فاشتروه بما قام ثمنه ، فأعتقوه .[٦] فكانت قُرَيظة حلفاء الأوس ، والنضير حلفاء الخزرج ، فكانوا يقتتلون فى حرب سُمَيْر .[٧] فيقاتل بنو قُرَيظة مع حُلفائها ، النضيرَ وحلفاءَها . وكانت النضيرُ تقاتل قريظةَ وحلفاءَها ، فيغلبونهم ، فيُخربون بيوتَهم ، ويخرجونهم منها . فإذا أسِر الرجل من الفريقين كليهما ، جمعوا له حتى

---

(١) طل دمه وأطله : أهدره وأبطله .

(٢) فى المطبوعة : « وقتلوا من قتلوا . . . » ، والصواب من ابن هشام ٢ : ١٨٩ .

(٣) فى المطبوعة : « أنبأهم بذلك » ، والصواب ما أثبت من سيرة ابن هشام ٢ : ١٨٩ ، وسترى ذلك فى تفسير الآية نفسها بعد .

(٤) فى المطبوعة : « من ذلك » ، وهو محض خطأ .

(٥) هذه الجملة الأخيرة من كلام ابن إسحاق ، لا من كلام ابن عباس .

(٦) فى المطبوعة : « بما قدم يمينه فأعتقوه » . وهو كلام من السقم بمكان . يقال : قامت الأمة مئة دينار ، أى بلغت قيمتها مئة دينار . ويقال : كم قامت أمتك ؟ أى كم بلغت ؟ ووجدتها فى تفسير البغوى على الصواب : « بما قام من ثمنه » ١ : ٢٢٤ (بهامش تفسير ابن كثير) .

(٧) حرب سمير ، كانت فى الجاهلية بين الأوس والخزرج . وسمير رجل من بنى عمرو بن عوف . وانظر خبر هذه الحرب فى الأغانى ٣ : ١٨ : ٢٦ .

يفدوه . فتعيِّرهم العربُ بذلك، ويقولون : كيف تقاتلونهم وتفدونهم ؟ قالوا : إنا أمِرنا أن نفديهم، وُحرّم علينا قتالهم . قالوا : فلم تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحيي أن تُستذَل حلفاؤنا . فذلك حين عيّرهم جل وعز فقال : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرُجون فريقاً منكم من ديَارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان » .

١٤٧٣ — حدثني يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد : كانت قُريظة والنضيرُ أخوين ، وكانوا بهذه المثابة ،[1] وكان الكتاب بأيديهم . وكانت الأوس والخزرج أخوَين فافترقا ، وافترقت قُرَيظة والنضير . فكانت النَّضير مع الخزرج ، وكانت قُرَيظة مع الأوس ، فاقتتلوا . وكان بعضهم يقتل بعضاً ، فقال الله جل ثناؤه: « ثُم أنتمُ هؤلاء تَقتُلون أنفسكم وتُخرِجُون فريقاً منكم من ديارهم » الآية .

* * *

وقال آخرون بما : —

١٤٧٤ — حدثني به المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ،عن أبي العالية قال: كان في بني إسرائيل: إذا استضعفوا قوماً أخرجوهم من ديارهم . وقد أخِذ عليهم الميثاق أن لا يسفكوا دماءهم،ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم.

* * *

قال أبو جعفر : وأما « العدوان » فهو « الفُعلان » من « التعدِّي » يقال منه: «عدَا فلان في كذا عدْواً وعُدْواناً، واعتَدَى يَعتدي اعتداء »، وذلك إذا جاوز حدَّه ظُلماً وبَغياً .

* * *

وقد اختلف القرَأة في قراءة « تظاهرون » .[2] فقرأها بعضهم : « تَظاهَرُون » على مثال « تَفاعلون » فحذف التاء الزائدة ، وهي التاء الآخرة . وقرأها آخرون :

---

(١) المثابة : يعني المدينة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم .والمثابة المنزل ، لأن أهله يتصرفون في أمورهم ثم يثوبون إليه ، يرجعون إليه. وقال الله تعالى : «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا»

(٢) في المطبوعة : « وقد اختلف القراء » ، ورددتها إلى منهج الطبري .

« تَظَّاهرُون » فشدَّد ، بتأويل: تَتظاهرن ، غير أنهم أدغَموا التاء الثانية فى الظاء ، لتقارب مخرجيهما ، فصيروهما ظاء مشددة . وهاتان القراءتان ، وإن اختلفت ألفاظهما ، فإنهما مُتفقتا المعنى . فسواءٌ بأىِّ ذلك قرأ القارئ ، لأنهما جميعاً لُغتان معروفتان ، وقراءتان مستفيضتان فى أمصار الإسلام بمعنى واحد ، ليس فى إحداهما معنى تستحقُّ به اختيارَها على الأخرى، إلا أن يختار مُختارٌ « تَظَّاهرُون » المشدَّدةَ ، طلباً منه تتمةَ الكلمة .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « وإنْ يأتوكم أسارَى تُفادوهم »، اليهودَ . يوبخهم بذلك، ويعرِّفهم به قبيح أفعالهم التى كانوا يفعلونها ، فقال لهم : ثم أنتم — بعد إقراركم بالميثاق الذى أخذتُه عليكم : أنْ لا تسفكوا دماءَكم ، ولا تخرجوا أنفسكم من دياركم — تقتلون أنفسكم = يعنى به : يقتل بعضكم بعضاً = وأنتم ، مع قتلكم من تَقتلون منكم ، إذا وجدتم الأسير منكم فى أيدى غيركم من أعدائكم ، تَفْدونه ،[1] ويخرج بعضكم بعضاً من دياره . وقتلكمُ إياهم وإخراُجكموهم من ديارهم، حرامٌ عليكم ، وتركهم أسرى فى أيدى عدوكم [حرام عليكم]،[2] فكيف تستجيزون قتلهم ، ولا تستجيزون ترك فدائهم من عدوهم ؟ أم كيف لا تستجيزون ترك فدائهم ، وتستجيزون قتلهم ؟ وهما جميعاً — فى اللازم لكم من الحكم فيهم — سواءٌ .[3] لأن الذى حرّمتُ عليكم

(١) فى المطبوعة : « تفدوهم » ، خطأ .

(٢) الزيادة بين القوسين لا معدى عنها لاستقامة الكلام .

(٣) فى المطبوعة : « وهم جميعاً » ، والصواب ما أثبت .

٣١٦

من قتلهم وإخراجهم من دورهم ، نظيرُ الذى حرمت عليكم من تركهم أسْرى فى أيدى عدوهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب — الذى فرضت عليكمُ فيه فرائضى ، وبيّنت لكم فيه حدودى ، وأخذت عليكم بالعمل بما فيه ميثاقى — فتصدّقون به ، فتفادون أسْراكم من أيدى عدوكم وتكفرون ببعضه ، فتجحدونه ، فتقتلون من حرّمت عليكم قتلَه من أهل دينكم ومن قومكم ، وتخرجونهم من ديارهم ، وقد علمتم أن الكفر منكم ببعضه نقضٌ منكم عهدى وميثاقى ؟ كما :—

١٤٧٥ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع ، قال حدثنا سعيد ، عن قتادة : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تَظاهَرون عليهم بالإثم والعدْوان وإنْ يأتوكم أسَارى تُفادوهم وَهوَ مُحرمٌ عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتَكفرُون ببعض » ، [أفتؤمنون ببعض الكتاب فادين ، وتكفرون ببعضٍ — قاتلين ومخرجين] ؟[1] والله إن فِداءهم لإيمان ، وإن إخراجهم لكفر . فكانوا يُخرجونهم من ديارهم ، وإذا رأوهم أسَارى فى أيدى عدوّهم افتكّوهم .

١٤٧٦ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثنى ابن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير ، أو عن عكرمة ، عن ابن عباس : « وإنْ يأتوكم أسَارى تَفدُوهم » ، قد علمتم أن ذلكم عليكم فى دينكم ، « وهو محرَّم عليكم » فى كتابكم « إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » ، أتفادونهم مؤمنين بذلك ، وتخرجونهم كفراً بذلك .

١٤٧٧ — حدثنى محمد بن عمرو ، قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « وإن يأتوكم أسَارى تَفدُوهم » يقول : إن وَجدْتَه فى يَد غيرك فديته ، وأنتَ تقتله بيدك ؟

---

(١) كان فى المطبوعة : « . . . وتكفرون ببعض فادين والله إن فداء لإيمان » ، وهو كلام مضطرب فزدت ما بين القوسين استظهاراً ، حتى يستقيم الكلام .

١٤٧٨ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر قال ، قال أبو جعفر : كان قتادة يقول فى قوله : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض »، فكان إخراجهم كفراً ، وفداؤهم إيماناً .

١٤٧٩ — حدثنا المثنى قال،حدثنا آدم قال، حدثنا أبو جعفر، عن الربيع، عن أبى العالية فى قوله:«ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم » الآية، قال : كان فى بنى إسرائيل : إذا استضعفوا قوماً أخرجوهم من ديارهم ، وقد أخذ عليهم الميثاق : أن لا يَسفِكوا دماءهم ولا يخرجُوا أنفسهم من ديارهم، وأخذ عليهم الميثاق : إنْ أسر بعضُهم أن يُفادوهم . فأخرجوهم من ديارهم، ثم فادوهم، فآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض . آمنوا بالفداء ففدَوْا ، وكفروا بالإخراج من الديار فأخرجوا .

١٤٨٠ — حدثنى المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر قال ، حدثنا الربيع بن أنس قال : أخبرنى أبو العالية : أن عبد الله بن سَلام مرَّ على رأس الجالوتِ بالكوفة وهو يُفادى من النساء من لم يَقع عليه العرب ، ولا يُفادى من وقعَ عليه العرب ، فقال له عبد الله بن سَلام : أما إنه مكتوب عندك فى كتابك : أنْ تَفادُوهنّ كلّهن .

٢١٧/١

١٤٨١ — حدثنا القاسم قال ،حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج : « أفتُؤمنُونَ ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » ، قال، كفرهم القتلُ والإخراج ، وإيمانهم الفداء . قال ابن جريج : يقول : إذا كانوا عندكم تقتلونهم وتخرجُونهم من ديارهم،وأما إذا أسِروا تفدونهم؟[1] وبلغنى أن عمر بن الخطاب قال فى قصّة بنى إسرائيل: إنّ بنى إسرائيل قد مضوا، وإنكم أنتم تُعنَوْنَ بهذا الحديث.

* * *

قال أبو جعفر : واختلف القرَأةُ[2] فى قراءة قوله : «« إنْ يأتوكم أسارى تفدوهم» .

(١) فى المطبوعة : «« تفدوهم » ، خطأ .

(٢) فى المطبوعة : « واختلف القراء » ، ورددته إلى نهج أبى جعفر .

فقرأه بعضهم : « أسرى تَفْدُوهم » ، وبعضهم : « أسَارى تُفادُوهم » ، وبعضهم « أسَارى تَفدُوهم »، وبعضهم « أسْرى تُفادوهم » .

* * *

قال أبو جعفر : فمن قرأ ذلك : « وإنْ يَأتوكم أسْرَى » ، فإنه أراد جمع « الأسير » ، إذ كان على « فعيل » ، على مثال جَمْع أسماء ذوى العاهات التى يأتى واحدُها على تقدير «فعيل»، إذ كان « الأسر » شبيهَ المعنى — فى الأذى والمكروه الداخل على الأسير — ببعض معانى العاهات ، وألحق جَمْع المستلحَق به بجمع ما وصفنا ، فقيل : « أسير وأسْرى »، كما قيل : « مريض ومَرْضى ، وكسير وكَسرى ، وَجريح وَجرْحى»

* * *

وقال أبو جعفر : وأما الذين قرأوا ذلك « أسَارى » ، فإنهم أخرجوه على مخرج جمع « فَعلان » ، إذ كان جمع « فَعلان » الذى له « فَعْلى » قد يشارك جمع « فعيل » كما قالوا : « سَكارى وَسكرَى ، وكَسالى وكَسلى »، فشبهوا « أسيراً » — وجمعوه مرة « أسَارى »، وأخرى « أسْرى » — بذلك .

* * *

وكان بعضهم يزعم أن معنى « الأسرى» مخالف معنى « الأسارى » ، ويزعم أن معنى « الأسرى» : استئسار القوم بغير أسر من المستأسِر لهم ، وأن معنى « الأسارى » معنى مصير القوم المأسورين فى أيدى الآسرين بأسرهم وأخْذهم قهرًا وَغلبةً .

قال أبو جعفر : وذلك ما لا وجه له يفهم فى لغة أحد من العرب . ولكن ذلك على ما وصفتُ من جمع « الأسير » مرة على « فَعْلى » لما بينت من العلة ، ومرة على « فَعَالى » ، لما ذكرت : من تشبيههم جمعه بجمع « سكران وكسلان » وما أشبه ذلك .

* * *

وأولى بالصواب فى ذلك قراءةُ من قرأ « وإنْ يَأتوكم أسْرى » ، لأن « فعالى » فى جمع « فعيل » غيرُ مستفيض فى كلام العرب ، فإذْ كان ذلك غير مستفيض فى كلامهم ، وكان مستفيضاً فاشياً فيهم جمعُ ما كان من الصفات — التى بمعنى

الآلام والزمانة — وواحدُه على تقدير « فعيل » ، على « فعلى » ، كالذى وصفنا قبل ، وكانَ أحد ذلك « الأسير » ، كان الواجب أن يُلحق بنظائره وأشكاله ، فيجمع َجمعَها دون غيرها ممن خالفها .

* * *

وأما من قرأ « تُفادُوهم » ، فإنه أراد : إنكم تفدُونهم من أسْرهم ، ويفدِى منكم — الذين أسروهم ففادوكم بهم — أسرَاكم منهم .

* * *

وأما من قرأ ذلك « تَفدوهم » ، فإنه أراد : إنكم يا معشرَ اليهود ، إن أتاكم الذين أخرجتموهم منكم من ديارهم أُسرى فدَيْتموهم فاستنقذتموهم .

وهذه القراءةُ أعجب إلىّ من الأولى — أعنى : «أسرى تُفادُوهم» —[1] لأن الذى على اليهود فى دينهم فداء أسراهم بكل حال ، فَدَى الآسرون أسْراهم منهم أم لم يفدوهم .

* * *

وأما قوله : « وَهو مُحرَّمٌ عليكم إخراجهم » ، فإن فى قوله : « وهو » وجهين من التأويل . أحدهما : أن يكون كناية عن الإخراج الذى تقدم ذكره . كأنه قال : وتُخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، وإخراجهم محرم عليكم . ثم كرر « الإخراج » الذى بعد « وهُو محرم عليكم » ، تكريراً على « هو » ، لمَّا حال بين « الإخراج » و « هو » كلام .

والتأويل الثانى ، أن يكون عماداً ، لمّا كانت « الواو » التى مع « هو » تقتضى اسماً يليها دون الفعل .[2] فلما قدّم الفعلَ قبل الاسم — الذى تقتضيه « الواو » أن يليَها — أوليَتْ « هو » ، لأنه اسم ، كما تقول : « أتيتُك وهو قائم أبوك » بمعنى : « وأبوُك قائم » ، إذْ كانت « الواو » تقتضى اسماً ، فعُمدت بـ « هو » ، إذ سبق الفعلُ الاسمَ ، ليصلحُ الكلام .[3] كما قال الشاعر :

١٨١٣

(١) فى المطبوعة : « أسرى تفدوهم » ، وهو غير الصواب ، فيما اختاره أبو جعفر من القراءة .

(٢) العماد ، هو ما اصطلح عليه البصريون بقولهم : « ضمير الفصل » ، ويسمى أيضاً : « دعامة » و « صفة » . وأراد بقوله : « الفعل » هنا : المشتق الذى يعمل فيما بعده عمل الفعل . وسيتبين مراده فى العبارات الآتية .

(٣) قد استوفى هذا كله الفراء فى معانى القرآن ١ : ٥٠ — ٥٢ .

فَأَبْلِغْ أَبَا يَحْيَى إِذَا مَا لَقِيتَهُ عَلَى العِيسِ فِي آبَاطِهَا عَرَقٌ يَبْسُ (١)
بِأَنَّ السُّلَامِيَّ الَّذِي بِضَرِيَّةٍ أَمِيرَ الحِمَى، قَدْ بَاعَ حَقِّي بَنِي عَبْسِ (٢)
بِثَوْبٍ وَدِينَارٍ وَشَاةٍ وَدِرْهَمٍ ، فَهَلْ هُوَ مَرْفُوعٌ بِمَا هٰهُنَا رَأْسُ (٣)

فأوليتَ « هل » « هو »، لطلبها الاسمَ العِمادَ .(٤)

* * *

(١) سيأتى الشطر الثانى من البيت الأخير فى ١١ : ٣٤ ، ١٧ : ٧٣ ولم أجد الشعر فى غير معانى القرآن للفراء ١ : ٥٢ ، ولم أعرف قائله . والعيس : إبل بيض يخالطها شقرة يسيرة، وهى من كرائم الإبل . ويبس : يابس . قد يبس العرق فى آباطها من طول الرحلة .

(٢) السلامى : يعنى رجلا كان – فيما أرجح – مصدقاً وعاملا على الزكاة ، وأميراً على حمى ضرية ، ولست أعرف نسبته ، أهى إلى قبيلة أم إلى بلد . وحمى ضرية : فى نجد ، على طريق البصرة إلى مكة ، وهى إلى مكة أقرب ، وهى أرض طيبة مذكورة فى شعرهم . وفى البيت إقواء .

(٣) سيأتى الشطر الثانى بعد قليل : ٣٧٤ قوله : « بثوب » ، متعلق بقوله آنفاً « باع » . يقول : أخذ هذه الرشى التى عددها من بنى عبس ، فأسلم إليهم حقى . وقوله : « فهل هو مرفوع بما ههنا رأس» يقوله لأبى يحيى الذى ذكره ، ويقول: فهل نجد ناصراً ينصرنا ويأخذ لنا حقنا، فنرفع رؤوسنا بعد ما نزل بنا من الضيم . وهذه كلمة يقولونها فى مثل ذلك . قال الراعى (طبقات فحول الشعراء : ٤٤٢) :

فَإِنْ رَفَعْتَ بِهِمْ رَأْساً نَعَشْتَهُمُ وَإِنْ لَقُوا مِثْلَهَا فِى قَابِلٍ فَسَدُوا

وقال أعرابى :

فَتًى مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمْسِ، لَيْسَ بِبَاخِلٍ بِخَيْرٍ ، وَلاَ مُهْدٍ مَلاماً لِبَاخِلِ
وَلاَ نَاطِقٍ عَوْرَاءَ تُؤْذِي جَلِيسَهُ وَلاَ رَافِعٍ رَأْساً بِعَوْرَاءَ قَائِلِ

وجاءت هذه الكلمة فى (باب فضل من علم وعلم) من حديث أبى موسى الأشعرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (البخارى ١ : ٢٣) : « فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

(٤) فى المطبوعة : « فأوليت هل لطلبها » ، وزيادة « هو » لابد منها .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « فما جزاء من يفعل ذلك منكم » : فليسَ لمن قتلَ منكم قتيلاً = فكفر بقتله إيّاه ، بنقض عهد الله الذى حكم به عليه فى التوراة — وأخرج منكم فريقاً من ديارهم مُظاهراً عليهم أعداءهم من أهل الشرك ظُلماً وعُدواناً وخلافاً لما أمره الله به فى كتابه الذى أنزله إلى موسى = جَزَاءٌ — يعنى « بالجزاء » : الثواب ، وهو العوَض مما فَعل من ذلك والأجر عليه —[1] إلاّ خزىٌ فى الحياة الدنيا . « والخِزى » : الذُّلّ والصغار ، يقال منه : « خَزِى الرجل يَخزَى خِزياً » ، « فى الحياة الدنيا » ، يعنى : فى عاجل الدنيا قبل الآخرة .

* * *

ثم اختلف فى الخِزى الذى أخزاهم الله بما سلف من معصيتهم إياه . فقال بعضهم : ذلك هو حُكم الله الذى أنزله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : من أخذ القاتل بمن قَتل ، والقَوَد به قصاصاً ، والانتقام للمظلوم من الظالم .

* * *

وقال آخرون : بل ذلك ، هو أخذ الجزية منهم ما أقاموا على دينهم ، ذلّةً لهم وصَغارا .

* * *

وقال آخرون : بل ذلك الخزى الذى جُوزُوا به فى الدنيا : إخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم النضيرَ من ديارهم لأوّل الحشر ، وقتل مقاتلة قُرَيظة وَسبى ذراريهم ، فكان ذلك خِزياً فى الدنيا ، ولهُم فى الآخرة عذابٌ عظيمٌ .

* * *

---

(١) انظر ما سلف ٢ : ٢٧ — ٢٨ من هذا الجزء

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله : « ويومَ القيامة يُرَدُّون إلى أشدِّ العذاب » : ويوم تَقوم الساعة يُردُّ من يفعل ذلك منكم — بعد الخِزى الذى يَحلّ به فى الدنيا جزاءً على معصية الله — إلى أشدِّ العذاب الذى أعدّ الله لأعدائه .

* * *

وقد قال بعضهم : معنىَ ذلك : ويوم القيامة يردُّون إلى أشدّ من عذاب الدنيا .(1)

ولا معنى لقول قائل ذلك .(2) ذلك بأن الله جل ثناؤه إنّما أخبر أنّهم يردُّون إلى أشد معانى العذاب ، ولذلك أدخل فيه « الألف واللام » ، لأنه عنى به جنسَ العذاب كله ، دون نوع منه .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٨٥)

قال أبو جعفر : اختلف القَرَأة فى قراءة ذلك . فقرأه بعضهم : « وما الله بغافل عمَّا يَعملون » بـ« الياء » ، على وجه الإخبار عنهم . فكأنهم نَحوْا بقراءتهم معنى : « فما جَزَاء من يَفعلُ ذلك منكم إلا خِزْى فى الحياة الدنيا ويَومَ القيامة يُردُّون إلى أشدّ العذاب وما الله بغافل عما يَعملون » ، يعنى : عما يعمله الذين أخبرَ الله عنهم أنه ليس لهم جزاءٌ على فعلهم إلاّ الخزى فى الحياة الدنيا ، ومرجعهم فى الآخرة إلى أشد العذاب .

* * *

وقرأه آخرون : « وما الله بغافل عمَّا تَعملون » بـ« التاء » على وجه المخاطبة .

---

(١) فى المطبوعة : « إلى أشد العذاب من عذاب الدنيا » ، والصواب حذف « العذاب » .

(٢) فى المطبوعة : « ولا معنى لقول قائل ذلك بأن . . . » والصواب زيادة « ذلك » .

قال : فكأنهم نحوْا بقراءتهم: « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » . وما الله بغافل ، يا معشر اليهود ، عما تعملون أنتم .

* * *

وأعجب القراءتين إلى قراءة من قرأ بـ «الياء» ، إتباعاً لقوله: «فما جزاء من يفعلُ ذلك منكم» ، ولقوله: « ويوم القيامة يردُّون» . لأن قوله: « وما الله بغافلٍ عما يعلمون » إلى ذلك ، أقربُ منه إلى قوله: « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض » ، فإتباعه الأقربَ إليه ، أولى من إلحاقه بالأبعد منه . والوجه الآخر غيرُ بعيدٍ من الصواب . ٣١٩/١

* * *

وتأويل قوله : « وما الله بغافل عما يعلمون » ،[1] وما الله بساهٍ عن أعمالهم الخبيثة ، بلْ هو مُحصٍ لها ، وحافظُها عليهم حتى يجازيهم بها فى الآخرة ، ويخزيَهم فى الدنيا ، فيذلِّهم ويفضحهم .[2]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا بِالْأٰخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ (٨٦)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه أولئك الذين أخبرَ عنهم أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ، فيفادُون أسْراهم من اليهود ، ويكفرون ببعض ، فيقتلون من حرّم الله عليهم قتله من أهل ملّتهم ، ويخرجون من داره من حرم الله عليهم إخراجه من داره ، نقضاً لعهد الله وميثاقه فى التوراة إليهم . فأخبر جل ثناؤه أنّ هؤلاء [هم] الذين اشتروا رياسة الحياة الدنيا على الضعفاء وأهل الجهل والغباء من أهل ملتهم ،[3] وابتاعوا المآكلَ الخسيسةَ الرديئة فيها بالإيمان ، الذى كان يكون لهم به فى الآخرة — لو كانوا أتَوْا به مكانَ الكفر — الخلودُ فى الجنان . وإنما وصفهم الله جل ثناؤه

---

(١) فى المطبوعة : « وتأويل قوله : وما الله بساه » ، لم يذكر الآية ، والصواب إثباتها .

(٢) مضى تفسير معنى « الغفلة » فيما سلف من هذا الجزء ٢ : ٢٤٤

(٣) ما بين القوسين زيادة ، لا يستقيم الكلام بطرحها .

بأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، لأنهم رضُوا بالدنيا بكفرهم بالله فيها، عِوضاً من نعيم الآخرة الذى أعده الله للمؤمنين . فجعل حُظوظهم من نعيم الآخرة بكفرهم بالله ، ثمناً لما ابتاعوه به من خَسيس الدنيا ،[1] كما : —

١٤٨٢ — حدثنا بشر قال، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « أولئك الذين اشتروا الحياةَ الدنيا بالآخرة » ، استحبُّوا قليلَ الدنيا على كثير الآخرة .[2]

* * *

قال أبو جعفر : ثم أخبر الله جل ثناؤه أنهم إذْ باعوا حُظوظهم من نَعيم الآخرة — بتركهم طاعتَه ، وإيثارهم الكفرَ به والخسيسَ من الدنيا عليه — لا حظّ لهم فى نعيم الآخرة ، وأنّ الذى لهم فى الآخرة العذابُ ، غيرَ مخفَّف عنهم فيها العذاب . لأن الذى يخفَّف عنه فيها من العذاب ، هو الذى له حظّ فى نعيمها ، ولاحظّ لهؤلاء ، لاشترائهم — بالذى كان فى الدنيا — دنياهم بآخرتهم .[3]

* * *

وأما قوله : « ولا هم يُنصرون » فإنه أخبر عنهم أنه لا ينصُرهم فى الآخرة أحد ، فيدفعُ عنهم بُنصرته عذابَ الله — لا بقوّته ولا بشفاعته ولا غيرهما .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « آتينا موسَى الكتاب » : أنزلناه إليه . وقد بيّنا أن معنى « الإيتاء » الإعطاء ، فيما مضى قبل .[4]

---

(١) انظر ما مضى ١ : ٣١٢ — ٣١٥ فى معنى « الاشتراء » .

(٢) الأثر : ١٤٨٢ — كان فى المطبوعة : « حدثنا يزيد . . . » بإسقاط : « حدثنا بشر قال » ، وهذا إسناده إلى قتادة ، كثير الدوران ، وأقربه فيما مضى رقم : ١٤٧٥ .

(٣) فى المطبوعة : « لاشترائهم الذى كان فى الدنيا ودنياهم بآخرتهم » ، وهو كلام سقيم ، ولعل الصواب ما أثبت .

(٤) انظر ما سلف ١ : ٥٧٤ .

* * *

و « الكتاب » الذى آتاه الله موسى عليه السلام ، هو التوراةُ .

* * *

وأما قوله : « وَقفَّيْنا » ، فإنه يعنى : وأرْدَفنا ، وأتبعنا بعضهم خلف بعض ، كما يقفو الرجل الرجل : إذا سار فى أثره من ورائه . وأصله من « القفا » ، يقال منه : « قفوْتُ فلاناً » : إذا صرتَ خلفَ قفاه ، كما يقال : « دَبرتَه » : إذا صرْت فى دُبُره .

* * *

ويعنى بقوله : « من بعده » ، من بعد موسى .

* * *

ويعنى بـ « الرسل » : الأنبياء ، وهم جمع « رسول » . يقال : هو « رَسول وهم رُسُل » ، كما يقال : « هو صبور وهُم قوم صُبُر ، وهو رجل شكور وهم قوم شُكُر » .

* * *

وإنما يعنى جل ثناؤه بقوله : « وقفَّينا من بَعده بالرسل » ، أى أتبعنا بعضهم بعضاً على منهاج واحدٍ وشريعة واحدة . لأن كلّ من بعثه الله نبيًّا بعدَ موسى صلى الله عليه وسلم إلى زمان عيسى بن مريم ، فإنما بَعثه بأمر بنى إسرائيل بإقامة التوراة ، والعمل بما فيها ، والدعاء إلى ما فيها . فلذلك قيل : « وَقفَّيْنا من بعده الرسل » ، يعنى على منهاجه وشريعتِه ، والعمل بما كان يعمل به .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾

٣٢٠/١ قال أبو جعفر : يعنى بقوله : « وآتَينا عيسَى بنَ مَريَمَ البيِّنات » ، أعطينا عيسى بن مريم .

* * *

ويعنى بـ « البينات » التى آتاه الله إياها : ما أظهر على يديه من الحجج والدلالة على نبوته : من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه ، ونحو ذلك من الآيات ، التى أبانت منزلته من الله ، ودلت على صدقه وصحة نبوّته ، كما : —

١٤٨٣ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثنى محمد بن إسحق قال ، حدثنا محمد بن أبى محمد ، عن سعيد بن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن

عباس : « وآتينا عيسى بنَ مريمَ البينات » : أي الآيات التي وَضع على يدَيه : من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طائراً بإذْن الله ، وإبراء الأسقام ، والخبرِ بكثير من الغيوب ممّا يدّخرون في بيوتهم ، وما ردَّ عليهم من التوراة ، مَعَ الإنجيل الذي أحدَثَ الله إليه .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾

قال أبو جعفر : أما معنى قوله : « وأيّدْناه » ، فإنه قوّيناه فأعنّاه ، كما : —

١٤٨٤ — حدثني المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك : « وأيّدْناه » ، يقول : نصرناه . يقال منه : « أيّدَكَ الله » ، أي قوّاك ، « وهو رَجُل ذو أيْدٍ ، وذُو آدٍ » ، يراد : ذو قوة . ومنه قول العجّاج :

مِنْ أَنْ تَبَدَّلْتُ بِآدِي آدَا[1]

يعني : بشبابي قوةَ المشيب ، ومنه قول الآخر :[2]

إنّ القِدَاحَ إذَا اجْتَمَعْنَ فَرَامَهَا ... بِالكَسْرِ ذُو جَلَدٍ وبطْشٍ أَيِّدِ[3]

(١) زيادة ديوانه : ٧٦ ، واللسان (أود) (أيد) ومجاز القرآن : ٤٦ ، وأمالي الزجاجي : ٣٩ في خبر ، ورواه :

فَإِن تبدّلتُ بِآدِي آدَا ... لَمْ يَكُ يَنْآدُ فأمسى انْآدَا

فَقَدْ أَرَانِي أَصِلُ القُعَّادا

والقعاد : القواعد من النساء ، جمع على جمع المذكر ، كما قال القطامي :

أَبْصارهُنّ إِلَى الشُّبَّانِ مَائِلَةٌ ... وَقَدْ أَراهُنّ عَنّي غَيْرَ صُدَّادِ

يعني : غير صواد .

(٢) ينسب البيت — من أبيات — لعبد الملك بن مروان ، والصواب أنه لعبد الله بن عبد الأعلى ابن أبي عمرة الشيباني . مولى بني شيبان (تاريخ الطبري ٤ : ٢٢/وسمط اللآلىء : ٩٦٣ ترجمته) .

(٣) البيت من أبيات جياد رواها أبو العباس المبرد في التعازي والمراثي ورقة : ١٠٥ ، ١٠٦ ، والمسعودي في مروج الذهب ٣ : ١٠٤ ، ولباب الآداب : ٣١ ، وجاء بيت الشاهد في تاريخ الإسلام

يعنى : بالأيْد : القوىّ .

* * *

ثم اختلف فى تأويل قوله : « بروح القدس » . فقال بعضهم : « روح القدس » الذى أخبر الله تعالى ذكره أنه أيد عيسى به ، هو جبريل عليه السلام . ذكر من قال ذلك :

١٤٨٥ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « وأيّدناه برُوح القدسُ » ، قال : هو جبريل .

١٤٨٦ — حدثنى موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى قوله : « وأيّدناه برُوح القدس » ، قال : هو جبريل عليه السلام .

١٤٨٧ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا أبو زهير ، عن جويبر ، عن الضحاك فى قوله : « وأيّدناه برُوح القدس » ، قال : روح القدس ، جبريلُ .

١٤٨٨ — حدثت عن عمار قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « وأيّدناه برُوح القدس » ، قال : أيد عيسى بجبريل ، وهو روح القدس .

١٤٨٩ — وقال ابن حميد ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق قال ، حدثنى عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبى الحُسَيْن المكى ، عن شهر بن حوشب الأشعرى : أن نفراً من اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أخبرنا عن الروح . قال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل ، هل تعلمون أنه جبريل ؟ وهو [الذى]

للذهبى ٣ : ٢٨٠ ، وتاريخ ابن كثير ٩ : ٦٧ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى : ١٤٧ ، واختلفت رواية البيت الشاهد . وقد أوصى عبد الملك بن مروان بنيه وصية جليلة ، ثم قال لهم احفظوا عنى هذه الأبيات — يعنى شعر عبد الله بن عبد الأعلى — أمرهم أن يجتمعوا ولا يتفرقوا فتذهب ريحهم . وبعد البيت :

عَزَّتْ وَلَمَ تُكْسَرْ ، وَإِنْ هِىَ بُدِّدَتْ فَالوَهْنُ والتَكْسِيرُ لِلمُتَبَدِّدِ

يأتيني؟ قالوا : نعم.[1]

* * *

وقال آخرون : « الروح » الذى أيّد الله به عيسى ، هو الإنجيل * ذكر من قال ذلك :

١٤٩٠ — حدثنى يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد فى قوله : « وأيّدناه برُوح القدس » ، قال : أيد الله عيسى بالإنجيل رُوحاً ، كما جعل القرآن رُوحاً ، كلاهما رُوحُ الله ، كما قال الله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ [سورة الشورى : ٥٢]

* * *

وقال آخرون : هو الاسم الذى كان عيسى يُحيي به الموتَى * ذكر من قال ذلك :

١٤٩١ — حدثت عن المنجاب قال ، حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « وأيّدناه برُوح القدس » ، قال : هو الاسم الذى كان يُحيي عيسى به الموتى .

* * *

قال أبو جعفر : وأولى التأويلات فى ذلك بالصواب قولُ من قال : « الروح » — فى هذا الموضع — جبريل . لأن الله جل ثناؤه أخبر أنه أيّد عيسى به ، كما أخبر فى قوله : ﴿ إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٣٢١/١

---

(١) الحديث : ١٤٨٩ — وقع فى المطبوعة « حدثنا سلمة ، عن إسحق » . وهو خطأ ، صوابه « عن ابن إسحق » . عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى الحسين المكى : ثقة فقيه ، من شيوخ الليث ومالك . مترجم فى التهذيب ، وابن أبى حاتم ٢/٢/٩٧ . شهر بن حوشب الأشعرى : تابعى ثقة ، ومن تكلم فيه فلا حجة له . وقد فصلنا القول فى توثيقه ، فى شرح المسند : ٥٠٠٧ . وهو مترجم فى التهذيب ، والكبير للبخارى ٢/٢/٢٥٩ — ٢٦٠ ، وابن سعد ٧/٢/١٥٨ ، وابن أبى حاتم ٢/١/٣٨٢ — ٣٨٣ . ولكن هذا الحديث مرسل ، فإن شهراً تابعى كما قلنا . ومعناه — فى تفسير « الروح » بأنه جبريل — ثابت فى أحاديث صحاح متكاثرة . ذكر منها ابن كثير ١ : ٢٢٧ حديث ابن مسعود ، فى صحيح ابن حبان ، مرفوعاً : « إن روح القدس نفث فى روعى : أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » . وقد ذكرنا فى شرحنا رسالة الشافعى . رقم : ٣٠٦ كثيراً من هذا المعنى . وهذا الحديث جزء من حديث مطول ، سيأتى بهذا الإسناد رقم : ١٦٠٦

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾ [سورة المائدة : ١١٠] ، فلو كان الرُّوح الذى أيَّده الله به هو الإنجيل ، لكان قوله : « إذ أيَّدتُك برُوح القدُس » ، و « إذ علَّمتك الكتاب والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل » ، تكرير قول لا معنى له. وذلك أنه على تأويل قول من قال : معنى « إذ أيدتك برُوح القدس » ، إنما هو : إذ أيدتك بالإنجيل — وإذْ علمتك الإنجيل . وهو لا يكون به مُؤيَّداً إلا وهو معلَّمه ، فذلك تكرير كلام واحد ، من غير زيادة معنى فى أحدهما على الآخر . وذلك خَلفٌ من الكلام ، [1] والله تعالى ذكره يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدُهم به فائدة . وإذْ كان ذلك كذلك ، فبيِّن فسادُ قول من زعم أن « الروح » فى هذا الموضع ، الإنجيلُ ، وإن كان جميع كتب الله التى أوحاها إلى رُسله رُوحاً منه ، لأنها تحيا بها القلوب الميِّتة ، وتنتعش بها النفوس المولِّية ، وتهتدى بها الأحلام الضَّالة .

* * *

وإنما سمى الله تعالى جبريل « رُوحاً » وأضافه إلى « القدس » ، لأنه كان بتكوين الله له رُوحاً من عنده ، من غير وِلادة والد ولدَه ، فسماه بذلك « رُوحاً » ، وأضافه إلى « القدس » — و « القدس » ، هو الطهر — كما سَمى عيسى بن مريمَ « روحاً » لله ، من أجل تكوينه له رُوحاً من عنده من غير ولادة والد وَلدَه .

* * *

وقد بيّنا فيما مضى من كتابنا هذا ، أنّ معنى « التقديس » : التطهير ، و « القدس » : الطهر ، من ذلك . وقد اختلف أهل التأويل فى معناه فى هذا الموضع نحو اختلافهم فى الموضع الذى ذكرناه . [2]

١٤٩٢ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى قال : القدس ، البركة .

١٤٩٣ — حدثت عن عمار قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه قال : القدس ، وهو الرب تعالى ذكره .

---

(١) الخلف : الردىء الفاسد من القول . يقال فى المثل : « سكت ألفاً ونطق خلفاً » ، للرجل يطيل الصمت ، فإذا تكلم تكلم بالخطأ والخطل .

(٢) انظر ما سلف ١ : ٤٧٥ — ٤٧٦ .

١٤٩٤ — حدثني يونس قال ،أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : «وأيَّدناه برُوح القدس» ، قال: الله ، القُدُس . وأيّد عيسى بروحه ، قال : نَعْتُ الله، القُدُس. وقرأ قول الله جل ثناؤه: ﴿ هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ ﴾[سورة الحشر : ٢٣] ، قال: القدس والقدُّوس، واحدٌ .

١٤٩٥ — حدثني يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبي هلال ، [عن هلال] بن أسامة، عن عطاء بن يسار قال ، قال كعب : الله، القُدُس .(١)

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧)

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « أفكلما جاءكم رسولٌ بما لا تَهوى أنفسُكم »، اليهودَ من بنى إسرائيل .

١٤٩٦ — حدثني بذلك محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبوعاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد .

* * *

قال أبو جعفر : يقول الله جل ثناؤه لهم : يا معشرَ يهودِ بنى إسرائيل ، لقد آتينا موسى التوراة ، وتابَعنا من بعده بالرسل إليكم ، وآتينا عيسى بن مريم

---

(١) الخبر : ١٤٩٥ — هو كلمة من كلام كعب الأحبار . أما الإسناد إليه ففيه إشكال . ولعله خطأ من الناسخين . فليس فى الرواة — فيما علمنا — من يسمى « سعيد بن أبى هلال بن أسامة » ! كما كان فى المطبوعة . وإنما صوابه ما رجحنا إثباته ، بزياد [عن هلال] .

فسعيد بن أبى هلال الليثى المدنى المصرى : ثقة من أتباع التابعين ، يروى عنه عمرو بن الحارث (الذى سبقت ترجمته فى ١٣٨٧) . وسعيد مترجم فى التهذيب ، وفى الكبير للبخارى ٢ / ١ / ٤٧٥ ، وابن أبى حاتم ٢ / ١ / ٧١ . وهلال بن أسامة : هو : «هلال بن على بن أسامة المدنى» ، و بعضهم نسبه إلى جده ، فقال : ابن أسامة » ، كما فى التهذيب ، وهو ثقة . مترجم أيضاً فى الكبير للبخارى ٤ / ٢ / ٢٠٤ — ٢٠٥ ، وابن أبى حاتم ٤ / ٢ / ٧٦ . وقد فصلنا القول فى ترجمته ، فى شرح المسند : ٧٣٤٦ .

البيّنات والحجج ، إذ بعثناه إليكم ، وقوّيناه بروح القدس ، وأنتم كلما جاءكم رسول من رُسلى بغير الذى تهواه نفوسكم استكبرتم عليهم — تجبّراً وبغياً — استكبارَ إمامكم إبليس ، فكذبتم بعضاً منهم وقتلتم بعضاً . فهذا فعلكم أبداً برسلى .

* * *

وقوله : « أفكلّما » ، وإن كان خرج مَخرج التقرير فى الخطاب ، فهو بمعنى الخبر .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾

١/٣٢٢ قال أبو جعفر : اختلفت القرَأة فى قراءة ذلك . فقرأه بعضهم : « وَقالوا قُلوبنا غُلْف » مخففة اللام ساكنة . وهى قراءة عامة الأمصار فى جميع الأقطار . وقرأه بعضهم : « وقالوا قُلوبنا غُلُف » مثقلة اللام مضمومة .

* * *

فأما الذين قرأوها بسكون اللام وتخفيفها ، فإنهم تأوّلوها ، أنهم قالوا : قلوبنا فى أكِنَّة وأغطية وغُلْف . و« الغُلْف » — على قراءة هؤلاء — جمع « أغْلف » ، وهو الذى فى غلاف وغطاء ، كما يقال للرجل الذى لم يُختَن « أغلف » ، والمرأة « غلفاء » . وكما يقال للسيف إذا كان فى غلافه : « سيف أغْلف ، وقوسٌ غَلفاء » وجمعها « غُلْف » . وكذلك جمع ما كان من النعوت ذكرُه على « أفعل » وأنثاه على « فعلاء » ، يجمع على « فُعْل » مضمومة الأول ساكنة الثانى ، مثل : « أحمر وحُمر ، وأصفر وصُفر » ، فيكون ذلك جماعاً للتأنيث والتذكير . ولا يجوز تثقيل عين « فُعْل » منه ، إلا فى ضرورة شعر ، كما قال طَرَفة بن العبد :[1]

أَيُّهَا الفِتْيَانُ فِى مَجْلِسِنَا ... جَرِّدُوا مِنْهَا وِرَادًا وَشُقُرْ .[2]

---

(١) ديوانه (أشعار الستة الجاهليين) : ٣٣١ ، من قصيدة نفيسة .

(٢) جردوا : قدموا للغارة . وتجرد الفرس : تقدم الحلبة فخرج منها . وتجرد فى الأمر : جد فيه . وراد جمع ورد (بفتح فسكون) وهو من الخيل ، بين الكميت والأشقر . والأشقر : الأحمر حمرة صافية ، يحمر منها السبيب والمعرفة والناصية . والعرب تقول : أكرم الخيل وذوات الخير منها شقرها .

يريد: شُقْراً ، إلاّ أن الشعر اضطرّه إلى تحريك ثانية فحركه . ومنه الخبر الذى : —

١٤٩٧ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا الحكم بن بشير بن سلمان قال ، حدثنا عمرو بن قيس الملائى ، عن عمرو بن مُرة الجَملى ، عن أبى البخترى ، عن حُذَيفة قال : القلوبُ أربعة — ثم ذكرها — فقال فيما ذكر : وقلب أغلف مَعصوبٌ عليه ، فذلك قَلب الكافر . (١)

* * *

• ذكر من قال ذلك — يعنى : أنها فى أغطية — :

١٤٩٨ — حدثنا ابن حميد : قال، حدثنا سلمة قال ، حدثنى ابن إسحق

---

(١) الخبر :١٤٩٧ — هذا موقوف على حذيفة، وإسناده جيد،إلا أنه منقطع ، كما سنبين ، إن شاء الله .

الحكم بن بشير بن سلمان النهدى الكوفى : ثقة ، مترجم فى التهذيب ، ووقع هناك خطأ مطبعى فى اسمى أبيه وجده . وله ترجمة عند البخارى فى الكبير ٢/١/٣٤٠ ، وابن أبى حاتم ١/٢/١١٤ .

« عمرو بن قيس الملائى » : مضت ترجمته : ٨٨٦ . و « عمرو بن مرة الجملى » و « أبو البخترى » واسمه « سعيد بن فيروز » مضيا فى : ١٧٥ .

وانقطاع الإسناد ، هو بين أبى البخترى ، المتوفى سنة ٨٣ ، وبين حذيفة بن اليمان ، المتوفى أوائل سنة ٣٦ بعد مقتل عثمان بأربعين يوماً . ونص فى التهذيب على أن أبا البخترى لم يدرك حذيفة .

وهذا الخبر ذكره الطبرى مختصراً — كما ترى — وجاء به السيوطى كاملا ١ : ٨٧ ، ونسبه لابن أبى شيبة وابن أبى الدنيا فى كتاب الإخلاص ، وابن جرير ، فذكر نحوه ، موقوفاً على حذيفة .

وقد ورد معناه مرفوعاً : فروى أحمد فى المسند : ١١١٤٦ (ج ٣ ص ١٧ حلبى) ، عن أبى النضر ، عن أبى معاوية ، وهو شيبان بن عبد الرحمن النحوى ، عن ليث ، وهو ابن أبى سليم ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى البخترى ، عن أبى سعيد الخدرى . وهذا إسناد صحيح . ويظهر منه أن أبا البخترى كان عنده هذا الحديث ، عن أبى سعيد مرفوعاً متصلا ، وعن حذيفة بن اليمان موقوفاً منقطعاً . ومثل هذا كثير ، ولا نجعل إحدى الروايتين علة للأخرى .

وحديث أبى سعيد هذا : ذكره السيوطى ١ : ٨٧ ، ونسبه لأحمد « بسند جيد » . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ١ : ٦٣ ، وقال : « رواه أحمد ، والطبرانى فى الصغير ، وفى إسناده ليث بن أبى سليم » . كأنه يريد إعلاله بضعف ليث . وليث بن أبى سليم : ليس بضعيف بمرة ، ولكن فى حفظه شىء ، وحديثه عندنا صحيح ، إلا ما ظهر خطؤه فيه ، كما بينا فى شرح المسند : ١١٩٩، وقد ترجمه البخارى فى الكبير ٤/١/٢٤٦ ، فلم يذكر فيه حرجاً .

قال ، حدثني محمد بن أبي محمد ، عن سعيد بن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس : « وَقالوا قُلوبنا غلف » ، أي في أكنة .

١٤٩٩ — حدثني المثنى قال، حدثنا أبو صالح قال ، حدثنا معاوية بن صالح ، عن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : « قلوبنا غُلف » ، أي في غطاء .

١٥٠٠ — حدثني محمد بن سعد قال ، حدثني أبي قال ، حدثني عمي قال ، حدثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس : « وقالوا قلوبنا غُلف »، فهي القلوب المطبُوع عليها .

١٥٠١ — حدثني عباس بن محمد قال، حدثنا حجاج قال، قال ابن جريج : أخبرني عبد الله بن كثير ، عن مجاهد قوله : « وقالوا قلوبنا غُلف » ، عليها غشاوة .

١٥٠٢ — حدثني المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل قال ، أخبرني عبد الله بن كثير ، عن مجاهد : « وقالوا قُلوبنا غُلف »، عليها غشاوة .

١٥٠٣ — حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازي قال، حدثنا أبو أحمد الزبيري قال ، حدثنا شريك ، عن الأعمش قوله : « قلوبنا غلف» ، قال : هي في غُلُف .

١٥٠٤ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « وقالوا قلوبنا غُلف »، أي لا تفقه .

١٥٠٥ — حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة : « وقالوا قلوبنا غُلف » قال : هو كقوله : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ ﴾ [سورة فصلت : ٥]

١٥٠٦ — حدثني المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة في قوله : « قلوبنا غُلْفٌ » قال : عليها طَابَعٌ ، قال : هو كقوله : « قلوبنا في أكنة » .

١٥٠٧ — حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية : « قلوبنا غلف »، أي لا تفقه .

١٥٠٨ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « وقالوا قلوبنا غلف » ، قال : يقولون : عليها غلافٌ ، وهو الغطاء .

١٥٠٩ — حدثنى يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد فى قوله : « قلوبنا غلف » ، قال يقول : قلبى فى غلاف فلا يخلص إليه مما تقول شىء ،[١] وقرأ ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مما تَدْعُونَا إليه ﴾ [سورة فصلت : ٦] .

٣٢٣/١

* * *

قال أبو جعفر : وأما الذين قرأوها « غُلُف » بتحريك اللام وضمها ، فإنهم تأولوها أنهم قالوا : قلوبنا غُلُفٌ للعلم ، بمعنى أنها أوعية .

قال : و« الغلف » على تأويل هؤلاء جمع « غلاف » . كما يجمع « الكتاب كتُب ، والحجاب حُجُب ، والشهاب شُهُب » . فمعنى الكلام على تأويل قراءة من قرأ « غُلُف » بتحريك اللام وضمها ، وقالت اليهود : قلوبنا غُلُف للعلم وأوعيةٌ له ولغيره * ذكر من قال ذلك :

١٥١٠ — حدثنى عبيد بن أسباط بن محمد قال ، حدثنا أبى ، عن فضيل ابن مرزوق ، عن عطية : « وقالوا قلوبنا غُلُف » ، قال : أوعية للذكر .

١٥١١ — حدثنى محمد بن عمارة الأسدى قال ، حدثنا عبيد الله بن موسى قال ، أخبرنا فضيل ، عن عطية فى قوله : « قلوبنا غُلُف » ، قال : أوعية للعلم .[٢]

١٥١٢ — حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى قال : حدثنا أبو أحمد قال ، حدثنا فضيل ، عن عطية مثله .

١٥١٣ — حدثت عن المنجاب قال ، حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : « وقالوا قلوبنا غُلُف » ، قال : مملوءة علماً ، لا تحتاج إلى محمد صلى الله عليه وسلم ولا غيره .

* * *

والقراءة التى لا يجوز غيرها فى قوله : « قلوبنا غُلف » ، هى قراءة من قرأ « غلْف »

---

(١) فى المطبوعة : « شىء » ساقطة ، واستدركتها من ابن كثير ١ : ٢٢٩ .

(٢) الخبر : ١٥١١ — محمد بن عمارة الأسدى ، شيخ الطبرى : لم أجد له ترجمة ولا ذكراً ، إلا فى رواية الطبرى عنه فى التاريخ أيضاً مراراً .

بتسكين اللام — بمعنى أنها فى أغشية وأغطية ، لاجتماع الحجة من القرأة وأهل التأويل على صحتها ، وشذوذِ من شذّ عنهم بما خالفه، من قراءة ذلك بضم «اللام» .

وقد دللنا على أن ما جاءت به الحجة متفقة عليه، حجةٌ على من بلغه . وما جاء به المنفردُ، فغير جائز الاعتراضُ به على ما جاءت به الجماعة التى تقوم بها الحجة نقلا وقولاً وعملاً، فى غير هذا الموضع ، فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا المكان .[1]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ بَل لَّعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله: «بل لعنهم الله»، بل أقصاهم الله وأبعدَهم وطرَدهم وأخزاهم وأهلكهم بكفرهم ، وجحودهم آيات الله وبيناته ، وما ابتعث به رسله ، وتكذيبهم أنبياءَه . فأخبر تعالى ذكره أنه أبعدهم منه ومن رحمته بما كانوا يفعلون من ذلك .

* * *

وأصل « اللعن » الطرد والإبعاد والإقصاء يقال: «لعن الله فلاناً يلعنه لعناً، وهو ملعون » . ثم يُصرف «مفعول» : فيقال: هو «لعين» . ومنه قول الشماخ بن ضرار :

ذَعَرْتُ بِهِ القَطَا وَنَفَيْتُ عَنْهُ مَكَانَ الذِّئْبِ كَالرَّجُلِ اللَّعِينِ[2]

* * *

قال أبو جعفر : فى قولَ الله تعالى ذكرُه « بل لعنهمُ الله بكفرهم » تكذيبٌ منه للقائلين من اليهود : « قلوبنا غلف » . لأن قوله : «بل» دلالة على جحْده جل

---

(١) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٢١٠، ٢١١، ٢٦٥، ٢٩٥

(٢) ديوانه : ٩٢ ، ومجاز القرآن ٤٦١، وسيأتى فى ٢ : ٣٣ (بولاق)، وروايته هناك وفى ديوانه ، « مقام الذئب » والضمير فى « به » إلى « ماء » فى قوله قبله :

وَمَاءٍ قَدْ وردْتُ لِوَصْلِ أَرْوَى عَلَيْهِ الطَّيْرُ كالوَرَقِ اللَّجِينِ

وأراد فى البيت : مقام الذئب الطريد اللعين كالرجل . والرجل اللعين المطرود لا يزال منتبذاً عن الناس ، شبه الذئب به ، يعنى فى ذله وشدة مخافته وذعره .

ذكره وإنكاره ما ادعوا من ذلك ، إذ كانت « بل » لا تدخل فى الكلام إلا نقضاً لمجحود . فإذْ كان ذلك كذلك ، فبيِّنٌ أن معنى الآية : وقالت اليهود : قُلوبنا أكنة مما تدعونا إليه يا محمد . فقال الله تعالى ذكره : ما ذلك كما زعموا ، ولكن الله أقصَى اليهود وأبعدَهم من رَحمته ، وطردهم عنها ، وأخزاهم بجحودهم له ولرسله ، فقليلاً ما يؤمنون .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٨٨)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله : « فَقليلاً مَا يُؤمنون » . فقال بعضهم ، معناه فقليلٌ منهم من يؤمن ، أى لا يؤمن منهم إلا قَليلٌ * ذكر من قال ذلك :

١٥١٤ — حدثنا بشر من معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون » ، فلعمرى لمن رَجع من أهل الشرك أكثر ممن رجع من أهل الكتاب ، إنّما آمن من أهل الكتاب رَهْطٌ يسير .

١٥١٥ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة : « فقليلاً ما يؤمنون » ، قال : لا يؤمن منهم إلاّ قليلٌ . ١/٣٢٤

* * *

وقال آخرون : بل معنى ذلك : فلا يؤمنون إلا بقليل مما فى أيديهم * ذكر من قال ذلك :

١٥١٦ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنا أبو سفيان ، عن معمر ، عن قتادة « فقليلاً ما يؤمنون » ، قال : لا يؤمن منهم إلاّ قليل . قال معمر : وقال غيره : لا يؤمنون إلا بقليل مما فى أيديهم .

* * *

قال أبو جعفر : وأولى التأويلات فى قوله : « فقليلاً مَا يُؤمنون » بالصواب ،

ما نحن مُتقنوه إن شاء الله . وهو أن الله جل ثناؤه أخبرَ أنه لَعن الذين وَصف صفتهم فى هذه الآية ، ثم أخبر عنهم أنهم قليلو الإيمان بما أنزل الله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . ولذلك نصب قوله : « فقليلاً » ، لأنه نعت للمصدر المتروك ذكره . ومعناه : بل لعنهم الله بكفرهم ، فإيماناً قليلاً ما يؤمنون . فقد تبين إذاً بما بيّنا فسادُ القول الذى رُوى عن قتادة فى ذلك . لأن معنى ذلك ، لو كان على ما روى من أنّه يعنى به : فلا يؤمن منهم إلاّ قليل ، أو فقليل منهم من يؤمن ، لكان « القليل » مرفوعاً لا منصوباً . لأنه إذا كان ذلك تأويله ، كان « القليل » حينئذ مرافعاً « ما » . فإذ نصب «القليل» — و « ما » فى معنى « مَنْ » أو « الذى » — [فقد] بقيت « ما » لا مُرافع لها.[1] وذلك غير جائز فى لغة أحد من العرب .

* * *

فأما أهل العربية فإنهم اختلفوا فى معنى « ما » التى فى قوله : «فقليلا ما يؤمنون». فقال بعضهم : هى زائدة لا معنى لها ، وإنما تأويل الكلام : فقليلاً يُؤمنون ، كما قال جل ذكره ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ [سورة آل عمران : ١٥٩] وما أشبه ذلك ، فزعم أن « ما » فى ذلك زائدة ، وأن معنى الكلام : فبرحمة من الله لِنت لهم ، وأنشدَ فى ذلك — محتجاً لقوله ذلك — بيتَ مهلهل :

لَوْ بِأَبَانَيْنِ جَاءَ يَخْطُبُهَا خُضِّبَ مَا أَنْفُ خَاطِبٍ بِدَمِ[2]

وزَعم أنه يعنى : خُضّب أنفُ خاطب بدم ، وأن « ما » زائدة .

* * *

وأنكر آخرون ما قاله قائل هذا القول فى « ما » ، فى الآية وفى البيّت الذى

---

(١) فى المطبوعة : « وإن نصب القليل » ، وكأن الأجود ما أثبته . والزيادة بين القوسين واجبة .

(٢) الكامل ٢ : ٦٨ ، ومعجم ما استعجم : ٩٦ ، وشرح شواهد المغنى : ٢٤٧ وغيرها ، قال أبو العباس : « أبان جبل : وهما أبانان : أبان الأسود ، وأبان الأبيض ، قال مهلهل ، وكان نزل فى آخر حربهم — حرب البسوس — فى جنب بن عمرو بن علة بن جلد بن مالك ، وهو مذحج ، وجنب حى من أحيائهم وضيع ، وخطبت ابنته ومهرت أدماً فزوجها وقال قبله :

أَنْكَحَهَا فَقْدُهَا الأَرَاقِمَ فِى جَنْبٍ وَكَانَ الحِبَاءُ مِنْ أَدَمِ

أنشده ، وقالوا : إنما ذلك من المتكلم على ابتداء الكلام بالخبر عن عموم جميع الأشياء ، إذ كانت « ما » كلمة تجمع كل الأشياء ، ثم تخص وتعم ما عمته بما تذكره بعدها .

* * *

وهذا القول عندنا أولى بالصواب . لأن زيادة ما لا يفيد من الكلام معنى في الكلام ، غير جائز إضافته إلى الله جل ثناؤه .

* * *

ولعل قائلا أن يقول : هل كان للذين أخبر الله عنهم أنهم قليلا ما يؤمنون — من الإيمان قليل أو كثير ، فيقال فيهم : « فقليلا ما يومنون » ؟

قيل : إن معنى « الإيمان » هو التصديق . وقد كانت اليهود التى أخبر الله عنها هذا الخبر تصدق بوحدانية الله ، وبالبعث والثواب والعقاب ، وتكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ونبوته ، وكل ذلك كان فرضاً عليهم الإيمان به ، لأنه في كتبهم ، ومما جاءهم به موسى ، فصدقوا ببعض — وذلك هو القليل من إيمانهم — وكذبوا ببعض ، فذلك هو الكثير الذى أخبر الله عنهم أنهم يكفرون به .

* * *

وقد قال بعضهم : إنهم كانوا غير مؤمنين بشىء ، وإنما قيل : « فقليلا ما يُؤمنون » ، وهم بالجميع كافرون ، كما تقول العرب : « قلما رأيتُ مثل هذا قط » . وقد روى عنها سماعاً منها : « مررت ببلاد قلما تُنبت إلا الكراث والبصل » يعنى : ما تنبت غير الكراث والبصل ، وما أشبه ذلك من الكلام الذى يُنطق به بوصف الشىء بـ « القلة » ، والمعنى فيه نفى جميعه .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « ولما جاءَهُم كتابٌ من عند الله ١/٣٢٥

(١) انظر ما سلف ١ : ٥٥٤ ، تعليق : ١ ، وانظر معانى القرآن للفراء ١ : ٥٩ — ٦٠

مُصدّق لما مَعهم »، ولما جاء اليهودَ من بنى إسرائيل الذين وصف جل ثناؤه صفتهم — « كتابٌ من عند الله » = يعنى بـ« الكتاب » القرآن الذى أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم = « مصدق لما معهم »، يعنى مصدّق للذى معهم من الكتب التى أنزلها الله من قبل القرآن، كما :—

١٥١٧ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد، عن قتادة : « ولما جاءَهُم كتابٌ من عند الله مصدِّقٌ لما معهم »، وهو القرآن الذى أنزلَ على محمد، مصدقٌ لما معهم من التوراة والإنجيل.

١٥١٨ — حدثت عن عمار بن الحسن قال، حدثنا ابن أبى جعفر، عن أبيه، عن الربيع فى قوله: « ولما جاءهم كتابٌ من عند الله مصدق لما معهم »، وهو القرآن الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، مصدق لما معهم من التوراة والإنجيل.

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « وكانوا من قَبلُ يَستفتحون على الذين كفروا »، أى : وكان هؤلاء اليهود — الذين لما جاءهم كتابٌ من عند الله مصدّق لما مَعهم، من الكتب التى أنزلها الله قبل الفُرْقان، كفروا به — يَستفتحون بمحمد صلى الله عليه وسلم = ومعنى « الاستفتاح »، الاستنصار =[1] يستنصرون الله به على مُشركى العرب من قبل مبعثه، أى من قبل أن يبعث، كما : —

١٥١٩ — حدثنى ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال، حدثنى ابن إسحق، عن

(١) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٢٥٤

عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى ، عن أشياخ منهم قالوا : فينا والله وفيهم — يعنى فى الأنصار ، وفى اليهود = الذين كانوا جيرانهم — نزلت هذه القصة = يعنى : « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » = قالوا : كنا قد علوناهم دهراً فى الجاهلية —[1] ونحن أهل الشرك، وهم أهل الكتاب —[2] فكانوا يقولون : إن نبيًّا الآن مبعثُه قد أظلّ زمانه ، يقتلكم قتل عادٍ وإرم .[3] فلما بعث الله تعالى ذكره رسوله من قريش واتبعناه ، كفروا به . يقول الله : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .[4]

١٥٢٠ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثنى ابن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد مولى آل زيد ثابت ، عن سعيد بن جبير ، أو عكرمة مولى ابن عباس ، عن ابن عباس : « أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه . فلما بعثه الله من العرب كفروا به ، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه. فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور أخو بنى سلِمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلِموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهلُ شرْك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته! فقال سلاّم بن مِشكم أخو بنى النضير : ما جاءنا بشىء نعرفه ، وما هو بالذى كنا نذكر لكم ! فأنزل الله جل ثناؤه فى ذلك من قولهم : « ولما جاءهم

---

(١) فى سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٠ « علوناهم ظهراً » .

(٢) فى سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٠ « ونحن أهل شرك ، وهم أهل كتاب » .

(٣) فى سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٠ « نقتلكم معه . . . » ، وكذلك هو فى ابن كثير ١ : ٢٣٠ ، وكأنه الصواب .

(٤) الخبر : ١٥١٩ — هذا له حكم الحديث المرفوع ، لأنه حكاية عن وقائع فى عهد النبوة ، كانت سبباً لنزول الآية ، تشير الآية إليها . الراجح أن يكون موصولا . لأن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى الظفرى المدنى : تابعى ثقة ، وهو يحكى عن « أشياخ منهم » ، فهم آله من الأنصار . وعن هذا رجحنا اتصاله . وقد نقل السيوطى ١ : ٨٧ هذا الخبر ، ونسبه لابن إسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبى نعيم ، والبيهقى ، كلاهما فى الدلائل .

كتابٌ من عند الله مصدق لما َمعهم وكانوا من َقبلُ َيستفتحون على الذين كفروا فلما َجاء َهم ما عرفُوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .[١]

١٥٢١ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا يونس بن بكير قال ، حدثنا ابن إسحق قال ، حدثني محمد بن أبي محمد مولى آل زيد بن ثابت قال ، حدثني سعيد بن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس مثله .

١٥٢٢ — حدثني محمد بن سعد قال، حدثني أبي قال ، حدثني عمي قال ، حدثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس : « وكانوا من قبلُ َيستفتحون على الذين كفروا »، يقول: يستنصرُون بخروج محمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب — يعني بذلك أهلَ الكتاب — فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ورأوه من غيرهم ، كفروا به وَحسدوه . ٣٢٦/١

١٥٢٣ — حدثنا محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال، حدثني عيسى ، عن ابن أبي نجيح ،عن علي الأزدي في قول الله: « وكانوا من َقبلُ َيستفتحون َعلى الذين كفروا »، قال: اليهودُ ، كانوا يقولون : اللهم ابعث َلنا هذا النبي يحكم بيننا وبين الناس، َيستفتحون — َيستنصرون — به على الناس .

١٥٢٤ — حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن علي الأزدي — وهو البارقي — في قول الله جل ثناؤه : « وكانوا من َقبلُ َيستفتحون »، فذكر مثله[٢]

١٥٢٥ — حدثنا بشر بن معاذ قال : حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « وكانوا من َقبلُ َيستفتحون على الذين كفروا » ، كانت اليهود

---

(١) الخبر : ١٥٢٠ — في سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٦ .

(٢) الأثر : ١٥٢٣ ، ١٥٢٤ — علي الأزدي البارق ، هو علي بن عبد الله أبو عبد الله بن أبي الوليد البارق ، روى عن ابن عمر ، وابن عباس ، وأبي هريرة ، وعبيد بن عمير ، وأرسل عن زيد بن حارثة. وعنه مجاهد بن جبر ، وهو من أقرانه . قال ابن عدي : ليس عنده كثير حديث ، وهو عندي لابأس به (تهذيب التهذيب ٧ : ٣٥٨ ، ٣٥٩) .

تستفتح بمحمد صلى الله عليه وسلم على كفار العرب من قبلُ ، وقالوا : اللهم ابعثْ هذا النبيَّ الذى نجدُه فى التوراة يعذبهم ويَقتلهم ! فلما بَعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم فرأوا أنه بُعث من غيرهم ، كفروا به حسداً للعرب ، وهم يعلمون أنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة : « فلما جاءَهم ما عرَفوا كفروا به » .

١٥٢٦ ـ حدثنى المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية قال : كانت اليهودُ تستنصر بمحمد صلى الله عليه وسلم على مُشركى العرب ، يقولون : اللهم ابعث هذا النبى الذى نجده مكتوباً عندنا حتى يعذِّب المشركين ويقتلهم ! فلما بعث الله محمداً ، ورأوا أنه من غيرهم ، كفروا به حسداً للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقال الله : « فلما جاءَهم ما عرَفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

١٥٢٧ ـ حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « ولما جاءَهم كتابٌ من عند الله مُصدِّقٌ لما معهم وكانوا من قَبل يستفتحون عَلى الذين كفروا فلما جاءهم ما عرَفوا كفروا به » . قال : كانت العرب تَمُرُّ باليهود فيؤذونهم ، وكانوا يجدون محمداً صلى الله عليه وسلم فى التوراة ، ويسألون الله أن يبعثه فيقاتلوا معه العربَ . فلما جاءهم محمد كفروا به ، حين لم يكن من بنى إسرائيل .

١٥٢٨ ـ حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قال : قلت لعطاء قوله : « وكانوا منْ قَبلُ يَستفتحون على الذين كفروا » ، قال : كانوا يستفتحون على كفار العرب بخروج النبى صلى الله عليه وسلم ويرجُون أن يكون منهم . فلما خرج ورأوه ليس منهم ، كفروا وقد عرفوا أنه الحق ، وأنه النبيّ . قال : « فلما جاءهم ما عرَفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » .

١٥٢٩ ـ قال حدثنا ابن جريج ، وقال مجاهد : يستفتحون بمحمد صلى الله

عليه وسلم تقول : إنه — يخرج . «فلما جاءهم ما عرفوا» — وكان من غيرهم — كفروا به[١].

١٥٣٠ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال : حدثني حجاج قال : قال ابن جريج — وقال ابن عباس : كانوا يستفتحون على كفار العرب .

١٥٣١ — حدثني المثنى قال ، حدثنا الحماني قال ، حدثني شريك ، عن أبي الجحاف ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير قوله : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » ، قال : هم اليهود ، عرفوا محمداً أنه نبيٌّ وكفروا به .

١/٣٢٧ ١٥٣٢ — حدثت عن المنجاب قال ، حدثنا بشر ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس في قوله : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » ، قال : كانوا يستظهرون ، يقولون : نحن نعين محمداً عليهم . وليسوا كذلك ، يكذبون .

١٥٣٣ — حدثني يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، سألت ابن زيد عن قول الله عز وجل : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » . قال : كانت يهودُ يستفتحون على كفار العرب ، يقولون : أما والله لو قد جاء النبيُّ الذى بشَّر به موسى وعيسى ، أحمدُ ، لكان لنا عليكم ! وكانوا يظنون أنه منهم ، والعربُ حولهم ، وكانوا يستفتحون عليهم به ، ويستنصرون به . فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وحسدوه ، وقرأ قول الله جل ثناؤه : ﴿ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٩] . قال : قد تبين لهم أنه رسول ، فمن هنالك نفع الله الأوسَ والخزرج بما كانوا يسمعون منهم أن نبيًّا خارج .

* * *

قال أبو جعفر : فإن قال لنا قائل : فأين جوابُ قوله : «ولما جاءهم كتاب من عند الله مُصدِّقٌ لما معهم» ؟

قيل : قد اختلف أهل العربية في جوابه . فقال بعضهم : هو مما تُرك جوابُه ، استغناءً بمعرفة المخاطبين به بمعناه ، وبما قد ذكر من أمثاله في سائر القرآن .[٢]

(١) الأثر : ١٥٢٩ — هذا إسناد قد سقط صدره ، فما أدرى ما هو . وهو مضطرب اللفظ أيضاً .
(٢) أنا في شك من هذه الجملة الأخيرة ، أن يكون فيها تحريف .

وقد تفعل العرب ذلك إذا طال الكلام ، فتأتى بأشياء لها أجوبة ، فتحذف أجوبتها ، لاستغناء سامعيها — بمعرفتهم بمعناها — عن ذكر الأجوبة ، كما قال جل ثناؤه : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [سورة الرعد : ٣١] ، فترك جوابه . والمعنى : ولو أن قرآنا سوى هذا القرآن سُيِّرت به الجبال ، لسيِّرت بهذا القرآن — استغناءً بعلم السامعين بمعناه . قالوا : فكذلك قوله : « ولما جاءَهم كتابٌ من عند الله مصدقٌ لما معهم » .

* * *

وقال آخرون : جواب قوله : « ولما جاءَهم كتابٌ من عند الله » فى « الفاء » التى فى قوله : « فلما جاءَهم ما عرَفوا كفروا به » ، وجواب الجزاءَين فى « كفروا به » ، كقولك : « لما قمتَ ، فلما جئتنا أحسنتَ » ، بمعنى : لما جئتنا إذ قمتَ أحسنتَ[1]

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٩)

قال أبو جعفر : قد دللنا فيما مضى على معنى : « اللعنة » ، وعلى معنى « الكفر » ، بما فيه الكفاية .[2]

* * *

فمعنى الآية : فخِزْىُ الله وإبعاده على الجاحدين ما قد عرَفوا من الحق عليهم لله ولأنبيائه ، المنكرين لما قد ثبت عندهم صحته من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ففى إخبار الله عز وجل عن اليهود — بما أخبر الله عنهمْ بقوله : « فلما جاءَهم ما عرفوا كفروا به » — البيانُ الواضح أنهم تعمدوا الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، بعد قيام الحجة بنبوته عليهم ، وقطع الله عُذرَهم بأنه رسوله إليهم .

* * *

(١) انظر معانى القرآن للفراء ١ : ٥٩ .

(٢) انظر ما سلف (الكفر) ١ : ٢٥٥ ، ٣٨٢ ، ٥٥٢ ، وهذا الجزء (اللعنة) ٢ : ٣٢٨

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا ﴾

قال أبو جعفر ومعنى قوله جل ثناؤه : « بئسَ مَا اشتروا به أنفسهم » : ساء ما اشتروا به أنفسهم .

* * *

وأصل «بِئْسَ» «بَئِسَ» من «البؤس»، سُكِّنت همزتها ، ثم نقلت حركتها إلى «الباء» ، كما قيل فى « ظَلِلت » «ظِلْتُ» ، وكما قيل « للكَبِد» ، «كِبْد» — فنقلت حركة « الباء » إلى « الكاف » ، لما سُكِّنت « الباء » .

وقد يحتمل أن تكون « بئس» ، وإن كان أصلها « بَئِس» ، من لغة الذين ينقلون حركة العين من « فَعِل » إلى الفاء ، إذا كانت عين الفعل أحد حروف الحلق الستة ، كما قالوا من «لَعِبَ» « لِعْبَ » ومن « سَئِمَ » « سِئْمَ » ، وذلك — فيما يقال — لغة فاشية فى تميم .

ثم جُعلت دالة على الذم والتوبيخ ، ووُصلت بـ « ما » .

* * *

واختلف أهل العربية فى معنى « ما » التى مع « بئسما » . فقال بعض نحويى البصرة : هى وحدها اسم ، و « أن يكفروا » تفسير له ،[1] نحو : « نعم رجلاً زيدٌ » ، و « أن يُنزل الله » بدل من « أنزل الله » .

* * *

٣٢٨/١ وقال بعض نحويى الكوفة : معنى ذلك : بئس الشىء اشتروا به أنفسهم أنْ يَكفروا. فـ « ما » اسم « بئس » ، و « أن يكفروا » الاسم الثانى. وزعم أن: « أنْ يكفروا » إن شئت جعلت « أن » فى موضع رفع ، وإن شئت فى موضع خفض.[2] أمّا الرفع : فبئس الشىء هذا أن يفعلوه . وأمّا الخفض : فبئس

(١) « التفسير » هو ما اصطلح البصريون على تسميته « التمييز » ، ويقال له التبيين أيضاً ، (همع الهوامع ١ : ٢٥٠) .

(٢) فى المطبوعة : « وزعم أن أن ينزل من فضله إن شئت جعلت . . . » ، وهو سهو من النساخ ، وصوابه ما أثبته من معانى القرآن للفراء ١ : ٥٦ .

الشيء اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا . قال : وقوله ﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة المائدة : ٨٠] كمثل ذلك. والعرب تجعل« ما » وحدها فى هذا الباب ، بمنزلة الاسم التام ، كقوله : ﴿ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ [سورة البقرة : ٢٧١] ، و«بئسما أنت»، واستشهد لقوله ذلك برجز بعض الرجاز :

لاَ تَعْجَلاَ فِى السَّيْرِ وَادْلُوهَا لَبِئْسَمَا بُطْءٌ وَلاَ نَرْعَاهَا[1]

قال أبو جعفر : والعربُ تقول « لبئسما تَزويجٌ ولا مَهرٌ »، فيجعلون « ما » وحدها اسماً بغير صلة . وقائل هذه المقالة لا يجيز أن يكون الذى يلى « بئس » معرفة مُوَقَّتة ، وخبره معرفة مُوَقَّتة . وقد زعم أن «بئسما» بمنزلة : بئس الشيء اشتروا به أنفسهم . فقد صارت« ما » بصلتها اسماً مُوَقَّتاً ، لأن « اشتروا » فعل ماض من صلة « ما »، فى قول قائل هذه المقالة . وإذا وصلت بماض من الفعل ، كانت معرفة مُوَقَّتة معلومة ، فيصير تأويل الكلام حينئذ : بئس شراؤهم كفرهم . وذلك عنده غير جائز : فقد تبين فسادُ هذا القول .[2]

* * *

وكان آخر منهم يزعم أنّ « أنْ » فى موضع خفض إن شئت ، ورفع إن شئت . فأمّا الخفض : فأنْ تردّه على « الهاء » التى فى ، « به » ، على التكرير على كلامين . كأنك قلت : اشتروا أنفسهم بالكفر . وأمّا الرفع : فأن يكون مكروراً على موضع « ما » التى تلى «بئس» .[3] قال : ولا يجوز أن يكون رفعاً على قولك : « بئس الرجلُ عبدُ الله »[4]

* * *

وقال بعضهم : « بئسما » شيء واحد يرافع ما بعده .[5] كما حكى عن العرب :

---

(١) لم أعرف الراجز ، والبيتان فى اللسان (دلو) . دلوت الناقة دلواً : سقتها سوقاً رفيقاً رويداً . ورعى الماشية وأرعاها : أطلقها فى المرعى .

(٢) انظر معانى القرآن للفراء ١ : ٥٦ — ٥٧ ، كأنه قول الكسائى . والمعرفة المرقتة : وهى المعرفة المحددة . وانظر شرح ذلك فيما سلف ١ : ١٨١ ، تعليق : ١ .

(٣) فى المطبوعة : « مكرراً » ، والصواب من معانى القرآن للفراء ١ : ٥٦ .

(٤) هذه الفقرة هى نص كلام الفراء فى معانى القرآن ١ : ٥٦ .

(٥) فى المطبوعة : « يعرف ما بعده » ، والصواب ما أثبت .

« بئسما تزويجٌ ولا مهرٌ » . فرافع « تزويج » « بئسما » ، [١] كما يقال : « بئسما زيد، وبئس ما عمرو » ، فيكون « بئسما » رفعاً ، بما عاد عليها من « الهاء » . كأنك قلت : بئس شيء الشيء اشتروا به أنفسهم ، وتكون « أن » مترجمة عن « بئسما » . [٢]

* * *

وأولى هذه الأقوال بالصواب ، قول من جعل « بئسما » مرفوعاً بالراجع من « الهاء » في قوله : « اشتروا به » ، كما رفعوا ذلك بـ « عبدالله » إذ قالوا : « بئسما عبدُ الله » ، وجعل « أن يكفروا » مترجمة عن « بئسما » . [٢] فيكون معنى الكلام حينئذ : بئس الشيء باع اليهود به أنفسَهم ، كفرُهم بما أنزل الله بغياً وحسَداً أن ينزل الله من فضله . وتكون « أن » التي في قوله : « أن ينزل الله » ، في موضع نصب . لأنه يعني به « أن يكفروا بما أنزل الله » : من أجل أن ينزل الله من فضله على من يشاءُ من عباده . موضع « أن » جزاءٌ . [٣] وكان بعض أهل العربية من الكوفيين يزعم أن « أن » في موضع خفض بنية « الباء » . وإنما اخترنا فيها النصب لتمام الخبر قبلها ، ولا خافض معها يخفضها . والحرف الخافض لا يخفضُ مضمراً .

* * *

وأما قوله : « اشتروا به أنفسهم » ، فإنه يعني به : باعُوا أنفسهم ، كما : —

١٥٣٤ — حدثني موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدي : « بئسما اشتروا به أنفسهم » ، يقول : باعوا أنفسهم « أن يكفروا بما أنزل الله بَغياً » .

١٥٣٥ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسن قال ، حدثني حجاج ، عن ابن جريج قال ، قال مجاهد : « بئسما اشتروْا به أنفسهم » ، يهودُ ، شَرَوُا الحقَّ

---

(١) في المطبوعة : « فرفع » ، والصواب ما أثبت .

(٢) الترجمة : هو ما يسميه البصريون : « عطف البيان » و « البدل » ، فقوله « مترجماً عن بئسما » ، أي عطف بيان .

(٣) الجزاء : المفعول لأجله هنا ، وفي المطبوعة : « جر » ، وهو خطأ ، وصوابه في معاني القرآن للفراء ١ : ٥٨ .

بالباطل ، وكِتمانَ َما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بأن يبيّنوه .[١]

* * *

قال أبو جعفر والعرب تقول : «شَريته» ، بمعنى بعته . و«اشتروا» ، فى هذا الموضع ، «افتعلوا» من «شَريت» . وكلام العرب — فيما بلغنا — أن يقولوا : «شَريت» بمعنى : بعت ، و«اشتريت» بمعنى : ابتعت . وقيل : إنما سُمى «الشارى» ، «شارياً» ، لأنه باع نفسه ودُنياه بآخرته .[٢] ومن ذلك قول يزيد بن مُفرِّغ الحميرى : ٣٢٩/١

وَشَرَيتُ بُرْداً ، لَيْتَنِي مِنْ قَبْلِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَهْ[٣]

ومنه قول المسيَّب بن عَلَس :

يُعطَى بِها ثمنًا فَيَمْنَعُهَا وَيقُولُ صَاحِبُها: أَلاَ تَشْرِى؟[٤]

---

(١) فى المطبوعة : «بأن بينوه» ، وهو خطأ ، والصواب من تفسير ابن كثير ١ : ٢٣١ . والمعنى : اشتروا الكتمان بالبيان .

(٢) الشارى واحد الشراة (بضم الشين) ، وهم الخوارج ، وقال قطرى بن الفجاءة الخارجى فى معنى ذلك ، ويذكر أم حكيم ، وذلك فى يوم دولاب :

فلو شَهِدْتَنَا يَوْمَ ذاك ، وخيْلُنَا تُبِيحُ من الكُفَّارِ كُلَّ حَرِيمِ
رأتْ فِتْيةً بَاعُوا الإلهَ نُفوسَهُمْ بجنَّاتِ عَدْنٍ عِنْدَهُ ونَعِيمِ

وقال الخوارج : نحن الشراة ، لقول الله عز وجل : «ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله» أى يبيعها ويبذلها فى الجهاد ، وثمنها الجنة ، وقيل : سموا بذلك لقولهم : «إنا شرينا أنفسنا فى طاعة الله حين فارقنا الأئمة الجائرة» ، أى : بعناها بالجنة .

(٣) طبقات فحول الشعراء : ٥٥٥ من قصيدة له ، فى هجاء عباد بن زياد ، حين باع عباد ما له فى دين كان عليه ، وقضى الغرماء ، وكان فيما باع غلام لابن مفرغ ، يقال له «برد» ، وجارية يقال لها «أراكة» . وقوله : «كنت هامه» أى هالكاً . يقال : فلان هامة اليوم أو غد ، أى قريب هلاكه ، فإذا هو «هامة» ، وذلك زعم أبطله الله بالإسلام كان فى الجاهلية : أن عظم الميت أو روحه تصير هامة (وهو طير كالبومة) فتطير . ورواية غيره : «من بعد برد» .

(٤) ديوانه : ٣٥٢ (من ملحق ديوان الأعشى — والمسيب خال الأعشى ، والأعشى راويته) ، ورواية الديوان «ويقول صاحبه» ، وهى الصواب . والبيت من أبيات آية فى الجودة ، يصف الغواص الفقير ، قد ظفر بدرة لا شبيه لها ، فضن بها على البيع ، وقد أعطى فيها ما يغنى من الثمن ، فأبى ، وصاحبه يحضضه على بيعها ، وبعده :

وَتَرَى الصَّرَارِي يَسْجُدُونَ لَهَا وَيَضُمُّها بيَدَيْهِ لِلنَّحْرِ

والصرارى : الملاحون ، من أصحاب الغواصين .

يعنى به: بعت بُرْداً . وربما استعمل « اشتريت » بمعنى : بعت، و « شريت» فى معنى : ابتعت . والكلام المستفيض فيهم هو ما وصفتُ .

* * *

وأما معنى قوله: « بغياً »، فإنه يعنى به : تعدِّياً وَحسداً ، كما : —

١٥٣٦ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد ، قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة « بغياً »، قال : أى حسداً ، وهم اليهود .

١٥٣٧ — حدثنى موسى قال، حدثنا عمرو ، قال ، حدثنا أسباط ، عن عن السدى : « بَغياً »، قال: بَغَوْا على محمد صلى الله عليه وسلم وَحسدوه، وقالوا: إنما كانت الرسل من بنى إسرائيل ، فما بال هذا من بنى إسمعيل ؟ فحسدوه أن يُنزِّل اللهُ من فَضْله على من يشاءُ من عباده .

١٥٣٨ — حدثنى المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : « بغياً » ، يعنى : حسداً أن ينزّل الله من فضله على من يَشاء من عباده ، وهم اليهودُ ، كفروا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .

١٥٣٩ — حدثت عن عمار بن الحسن قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه، عن الربيع مثله .

* * *

قال أبو جعفر : فمعنى الآية : بئسَ الشىء باعوا به أنفسهم ، الكفرُ بالذى أنزل الله فى كتابه على موسى — من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والأمر بتصديقه واتباعه — من أجل أن أنزل الله من فَضْله = وفضله : حكمته وآياته ونبوته = على من يشاء من عباده — يعنى به: على محمد صلى الله عليه وسلم — بغياً وحسداً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، من أجل أنه كان من ولد إسمعيل، ولم يكن من بنى إسرائيل.

* * *

فإن قال قائل : وكيف باعت اليهود أنفسها بالكفر ، فقيل : « بئسَ ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله »؟ وهل يُشترَى بالكفر شىء ؟

قيل : إن معنى : « الشراء » و« البيع » عند العرب ، هو إزالة مالك مِلكَه

إلى غيره ، بعوض يعتاضه منه . ثم تستعمل العربُ ذلك فى كل معتاضٍ من عمله عِوَضاً، شرًّا أوخيراً . فتقول: « نعم ما باع به فلانٌ نفسه » و « بئسَ ما باع به فلان نفسه »، بمعنى : نعم الكسب أكسبها ، وبئس الكسب أكسبها — إذا أورثها بسَعْيه عليها خيراً أو شرًّا . فكذلك معنى قوله جل ثناؤه : « بئس ما اشتروا به أنفسهم » — لما أوْبَقوا أنفسهم بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فأهلكوها ، خاطبهم الله والعربَ بالذى يعرفونه فى كلامهم ، فقال : « بئس ما اشتروْا به أنفسهم »، يعنى بذلك: بئس ما أكسبوا أنفسهم بسعيهم، وبئس العوض اعتاضوا، من كفرهم بالله فى تكذيبهم محمداً ، إذ كانوا قد رَضُوا عوضاً من ثواب الله وما أعدَّ لهم — لو كانوا آمنوا بالله وما أنزل على أنبيائه — بالنار وما أعد لهم بكفرهم بذلك .

* * *

وهذه الآية — وما أخبر الله فيها عن حسد اليهود محمداً صلى الله عليه وسلم وقومَه من العرب ، من أجل أنّ الله جعل النبوّة والحكمة فيهم دون اليهود من بنى إسرائيل ، حتى دعاهم ذلك إلى الكفر به ، مع علمهم بصدقه ، وأنه لله نبىٌّ مبعوثٌ ورسولٌ مُرسَل —[1] نظيرةُ الآية الأخرى فى سورة النساء ، وذلك قوله :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هٰؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً • أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً • أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً • أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ [سورة النساء: ٥١–٥٤] ٣٣٠/١

* * *

(١) قوله « — نظيرة الآية . . . » خبر قوله فى صدر هذه الفقرة : « وهذه الآية — »

القول فى تأويل قوله ﴿أَنْ يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾

قال أبو جعفر : قد ذكرنا تأويل ذلك وبينّا معناه ، ولكنا نذكر الرِّواية بتصحيح ما قلنا فيه : —

١٥٤٠ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثنى ابن إسحق ، عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصارى ، عن أشياخ منهم ، قوله : « بغياً أن يُنزِّل الله من فضْله على مَن يَشاء من عباده » ، أى أن الله تعالى جَعله فى غيرهم.[١]

١٥٤١ — حدثنا بشر قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال : هُم اليهود . ولما بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فرأوا أنه بُعِث من غيرهم ، كفروا به — حسداً للعرب — وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة .

١٥٤٢ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية مثله .

١٥٤٣ — حدثت عن عمار قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع مثله .

١٥٤٤ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى قال : قالوا : إنما كانت الرسُل من بنى إسرائيل ، فما بال هذا من بنى إسمعيل ؟

١٥٤٥ — حدثنى محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن علىّ الأزدى . قال : نزلتْ فى اليهود .[٢]

* * *

---

(١) الأثر : ١٥٤٠ — سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٠ .

(٢) الأثر : ١٥٤٥ — انظر التعليق على رقم : ١٥٢٣ ، ١٥٢٤ .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾

قال أبوجعفر: يعنى بقوله: « فباؤوا بغضَب عَلى غضَب » ،[1] فرَجعت اليهودُ من بنى إسرائيل — بعد الذى كانوا عليه منَ الاستنصار بمحمد صلى الله عليه وسلم والاستفتاح به ، وبعد الذى كانوا يُخبرون به الناسَ من قَبل مبعثه أنّه نبىٌّ مبعوث— مرتدِّين على أعقابهم حين بعثه الله نبيًّا مُرسَلاً ، فباؤوا بغضب من الله = استحقُّوه منه بكفرهم بمحمد حين بُعث ، وجُحودهم نبوته ، وإنكارهم إياه أن يكون هو الذى يجدون صفته فى كتابهم ، عناداً منهم له وبغياً،وحسداً له وللعرب = على غضب سالف ، كان من الله عليهم قبل ذلك، سابقٍ غضبَه الثانى ، لكفرهم الذى كان قبلَ عيسى بن مريم ، أو لعبادتهم العِجل ، أو لغير ذلك من ذنوب كانت لهم سَلفت ، يستحقون بها الغضب من الله ، كما : —

١٥٤٦ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة بن الفضل : قال ، حدثنى ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، فيما روى عن سعيد بن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس : « فباؤوا بغضَب على غَضَب» ، فالغضَب على الغضب ، غضبُه عليهم فيما كانوا ضيَّعوا من التوراة وهى معهم ، وغضبٌ بكفرهم بهذا النبى الذى أحدثَ الله إليهم .[2]

١٥٤٧ — حدثنا ابن بشار قال، حدثنا يحيى بن سعيد وعبد الرحمن قالا ، حدثنا سفيان ، عن أبى بكير ، عن عكرمة : « فباؤوا بغضَب على غَضَب» قال : كُفرٌ بعيسى ، وكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم .[3]

١٥٤٨ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا يحيى بن يمان قال ، حدثنا سفيان

---

(١) انظر تفسير . « باء » فيما سلف من هذا الجزء ٢ : ١٣٨

(٢) الأثر : ١٥٤٦ — سيره ابن هشام ٢ : ١٩٠ .

(٣) الأثر : ١٥٤٧ — فى الدر المنثور : « كفرهم » فى الموضعين ، وهما سواء .

عن أبي بكير ، عن عكرمة : « فباؤوا بغضَب على غَضَب » ، قال : كفرهم بعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم .

١٥٤٩ — حدثنا الحسن بن يحيي قال، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا الثورى ، عن أبي بكير ، عن عكرمة مثله .

١٥٥٠ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن الشّعبى قال : الناس يوم القيامة على أرْبعة مَنازل : رجل كان مؤمناً بعيسى وآمن بمحمد صلى الله عليهما ، فله أجْران . ورجل كان كافراً بعيسى فآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فله أجْر . ورجل كان كافراً بعيسى ، فكفر بمحمد ، فباءَ بغضب على غَضَب . ورجل كان كافراً بعيسى من مُشركى العرب ، فمات بكفره قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، فباءَ بغضب .

٢٢١/١

١٥٥١ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « فباؤوا بغضب على غضب » ، غَضِب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وبعيسى ، وغَضِب عليهم بكفرهم بالقرآن وبمحمد صلى الله عليه وسلم .

١٥٥٢ — حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : « فباؤوا بغضَب » ، اليهودُ ، بما كان من تبديلهم التوراة قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم ، « عَلى غَضَبٍ » ، جحودُهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكفرُهم بما جاء به .

١٥٥٣ — حدثنا المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية : « فباؤوا بغضَب على غَضب » ، يقول : غضَب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى ، ثم غضَبه عليهم بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن .

١٥٥٤ — حدثني موسى قال، حدثنا عمرو قال، حدثنا أسباط ، عن السدى : « فباؤوا بغضَب على غَضَب » ، أما الغضب الأول فهو حين غضب الله عليهم في العِجل ؛ وأما الغضَب الثاني فغضِبَ عليهم حين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

١٥٥٥ـ حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج، عن ابن جريج وعطاء وعبيد بن عمير قوله : « فباؤوا بغضب على غضَب »، قال : غَضِب الله عليهم فيما كانوا فيه من قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم ـ من تبديلهم وكفرهم ـ، ثم غضِب عليهم في محمد صلى الله عليه وسلم ـ إذ خرَج ، فكفروا به .

* * *

قال أبو جعفر : وقد بينا معنى « الغضب » من الله على من غضب عليه من خلقه ـ واختلاف المختلفين في صفته ـ فيما مضى من كتابنا هذا، بما أغنى عن إعادته.[1]

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (٩٠)

قال أبو جعفر : يعني بقوله جل ثناؤه : « وللكافرين عذابٌ مُهين »، وللجاحدين نبوّةَ محمد صلى الله عليه وسلم من الناس كلهم، عذابٌ من الله ، إمّا في الآخرة ، وإمّا في الدنيا والآخرة، « مهين» هو المذِلّ صاحبه، المُخزي، المُلبسُه هَواناً وذِلة .

* * *

فإن قال قائل : وأي عذاب هُو غيرُ مُهين صاحبَه ، فيكون للكافرين المهين منه ؟

قيل: إن المهين هو الذي قد بينّا أنّه المورِث صاحبه ذلة وهواناً ، الذي يخلُد فيه صاحبه ، لا ينتقل من هوانه إلى عز وكرامة أبداً . وهو الذي خَصّ الله به أهلَ الكفر به وبرسله . وأما الذي هو غير مهين صاحبَه ، فهو ما كان تمحيصاً لصاحبه . وذلك هو كالسارق من أهل الإسلام ، يسرق ما يجب عليه به القطعُ فتقطعُ يده ، والزاني منهم يزني فيقام عليه الحدّ، وما أشبه ذلك من العذاب والنَّكال الذي جعله الله كفارات للذنوب التي عُذّب بها أهلها ، وكأهل الكبار من أهل

(١) انظر ما سلف ١ : ١٨٨ ـ ١٨٩ ، وما مضى في هذا الجزء ٢ : ١٣٨ هذا وقد كان في المطبوعة بعد قوله : « عن إعادته » ما نصه : « والله تعالى أعلم » ، وليس لها مكان هنا ، وهي بلا شك زيادة بعض النساخ ، فلذلك تركتها .

الإسلام الذين يعذَّبون فى الآخرة بمقادير أجرامهم التى ارتكبوها ، ليمحَّصوا من ذنوبهم ، ثم يدخلون الجنة. فإنَّ كل ذلك ، وإن كان عذاباً ، فغيرُ مهين من عُذِّب به . إذ كان تعذيب الله إياه به ليمحِّصه من آثامه ، ثم يورده مَعدِن العزّ والكرامة ، ويخلِّده فى نعيم الجنان .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « وإذا قيلَ لهم » ، وإذا قيل لليهود من بنى إسرائيل — الذين كانوا بين ظَهْرانى مُهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم — : « آمنوا » ، أى صدقوا ، « بما أنزَل الله » ، يعنى بما أنزل الله من القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ، « قالوا : نؤمن » ، أى نصدِّق « بما أنزِل علينا » ، يعنى : بالتوراة التى أنزلها الله على موسى .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « ويَكفرون بما وَرَاءه » ، ويجحدون ، « بما وراءه » ، يعنى : بما وراء التوراة .

* * *

١/٣٣٢ قال أبو جعفر : وتأويل « وَرَاءه » فى هذا الموضع : « سوى » . كما يقال للرجل للرجل المتكلم بالحسن : « ما وراء هذا الكلام شىء » يراد به : ليس عند المتكلم به شىء سِوَى ذلك الكلام . فكذلك معنى قوله : « ويكفرون بما وَراءه » ، أى

بما سوى التوراة، وبما بعده من كُتُب الله التي أنزلها إلى رسله ،[1] كما : —

١٥٥٦ — حدثنا بشر قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « ويكفرون بما وَراءه » ، يقول : بما بعده .

١٥٥٧ — حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية : « ويكفرون بما وَراءه » ، أي بما بعدَه — يعني : بما بعد التوراة .

١٥٥٨ — حدثني المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « ويكفرون بما وَراءه » ، يقول : بما بعده .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾

قال أبو جعفر : يعني بقوله جل ثناؤه : « وهُوَ الحق مُصَدقاً » ، أي : ما وراء الكتاب — الذي أنزل عليهم من الكتب التي أنزلها الله إلى أنبيائه — الحقُّ . وإنما يعني بذلك تعالى ذكرُه القرآنَ الذي أنزله إلى محمد صلى الله عليه سلم ، كما : —

١٥٥٩ — حدثني موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدي : « وَإذا قيل لهمْ آمنوا بما أنزَلَ الله قالوا نؤمنُ بما أنزِلَ علينا ويكفرون بما وَراءه » ، وهو القرآن . يقول الله جل ثناؤه: « وَهُو الحقُّ مصدِّقاً لما معهم » .
وإنما قال جل ثناؤه « مصدِّقاً لما معهم » ، لأن كتب الله يصدّق بعضها بعضاً . ففي الإنجيل والقرآنِ من الأمر باتّباع محمد صلى الله عليه وسلم، والإيمان به وبما جاء به ، مثلُ الذي من ذلك في توراة موسى عليه السلام . فلذلك قال جل ثناؤه لليهود — إذ أخبرهم عمّا وَراء كتابهم الذي أنزله على موسى صلوات الله عليه ، من الكتب

(١) انظر معاني القرآن للفراء ١ : ٦٠ .

التي أنزلها إلى أنبيائه — : إنه الحقّ مصدّقاً للكتاب الذي معهم ، يعني : أنه له موافق فيما اليهود به مُكذّبون .

قال : وذلك خبرٌ من الله أنهم من التكذيب بالتوراة ، على مثل الذي هم عليه من التكذيب بالإنجيل والفُرقان ، عناداً لله ، وخلافاً لأمره ، وبَغياً على رُسله صلوات الله عليهم .

• • •

القول في تأويل قوله ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩١)

قال أبو جعفر : يعني جل ذكره بقوله : « قُلْ فلمَ تقتلون أنبياءَ الله » ، قل يا محمد ، ليهود بني إسرائيل — الذين إذا قلت : لهم آمنوا بما أنزَل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا — : لم تقتلون = إن كنتم يامعشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم = أنبياءَه ، وقد حرم الله في الكتاب الذي أنزَل عليكم قتلَهم ، بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم ؟ وذلك من الله جل ثناؤه تكذيبٌ لهم في قوله : « نُؤمنُ بما أنزِل علينا » ، وتعييرٌ لهم ، كما : —

١٥٦٠ — حدثني موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى قال : قال الله تعالى ذكره — وهو يعيرهم — يعني اليهود : « فلِمَ تقتلون أنبياءَ الله من قبلُ إن كنتم مُؤمنين » ؟

• • •

فإن قال قائل : وكيف قيل لهم : « فلم تقتلون أنبياءَ الله من قبلُ » ، فابتدأ الخبر على لفظ المستقبل ، ثم أخبر أنه قد مضى ؟

قيل : إن أهل العربية مختلفون في تأويل ذلك. فقال بعض البصريين : معنى

ذلك : فلم قتلتُم أنبياء الله من قبل ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] ، أي : ما تلت ،[١] وكما قال الشاعر :[٢]

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي   فَمَضَيْتُ عَنْهُ ، وَقُلْتُ: لاَ يَعْنِينِي[٣]

يريد بقوله : « ولقد أمرُّ » ولقد مررت . واستدلّ على أنّ ذلك كذلك ، بقوله : « فمضيت عنه » ، ولم يقل : فأمضي عنه . وزعم أن « فعل » و « يفعل » ٣٣٣/١ قد تشترك في معنى واحد ، واستشهد على ذلك بقول الشاعر :[٤]

وَإِنِّي لآتِيكُمْ تَشَكُّرَ مَا مَضَى   مِنَ الأَمْرِ ، وَاسْتِيجَابَ مَا كَانَ فِي غَدِ[٥]

يعني بذلك : ما يكون في غد ، وبقول الحطيئة :

شَهِدَ الحُطَيْئَةُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ   أَنَّ الوَلِيدَ أَحَقُّ بِالعُذْرِ[٦]

---

(١) انظر معاني القرآن للفراء ١ : ٦٠ — ٦١ .

(٢) هو رجل من بني سلول .

(٣) سيبويه ١ : ٤١٦ ، الخزانة ١ : ١٧٣ ، وشرح شواهد المغني : ١٠٧ وغيرها كثير . وروايتهم جميعاً « ثمت قلت » . وبعده بيت آخر :

غَضْبَانَ مُمْتَلِئاً عَلَيَّ إِهَابُهُ   إِنِّي وربِّك سُخْطُهُ يُرْضِينِي

(٤) هو الطرماح بن حكيم الطائي .

(٥) ديوانه : ١٤٦ ، وسيأتي في ٤ : ٩٧ (بولاق) ، وحماسة البحتري : ١٠٩ ، واللسان (كون) . وقد كان في هذا الموضع « بشكري » ، وهو خطأ ، سيأتي من رواية الطبري على الصواب . وروى اللسان : « واستنجاز ما كان » . وصواب الرواية : « فإني لآتيكم » فإن قبله :

مَنْ كَانَ لاَ يَأْتِيكَ إِلاَّ لِحَاجَةٍ   يَرُوحُ بِهَا فِيمَا يَرُوحُ وَيَغْتَدِي

فَإِنِّي لآتيكم . . . .

(٦) ديوانه : ٨٥ ، ونسب قريش : ١٣٨ ، والاستيعاب : ٦٠٤ ، وأنساب الأشراف ٥ : ٣٢ ، وسمط اللآلىء : ٦٧٤ . قالها الحطيئة في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وكان من رجالات قريش همة وسخاء . استعمله أبو بكر وعمر وعثمان ، فلما كان زمان عثمان ، رفعوا عليه أنه شرب الخمر ، فعزله عثمان وجلده الحد ، وكان لهذا شأن كبير ، فقال الحطيئة يعذره ويمدحه ، ويذكر عزله :

يعني : يَشهد ، وكما قال الآخر :

فَمَا أُضْحِي وَلاَ أُمْسَيْتُ إلاَّ أَرَانِي مِنْــكُمُ فِي كَوَّفَانِ[١]

فقال : « أضحى » ، ثم قال : « ولا أمسيتُ »

* * *

وقال بعض نحويي الكوفيين : إنما قيل « فلِمَ تَقتلون أنبياء الله من قَبلُ » ، فخاطبهم بالمستقبل من الفعل ومعناه الماضى ، كما يعنِّف الرجلُ الرجلَ على ما سَلف منه من فعل فيقول له : ويحك ، لِمَ تكذب؟ ولم تُبغِّض نفسك إلى الناس ؟ كما قال الشاعر :

شهد الحطيئةُ حينَ يَلقَى ربَّه أنَّ الوَليدَ أحقُّ بالعُذْرِ
خَلَعُوا عِنَانَك إذ جَرَيْتُ ، وَلَوْ تَرَكُوا عِنانك لم تَزَلْ تَجْرِي
ورأَوا شَمَائِلَ مَاجِدٍ أَنِفٍ يُعْطى على المَيسُورِ والعُسْرِ
فنَزَعْتَ ، مكذوباً عليك ، وَلَمْ تُرْدَدْ إلى عَــوَزٍ ولا فَقْرِ

قال مصعب بن عبد الله الزبيرى فى نسب قريش : « فزادوا فيها من غير قول الحطيئة :

نادَى وقد تمَّتْ صَلاَتُهمُ أأزيدكُمْ ؟ ثَمِلاً ولا يَدْرِي
ليزيدهُمْ خمْساً ، ولو فعلُوا مرّتْ صلاتُهُمُ على العَشْرِ »

وقد أكثر الناس فيما كان من خبر الوليد ، وما كان من شعر الحطيئة فيه . وهذا نص من أعلم قريش بأمر قريش ، على أن البيتين قد نحلهما الحطيئة ، متكذب على الوليد ، لما كان له من الشأن فى أمر عثمان رضى الله عنه . ولقد جلد الوليد بن عقبة مكذوباً عليه كما قال الحطيئة ، فاعتزل الناس. وروى أبو العباس المبرد فى التعازى والمراثى (ورقة : ١٩٦) قال : : « قال الوليد بن عقبة عند الموت ، وهو بالبليخ من أرض الجزيرة : « اللهم إن كان أهل الكوفة صدقوا على ، فلا تلق روحى منك روحاً ولا ريحاناً ، وإن كانوا كذبوا على فلا ترضهم بأمير ولا ترض أميراً عنهم . انتقم لى منهم ، واجعله كفارة لما لا يعلمون من ذنوبى » . فليت أهل الشر كفوا ألسنتهم عن رجل من عقلاء الرجال وأشرافهم .

(١) لم أعرف قائله ، وهو فى اللسان (كوف) والصاحبى : ١٨٧ . والكوفان (بتشديد الواو) : الاختلاط والشدة والعناء . يقال : أنا منه فى كوفان ، أى فى عنت وشقاء ودوران واختلاط .

إذا مَا انتَسَبْنَا ، لَمْ تَلِدْنى لَئيمَةٌ وَلَمْ تَجِدِى مِنْ أَنْ تُقِرِّى بِهِ بُدًّا[١]

فالجزاءَ للمستقبل ، والولادة كلها قد مضت . وذلك أن المعنى معروف ، فجاز ذلك. قال: ومثله فى الكلام: «إذا نظرتَ فى سيرة عُمر ،لم تجدْهُ يسىء » .[٢] المعنى : لم تجده أساء . فلما كان أمر عمر لا يشك فى مُضيّه، لم يقع فى الوهم أنه مستقبل. فلذلك صلحت « من قبلُ » مع قوله: « فلم تَقتلون أنبياء الله من قَبلُ » . قال : وليس الذين خوطبوا بالقتل هم القتَلة، إنما قتل الأنبياءَ أسلافُهم الذين مَضَوْا ،فتولَّوهم على ذلك ورضوا به ، فنسب القتل إليهم .[٣]

* * *

قال أبو جعفر : والصواب فيه من القول عندنا، أن الله خاطب الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود بنى إسرائيل — بما خاطبهم فى سورة البقرة وغيرها من سائر السور — بما سلف من إحسانه إلى أسلافهم ، وبما سلف من كفران أسلافهم نعمَه، وارتكابهم مَعاصيه ، واجترائهم عليه وعلى أنبيائه ، وأضاف ذلك إلى المخاطَبين به ، نظيرَ قول العرب بعضُها لبعض : فعلنا بكم يوم كذا كذا وكذا ، وفعلتم بنا يوم كذا كذا وكذا — على نحو ما قد بيناه فى غير موضع من كتابنا هذا — ،[٤] يعنون بذلك : أن أسلافنا فَعلوا ذلك بأسلافكم ، وأن أوائلنا فعلوا ذلك بأوائلكم . فكذلك ذلك فى قوله : « فلم تقتُلون أنبياءَ الله من قَبلُ » ، إذ كان قد خرج على لفظ الخبَر عن المخاطَبين به ،خبراً من الله تعالى ذكره عن فعل

(١) سلف تخريجه فى هذا الجزء ٢ : ١٦٥

(٢) فى معانى القرآن للفراء : « لم يسىء » ، بحذف « تجده » .

(٣) فى المطبوعة : « فتلوهم على ذلك ورضوا . فنسب . . . »، والصواب ما أثبته من معانى القرآن للفراء ١ : ٦٠ — ٦١ ، وهذا الذى نقله الطبرى هو نص كلامه .

(٤) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٣٠٢ تعليق : ١ والمراجع

السالفين منهم —[١] على نحو الذى بينّا — جاز أن يقال « من قبل » ، إذ كان معناه : قل : فلم يقتلُ أسلافُكم أنبياءَ الله من قبل ؟ وكان معلوماً بأن قوله : « فلم تَقتلون أنبياء الله من قبل » ، إنما هو خبر عن فعل سَلفهم .

* * *

وتأويل قوله « من قبل » ، أى : من قبل اليوم .

* * *

وأما قوله : « إن كنتمْ مُؤمنين » ، فإنه يعنى : إن كنتم مؤمنين بما نزّل الله عليكم كما زعمتم . وإنما عنى بذلك اليهودَ الذين أدركوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأسلافَهم — إن كانوا وكنتم ، كما تزعمون أيها اليهود ، مؤمنين . وإنّما عيرهم جل ثناؤه بقتل أوائلهم أنبياءَه ، عند قولهم حين قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله . قالوا : نؤمن بما أُنزِل علينا . لأنهم كانوا لأوائلهم — الذين تولّوا قتل أنبياء الله ، مع قيلهم : نؤمنُ بما أنزِل علينا — متولّين ، وبفعلهم راضين . فقال لهم : إن كنتم كما تزعمون مُؤمنين بما أنزِل عليكم ، فلمَ تتولّون قتلة أنبياءِ الله؟ أى : تَرضَوْن أفعالهم.[٢]

* * *

١/٣٣٤

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ (٩٢)

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « ولقد جاءكمْ مُوسَى بالبينات » ، أى جاءكم بالبيّنات الدالة على صدقه وصحة نبوّته ،[٣] كالعصا التى تحوّلت ثعباناً مُبيناً ، ويده التى

---

(١) فى المطبوعة : « وإن كان قد خرج على لفظ الخبر . . . » ، والصواب : « إذ . . . » كما أثبته .

(٢) فى المطبوعة : « أى وترضون ... » بزيادة واو لا خير فيها .

(٣) فى المطبوعة : « وحقية نبوته » ، وليست مما يقوله أبو جعفر ، وقد مضى آنفاً مثل هذا التبديل من النساخ ، وكان فى المخطوطة العتيقة ، على مثل الذى أثبته ، وانظر ما سلف ٢ : ٣١٨

أخرجها بيضاءَ للناظرين . وفلْقِ البحر ومصير أرضه له طريقاً يَبَساً ، والجراد والقُمَّل والضفادع ، وسائر الآيات التي بيّنت صدقه وصحة نبوّته .[1]

وإنما سماها الله « بينات » ، لتبينها للناظرين إليها أنها معجزة لا يقدر على أن يأتي بها بَشَرٌ، إلا بتسخير الله ذلك له. وإنما هي جمع « بيّنة » ، مثل : « طيبة وَطيبات» .[2]

* * *

قال أبو جعفر : ومعنى الكلام : ولقد جاءكم - يا معشرَ يهود بني إسرائيل - موسى بالآيات البينات على أمره وصدقه وصحة نبوته .[1]

* * *

وقوله : « ثم اتخذتمُ العجلَ من بَعده وَأنتم ظالمون» ، يقول جل ثناؤه لهم : ثم اتخذتم العجل من بعد موسى إلهاً . ف « الهاء » التي في قوله : « من بعده» ، من ذكر موسى . وإنما قال : من بعد موسى ، لأنهم اتخذوا العجل من بَعد أن فارقهم موسى ماضياً إلى ربه لموعده - على ما قد بيّنا فيما مضى من كتابنا هذا .[3]

وقد يجوز أن تكون « الهاء » التي في « بعده » إلى ذكر المجيء . فيكون تأويل الكلام حينئذ : ولقد جاءكم موسى بالبينات ، ثم اتخذتم العجل من بعد مجيء البينات وأنتم ظالمون . كما تقول : « جئتني فكرهتُه » ، يعني : كرهت مجيئك .

* * *

وأما قوله : « وأنتم ظالمون » ، فإنه يعني بذلك : أنكم فعلتم ما فعلتم من عبادة العجل وليس ذلك لكم ، وعبدتم غير الذي كان ينبغي لكم أن تعبدوه . لأن العبادة لا تنبغي لغير الله . وهذا توبيخ من الله لليهود ، وتعيير منه لهم ، وإخبار منه لهم أنهم إذا كانوا فعلوا ما فعلوا - من اتخاذ العجل إلهاً وهو لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعاً ، بعد الذي علموا أنّ ربّهم هو الرّب الذي يفعل من الأعاجيب وبدائع الأفعال

---

(١) انظر ما سلف في هذا الجزء ٢ : ٣١٨ ، ٣٥٤

(٢) انظر ما سلف في هذا الجزء ٢ : ٣١٨ ، ٣١٩

(٣) انظر ما سلف في هذا الجزء ٢ : ٦٠ - ٦٩

ما أجراه على يدى موسى صلوات الله عليه ، من الأمور التى لا يقدر عليها أحد من خَلْق الله ، ولم يقدر عليها فرعونُ وجُنده مع بطشه وكثرة أتباعه ، وقرب عهدهم بما عاينوا من عجائب حِكَم الله — فهم إلى تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وجحودِ ما فى كتبهم = التى زعموا أنَّهم بها مؤمنون = من صفته ونعته ، مع بُعد ما بينهم وبين عهد موسى من المدة — أسْرَع [1] ، وإلى التكذيب بما جاءهم به موسى من ذلك أقرب .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « وإذ أخذْنا ميثاقكم » ، واذكروا إذ أخذْنا عُهودكم ، بأنْ خُذوا ما آتيناكم من التوراة — التى أنزلتها إليكم أنْ تعملوا بما فيها من أمرى ، وتنتَهوا عما نَهيتكم فيها — بجدّ منكم فى ذلك ونشاط ، فأعطيتم على العمل بذلك ميثاقكم ، إذ رفعنا فوقكم الجبل . [2]

وأما قوله : « وَاسمعوا » ، فإن معناه : واسمعوا ما أمرتكم به وتقبَّلوه بالطاعة ، كقول الرجل للرجل يأمره بالأمر : « سمعتُ وأطعت » ، يعنى بذلك : سمعت قولك ، وأطعت أمرك ، كما قال الراجز :

السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَالتَّسْلِيمْ خَيْرٌ وَأَعْفَى لِبَنِى تَمِيمْ [3]

(١) سياق هذه الجملة المفصلة : . . . « وإخبار منه لهم أنهم إذا كانوا فعلوا ما فعلوا . . . فهم إلى تكذيب محمد . . . أسرع » ، وكل ما بين ذلك فصول متتابعة كدأبه .

(٢) سلف شرحه لألفاظ هذه الآية : « ميثاق » ، « الطور » ، « الإيتاء » ، « قوة » ، فاطلبه فى المواضع الآتية ٢ : ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٠ والمراجع

(٣) قائله رجل من ضبة ، من بنى ضرار يدعى جبير بن الضحاك ، ومن خبره أن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفى والى البصرة فى سنة ٥٥ ، خطب على منبرها فحصبه جبير هذا ، فأمر به عبد الله بن عمرو فقطعت يده . فقال الرجز . ورفعوا الأمر إلى معاوية فعزله (تاريخ الطبرى ٦ : ١٦٨) .

يعنى بقوله : « السمع » ، قبول ما يَسمع ، و « الطاعة » لما يؤمر . فكذلك معنى قوله : « واسمعوا » ، اقبلوا ما سمعتم واعملوا به .

* * *

قال أبو جعفر : فمعنى الآية : وإذ أخذنا ميثاقكم أنْ خُذوا ما آتيناكم بقوة ، واعملوا بما سمعتم ، وأطيعوا الله ، ورفعنا فوقكم الطور من أجل ذلك .

* * *

وأما قوله : « قالوا سَمعنا »، فإن الكلام خرج مخرَج الخبر عن الغائب بعد أن كان الابتداء بالخطاب، فإن ذلك كما وصفنا،[1] من أنّ ابتداء الكلام ، إذا كان حكايةً ، فالعرب تُخاطب فيه ثم تَعود فيه إلى الخبرَ عن الغائب ، وتخبر عن الغائب ثم تخاطب ، كما بينا ذلك فيما مضى قبل .[2] فكذلك ذلك فى هذه الآية ، لأن قوله : « وإذ أخذنا ميثاقكم »، بمعنى : قلنا لكم ، فأجبتمونا . ٣٣٥/١

* * *

وأما قوله : « قالوا سَمعنا »، فإنه خبر من الله — عن اليهود الذين أخذ ميثاقهم أن يعملوا بما فى التوراة ، وأن يطيعوا الله فيما يسمعون منها — أنهم قالوا حين قيل لهم ذلك : سمعنا قولك ، وعصينا أمرك .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك . فقال بعضهم : وأشربوا فى قلوبهم حبَّ العجل . ذكر من قال ذلك :

١٥٦١ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ،أخبرنا عبد الرزاق قال ،حدثنا معمر ، عن قتادة : « وأشربوا فى قلوبهم العجل » ،قال : أشربوا حُبَّه ، حتى خَلَص ذلك إلى قلوبهم .

---

(١) فى المطبوعة : « مما وصفنا » ، ليست شيئاً .

(٢) انظر ما سلف ١ : ١٥٣ — ١٥٤ ، وهذا الجزء ٢ : ٢٩٤،٢٩٣

١٥٦٢ — حدثنى المثنى قال، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية : « وأشرِبُوا فى قلوبهم العجلَ » ، قال : أشربوا حُبَّ العجل بكفرهم .

١٥٦٣ — حدثنى المثنى قال حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « وأشربُوا فى قلوبهم العجلَ » ، قال : أشربوا حُبَّ العجل فى قلوبهم .

* * *

وقال آخرون : معنى ذلك أنهم سُقوا الماءَ الذى ذُرِّىَ فيه سُحالة العجل .[1]

* ذكر من قال ذلك :

١٥٦٤ — حدثنى موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : لما رجع موسى إلى قومه ، أخذ العجل الذى وجدَهم عاكفين عليه فذبحه ، ثم حَرَقه بالمبرد ،[2] ثم ذَرَّاه فى اليم ، فلم يبق بَحر يومئذ يجرى إلاّ وقع فيه شىء منه . ثم قال لهم موسى : اشربُوا منه . فشَربوا ، فمن كان يحبه خَرَج على شاربه الذهب . فذلك حين يقول الله عز وجل : « وأشْرِبُوا فى قُلوبهم العجلَ بكفْرهم » .[3]

١٥٦٥ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قال : لما سُحِل فألقى فى اليم ، استقبلوا جِرْية الماء ، فشربوا حتى ملأوا بطونهم ، فأورث ذلك مَنْ فعَله منهم جُبناً .

* * *

قال أبو جعفر : وأولى التأويلين اللذين ذكرت بقول الله جل ثناؤه : « وأشربوا

---

(١) السحالة : ماسقط من الذهب والفضة ونحوهما إذا سحلا ، أى بردا بالمبرد .

(٢) حرقه : برده بالمبرد ، وانظر ما سلف من هذا الجزء ٢ : ٧٤

(٣) الأثر : ١٥٦٤ — سلف برقم : ٩٣٧ .

فى قلوبهم العجل » تأويلُ من قال: وأشربوا فى قلوبهم حُبَّ العجل . لأن الماءَ لا يقال منه : أُشْرِبَ فلانٌ فى قلبه ، وإنما يقال ذلك فى حب الشىء ، فيقال منه : «أُشْرِبَ قلبُ فلان حُبَّ كذا » ، بمعنى : سُقِى ذلك حتى غلب عليه وخالط قلبه ، كما قال زُهير :

فَصَحَوْتُ عَنْهَا بَعْدَ حُبٍّ دَاخِلٍ وَالحُبُّ يُشْرَبُهُ فُؤَادُكَ دَاءُ[1]

قال أبو جعفر : ولكنه ترك ذكر « الحب» اكتفاءً بفهم السامع لمعنى الكلام . إذ كان معلوماً أن العجلَ لا يُشْرِبُ القلبَ ، وأنّ الذى يُشرب القلبَ منه حُبُّه ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عن القَرْيَةِ الّتِى كَانَتْ حاضِرَةَ البَحْرِ ﴾ [سورة الأعراف : ١٦٣] ، ﴿ وَاسْأَلِ القَرْيَةَ الَّتى كُنَّا فِيها والعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ [سورة يوسف : ٨٢] ، وكما قال الشاعر :[2]

أَلاَ إِنَّنِى سُقِّيتُ أَسْوَدَ حَالِكاً أَلاَ بَجَلِى مِنَ الشَّرَابِ أَلاَ بَجَلْ ![3]

---

(١) ديوانه : ٣٣٩ ، وهو هناك « تشربه » بضم التاء وسكون الشين وكسر الراء ، ونصب « فؤادك » ، وشرحه فيه دليل على ذلك ، فإنه قال : « تدخله » وقال : « تشربه » تلزمه ولكن استدلال الطبرى ، كما ترى يدل على ضبطه مبنياً للمجهول ، ورفع « فؤادك » . وحب داخل ، وداء داخل : قد خالط الجوف فأدخل الفساد على العقل والبدن .

(٢) هو طرفة بن العبد .

(٣) ديوانه : ٣٤٣ (أشعار الستة الجاهليين) ، ونوادر أبى زيد : ٨٣ ، واللسان (سود) . واختلف فيما أراد بقوله : « أسود » . قيل : الماء ، وقيل : المنية والموت . قال أبو زيد فى نوادره : « يقال ما سقانى فلان من سويد قطرة ، (سويد : بالتصغير) هو الماء ، يدعى الأسود » . واستدل بالبيت . والصواب فى ذلك أن يقال كما قال الطبرى ، ويعنى به : سوء ما لقى من هم وشقاء حالك فى حب صاحبته الحنظلية ، التى ذكرها فى شعره هذا فقال لها قبل البيت :

فَقُلْ لِخَيَالِ الحَنْظَلِيّةِ يَنْقَلِبْ إِلَيْهَا ، فَإِنِّى وَاصِلٌ حَبْلَ مَنْ وَصَلْ
أَلاَ إِنَّمَا أَبْكِى لِيَوْمٍ لَقِيتُهُ بِجُرْثُمِ قاسٍ ، كُلُّ مابَعْدَهُ جَلَلْ
إِذَا جاءَ مَا لاَ بُدَّ مِنه فَمَرْحَباً بِهِ حِينَ يَأْتِى — لا كِذَابٌ ولا عِلَلْ
أَلا إِنَّنِى . . . .

يعنى بذلك: سَمًّا أسود، فاكتفى بذكر «أسود» عن ذكر «السَّم»، لمعرفة السامع معنى ما أراد بقوله : «سقيت أسود». ويروى:

* أَلاَ إِنَّنِي سُقِّيتُ أَسْوَدَ سَالِخًا[1] *

وقد تقول العرب : «إذا سرك أن تنظر إلى السَّخاء فانظر إلى هَرِم، أو إلى حاتم»،[2] فتجتزئ بذكر الاسم من ذكر فعله، إذا كان معروفاً بشجاعة أو سخاء أوما أشبه ذلك من الصفات، ومنه قول الشاعر :

يَقُولُونَ: جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بِغَزْوَةٍ! وَإِنَّ جِهَادًا طَيِّئٌ وَقِتَالُهَا[3]

* * *

٢٣٦/١ القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٣)

قال أبو جعفر : يعنى بذلك جل ثناؤه : قل، يا محمد ليهود بنى إسرائيل : بئس الشىء يأمركم به إيمانكم؛ إن كان يَأمركم بقتل أنبياء الله ورُسُله،

ويروى : «ألا بجل من الحياة»، وهى أجود . . . ورواية الديوان واللسان : (ألا إننى شربت)، والتى هنا أجود . وقوله : «بجل» ، أى حسبى ما سقيت منك ومن الحياة .

(١) السالخ من الحيات : الأسود الشديد السواد، وهو أقتل ما يكون إذا سلخ جلده فى إبانه من كل عام .

(٢) هرم بن سنان، صاحب زهير بن أبى سلمى، وحاتم : هو الطائى الذى لا يخفى له ذكر. وأكثر هذا فى معانى القرآن للفراء ١ : ٦١ - ٦٢ .

(٣) معانى القرآن للفراء ١ : ٦٢، ومجالس ثعلب : ٧٦، واللسان (غزا)، ونسبه لجميل، ولا أظنه إلا أخطأ، لذكر جميل فى البيت، ولمشابهته لقول جميل :

يَقُولُونَ: جَاهِدْ ياجميلُ بغَزْوةٍ! وأىَّ جِهادٍ غيرَهنَّ أُريدُ ؟

ولكن البيت من شعر آخر، لم أهتد إليه بعد البحث، ويريد الأول : وإن الجهاد جهاد طيء وقتالها، فحذف واجتزأ .

والتكذيب بكتبه، وجحود ما جاء من عنده . ومعنى « إيمانهم »: تصديقهم الذى زعموا أنهم به مصدقون من كتاب الله، إذ قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله . فقالوا : نؤمن بما أنزل علينا. وقوله: « إنْ كنتم مُؤمنين »، أى : إن كنتم مصدِّقين كما زعمتم بما أنزل الله عليكم ،[1] وإنما كذبهم الله بذلك — لأن التوراة تنهى عن ذلك كله ، وتأمر بخلافه . فأخبرهم أنّ تصديقهم بالتوراة ، إن كان يأمرهم بذلك ، فبئس الأمر تأمر به . وإنما ذلكَ نَفْيٌ من الله تعالى ذكره عن التوراة ، أنْ تكون تأمر بشيء مما يكرهه الله من أفعالهم ، وأن يكون التصديقُ بها يدلّ على شيء من مخالفة أمرِ الله ؛ وإعلامٌ منه جل ثناؤه أن الذى يأمرهم بذلك أهواؤهم ، والذى يحملهم عليه البغىُ والعدوان .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٩٤)

قال أبو جعفر : وهذه الآية مما احتج الله بها لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم على اليهود الذين كانوا بين ظَهْرَانى مُهاجَره ، وفَضَح بها أحبارهم وعلماءهم . وذلك أن الله جل ثناؤه أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعُوَهم إلى قضية عادلة بينه وبينهم ، فيما كان بينه وبينهم من الخلاف . كما أمره الله أن يدعوَ الفريقَ الآخر من النصارَى — إذ خالفوه فى عيسى صلوات الله عليه وجادَلوا فيه — إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهَلة .[2] وقال لفريق اليهود: إن كنتم محقِّين فتمنَّوا الموت ، فإن ذلك غير ضارِّكم، إن كنتم محقين فيما تدّعون من الإيمان وقرب المنزلة

---

(١) انظر ما سلف فى معنى « الإيمان » ١ : ٢٣٥ ، ٢ : ١٤٣ وغيرهما .

(٢) وذلك ما جاء فى سورة آل عمران : ٦١ ، وانظر خبره فى التفسير والسير .

من الله . بل إنْ أعطيتم أمنيَّتكم من الموت إذا تمنيتم ، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصَبها وكدَر عيشها ، والفوز بجوار الله فى جنانه ، إن كان الأمر كما تزعمون : من أنّ الدار الآخرة لكم خالصةٌ دُوننا . وإن لم تُعطوها علِم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقّون فى دَعوانا ، وانكشف أمرُنا وأمركم لهم . فامتنعت اليهود من إجابة النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك ، لعلمها أنها إن تمنَّت الموت هلكَتْ ، فذهبت دُنياها ، وصارت إلى خِزْى الأبد فى آخرتها . كما امتنع فريق النصارى — الذين جادَلوا النبي صلى الله عليه وسلم فى عيسى ، إذ دُعوا إلى المباهلة — من المباهلة .

فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرَأوا مقاعدهم من النار . ولو خرج الذين يُباهِلون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لرَجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً .

١٥٦٦ — حدثنا بذلك أبو كريب قال ، حدثنا زكريا بن عدىّ قال ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .[١]

---

(١) الحديث : ١٥٦٦ — إسناده صحيح . أبو كريب : هو محمد بن العلاء . زكريا بن عدى ابن زريق التيمى الكوفى : ثقة جليل ورع ، قال ابن سعد : « كان رجلا صالحاً صدوقاً » . وهو مترجم فى التهذيب ، وفى الكبير للبخارى ٢/١/٣٨٧ — ٣٨٨ ، والصغير : ٢٣٢ ، وابن سعد ٦ : ٢٨٤ ، وابن أبى حاتم ١/٢/٦٠٠ ، ووقع هنا فى المطبوعة « أبو زكريا » ! وزيادة « أبو » خطأ من ناسخ أو طابع ، عبيد الله بن عمرو : هو أبو وهب الجزرى الرق ، ثقة معروف أخرج له أصحاب الكتب الستة ، وترجمته فى التهذيب ، وابن سعد ٧/٢/١٨٢ ، والصغير للبخارى : ٢٠٣ ، وابن أبى حاتم ٢/٢/ ٣٢٨ — ٣٢٩ . عبد الكريم : هو ابن مالك الجزرى الحرانى ، وهو ثقة ثبت صاحب سنة ، من شيوخ ابن جريج ومالك والثورى وأضرابهم . ترجمته فى التهذيب ، والصغير للبخارى : ١٤٨ ، وابن أبى حاتم ٣/١/٥٨ — ٥٩ .

والحديث رواه أحمد فى المسند : ٢٢٢٦ ، عن أحمد بن عبد الملك الحرانى ، عن عبيد الله ، وهو ابن عمرو ، بهذا الإسناد ، ولكن لم يذكر لفظه ، أحاله على الرواية قبله : ٢٢٢٥ ، من طريق فرات بن سلمان الحضرمى ، عن عبد الكريم ، به ، بزيادة فى أوله . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٨ : ٢٢٨ ، من الرواية المطولة ، وقال : « فى الصحيح طرف من أوله » ، ثم قال : « رواه أحمد ، وأبو يعلى ، ورجال

١٥٦٧ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا عثام بن على ، عن الأعمش ، عن ابن عباس فى قوله : « فتمنوا الموتَ إنْ كنتم صَادقين » ، قال : لو تمنوا الموت لشرق أحدُهم بريقه [١] .

١٥٦٨ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن عبد الكريم الجزرى ، عن عكرمة فى قوله : « فتمنوا الموتَ إن كنتم صَادقين » ، قال ابن عباس : لو تمنى اليهود الموتَ لماتوا .[٢]

١٥٦٩ — حدثنى موسى قال ، أخبرنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى ، عن ابن عباس مثله .

١٥٧٠ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال ، حدثنى ابن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد — قال أبو جعفر : فيما أروى : أنبأنا — عن سعيد ، أو عكرمة ، عن ابن عباس قال : لو تمنوه يوم قال ذلك لهم ، ما بقى على ظهر الأرض يهودى إلاّ مات .[٣] ٣٣٧/١

* * *

قال أبو جعفر : فانكشف — لمنْ كان مشكلاً عليه أمرُ اليهود يومئذ — كذبُهم وبَهتهم وبغيهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظهرت حجة رسول الله وحجة أصحابه عليهم ، ولم تزل والحمد لله ظاهرةً عليهم وعلى غيرهم من سائر أهل الملل .

أبى يعلى رجال الصحيح » . أقول : ورجال أحمد فى الإسناد : ٢٢٢٦ — رجال الصحيح أيضاً . وذكر السيوطى ١ : ٨٩ بعضه ، ونسبه أيضاً إلى الشيخين ، والترمذى ، والنسائى ، وابن مردويه ، وأبى نعيم .

(١) الخبر : ١٥٦٧ — هو موقوف على ابن عباس ، فى معنى الحديث قبله . ولكن إسناده هذا منقطع . الأعمش : لم يدرك ابن عباس .

(٢) الخبر : ١٥٦٨ — هو بعض الحديث السابق : ١٥٦٦ ، وإسناده صحيح . وظاهره هنا أنه موقوف على ابن عباس ، ولكنه مرفوع بالروايات الأخر .

(٣) الأثر : ١٥٧٠ — فى ابن هشام ٢ : ١٩١ .

وإنما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: « تمنوا الموت إن كنتم صادقين »، لأنهم — فيما ذكر لنا — قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [سورة المائدة: ١٨]، وقالوا: ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إلاَّ من كَانَ هُوداً أو نَصَارَى ﴾ [سورة البقرة: ١١١]. فقال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهم: إن كنتم صادقين فيما تزعمون، فتمنَّوا الموت. فأبان الله كذبهم بامتناعهم من تمني ذلك، وأفلجَ حجةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* * *

وقد اختلف أهل التأويل فى السبب الذى من أجله أمرَ الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم أنْ يدعو اليهود أن يتمنوا الموت، وعلى أىّ وجه أمروا أن يتمنَّوه. فقال بعضهم: أمِروا أن يتمنوه على وجه الدعاء على الفريق الكاذب منهما * ذكر من قال ذلك:

١٥٧١ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال، حدثنى ابن إسحق قال، حدثنى محمد بن أبى محمد، عن سعيد، أو عكرمة، عن ابن عباس قال: قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: « قل إن كانت لكم الدارُ الآخرةُ عند الله خالصةً من دون الناس فتمنَّوا الموتَ إنْ كنتم صادقين »، أى: ادعوا بالموت على أىّ الفريقين أكذبُ.(١)

* * *

وقال آخرون بما: —

١٥٧٢ — حدثنى بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد بن زريع قال، حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: « قُل إنْ كانتْ لكم الدارُ الآخرةُ عندَ الله خالصَةً من دون الناس »، وذلك أنهم قالوا: ﴿ لَنْ يدخُلَ الجنةَ إلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى ﴾ [سورة البقرة: ١١١]، وقالوا ﴿ نحن أبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [سورة المائدة: ١٨] فقيل لهم: « فتمنَّوا الموتَ إن كنتم صادقين ».

١٥٧٣ — حدثنى المثنى قال، حدثنا آدم قال، حدثنا أبو جعفر، عن

(١) الأثر: ١٥٧١ — فى سيرة ابن هشام ٢: ١٩١، وفيها: « أكذب عند الله »، وانظر رقم: ١٥٧٨.

الربيع ، عن أبي العالية قال : قالت اليهود : « لن يَدخُلَ الجنة إلاّ من كان هُوداً أو نَصارَى » ، وقالوا : « نَحنُ أبناء الله وأحباؤه » فقال الله : « قل إن كانت لكمُ الدار الآخرةُ عندَ الله خالصةً من دُون الناس فتمنَّوا الموتَ إنْ كنتم صَادقين » ، فلم يفعلوا .

١٥٧٤ — حدثني المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثني ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله : « قل إن كانت لكم الدار الآخرةُ عند الله خالصةً » الآية ، وذلك بأنهم قالوا : « لن يَدْخُلَ الجنة إلا من كان هوداً أو نَصارَى » ، وقالوا : « نَحنُ أبناء الله وأحباؤه » .[1]

* * *

وأما تأويل قوله : « قُلْ إن كانتْ لكمُ الدارُ الآخرةُ عندَ الله خالصَةً » ، فإنه يقول : قُلْ يا محمد : إن كان نعيمُ الدار الآخرة ولذاتها لكم يا مَعشرَ اليهود عند الله . فاكتفى بذكر «الدار» ، من ذكر نعيمها ، لمعرفة المخاطبين بالآية معناها . وقد بينا معنى «الدار الآخرة» . فيما مضى ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع .[2]

* * *

وأما تأويل قوله : « خالصَة » ، فإنه يعني به : صَافيةً . كما يقال : « خلَص لى فلان » ، بمعنى صار لى وحدى وصفا لى . يقال منه : « خلص لى هذا الشيء فهو يَخلُصُ خُلوصاً وخالصَة » ، « والخالصة » مصدر مثل « العافية » . ويقال للرجل : « هذا خُلْصَانى » ، يعنى : خالصَى من دون أصحابى .

* * *

وقد روى عن ابن عباس أنه كان يتأول قوله : « خالصة » : خاصةً . وذلك تأويل قريب من معنى التأويل الذى قلناه فى ذلك .

١٥٧٥ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر ابن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « قل إن كانت لكم

---

(١) الأثر : ١٥٧٤ — فى المطبوعة « . . . حدثنا إسحق قال حدثنى أبو جعفر عن الربيع » وهذا إسناد فاسد ، وهو كثير الدوران فى التفسير ، وأقرب ذلك رقم : ١٥٦٣ .

(٢) انظر ما سلف ١ : ٢٤٥

١/٣٣٨ الدار الآخرة »، قال: « قل » يا محمد لهم — يعنى اليهود — : « إن كانت لكمُ الدار الآخرةُ » — يعنى : الجنة[1] — « عندَ الله خالصَةً » ، يقول : خاصة لكم .

* * *

وأما قوله : « من دُون الناس » ، فإن الذى يدل عليه ظاهرُ التنزيل أنهم قالوا : لنا الدارُ الآخرةُ عند الله خالصة من دون جميع الناس . ويبين أن ذلك كان قولَهم — من غير استثناءٍ منهم من ذلك أحداً من بنى آدم — إخبارُ الله عنهم أنهم قالوا : « لنْ يدخل الجنة إلا من كان هُوداً أو نَصارى » ، إلا أنه روى عن ابن عباس قول غير ذلك :

١٥٧٦ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر ابن عمارة، عن أبى روق ، عن الضحاك، عن ابن عباس : « من دُون الناس »، يقول: من دون محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين استهزأتم بهم، وزعمتم أن الحق فى أيديكم ، وأن الدار الآخرة لكم دونهم .

* * *

وأما قوله: « فتمنَّوا الموتَ » فإن تأويله: تَشهَّوه وأريدوه . وقد روى عن ابن عباس أنه قال فى تأويله: فسلوا الموت. ولا يعرف « التمنى » بمعنى « المسألة » فى كلام العرب. ولكن أحسب أنّ ابن عباس وجَّه معنى « الأمنيَّة » — إذ كانت محبةَ النفس وشهوتَها — إلى معنى الرغبة والمسألة ، إذْ كانت المسألة ، هى رغبة السائل إلى الله فيما سأله .

١٥٧٧ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر ابن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « فتمنَّوا الموت » ، فَسلوا الموتَ، « إن كنتم صادقين »

* * *

(١) فى المطبوعة : « يعنى الخير » ، وهو تصحيف وتحريف ، صوابه ما أثبت .

القول فى تأويل قوله ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٩٥)

قال أبو جعفر : وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن اليهود وكراهتهم الموت ، وامتناعهم عن الإجابة إلى ما دُعوا إليه من تمنّى الموت ، لعلمهم بأنهم إنْ فعلوا ذلك فالوعيد بهم نازلٌ ، والموت بهم حالٌ ؛ ولمعرفتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم أنه رسول من الله إليهم مرسلٌ ، وهم به مكذبون ، وأنه لم يخبرهم خبراً إلا كان حقًّا كما أخبرَ . فهم يحذَرُون أن يتمنوا الموت ، خوفاً أن يحلّ بهم عقاب الله بما كسبت أيديهم من الذنوب ، كالذى : —

١٥٧٨ — حدثنى محمد بن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثنى محمد بن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد — فيما يروى أبو جعفر — عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس : « قُل إن كانتْ لكمُ الدار الآخرة » الآية ، أى : ادعوا بالموت على أىّ الفريقين أكذب . فأبوْا ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم . يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « ولَن يتمنّوْه أبَداً بما قدَّمَتْ أيديهم » ، أى : بعلمهم بما عندهم من العلم بك ، والكفر بذلك .[1]

١٥٧٩ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر ابن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « ولن يتمنّوه أبداً » ، يقول : يا محمد ، ولن يتمنوه أبداً ، لأنهم يعلمون أنهم كاذبون . ولو كانوا صادقين لتمنّوه ورَغبوا فى التعجيل إلى كرامتى ، فليسَ يتمنّونه أبداً بما قدمت أيديهم .

١٥٨٠ — حدثنى القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن

(١) الأثر : ١٥٧٨ — مضى فى رقم : ١٥٧١ ، وهنا تمامه . وفى سيرة ابن هشام ١ : ١٩١ « أكذب عند الله » . وفى المطبوعة : « وقالوا ذلك على رسول الله . . . » ، وهو خطأ ، صوابه ما فى سيرة ابن هشام . وفى المطبوعة : « أى لعلمهم بما عندهم . . . » . والذى أثبته هو نص ابن هشام .

ابن جريج قوله : « فتمنَّوا الموتَ إن كنتم صَادقين»، وكانت اليهودُ أشدَّ فراراً من الموت، ولم يكونوا ليتمنَّوه أبداً .

* * *

وأما قوله: « بما قدَّمتْ أيديهم »، فإنه يعني به: بما أسلفته أيديهم . وإنما ذلكَ مَثَلٌ، على نحو ما تتمثل به العرب في كلامها . فتقول للرجل يُؤخذ بجريرة جرَّها أو جناية جَناها فيعاقبُ عليها : « نالَكَ هذا بما جَنتْ يدَاك ، وبما كسبت يداك ، وبما قدَّمت يدَاك »، فتضيف ذلك إلى « اليد» . ولعلَّ الجناية التي جَناها فاستحق عليها العقوبةَ ، كانت باللسان أو بالفرج أو بغير ذلك من أعضاء جسده سِوَى اليد .

قال أبو جعفر: وإنما قيل ذلك بإضافته إلى « اليد » ، لأن عُظْمَ جنايات الناس بأيديهم ، فجرى الكلام باستعمال إضافة الجنايات التي يَجنيها الناس إلى « أيديهم »، حتى أضيفَ كل ما عوقب عليه الإنسان مما جناه بسائر أعضاء جسده، إلى أنها عقوبة على ما جنته يده . ٣٣٩/١

فلذلك قال جل ثناؤه للعرب: « ولن يَتمنَّوه أبداً بما قَدمت أيديهم »، يعني به : ولن يتمنى اليهود الموتَ بما قدموا أمامهم في حياتهم من كفرهم بالله ، في مخالفتهم أمرَه وطاعته في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، ويعلمون أنّه نبي مبعوث . فأضاف جل ثناؤه ما انْطوَت عليه قُلوبهم ، وأضمرته أنفسهم ، ونطقت به ألسنتهم — من حسد محمد صلى الله عليه وسلم ، والبغي عليه ، وتكذيبه وجحود رسالته — إلى أيديهم، وأنه مما قدمته أيديهم ، لعلم العرب معنى ذلك في منطقها وكلامها . إذ كان جل ثناؤه إنما أنزل القرآن بلسانها وبلغتها . وروي عن ابن عباس في ذلك ما : —

١٥٨١ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر ابن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « بما قدَّمت أيديهم » ، يقول : بما أسلفت أيديهم .

١٥٨٢ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج ، عن ابن جريج : « بما قدّمت أيديهم » ، قال : إنهم عرفوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم نبيٌّ ، فكتموه .

* * *

وأما قوله : « والله عليمٌ بالظالمين » ، فإنّه يعني جل ثناؤه : والله ذُو علم بظَلَمة بني آدم — يهودها ونَصَاراها وسائر أهل الملل غيرها — وما يعملون .

وظلم اليهود : كفرهم بالله في خلافهم أمرَه وطاعَته في اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، بعد أن كانوا يستفتحون به وبمبعثه ، وجحودهم نبوّته وهم عالمون أنه نبي الله ورسوله إليهم .

وقد دللنا على معنى « الظلم » فيما مضى بما أغنى عن إعادته .[1]

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾

قال أبو جعفر : يعني بقوله جل ثناؤه « ولَتجدنهم أحرَصَ الناس عَلى حَياة» — اليهودَ — . يقول : يا محمد ، لتجدنَّ أشد الناس حرصاً على الحياة في الدنيا ، وأشدهم كراهةً للموت ، اليهود . كما : —

١٥٨٣ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال ، حدثني محمد بن إسحق ، عن محمد بن أبي محمد — فيما يروى أبو جعفر — عن سعيد بن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس : « ولتجدنّهم أحرَص الناس على حَياة » ، يعني اليهود .

١٥٨٤ — حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، حدثنا الربيع ، عن أبي العالية : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة » ، يعني اليهود .[2]

١٥٨٥ — حدثني المثنى قال، حدثنا إسحق ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن

---

(١) انظر ما سلف ١ : ٥٢٣ — ٥٢٤ .

(٢) الأثر : ١٥٨٤ — في المطبوعة : « حدثنا أبو جعفر عن أبي العالية » ، سقط منه « حدثنا الربيع » ؛ وهو إسناد دائر ، وأقر به في رقم : ١٥٧٣ .

أبيه ، عن الربيع مثله .[١]

١٥٨٦ — حدثني محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد مثله

* * *

وإنما كراهتهم الموتَ. لعلمهم بما لهم فى الآخرة من الخزى والهوان الطويل .

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « ومنَ الذينَ أشْركوا » . وأحرصَ من الذين أشركوا على الحياة ، كما يقال : « هو أشجع الناس ومِنْ عنترة » بمعنى : هو أشجع من الناس ومن عنترة. فكذلك قوله : « ومنَ الذين أشركوا » . لأن معنى الكلام : ولتجدن — يا محمد — اليهودَ من بنى إسرائيل، أحرصَ [من] الناس على حياة ومن الذين أشركوا .[٢] فلما أضيف « أحرص» إلى « الناس » وفيه تأويل « من » ، أظهرت بعد حرف العطف ، ردًّا — على التأويل الذى ذكرنا .

وإنما وصف الله جل ثناؤه اليهوَد بأنهم أحرصُ الناس على الحياة ، لعلمهم بما قد أعدَّ لهم فى الآخرة على كفرهم بما لا يقرُّ به أهل الشرك،[٣] فهم للموت أكرهُ من أهل الشرك الذين لا يؤمنون بالبعث ، لأنهم يؤمنون بالبعث ، ويعلمون ما لهم هنالك من العذاب. والمشركون لا يصدقون بالبعث ولا العقاب ،[٤] فاليهود أحرص ١/٣٤٠

---

(١) الأثر : ١٥٨٥ — فى المطبوعة : « حدثنى المثنى قال حدثنا ابن أبى جعفر » سقط منه « حدثنا إسحق » ، وهو إسناد دائر ، وأقرب به رقم : ١٥٧٤ .

(٢) الزيادة بين القوسين ، لابد منها ، يدل عليها سياقه .

(٣) فى المطبوعة : « بما لا يقربه » ، والصواب ما أثبته .

(٤) فى المطبوعة : « وإن المشركين لا يصدقون . . . » ، و « إن » لا مكان لها هنا .

منهم على الحياة وأكره للموت .

* * *

وقيل: إنّ الذين أشركوا — الذين أخبر الله تعالى ذكره أن اليهود أحرصُ منهم فى هذه الآية على الحياة — هم المجوس الذين لا يصدّقون بالبعث . ذكر من قالَ: هُم المجوس :

١٥٨٧ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية « ومن الذين أشرَكوا يود أحدُهم لو يُعمَّر ألفَ سنة » ، يعنى المجوس .

١٥٨٨ - حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « ومن الذين أشرَكوا يودّ أحدهم لو يعمَّر ألفَ سنة » ، قال : المجوس .

١٥٨٩ — حدثنى يونس قال ، أخبرنا ابن وهب ، قال قال ابن زيد : « ومن الذين أشركوا » ، قال : يهُود ، أحرصُ من هؤلاء على الحياة .

* * *

ذكر من قال: هم الذين ينكرون البعث :

١٥٩٠ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثنا ابن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد — فيما يروى أبو جعفر — عن سعيد بن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس : « ولتجدنَّهم أحرَصَ الناس على حَياة ومنَ الذين أشرَكوا » ، وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعدَ الموت ، فهو يحب طولَ الحياة ؛ وأنّ اليهوديَّ قد عرف مالَه فى الآخرة من الخِزى ، بما ضيع مما عنده من العلم .[1]

* * *

(١) الأثر : ١٥٩٠ — سيرة ابن هشام ٢ : ١٩١ .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾

قال أبو جعفر : هذا خبر من الله جل ثناؤه عن الذين أشركوا[1] — الذين أخبر أن اليهودَ أحرصُ منهم على الحياة . يقول جل ثناؤه : يودّ أحد هؤلاء الذين أشركوا — الآيِسُ ، بفناء دنياه وانقضاء أيام حياته ،[2] أن يكون له بعد ذلك نشور أو محيا أو فرح أو سرور — لَو يعمَّر ألف سنة ، حتى جَعل بعضهم تحيَّة بعض : « عَشرة آلاف عام » ، حرصاً منهم على الحياة ، كما : —

١٥٩١ — حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق قال ، سمعت أبى عليًّا ، أخبرنا أبو حمزة ، عن الأعمش ، عن مجاهد ، عن ابن عباس فى قوله : « يودُّ أحدُهم لو يعمر ألْفَ سَنة » ، قال : هو قول الأعاجم : « سال زه نوروز مهرجان حر » .[3]

---

(١) فى المطبوعة : « هذا خبر من الله جل ثناؤه بقوله عن الذين أشركوا » والصواب حذف « بقوله » ، والنسخة المطبوعة ومخطوطاتها مضطربة فى هذا الموضع من الكتاب اضطراباً شديداً.

(٢) فى المطبوعة : « يود أحد هؤلاء الذين أشركوا إلا ما ... بفناء دنياه وانقضاء أيام حياته » ، بياض فيها وفى الأصول . واستظهرت قراءتها كما أثبت ، فإنه هو المعنى الذى يدور عليه تفسير أبى جعفر : أن هذا المشرك قد يئس أن يكون له بعد فناء الدنيا وانقضاء الحياة نشور أو محيا أو فرح أو سرور ، فهو يود لو يعمر ألف سنة .

(٣) الأثر : ١٥٩١ — محمد بن على بن الحسن بن شقيق ، وأبوه : ثقتان ، ترجمنا لهما فى شرح المسند : ٧٤٣٧ . أبو حمزة : هو السكرى ، محمد بن ميمون ، ثقة إمام . وهذا الإسناد صحيح متصل . وانظر الإسناد الآتى .

فى تفسير ابن كثير ١ : ٢٣٨ ، ونص الكلام الفارسى فيه : « هزار سال نوروز مهرجان » . وقد سألت أحد أصحابنا ممن يعرف الفارسية فقال : إن هذا النص لا ينطبق على قواعد الفارسية ، وأنه يظن أن صوابها : « زه در مهرجان نو وروز هزار سال » ومعنى « زه » : عش ، و « در » ظرف بمعنى « فى » ، ومهرجان هو عيد لهم . ونيروز : عيد آخر فى أول السنة . و « هزار » ألف ، و « سال » : سنة. فكأن « حر » التى فى آخر الكلام فى نص الطبرى هى : در » مصحفة . وباقى النصوص الفارسية صحيح ، ومعناه : عش ألف سنة .

وفى المستدرك للحاكم ٢ : ٢٦٤ « هزار سال سرور مهرجان بخور » ، وقال مصححه : يعنى « تمتع ألف سنة كثل عيد مهرجان . وهو عيد لهم » ، وكأن هذا هو الصواب .

١٥٩٢ – وحدثت عن نعيم النحوى، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد ابن جبير : «يودّ أحدُهم لويعمَّر ألفَ سنة »، قال : هو قول أهل الشرك بعضُهم لبعض إذا عطس : « زه هزار سال » .

١٥٩٣ – حدثنا إبراهيم بن سعيد ويعقوب بن إبراهيم قالا : حدثنا إسمعيل ابن علية ، عن ابن أبي نجيح ، عن قتادة فى قوله « يودّ أحدُهم لو يعمَّر ألفَ سنة »، قال : حَبَّبت إليهم الخطيئةُ طولَ العمر .

١٥٩٤ – حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال، حدثنى على بن معبد ، عن ابن علية ، عن ابن أبي نجيح فى قوله : « يودّ أحدُهم »، فذكر مثله .

١٥٩٥ – حدثنى يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : « ولتجدنَّهم أحرصَ الناسَ على حياة » حتى بلغ « لو يُعمَّر ألفَ سنة »، يهودُ ، أحرص من هؤلاء على الحياة . وقد ودّ هؤلاء لو يعمّر أحدهم ألف سنة .

١٥٩٦ – وحدثت عن أبي معاوية ، عن الأعمش ، عن سعيد ، عن ابن عباس فى قوله : « يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة » ، قال : هو قول أحدهم إذا عطس : « زه هزار سال »، يقول: عشرة آلاف سنة .[1]

* * *

(١) الخبر : ١٥٩٦ – ذكره الطبرى هكذا مجهل الإسناد ، بقوله : « حدثت عن أبي معاوية » ، إلخ . والعلة فى ذلك – فيما أرى – أن الأعمش لم يسمعه من سعيد بن جبير ، وإن كان أدركه وروى عنه .

فقد روى الحاكم هذا الخبر ، فى المستدرك ٢ : ٢٦٣ – ٢٦٤ ، من طريق إسحق بن إبرهيم « حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس » – بنحوه . ثم قال الحاكم : « رواه قيس بن الربيع ، عن الأعمش ، عن جعفر بن إياس ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس » . ثم رواه بإسناده إلى محمد بن يوسف ، حدثنا قيس بن الربيع ، عن الأعمش ، عن جعفر بن إياس ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس . . . » . وهذا إسناد صحيح متصل ، دل على انقطاع الإسناد : « الأعمش عن سعيد بن جبير » .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعمَّر » ، وما التعمير — وهو طول البقاء — بمزحزحه من عذاب الله .

* * *

وقوله « هو » عِمادٌ ، لطلب « ما » الاسمَ أكثر من طلبها الفعل ،[1] كما قال الشاعر :

* فهل هو مَرفوع بما هَهنا رَأسُ *[2]

« وأنْ » التى فى « أن يعمَّر » ، رَفْعٌ ، بـ « مزحزحه » ، و « هو » الذى مع « ما » تكرير ، عمادٌ للفعل ، لاستقباح العرب النكرة قبل المعرفة . ٣٤١/١

* * *

وقد قال بعضهم : إن « هو » الذى مع « ما » كناية ذكر العُمْر . كأنه قال : يودّ أحدهم لو يعمَّر ألف سنة ، وما ذلك العُمْر بمزحزحه من العذاب . وجعل « أن يعمر » مترجماً عن « هو » ، يريد ما هو بمزحزحه التعمير .[3]

* * *

وقال بعضهم : قوله : « وما هُو بمُزحزحه من العذاب أن يُعمَّر » ، نظير قولك : ما زيد بمزحزحه أن يعمر .

* * *

قال أبو جعفر : وأقرب هذه الأقوال عندنا إلى الصواب ما قلنا ، وهو أنْ يكون « هو » عماداً ، نظيرَ قولك : « ما هو قائم عمرو »

* * *

---

(١) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٣١٢ فى معنى « الاسم » و « الفعل » ، و « العماد » ، تعليق رقم : ٢ ، وانظر معانى الفراء ١ : ٥٠ — ٥٢

(٢) هذا شطر بيت مضى من أبيات ثلاثة ، فى هذا الجزء ٢ : ٣١٣

(٣) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٣٤٠ معنى « الترجمة » .

وقد قال قوم من أهل التأويل إن « أنْ » التي في قوله : « إن يعمر » بمعنى : وإنْ عُمِّر . وذلك قولٌ لمعاني كلام العرب المعروف مخالفٌ . ذكر من قال ذلك :

١٥٩٧ — حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية : « وما هو بمزحزحه من العذاب أنْ يُعمَّر » ، يقول : وإن عُمِّر .

١٥٩٨ — حدثني المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع مثله .

١٥٩٩ — حدثني يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : « أن يُعمَّر » — ولو عُمِّر

* * *

وأما تأويل قوله : « بمزحزحه » ، فإنه بمُبعده ومُنحّيه ، كما قال الحطيئة :

وَقَالُوا : تَزَحْزَحْ مَا بِنَا فَضْلُ حَاجَةٍ إِلَيْكَ ، وَمَا مِنَّا لِوَهْيِكَ رَاقِعُ[1]

يعني بقوله : « تزحزح » ، تباعد ، يقال منه : « زحزحه يزحزحه زحزحة وزحزاحاً » ، « وهو عنك مُتزحزح » ، أي : متباعد .

* * *

فتأويل الآية — وما طولُ العمر بمبعده من عذاب الله ، ولا منحّيه منه ، لأنه لا بد للعمر من الفناء ، ومصيره إلى الله ، كما : —

(١) البيت ليس للحطيئة ، وإنما هو لقيس بن الحدادية ، من قصيدة له نفيسة طويلة رواها أبو الفرج في أغانيه ١٣ : ٦ . يقول قبل البيت ، يذكر مجيئه إلى صاحبته أم مالك :

وَما رَاعَنِي إلاَّ الْمُنَادِي : أَلاَ اظْعَنُوا وَإلاَّ الرَّوَاغِي غُدْوَةً والقَعَاقِعُ

فَجِئْتُ كَأَنِّي مُسْتَضِيفٌ وَسَائِلٌ لأُخْبِرَهَا كُلَّ الذي أنَا صَانِعُ

فَقَالَتْ: تَزَحْزَحْ! مابِنَا كُبْرُ حَاجَةٍ إليكَ ، وَلا منّا لِفَقْرِكَ راقِعُ

فَمَا زِلتُ تَحتَ السِّتْرِ حتّى كأَنّني مِنَ الحرِّ ذو طِمْرَين فِي البَحْرِ كارِعُ

١٦٠٠ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثني ابن إسحق قال ، حدثني محمد بن أبي محمد — فيما أروي —[1] عن سعيد بن جبير ، أو عن عكرمة ، عن ابن عباس : «وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعمَّر» ، أي : ما هو بمنحّيه من العذاب.

١٦٠١ — حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية : «وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمَّر» ، يقول : وإنْ عمِّر ، فما ذاك بمُغيثه من العذاب ولا منجيه .

١٦٠٢ — حدثني المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع مثله .

١٦٠٣ — حدثني محمد بن سعد قال ، حدثني أبي قال ، حدثني عمي قال ، حدثني أبي ، عن أبيه ، عن ابن عباس : «يودّ أحدُهم لو يعمَّر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب» ، فهم الذين عادَوْا جبريل عليه السلام .

١٦٠٤ — حدثني يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد : «يودّ أحدُهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمَّر» ، ويهود أحرصُ على الحياة من هؤلاء . وقد ودّ هؤلاء لو يعمَّر أحدهم ألف سنة ، وليس ذلك بمزحزحه من العذاب ، لو عُمِّر كما عمِّر إبليس لم ينفعه ذلك ، إذ كان كافراً ، ولم يزحزحه ذلك عن العذاب .

* * *

القول في تأويل قوله جل ثناؤه ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٩٦)

قال أبو جعفر : يعني جل ثناؤه بقوله : «والله بصير بما يعملون» ، والله ذو إبصار بما يعملون ، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم ، بل هو بجميعها مُحيط ، ولها حافظ ذاكر ، حتى يُذيقهم بها العقابَ جزاءَها .

* * *

(١) في المطبوعة : «فيما أرى» ، خطأ ، والصواب ما أثبتت . وانظر الإسناد رقم : ١٥٩٠ .

وأصل « بصير » « مبصر » — من قول القائل : « أبصرتَ فأنا مُبصر » ، ولكن صُرف إلى « فعيل » ، كما صرف « مُسمع » إلى « سميع » ، و « عذاب مؤلم » إلى « أليم » ، و « مُبدع السموات » إلى « بديع » ، وما أشبه ذلك[1] .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

قال أبو جعفر : أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بنى إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريلَ عدوٌّ لهم ، وأنّ ميكائيل ولىّ لهم . ثم اختلفوا فى السبب الذى من أجله قالوا ذلك . فقال بعضهم : إنما كان سببُ قيلهم ذلك ، من أجل مناظرة جَرَت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر نبوّته . ذكر من قال ذلك : ٣٤٢/١

١٦٠٥ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا يونس بن بكير ،[2] عن عبد الحميد ابن بَهرام ، عن شَهر بن حَوْشب ، عن ابن عباس أنه قال : حَضرت عصابة من اليهود رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خِلال نسألك عنهن ، لا يعلمهن إلا نبىّ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلوا عمّا شئتم ، ولكن اجعلوا لى ذمّة الله ، وما أخذ يعقوبُ على بَنيه ، لئن أنا حدّثتكم شيئاً فعرفتموه ، لتُتابعُنّى على الإسلام . فقالوا : ذلك لك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سلونى عما شئتم . فقالوا : أخبرنا عن أربع خِلاَل نسألك عنهن : أخبرنا ، أى الطعام حَرّم إسرائيل على نَفسه من قبل أن تُنزل التوراة ؟ وأخبرنا

(١) انظر ما سلف ١ : ٢٨٣ ، وهذا الجزء ٢ : ١٤٠

(٢) فى المطبوعة : « يونس عن بكير » ، وهو خطأ محض .

كيف ماءُ المرأة وماء الرجل ؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبيِّ الأميّ في النوم وَمنْ وَليُّه من الملائكة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عليكم عهدُ الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعُنِّي ! فأعطوه ما شاء من عَهد وميثاق . فقال : نشدُتكم بالذى أنزل التوراة على مُوسى ، هل تعلمون أنّ إسرائيل مرض مرَضاً شَديداً فطال سُقمه منه ، فنذر نَذراً لئن عافاه الله من سُقمه ليحرّمنّ أحبّ الطعام والشراب إليه ، وكان أحبَّ الطعام إليه لحمُ الإبل — قال : أبو جعفر فيما أروى —[1] وأحب الشراب إليه ألبانها ؟ فقالوا : اللهم نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشهد الله عليكم وأنشدُكم بالله الذى لا إله إلا هو ، الذى أنزل التوراة على مُوسى ، هل تعلمون أن مَاء الرجل أبيضُ غليظٌ ، وأن ماء المرأة أصفر رقيقٌ ، فأيهما عَلاَ كان له الوَلدُ والشَّبه بإذن الله ، فإذا علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة كان الولدُ ذكراً بإذن الله ، وإذا علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل كان الولد أنثى بإذن الله ؟ قالوا : اللهم نَعم . قال : اللهمّ اشهد ! قال : وأنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أنّ هذا النبيّ الأميّ تنامُ عَيناه ولا ينامُ قلبه ؟ قالوا : اللهم نعم ! قال : اللهم اشهد ! قالوا : أنت الآن تحدّثنا مَنْ وليُّك من الملائكة ،[2] فعندها نتابعك أو نفارقك . قال : فإن وليّ جبريل ، ولم يبعث الله نبيًّا قطّ إلا وهو وليُّه . قالوا : فعندها نفارقك ، لو كان وليَّك سواهُ من الملائكة ، تابعناك وصدّقناك . قال : فما يمنعكم أن تصدّقوه ؟ قالوا : إنه عدوّنا ! فأنزل الله عز وجل : « من كان عدوًّا لجبريل فإنه نَزّله على قَلبك بإذْن الله » إلى قوله « كأنهم لا يَعلمون » ، فعندها باؤوا بغضب على غضَب .[3]

---

(١) في المطبوعة : « فيما أرى » — وانظر ما سلف قريباً : ٣٧٦

(٢) في تفسير ابن كثير ١ : ٢٣٩ « أنت الآن فحدثنا . . . » ، وهى جيدة .

(٣) الأثر : ١٦٠٥ — إسناده صحيح . يونس بن بكير بن واصل الشيبانى : ثقة ، من تكلم فيه فلا حجة له ، وأخرج له مسلم في صحيحه . وترجمته في التهذيب ، والكبير للبخارى ٤/٢/٤١١ ، وابن سعد ٦ : ٢٧٩ ، وابن أبي حاتم ٤/٢/٢٣٦ . ووقع في المطبوعة هنا « يونس عن بكير » ! وهو خطأ واضح . عبد الحميد بن بهرام — بفتح الباء وسكون الهاء — الفزارى : ثقة ، وثقه أحمد وابن معين

١٦٠٦ ــ حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال ، حدثنى محمد بن إسحق قال ، حدثنى عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى الحسين ــ يعنى المكى ــ ، عن شهر ابن حوشب الأشعرى : أن نفراً من اليهود جاءوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ،أخبرنا عن أربع نسألُكَ عنهن، فإن فعلت اتَّبعناك وصدَّقناك وآمنَّا بك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكم بذلك عهدُ الله وميثاقه، لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدِّقُنِّى؟ قالوا: نعم. قال: فاسألوا عمَّا بدَا لكم . فقالوا: أخبرنا كيف يشبه الولدُ أمَّه، وإنما النُّطفة من الرَّجُل؟ فقال رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم : أنشدُكم بالله وبأيَّامه عند بنى إسرائيل ، هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظةٌ ، ونطفةَ المرأة صفراءُ رقيقة ، فأيتُهما عَلَت صَاحبتَها كان لها الشبه ؟[1] قالوا : نعم . قالوا : فأخبرنا كيف نومك ؟ قال: أنشدكم بالله وبأيَّامه عند بنى إسرائيل ، هل تعلمون أنّ هذا النبى الأمىَّ تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ [2] ٣٤٣/١

وغيرها . وتكلم فيه بعضهم من أجل روايته عن شهر بن حوشب ، وهو راويته ، ولكن شهر ثقة أيضاً ، كما أشرنا فى : ١٤٨٩ .

والحديث رواه أحمد فى المسند ، مطولا : ٢٥١٤ ، وابن سعد فى الطبقات ١/١/١١٥ – ١١٦ ، كلاهما من هاشم بن القاسم ، عن عبد الحميد بن بهرام ، بهذا الإسناد . ثم رواه أحمد : ٢٥١٥ ، عن محمد بن بكار ، عن عبد الحميد بن بهرام ، به ، ولم يذكر لفظه ، إحالة على ما قبله .

ورواه أحمد أيضاً : ٢٤٧١ ، مختصراً ، عن حسين ، وهو ابن محمد المروزى ، عن عبد الحميد ابن بهرام .

ورواه أيضاً : ٢٤٨٣ ، من وجه آخر ، أطول قليلا . وكذلك رواه أبو نعيم فى الحلية ٤ : ٣٠٤ – ٣٠٥ من هذا الوجه .

وذكر الهيثمى الرواية : ٢٤٨٣ ، وأشار إلى ما فى الرواية : ٢٥١٤ من الزيادة ، فى مجمع الزوائد ٨ : ٢٤١ – ٢٤٢ ، وقال : « رواه أحمد والطبرانى ، ورجالهما ثقات » .

ونقل ابن كثير فى التفسير ١ : ٢٣٨ – ٢٣٩ رواية الطبرى التى هنا ، ثم أشار إلى رواية المسند : ٢٥١٤ . ثم نقل رواية المسند: ٢٤٨٣ فيه ١ : ٢٤٠ ، ونقل روايتى المسند أيضاً ٢ : ١٨٦ – ١٨٧ .

(١) فى المطبوعة : « فأيهما غلبت صاحبتها » ، والصواب من نص سيرة ابن هشام ٢ : ١٩١ – ١٩٢

(٢) نص ابن إسحق فى رواية ابن هشام ٢ : ١٩٢ : « هلْ تعلَمونَ أنّ نوم الذى تَزعمونَ أنى لستُ به ، تنام عيناهُ وقلبُهُ يقظان؟ فقالوا : اللهم نعم . قال :فـكذلك

قالوا : اللهم نعم . قال : اللهم اشهد ! قالوا أخبرنا أى الطعام حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزّل التوراة ؟ قال : هل تعلمون أنه كانَ أحبَّ الطعام والشراب إليه ألبانُ الإبل ولحومها ، وأنه اشتكى شكوَى فعافاه الله منها ، فحرّم أحب الطعام والشراب إليه شكراً لله ، فحرّم على نفسه لحومَ الإبل وألبانها ؟ قالوا : اللهم نَعم . قالوا : فأخبرنا عن الروح . قال : أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل ، هل تعلمون أنه جبريل ، [1] وهو الذى يأتينى ؟ قالوا : نعم ، ولكنه لنا عدوٌّ ، وهو مَلك إنما يأتى بالشدة وسَفك الدماء ، فلولا ذلك اتبعناك . فأنزل الله فيهم : « قل مَنْ كان عدوًّا لجبريل فإنه نزّله على قلبك » إلى قوله « كأنهم لا يعلمون » . [2]

١٦٠٧ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قال ، حدثنى القاسم بن أبى بزة : أنّ يهودَ سألوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم : مَنْ صاحبه الذى ينزل عليه بالوحى ؟ فقال : جبريل . قالوا : فإنه لنا عدوٌّ ، ولا يأتى إلا بالحرب والشدة والقتال ! فنزل : «من كان عدوًّا لجبريل » الآية . قال ابن جريج : وقال مجاهد : قالت يهود : يا محمد ، ما ينزل جبريل إلا بشدة وحرب ! وقالوا : إنه لنا عدوٌّ ! [3] فنزل : « من كان عدوًّا لجبريل » الآية . [4]

* * *

وقال آخرون : بل كان سبب قيلهم ذلك ، من أجل مناظرة جَرَت بين

نومى ، تنام عينى وقلبى يقظان . قالوا : فأخبرنا عما حرّم إسرائيل على نفسه ؟ »
وبعد ذلك اختلاف أيضاً فى رواية ابن جرير عن ابن إسحق .

(١) فى سيرة ابن هشام : « هل تعلمونه » ، وهو أشبه بالصواب .

(٢) الأثر : ١٦٠٦ — هو حديث مرسل ، مضى جزء منه ، بهذا الإسناد : ١٤٨٩ . وأشار إليه ابن كثير ١ : ٢٣٩ — ٢٤٠ ، عقب حديث ابن عباس الذى قبله ، وصرح أيضاً بأنه رواه محمد بن إسحق مرسلا .

وفى سيرة ابن هشام ٢ : ١٩١ — ١٩٢ ، وفيه اختلاف فى بعض اللفظ . وقد ساق ابن كثير هذين الأثرين (١٦٠٥ ، ١٦٠٦) ، وخرجهما ، واستوفى الكلام فى هذه القصة فى تفسيره ١ : ٢٣٨ — ٢٤٥ .

(٣) فى تفسير ابن كثير ١ : ٢٤٠ : « إلا بشدة وحرب وقتال فإنه لنا عدو » .

(٤) الأثر : ١٦٠٧ — وهذا منقطع ، وقد ذكره ابن كثير ١ : ٢٤٠ ، عن هذا الموضع . و « القاسم بن أبى بزة » : سبق فى : ٦٣١ ، وهو يروى عن التابعين .

عُمر بن الخطاب رضى الله عنه وبينهم ، فى أمر النبي صلى الله عليه وسلم . ذكر من قال ذلك :

١٦٠٨ ـ حدثنى محمد بن المثنى قال، حدثنا رِبْعى بن عُليّة، عن داود ابن أبى هند، عن الشعبي ، قال : نزل عُمر الرَّوْحاء ، فرأى رجالا يبتدرونَ أحجاراً يصلُّون إليها، فقال: ما هؤلاء ؟ قالوا : يزعمون أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صَلَّى ههنا . فكره ذلك وقال: أيْما؟ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أدْرَكته الصلاةُ بوادٍ ، فصلى ، ثم ارتحل فتركه ![1] ثم أنشأ يحدثهم فقال : كنت أشهدُ اليهود يوم مِدْرَاسهم فأعجبُ من التوراة كيف تصدّق الفرقان ، ومن الفرقان كيف يصدّق التوراة ! فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا: يا ابنَ الخطاب، ما من أصحابك أحدٌ أحبّ إلينا منك . قلت : ولم ذلك ؟ قالوا : إنك تغشانا وتأتينا . قال قلت : إنى آتيكم فأعجبُ من الفرقان كيف يصدّق التوراة، ومن التوراة كيف تصدّق الفرقان ! قال : ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا ابن الخطاب ، ذاك صاحبكم فالحقْ به . قال : فقلت لهم عند ذلك : أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو ، وما استرعاكم من حقه واستودَعكم من كتابه ، أتعلمون أنه رسول الله ؟ قال : فسكتوا ، قال : فقال عالمهُم وكبيرُهم: إنّه قد عظّم عليكم فأجيبوه .[2] قالوا : أنت عالمنا وسيدنا، فأجبه أنت. قال: أمَّا إذ نشدتنا به ، فإنا نعلم أنه رسول الله . قال: قلت ويحكم! إذاً هلكتم ![3] قالوا: إنا لم نَهلك . قال : قلت : كيف ذاك ، وأنتم تعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لاتتبعونه ولا تصدقونه ؟

---

(١) فى المطبوعة : « وقال : إنما رسول الله صلى الله عليه وسلم أدركته الصلاة » ، وهى عبارة ركيكة . وأثبت ما جاء فى تفسير ابن كثير عن الطبرى ١ : ٢٤٠ . وقوله « أيما » استفهام وتعجب ، وأكثر ما تكتب : « أيم » (بفتح فسكون ففتح) ، وبحذف الألف . تقول : أيم تقول ؟ أى : أى شيء تقول ؟ وانظر اللسان (أيم) . يتعجب عمر من فعلهم .

(٢) فى تفسير ابن كثير ١ : ٢٤٢ : « قد غلظ عليكم » .

(٣) فى المطبوعة : « أى هلكتم » ، والصواب فى تفسير ابن كثير .

قالوا : إن لنا عدوًّا من الملائكة وسِلْماً من الملائكة ، وإنّه قُرِن به عدوّنا من الملائكة .[١] قال : قلت : ومن عدوّكم ؟ ومن سِلْمكم ؟ قالوا : عدوّنا جبريل ، وسِلْمنا ميكائيل . قال : قلت : وفيم عاديتم جبريل ؟ وفيم سالمتم ميكائيل ؟ قالوا : إن جبريل مَلك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا ، وإنّ ميكائيل مَلك الرأفة والرحمة والتخفيف ونحو هذا . قال : قلت : وما منزلتهما من ربهما ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه ، والآخر عن يساره . قال : قلت : فوالله الذى لا إله إلا هو ، إنهما والذى بينهما لعدوٌّ لمن عاداهما ، وسِلْم لمن سالمهما ، ما ينبغى لجبريل أن يُسالم عدوَّ ميكائيل ، ولا لميكائيل أن يسالم عدوَّ جبريل ! قال : ثم قمتُ فاتبعت النبي صلى الله عليه وسلم ، فلحقته وهو خارج من مَخْرفَة لبنى فلان ،[٢] فقال لى : يا ابن الخطاب ، ألا أقرئك آيات نَزَلن ؟ فقرأ علىّ : « قُلْ مَن كان عَدوًّا لجبريلَ فإنه نَزَّله على قلبك بإذنِ الله مصدِّقاً لما بين يديه » حتى قرأ الآيات . قال : قلت : بأبى وأمّى أنت يا رسول الله ،[٣] والذى بعثك بالحق لقد جئتُ وأنا أُريد أن أخبرك الخبر ، فأسمع اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر ![٤]

١/٣٤٤

---

(١) السلم : المسالم . تقول : أنا سلم لمن سالمنى . رجل سلم ، وقوم سلم ، وامرأة سلم .

(٢) فى المطبوعة : « خرفة » ، وفى تفسير ابن كثير « خوخة » والصواب « مخرفة » كما أثبتها . والمخرفة : البستان ، أو سكة بين صفين من نخل . خرف النخل والثمر : اجتناه ، واجتناء الثمر هو « الخرفة » (بضم فسكون) .

(٣) فى المطبوعة : « بأبى وأمى يا رسول الله » بإسقاط « أنت » ، وأثبت ما فى تفسير ابن كثير .

(٤) الحديث : ١٦٠٨ — وهذا مرسل أيضاً . ذكره ابن كثير ١ : ٢٤١ — ٢٤٣ ، عن هذا الموضع ، ثم عن تفسير ابن أبى حاتم ، من رواية مجالد عن عامر — وهو الشعبى — وسيأتى نحوها أيضاً من رواية مجالد رقم : ١٦١٤ . ثم قال ابن كثير : « وهذان الإسنادان يدلان على أن الشعبى حدث به عن عمر . ولكن فيه انقطاع بينه و بين عمر ، فإنه لم يدرك زمانه » . وقال السيوطى فى الدر المنثور ١ : ٩٠ « صحيح الإسناد ولكن الشعبى لم يدرك عمر »

ربعى ، بكسر الراء والعين المهملة ، بينهما باء موحدة ساكنة ، وآخره ياء تحتية مشددة : هو « ربعى بن إبرهيم بن مقسم الأسدى » عرف « بابن علية » ، كأخيه « إسمعيل بن علية » . وربعى : ثقة مأمون ، من شيوخ أحمد وأبى خيثمة وغيرهما . وقال عبد الرحمن بن مهدى : « كنا نعد ربعى بن علية من بقايا شيوخنا » . وفى المسند : ٧٤٤٤ أن أحمد بن حنبل قال : « كان يفضل على أخيه » . وهو

١٦٠٩ — حدثني يعقوب بن إبراهيم قال ، حدثنا ابن علية ، عن داود ، عن الشعبي قال ، قال عمر : كنت رجلا أغشى اليهود في يوم مِدْراسهم ، ثم ذكر نحو حديث ربعي .[1]

١٦١٠ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلقَ ذاتَ يوم إلى اليهود ، فلما أبصرُوه رحّبوا به . فقال لهم عمر : أمَا والله ما جئتُ لحبِّكم ولا للرغبة فيكم ، ولكن جئت لأسمع منكم . فسألهم وسألوه ، فقالوا : من صاحِبُ صاحبكم ؟ فقال لهم : جبريلُ . فقالوا : ذاك عدوُّنا من أهل السماء ، يُطلع محمدًا على سرِّنا ، وإذا جاء جاء بالحرب والسَّنَة[2] ، ولكن صاحبُ صاحبنا ميكائيل ، وكان إذا جاء جاء بالخِصْب وبالسِّلم . فقال لهم عمر : أفتعرفون جبريل وتنكرون محمداً ؟ ففارقهم عمر عند ذلك ، وتوجه نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحدِّثه حديثهم ، فوجده قد أنزل عليه هذه الآية : « قُلْ من كان عدوًّا لجبريل فإنه نَزَّله على قلبك بإذن الله » .

١٦١١ — حدثني المثنى قال ، حدثنا آدم قال ، حدثنا أبو جعفر ، عن قتادة قال : بلغنا أن عمر بن الخطاب أقبل على اليهود يوماً ، فذكر نحوه .

١٦١٢ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة في قوله : « مَن كان عدوًّا لجبريل » ، قال : قالت اليهود :

مترجم في التهذيب ، والكبير ٢/١/٢٩٩ ، وابن أبي حاتم ١/٢/٥٠٩ — ٥١٠ .

داود بن أبي هند : ثقة ، جيد الإسناد ، رفع ، من حفاظ البصريين . ترجمته في التهذيب ، والكبير ٢/١/٢١١ — ٢١٢ ، والصغير : ١٦٠ ، وابن أبي حاتم ١/٢/٤١١ — ٤١٢ .

الشعبي : هو عامر بن شراحيل الهمداني ، إمام جليل الشأن ، من كبار التابعين . ولكنه لم يدرك عمر ، كما قال ابن كثير . فإنه ولد سنة ١٩ ، أو سنة ٢٠ .

(١) الأثر : ١٦٠٩ — في المطبوعة : « حدثني يعقوب قال حدثنا إبراهيم قال حدثنا ابن علية » والصواب ما أثبته ، يعقوب بن إبراهيم الدورقي ، وقد سلف مراراً بهذا الإسناد ، وروايته عن ابن علية .

(٢) السنة : الجدب والقحط .

إن جبريل هو عدوُّنا، لأنه ينزل بالشدة والحرب والسَّنة، وإن ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخِصْب، فجبريل عدوُّنا. فقال الله جل ثناؤه: «من كان عدوًّا لجبريل».

١٦١٣ — حدثني موسى بن هرون قال، حدثنا عمرو بن حماد قال، حدثنا أسباط، عن السدى: «قل من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزَّله على قلبك بإذن الله مُصدِّقاً لما بين يديه»، قال: كان لعمر بن الخطاب أرْض بأعلى المدينة، فكانَ يأتيها، وكان ممرُّه على طريق مِدْراس اليهود، وكان كلما دَخل عليهم سمع منهم. وإنه دخل عليهم ذات يوم فقالوا: يا عُمر، ما فى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحدٌ أحبَّ إلينا منك، إنهم يمرون بنا فيؤذوننا، وتمر بنا فلا تؤذينا، وإنا لنطمع فيك. فقال لهم عمر: أىُّ يمين فيكم أعظم؟ قالوا: الرحمن الذى أنزل التوراة على موسى بطُورسَيناء. فقال لهم عمر: فأنشدكم بالرحمن الذى أنزل التوراة على موسى بطورسيناء، أتجدون محمداً صلى الله عليه وسلم عندكم؟ فأسْكتُوا.[1] فقال: تكلموا، ما شأنكم؟ فوالله ما سألتكم وأنا شاكٌّ فى شىء من دينى. فنظر بعضهم إلى بعض، فقام رجل منهم فقال: أخبرُوا الرجل، لتخبرُنَّه أو لأخبرنَّه. قالوا: نعم، إنا نجدُه مكتوباً عندنا، ولكن صاحبه من الملائكة الذى يأتيه بالوحى هو جبريل، وجبريل عدوُّنا، وهو صاحب كل عذاب أو قتال أو خسْف، ولو أنه كان وليَّه ميكائيلُ، إذاً لآمنَّا به، فإنَّ ميكائيل صاحب كلّ رحمة وكل غيث. فقال لهم عمر: فأنشُدكم بالرحمن الذى أنزل التوراة على موسى بطورسيناء، أين مكان جبريل من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره. قال عمر: فأشهدكم أن الذى هو عدوٌّ للذى عن يمينه، عدوٌّ للذى هو عن يساره؛ والذى هو عدوٌّ للذى هو عن يساره، عدوٌّ للذى هو عن يمينه؛ وأنه من كان عدوَّهما، فإنه عدوٌّ لله. ثم رجع عمر ليخبر النبىَّ صلى الله عليه وسلم، ١/٣٤٥

(١) سكت الرجل: صمت. وأسكت الرجل (غير متعد): انقطع كلامه فلم يتكلم، وأطرق من فكرة انتابته وقطعته.

فوجد جبريل قد سبقه بالوحي ، فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقرأه عليه . فقال عمر : والذي بعثك بالحق ، لقد جئتُك وما أريد إلا أن أخبرك ! [1]

١٦١٤ — حدثني المثنى قال ، حدثنا إسحق بن الحجاج الرازي قال ، حدثنا عبد الرحمن بن مغراء أبو زهير ، عن مجالد ، عن الشعبي قال : انطلق عمر إلى يهودَ فقال : إني أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ، هل تجدون محمداً في كتابكم ؟ قالوا نعم . قال : فما يمنعكم أن تتبعوه ؟ قالوا : إن الله لم يبعث رسولاً إلا كان له كِفْلٌ من الملائكة ، وإن جبريل هو الذي يتكفّل لمحمد ، وهو عدونا من الملائكة ، وميكائيل سِلْمنا ، فلو كان هو الذي يأتيه اتّبعناه . قال : فإني أنشُدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ، ما منزلتهما من رب العالمين ؟ قالوا جبريل عن يمينه ، وميكائيل عن جانبه الآخر . فقال : إني أشهدُ ما يقولان إلا بإذن الله ، [2] وما كان لميكائيل أن يُعادي سِلْمَ جبريل ، وما كان جبريل ليسالم عدوَّ ميكائيل . [فبينما هو عندهم] ، إذ مر نبي الله صلى الله عليه وسلم ، [3] فقالوا : هذا صاحبُك يا ابنَ الخطاب . فقام إليه ، فأتاه وقد أنزل عليه : « من كان عدواً لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذنِ الله » إلى قوله « فإن الله عدوٌّ للكافرين » . [4]

---

(١) الأثر : ١٦١٣ — في الدر المنثور ١ : ٩٠ — ٩١ مع اختلاف يسير في اللفظ ، واختصار في روايته .

(٢) في تفسير ابن كثير ١ : ٢٤٣ : « ما ينزلان إلا بإذن الله » ، وكأنه هو الصواب .

(٣) ما بين القوسين زيادة لابد منها ، زدتها من تفسير ابن كثير ١ : ٢٤٢ ، من رواية ابن أبي حاتم في تفسيره .

(٤) الحديث : ١٦١٤ — وهذا إسناد مرسل أيضاً ، ووقع فيه في المطبوعة خطأ في موضعين . أثبتنا الصواب اليقين به . وكان في المطبوعة « حدثنا عبد الرحمن بن مغراء قال ثنا زهير عن مجاهد عن الشعبي » . فلا يوجد في شيوخ ابن مغراء ، ولا في الرواة عن «مجاهد» أو « مجالد » من يسمى « زهيراً » . و « مجاهد عن الشعبي » خطأ أيضاً ، وكلاهما من كبار التابعين ، من طبقة واحدة ، ومجاهد أقدم قليلا . وعبد الرحمن بن مغراء لا يدرك أن يروى عن مجاهد ، ولا عن الشعبي .

مجالد : هو ابن سعيد الهمداني ، وهو ثقة ، ضعفه بعض الأئمة وروى عنه من الأئمة : شعبة والسفيانان وابن المبارك ، ورجحنا تصحيح حديث القدماء عنه ، في شرح المسند ٣٧٨١ ، لأن أعدل كلمة فيه قول عبد الرحمن بن مهدي « حديث مجالد عند الأحداث . يحيى بن سعيد وأبي أسامة ، ليس

١٦١٥ — حدثني يعقوب بن إبراهيم قال ، حدثنا هشيم قال ، أخبرنا حصين ابن عبد الرحمن ، عن ابن أبي ليلى في قوله : « من كان عدوًّا لجبريل » . قال : قالت اليهود للمسلمين : لو أن ميكائيل كان الذي ينزل عليكم لتبعناكم ، فإنه ينزل بالرحمة والغيث ، وإن جبريل ينزل بالعذاب والنقمة ، وهو لنا عدوّ . قال : فنزلت هذه الآية : « من كان عدوًّا لجبريل » .[1]

١٦١٦ — حدثني يعقوب قال ، حدثنا هشيم قال ، أخبرنا عبد الملك ، عن عطاء بنحو ذلك .

* * *

قال أبو جعفر : وأما تأويل الآية — أعني قوله : « قُلْ من كان عدوًّا لجبريل فإنه نَزَّله على قلبك بإذن الله » — فهو : أن الله يقول لنبيه : قل يا محمد — لمعاشر اليهود من بني إسرائيل ، الذين زعموا أن جبريل لهم عدوّ ، من أجل أنه صاحب سَطَوات وعذابٍ وعُقوبات ، لا صاحب وحْيٍ وتنزيل ورحمة ، فأبوا اتباعك ، وجحدوا نبوّتك ، وأنكروا ما جئتَهم به من آياتي وبينات حُكمي ، من أجل أن جبريل وليُّك وصاحب وحْيي إليك ، وزعموا أنه عدوٌّ لهم — : من يكن من الناس

بشيء ، ولكن حديث شعبة وحماد بن زيد وهشيم وهؤلاء القدماء ، » . قال ابن أبي حاتم : « يعني أنه تغير حفظه في آخر عمره » . وذكر ابن سعد في ترجمته ٦ : ٢٤٣ جرح يحيى القطان إياه ، ثم قال : « وقد روى عنه يحيى بن سعيد القطان مع هذا ، وروى عنه سفيان الثوري ، وشعبة ، وغيرهم » . وترجمته في التهذيب ، والكبير للبخاري ٤/٢/٩ ، والصغير : ١٦٨ ، ١٦٩ ، وابن أبي حاتم ٤/١/٣٦١ — ٣٦٢ .

إسحق بن الحجاج الرازي : هو الطاحوني المقرىء ، ترجمنا له فيما مضى : ٢٣٠ . وعبد الرحمن بن مغراء بن عياض الدوسي ، أبو زهير : ثقة ، تكلم بعضهم في روايته عن الأعمش ، وهو مترجم في التهذيب وابن أبي حاتم ٢/٢/٢٩٠ — ٢٩١ .

وهذا الحديث نقله ابن كثير ١ : ٢٤٢ — ٢٤٣ ، من تفسير ابن أبي حاتم . « حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن مجالد ، عن عامر . . . » — وهو الشعبي ، فذكر نحوه . ثم بين ابن كثير أنه منقطع ، كما أشرنا آنفاً .

والراجح عندي أن عبد الرحمن بن مغراء ممن روى عن مجالد بعد تغيره .

(١) الأثر : ١٦١٥ — في تفسير ابن كثير ١ : ٢٤٣ مع اختلاف يسير في لفظه .

لجبريل عدوًّا ، ومنكراً أن يكون صاحبَ وحى الله إلى أنبيائه ، وصاحب رحمته ، فإنى لَـهُ ولىٌّ وخليلٌ ، ومقرٌّ بأنه صاحب وَحى إلى أنبيائه ورسله ، وأنه هو الذى ينزل وَحْيَ الله على قَلبى من عند ربى ، بإذن ربى له بذلك ، يربط به على قلبى ، ويشُدُّ فؤادى ، كما : —

١٦١٧ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر ابن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : « قل من كان عدوًّا لجبريل » ، قال : وذلك أن اليهود قالت — حين سألتْ محمداً صلى الله عليه وسلم عَن أشياء كثيرة فأخبرهم بها على ما هى عندهم — : « إلاّ جبريل » ، فإن جبريل كان عند اليهود صاحب عذَاب وسطوةٍ ، ولم يكن عندهم صاحب وحْى — يعنى : تنزيل من الله على رسله — ولا صاحب رحمة ، فأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما سألُوه عنه : أن جبريل صاحب وَحى الله ، وصاحب نقمته ، وصاحب رحمته ، فقالوا : ليس بصاحب وَحْى ولا رحمة ، هو لنا عدوٌّ ! فأنزل الله عزوجل إكذاباً لهم : « قل » يا محمد : « من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزّله على قَلبك » ، يقول : فإن جبريل نَزّله — يقول : نزل القرآن — بأمر الله يشد به فؤادك ، ويربط به على قلبك — يعنى : بوحينا الذى نَزّل به جبريل عليك من عند الله — وكذلك يفعل بالمرسلين والأنبياء من قبلك . ٣٤٦/١

١٦١٨ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « قل من كان عَدُوًّا لجبريل فإنه نزّله على قلبك بإذن الله » ، يقول : أنزل الكتابَ على قلبك بإذن الله .

١٦١٩ — وحدثت عن عمار قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « فإنه نزّله على قلبك » ، يقول : نزل الكتاب على قلبك جبريل .

* * *

قال أبو جعفر : وإنما قال جل ثناؤه : « فإنه نزّله على قَلبك » — وهو يعنى

بذلك قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد أمرَ محمداً فى أول الآية أن يُخبر اليهود بذلك عَنْ نفسه — ولم يقل : فإنه نزّله على قلبى = ولو قيل : « على قلبى » كان صواباً من القول = لأن من شأن العرب إذا أمرت رجلاً أن يُحكى ما قيل له عن نفسه ، أن تخرج فعلَ المأمور مرةً مضافاً إلى كناية نفس المخبر عن نفسه ، إذ كانَ المخبِرَ عن نفسه ؛ ومرةً مضافاً إلى اسمه ، كهيئة كناية اسم المخاطب ، لأنه به مخاطب . فتقول فى نظير ذلك : « قل للقوم إنّ الخير عندى كثير » — فتخرج كناية اسم المخبر عن نفسِه ، لأنه المأمور أن يخبر بذلك عن نفسه — : و « قل للقوم إنّ الخير عندك كثير » — فتخرج كناية اسمه كهيئة كناية اسم المخاطب ، لأنه وإنْ كان مأموراً بقيل ذلك ، فهو مخاطب مأمور بحكاية ما قيل له . وكذلك « لا تقل للقوم إنّى قائم » و « لاتقل لهم إنّك قائم » ، و « الياء » من « إنى » اسم المأمور بقول ذلك ، على ما وصفنا . ومن ذلك قول الله عز وجل : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَيُغْلَبُونَ ﴾ و ﴿ تُغْلَبُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١٢] ، بالياء والتاء .(١)

* * *

وأما « جبريل » فإن للعرب فيه لغات : فأما أهل الحجاز فإنهم يقولون : « جِبْرِيل ، وميكال » بغير همز ، بكسر الجيم والراء من « جبريل » وبالتخفيف . وعلى القراءة بذلك عامة قرأة أهل المدينة والبصرة .

أما تميمٌ وقيس وبعضُ نجد فيقولون : « جَبْرَئيل وميكائيل » على مثال « جبرعيل وميكاعيل » ، بفتح الجيم والراء ، وبهمزٍ ، وزيادة ياء بعد الهمزة . وعلى القراءة بذلك عامة قرأة أهل الكوفة ، كما قال جرير بن عطية :

عَبَدُوا الصَّلِيبَ وَكَذَّبُوا بِمُحَمَّدٍ وَبِجَبْرَئِيلَ وَكَذَّبُوا مِيكَالاَ(٢)

---

(١) انظر معانى القرآن للفراء ١ : ٦٣ .

(٢) ديوانه : ٤٥٠ ، ونقائض جرير والأخطل : ٨٧ ، من قصيدته الدامغة فى هجاء الأخطل ، والضمير إلى تغلب ، رهط الأخطل ، وقبله :

قَبَحَ الإلٰهُ وُجُوهَ تَغْلِبَ ، كُلَّمَا شَبَحَ الحَجِيجُ وَكَبَّرُوا إهْلاَلاَ

وقد ذُكر عن الحسن البصرى وعبد الله بن كثير أنهما كانا يقرآن : « جَبْرِيل » بفتح الجيم وترك الهمز .

قال أبو جعفر : وهى قراءة غيرُ جائزةٍ القراءةُ بها ، لأن « فَعْليل » فى كلام العرب غير موجود .[1] وقد اختار ذلك بعضهم ، وزعم أنه اسم أعجمى ، كما يقال : « سَمْوِيل » ، وأنشد فى ذلك :[2]

بِحَيْثُ لَوْ وُزِنَتْ لَخْمٌ بأَجْمَعِهَا مَا وَزَانَتْ رِيشَةً مِنْ رِيشِ سَمْوِيلاَ[3]

وأما بنو أسد فإنها تقول : « جِبْرِين » بالنون . وقد حكى عن بعض العرب أنها تزيد فى « جبريل» « ألفاً » فتقول : « جبراييل وميكاييل» .

وقد حكى عن يحيى ابن يعمر أنه كان يقرأ : « جَبْرَئِلّ » بفتح الجيم ، والهمز ، وترك المد ، وتشديد اللام .

فأما « جَبْر » و« ميك» ، فإنهما الاسمان اللذان أحدهما بمعنى : «عبْد» ، والآخر بمعنى : « عُبَيْد »

* * *

(١) فى المطبوعة : « فعيل » ، وهو خطأ .

(٢) هو الربيع بن زياد العبسى ، أحد الكَمَلة من بنى فاطمة بنت الخرشب الأنمارية .

(٣) الأغانى ١٤ : ٩٢ ، ١٦ : ٢٢ ، واللسان (سمل) ، من أبيات أرسلها الربيع إلى النعمان ابن المنذر فى خبر طويل ، حين قال لبيد فى رجزه :

* مَهْلاً ، أَبَيْتَ اللَّعْنَ ، لا تأْكُلْ مَعَهْ *

وزعم أنه أبرص الخبيثة ، وذكر من فعله قبيحاً كريهاً ، فرحل الربيع عن النعمان ، وكان له نديماً ، وأرسل إليه أبياته :

لَئِنْ رَحَلْتُ جِمَالِى لا إِلَى سَعَةٍ مَا مِثْلُهَا سَعَةٌ عرضاً ولا طُولاَ

بِحَيْثُ لَوْ وُزِنَتْ لَخْمٌ بأَجْمَعِهَا لَمْ يَعْدِلُوا رِيشَةً مِنْ رِيشِ سَمْوِيلاَ

تَرْعَى الرَّوَائِمُ أَحْرَارَ البُقُولِ بها لا مِثْلَ رِعْيِكُمُ مِلْحاً وغِسْوِيلاَ

فاثْبُتْ بأَرضِكَ بَعْدِى، وَاخْلُ مُتَّكِئاً مَعَ النِّطَاسِىِّ طَوراً وَابْنِ تَوْفِيلاَ

ولخم : هم رهط آل المنذر ملوك الحيرة .

وَأما « إيل » فهو الله تعالى ذكره ، كما : —

١٦٢٠ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا جابر بن نوح الحمانى ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير قال ، قال ابن عباس : « جبريل » و « ميكائيل » ، كقولك : عبد الله .

١٦٢١ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا يحيي بن واضح قال ، حدثنا الحسين ابن واقد ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : « جبريل » عبد الله ؛ و « ميكائيل » ، عُبيد الله . وكل اسم « إيل » ، فهو : الله . ٣٤٧/١

١٦٢٢ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إسمعيل ابن رجاء ، عن عمير مولى ابن عباس : أن « إسرائيل ، وميكائيل وجبريل ، وإسرافيل » كقولك : عبد الله .

١٦٢٣ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن المنهال ابن عمرو ، عن عبد الله بن الحارث قال : « إيل » ، الله ، بالعبرانية .

١٦٢٤ — حدثنا الحسين بن يزيد الضحاك قال ، حدثنا إسحق بن منصور قال ، حدثنا قيس ، عن عاصم ، عن عكرمة ، قال : « جبريل » اسمه : عبد الله ؛ و « ميكائيل » اسمه : عبيد الله . « إيل » : الله .

١٦٢٥ — حدثني الحسين بن عمرو بن محمد العَنْقَزِىّ قال ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى قال ، حدثنا سفيان ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن على بن حسين قال : اسم « جبريل » عبد الله ، واسم « ميكائيل » عبيد الله ، واسم « إسرافيل » : عبد الرحمن . وكلٌ معبَّد « إيل » ، فهو : عبد الله .[1]

١٦٢٦ — حدثنا المثنى قال ، حدثنا قبيصة بن عقبة قال ، حدثنا سفيان ، عن

---

(١) الخبر : ١٦٢٥ — الحسين بن عمرو بن محمد العنقزى : ضعيف ، قال أبو زرعة : « لا يصدق » . وهو مترجم فى لسان الميزان ، وابن أبى حاتم ١/٢/٦١ — ٦٢ ، والأنساب ، فى الورقة : ٤٠١ . و « العنقزى » : بفتح العين المهملة والقاف بينهما نون ساكنة وبالزاى . ووقع فى المطبوعة « العبقرى » ، وهو تصحيف . وكذلك سيأتى فى رقم : ١٦٥٥ ، بالتصحيف ، وصححناه هناك .

محمد المدنى — قال المثنى : قال قبيصة : أراه محمد بن إسحق — عن محمد بن عمرو ابن عطاء ، عن على بن حسين قال : ما تعدّون « جبريل » فى أسمائكم ؟ قال : « جبريل » عبد الله ، و « ميكائيل » عبيد الله . وكل اسم فيه « إيل » ، فهو معبَّدٌ لله .

١٦٢٧ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق ، عن محمد ابن عمرو بن عطاء ، عن على بن حسين قال : قال لى: هل تدرى ما اسم «جبريل» من أسمائكم ؟ قال : قلت : لا . قال: عبد الله . قال : فهل تدرى ما اسم « ميكائيل» من أسمائكم ؟ قلت : لا.[1] قال: عُبَيْد الله. وقد سمى لى « إسرائيل » باسم نحو ذلك فنسيته ، إلا أنه قد قال لى : أرأيتَ ، كل اسم يرجع إلى « إيل » فهو معبَّدٌ له .

١٦٢٨ — حدثنا ابن وكيع قال ، حدثنا أبى ، عن سفيان، عن خصيف، عن عكرمة فى قوله : « جبريل » قال : « جبر » عبد ، « إيل » الله ، و « ميكا» قال : عبد . « إيل »: الله .[2]

* * *

قال أبو جعفر: فهذا تأويل من قرأ «جَبْرَئيل» بالفتح، والهمز، والمد . وهو — إن شاء الله — معنى من قرأ بالكسر ، وترك الهمز.

وأما تأويل من قرأ ذلك بالهمز ، وترك المد ، وتشديد اللام ، فإنه قصد بقوله ذلك كذلك ، إلى إضافة « جبر » و « ميكا » إلى اسم الله الذى يُسمَّى به بلسان العرب دون السريانىّ والعبرانىّ . وذلك أن « الإلّ » بلسان العرب : الله ، كما قال : ﴿ لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً ﴾ [سورة التوبة : ١٠] . فقال جماعة من أهل العلم : « الإلّ » هو : الله . ومنه قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه — لوفد بنى حَنيفة ، حين سألهم عمّا كان مسيلمة يقولُ ، فأخبروه — فقال لهم : وَيحكمُ

(١) فى المطبوعة : « قال : لا » ، والصواب ما أثبت .

(٢) لعله « وميكا » . قال : « عبيد » بالتصغير ، كما سلف آنفاً .

« أين ذُهِبَ بكم؟ والله إن هذا الكلام مَا خرج من إلّ ولا بِرّ . يعني « من إلّ » : من الله » وقد : —

١٦٢٩ — حدثني يعقوب بن إبراهيم قال ، حدثنا ابن علية ، عن سليمان التيمي ، عن أبي مجلز في قوله : « لا يَرْقُبون في مُؤمن إلاًّ ولا ذِمَّةً » قال : قول « جبريل » و « ميكائيل » و « إسرافيل » .

كأنه يَقول : حين يضيف « جبر » و « ميكا » و « إسرا » إلى « إيل » يقول : عبد الله .[1] « لا يرقبون في مؤمن إلاًّ » ، كأنه يقول : لا يرقُبونَ الله عز وجل .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

قال أبو جعفر : يعني جل ثناؤه بقوله : « مصدّقاً لما بين يديه » ، القرآنَ . ونَصَبَ « مُصَدِّقاً » على القطع من « الهاء » التي في قوله : « نَزَّله على قلبك » .[2]

فمعنى الكلام : فإن جبريلَ نزّل القرآن على قلبك ، يا محمد ، مُصَدِّقاً لما بين يَدَيِ القرآن . يعني بذلك : مصدّقاً لما سلف من كتب الله أمامه ، ونزلت على رسله الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم . وتصديقُه إيّاها ، موافقة معانيه معانيها في الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله ، وهي تصدّقه ،[3] كما : —

١٦٣٠ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر ابن عمارة ، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « مصدّقاً لما بين

٣٤٨/١

(١) لعل الصواب أن يقول : « إسراف » ، مكان « إسرا » ، أو تكون الأولى « إسرائيل » مكان « إسرافيل » .

(٢) القطع : الحال هنا . وانظر ما سلف ١ : ٢٣٠ — ٢٣٢ ، ٣٣٠ ، ٥٦١ .

(٣) في المطبوعة : « وهي تصديقه » والصواب ما أثبت ، يريد : وهي توافقه . كما فسر قبل .

يديه» ، يقول لما قبله من الكتُب التى أنزلها الله ، والآيات ، والرُّسل الذين بعثهم الله بالآيات ، نحو مُوسى ونُوح وهُود وشُعَيب وصَالح ، وأشباههم من الرسل صلى الله عليهم .

١٦٣١ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « مصدّقاً لما بين يديه » ، من التوراة والإنجيل .

١٦٣٢ — حدثت عن عمار قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع مثله .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٩٧)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « وهُدًى » ودليل وبرهان . وإنما سمّاه الله جل ثناؤه « هُدًى » ، لاهتداء المؤمن به . و « اهتداؤه به » اتخاذه إيّاه هادياً يتبعه ، وقائداً ينقاد لأمره ونهيه وحلاله وحرامه . و « الهادى » من كل شىء : ما تقدم أمامه . ومن ذلك قيل لأوائل الخيل : «هواديها» ، وهو ما تقدم أمامها . وكذلك قيل للعنق : « الهادى » ، لتقدمها أمام سائر الجسد .[١]

* * *

وأما « البُشْرى » فإنها البشارة . أخبر الله عبادَه المؤمنين جل ثناؤه ، أنّ القرآن لهم بُشرَى منه ، لأنه أعلمهم بما أعدّ لهم من الكرامة عنده فى جناته ، وما هم إليه صائرون فى معادهم من ثوابه ، وذلك هو «البُشرى» التى بشر الله بها المؤمنين فى كتابه .

لأن « البشارة » فى كلام العرب ، هى : إعلامُ الرجل بما لم يكُنْ به عالماً مما يَسُرّه من الخبر ، قبل أن يسمعه من غيره ، أو يعلمه من قبل غيره .[٢]

وقد روى فى ذلك عن قتادة قول قريب المعنى مما قلناه :

---

(١) انظر ما سلف ١ : ١٦٦ — ١٧٠ ، ٢٣٠ ، ٢٤٩ ثم ٥٤٩ — ٥٥١ .

(٢) انظر ما سلف ١ : ٣٨٣ .

١٦٣٣ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : «هُدى وبُشرى للمؤمنين» ، لأن المؤمن إذا سمع القرآن حَفظه ووعاه ، وانتفع به واطمأن إليه ، وصدَّق بموعود الله الذى وَعد فيه ، وكان على يقين من ذلك .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ذكره ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٩٨)

قال أبو جعفر : وهذا خبرٌ من الله جل ثناؤه من كانَ عدوًّا لله ، مَنْ عاداه وَعادَى جميع مَلائكته ورُسله ؛[١] وإعلامٌ منه أن من عادى جبريلَ فقد عاداه وعادى ميكائيل، وعادى جميع ملائكته ورسله . لأن الذين سماهم الله فى هذه الآية هم أولياءُ الله وأهلُ طاعته، ومن عادَى لله وَليًّا فقد عادى الله وَبارزه بالمحاربة ، ومن عادَى الله فقد عادى جميع أهل طاعته ووَلايته . لأن العدوَّ لله عدوٌّ لأوليائه ، والعدوُّ لأولياء الله عدوٌّ له . فكذلك قال لليهود — الذين قالوا : إن جبريل عدوّنا من الملائكة، وميكائيل وليُّنا منهم — : «من كانَ عدوًّا لله وَملائكته ورُسُله وجبريلَ وميكال فإن الله عدوٌّ للكافرين» ، من أجل أن عدوَّ جبريل عدوٌّ كل وليّ لله . فأخبرهم جَل ثناؤه أن من كان عدوًّا لجبريل ، فهو لكل من ذكره — من ملائكته ورُسُله وميكال — عدوٌّ ، وكذلك عدوٌّ بعض رُسل الله، عدو لله ولكل وليّ . وقد : —

١٦٣٤ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا يحيى بن واضح قال ، حدثنا عبيد الله — يَعنى العَتَكى — ، عن رجل من قريش قال : سأل النبي صلى الله عليه وسلم اليهودَ

---

(١) هكذا فى المطبوعة : «من كان عدواً لله» ، وهو لا يستقيم ، وكأن الصواب «أن من كان عدواً لله ، عاداه وعادى جميع ملائكته ورسله» بإسقاط «من» من «من عاداه» .

فقال : أسألكم بكتابكم الذى تقرأون، هل تجدون به قد بَشَّر بى عيسى بن مريم أن يأتيكم رسولٌ اسمُه أحمد؟ فقالوا: اللهم وَجدنَاك فى كتابنا ، ولكنا كرِهنَاك لأنك تستحلُّ الأموال وتُهَرِيق الدِّماء. فأنزل الله : «من كان عدوًّا لله وملائكته» الآية .(١)

١٦٣٥ — حدثت عن عمار قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال : إن يَهوديًّا لقى عُمرَ فقال له : إن جبريلَ الذى يذكره صاحبك ، هو عدوٌّ لنا . فقال له عمر : من كان عدوًّا لله وملائكته ورُسله وجبريل وميكال فإن الله عدوٌّ للكافرين . قال: فنزلت على لسان عُمَر . ٣٤٩/١

* * *

وهذا الخبر يدلّ على أن الله أنزل هذه الآية توبيخاً لليهود فى كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وإخباراً منه لهم أنّ من كان عدوًّا لمحمد فالله له عدوّ ، وأن عدوَّ محمدٍ من الناس كلهم ، لمن الكافرين بالله ، الجاحدين آياته .

* * *

فإن قال قائل : أو ليس جبريل وميكائيل من الملائكة ؟

قيل : بلى .

فإن قال : فما مَعنى تكرير ذكرهما بأسمائهما ، وقد مضى ذكرهما فى الآية فى جُملة أسماء الملائكة ؟

قيل : معنى إفراد ذكرهما بأسمائهما ، أنّ اليهود لما قالت: «جبريل عدوُّنا ، وميكائيل وَليُّنا» — وزعمت أنها كفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم، من أجل أنّ

(١) الحديث : ١٦٣٤ — عبيد الله العتكى : هو عبيد الله بن عبد الله، أبو المنيب العتكى ، وهو ثقة، وثقه ابن معين وغيره. وذكره البخارى فى كتاب الضعفاء، ص : ٢٢ ، وقال : «عنده مناكير» . وقال ابن أبى حاتم ٢/٢/٣٢٢ ، فى ترجمته : «سمعت أبى يقول : هو صالح الحديث . وأنكر على البخارى إدخاله فى كتاب الضعفاء . وقال : «يحول» . ولكن هذا الحديث منقطع ضعيف الإسناد ، لأن أبا المنيب إنما يروى عن التابعين .

والخبر رواه الحاكم فى المستدرك ٢ : ٢٦٥، من طريق إسحق بن إبرهيم، عن جرير ، به . وصححه الذهبى فى مختصره . ونقله ابن كثير ١ : ٢٤٨ — ٢٤٩ ، عن الطبرى ، ثم أشار إلى رواية الحاكم .

جبريل صاحب محمد صلى الله عليه وسلم — أعلمهم الله أن من كان لجبريل عدوًّا ، فإنّ الله له عدوٌّ، وأنه من الكافرين . فنصّ عليه باسمه وعلى ميكائيل باسمه ، لئلا يقول منهم قائل : إنما قال الله : من كان عدوًّا لله وملائكته ورسله ، ولسنا لله ولا لملائكته ورسله أعداءً . لأن الملائكة اسم عام محتمل خاصًّا، وجبريل وميكائيل غير داخلين فيه. وكذلك قوله : « ورسله » ، فلستَ يا محمد داخلاً فيهم . فنص الله تعالى على أسماء من زعموا أنهم أعداؤه بأعيانهم ، ليقطع بذلك تلبيسهم على أهل الضعف منهم ، ويحسم تمويههم أمورَهم على المنافقين .

* * *

وأما إظهار اسم الله فى قوله : « فإن الله عَدُوٌّ للكافرين » ، وتكريره فيه — وقد ابتدأ أوّلَ الخبر بذكره فقال : « من كانَ عَدوًّا لله وملائكته » — فلئلا يلتبس لو ظهر ذلك بكناية ، فقيل : « فإنه عدوٌّ للكافرين » ، على سامعه ، مَن المعنىّ بـ« الهاء » التى فى « فإنه » : أألله ، أم رسل الله جل ثناؤه ، أم جبريل ، أم ميكائيل ؟ إذ لو جاء ذلك بكناية على ما وصفت ، فإنه يلتبس معنى ذلك على من لم يُوقَّف على المعنىّ بذلك ، لاحتمال الكلام ما وصفت . وقد كان بعض أهل العربية يوجّه ذلك إلى نحو قول الشاعر :[1]

لَيْتَ الغُرَابَ غَدَاةَ يَنْعَبُ دَائِمًا كَانَ الغُرَابُ مُقَطَّعَ الأَوْدَاجِ[2]

وأنّه إظهار الاسم الذى حظُّه الكنايةُ عنه . والأمر فى ذلك بخلاف ما قال . وذلك أن « الغراب » الثانى لوكان مُكَنًّى عنه ، لما التبس على أحد يعقل كلام العرب أنه كناية اسم «الغراب» الأول ، إذ كان لا شىء قبله يحتمل الكلامُ أن يوجَّه إليه

(١) هو جرير .

(٢) ديوانه ٨٩ ، وأمالى ابن الشجرى ١ : ٢٤٣ ، وغيرهما . ورواية ديوانه « ينعب بالنوى » ، وهو الجيد ، فإن قبله :

إنّ الغُرَابَ ، بمَا كرِهْتَ ، لمُولَعٌ بِنَوَى الأَحِبَّةِ دَائِمُ التَّشْحَاجِ

والأوداج جمع ودج : وهو عرق من عروق تكتنف الحلقوم .

غيرُ كناية اسم « الغراب » الأول — وأن قبل قوله : « فإنّ الله عدوٌّ للكافرين » أسماءٌ ، لو جاء اسم الله تعالى ذكره مكنيًّا عنه ، [1] لم يعلم مَنِ المقصودُ إليه بكناية الاسم ، إلا بتوقيف من حُجّة . فلذلك اختلف أمرَاهما .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « وَلقد أنزلنا إليك آيات » ، أى أنزلنا إليك يا محمد علاماتٍ واضحاتٍ دالاّتٍ على نُبوّتك : وتلك الآيات هى ما حَوَاه كتابُ الله الذى أنزله إلى محمد صلى الله عليه وسلم من خفايا علوم اليهود ومكنون سَرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل ، والنبأ عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلاأحبارُهم وعلماؤهم — وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدّلوه ، من أحكامهم التى كانت فى التوراة . فأطلعها الله فى كتابه الذى أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . [2] فكان ، فى ذلك من أمره ، الآياتُ البينات لمن أنصف نفسه ، ولم يدْعُه إلى إهلاكها الحسدُ والبغى . إذ كان فى فطرة كل ذى فِطرة صحيحة ، تصديقُ من أتى بمثل الذى أتى به محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات التى وصفتُ ، من غير تعلّم تعلّمه من بشر ، ولا أخذ شىء منه عن آدمىّ . وبنحو الذى قلنا فى ذلك روى الخبر عن ابن عباس . ١/٣٥٠

١٦٣٦ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر ابن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « ولقد أنزلنا إليك

---

(١) فى المطبوعة : « وإن قيل قوله فإن الله عدو للكافرين » اسما لو جاء . . . » والصواب ما أثبت . وقد رجم مصححو المطبوعة رجماً لا خير فيه فى تصحيح كلام الطبرى .

(٢) فى المطبوعة : « فأطلع الله فى كتابه . . . » وهو كلام لا يستقيم ، والصواب ما أثبت . يعنى فأظهر الله هذه الخفايا ، وتلك الأخبار ، وما حرفوه من الأحكام فى توراتهم .

آيات بيِّنات » يقول : فأنت تتلوه عليهم ، وتخبرُهم به غُدوةً وعشيةً وبين ذلك ، وأنتَ عندهم أميّ لم تقرأ كتاباً ، وأنت تخبرهم بما فى أيديهم على وَجهه . يقول الله : ففى ذلك لهم عبرة وَبيان ، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون .

١٦٣٧ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثنا ابن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت ، عن عكرمة مولى ابن عباس ، وعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال ابن صُوريا الفِطْيُونى لرسول الله صلى الله عليه وسلم :[1] يا محمد ما جئتنا بشىء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية بَينة فنتبعك بها ![2] فأنزل الله عز وجل : « ولقد أنزَلنا إليك آيات بَيِّنات وَما يَكفُرُ بها إلا الفاسقون » ![3]

١٦٣٨ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا يونس بن بكير قال ، حدثنا محمد بن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت قال ، حدثنى سعيد بن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال ابن صُوريا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر مثله.[3]

* * *

---

(١) فى المطبوعة « القطيونى » بالقاف ، وهو خطأ ، وهو من بنى ثعلبة بن الفطيون (بكسر الفاء وسكون الطاء ، وضم الياء) . قال السهيلى : « الفطيون : كلمة عبرانية تطلق على كل من ولى أمر اليهود وملكهم » . ورواية ابن جرير : « ابن صوريا » ، والذى فى سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٦ « ابن صلوبا الفطيونى » . وقد ذكر ابن هشام فيما روى من سيرة ابن إسحق ١ : ١٦٠ — ١٦١ « الأعداء من يهود » ، فعد فى بنى ثعلبة بن الفطيون : « عبد الله بن صوريا الأعور ، ولم يكن فى زمانه أحد أعلم بالتوراة منه ، وابن صلوبا ، ومخيريق . وكان حبرهم ، أسلم » ، ولم أستطع أن أرجح أهو : ابن صوريا ، أو — ابن صلوبا — الذى كان من أمره ما كان . ولعلهما روايتان مختلفتان عن ابن إسحق . وانظر أيضاً الأثر : ١٦٣٨ .

(٢) فى ابن هشام : « من آية فنتبعك لها ، فأنزل الله تعالى فى ذلك من قوله : « ولقد أنزلنا إليك... »

(٣) الأثران : ١٦٣٧ — ١٦٣٨ — فى سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٦ .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلاَّ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « وما يكفر بها إلاّ الفاسقون » ، وما يجحد بها . وقد دللنا فيما مضى من كتابنا هذا على أن معنى « الكفر » الجحود ، بما أغنى عن إعادته هنا،[1] وكذلك بينا معنى « الفِسْق » ، وأنه الخروج عن الشىء إلى غيره .[2]

* * *

فتأويل الآية : ولقد أنزلنا إليك، فيما أوحينا إليك من الكتاب ، علاماتٍ واضحاتٍ تبين لعلماء بنى إسرائيل وأحبارهم — الجاحدين نبوّتَك ، والمكذبين رِسَالتك — أنك لى رسولٌ إليهم ، ونبىٌّ مبعوث ، وما يجحدُ تلك الآيات= الدالاّت على صدقك ونبوتك ، التى أنزلتها إليك فى كتابى فيكذب بها منهم = إلا الخارجُ منهم من دينه ، التارك منهم فرائضى عليه فى الكتاب الذى يَدين بتصديقه . فأما المتمسّك منهم بدينه ، والمتّبع منهم حكم كتابه ، فإنه بالذى أنزلت إليك من آياتى مصدِّق وهم الذين كانوا آمنوا بالله وصدَّقوا رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم من يهود بنى إسرائيل .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ذكره ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٠٠)

قال أبو جعفر : اختلف أهل العربية فى حكم « الواو » التى فى قوله : « أوَ كلما عاهَدوا عَهداً » . فقال بعض نحويّى البصريين : هى « واو » تجعل مَع حروف الاستفهام ، وهى مثل « الفاء » فى قوله : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ [سورة البقرة ٨٧] ، قال : وهما زائدتان فى هذا الوجه ،

---

(١) انظر ما سلف ١ : ٢٥٥ ، ٣٨٢ ، ٥٥٢ ، وهذا الجزء ٢ : ١٤٠ ، ٣٣٧

(٢) انظر ما سلف ١ : ٤٠٩ — ٤١٠ ، وهذا الجزء ٢ : ١١٨

وهى مثل «الفاء» التى فى قوله «فالله لتصنعن كذا وكذا»[1]، وكقولك للرجل : «أفلا تقوم؟». وإن شئت جعلت «الفاء» «والواو» هاهنا حرفَ عَطْف.

وقال بعض نحويى الكوفيين : هى حرف عطف أدخل عليها حرف الاستفهام.

* * *

والصواب فى ذلك عندى من القول أنّها «واو» عطف، أدخلت عليها «ألف» الاستفهام، كأنه قال جل ثناؤه : وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور، خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا، قالوا : سمعنا وعصينا، وكلما عاهدُوا عهداً نبذه فريق منهم. ثم أدخل «ألف» الاستفهام على «وكلّما» فقال : قالوا سمعنا وعصينا، أوَكُلّما عاهدوا عهداً نبذه فريقٌ منهم.

٢٥١/١

وقد بيّنا فيما مضى أنه غيرُ جائز أن يكون فى كتاب الله حرف لا معنى له،[2] فأغنى ذلك عن إعادة البيان على فساد قول من زعم أن «الواو» و«الفاء» من قوله : «أوكلما» و«أفكلما» زائدتان لا معنى لهما.

* * *

وأما «العهد»، فإنه الميثاق الذى أعطته بنو إسرائيل ربّهم ليعمَلُنّ بما فى التوراة مرة بعد أخرى، ثم نقض بعضهم ذلك مرّة بعد أخرى. فوبّخهم جل ذكره بما كان منهم من ذلك، وعيّر به أبناءَهم، إذ سلكوا منهاجَهم فى بعض ما كان جل ذكره أخذَ عليهم بالإيمان به من أمر محمد صلى الله عليه وسلم من العهد والميثاق، فكفروا وجحدوا ما فى التوراة من نعته وصفته، فقال تعالى ذكره : أوكلما عاهد اليهودُ من بنى إسرائيل ربّهم عهداً، وأوثقوه ميثاقاً، نَبذه فريق منهم، فتركه ونقضه؟ كما : —

١٦٣٩ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا يونس بن بكير قال، حدثنا ابن إسحق قال، حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت قال، حدثنى سعيد بن جبير، أو عكرمة، عن ابن عباس قال : قال مالك بن الصيف — حين بعث

---

(١) لم أعلم ماذا أراد الطبرى بهذا.

(٢) انظر ما سلف ١ : ٤٣٩ — ٤٤١.

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر ما أخذ عليهم من الميثاق ، وما عهد الله إليهم فيه — : والله ما عهد إلينا فى محمد صلى الله عليه وسلم، وَما أخذ له علينا ميثاقاً! فأنزل الله جل ثناؤه : « أوَكلما َعاهَدوا َعهداً َنبذه فريقٌ منهم بلْ أكثرهم لا يؤمنون » .[١]

١٦٤٠ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال ، حدثنا محمد بن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت ، عن عكرمة مولى ابن عباس ، أو عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مثله .

* * *

قال أبو جعفر وأما « النَّبْذ » فإن أصله — فى كلام العرب — الطَّرْح ، ولذلك قيل للملقوط : « المنبُوذ »،[٢] لأنه مطروح مرمىٌّ به . ومنه سمي النبيذ « نبيذاً »، لأنه زبيب أو تَمْر يُطرح فى وعاء ، ثم يعالج بالماء . وأصله « مفعول » صرف إلى «فعيل» ، أعنى أن « النبيذ » أصله « منبوذ » ثم صرف إلى «فعيل» فقيل : « نبيذ »، كما قيل : «كف َخضيب، ولحية دَهين» — يعنى : مخضوبة ومدهونة .[٣] يقال منه : « نبذته أنبِذُه نَبْذاً » ، كما قال أبو الأسود الدؤلى :

نَظَرْتَ إلى عُنْوانِهِ ، فَنَبَذْتَهُ كَنَبْذِكَ نَعْلاً أخْلَقَتْ مِنْ نِعالِكا[٤]

* * *

فمعنى قوله جل ذكره : « َنبَذه فريقٌ منهم »، طرحه فريق منهم ، فتركه ورفَضه ونَقضه ، كما : —

---

(١) الأثر : ١٦٣٩ — فى سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٦ ، مع اختلاف يسير فى اللفظ . وقد ذكر ابن هشام فى ٢ : ١٦١ « مالك بن الصيف » وقال : « و يقال : ابن ضيف » .

(٢) فى تفسير ابن كثير ١ : ٢٤٧ : « وسمى اللقيط . . . » ، واللقيط أجود من الملقوط .

(٣) انظر ما سلف ١ : ١١٢ .

(٤) ديوانه : ٢١ (فى نفائس المخطوطات : ٢) ، وسيأتى فى ٢٠ : ٤٩ — ٥٠ (بولاق) ، ومجاز القرآن : ٤٨ ، من أبيات كتب بها إلى صديقه الحصين بن الحر ، وهو وال على ميسان ، وكان كتب إليه فى أمر يهمه ، فشغل عنه ؛ وقبل البيت :

وَخَبَّرنى مَنْ كُنتُ أرسلتُ أنَّما أخذتَ كِتابى مُعْرِضاً بِشِمَالِكا

١٦٤١ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « نبذَه فريقٌ منهم » يقول : نقضَه فريق منهم .

١٦٤٢ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قوله : « نَبذَهُ فريقٌ منهم »، قال: لم يكن فى الأرض عهدٌ يُعاهِدون عليه إلا نقَضوه، ويعاهدون اليومَ وينقضون غداً . قال : وفى قراءة عبد الله : « نقضه فريق منهم » .

* * *

و « الهاء » التى فى قوله: « نبذه »، من ذكر العهد. فمعناه أوَكلما عاهدوا عهداً نبذ ذلك العهدَ فريق منهم .

* * *

و « الفريق » : الجماعة ، لا واحدَ له من لفظه، بمنزلة « الجيش » و « الرهط » الذى لا واحد له من لفظه .[1]

* * *

و « الهاء والميم » اللتان فى قوله : « فريق منهم »، من ذكر اليهود من بنى إسرائيل .

* * *

وأما قوله : « بل أكثرُهم لا يؤمنون » فإنه يعنى جل ثناؤه : بل أكثر هؤلاء — الذين كلما عاهدُوا الله عهداً وواثقوه مَوثِقاً ، نقضه فريق منهم — لا يؤمنون .

* * *

ولذلك وَجهان من التأويل : أحدهما : أن يكون الكلام دلالةً على الزيادة والتكثير فى عدد المكذّبين الناقضين عهد الله ، على عدَد الفريق . فيكون الكلام حينئذ معناه : أوكلما عاهدتِ اليهود من بنى إسرائيل ربَّها عهداً نقضَ فريق منهم ذلك العهدَ ؟ لا — مَا ينقض ذلك فريقٌ منهم ، ولكن الذى ينقض ذلك فيكفرُ بالله ، أكثرهم ، لا القليل منهم . فهذا أحدُ وجهيه . ١ /٣٥٢

والوجه الآخر : أن يكون معناه : أوَكلّما عاهدت اليهود ربَّها عهداً، نبذ ذلك

(١) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٢٤٤ ، ٢٤٥

العهد فريقٌ منهم ؟ لا — ما ينبذ ذلك العهد فريق منهم فينقضُه = على الإيمان منهم بأنّ ذلكَ غير جائز لهم = ولكن أكثرهم لا يصدّقون بالله ورُسله ، ولا وعده ووعيده . وقد دللنا فيما مضى من كتابنا هذا معنى « الإيمان » ، وأنه التصديق .[1]

* * *

القول فى تأويل قوله جل ذكره ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠١)

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « ولما جاءهم » ، أحبارَ اليهود وعلماءَها من بنى إسرائيل — « رسول » ، يعنى بالرسول : محمداً صلى الله عليه وسلم كما : —

١٦٤٣ — حدثنى موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى فى قوله : « ولما جاءَهم رسُول » ، قال : لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

وأما قوله : « مصدق لما معهم » ، فإنه يعنى به أن محمداً صلى الله عليه وسلم يُصدّق التوراة والتوراة تصدقه ، فى أنه لله نبيٌّ مبعوث إلى خلقه .

* * *

وأما تأويل قوله : « ولما جاءَهم رسول من عند الله مصدق لما معهم » ، فإنه للذى هو مع اليهود ، وهو التوراة . فأخبر الله جل ثناؤه أن اليهودَ لما جاءهم رسول الله صلى الله عليه سلم من الله بتصديق ما فى أيديهم من التوراة ، أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم نبى لله ، « نبذ فريق » ، يَعنى بذلك : أنهم جحدوه ورفضوه بعد أن كانوا به مقرّين ، حسداً منهم له وبغياً عليه . وقوله : « من الذين أوتوا الكتاب » . وهم علماء اليهود الذين أعطاهم الله العلم بالتوراة وما فيها . ويعنى بقوله : « كتاب الله » ، التوراةَ .

---

(١) انظر ما سلف ١ : ٢٣٤ — ٢٣٥ ، ٢٧١ ، ٥٦٠ ، وهذا الجزء ٢ : ١٤٣ ، ٣٤٨

وقوله : « وَرَاءَ ظُهُورِهِم » ، [1] جعلوه وراء ظهورهم . وهذا مثل ، يقال لكل رافض أمراً كان منه على بَال : « قد جَعل فلان هذا الأمرَ منه بظَهْر ، وجعله وراء ظهره » ، يعنى به : أعرض عنه وصدّ وانصرف ، كما : —

١٦٤٤ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « ولما جاءهم رَسول من عند الله مصدقٌ لما معهم نَبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وَرَاءَ ظهورهم » ، قال : لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوه بالتوراة فخاصموه بها ، فاتفقت التوراة والقرآن ، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف ، وسحر هاروت وماروت . [2] فذلك قول الله : « كأنهم لا يعلمون » .

* * *

ومعنى قوله : « كأنهم لا يعلمون » ، كأن هؤلاء الذين نبذوا كتاب الله من علماء اليهود — فنقضوا عهد الله بتَركهم العمل بما وَاثقوا الله على أنفسهم العملَ بما فيه — لا يعلمون ما فى التوراة من الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه . وهذا من الله جل ثناؤه إخبارٌ عنهم أنهم جحدوا الحق على علم منهم به ومعرفة ، وأنهم عاندوا أمر الله فخالفوا على علم منهم بوجوبه عليهم ، كما : —

١٦٤٥ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب » ، يقول : نقض فريقٌ من الذين أوتوا الكتاب « كتابَ الله وَرَاءَ ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون » : أى أن القوم كانوا يعلمون ، ولكنهم أفسدوا علمهم ، وَجحدوا وكفروا وكتموا .

* * *

---

(١) فى المطبوعة : « وقوله نبذوه وراء ظهورهم » ، فحذفت « نبذوه » ، لأن الطبرى ساق الآية بتمامها ، وهذا لفظ مقحم فيها .

(٢) فى تفسير ابن كثير ١ : ٢٤٧ زيادة ، بعد قوله : « وماروت ، فلم يوافق القرآن ، فذلك قول الله » . وآصف : كان كاتب سليمان . وكان يعلم الاسم الأعظم ، وكان يكتب كل شىء بأمر سليمان . ويدفنه تحت كرسيه ، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين ، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً (ابن كثير ١ : ٢٤٨) .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله « واتبعوا ما تتلو الشياطين »، الفريقَ من أحبار اليهود وعلمائها ، الذين وصفهم جل ثناؤه بأنهم نبذوا كتابه الذى أنزله على موسى ، وراء ظهورهم ، تجاهلاً منهم وكفراً بما هم به عالمون ، كأنهم لا يعلمون . فأخبر عنهم أنهم رفضوا كتابه الذى يعلمون أنه منزّل من عنده على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ونقضوا عهدَه الذى أخذه عليهم فى العمل بما فيه ، وآثروا السحرَ الذى تلته الشياطين فى ملك سليمان بن داود فاتبعوه ، وذلك هو الخسار والضلال المبين . ٢٥٣/١

* * *

واختلف أهل التأويل فى الذين عنوا بقوله : « واتَّبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سُليمان » . فقال بعضهم : عنى الله بذلك اليهودَ الذين كانوا بين ظهرانى مُهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم خاصموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوراة ، فوجدوا التوراةَ للقرآن موافقةً ، تأمر من تباع محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه ، بمثل الذى يأمر به القرآن . فخاصموا بالكتب التى كانَ الناس اكتتبوها من الكهنة على عهد سليمان . ذكر من قال ذلك :

١٦٤٦ — حدثنى موسى بن هرون قال، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على مُلك سليمان » — على عَهد سليمان — قال : كانت الشياطين تصعد إلى السماء ، فتقعد منها مقاعد للسمع ، فيستمعون من كلام الملائكة فيما يكون فى الأرض من موت أو غيث أو أمر ،[1] فيأتون الكهنة فيخبرونهم ، فتحدّث الكهنة الناس ، فيجدونه كما قالوا . حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم فأدخلوا فيه غيره ، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة . فاكتتب

(١) فى تفسير ابن كثير ١ : ٢٤٩ : « ما يكون فى الأرض . . . أو غيب »

الناس ذلك الحديث فى الكتب ، وفشا فى بنى إسرائيل أن الجن تعلم الغيب . فبعث سليمان فى الناس فجمع تلك الكتب ، فجعلها فى صندوق ، ثم دفنها تحت كرسيه . ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسىّ إلاّ احترق ، وقال : لا أسمع أحداً يذكر أنّ الشياطين تعلم الغيب إلا ضربت عنقه ! فلما مات سليمان وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان ، وخلف بعد ذلك خَلْفٌ ، تمثل الشيطان فى صورة إنسان ، ثم أتى نفراً من بنى إسرائيل فقال : هل أدلكم على كنزٍ لا تأكلونه أبداً ؟[1] قالوا : نعم . قال : فاحفروا تحت الكرسىّ . وذهب معهم فأراهم المكان، وقام ناحية.[2] فقالوا له : فادْنُ ! قال : لا، ولكننى ها هنا فى أيديكم ، فإن لم تجدوه فاقتلونى ! فحفروا فوجدوا تلك الكتب . فلما أخرجوها قال الشيطان : إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر . ثم طار فذهب. وفشا فى الناس أن سليمان كان ساحراً ، واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب ، فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم خاصموه بها ، فذلك حين يقول : « وَمَا كفرَ سُليمان ولكن الشياطين كفروا يُعلّمونَ الناس السحر » .[3]

١٦٤٧ — حدثت عن عمار بن الحسن قال، حدثنا ابن أبى جعفر، عن أبيه، عن الربيع فى قوله : « واتبعوا ما تتلوا الشياطينُ على مُلك سُليمان »، قالوا : إنّ اليهودَ سألوا محمداً صلى الله عليه وسلم زماناً عن أمور من التوراة ، لا يسألونه عن شىء من ذلك إلا أنزل الله عليه ما سألوا عنه ، فيخصِمهم .[4] فلما رأوا ذلك قالوا : هذا أعلم بما أنزل إلينا منّا ! وأنّهم سألوه عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله جل وعز : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على مُلك سُليمان وما كفر سُليمان ولكنّ الشياطين كفروا يُعلّمون الناسَ السحر » . وإن الشياطين عمدوا إلى كتاب فكتبوا فيه السحر

---

(١) لا تأكلونه : أى لا تنفدونه أبداً . يقال : أكل فلان عمره : إذا أفناه .

(٢) فى المطبوعة : « فقام » ، والصواب ما أثبته من تفسير ابن كثير .

(٣) الأثر : ١٦٤٦ — فى تفسير ابن كثير ١ : ٢٤٩ .

(٤) خاصمنى فخصمته أخصمه : غلبته بالحجة فى خصومتى .

والكهانة وما شاء الله من ذلك، فدفنوه تحت مجلس سليمان -[1] وكان سليمان لا يعلم الغيب . فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا به الناس ، وقالوا : هذا علمٌ كان سليمان يكتمه ويحسُد الناس عليه! فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث ، فرجعوا من عنده وقد حَزِنوا ، وأدحض الله حجتهم .[2] ٣٥٤/١

١٦٤٨ - حدثني يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد في قوله : «واتبعوا مَا تتلوا الشياطينُ على مُلك سليمان » ، قال : لما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدِّقاً لما معهم ، « نَبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب» الآية ، قال : اتَّبعوا السحر ، وهم أهل الكتاب . فقرأ حتى بلغ « ولكن الشياطين كفروا يعلِّمون الناسَ السحر » .

* * *

وقال آخرون : بل عنى الله بذلك اليهودَ الذين كانوا على عَهد سليمان .

* ذكر من قال ذلك :

١٦٤٩ - حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج قال ، قال ابن جريج : تلت الشياطين السِّحر على اليهود على ملك سليمان ، فاتبعته اليهود على ملكه ، يعني : اتبعوا السحر على ملك سليمان .

١٦٥٠ - حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة قال ، حدثني ابن إسحق قال : عمدت الشياطين حين عرفت موتَ سليمان بن داود عليه السلام ، فكتبوا أصنافَ السحر : «مَنْ كان يحبّ أن يبلغ كذا وكذا فليفعل كذا وكذا» . حتى إذا صنعوا أصناف السحر ،[3] جعلوه في كتاب ثم ختموا عليه بخاتم على نقش خاتم سليمان ، وكتبوا في عنوانه : « هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم » ، ثم دفنوه تحت كرسيه . فاستخرجته بعد ذلك بقايا بني إسرائيل حين أحدثوا ما أحدثوا ، فلما عثروا عليه قالوا : ما كان سليمان

(١) في تفسير ابن كثير : « تحت كرسي مجلس سليمان » .

(٢) الأثر : ١٦٤٧ - في تفسير ابن كثير ١ : ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٣) في تفسير ابن كثير : « صنفوا أصناف السحر » . وهي أجود .

ابن داود إلا بهذا ! فأفشوا السحر فى الناس وتعلموه وعلموه، فليس فى أحد أكثر منه فى يهود . فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما نزل عليه من الله، سليمانَ بن داود وعدَّه فيمن عدَّه من المرسلين ، قال من كان بالمدينة من يَهود : ألا تعجبون لمحمد ![1] يزعم أن سليمان بن داود كان نبيًّا ! والله ما كان إلا ساحراً ! فأنزل الله فى ذلك من قولهم على محمد صلى الله عليه وسلم : « واتّبعوا ما تتلوا الشياطين عَلى مُلك سُليمان وما كفرَ سُليمانُ ولكن الشياطين كفروا .[2]

قال : كان حينَ ذهب مُلكُ سُليمان ، ارتدّ فِئامٌ من الجن والإنس واتبعوا الشهوات ،[3] فلما رَجع اللهُ إلى سليمانَ ملكه، قام الناس على الدين كما كانوا . وأن سليمان ظَهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه، وتوفى سليمان حِدْثانَ ذلك،[4] فظهرت الجن والإنس على الكتب بعد وفاة سليمان ، وقالوا : هذا كتاب من الله نَزل على سليمان أخفاه منا ! فأخذوا به فجعلوه به ديناً . فأنزل الله: « ولما جاءَهم رَسولٌ من عند الله مصدق لما مَعهم نَبذَ فَريقٌ من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وَراء ظُهورهم كأنهم لا يعلمون ، واتبعوا ما تَتلوا الشياطين » ، وهى المعازف واللعِب ، وكل شىء يصدّ عن ذكر الله

* * *

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى تأويل قوله : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سُليمان »، أن ذلك توبيخ من الله لأحبار اليهود الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجحدوا نبوته ، وهم يعلمون أنه لله رسولٌ مرسلٌ ؛ وتأنيب منهُ لهم فى رفضهم تنزيله ، وهجرهم العملَ به ، وهو فى أيديهم يعلمونه ويعرفون

---

(١) فى المطبوعة : « لمحمد صلى الله عليه وسلم » ، والذى أثبته مقتضى سياق كلامهم .

(٢) إلى هنا انتهى ما نقله ابن كثير فى تفسيره عن أبى جعفر ١ : ٢٥٠ ، أما سائر الخبر ، فإنه رواه فى ١ : ٢٤٧ ، وصدره بقوله : « وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس فى قوله تعالى : «واتبعوا ما تتلو الشياطين » الآية — وكان حين ذهب ملك سليمان . . . » ، وساق الخبر بنصه هذا . فلست أدرى أفى نسخ الطبرى سقط ، أم هذه جزء من رواية الطبرى عن ابن إسحق من حديث ابن عباس .

(٣) الفئام : الجماعة من الناس ، لا واحد له من لفظه .

(٤) حدثان الشىء (بكسر فسكون) : أوله وابتداؤه وقرب العهد به . وهو منصوب على الظرفية .

أنه كتابُ الله ، واتباعِهم واتباعِ أوائلهم وأسلافهم ما تلته الشياطين فى عهد سليمان . وقد بينا وجه جواز إضافة أفعال أسلافهم إليهم فيما مضى ، فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا الموضع .[1]

* * *

وإنما اخترنا هذا التأويل ، لأن المتَّبعة ما تلته الشياطين ، فى عهد سليمان وبعده إلى أن بعث الله نبيه بالحق ، وأمر السحر لم يزل فى اليهود . ولا دلالة فى الآية أنّ الله تعالى أراد بقوله : « واتبعوا » بعضاً منهم دون بعض . إذْ كان جائزاً ٣٠٥/١ فصيحاً فى كلام العرب إضافة ما وصفنا — من اتباع أسلافِ المخبر عنهم بقوله : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين » — إلى أخلافهم بعدهم ، ولم يكن بخصوص ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أثرٌ منقول ، ولا حجة تدلُّ عليه . فكان الواجب من القول فى ذلك أن يقال : كل متبع ما تلته الشياطين على عهد سليمان من اليهود ، داخلٌ فى معنى الآية ، على النحو الذى قلنا .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ذكره ﴿ مَا تَتْلُواْ الشَّيَٰطِينُ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « ما تتلو الشياطين » ، الذى تتلو . فتأويل الكلام إذاً : اتبعوا الذى تتلو الشياطين .

* * *

واختُلف فى تأويل قوله : «تتلو» . فقال بعضهم : يعنى بقوله : «تتلو» ، تُحدِّث وتروى ، وتتكلم به وتخبر . نحو « تِلاوة » الرجل للقرآن ، وهى قراءته . ووجّه قائلو هذا القول تأويلهم ذلك ، إلى أن الشياطين هى التى علّمت الناس السحر وروته لهم . ذكر من قال ذلك :

١٦٥١ — حدثنى المثنى بن إبراهيم قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن عمرو ، عن مجاهد فى قول الله : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سُليمان » ، قال : كانت الشياطين تسمعَ الوحى ، فما سمعوا من كلمة زادوا فيها

(١) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٣٨ — ٣٩

مئتين مثلها . فأرسَل سليمانُ إلى ما كتبوا من ذلك فجمعه . فلما تُوفّى سليمان وجدته الشياطين ، فعلّمته الناس ، وهو السحر.[1]

١٦٥٢ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سليمان » من الكهانة والسحر . وُذكر لنا، والله أعلم، أن الشياطين ابتدعت كتاباً فيه سحْر وأمرٌ عظيم، ثم أفشوْه فى الناس وعلّموهم إيّاه .

١٦٥٣ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال،حدثنى حجاج، عن ابن جريج قال،قال عطاء: قوله: «واتبعوا ما تتلو الشياطين»، قال : نراه: ما تُحدّث.

١٦٥٤ — حدثنى سَلْم بن ُجنادة السُّوائى قال : حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : انطلقت الشياطين فى الأيام التى ابتُلى فيها سليمان ، فكتبت فيها كتباً فيها سحرٌ وكفر ، ثم دفنوها تحت كرسىّ سليمان ، ثم أخرجوها فقرأوها على الناس .[2]

* * *

وقال آخرون : معنى قوله: «ما تتلو»، ما تتبعه وترويه وتعمل به * ذكر من قال ذلك :

١٦٥٥ — حدثنا الحسن بن عمرو العنقزىّ، قال، حدثنى أبى ، عن أسباط ، عن السدى ، عن أبى مالك ، عن ابن عباس : « تتلو » ،قال : تتبع .[3]

١٦٥٦ — حدثنى نصر بن عبد الرحمن الأزدى قال ، حدثنا يحيى بن إبراهيم ، عن سفيان الثورى ، عن منصور ، عن أبى رزين ، مثله .[4]

* * *

---

(١) الأثر : ١٦٥١ — فى تفسير ابن كثير ١ : ٢٥٠ .

(٢) الأثر : ١٦٥٤ — كان فى المطبوعة : « سالم بن جنادة » ، وهو خطأ ، وانظر التعليق على الأثر رقم : ٤٨ فى الجزء الأول . وهو جزء من خبر سيأتى برقم : ١٦٦٠ .

(٣) الأثر : ١٦٥٥ — فى المطبوعة « العبقرى» ، وهو خطأ ، وانظر التعليق على الأثر رقم : ١٦٢٥ .

(٤) الأثر : ١٦٥٦ — فى المطبوعة « نصر بن عبد الرحمن الأودى » ، وهو خطأ وانظر التعليق على الأثر : ٤٢٣ فى الجزء الأول .

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله عز وجل أخبر عن الذين أخبر عنهم أنهم اتّبعوا ما تتلو الشياطين على عهد سليمان ، باتباعهم ما تلته الشياطين .

* * *

ولقول القائل : « هو يتلو كذا » فى كلام العرب معنيان . أحدهما : الاتّباع ، كما يقال : « تلوتُ فلاناً » إذا مشيتَ خلفه وتبعتَ أثره ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ هُنَالِكَ تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾ [سورة يونس : ٣٠] ، [1] يعنى بذلك تتّبع .
والآخر : القراءةُ والدراسة ، كما تقول : « فلان يتلو القرآن » ، بمعنى : أنه يقرؤه ويدرسه ، كما قال حسان بن ثابت :

نَبِيٌّ يَرَى مَالاَ يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ وَيَتْلُو كِتَابَ اللهِ فِى كُلِّ مَشْهَدِ [2]

ولم يخبرنا الله جلّ ثناؤه — بأىّ معنى « التلاوة » كانت تلاوة الشياطين الذين تلوْا ما تلوه من السحر على عهد سليمان — بخبرٍ يقطعُ العذر . وقد يجوز أن تكون الشياطين تلت ذلك دراسة ورواية وعملاً ، فتكون كانت متّبعته بالعمل ، ودارسته بالرواية . فاتبعت اليهود منهاجها فى ذلك ، وعملت به ، وروته . [3] ٣٥٦/١

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « على مُلك سليمان » ، فى ملك سليمان . وذلك أن العرب تضع « فى » موضع « على » ، و « على » فى موضع « فى » . [4] من ذلك

---

(١) « هنالك تتلو » إحدى القراءتين ، والأخرى « هنالك تبلو » ، وهى التى فى مصاحفنا اليوم . وقال أبو جعفر فى تفسيره ١١ : ٧٩ « إنهما قراءتان مشهورتان ، قد قرأ بكل منهما أئمة من القراء » .

(٢) ديوانه : ٨٨ ، من أبيات قالها حسان فى خبر أم معبد ، حين خرج رسول الله مهاجراً إلى المدينة . ورواية الديوان : « فى كل مسجد » ، ورواية الطبرى أمثل .

(٣) كان ينبغى أن يكون فى هذا المكان تفسير قوله « ما تتلو » الذى سيأتى فى : ٤١٨

(٤) انظر ما سلف ١ : ٢٩٩ .

قول الله جل ثناؤه : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ [سورة طه : ٧١] يعنى به : على جذوع النخل ، وكما قالوا : « فعلت كذا فى عهد كذا ، وعلى عهد كذا »، بمعنى واحد .[1] وبما قلنا من ذلك كان ابن جريج وابن إسحق ، يقولان فى تأويله :

١٦٥٧ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج قال ، قال ابن جريج : « على ملك سليمان »، يقول : فى ملك سليمان .

١٦٥٨ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال ، قال ابن إسحق فى قوله : « على ملك سليمان »، أى : فى ملك سليمان .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾

قال أبو جعفر : إنْ قال لنا قائل : وما هذا الكلام ، من قوله : « واتبعوا ما تتلو الشياطينُ على مُلك سُليمان »،[2] ولا خبرَ معنا قبلُ عن أحد أنه أضافَ الكفرَ إلى سليمان ، بل إنما ذكر اتباع من اتبع من اليهود ما تلته الشياطين ؟ فما وجه نفى الكفر عن سليمان ، بعقِب الخبر عن اتباع من اتبعت الشياطينَ فى العمل بالسحر وروايته من اليهود ؟

قيل : وجهُ ذلك ، أن الذين أضاف الله جل ثناؤه إليهم اتباعَ ما تلته الشياطين على عهد سليمان من السحر والكفر من اليهود ، نسبوا ما أضافه الله تعالى ذكره إلى

---

(١) فى المطبوعة : « وكما قال : فعلت كذا . . . » ، ولا يستقيم إلا على تمريض .

(٢) قوله : « وما هذا الكلام » الإشارة فيه إلى الآية التى يؤولها : « وما كفر سليمان » يقولون : ما مكان هذا الكلام — من هذا الكلام وهو قوله : « واتبعوا ما تتلو الشياطين » .

الشياطين من ذلك ، إلى سليمان بن داود . وزعموا أن ذلك كان من علمه وروايته ، وأنه إنما كان يستعبد من يستعبد من الإنس والجن والشياطين وسائر خلق الله بالسحر . فحسَّنوا بذلك — من ركوبهم ما حرَّم الله عليهم من السحر — أنفسَهم ،[1] عند من كان جاهلاً بأمر الله ونهيه ، وعند من كان لا علم له بما أنزل الله فى ذلك من التوراة . وتبرَّأ بإضافة ذلك إلى سليمان — من سليمان ، وهو نبى الله صلى الله عليه وسلم — منهم بشرٌ ،[2] وأنكروا أن يكون كانَ لله رسولاً ، وقالوا : بل كان ساحراً! فبرَّأ الله سليمان بن داود من السحر والكفر عند من كان منهم ينسُبه إلى السحر والكفر = لأسباب ادَّعوها عليه قد ذكرنا بعضها ، وسنذكر باقى ما حضرنا ذكرُه منها = ، وأكذبَ الآخرين الذين كانوا يعملون بالسحر متزيِّنين عند أهل الجهل فى عملهم ذلك ، بأن سليمان كان يعمله . فنفى الله عن سليمان عليه السلام أن يكون كانَ ساحراً أو كافراً ، وأعلمهم أنهم إنَّما اتبعوا — فى عملهم بالسحر — ما تلته الشياطين فى عهد سليمان ، دون ما كان سليمان يأمرُهم من طاعة الله ، واتباع ما أمرهم به فى كتابه الذى أنزله على موسى صلوات الله عليه .

* * *

ذكر الدلائل على صحة ما قلناه من الأخبار والآثار :

* * *

١٦٥٩ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا يعقوب القمى ، عن جعفر بن أبى المغيرة ، عن سعيد بن جبير قال : كان سليمان يتتبع ما فى أيدى الشياطين من السحر ، فيأخذه فيدفنه تحت كرسيه فى بيت خزانته . فلم تقدر الشياطين أن يصلوا إليه ، فدنت إلى الإنس فقالوا لهم : أتريدون العلم الذى كان سليمان يسخّر به الشياطين والرياح وغير ذلك ؟ قالوا : نعم . قالوا : فإنه فى بيت خزانته وتحت كرسيه . فاستثارته الإنس فاستخرجوه فعملوا به . فقال أهل الحجاز : كان سليمان

---

(١) فى المطبوعة « لأنفسهم » ، والصواب إسقاط هذه اللام ، كما يدل عليه السياق .

(٢) سياق العبارة : « وتبرأ . . . من سليمان . . . منهم بشر » . ولعل « بشر » هذه « نفر » ، أى جماعة . يقول : تبرأت جماعة أخرى من سليمان ، إذ نسب إلى السحر ، وكفروه .

يعمل بهذا ، وهذا سحر ! فأنزل الله جل ثناؤه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم َبراءةَ سليمان . فقال : « واتَّبعوا َما َتتلو الشياطين َعلى ُملك سليمانَ » الآية ، فأنزل الله براءة سليمان على لسان نبيه عليهما السلام .[1]

٣٥٧/١

١٦٦٠ — حدثني أبو السائب السوائي قال، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : كان الذي أصاب سليمان ابن داود ، في َسبَب أناس من أهل امرأة يقال لها َجرَادة ، وكانت من أكرم نسائه عليه . قال : فكان َهوى سليمان أن يكون الحق لأهل الجرَادة فيقضي لهم ، فعُوقب حين لم يكن َهواهُ فيهم واحداً . قال : وكان سليمان بن داود إذا أراد أن يدُخل الخلاء ، أو يأتي شيئاً من نسائه ، أعطى الجرادة خاتمه . فلما أراد الله أن يبتلي سليمان بالذي ابتلاه به ، أعطى الجرادةَ ذات يوم خاتمه ، فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي ! فأخذه فلبسه . فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس . قال : فجاءها سليمان فقال : هاتي خاتمي ! فقالت : كذبتَ ، لست بسليمان ! قال : فعرف سليمان أنه بلاء ابتلي به . قال : فانطلقت الشياطين فكتبت في تلك الأيام كتباً فيها سحر وكفر ، ثم دفنوها تحت كرسيّ سليمان ، ثم أخرجوها فقرأوها على الناس وقالوا : إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب ! قال : فبرئ الناس من سليمان وأكفروه ، حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فأنزل جل ثناؤه : « واتبعوا ما َتتلو الشياطينُ على ملك ُسليمان » — يعني الذي كتب الشياطين من السحر والكفر — « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » ، فأنزل الله جل وعز ُعذرَه .[2]

١٦٦١ — حدثني محمد بن عبد الأعلى الصنعاني قال ، حدثنا المعتمر بن سليمان قال ، سمعت عمران بن ُحدَير ، عن أبي مجلز قال : أخذ سليمان من كل

---

(١) الأثر : ١٦٥٩ — في تفسير ابن كثير ١ : ٢٥٠ .

(٢) الأثر : ١٦٦٠ — انظر الأثر السالف : ١٦٥٤ والتعليق عليه .

دابة عهداً، فإذا أصيبَ رجلٌ فسأل بذلك العهد ، خُلِّي عنه . فرأى الناس السَّجع والسحر ، وقالوا : هذا كان يعمل به سليمان ! فقال الله جل ثناؤه : « وما كفرَ سُليمان ولكنّ الشياطين كفروا يعلِّمون الناس السحر » . [(١)]

١٦٦٢ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا جرير ، عن حصين بن عبد الرحمن، عن عمران بن الحارث قال : بينا نحن عند ابن عباس، إذ جاءه رجل فقال له ابن عباس : مِنْ أين جئت ؟ قال : من العراق . قال : من أيِّه ؟ قال : من الكوفة . قال : فما الخبر ؟ قال : تركتُهم يتحدثون أنّ عليًّا خارجٌ إليهم ! ففزع فقال : ما تقول ؟ لا أبالك ! لو شعرنا ما نكحنا نساءه ، ولاقسمنا ميراثه ! أما إني أحدِّثكم من ذلك : إنه كانت الشياطين يَسترِقون السمعَ من السماء ، فيأتي أحدهم بكلمة حق قد سمعها ، فإذا حَدَّثَ منه صَدَق ، [(٢)] كذب معها سبعين كذبة . قال : فتُشرَبها قلوبُ الناس . فأطلع الله عليها سليمان ، فدفنها تحت كرسيه ، فلما توفى سليمان ابن داود قام شيطانٌ بالطريق فقال : ألا أدلكم على كنزه الممنَّع الذي لا كنز مثله؟ تحت الكرسي ! فأخرجوه ، فقالوا : هذا سحر ! فتناسخها الأمم — حتى بَقاياهم ما يتحدث به أهلُ العراق — . [(٣)] فأنزل الله عُذر سليمان : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سليمان وما كفر سُليمان ولكنّ الشياطين كفروا يعلمون الناسَ السحر ». [(٤)]

١٦٦٣ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال : ذُكر لنا ، والله أعلم ، أن الشياطين ابتدعت كتاباً فيه سحرٌ وأمر عظيم، ثم أفشوه في الناس وَعلَّمُوهم إياه . [(٥)] فلما سمع بذلك سليمان نبي الله صلى

(١) الأثر : ١٦٦١ — في تفسير ابن كثير ١ : ٢٥١ ، وفيه « فزاد الناس »... مكان « فرأى » والصواب ما في الطبرى .

(٢) في تفسير ابن كثير : « فإذا جرت منه وصدق » ، ولعلها تصحيف .

(٣) في تفسير ابن كثير : « حتى بقاياها » .

(٤) الأثر : ١٦٦٢ — في تفسير ابن كثير ١ : ٢٤٨ — ٢٤٩ ، مع اختلاف في بعض اللفظ غير الذي أثبته .

(٥) في المطبوعة : « وأعلموهم إياه »، وقد مضى في رقم : ١٦٥٢ ، « وعلموهم »، وكذلك أثبتها هنا .

الله عليه وسلم ، تتبع تلك الكتب فأتى بها فدفنها تحت كرسيه ،[١] كراهيةَ أن يتعلمها الناس . فلما قبض الله نبيّه سليمان ، عمدت الشياطين فاستخرجوها من مكانها الذى كانت فيه ، فعلّموها الناس ، فأخبروهم أنّ هذا علم كان يكتمه سليمان ويستأثر به . فعذر الله نبيه سليمان وبرّأه من ذلك، فقال جل ثناؤه : « وما كفرَ سُليمان ولكن الشياطين كفروا » .

١/٣٥٨

١٦٦٤ — حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ،عن قتادة قال : كتبت الشياطين كتباً فيها سحر وشِرْك، ثم دفنت تلك الكتب تحت كرسىّ سليمان . فلما مات سليمان استخرجَ الناس تلك الكتب ، فقالوا : هذا علم كتمناهُ سليمان ! فقال الله جل وعز : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سليمان وما كفرَ سليمان ولكنّ الشياطين كفروا يُعلّمون الناسَ السّحر » .

١٦٦٥ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد قوله : « واتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سليمان »، قال : كانت الشياطين تستمع الوحىَ من السماء ، فما سمعوا من كلمة زادوا فيها مثلَها ، وإن سُليمان أخذ ما كتبوا من ذلك فدفنه تحت كرسيه ، فلما توفى وجدته الشياطين فعلّمته الناسَ .[٢]

١٦٦٦ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن أبى بكر ، عن شهر بن حوشب قال: لما سُلِب سليمان مُلكه ، كانت الشياطين تكتُب السحرَ فى غيبة سليمان . فكتبت : « من أراد أن يأتى كذا وكذا ، فليستقبل الشمسَ وليقل كذا وكذا ، ومن أراد أن يفعل كذا وكذا ، فليستدبر الشمس وليقل كذا وكذا » . فكتبته وجعلت عنوانه : « هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان

---

(١) فى المطبوعة : « فتتبع تلك الكتب » بزيادة الفاء ، ولا موضع لها .

(٢) الأثر : ١٦٦٥ — كان فى المطبوعة : « حدثنا القاسم قال حدثنا حجاج » أسقط منه « قال حدثنا الحسين » ، وهو إسناد دائر فى الطبرى ، أقربه إلينا رقم : ١٦٥٧ ، وسيأتى فى الذى يلى .

ابن داود من ذخائر كنوز العلم » ، ثم دفنته تحت كرسيه . فلما مات سليمان ، قام إبليس خطيباً فقال : يا أيها الناس، إنّ سليمان لم يكن نبيًّا ، وإنما كان ساحراً، فالتمسوا سحره فى متاعه وبُيوته . ثم دلَّهم على المكان الذى دُفن فيه . فقالوا : والله لقد كان سليمان ساحراً ! هذا سحره ! بهذا تعبَّدنا، وبهذا قهرنا ! فقال المؤمنون : بل كان نبيًّا مؤمناً ! فلما بعث الله النبي محمداً صلى الله عليه وسلم، جعل يَذكر الأنبياء، حتى ذكر داود وسليمان ، فقالت اليهود: انظروا إلى محمد ! يخلط الحق بالباطل ! يَذكرُ سليمان مع الأنبياء ، وإنما كان ساحراً يركب الريح ! فأنزل الله عُذر سليمان : « واتَّبعوا ما تتلو الشياطين على مُلك سليمان » الآية .[1]

١٦٦٧ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال ، حدثنى ابن إسحق : « وما كفرَ سُليمان ولكنّ الشياطينَ كفروا يعلّمون الناسَ السحر » . وذلك أن رسول الله عليه وسلم — فيما بلغنى — لما ذكر سُليمانَ بن داود فى المرسلين ، قال بعض أحبار اليهود : ألا تعجبون من محمد ! يزعم أن ابن داودَ كان نبيًّا ! والله ما كان إلا ساحراً ! فأنزل الله فى ذلك من قولهم : « وما كفر سُليمان ولكنّ الشياطين كفروا » ، — أى : باتباعهم السحرَ وعَملهم به — « وَما أنزل عَلى الملَكَين ببابلَ هاروتَ وماروتَ » .[2]

* * *

قال أبو جعفر : فإذْ كان الأمر فى ذلك على وصفنا = وتأويلُ قوله : « واتبعوا ما تَتلو الشياطين على مُلك سليمان وما كفر سليمانُ ولكن الشياطينَ كفرُوا » ما ذكرنا = فَبَيِّنٌ أن فى الكلام متروكاً،[3] ترك ذكره اكتفاءً بما ذكر منه، وأن معنى الكلام : واتبعوا ما تتلو الشياطين من السحر على ملك سليمان ، فتُضيفه إلى سليمان ، وما كفر سليمان ، فيعمل بالسحر ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس

(١) الأثر : ١٦٦٦ — فى تفسير ابن كثير ١ : ٢٥١ .

(٢) الأثر : ١٦٦٧ — سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٢ — ١٩٣

(٣) فى المطبوعة : « فتبين » وما أثبت أشبه بعبارة الطبرى .

السحر . وقد كان قتادة يتأول قوله : « وما كفر سُليمان ولكن الشياطينَ كفروا » على ما قلنا .

١٦٦٨ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « وما كفر سُليمان ولكن الشياطينَ كفروا » ، يقول : ما كان عن مشورته ولا عن رضا منه ، ولكنه شيء افتعلته الشياطين دُونه .

* * *

وقد دللنا فيما مضى على اختلافِ المختلفين فى معنى « تتلو » ، [1] وتوجيه من وجّه ذلك إلى أن « تتلو » بمعنى « تلَت » ، إذ كان الذى قبله خبراً ماضياً ، وهو قوله : « واتبعوا » ، وتوجيهَ الذين وجهوا ذلك إلى خلاف ذلك . وبيَّنا فيه وفى نظيره الصوابَ من القول ، [2] فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا الموضع . ٢٥٩/١

* * *

وأما معنى قوله : « مَا تتلو » ، فإنه بمعنى : الذى تتلو ، وهو السحر . [3]

١٦٦٩ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة ، عن ابن إسحق : و« اتّبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان » ، أى السحر . [4]

* * *

قال أبو جعفر : ولعلَّ قائلاً أن يقول : أوَما كان السحر إلاّ أيام سليمان ؟

قيل له : بلى ، قد كان ذلك قبل ذلك ، وقد أخبر الله عن سَحَرة فرعون ما أخبر عنهم ، وقد كانوا قبل سُليمان ، وأخبر عن قوم نوح أنهم قالوا لنوح إنه ساحر .

[فإن] قال : فكيف أخبَر عن اليهود أنّهم اتبعوا ما تلَتْه الشياطين على عهد سليمان ؟

---

(١) انظر ما سلف قريباً : ٤١١

(٢) قوله : « وتوجيه من وجه ذلك أن : تتلو — بمعنى : تلت » لم يأت هنا فى تفسير الآية ، بل جاء فى تفسير آية مضت من سورة البقرة : ٩١ ، ص ٣٥٠ — ٣٥٢

(٣) هذه الفقرة ، والأخرى التى قبلها ، والأثر الآتى رقم : ١٦٦٩ ، كان أولى أن تكون فى آخر تفسير قوله : « ما تتلو الشياطين » فيما مضى : ٤١١

(٤) الأثر : ١٦٦٩ — سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٢ .

قيل : لأنهم أضافوا ذلك إلى سليمان، على ما قد قدمنا البيان عنه . فأراد الله تعالى ذكره تبرئة سليمان مما نحلوه وأضافوا إليه، مما كانوا وجدوه ، إما فى خزائنه ، وإما تحت كرسيه ، على ما جاءت به الآثار التى قد ذكرناها من ذلك . فحصر الخبر عما كانت اليهود اتبعته ، فيما تلته الشياطين أيام سليمان دون غيره لذلك السبب ، وإن كانت الشياطين قد كانت تالية للسحر والكفر قبل ذلك .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَآ أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل العلم فى تأويل « ما » التى فى قوله : « وما أنزل على الملكين » . فقال بعضهم : معناه الجحد ، وهى بمعنى « لم » . ذكر من قال ذلك :

١٦٧٠ — حدثنى محمد بن سعد قال، حدثنى أبى قال ، حدثنى عمى قال ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله : « وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت » ، فإنه يقول : لم ينزل الله السحر .

١٦٧١ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنى حكام ، عن أبى جعفر ، عن الربيع ابن أنس : « وما أنزل على الملكين » ، قال : ما أنزل الله عليهما السحر .

* * *

فتأويل الآية — على هذا المعنى الذى ذكرناه عن ابن عباس والربيع ، من توجيههما معنى قوله : « وما أنزل على الملكين » إلى : ولم ينزل على الملكين — : واتبعوا الذى تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر ، وما كفر سليمان ، ولا أنزل الله السحر على الملكين = ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر = « ببابل، هاروت وماروت» . فيكون حينئذ قوله : « ببابل هاروت وماروت » ، من المؤخر الذى معناه التقديم .

* * *

فإن قال قائل : وكيف — وجهُ تقديم ذلك ؟

قيل : وجه تقديمه أن يقال : واتَّبعوا ما تَتلو الشياطين على ملك سُليمان [من السحر] ، وَما أنزل [الله السحر] على الملكين ، ولكنّ الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل ، هاروت وماروتَ — فيكون معنيًّا بـ « الملكين » : جبريل وميكائيل ، لأن سَحَرَة اليهود ، فيما ذُكر ، كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود ، فأكذبها الله بذلك، وأخبر نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر قط ، وبرّأ سليمان مما نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عَمَل الشياطين ،وأنها تُعلِّم الناس [ذلك] ببابل، وأن اللذين يعلّمانهم ذلك رجلان :[1] اسم أحدهما هاروت، واسم الآخر مارُوت. فيكون «هاروت وماروت»، على هذا التأويل، ترجمةً على «الناس» وردًّا عليهم.[2]

* * *

وقال آخرون : بل تأويل « ما » التي في قوله : « وما أنزل على الملكين » — « الذي » * ذكر من قال ذلك :

١٦٧٢ — حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، قال معمر، قال قتادة والزهري ، عن عبدالله: «وما أنزل على الملكين ببابلَ هارُوت ومارُوتَ » ، كانا مَلَكين من الملائكة، فأهبِطا ليحكما بين الناس . وذلك أن الملائكة سَخِروا من أحكام بني آدم . قال : فحاكمت إليهما امرأةٌ ، فحافا لها ،[3] ثم ذهبا يَصعدان ، فحيل بينهما وبين ذلك ، وخُيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذابَ الدنيا . قال معمر ، قال قتادة : فكانا يعلّمان الناس السحر ، فأخِذ عليهما أن لا يعلّما أحداً حتى يقولا : « إنما نحن فِتنة فلا تكفُر » .

١/٣٦٠

(١) في المطبوعة وابن كثير : «وأن الذين يعلمونهم » ، وما أثبت هو الصواب .

(٢) «الترجمة» عند الكوفيين هي «البدل» ، وانظر ما سلف ٢ : ٣٤٠ وانظر ما سيأتي : ٤٢٣ . والزيادات التي بين الأقواس في هذه الفقرة ، من تفسير ابن كثير ١ : ٢٥٢ ، وقد نقل كلام الطبري بنصه .

(٣) حاف له يحيف حيفاً : مال معه فجار وظلم غيره . وحاف عليه : ظلمه وجار عليه .

١٦٧٣ — حدثني موسى قال، حدثنا عمرو ، قال حدثنا أسباط ، عن السدى ، أما قوله : « وَما أنزِل عَلى الملَكين ببابلَ هارُوت ومَاروت » ، فهذا سحر آخرَ خاصَموه به أيضاً . يقول : خاصموه بما أنزِل على الملكين ، وأن كلام الملائكة فيما بينهم ، إذا علمته الإنس فصُنع وعُمل به ، كان سحراً .[1]

١٦٧٤ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : «يعلمون الناسَ السحرَ وما أنزِل على الملكين ببابلَ هارُوت وماروت». فالسحر سِحران : سحر تعلّمه الشياطين ، وسحر يعلّمه هاروت وماروت .

١٦٧٥ — حدثني المثنى قال، حدثنا عبد الله بن صالح قال ، حدثني معاوية ابن صالح ، عن على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : « وما أنزل على الملكين ببابل هارُوت ومَارُوت » ، قال : التفريق بين المرء وزوجه .

١٦٧٦ — حدثني يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : « ولكن الشياطين كفروا يعلّمون الناسَ السحر وما أنزِل على الملكين » ، فقرأ حتى بلغ « فلا تكفُر » ، قال : الشياطين والملَكان ، يعلّمون الناس السحر .

* * *

قال أبو جعفر : فمعنى الآية — على تأويل هذا القول الذى ذكرناه عمن ذكرنا عنه — : واتبعت اليهود الذى تلتِ الشياطينُ فى ملك سليمان ، والذى أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت . وهما ملكان من ملائكة الله ، سنذكر ما روى من الأخبار فى شأنهما إن شاء الله تعالى .

* * *

قال أبو جعفر[2] : إن قال لنا قائل : وهل يجوز أن ينزّل الله السحر ، أم

---

(١) الأثر : ١٦٧٣ — هو من تتمة الأثر السالف : ١٦٤٦ ، ويرجع الضمير فى قوله : « وخاصموه به أيضاً — إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اليهود، كما تتبين ذلك من مراجعة الأثر هناك .

(٢) كان فى المطبوعة هنا : « وقالوا : إن قال لنا قائل . . . » . والضمير فى « قالوا » ، لا يعود إلى مذكورين قبل. وكأن الناسخ تعاظمه أن يكون الرد الآتى من كلام أبى جعفر ، فحذف ما جرى عليه فى تفسيره من قوله : « قال أبو جعفر » ، وأقحم « وقالوا » مكانها ، ثم زاد فحشا هذه الفقرات الآتية بكلمته « وقالوا » ، كما سنبينه فى مواضعه من التعليق . وهذا أسلوب لم يطرقه أبو جعفر قط فى تفسيره كله .

هل يجوز لملائكته أن تعلّمه الناس؟

قلنا له : إن الله عز وجلّ قد أنزل الخير والشر كلّه ، وبيّن جميعَ ذلك لعباده، فأوحاه إلى رسله ، وأمرَهم بتعليم خَلْقه وتعريفهم ما يحلّ لهم مما يحرم عليهم . وذلك كالزّنا والسرقة وسائر المعاصي التي عرّفَهموها ، ونهاهم عن ركوبها . فالسحر أحدُ تلك المعاصي التي أخبرهم بها، ونهاهم عن العمل بها .

[(١)]وليس في العلم بالسحر إثم، كما لا إثم في العلم بصنعة الخمر ونحت الأصنام والطّنابير والملاعب . وإنما الإثم في عمله وتسويته . [(٢)] وكذلك لا إثم في العلم بالسحر ، وإنما الإثم في العمل به، وأن يُضَرَّ به من لا يحلّ ضَرُّه به .

[(٣)]فليس في إنزال الله إياه على الملكين، ولا في تعليم الملكين من علّماه من الناس، إثم ، إذ كان تعليمها من عَلَّماه ذلك، بإذن الله لهما بتعليمه، بعد أن يخبراه بأنهما فتنةٌ، وينهياه عن السحر والعمل به والكفر. وإنما الإثمُ على من يتعلمه منهما ويعمل به، إذ كان الله تعالى ذكره قد نَهاهُ عن تعلّمه والعمل به . [(٤)] ولو كان الله أباحَ لبني آدم أن يتعلموا ذلك، لم يكن مَنْ تعلمه حَرِجاً ، كما لم يكونا حَرِجَيْن لعلمهما

والذى استبشعه بعض النساخ — فيما نرجح — سيأتى بعد قليل فى ص ٤٢٣–٤٢٦ بأوضح مما قاله هنا.

وقد عد ابن كثير قول أبى جعفر مسلكاً غريباً ، فقال فى تفسيره ١ : ٢٥٣ ، وذكر ما ذكره أبو جعفر من قول من قال « ما » بمعنى « لم » فقال : « ثم شرع ابن جرير فى رد هذا القول ، وأن « ما » بمعنى « الذى » ، وأطال القول فى ذلك، وادعى أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله إلى الأرض ، وأذن لهما فى تعليم السحر ، اختباراً لعباده وامتحاناً ، بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل ، وادعى أن هاروت وماروت مطيعان فى تعليم ذلك، لأنهما امتثلا ما أمرا به . وهذا الذى سلكه غريب جداً » .

ولست أستنكر ما قاله أبو جعفر ، كما استنكره ابن كثير ، ولو أنت أنصفت وتتبعت كلام أبى جعفر ، لرأيت فيه حجة بينة ساطعة على صواب مذهبه الذى ذهب إليه ، ورأيت دقة ولطفاً فى تناول المعانى ، وتدبير الألفاظ، لا تكاد تجدهما فى غير هذا التفسير الجليل القدر .

(١) كان فى المطبوعة هنا : « (قالوا) ليس فى العلم . . . . » . انظر ماسلف .

(٢) كان فى المطبوعة هنا : « (قالوا) وكذلك لا إثم . . . . » . انظر ما سلف .

(٣) كان فى المطبوعة هنا : « (قالوا) فليس فى إنزال الله . . . . » . انظر ما سلف .

(٤) كان فى المطبوعة هنا : « (قالوا) ولو كان الله أباح . . . . » . انظر ما سلف .

به .[١] إذْ كان علمهما بذلك عن تَنزيل الله إليهما .[٢]

* * *

وقال آخرون : معنى : « ما » معنى « الذى » ، وهى عطف على « ما » الأولى . غير أن الأولى فى معنى السحر ، والآخِرة فى معنى التفريق بين المرء وزوجه. فتأويل الآية على هذا القول : واتّبعوا السحر الذى تتلو الشياطين فى ملك سليمان ، والتفريقَ الذى بين المرء وزوجه ، الذى أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت .

* ذكر من قال ذلك :

١٦٧٧ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « وما أنْزِل على الملكين ببابلَ هَارُوت ومارُوت » ، وهما يعلمان َما يفرّقون به بين المرء وزوجه . وذلك قول الله جل ثناؤه: « وما كفرَ سليمانُ ولكنّ الشياطين كفروا» . وكان يقول : أما السحر ، فإنما يعلّمه الشياطين ، وأما الذى يعلم الملكان ، فالتفريق بين المرء وزوجه ، كما قال الله تعالى . ٣٦١/١

* * *

وقال آخرون جائز أن تكون « ما » بمعنى « الذى » ، وجائز أن تكون « ما » بمعنى « لم » . * ذكر من قال ذلك :

١٦٧٨ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى، قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، حدثنى الليث بن سعد ، عن يحيى بن سعيد ، عن القاسم بن محمد — وسأله رجلٌ عن قول الله : «يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروتَ وماروت» فقال الرجل: يعلّمان الناس ما أنزل عليهما، أم يعلّمان الناس ما لم يَنزل عليهما ؟ قال القاسم : ما أبالى أيّتهما كانت .

١٦٧٩ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال ، حدثنا أنس بن عياض، عن

(١) استعمل أبو جعفر : هو « حرج » — على وزن : هو « فرح » — بمعنى : آثم . وأهل اللغة ينكرون ذلك . لا يقال للآثم إلا « الحارج » على النسب . لأن « الحرج » بمعنى الإثم ، لا فعل له . ولعل الناسخ أخطأ فكتب «حرجاً ... وحرجين» مكان «حارجاً ... وحارجين » ، بمعنى : آثم، وآثمين، ولكنى تركتها هنا على حالها مخافة أن تكون من كلام أبى جعفر خطأ اجتهاد ، أو صواباً علمه هو لم يبلغنا .

(٢) سيأتى بيان قوله هذا كله بأوفى من هذا وأتم فى ص : ٤٢٣ — ٤٢٦

بعض أصحابه ، أن القاسم بن محمد سُئل عن قول الله تعالى ذكره : « وما أنزِل على الملَكين » ، فقيل له : أأنزل أو لم يُنزل ؟ فقال : لا أبالى أىّ ذلك كان ، إلاّ أنى آمنتُ به .[1]

* * *

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى ذلك عندى ، قولُ من وجّه « ما » التى فى قوله : « ومَا أنزِل على الملكين » إلى معنى « الذى » ، دون معنى « ما » التى هى بمعنى الجحد .

وإنما اخترت ذلك ، من أجل أن « ما » ، إن وجِّهت إلى معنى الجحد ، تنفى عن « الملكين » أن يكونا مُنْزلاً إليهما ،[2] ولم يخل الاسمان اللذان بعدهما — أعنى « هاروت وماروت » — من أن يكونا بدلاً منهما وترجمةً عنهما[3] أو بدلاً من « الناس » فى قوله : « يعلمون الناس السحر » ، وترجمة عنهما.[4]

فإن جعلا بدلاً من « الملكين » وترجمة عنهما ، بطل معنى قوله : « وما يُعلِّمان منْ أحد حتى يَقولا إنّما نحن فتنة فلاتكفُر فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وَزوجه » . لأنهما إذا لم يكونا عالمين بما يُفرَّق به بين المرء وزوجه ، فما الذى يَتعلَّم منهما من يفرق بين المرء وزوجه ؟[5]

---

(١) الخبر : ١٦٧٩ — يونس بن عبد الأعلى الصدفى المصرى : إمام معروف ، يروى عنه الطبرى كثيراً ، وروى عنه أبو حاتم وأبو زرعة . وقال ابن أبى حاتم ٤ /٢/٢٤٣ : « كتبت عنه ، وأقمت عليه سبعة أشهر » . وقال : « سمعت أبى يوثق يونس بن عبد الأعلى ، ويرفع من شأنه » . ولد سنة ١٧٠ ، ومات سنة ٢٦٤ .

وأما شيخه هنا فهو : « أنس بن عياض بن ضمرة » : وهو ثقة ، خرج له أصحاب الكتب الستة . وهو مترجم فى التهذيب ، والكبير للبخارى ١/٢/٣٤ ، وابن أبى حاتم ١/١/٢٨٩ .

وكتب فى المطبوعة « بشر » بدل « أنس » . وهو تحريف واضح . صوابه فى ابن كثير ١ : ٢٥٣ ، نقلا عن هذا الموضع من الطبرى . ولم نجد فى الرواة من يسمى « بشر بن عياض » أبداً .

(٢) فى المطبوعة : « فتنفى . . . » بزيادة فاء لا خير فيها .

(٣) انظر معنى « الترجمة » آنفاً : ٤٢٠ تعليق : ٢

(٤) فى المطبوعة : « « يعلمان الناس السحر » ، وهو خطأ . وانظر ما سلف : ٤٢٠

(٥) فى المطبوعة : « ما يفرق » ، والصواب ما أثبت .

وبعد ، فإن « ما » التي في قوله : « وَمَا أُنزِلَ على الملكين » ، إن كانت في معنى الجحد عطفاً على قوله : « وَمَا كفرَ سُليمان » ، فإن الله جل ثناؤه نفى بقوله : « وَمَا كفر سليمان » ، عن سليمان أن يكون السحر من عمله أو من علمه أو تعليمه . فإن كان الذي نفى عن الملكين من ذلك، نظيرَ الذي نفى عن سليمان منه — وهاروت وماروت هما الملكان — فمن المتعلِّم منهُ إذاً ما يفرِّق به بين المرء وزوجه؟ وعمَّن الخبر الذي أخبر عنه بقوله: « وما يعلِّمان من أحد حتى يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر» ؟ إنّ خطأ هذا القول لواضحٌ بيّن .

وإن كان قوله : « هَارُوتَ وَمارُوتَ » ترجمة عن « الناس » الذين في قوله : « ولكنّ الشياطين كفروا يعلِّمون الناس السحر » ، فقد وَجب أن تكونَ الشياطين هي التي تعلّم هاروت وماروت السحر ، وتكونَ السحرةُ إنما تعلمت السحر من « هاروتَ وماروتَ » عن تعليم الشياطين إياهما . فإن يكن ذلك كذلك ، فلن يخلو « هاروت وماروت » — عند قائل هذه المقالة — من أحد أمرين :

إمّا أن يكونا ملكين ، فإن كانا عندَه ملكين ، فقد أوجبَ لهما من الكفر بالله والمعصية لَهُ — بنسبته إياهما إلى أنهما يتعلّمان من الشياطين السحر ويعلِّمانه الناس ، وإصرارهما على ذلك ومُقامهما عليه — أعظمَ مما ذكر عنهما أنهما أتياه من المعصية التي استحقَّا عليها العقاب . وفي خبر الله عز وجل عنهما — أنهما لا يعلمان أحداً ما يتعلم منهما حتى يقولا : « إنما نحن فتنة فلا تكفر » — ما يغني عن الإكثار في الدلالة على خطأ هذا القول .

أو أن يكونا رجلين من بني آدم . فإن يكن ذلك كذلك ، فقد كان يجبُ أن يكونا بهلاكهما قد ارتفع السحرُ والعلمُ به والعمل — من بني آدم .[1] لأنه إذا كان علمُ ذلك من قِبَلهما يُؤخذ ومنهما يُتعلَّم ، فالواجب أن يكون بهلاكهما وعدم وجودهما ، عدمُ السبيل إلى الوصول إلى المعنى الذي كان لا يوصل إليه إلاّ بهما .

---

(١) يقول في سياقه : قد ارتفع من بني آدم — السحر ، والعلم به والعمل .

٢٦٢/١ وفى وجود السحر فى كل زمان ووقت ، أبينُ الدلالة على فساد هذا القول . وقد يزعمُ قائلٌ ذلك أنهما رجلان من بنى آدم ، لم يُعدَما من الأرض منذ خلقت ، ولا يُعدَمان بعد ما وُجد السحر فى الناس ، فيدّعى ما لا يَخفى بُطوله[1]

* * *

فإذْ فسدت هذه الوجوه التى دللنا على فسادها ، فبيِّنٌ أنّ معنى « ما » التى فى قوله : « وما أنزِل على الملكين» بمعنى«الذى» ، وأن « هاروتَ وماروتَ » ،مترجمٌ بهما عن الملكين ، ولذلك فتحت أواخر أسمائهما ، لأنهما فى موضع خفض على الرّد على « الملكين » . ولكنهما لما كانا لا يُجرّان ، فتحت أواخر أسمائهما .

* * *

فإن التبس على ذى غباء ما قلنا فقال : وكيف يجوز لملائكة الله أن تُعلِّم الناسَ التفريقَ بين المرء وزوجه ؟ أم كيف يجوز أن يُضاف إلى الله تبارك وتعالى إنزالُ ذلك على الملائكة ؟

قيل له : إن الله جل ثناؤه عرّف عباده جميعَ ما أمرَهم به وجميعَ ما نهاهم عنه ، ثم أمرهم ونَهاهم بعد العِلم منهم بما يؤمرون به ويُنهون عنه . ولو كان الأمر على غير ذلك ، لما كان للأمر والنهى معنى مفهوم . فالسحر مما قد نَهى عبادَه من بنى آدم عنه ، فغير منكر أن يكون جلّ ثناؤه علّمه الملكين اللذين سماهما فى تنزيله ، وجعلهما فتنة لعباده من بنى آدم — كما أخبرَ عنهما أنهما يقولان لمن يتعلّم ذلك منهما : « إنما نحنُ فتنة فلاتكفُر » — ليختبر بهما عباده الذين نهاهم عن التفريق بين المرء وزوجه، وعن السحر ، فيمحِّصَ المؤمن بتركه التعلُّم منهما، ويُخزىَ الكافرَ بتعلُّمه السحرَ والكفرَ منهما . ويكون الملكان — فى تعليمهما من علّما ذلك — لله مطيعين ،إذْ كانا = عن إذْن الله لهما بتعليم ذلك مَنْ علّماه = يعلمان . وقد عُبد من دُون الله جماعةٌ من أولياء الله ، فلم يكن ذلك لهم ضائراً ،

(١) بطل الشيء يبطل بطلا و بطولا و بطلاناً . وهذا باطل بين البطول والبطلان .

إذ لم يكن ذلك بأمرهم إياهم به، بل عُبد بعضُهم والمعبود عنه ناهٍ.[1] فكذلك الملكان، غيرُ ضائرهما سحرُ من سَحَر ممن تعلّم ذلك منهما، بعد نهيهما إياه عنه، وعظتهما له بقولهما: «إنّما نحن فتنة فلا تكفُر»، إذ كانا قد أدّيا ما أمِرا به بقيلهما ذلك، كما: —

١٦٨٠ — حدثنا محمد بن بشار قال، حدثنا يحيى بن سعيد، عن عوف، عن الحسن فى قوله: «وما أنزِل على الملَكين ببابلَ هارُوتَ ومارُوتَ» إلى قوله: «فلا تكفُر»، أخذ عليهما ذلك.

* * *

ذكر بعض الأخبار التى فى بيان الملكين، ومن قال إنّ هاروت وماروت هما الملكان اللذان ذكر الله جل ثناؤه فى قوله: «ببابل»:

* * *

١٦٨١ — حدثنا محمد بن بشار قال، حدثنا معاذ بن هشام. قال، حدثنى أبى، عن قتادة قال، حدثنا أبو شعبة العدوى فى جنازة يُونس بن جبير أبى غلاّب، عن ابن عباس قال: إنّ الله أفرجَ السماء لملائكته ينظرون إلى أعمال بنى آدم، فلما أبصروهم يعملون الخطايا قالوا: يارب، هؤلاء بنو آدم الذى خلقتَه بيدك، وأسجدت له ملائكتك، وعلمته أسماء كل شىء يعملون بالخطايا! قال: أمَا إنكم لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم. قالوا: سبحانك ما كان ينبغى لنا! قال: فأمِروا أن يختاروا من يهبط إلى الأرض، قال: فاختاروا هاروت وماروت. فأهبِطا إلى الأرض، وأحلّ لهما ما فيها من شىء، غيرَ أنْ لا يشركا بالله شيئاً، ولا يسرقَا، ولا يزنيا، ولا يشربَا الخمر، ولا يقتلا النفس التى حرّم الله إلا بالحق. قال: فما استمرّا حتى عرَض لهما امرأة قد قُسِم لها نصفُ الحسن، يقال لها «بيذخت» فلما أبصرَاها أرادا بها زناً، فقالت: لا، إلا أن تشركا بالله، وتشربا الخمر، وتقتلا النفس، وتسجدا لهذا الصنم! فقالا: ما كنا لنشرك بالله شيئاً! فقال أحدهما

(١) هذه حجة رجل يبصر دقيق المعانى، ولا يغفل عن مواضع السقط فى كلام من يتكلم وهو لا يضبط ما يقتضيه كلامه. وقد استخف به ابن كثير، لأنه لم يضبط ما ضبطه هذا الإمام المتمكن من عقله وفهمه.

للآخر : ارجع إليها . فقالت : لا ، إلا أنْ تشرَبا الخمر . فشربا حتى ثملا ، ودخل عليهما سائل فقتلاه ، فلما وقَعا فيما وقعا فيه من الشر ، أفرج الله السماء لملائكته ، فقالوا : سبحانك ! كنتَ أعلم ! قال : فأوحى الله إلى سليمان بن داود أن يُخيِّرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارَا عذابَ الدنيا، فكبِّلا من أكعبهما إلى أعناقهما بمثل أعناق البُخْت ، وجعلا ببابل.[1] ٣٦٢/١

١٦٨٢ — حدثني المثنى قال، حدثنا الحجاج بن المنهال قال ، حدثنا حماد، عن علي بن زيد، عن أبي عثمان النهدي، عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قالا : لما كثر بنو آدم وعصوا ، دعت الملائكة عَليهم والأرض والسماء والجبالُ : ربنا ألا تُهلكهم ![2] فأوحى الله إلى الملائكة : إني لو أنزلت الشهوة والشيطان من قلوبكم وَنزلتم لفعلتم أيضاً![3] قال : فحدَّثوا أنفسهم أنْ لو ابتُلوا اعتصموا، فأوحى الله إليهم : أن اختاروا ملكين من أفضلكم . فاختاروا هاروت وماروت ، فأهبطا إلى الأرض، وأنزلت الزُّهَرة إليهما في صُورة امرأة من أهل فارس ، وكان أهل فارس يسمونها « بيذخت » . قال : فوقعا بالخطيئة ، فكانت الملائكة يستغفرون للذين آمنوا :[4] ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً فاغفِر للذين تَابوا . فلما وقعا بالخطيئة ، استغفروا لمن في الأرض ، ألا إن الله هو الغفور الرحيم . فخيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، فاختارا عذابَ الدنيا .[5]

---

(١) الخبر : ١٦٨١ — أبو شعبة العدوي ، هذا الذي يروي هنا عن ابن عباس : لم أعرف من هو ؟ ولا وجدت له ذكراً في شيء من المراجع . والراجح عندي أن اسمه محرف عن شيء لا أعرفه .

(٢) في تفسير ابن كثير ١ : ٢٥٦ ، والدر المنثور ١ : ٩٩ : « ربنا ، لا تمهلهم » ، وكأنها هي الصواب ، وإن كانت الأولى صحيحة المعنى .

(٣) هذه العبارة صحيحة المعنى ، ولكنها جاءت في تفسير ابن كثير : « إني أزلت الشهوة والشيطان من قلوبكم ، وأنزلت الشهوة والشيطان في قلوبهم ، ولو نزلتم لفعلتم أيضاً » . وجاءت في الدر المنثور : « إني أزلت الشهوة والشيطان من قلوبكم ، ولو نزلتم لفعلتم أيضاً » . مختصراً .

(٤) في المطبوعة : « وكانت الملائكة » بالواو ، والصواب من ابن كثير والدر المنثور .

(٥) الخبر : ١٦٨٢ — الحجاج بن المنهال الأنماطي : ثقة فاضل ، أخرج له الجماعة . شيخه « حماد » : الراجح عندنا أنه « حماد بن سلمة » ، وإن كان في التهذيب أنه يروي عن « الحمادين » ، يعني حماد بن زيد وحماد بن سلمة . ولكن اقتصر البخاري في ترجمته في الكبير ١/٢/٣٧٦ على ذكر

١٦٨٣ — حدثنى المثنى قال ، حدثنى الحجاج قال ، حدثنا حماد ، عن خالد الحذاء ، عن عمير بن سعيد قال ، سمعت عليًّا يقول : كانت الزُّهَرَة امرأة جميلة من أهل فارس ، وأنها خاصمت إلى الملكين هاروت وماروت ، فراوداها عن نفسها ، فأبت إلا أنْ يعلماها الكلامَ الذى إذا تُكُلِّم به يُعرَجُ به إلى السماء . فعلَّماها ، فتكلمت به ، فعرَجت إلى السماء ، فمُسخت كوكباً. (١)

١٦٨٤ — حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى قالا ، حدثنا مؤمل بن إسمعيل — وحدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق — جميعاً ، عن الثورى ، عن موسى بن عقبة ، عن سالم ، عن ابن عمر ، عن كعب قال : ذكرت الملائكة أعمال بنى آدم وَما يأتون من الذنوب ، فقيل لهم : اختاروا منكم اثنين — وقال الحسن بن يحيى فى حديثه : اختاروا ملكين — فاختاروا هاروت وماروت ، فقيل لهما : إنى أرسل إلى بنى آدم رُسُلاً ، وليس بينى وبينكم رَسول ، انزلا : لا تُشركا بى شيئاً ، ولا تزنيا ، ولا تشربا الخمر . قال كعب : فوالله ما أمْسيا من يَوْمهما الذى أهبِطا فيه إلى الأرض حتى استكملا جميع ما نُهيا عنه — وقال الحسن ابن يحيى فى حديثه : فما استكملا يومهما الذى أنزِلا فيه حتى عَملا ما حرَّم الله عليهما . (٢)

« حماد بن سلمة » ، وكذلك صنع ابن أبى حاتم ١/٢/١٦٧ . فصنيعهما يدل على أنه عرف بالرواية عنه أكثر — ووقع فى المطبوعة هنا « حجاج » بدل « حماد » . والتصحيح من ابن كثير ١ : ٢٥٦ ، إذ نقل هذا الخبر عن الطبرى .

(١) الخبر : ١٦٨٣ — خالد الحذاء : هو « خالد بن مهران » ، ثقة كثير الحديث . مترجم فى التهذيب ، والكبير للبخارى ٢/٢/١٥٩ ، وابن أبى حاتم ١/٢/٣٥٢ — ٣٥٣ .

عمير بن سعيد النخعى : تابعى ثقة . مترجم فى التهذيب ، وابن أبى حاتم ٣/١/٣٧٦ . ووقع فى المطبوعة هنا « عمرو » بدل « عمير » . وهو خطأ ، صوابه فى ابن كثير ١ : ٢٥٥ عن رواية الطبرى هذه .

والخبر رواه الحاكم فى المستدرك ٢ : ٢٦٥ — ٢٦٦ ، مطولا ، من طريق إسمعيل بن أبى خالد ، « عن عمير بن سعيد النخعى ، قال : سمعت علياً . . . » ، فذكره بطوله .

(٢) الخبر : ١٦٨٤ — رواه البخارى بإسنادين : من طريق مؤمل بن إسمعيل ، ومن طريق عبد الرازق ، كلاهما عن الثورى . موسى بن عقبة بن أبى عياش الأسدى : هو صاحب المغازى ، كان ثقة ثبتاً .

١٦٨٥ — حدثني المثنى قال، حدثنا معلّى بن أسد قال ، حدثنا عبد العزيز ابن المختار ، عن موسى بن عقبة قال ، حدثني سالم ، أنه سمع عبد الله يحدّث ، عن كعب الأحبار أنه حدث : أنّ الملائكة أنكروا أعمالَ بني آدم وما يأتون في الأرض من المعاصي ، فقال الله لهم : إنكم لو كنتم مكانهم أتيتم ما يأتون من الذنوب ، فاختاروا منكم ملكين . فاختاروا هاروت وماروت ، فقال الله لهما : إني أرسل رسلي إلى الناس ، وليس بيني وبينكما رسولٌ ، انزلا إلى الأرض ، ولا تُشركا بي شيئاً ، ولا تزنيا . فقال كعب : والذي نفس كعب بيده ، ما استكملا يومَهما الذي نزلا فيه حتى أتيا ما حرم الله عليهما.[1]

وكان مالك يقول : « عليكم بمغازي موسى بن عقبة ، فإنه ثقة » . وهو مترجم في الكبير للبخاري ٤/١/٢٩٢ وابن أبي حاتم ٤/١/١٥٤ — ١٥٥ .

والذي أثبتنا هو الصواب ، وكان في المطبوعة « محمد بن عقبة » ، بدل « موسى » . و « محمد ابن عقبة » : هو أخو موسى بن عقبة . وهو ثقة أيضاً ، مترجم في التهذيب ، والكبير ١/١/١٩٨ — ١٩٩ ، وابن أبي حاتم ٤/١/٣٥ .

وكان من المحتمل أن يكون ما في المطبوعة صحيحاً ، لأن سفيان الثوري يروي عن محمد بن عقبة ، كما يروي عن أخيه موسى . لولا الدلائل والقرائن ، التي جزمنا معها بخطأ ذلك :

فأولا : إن محمد بن عقبة لم يذكر في ترجمته بالرواية عن سالم بن عبد الله بن عمر .

وثانياً : أن ابن كثير نقل هذا الخبر عن تفسير عبد الرزاق ، عن الثوري ، عن موسى بن عقبة ١ : ٢٥٥ ، ثم ذكر أن الطبري رواه من طريق عبد الرزاق .

وثالثاً : الخبر ثابت في تفسير عبد الرزاق ، في نسخة مصورة عندي ، عن مخطوطة دار الكتب المصرية ، المكتوبة سنة ٧٢٤ . وفيها « عن موسى بن عقبة » .

فاتفق على هذا الكتابان : الكتاب الذي نقل عنه الطبري ، والكتاب الذي نقل عن الطبري .

ورابعاً : أن ابن كثير قال أيضاً : « رواه ابن أبي حاتم ، عن أحمد بن عصام ، عن مؤمل ، عن سفيان الثوري ، به » .

والطبري هنا رواه — كما ذكرنا — عن مؤمل بن إسمعيل ، عن الثوري . فاتفقت روايته مع رواية ابن أبي حاتم .

وليس بعد هذا ثبت ويقين .

(١) الخبر : ١٦٨٥ — هو تكرار للخبر قبله ، من رواية عبد العزيز بن المختار ، عن موسى ابن عقبة .

وعبد العزيز بن المختار الدباغ : ثقة ، روى له الجماعة . مترجم في التهذيب ، وابن أبي حاتم ٢/٢/٣٩٣ — ٣٩٤ .

١٦٨٦ — حدثني موسى بن هرون قال، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : أنه كان من أمر هاروت وماروت أنهما طعنا على أهل الأرض فى أحكامهم ، فقيل لهما : إنى أعطيت ابن آدم عشراً من الشهوات ، فبها يعصوننى . قال هاروت وماروت : ربنا ، لو أعطيتنا تلك الشهوات ثم نزلنا لحكمنا بالعدل . فقال لهما : انزلا ، فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر ، فاحكما بين الناس . فنزلا ببابل «دنباوند» ، فكانا يحكمان، حتى إذا أمسيا عرجا فإذا أصبحا هبطا . فلم يزالا كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصم زوجها ، فأعجبهما حسنها — واسمها بالعربية ، « الزُّهَرَة »، وبالنَّبطية « بيذَخْت»، واسمها بالفارسية « أناهيذ » — فقال أحدهما لصاحبه: إنها لتعجبنى ! فقال الآخر : قد أردت أن أذكر لك فأستحييت منك ! فقال : الآخر : هل لك أن أذكرها لنفسها ؟ قال: نعم ، ولكن كيف لنا بعذاب الله ؟ قال الآخر : إنا نرجو رحمة الله ! فلما جاءت تخاصم زوجها ذكرا إليها نفسها ، فقالت : لا ، حتى تقضيا لى على زوجى . فقضيا لها على زوجها . ثم واعدتهما خَرِبة من الخَرِب يأتيانها فيها ،فأتياها لذلك . فلما أراد الذى يواقعها، قالت : ما أنا بالذى أفعل حتى تخبرانى بأىّ كلام تصعدان إلى السماء ، وبأى كلام تنزلان منها ؟ فأخبراها ، فتكلمت فصعدت ، فأنساها الله ما تنزل به ، فبقيت مكانها ، (١) وجعلها الله كوكباً — فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها وقال : هذه التى فتنت هاروت وماروت ! — فلما كان الليلُ أرادا أن يصعدا فلم يستطيعا ، فعرفا الهُلْك ، (٢) فخيِّرا بين عذاب الدنيا والآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا من عذاب الآخرة ، فعلّقا ببابل ، فجعلا يكلمان الناس كلامهما ، وهو السحر .

٣٦٤/١

١٦٨٧ — حدثني المثنى بن إبراهيم قال، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قال: لما وقع الناس من بعد آدم فيما وقعوا فيه من

---

(١) فى ابن كثير ١ : ٢٥٩ : « فثبتت مكانها » .

(٢) فى ابن كثير ١ : ٢٥٩ : « الهلكة » ، وهما سواء .

المعاصي والكفر بالله ، قالت الملائكة في السماء : أيْ ربِّ ، هذا العالم إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك ، وقد ركبوا الكفرَ وقتلَ النفس الحرام وأكلَ المال الحرام والسرقةَ والزنا وشربَ الخمر ! فجعلوا يدعون عليهم ولايعذِرونهم ، فقيل لهم : إنهم في غَيْب.[1] فلم يعذروهم ، فقيل لهم : اختاروا منكم ملكين آمرُهما بأمرى وأنهاهما عن معصيتى . فاختاروا هاروت وماروت ، فأهبطا إلى الأرض ، وجُعل بهما شهوات بنى آدم ،[2] وأمرا أن يَعبدا الله ولا يُشركا به شيئاً ، ونهيا عن قَتل النفس الحرام ، وأكل المال الحرام ، والسرقة ، والزنا ، وشرب الخمر . فلبثا على ذلك في الأرض زماناً يحكمان بين الناس بالحق — وذلك في زمان إدريس . وفى ذلك الزمان امرأة حُسنها فى سائر الناس كحُسن الزُّهَرة فى سائر الكواكب ، وأنها أتت عليهما[3] ، فخضعا لها بالقول ، وأراداها على نفسها ، وأنها أبت إلا أن يكونا على أمرها ودينها ، وأنهما سألاها عن دينها التى هى عليه ، فأخرجت لهما صنماً وقالت : هذا أعبد . فقالا : لا حاجة لنا فى عبادة هذا ! فذهبا فغبرا ما شاء الله ،[4] ثم أتيا عليها فخضعا لها بالقول وأراداها على نفسها ، فقالت : لا ، إلا أن تكونا على ما أنا عليه . فقالا : لا حاجة لنا فى عبادة هذا ! فلما رأت أنهما أبيَا أن يعبدا الصنم ، قالت لهما : اختارا إحدى الخِلال الثلاث : إما أن تعبدا الصنم ، أو تقتلا النفْس ، أو تشربا الخمر . فقالا : كل هذا لا ينبغى ، وأهونُ الثلاثة شُرب الخمر . فسقتهما الخمر ، حتى إذا أخذت الخمر فيهما وَقعا بها . فمر بهما إنسان ، وهما فى ذلك ، فخشيا أن يُفشِى عليهما فقتلاه . فلما أن ذهب عنهما السكر ، عَرفا ما وقعا فيه من الخطيئة ، وأرادا أن يصعدا إلى السماء ، فلم يستطيعا ،

(١) ما أدرى ما يعنى بقوله : « إنهم فى غيب » ، إلا أن يكون أراد الغيب : وهو ما غيبك من الأرض ، لبعده وانقطاعه ، وهبوطه عما حوله . كأنه يقول : إنهم فى مكان غيبهم عما تشهدون أنتم — أيتها الملائكة — من آيات ربكم . وانظر ص : ٤٣٣

(٢) فى تفسير ابن كثير ١ : ٢٥٧ : « فجعل لهما . . . »

(٣) فى تفسير ابن كثير : « أتيا عليها » .

(٤) فى المطبوعة : « فصبرا ما شاء الله » ، وفى ابن كثير : « فعبرا » . وغبر : مكث وبقى .

فحيل بينهما وبين ذلك . وكشف الغطاء بينهما وبين أهل السماء ، فنظرت الملائكة إلى ما وقعا فيه من الذنب ، فعجبوا كل العجب ، وعلموا أنّ من كان فى غَيْبٍ فهو أقل خشية[١] ، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن فى الأرض — وأنهما لما وقعا فيما وقعا فيه من الخطيئة قيل لهما : اختارا عذاب الدنيا أو عذابَ الآخرة! فقالا : أمّا عذاب الدنيا فإنه ينقطع ، وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له . فاختارا عذاب الدنيا ، فجُعلا ببابل ، فهما يعذبان .[٢]

١٦٨٨ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنا فرج بن فضالة ، عن معاوية بن صالح ، عن نافع قال : سافرت مع ابن عمر ، فلما كان من آخر الليل قال : يا نافع انظر ، طلعت الحمراء ؟ قلت : لا — مرتين أو ثلاثاً —[٣] ثم قلت : قد طلعت ! قال : لا مَرْحباً ولا أهلاً ! قلت : سبحان الله ، نجمٌ مسخَّر سامعٌ مُطيع ! قال : ما قلت لك إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ،[٤] وقال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الملائكة قالتْ : يارب ، كيف صبرك على بنى آدم فى الخطايا والذنوب؟ قال : إنّى ابتليتُهم وعافيتكم . قالوا : لوكنا مكانَهم ما عصيناك ! قال : فاختاروا ملكين منكم . قال : فلم يألوا أن يختاروا ، فاختارُوا هاروت وماروت[٥]

٢٦٥/١

---

(١) انظر ص : ٤٣٢ تعليق : ١

(٢) الأثر : ١٦٨٧ — فى تفسير ابن كثير ١ : ٢٥٧ — ٢٥٨ عن أبى حاتم قال : « أخبرنا عصام بن رواد ، أخبرنا آدم ، أخبرنا أبو جعفر ، حدثنا الربيع بن أنس ، عن قيس بن عباد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما » ، وهو غير إسناد ابن جرير ، وكلاهما من طريق أبى جعفر عن الربيع بن أنس ، ولكن ابن جرير لم يرفعه إلى ابن عباس . ونصهما واحد إلا بعض خلاف يسير فى بعض اللفظ .

(٣) فى المطبوعة : « قالها مرتين أو ثلاثاً » ، والصواب من ابن كثير فى تفسيره ١ : ٢٥٥ ، والدر المنثور ١ : ٩٧ .

(٤) فى ابن كثير : « أو قال — قال لى رسول الله . . . »

(٥) الحديث : ١٦٨٨ — هذا إسناد ضعيف . الحسين : هو ابن داود ، ولقبه « سنيد » ، وقد ترجمنا له فى : ١٤٤ ، ونزيد هنا أنه ترجم له الخطيب فى تاريخ بغداد ٨ : ٤٢ — ٤٤ ، وقوى أمره . وهو كما قال .

الفرج بن فضالة التنوخى القضاعى : ضعيف ، قال البخارى : « منكر الحديث » ، وهو مترجم

١٦٨٩ — حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : وأمّا شأن هاروت وماروت ، فإن الملائكة عجبت من ظلم بني آدم ، وقد جاءتهم الرسل والكتب والبينات . فقال لهم ربهم : اختاروا منكم ملكين أنزلهما يحكمان في الأرض بين بني آدم . فاختاروا هاروت وماروت . فقال لهما حين أنزلهما : عجبتما من بني آدم ومن ظلمهم ومعصيتهم ، وإنما تأتيهم الرسل والكتب من وراءَ وراءَ ، (١) وأنتما ليس بيني وبينكما رسول ، فافعلا كذا وكذا ، ودعا كذا وكذا . فأمرهما بأمر ونهاهما . (٢) ثم نزلا على ذلك ، ليس أحد لله أطوع منهما . فحكما

في التهذيب ، والكبير ١٣٤/١/٤ ، والصغير : ١٩٢ ، ١٩٩ ، والضعفاء للبخاري : ٢٩ ، والنسائي : ٢٥ ، وابن أبي حاتم ٨٥/٢/٢ — ٨٦ .

وهذا الحديث هنا مختصر . وقد رواه الخطيب في ترجمة سنيد ، مطولا ، من طريق عبد الكريم بن الهيثم ، عن سنيد ، بهذا الإسناد .

وهذه الأخبار ، في قصة هاروت وماروت ، وقصة الزهرة ، وأنها كانت امرأة فسخت كوكباً — أخبار أعلها أهل العلم بالحديث . وقد جاء هذا المعنى في حديث مرفوع ، رواه أحمد في المسند : ٦١٧٨ ، من طريق موسى بن جبير ، عن نافع ، عن ابن عمر . وقد فصلت القول في تعليله في شرح المسند ، ونقلت قول ابن كثير في التفسير ١ : ٢٥٥ « وأقرب ما يكون في هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار ، لا عن النبي صلى الله عليه وسلم » . واستدل بروايتي الطبري السالفتين : ١٦٨٤ ، ١٦٨٥ عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار .

وقد أشار ابن كثير أيضاً في التاريخ ١ : ٣٧ — ٣٨ ، قال : « فهذا أظنه من وضع الإسرائيليين ، وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار ، وتلقاه عنه طائفة من السلف ، فذكروه على سبيل الحكاية والتحدث عن بني إسرائيل » . وقال أيضاً ، بعد الإشارة إلى أسانيد أخر : « وإذا أحسنا الظن قلنا : هذا من أخبار بني إسرائيل ، كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار . ويكون من خرافاتهم التي لا يعول عليها » .

وقال في التفسير أيضاً ١ : ٢٦٠ ، بعد ذكر كثير من الروايات التي في الطبري وغيره : « وقد روي في قصة هاروت وماروت ، عن جماعة من التابعين ، كمجاهد ، والسدي والحسن البصري ، وقتادة ، وأبي العالية ، والزهري ، والربيع بن أنس ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم ، وقصها خلق من المفسرين ، من المتقدمين والمتأخرين . وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى . وظاهر سياق القرآن إجمال القصة ، من غير بسط ولا إطناب فيها . فنحن نؤمن بما ورد في القرآن ، على ما أراده الله تعالى . والله أعلم بحقيقة الحال » .

وهذا هو الحق ، وفيه القول الفصل . والحمد لله .

(١) في ابن كثير ١ : ٢٥٩ : « أعجبتم من بني آدم . . . وإنكما ليس بيني وبينكما رسول »

(٢) في ابن كثير : « فأمرهما بأمور ونهاهما » .

فعدلا . فكان يحكمان النهارَ بين بنى آدم ، فإذا أمسا َعرَجا وكانا مع الملائكة ، وينزلان حين يصبحان فيحكمان فيعدلان ، حتى أنزلت عليهما الزُّهرة — فى أحسن صورة امرأة — تخاصم ، فقضيا عليها . فلما قامت ، وجد كل واحد منهما فى نفسه ، فقال أحدهما لصاحبه : وجدتَ مثل ما وجدتُ ؟ قال : نعم . فبعثا إليها : أنْ ائتينا نَقْضِ لك . فلما رجعت ، قالا لها — وقضيا لها — : ائتينا ! فأتتهما ، [١] فكشفا لها عن عورتهما ، وإنما كانت شهوتهما فى أنفسهما ، ولم يكونا كبنى آدم فى شهوة النساء ولذّتها . فلما بلغا ذلك واستحلاّه وافتُتِنا ، طارت الزُّهَرة فرجعت حيث كانت . فلما أمسيا َعرَجا فرُدَّا ولم يؤذن لهما ، [٢] ولم تحملهما أجنحتهما ، فاستغاثا برجل من بنى آدم ، فأتياه فقالا : ادعُ لنا ربك ! فقال : كيف يشفع أهل الأرض لأهل السماء ؟ قالا : سمعنا ربك يذكرك بخير فى السماء ! فوعدهما يوماً ، وغدا يدعو لهما ، فدعا لهما فاستُجيب له ، فخيِّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة . فنظر أحدهما لصاحبه فقالا : نعلم أنّ أنواعَ عذاب الله فى الآخرة كذا وكذا فى الخلد ، ومع الدنيا سبع مرات مثلها . [٣] فأمرا أن ينزلا ببابل ، فثَمَّ عذابهما . وزعم أنهما معلَّقان فى الحديد َمطويّان ، يصفِّقان بأجنحتهما [٤]

* * *

قال أبو جعفر : وحكى عن بعض القرّاء أنه كان يقرأ : « وما أنزِل على المَلِكَيْن » ، يعنى به رجلين من بنى آدم . وقد دللنا على خطأ القراءة بذلك من جهة الاستدلال ، [٥] فأما من جهة النقل ، فإجماع الحجة — على خطأ القراءة بها — من

---

(١) فى ابن كثير : « قالا وقضيا لها فأتتهما » ، وليس بصواب .

(٢) فى ابن كثير : « فزجرا ولم يؤذن لهما » ، وهما سواء .

(٣) فى ابن كثير : « فقال : ألا تعلم أن أفواج عذاب الله . . . وفى الدنيا تسع مرات مثلها » . وفى الدر المنثور : « فقالا : نعلم أن أفواج عذاب الله . . . نعم ، ومع الدنيا سبع مرات . . . » وقوله « ومع الدنيا . . . » أى إذا قيس بعذاب الدنيا ، كان سبعة أمثال عذابها .

(٤) الأثر : ١٦٨٩ — فى تفسير ابن كثير ١ : ٢٥٩ — ٢٦٠ ، وفى الدر المنثور ١ : ١٠٢

(٥) انظر ما سلف ص : ٤٢٥ — ٤٢٦

الصحابة والتابعين وقُرّاء الأمصار . وكفى بذلك شاهداً على خطئها .

* * *

وأما قوله « ببابِل »، فإنه اسم قرية أو موضع من مَواضع الأرض . وقد اختلف أهل التأويل فيها . فقال بعضهم : إنها « بابل دُنْباوَنْد » :

١٦٩٠ — حدثني بذلك موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى[1]

* * *

وقال بعضهم : بل ذلك « بابل العراق » . ذكر من قال ذلك :

١٦٩١ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج ، عن ابن أبي الزناد ، عن هشام بن عروة، عن أبيه ، عن عائشة — في قصّة ذكرتْها عن امرأة قدمت المدينة ، فذكرت أنها صارت في العراق ببابل ، فأتت بها هاروت وماروت، فتعلّمت منهما السحر [2]

* * *

٣٦٦/١ قال أبو جعفر : واختُلف في معنى « السحر » . فقال بعضهم : هو خُدَع وَمخاريقُ وَمعانٍ يفعلها الساحر ،حتى يُخيَّل إلى المسحور الشيءُ أنه بخلاف ما هو به ، نظيرَ الذى يرَى السَّراب من بعيد فيخيَّل إليه أنه ماءٌ ، ويرى الشيء من بعيد فيُشبته بخلاف ما هو على حقيقته. وكراكب السفينة السائرة سيراً حثيثاً، يخيَّل إليه أنّ ما عاين من الأشجار والجبال سائرٌ معه . قالوا: فكذلك المسحور ذلك صفته : يحسب بعدَ الذى وصَل إليه من سحر الساحر ، أنّ الذى يراه أو يفعله بخلاف الذى هو به على حقيقته ، كالذى : —

---

(١) الأثر : ١٦٩٠ — هو الأثر السابق ١٦٨٦ .

(٢) الأثر : ١٦٩١ الحسين : هو سنيد ، كما مضى مراراً .

حجاج : هو ابن محمد المصيصي الأعور ، وهو ثقة رفيع الشأن ، من شيوخ أحمد وابن معين . مترجم في التهذيب ، والكبير للبخاري ١/٢/٢٧٦ ، وابن أبي حاتم ١/٢/١٦٦ ، وتاريخ بغداد ٨ : ٢٣٦ — ٢٣٩ .

وهذا الخبر قطعة من خبر مطول ، سيأتي : ١٦٩٥ ، من طريق ابن أبي الزناد أيضاً .

١٦٩٢ — حدثني أحمد بن الوليد وسفيان بن وكيع ، قالا ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لما سُحر ، كان يُخيَّل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله .(١)

١٦٩٣ — حدثنا ابن وكيع قال ، حدثنا ابن نمير ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : سَحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يهوديٌّ من يهود بني زُرَيق يقال له لبيد بن الأعصم ، حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُخيَّل إليه أنه يفعلُ الشيء وما يفعله .(٢)

(١) الحديث : ١٦٩٢ — أحمد بن الوليد ، شيخ الطبري : لم أعرف من هو ؟ وسفيان بن وكيع بن الجراح : ضعيف ، قال البخاري في التاريخ الصغير ، ص : ٢٤٦ «يتكلمون فيه لأشياء ، لقنوه» . وقال النسائي في الضعفاء ، ص : ١٦ « ليس بشيء » . بل اتهمه أبو زرعة بالكذب . ودفع عنه أبو حاتم هذه السبة ، وإنما جاءه ذلك من وراقه ، أفسد عليه حديثه . وهو مترجم في التهذيب ، وابن أبي حاتم ٢/١/٢٣١ — ٢٣٢ ، والمجروحين لابن حبان (مخطوط مصور) ، رقم : ٤٧٠ . وليس ضعفه بسبب لضعف هذا الحديث فقد جاء بأسانيد صحاح ، سنشير إليها في الحديث التالي .

يحيى بن سعيد : هو القطان الإمام الحافظ .

(٢) الحديث : ١٦٩٣ — هو تكرار للحديث السابق بإسناد آخر ، رواه سفيان بن وكيع ، عن ابن نمير .

ابن نمير : هو عبد الله بن نمير الهمداني : ثقة صاحب سنة ، روى عنه الأئمة ، أحمد ، وابن المديني . مترجم في التهذيب ، وابن سعد ٦ : ٢٧٤ — ٢٧٥ . وابن أبي حاتم ٢/٢/١٨٦ .

وهذا الحديث — بطريقيه — مختصر من حديث مطول : أما من رواية ابن نمير ، فقد رواه أحمد في المسند ٦ : ٥٧ (حلبي) عن ابن نمير . ورواه مسلم في صحيحه ٢ : ١٨٠ ، عن أبي كريب . ورواه ابن ماجة : ٣٥٤٥ ، عن أبي بكر بن شيبة — كلاهما عن ابن نمير ، به مطولا .

وقد رواه كثير من الثقات الأثبات عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة :

فرواه أحمد في المسند ٦ : ٦٣ ، من طريق معمر . ورواه أحمد أيضاً ٦ : ٦٣ ، من طريق أبي أسامة حماد بن أسامة ، وكذلك رواه البخاري ١٠ : ٢٠١ ، ومسلم ٢ : ١٨٠ — كلاهما من طريق أبي أسامة . ورواه أحمد أيضاً ٦ : ٩٦ ، وابن سعد ٢/٢/٤ — كلاهما من طريق وهيب . ورواه البخاري ١٠ : ١٩٢ — ١٩٧ ، من طريق عيسى بن يونس . و ١٠ : ١٩٩ — ٢٠١ ، من طريق ابن عيينة . و ١٠ : ٤٠٠ ، من طريق سفيان ، وهو ابن عيينة . و ١١ : ١٦٣ ، من طريق أنس ابن عياض أبي ضمرة . ورواه أيضاً ٦ : ٢٣٩ ، معلقاً من رواية الليث بن سعد ، — كل هؤلاء رووه عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة . وقال البخاري ١٠ : ١٩٧ ، عقب رواية عيسى بن يونس : « تابعه أبو أسامة ، وأبو ضمرة ، وابن أبي الزناد — عن هشام » . وفي رواية ابن عيينة ١٠ : ١٩٩ أنه سمعه قبل ذلك من ابن جريج « يقول : حدثني آل عروة عن عروة » . ، وأنه — أي ابن عيينة — سأل هشاماً عنه ، فحدثه به عن أبيه عن عائشة .

١٦٩٤ — حدثنى يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال ، أخبرنى يونس ، عن ابن شهاب قال ، كان عُروة بن الزبير وسعيد بن المسيب يحدّثان : أن يهود بنى زُرَيْق عقدوا عُقَدَ سِحْر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلوها فى بئر حزم ، حتّى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينكر بصره. ودلَّه الله على ما صنعوا ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بئر حزم التى فيها العُقَد فانتزعها . فكان

وذكر ابن كثير بعض طرقه ، فى تفسير سورة الفلق ٩ : ٣٥٣ — ٣٥٤ . وإنما فصلنا القول فى طرقه هنا ، لأن الطبرى لم يذكره هناك فى موضعه .

وقد ثبت مثل هذه القصة من حديث زيد بن أرقم :

فرواه أحمد فى المسند ٤ : ٣٦٧ (حلبى) ، عن أبى معاوية ، عن الأعمش ، عن يزيد بن حيان ، عن يزيد بن أرقم ، به . وهذا إسناد صحيح . يزيد بن حيان أبو حيان التيمى : تابعى ثقة ، مترجم فى التهذيب ، والكبير للبخارى ٤/٢/٣٢٤ — ٣٢٥ ، وابن أبى حاتم ٤/٢/٢٥٥ — ٢٥٦ .

ورواه أيضاً ابن سعد ٢/٢/٦ ، عن موسى بن مسعود ، عن سفيان الثورى ، عن الأعمش ، عن ثمامة المحلمى ، عن زيد بن أرقم . وهذا إسناد صحيح أيضاً . موسى بن مسعود النهدى : سبق توثيقه : ٢٨٠ . و « ثمامة بن عقبة المحلمى » : ثقة . مترجم فى التهذيب ، والكبير للبخارى ١/٢/١٧٦ ، والجرح ١/١/٤٦٥ — ٤٦٦ . و « المحلمى » : بضم الميم وفتح الحاء المهملة وكسر اللام المشددة بعدها ميم ، نسبة إلى « محلم بن تميم » .

وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٦ : ٢٨١ ، بروايتين ، وقال : « رواه النسائى باختصار » ، ثم قال : « رواه الطبرانى بأسانيد ، ورجال أحدها رجال الصحيح » .

وذكره الحافظ فى الفتح ١٠ : ١٩٤ أنه « صححه الحاكم وعبد بن حميد » .

وقصة السحر هذه عرض لها كثير من أهل عصرنا بالإنكار ؛ وهم فى إنكارهم مقلدون ، ويزعمون أنهم بعقلهم يهتدون . وقد سبقهم إلى ذلك غيرهم ، ورد عليهم العلماء :

فقال الحافظ فى الفتح ١٠ : ١٩٢ « قال المازرى : أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث ، وزعموا أنه يحط منصب النبوة ويشكك فيها ! قالوا : وكل ما أدى إلى ذلك فهو باطل . وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع ؛ إذ يحتمل على هذا أنه يخيل إليه أنه يرى جبريل وليس هو ثم ! وأنه يوحى إليه بشىء ولم يوح إليه بشىء !! قال المازرى : وهذا كله مردود . لأن الدليل قد قام على صدق النبى صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن الله تعالى ، وعلى عصمته فى التبليغ ، والمعجزات شاهدات بتصديقه . فتجويز ما قام الدليل على خلافه باطل . وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التى لم يبعث لأجلها ، ولا كانت الرسالة من أجلها — فهو فى ذلك عرضة لما يعترض البشر ، كالأمراض . فغير بعيد أن يخيل إليه فى أمر من أمور الدنيا ما لا حقيقة له ، مع عصمته عن مثل ذلك من أمور الدين » . ثم أفاض الحافظ فى هذا البحث الدقيق ، بقوته المعروفة ، فى جمع الروايات وتفسيرها ، بما لا يدع شكاً عند من ينصف .

وعقد القاضى عياض فصلا جيداً فى هذا البحث ، فى كتاب الشفاء . انظره فى شرح العلامة على القارى ٢ : ١٩٠ — ١٩٣ من طبعة بولاق سنة ١٢٥٧ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سحرتني يهود بني زُرَيق .[1]

* * *

وأنكر قائلو هذه المقالة أن يكون الساحر يقدر بسحره على قلب شيء عن حقيقته، واستسخار شيء من خلق الله — إلا نظيرَ الذي يقدر عليه من ذلك سائر بني آدم — أو إنشاء شيء من الأجسام سوى المخاريق والخُدَع المتخيَّلة لأبصار الناظرين بخلاف حقائقها التي وصفنا . وقالوا : لو كان في وسع السحرة إنشاءُ الأجسام وقَلب حقائق الأعيان عما هي به من الهيئات ، لم يكن بين الحق والباطل فصْل ،[2] ولجاز أن تكون جميع المحسوسات مما سحرته السحرة فقلبت أعيانها . قالوا : وفي وصف الله جل وعز سَحرةَ فرعون بقوله : ﴿ فإذا حِبَالُهُم وعِصِيُّهم يُخَيَّل إلَيهِ منْ سِحْرِهم أنَّها تَسْعَى ﴾ [سورة طه : ٦٦] ، وفي خبر عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذْ سحر يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله ، أوضح الدلالة على بُطولِ دعوى المدعين = : أن الساحر يُنشيء أعيان الأشياء بسحره، ويستسخر ما يتعذر استسخاره على غيره من بني آدم ، كالموات والجماد والحيوان = وصحةِ ما قلنا .[3]

* * *

وقال آخرون : قد يقدر الساحر بسحره أن يحوّل الإنسان حماراً ، وأن يسحر الإنسان والحمار ، وينشيء أعياناً وأجساماً ، واعتلوا في ذلك بما : —

١٦٩٥ — حدثنا به الربيع بن سليمان قال ، حدثنا ابن وهب قال ، أخبرنا ابن أبي الزناد قال ، حدثني هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة زوج

---

(١) الحديث : ١٦٩٤ — هذا في معنى الحديثين قبله . ولكن هذا مرسل . وقد روى ابن سعد ٢/٢/٥ ، نحوه مختصراً ، عن الزهري ، « عن ابن المسيب وعروة بن الزبير ، قالا : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سحرتني يهود بني زريق » . وقد أشار الحافظ في الفتح ١٠ : ١٩٣ إلى أن مرسل سعيد بن المسيب رواه عبد الرزاق ، وذكر من بعض ألفاظه ما يدل على أنه أطول مما هنا . وقوله : « بئر حزم » ، لا يعرف . والذي في الروايات جميعا : « بئر ذروان »

(٢) في المطبوعة : « فضل » ، وهو خطأ .

(٣) سياق العبارة : « أوضح الدلالة على بطول دعوى المدعين . . . وصحة ما قلنا » معطوفاً .

النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت : قدمت عليّ امرأة من أهل دُومَة الجندل ، جاءت تبتغي رَسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته حَداثَةَ ذلك ،[1] تسأله عن شيء دَخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به . قالت عائشة لعروة : يا ابن أختي ، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيَشفيها ![2] كانت تبكي حتى إنيّ لأرحمها ! وتقول : إني لأخاف أن أكونَ قد هلكت ! كان لي زوج فغاب عني ، فدخلتْ عليَّ عجوز فشكوت ذلك إليها ، فقالت : إن فعلتِ ما آمرك به ، فأجعله يأتيك ! فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين ، فركبت أحدهما وركبت الآخر ، فلم يكن كشيء حتى وقفنا ببابل ،[3] فإذا برجلين معلَّقين بأرجلهما ، فقالا : ما جاء بك ؟ فقلت : أتعلّم السحر ! فقالا : إنما نحن فتنةٌ ، فلا تكفري وَارْجعي . فأبيت وقلت : لا . قالا : فَاذهبي إلى ذلك التنُّور فبولى فيه .[4] فذهبت ففزعت فلم أفعل ، فرجعت إليهما ، فقالا : أفعلت ؟ قلت : نعم . فقالا : فهل رأيت شيئاً ؟ قلت : لم أر شيئاً ! فقالا لي : لم تفعلي ، ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فأربتُ وأبيتُ ،[5] فقالا : اذهبي إلى ذلك التنوّر فبولي فيه . فذهبت فاقشعرَرْت ، ثم رجعت إليهما فقلت : قد فعلت . فقالا : فما رأيت ؟

٢٦٧/١

---

(١) يقال : «كان ذلك في حدثان كذا وكذا» (بكسر فسكون) ، و «في حداثته» : أي على قرب عهد به .

(٢) يشفيها : أي يجيبها بما يبلغ بها سكينة القلب فتبرأ من حيرتها . ومنه : « شفاء العي السؤال » . والجهل والحيرة مرض يسقم القلوب والنفوس .

(٣) في ابن كثير ١ : ٢٦٠ : « فلم يكن شيء » ، والصواب ما هنا وفي الدر المنثور ١ : ١٠١ وقولها : « فلم يكن كشيء » عبارة جيدة ، بمعنى : لم يكن ما مضى كشيء يعد ، بل أقل من القليل . والعرب تقول : تأخرت عنك شيئاً ، أي قليلا . ومنه قول عمر بن أبي ربيعة .

وَقَالَتْ لَهُنَّ : أرْبَعْنَ شَيْئاً ، لعلّنِي وَإنْ لاَمَنِي فِيماَ ارتأَيْتُ مُلِيمُ

أي قفن قليلا . ويقولون في مثل ذلك أيضاً : « لم يكن إلا كلا ولا » ، كل ذلك بمعنى السرعة الخاطفة .

(٤) في المطبوعة : « فقالا ، اذهبي . . . » ، وأثبت ما في الدر المنثور وابن كثير ، فهي أجود .

(٥) في المطبوعة : « فأبيت » بحذف « فأربت » . وأرب بالمكان لزمه ولم يبرحه . والزيادة من ابن كثير في الموضعين .

فقلت : لم أر شيئاً . فقالا : كذبت لم تَفعلى ، ارجعى إلى بلادك ولا تكفرى ، فإنك على رأس أمرك ![1] فأربيتُ وأبيتُ ، فقالا : اذهبي إلى ذلك التنور فبولى فيه . فذهبت إليه فبلت فيه ، فرأيت فارساً مُتقنّعاً بحديد خرج منى حتى ذَهَبَ فى السماء ، وغاب عنى حتى ما أراه . فجئتهما فقلت : قد فعلت ! فقالا : ما رأيت ؟ فقلت : فارساً متقنّعاً خرجَ منّى فذهب فى السماء حتى ما أراه .[2] فقالا : صدقت ، ذلك إيمانك خرج منك ، اذهبي . فقلت للمرأة : والله ما أعلم شيئاً ! وما قالا لى شيئاً ! فقالت : بلى ، لن تريدى شيئاً إلا كان ! خذى هذا القمح فابذرى . فبذرت ، وقلت : أطلعى ! فأطلعت ، وقلت : أحقلى ! فأحقلت ، ثم قلت : أفرِكى ! فأفركت ، ثم قلت : أيْبِسى ! فأيبستْ ، ثم قلت : أطحِنى ! فأطحنت ، ثم قلت : أخبِزى ، فأخبزت .[3] فلما رأيت أنّى لا أريد شيئاً إلا كان ، سُقط فى يدى وندمتُ والله يا أم المؤمنين ! والله ما فعلتُ شيئاً قط ولا أفعله أبداً ![4]

* * *

---

(١) يقال : أنت على رأس أمرك ، وعلى رئاس أمرك : أى فى أوله وعلى شرف منه . وزعم الجوهرى أن قولهم : « على رأس أمرك » من كلام العامة ، وهذا الخبر ينقض ما قال .

(٢) فى تفسير ابن كثير والدر المنثور : « فرأيت فارساً » ، وما هنا صواب جيد .

(٣) فى هذه الفقرة كلمات لم تثبتها كتب اللغة ، سأذكرها فى مدرج شرحها . « أطلعى فأطلعت » أى أخرجى شطأك ، من قولهم : أطلع الزرع ، إذا بدا أول نباته من الأرض . « أحقلى فأحقلت » . أى أخرجى حقلك . والحقل : الزرع اذا استجمع خروج نباته . أحقل الزرع : تشعب ورقه من قبل أن تغلظ سوقه . « أفركي فأفركت » ، أى كونى فريكاً . وهو حب السنبلة إذا اشتد وصلح أن يفرك . أفرك السنبل : صار فريكاً ، وهو حين يصلح أن يفرك فيؤكل . و « أيبس فأيبست » أى كونى حباً يابساً ، أيبس البقل : يبس وجف . « أطحنى فأطحنت » . أى كونى طحيناً . ولم يرد فى كتب اللغة : « أطحن » ، ولكنها أتبعت هذا الحرف ما مضى من أخواته ، وهى عربية سليمة ماضية على سنن اللغة فى هذا الموضع . « أخبزى فأخبزت » ، أى كونى خبزاً يؤكل ، وهذه أيضاً لم ترد فى كتب اللغة ، ولكنها عريقة كأختها السالفة . وقد قال ابن كثير أن إسناد هذا الحديث جيد إلى عائشة ، وأن الحاكم صححه ، فإن كان ذلك كما قالا ، فلا شك فى عربية هذه الألفاظ من طريق الرواية أيضاً .

(٤) الخبر : ١٦٩٥ — مضت قطعة منه ، بإسناد آخر إلى ابن أبى الزناد : ١٦٩١ .

وهذا الخبر نقله ابن كثير ١ : ٢٦٠ — ٢٦١ ، بطوله ، من الطبرى . وقدم له بكلمة ، قال : « وقد ورد فى ذلك أثر غريب ، وسياق عجيب فى ذلك . أحببنا أن ننبه عليه » . ثم قال بعد نقله :

قال أهل هذه المقالة بما وصفنا ، واعتلّوا بما ذكرنا ، وقالوا : لولا أن الساحر يقدرُ على فعل ما ادّعى أنه يقدر على فعله ، ما قدر أن يُفرّق بين المرء وزوجه . قالوا: وقد أخبر الله تعالى ذكره عنهم أنهم يتعلّمون من الملكين ما يفرّقون به بين المرء وزوجه . وذلك لو كان على غير الحقيقة ، وكان على وجه التخييل والحُسبان ، لم يكن تفريقاً على صحة ، وقد أخبر الله تعالى ذكره عنهم أنهم يفرقون على صحة .

* * *

وقال آخرون : بل « السحر » أخذٌ بالعين .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾

قال أبو جعفر : وتأويل ذلك : وما يعلّم الملكان أحداً من الناس الذى أنزِل عليهما من التّفريق بين المرء وزوجه ، حتّى يقولا له : إنّما نحن بلاءٌ وفتنة لبنى آدم ، فلا تكفر بربك . كما : —

١٦٩٦ — حدثنى موسى قال، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن

« فهذا إسناد جيد إلى عائشة رضى الله عنها » . وذكر أنه رواه ابن أبى حاتم عن الربيع بن سليمان ، بأطول منه .

وذكره السيوطى ١ : ١٠١ ، ونسبه أيضاً للحاكم وصححه . والبيهقى فى سننه .

وهى قصة عجيبة ، لا ندرى أصدقت تلك المرأة فيما أخبرت به عائشة ؟ أما عائشة فقد صدقت فى أن المرأة أخبرتها . والإسناد إلى عائشة جيد ، بل صحيح .

الربيع بن سليمان : هو المرادى المصرى المؤذن ، صاحب الشافعى وراوية كتبه ، وهو ثقة . مترجم فى التهذيب ، وابن أبى حاتم ١/٢/٤٦٤ . ابن أبى الزناد : هو «عبد الرحمن بن أبى الزناد عبد الله بن ذكوان » ، وهو ثقة ، تكلم فيه بعض الأئمة ، فى روايته عن أبيه ، وفى رواية البغداديين عنه . والحق أنه ثقة ، وخاصة فى حديث هشام بن عروة . فقد قال ابن معين — فيما رواه أبو داود عنه عند الخطيب وغيره — « أثبت الناس فى هشام بن عروة : عبد الرحمن بن أبى الزناد » . وقد وثقه الترمذى وصحح عدة من أحاديثه ، بل قال فى السنن ٣ : ٥٩ ، فى حديث له صححه ، وفيه حرف لم يروه غيره ، فقال : « وإنما ذكره عبد الرحمن بن أبى الزناد ، وهو ثقة حافظ » .

السدى قال : إذا أتاهما — يعنى هاروت وماروت — إنسان يريد السحر ، وَعظاه وقالا له : لا تكفر ، إنما نحن فتنة ! فإن أبى ، قالا له : ائت هذا الرماد فبُلْ عليه . فإذا بال عليه خرج ، منه نور يَسطعَ حتى يدخل السماء — وذلك الإيمان — وأقبل شىء أسوَدُ كهيئة الدخان حتى يدخل فى مَسامعه وكل شىء منه ،[1] فذلك غضب الله . فإذا أخبرهما بذلك علماه السحر . فذلك قول الله : « وما يُعلِّمان من أحد حتى يقولا إنما نحنُ فتنةٌ فلا تكفر » الآية .

١٦٩٧ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة والحسن : « حتى يَقولا إنما نحن فتنة فلاتكفر » ،قال: أخِذ عليهما الميثاق أن لا يعلّما أحداً حتى يقولا: « إنما نحنُ فتنة فلا تكفر » .[2]

١٦٩٨ — حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر قال ، قال قتادة : كانا يعلّمان الناس السحر ، فأخِذ عليهما أن لا يعلما أحداً حتى يقولا : « إنما نحنُ فتنةٌ فلا تكفر » .

١٦٩٩ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثنا أبو سفيان ، عن معمر قال ، قال غير قتادة : أخِذ عليهما أن لا يعلِّما أحداً حتى يَتقدَّما إليه فيقولا : « إنما نَحنُ فتنة فلا تكفر » . ٣٦٨/١

١٧٠٠ — حدثنا ابن بشار قال ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن عوف ، عن الحسن قال: أخِذ عليهما أن يقولا ذلك .

١٧٠١ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قال: أُخذ الميثاق عليهما أن لا يعلِّما أحداً حتى يقولا: « إنما نحن فتنة فلا تكفر » . لا يجترئ على السحر إلاّ كافر.

• • •

---

(١) فى المطبوعة : « وقيل شىء أسود ... » كلام بلا معنى . والتصحيح من ابن كثير ١ : ٢٦٢

(٢) فى المطبوعة : « أخذ عليها أن لا يعلما » والزيادة من ابن كثير ١ : ٢٦٢

وأما « الفتنة » فى هذا الموضع ، فإن معناها : الاختبارُ والابتلاء ، من ذلك قول الشاعر :[١]

وَقَدْ فُتِنَ النَّاسُ فِى دِينِهِمْ وَخَلَّى ابنُ عَفَّانَ شَرًّا طَوِيلاَ[٢]

ومنه قوله : « فتنت الذَّهبَ فى النار » ، إذا امتحنتها لتعرفَ جَوْدَتَها من رَدَاءتها ، « أفتنها فِتنة وفُتوناً » ، كما : —

١٧٠٢ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « إنما نَحنُ فتنةٌ » ، أى بلاء .

* * *

---

(١) نسبه الطبرى فى تاريخه ١ : ١٥١ — ١٥٢ للحتات بن يزيد المجاشعى عم الفرزدق . ونسبه البلاذرى فى أنساب الأشراف ٥ : ١٠٤ إلى : على بن الغدير بن المضرس الغنوى ، وإلى : إهاب بن همام بن صعصعة بن ناجية بن عقال المجاشعى ، وإلى : ابن الغريرة النهشلى ، وهو كثير بن عبد الله بن مالك النهشلى ، وهو مخضرم ، وإليه أيضاً فى معجم الشعراء : ٣٤٩ ، وفى الكامل للمبرد ٢ : ٣٤ ، وقال أبو الحسن الأخفش : « ابن الغريرة الضبى » ، وهو خطأ محض ، إنما هو النهشلى .

(٢) أول هذه القصيدة :

نَأتْكَ أُمَامَةُ نَأياً طَوِيلاَ وَحَمَّلَكَ الحُبُّ عِبئاً ثَقِيلاَ

ثم قال :

لَعَمْرُ أَبِيكِ فَلاَ تَجْزَعِى لَقَدْ ذَهَبَ الخَيْرُ إلاَّ قَلِيلاَ
لَقَدْ فُتِنَ النَّاسُ فِى دِينِهِمْ وَخَلَّى ابنُ عَفَّانَ شَرًّا طَوِيلاَ
أَعَاذِلَ كُلُّ امْرِئٍ هَالِكٌ فَسِيرِى إلى اللهِ سَيْراً جَمِيلاَ
فَإِنَّ الزَّمَانَ لَهُ قَدَّةٌ ولا بُدَّ قَدَّتَهُ أَنْ تَزُولاَ

وروى الطبرى صدر البيت الذى استشهد به هنا فى تاريخه :

« لَقَدْ سَفِهَ النَّاسُ فى دِينِهِمْ »

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾

قال أبو جعفر: وقوله جل ثناؤه: «فيتعلّمون منهما»، خبرٌ مبتدأٌ عن المتعلّمين من الملكين ما أنزِل عليهما، وليس بجواب لقوله: «وما يعلّمان من أحد»، بل هو خبرٌ مُستأنفٌ، ولذلك رُفع فقيل: «فيتعلّمون». فمعنى الكلام إذاً: وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة، فيأبَوْن قبول ذلك منهما، فيتعلّمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه.[1]

وقد قيل إنّ قوله: «فيتعلمون»، خبرٌ عن اليهود معطوفٌ على قوله: «ولكنّ الشياطين كفروا يُعلّمون الناس السحرَ وما أنزِل على الملكين ببابلَ هاروتَ وماروتَ»، «فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه». وجعلوا ذلك من المؤخر الذى معناه التقديم.

* * *

والذى قلنا أشبه بتأويل الآية. لأن إلحاق ذلك بالذى يليه من الكلام، ما كان للتأويل وجه صحيح،[2] أولى من إلحاقه بما قد حيل بينه وبينه من معترض الكلام.

* * *

و «الهاء» و«الميم» و«الألف» من قوله: «منهما»، من ذكر الملكين. ومعنى ذلك: فيتعلّم الناس من الملكين الذى يفرّقون به بين المرء وزجه.

* * *

و «ما» التى مع «يفرّقون» بمعنى «الذى». وقيل: معنى ذلك: السحرُ الذى يفرقون به. وقيل: هو معنى غير السحر. وقد ذكرنا اختلافهم فى ذلك فيما مضى قبل.[3]

---

(١) يعنى الطبرى أن فى الكلام حذف اجتزأ بفهم سامعه عن ذكره، وهو قوله: «فيأبون قبول ذلك منهما».

(٢) قوله: «ما كان للتأويل ...»، هى ما يقولونه فى العربية الركيكة «ما دام للتأويل ...».

(٣) انظر ما سلف: ٤٢٣ - ٤٢٤

* * *

وأما « المرء » ، فإنه بمعنى : رجل من أسماء بني آدم ، والأنثى منه « المرأة » . يوحّد ويثنّى ولا تُجمع ثلاثته على صورته ،[1] يقال منه : « هذا امرؤ صالح ، وهذان امرآن صالحان » . ولا يقال : هؤلاء امرؤو صدق ، ولكن يقال : « هؤلاء رجالُ صِدق وَقوْم صِدق » . وكذلك المرأة توحد وتثنى ولا تُجمع على صورتها . يقال : « هذه امرأة ، وهاتان امرأتان » . ولا يقال : هؤلاء امرآت ، ولكن : « هؤلاء نسوة » .

* * *

وأمّا « الزوج » ، فإنّ أهل الحجاز يقولون لامرأة الرجل : « هي زوجه » بمنزلة الزوج الذكر ، ومن ذلك قول الله تعالى ذكره ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٧] ، وتميمٌ وكثير من قيسٍ وأهل نجد يقولون : « هي زوجته » .[2] كما قال الشاعر :[3]

وَإِنَّ الَّذِي يَمْشِي يُحَرِّشُ زَوْجَتِي كَمَاشٍ إِلَى أُسْدِ الشَّرَى يَسْتَبِيلُهَا[4]

* * *

فإن قال قائل : وكيف يفرِّق الساحرُ بين المرء وَزوجه ؟

قيل قد دللنا فيما مضى على أنّ معنى « السحر » : تخييل الشيء إلى المرء بخلاف ما هو به في عينه وحقيقته ، بما فيه الكفاية لمن وفق لفهمه .[5] فإذ كان

(١) في المطبوعة : « ولا يجمع ثلاثيه » خطأ محض .

(٢) انظر ما سلف ١ : ٥١٤ ، ففيه زيادة عما هنا .

(٣) هو الفرزدق .

(٤) ديوانه : ٦٠٥ ، والأغاني ٩ : ٣٢٦ ، و ١٩ : ٨ (ساسي) ، في قصته مع النوار ، ويقول هذا الشعر لبني أم النسير (طبقات فحول الشعراء : ٢٨١ ، والأغاني) ، وكانت خرجت مع رجل يقال له زهير بن ثعلبة ومع بني أم النسير ، فقال هذا الشعر ، وبعد البيت :

وَمِنْ دُونِ أَبْوَالِ الأُسُودِ بَسَالَةٌ وَصَوْلَةُ أَيْدٍ يمنعُ الضَّيمَ طُولُهَا

ورواية الديوان وغيره :

* وَإِنَّ امْرَءًا يَسْعَى يُخَبِّبُ زَوْجَتِي *

وقوله : « يخبب » ، أي يفسدها علي . ويحرش : يحرض ويغرى بيني وبينها . و « يستبيلها » : أي يطلب أن تبول في يده .

(٥) انظر ما سلف : ٤٣٥ وما بعدها .

ذلك صحيحاً بالذى استشهدنا عليه ،[١] فتفريقه بين المرء وزوجه : تخييله بسحره إلى كلّ واحد منهما شخصَ الآخر على خلاف ما هو به فى حقيقته، من حسن وجمال ، حتى يقبّحه عنده ، فينصرف بوجهه ويعرض عنه ، حتى يُحدِثُ الزوجُ لامرأته فراقاً . فيكون الساحر مفرِّقاً بينهما بإحداثه السبب الذى كان منه فُرْقَةُ ما بينهما . وقد دلّلنا ، فى غير موضع من كتابنا هذا ، على أنّ العرب تضيفُ الشىء إلى مُسبِّبه من أجل تسبّبه، وإن لم يكن باشَرَ ما حدَثَ عن السَّبب — بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع.[٢] فكذلك تفريق الساحر بسحره بين المرء وزوجه . ٣٦٩/١

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قاله عدد من أهل التأويل . ذكر من قال ذلك:

١٧٠٣ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد، عن قتادة: «فيتعلَّمون منهما ما يفرقون به بَين المرء وزَوْجه »، وتفريقُهما: أن يُؤَخِّذ كلّ واحد منهما عن صاحبه،[٣] ويُبغِّض كلّ واحد منها إلى صاحبه .

* * *

وأما الذين أبوْا أن يكونَ الملكان يعلِّمان الناسَ التفريقَ بين المرء وزوجه، فإنهم وجّهوا تأويل قوله: «فيتعلَّمون منهما » إلى: فيتعلمون مكانَ ما عَلَّماهم مَا يُفرّقون به بين المرء وزوجه ، كقول القائل: « ليت لَنا كذا من كذا »، أى مكانَ كذا ، كما قال الشاعر :

جُمِعَتْ مِنَ الخَيْرَاتِ وَطْباً وَعُلْبَةً ... وَصَرًّا لأَخْلاَفِ المُزَنَّمَةِ البُزْلِ[٤]

---

(١) فى المطبوعة : « فإن كان ذلك صحيحاً » ، والأجود ما أثبت .

(٢) انظر ما سلف ١ : ١٩٦ .

(٣) أخذه تأخيذاً . والتأخيذ: حبس السواحر أزواج النساء عن غيرهن من النساء، ويقال لهذه الحيلة : الأُخذة (بضم فسكون) .

(٤) لم أعرف قائلها ، ولم أجدها إلا فى أمالى الشريف المرتضى ١ : ٤٢١ ، وكأنه نقلهما عن الطبرى ، لأنهما جاءا فى تفسير هذه الآية ، على هذا المعنى . والوطب : سقاء اللبن خاصة . والعلبة : جلدة تؤخذ من جنب البعير ، فتسوى مستديرة ، ثم تملأ رملا سهلا ، ثم تضم أطرافها بخلال حتى تجف وتيبس ، ثم يقطع رأسها وقد قامت قائمة لجفافها تشبه قصعة مدورة ، فكأنها نحتت نحتاً ، ويعلقها

وَمِنْ كُلِّ أخْلَاقِ الكِرَامِ نَمِيمَةً ، وَسَعْياً عَلَى الجَارِ المُجَاوِرِ بالنَّجْلِ (١)

يريد بقوله : « جمعت من الخيرات » ، مكانَ خيراتِ الدنيا هذه الأخلاقَ الرديئة والأفعالَ الدنيئة ، ومنه قول الآخر :

صَلَدَتْ صَفَاتُكَ أنْ تَلِينَ حُيُودُهَا وَوَرِثْتَ مِنْ سَلَفِ الكِرَامِ عُقُوقَا (٢)

يعنى : ورثت مكان سلف الكرام، عقوقاً من والديك .

* * *

الراعى ويشرب بها ، وله فيها رفق وخفة لأنها لا تنكسر إذا حركها البعير أو طاحت إلى الأرض .
والصر : شد ضرع النوق الحلوبات إذا أرسلوها للمرعى سارحة ، ويسمون ذلك الرباط : صراراً .
والأخلاف جمع خلف (بكسر فسكون) ، وهو ضرع الناقة . والبزل جمع بازل ، يقال بعير بازل وناقة بازل : وهى الناقة أو البعير إذا استكمل الثامنة وطعن فى التاسعة ، وبزل نابه ، أى انشق عن اللحم . وهو أقصى سنه وتمام قوته . وفى المطبوعة هنا « المذممة » ، وفى أمالى الشريف : « المزممة » ، وفى نسخة أخرى منها « المزهمة » ، وقد علق أحد أصحاب الحواشى على الأمالى فقال : « المزمة : التى علق عليها الزمام » . واخترت أن تكون « المزنمة » ، فهى أشبه بهذا الشعر . يقال ناقة مزنمة : وهى التى عليها سمة التزنيم ، وهو أن يقطع طرف أذنه ويترك له زنمة مشرفة . وإنما يفعل ذلك بالكرام من الإبل .
وهذا هجاء يقول له : إنما أنت راع خسيس، ترعى على السادة الكرام كرام إبلهم ، ولا تجمع من خيرات ما يتمتع به سادتك ، إلا وطباً وعلبة وعلاجاً لإبلهم التى ترعاها عليهم .

(١) الجار : الذى قرب منزله من منزلك ، ووصفه بقوله : « المجاور » للدلالة على شدة قربه ، وهو الجار الجنب ، فهو أشد حرمة لنزوله فى جواره ومنعته ، وركونه إلى أمان عهده . والنجل : تمزيق عرضه بالغيبة والمعابة والسب بظهر الغيب . وفى الحديث : « من نجل الناس نجلوه» أى سبهم وقطع أعراضهم بالشتم كما يقطع بالمنجل ، جازوه بمثل فعله .

(٢) لم أعرف قائله . صلدت : صلبت وقست . والصفاة : الحجر الصلد الأملس الضخم الذى لا ينبت شيئاً . والحيود جمع حيد : وهو النتوء فى الجبل أو القرن أو غيرهما . وهذا مثل: يقول له أنت غليظ جاف لا يصلحك شىء ، ولا خير فيك ، كالصفاة الملساء ذات النتوء ، لا يصلحها شىء ولا تأتى بخير . والسلف : سلف الإنسان : من تقدمه من آبائه وذوى قرابته ممن هم فوقه فى السن والفضل . يقول : ورثت من والديك مكان مآثر الأسلاف الكرام ، عقوقاً ، فأنت تعقهم ، كما عقوا هم آباءهم . فأنتم خلف يلعن سلفاً لئيما عاقاً ، يلعن أسلافه . فأنتم معرقون فى العقوق ، وهو شر أخلاق الناس .

القول فى تأويل قوله عز وجل ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه: « وما هُمْ بضارِّين به من أحَدٍ إلا بإذن الله » ، وما المتعلّمون من الملكين هاروت وماروت ما يُفرّقون به بين المرء وزوجه ، بضارّين — بالذى تعلموه منهما ، من المعنى الذى يفرّقون به بين المرء وزوجه — منْ أحد من الناس إلاّ من قد قضى الله عليه أنّ ذلك يضرّه . فأما من دَفع الله عنه ضرَّه ، وحفظه من مكروه السحر والنفث والرُّق ، فإنّ ذلك غيرُ ضارِّه ، ولا نائلِه أذاه .

* * *

ولِ « الإذن » فى كلام العرب أوجه . منها : الأمر على غير وجه الإلزام . وغيرُ جائز أن يكون منه قوله : « وما هُمْ بضارّين به منْ أحد إلا بإذن الله » ، لأن الله جل ثناؤه قد حرَّم التفريق بين المرء وحليلته بغير سحر — فكيف به على وجه السحر؟ — على لسان الأمة .(١)

ومنها : التخليةُ بين المأذون له ، والمخلَّى بينه وبينه .

ومنها العلم بالشىء ، يقال منه : « قد أذِنْتُ بهذا الأمر » إذا علمت به « آذن به إذْناً » ، ومنه قول الحطيئة :

أَلاَّ يَا هِنْدُ ، إِنْ جَدَّدْتِ وَصْلاً ، وَإِلَّا فَأْذَنِينِى بِانْصِرَامِ (٢)

يعنى : فأعلمينى . ومنه قوله جل ثناؤه : ﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٩] ، وهذا هو معنى الآية ، كأنه قال جل ثناؤه : وما هُمْ بضارين ،

(١) كأنه يريد : حرم التفريق على لسان الأمة : أن تنطق به وتأمر بفعله .

(٢) لم أجد البيت فى ديوان الحطيئة المطبوع . وقوله « فأذنينى » ، يدل على أن الفعل متعد : « أذنه بالشىء يأذنه إذناً » أعلمه به ، مثل « آذنه به » . ولم يرد ذلك فى شىء من كتب اللغة ، والبيت شاهد عليه ، وشرح الطبرى بعد دال أيضاً على مراده .

بالذى تعلموا من الملكين ، من أحد إلا بعلم الله . يعنى : بالذى سبق له فى علم الله أنه يضره ، كما : —

١٧٠٤ — حدثنى المثنى بن إبراهيم قال ، حدثنا سويد بن نصر قال ، أخبرنا ابن المبارك، عن سفيان فى قوله : « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله »، قال : بقضاء الله .

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : [1] و« يتعلمون »، الناسَ الذين يتعلمون من الملكين ما أنزل عليهما من المعنى الذى يفرقون به بين المرء وزوجه ، يتعلمون ١/ ٣٧٠ منهما السحرَ الذى يضرهم فى دينهم ، ولا ينفعهم فى معادهم . فأما فى العاجل فى الدنيا ، فإنهم قد كانوا يكسبون به ويصيبون به معاشاً .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : «ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق » ، الفريقَ الذين لما جاءهم رسولٌ من عند الله مصدقٌ لما معهم ، نبذوا كتاب الله وراءَ ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، واتبعوا ما تتلوا الشياطينُ على مُلك سليمان ، فقال جل ثناؤه : لقد علم النابذون — من يهود بنى

---

(١) فى المطبوعة : « يعنى بذلك جل ثناؤه . ويتعلمون أى الناس الذين يتعلمون . . . » وهو كلام غير مستقيم ، كأنه تصرف من بعض النساخ .

إسرائيل — كتابى وراءَ ظهورهم تجاهلاً منهم= التاركون العملَ بما فيه من اتباعك يا محمد واتباع ما جئتَ به ، بعدَ إنزالى إليك كتابى مصدقاً لما معهم ، وبعد إرسالك إليهم بالإقرار بما معهم وما فى أيديهم ، المؤثرون عليه اتّباعَ السحر الذى تلته الشياطين على عَهد سليمان ، والذى أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت = لَمَنِ اشترى السحرَ بكتابى الذى أنزلته عَلى رسولى فآثرَه عليه، مَالَه فى الآخرة من خَلاقٍ . كما : —

١٧٠٥ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة: « ولَقدْ عَلموا لمَن اشتراه ما لَهُ فى الآخرة من خَلاقٍ » ، يقول : قد علم ذلك أهل الكتاب فى عَهد الله إليهم : أنّ الساحرَ لا خَلاقَ له عند الله يَوْم القيامة .

١٧٠٦ — حدثنا موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « ولقد علموا لمَن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق » ، يعنى اليهود . يقول : لقد علمت اليهودُ أنّ من تعلمه أو اختاره ، ما له فى الآخرة من خلاق.

١٧٠٧ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « ولقد علموا لمَن اشتراه ما له فى الآخرة من خَلاقٍ »، لمن اشترَى ما يفرق به بين المرء وزوجه .

١٧٠٨ — حدثنى يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : « ولقد علموا لمَن اشتراه ما لَه فى الآخرة من خلاق » ، قال : قد علمت يهودُ أنّ فى كتاب الله فى التوراة : أنّ من اشترى السحر وترك دين الله ، ما له فى الآخرة من خلاق . فالنار مَثواه ومَأواه .

* * *

قال أبو جعفر : أما قوله : « لمَن اشتراه »، فإن « من » فى موضع رفع ، وليس

قوله : « ولقد علموا » بعامل فيها . لأن قوله: « ولقد علموا »، [١] بمعنى اليمين ، فلذلك كانت فى موضع رفع . لأن الكلام بمعنى : والله لمن اشترى السحر ماله فى الآخرة من خلاق . ولِيكَوْن قوله: « قد علموا » بمعنى اليمين ، حُقِّقت بـ « لام اليمين »، فقيل: « لَمَن اشتراه »، كما يُقال: «أقسم لَمَنْ قام خير ممن قعد » . وكما يقال : « قَدْ علمت ، لعمرٌو خيرٌ من أبيك » .

* * *

وأمّا « مَنْ » فهو حرف جزاء . وإنما قيل: « اشتراه » ولم يُقل: « يشتروه »، لدخول « لام القسم » على « مَنْ ». ومن شأن العرب — إذا أحدثت على حَرْف الجزاء لام القسم — أن لا ينطقوا فى الفعل معه إلا بـ « فَعَل » دون بـ « يَفْعل »، إلاّ قليلاً ، كراهيةَ أن يُحدثوا على الجزاء حادثاً وهو مجزوم ، كما قال الله جل ثناؤه : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ﴾ [سورة الحشر : ١٢] ، وقد يجوز إظهار فعله بعده على « يفعل » مجزوماً ، [٢] كما قال الشاعر :

لَئِنْ تَكُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيْكُمْ بُيُوتُكُمْ لَيَعْلَمُ رَبِّى أَنَّ بَيْتِىَ وَاسِعُ [٣]

* * *

واختلف أهل التأويل فى تأويل قوله : « ما له فى الآخرة من خلاقٍ » .
فقال بعضهم: « الخلاق » فى هذا الموضع : النصيبُ . ذكر من قال ذلك :

١٧٠٩ — حدثنى المثنى بن إبراهيم قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « ماله فى الآخرة من خلاق » ، يقول: من نصيب .

---

(١) فى المطبوعة : « لأن قوله : علموا ، بمعنى اليمين » ، وآثرت إثبات « ولقد » ، لأن الجملة كلها بمعنى اليمين .

(٢) هذا كله فى معانى الفراء ١ : ٦٥ — ٦٩ ، مع تصرف فى اللفظ .

(٣) رواه الفراء فى معانى الفراء ١ : ٦٦ غير منسوب ، ولكن صاحب الخزانة ٤ : ٢٢٠ نسبه لكميت بن معروف ، ولكنى لم أجده منسوباً إليه فى كتاب آخر ، وأخشى أن يكون صاحب الخزانة قد وهم . هذا ، والبيت وما قبله جميعاً فى معانى الفراء ١ : ٦٥ — ٦٦ .

١٧١٠ — حدثني موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، ١/‏٣٧١
عن السدى: « ما لهُ فى الآخرة من خَلاق » ، من نصيب .

١٧١١ — حدثني المثنى قال، حدثني إسحق قال، حدثنا وكيع ، قال سفيان: سمعنا فى : « وَمَا لَه فى الآخرة من خلاق »، أنه ما له فى الآخرة من نصيب .

* * *

وقال بعضهم: « الخلاق » ههنا الحُجَّة . ذكر من قال ذلك :

١٧١٢ — حدثنا الحسن بن يحيي قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة : « وما له فى الآخرة من خَلاق » ، قال : ليس له فى الآخرة حُجَّة .

* * *

وقال آخرون: « الخلاق » : الدِّين . ذكر من قال ذلك:

١٧١٣ — حدثنا الحسن بن يحيي قال، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر قال ، قال الحسن : « ما له فى الآخرة من خَلاق »، قال : ليس له دين .

* * *

وقال آخرون : « الخلاق » ههنا القِوَام . ذكر من قال ذلك :

١٧١٤ — حدثنا القاسم قال،حدثنا الحسين قال ، حدثني حجاج قال ، قال ابن جريج ، قال ابن عباس : « ما له فى الآخرة من خلاق » ، قال قِوَام .

* * *

قال أبو جعفر : وأولى هذه الأقوال بالصواب قولُ من قال : : معنى « الخلاق » فى هذا الموضع : النصيب . وذلك أنّ ذلك معناه فى كلام العرب .

ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم :

١٧١٥ — « ليؤيِّدَنّ اللهُ هذا الدِّين بأقوام لا خَلاق لهم » .[1]

يعنى لا نصيبَ لهم ولا حظ فى الإسلام والدين . ومنه قول أمية ابن أبى الصلت :

يَدْعُونَ بالوَيْلِ فِيها لاَخَلاقَ لهمْ ... إلاّ سَرَابيلُ مِنْ قِطْرٍ وَأغْلاَلُ[2]

يعنى بذلك: لا نصيب لهم ولا حظ ، إلا السرابيلُ والأغلال .

• • •

فكذلك قوله : «ما له فى الآخرة من خَلاق» : ماله فى الدار الآخرة حظٌّ من الجنة ، من أجل أنه لم يكن له إيمان ولا دينٌ ولا عملٌ صالح يجازَى به فى الجنة ويثاب عليه ، فيكون له حظٌّ ونصيب من الجنة. وإنما قال جل ثناؤه : «ما له فى الآخرة من خَلاق» ، فوصفه بأنه لا نصيب له فى الآخرة ، وهو يعنى به : لا نصيب لَه من جزاءٍ وثوابٍ وجنة دون نصيبه من النار ، إذْ كان قد دَل ذمُّه جل ثناؤه أفعالَهم — التى نفى من أجلها أن يكون لهم فى الآخرة نصيبٌ — على مُراده من الخبر ، وأنه إنما يعنى بذلك أنه لا نصيب لهم فيها من الخيرات ، وأما من الشرور فإن لهم فيها نصيباً .

• • •

(١) الحديث : ١٧١٥ — هكذا علق الطبرى هذا الحديث ، بدون إسناد . وقد رواه أحمد فى المسند ٥ : ٤٥ (حلبى) ، من حديث أبى بكرة ، باللفظ : « إن الله سيؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ٥ : ٣٠٢ ، ثم قال : « رواه أحمد والطبرانى ، ورجالهما ثقات » . وذكره أيضاً بعده ، من حديث أنس ، وقال : « رواه البزار والطبرانى فى الأوسط ، وأحد أسانيد البزار ثقات الرجال » . (كذا بالأصل) . وذكره السيوطى فى الجامع الصغير : ١٨٣٨ ، ونسبه للنسائى وابن حبان من حديث أنس ، ولأحمد والطبرانى من حديث أبى بكرة . ونقل شارحه المناوى أن الحافظ العراقى قال : « إسناده جيد » . وحديث أنس رواه أيضاً أبو نعيم فى الحلية ٦ : ٢٦٢ . ورواه قبل ذلك ٣ : ١٣ ، من حديث الحسن مرسلا . ثم أشار إلى حديث أنس .

(٢) ديوانه : ٤٧ بيت مفرد . وقوله « فيها » ، أظنه يعنى النار . والقطر : النحاس الذائب .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠٢)

قال أبو جعفر : قد دللنا فيما مضى قبل على أن معنى « شروا » : « باعوا ».[1] فمعنى الكلام إذاً : ولبئس ما باع به نفسه مَنْ تعلَّم السحر ، لو كان يعلم سُوء عاقبته ، كما :

١٧١٦ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « ولبئسَ مَا شَرَوْا به أنفسهم » ، يقول : بئس ما باعوا به أنفسهم .

* * *

قال أبو جعفر : فإن قال لنا قائل : وكيف قال جل ثناؤه « ولبئس ما شَرَوْا به أنفسهم لو كانوا يَعلمون » ؟ وقد قال قبل : « ولقدْ علموا لَمَنِ اشتراه ما لَهُ فى الآخرة من خلاق » ، فكيف يكونون عالمين بأن مَنْ تعلم السحر فلا خلاق لَهم ، وهم يجهلون أنهم بئس مَا شَروا بالسحر أنفسهم ؟

قيل : إن معنى ذلك على غير الوجه الذى توهمته ، من أنهم موصوفون بالجهل بما هم موصوفون بالعلم به . ولكن ذلك من المؤخر الذى معناه التقديم . وإنما معنى الكلام : وما هم ضارُّون به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يَضرهم ولا ينفعهم ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ، ولقد علموا لَمَن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق . فقوله : « لبئسَ ما شَرَوْا به أنفسهم لو كانوا يَعملون » ، ذمٌّ من الله تعالى ذكره فعلَ المتعلِّمين من الملَكين التفريقَ بين المرء وزوجه ، وخبرٌ منه جل ثناؤه عنهم أنهم بئس ما شَروا به أنفسهم ، برضاهم بالسحر عوَضاً عن دينهم الذى به نجاةُ أنفسهم من الهلكة ، جهلاً منهم بسوء عاقبة فعلهم ، وخسارة صَفقة بَيْعهم . إذ كان قد يتعلَّم ذلك منهما من لا يعرف الله ، ولا يعرف حلاله وحرامه ، ٣٧٢/١

---

(١) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٣٤٠ — ٣٤٢

وأمره ونهيه . ثم عاد إلى الفريق — الذين أخبر الله عنهم أنهم نبذوا كتابه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتَّبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما أنزل على الملكين — فأخبر عنهم أنهم قد علموا أنَّ من اشترى السحر ، ما له فى الآخرة من خلاق ؛ ووصفهم بأنهم يركبون معاصىَ الله على علم منهم بها ، ويكفرون بالله ورسله ، ويؤثرون اتباعَ الشياطين والعملَ بما أحدثته من السحر ، على العمل بكتابه وَوحْيه وتنزيله ، عناداً منهم ، وبغياً على رسله ، وتعدّياً منهم لحدوده ، على معرفة منهم بما لِمَنْ فعل ذلك عند الله من العقاب والعذاب . فذلك تأويل قوله .

* * *

وقد زعم بعض الزاعمين أن قوله : « وَلَقد عَلموا لَمَنِ اشتراه مَا لَه فى الآخرة من خلاق » ، يعنى به الشياطين، وأن قوله : « لو كانوا يَعلمون » ، يعنى به الناس .

وذلك قول لجميع أهل التأويل مخالف . وذلك أنهم مجمعون على أن قوله : « ولقد عَلِموا لمن اشتراه » ، معنىٌّ به اليهود دون الشياطين : ثم هو — مع ذلك — خلافُ ما دلَّ عليه التنزيل. لأن الآيات قبل قوله : «ولقد علموا لَمَنَ اشتراه» وبعد قوله: « لو كانوا يعلمون» ، جاءت من الله بذمّ اليهود وتوبيخهم على ضلالهم ، وذمًّا لهم على نبذهم وَحْىَ الله وآيات كتابه وراء ظهورهم ، مع علمهم بخطأ فعلهم . فقوله : « ولقد علِموا لَمَن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق» ، أحد تلك الأخبار عنهم.

* * *

وقال بعضهم : إن الذين وصف الله جل ثناؤه بقوله : « ولبئس ما شروْا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » ، فنفى عنهم العلم ، هم الذين وصفهم الله بقوله : « ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق » . وإنما نَفى عنهم جل ثناؤه العلم بقوله : « لو كانوا يعلمون » — بعد وصفه إياهم بأنهم قد علموا بقوله : « ولقد علموا » — من أجل أنهم لم يعملوا بما علموا. وإنما العالم العامِل بعلمه ، وأما إذا خالف عملُه علمَهُ ، فهو فى معانى الجهال . قال : وقد يقال للفاعل الفعلَ بخلاف ما ينبغى أنْ يفعل ، وإن كان بفعله عالماً : « لو عَلمت لأقصرْتَ » ، كما قال كعب بن زهير المزنى ، وهو



يصف ذئباً وغراباً تبعاه لينالا من طعامه وزاده :

إِذَ حَضَرانِى قُلْتُ : لَوْ تَعْلَمَانِه ! أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّى مِنَ الزَّادِ مُرْمِلُ ؟[1]

فأخبر أنه قال لهما : «لو تعلمانه» ، فنفى عنهما العلم ، ثم استخبرهما فقال : «ألم تعلما ؟». قالوا : فكذلك قوله : «ولقد علموا لمن اشتراه» و «لو كانوا يعلمون».

* * *

وهذا تأويل وإن كان له مخرجٌ ووَجْهٌ ، فإنه خلافُ الظاهر المفهوم بنفس الخطاب ، أعنى بقوله : «ولقد علموا» وقوله : «لو كانوا يعلمون» ، وإنما هو استخراج . وتأويل القرآن على المفهوم الظاهر من الخطاب = دون الخفى الباطن منه ، حتى تأتى دلالةٌ — من الوجه الذى يجب التسليم له — بمعنًى خلافَ دليله الظاهر المتعارف فى أهل اللسان الذين بلسانهم نزل القرآن = أوْلى .[2]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠٣)

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : «ولو أنهم آمنوا واتقوا» ، لو أن الذين يَتعلّمون من الملكين ما يفرّقون به بين المرء وزوجه ، «آمنوا» فصدّقوا الله ورسوله وما جاءهم به من عند ربهم ، «واتقوا» ربَّهم فخافوه فخافوا عقابه فأطاعوه بأداء فرائضه وتجنَّبوا معاصيَه — لكان جزاءُ الله إياهم ، وثوابُه لهم على إيمانهم به وتقواهم إياه ، خيراً لهم من السحر وما اكتسبوا به ، «لو كانوا يعلمون» أن ثواب الله إياهم على ذلك

(١) ديوانه : ٥١ ، وأمالى الشريف المرتضى ١ : ٤٢٤ ، وكأنه كان ينقل كلام الطبرى فى تفسير هذه الآية ، مع التصرف . والمرمل : الذى نفد زاده . أرمل الرجل فهو مرمل ، كأنه لصق بالرمل لما أنفقض .

(٢) يقول : «وتأويل القرآن على المفهوم الظاهر من الخطاب . . . أولى» وفصل فأطال .

خيرٌ لهم من السحر ومما اكتسبوا به . وإنما نفى بقوله : « لو كونوا يعلمون » العلمَ عنهم : أن يكونوا عالمين بمبلغ ثواب الله ، وقدر جزائه على طاعته .

* * *

١/٢٧٢ و « المثوبة » فى كلام العرب ، مصدر من قول القائل : « أثبْتُك إثابة وثَوَاباً ومَثُوبة » . فأصل ذلك من : «ثاب إليك الشيء» بمعنى : رجع . ثم يقال : « أثبته إليك » : أى ، رجعته إليك ورددته . فكان معنى : « إثابة الرجل الرجلَ على الهدية وغيرها» : إرجاعُه إليه منها بدلاً ،[1] وردّه عليه منها عوضاً. ثم جعل كل معوِّض غيرَه من عمله أو هديته أو يدٍ له سَلفت منه إليه : مُثيباً له . ومنه « ثواب » الله عز وجل عبادَه على أعمالهم ، بمعنى : إعطائه إياهم العِوَض والجزاءَ عليه ، حتى يرجع إليهم بَدلٌ من عملهم الذى عملوا له

* * *

وقد زعم بعض نحويى البصرة أن قوله : « ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خيرٌ » ، مما اكتُفِى — بدلالة الكلام على معناه — عن ذكر جوابه . وأن معناه : ولو أنهم آمنوا واتقوا لأثيبوا ، ولكنه استغنى — بدلالة الخبر عن المثوبة — عن قوله : لأثيبوا .

* * *

وكان بعض نحويى أهل البصرة ينكر ذلك ، ويرى أنّ جواب قوله : « ولو أنهم آمنوا واتقوا » ، « لمثوبة » ، وأن «لو» إنما أجيبت «بالمثوبة» ، وإن كانت أخبِر عنها بالماضى من الفعل ، لتقارُب معناها من معنى « لئن » فى أنهما جزاآن ، فإنهما جوابان للإيمان . فأدخل جواب كل واحدة منهما على صاحبتها — فأجيبت « لو » بجواب « لئن » ، و « لئن» بجواب « لو » ، لذلك ، وإن اختلفت أجوبتهما ، فكانت « لو » من حكمها وحظها أن تجاب بالماضى من الفعل ، وكانت « لئن » من حكمها وحظها أن تجاب بالمستقبل من الفعل — لما وصفنا من تقاربهما . فكان يتأول معنى قوله : « ولو أنهم آمنوا َواتقوْا » : ولئن آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير .

---

(١) فى المطبوعة : « إرجاعه إليها » سهو من ناسخ .

* * *

وبما قلنا فى تأويل « المثوبة » قال أهل التأويل . ذكر من قال ذلك :

١٧١٧ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « لمثوبة من عند الله » ، يقول : ثوابٌ من عند الله .

١٧١٨ — حدثنى يونس قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « ولو أنّهم آمنوا واتقوا لمثُوبة من عند الله » ، أما « المثوبة » ، فهو الثواب .

١٧١٩ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير » ، يقول : لثوابٌ من عند الله .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَٰعِنَا ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله : « لا تقولوا راعنا » .

فقال بعضهم : تأويله : لا تقولوا خِلافاً . ذكر من قال ذلك :

١٧٢٠ — حدثنا محمد بن بشار قال ، حدثنا مؤمل قال ، حدثنا سفيان ، عن ابن جريج ، عن عطاء فى قوله : « لا تقولوا راعنا » ، قال : لا تقولوا خلافاً .

١٧٢١ — حدثنى محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « لا تقولوا راعنا » ، لا تقولوا خلافاً .

١٧٢٢ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

١٧٢٣ — حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى قال ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى قال ، حدثنا سفيان ، عن رجل ، عن مجاهد مثله .

١٧٢٤ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو نعيم قال ، حدثنا سفيان ، عن مجاهد مثله .

* * *

وقال آخرون : تأويله : أرْعِنا سمعك . أى : اسمع منا ونسمع منك * ذكر من قال ذلك :

١٧٢٥ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال ، حدثنى ابن إسحق ، عن محمد بن أبى محمد ، عن عكرمة ، أوعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قوله : « رَاعنا »، أى : أرْعنا سمعك .

١٧٢٦ — حدثنى محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ،حدثنا عيسى ، عن أبى نجيح ،عن مجاهد فى قول الله جل وعز : « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا رَاعِنا»، لا تقولوا : اسمعْ منا ونَسمع منك .

١٧٢٧ — حدثت عن الحسين بن الفرج قال ، سمعت أبا معاذ يقول ، أخبرنا عبيد بن سليمان قال ، سمعت الضحاك يقول فى قوله : « راعنا » ، قال : كان الرجل من المشركين يقول : أرْعِنى سمعك .

١/٣٧٤

* * *

ثم اختلف أهل التأويل فى السبب الذى من أجله نهى الله المؤمنين أن يقولوا : « راعنا » . فقال بعضهم : هى كلمة كانت اليهود تقولها على وجه الاستهزاء والمسبَّة ، فنهى الله تعالى ذكرُه المؤمنين أن يقولوا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم * ذكر من قال ذلك :

١٧٢٨ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا رَاعنا »، قول كانت تقوله اليهود استهزاء ، فزجر الله المؤمنين أن يقولوا كقولهم .

١٧٢٩ — حدثنا أحمد بن إسحق قال، حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، عن فضيل ابن مرزوق ، عن عطية: « لاتقولوا راعنا » ،قال : كان أناس من اليهود يقولون : أرعنا سمعك ! حتى قالها أناس من المسلمين : فكره الله لهم ما قالت اليهود فقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا رَاعنا » ، كما قالت اليهود والنصارى .

١٧٣٠ ــ حدثنا الحسن بن يحيي قال، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « لا تقولوا رَاعنا وقُولوا انظُرْنا » ، قال : كانوا يقولون : راعنا سمعك ! فكان اليهودُ يأتون فيقولون مثل ذلك مستهزئين ، فقال الله : « لا تقولوا رَاعنا وقولوا انظرْنا »

١٧٣١ ــ حدثت عن المنجاب قال: حدثنا بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : « لا تقولوا رَاعنا »، قال : كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم : راعنا سمعك! وإنما « راعنا » ، كقولك ، : عَاطِنا .

١٧٣٢ ــ حدثنى يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد فى قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا رَاعنا وقولوا انْظُرنا » قال : « راعِنا » القولُ الذى قاله القوم ، قالوا: ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى الدِّينِ﴾ [سورة النساء : ٤٦] ، قال : « قال : هذا الراعن » ــ والراعنُ : الخطّاء ــ قال : فقال للمؤمنين : لاتقولوا : خطّاء ، كما قال القوم ، وقولوا : انظُرْنا واسمعوا . قال : كانوا ينظرون إلى النبى صلى الله عليه وسلم ويكلّمونه ، ويسمع منهم ، ويسألونه ويجيبهم .(١)

* * *

وقال آخرون : بل هى كلمة كانت الأنصار فى الجاهلية تقولها ، فنهاهم الله فى الإسلام أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم. ذكر من قال ذلك :

١٧٣٣ ــ حدثنى يعقوب بن إبراهيم قال، حدثنى هشيم قال ، أخبرنا عبد الرزاق، عن عطاء فى قوله: « لا تقولوا رَاعنا »، قال : كانت لُغةً فى الأنصار فى الجاهلية ، فنزلت هذه الآية : « لا تقولوا رَاعنا ولكن قولُوا انظُرْنا » إلى آخر الآية .

---

(١) قوله « الراعن : الخطاء » لم أجده فى غيره بعد . والذى فى كتب التفسير واللغة . وربما كانت « الخطأ» . وقد قالوا : « راعنا : الهجر من القول » . وقالوا اشتقوه من الرعونة : وهى الحمق والجهل والاسترخاء .

١٧٣٤ — حدثنا أحمد بن إسحق قال ، حدثنا أبو أحمد قال ، حدثنا هشيم ، عن عبد الملك، عن عطاء قال : « لا تقولوا راعنا »، قال : كانت لغة فى الأنصار .

١٧٣٥ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا جرير ، عن عبد الملك ، عن عطاء مثله .

١٧٣٦ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق ، عن ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، عن أبى العالية فى قوله : « لا تقولوا رَاعنا »، قال : إن مشركى العرب كانوا إذا حدّث بعضهم بعضاً يقول أحدهم لصاحبه : أرْعِنى سمعك ! فنهوا عن ذلك .

١٧٣٧ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج قال ، قال ابن جريج : « راعنا »، قولُ الساخر. فنهاهم أن يَسخروا من قول محمد صلى الله عليه وسلم .

* * *

وقال بعضهم : بل كان ذلك كلامَ يهودىّ من اليهود بعينه ، يقال له : رفاعة ابن زيد . كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم به على وجه السبّ له ، وكان المسلمون أخذوا ذلك عنه، فنهى الله المؤمنين عن قيله للنبي صلى الله عليه وسلم . ذكر من قال ذلك :

١٧٣٨ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا رَاعِنا وقُولُوا انْظُرنا » ، كان رجل من ٣٧٥/١ اليهود — من قبيلة من اليهود يقال لهم بَنو قَينُقاع — كان يدعى رفاعة بن زَيْد بن السائب — قال أبو جعفر : هذا خطأ، إنما هو : ابن التابوت ، ليس ابن السائب — كان يأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا لقيه فكلمه قال : [1] أرعنى سمعك ، واسمع غير مُسْمَع = فكان المسلمون يَحسبون أن الأنبياء كانت تفخَّم بهذا، فكان

(١) فى المطبوعة : « فقال » ، والفاء لا مكان لها .

ناس منهم يقولون: « اسمع غيرَ مُسمَع »، كقولك: اسمع غيرَ صاغر = وهى التى فى النساء ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ [سورة النساء : ٤٦] ، يقول : إنما يريد بقوله طعناً فى الدين . ثم تقدم إلى المؤمنين فقال : « لا تَقولوا رَاعنا » .(١)

* * *

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى نهى الله جل ثناؤه والمؤمنينَ أن يقولوا لنبيه : «رَاعنا» أن يقال : إنّها كلمة كرهها الله لهم أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم، نظيرَ الذى ذُكر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

١٧٣٩ — « لا تقولوا للعنب الكرم ، ولكن قُولُوا: الحبَلة » .(٢)

١٧٤٠ — و « لا تقولوا : عبْدى، ولكن قولوا: فتاى » .(٣)

وما أشبه ذلك ، من الكلمتين اللتين تكونان مستعملتين بمعنى واحد فى كلام العرب ، فتأتى الكراهة أو النهى باستعمال إحداهما ، واختيار الأخرى عليها فى المخاطبات .

* * *

فإن قال لنا قائل : فإنا قد علمنا معنى نهى النبى صلى الله عليه وسلم فى « العنب » أن يقال له « كرم » ، وفى « العبد » أن يقال له « عبد »، فما المعنى الذى فى قوله : « راعنا » حينئذٍ ، الذى من أجله كان النهىُ من الله جل ثناؤه للمؤمنين

---

(١) تقدم إليه : أمره .

(٢) الحديث : ١٧٣٩ — ذكره الطبرى معلقاً دون إسناد . وقد رواه أحمد فى المسند : ٧٥٠٩ ، من حديث أبى هريرة ، مرفوعاً : « ولا تسموا العنب الكرم » . ورواه الشيخان وغيرهما ، كما بينا هناك . ورواه أيضاً قبل ذلك إشارة موجزاً : ٧٢٥٦ .

وروى مسلم ٢ : ١٩٧ ، من حديث علقمة بن وائل ، عن أبيه ، مرفوعاً : « لا تقولوا الكرم ، ولكن قولوا : الحبلة ، يعنى العنب » .

(٣) الحديث : ١٧٤٠ — وهذا معلق أيضاً . وهو جزء من حديث طويل . رواه البخارى ومسلم وغيرهما ، من حديث أبى هريرة ، مرفوعاً : « . . . ولا يقل أحدكم عبدى ، أمتى ، وليقل : فتاى ، فتاتى ، غلامى » . انظر البخارى ٥ : ١٢٨ — ١٣١ (فتح) ، ومسلم ٢ : ١٩٧

عن أن يقولوه ، حتى أمرهم أن يؤثروا قوله : « انظُرْنا » ؟

قيل : الذى فيه من ذلك ، نظيرُ الذى فى قول القائل : « الكرم » للعنب ، و « العبد » للمملوك . وذلك أن قول القائل : « عبدى» لجميع عباد الله ، فكره النبى صلى الله عليه وسلم أن يضاف بعض عباد الله — بمعنى العبُودية — إلى غير الله ، وأمر أن يضاف ذلك إلى غيره، بغير المعنى الذى يضاف إلى الله عز وجل، فيقال : « فتَاى » . وكذلك وجه نهيه فى « العنب» أن يقال : « كرم » ، خوفاً من توهّم وصفه بالكرَم ، وإن كانت مُسكّنة ، فإن العرب قد تسكّن بعض الحركات إذا تتابعت على نوع واحد . فكره أن يتصف بذلك العنب . فكذلك نهى الله عز وجل المؤمنين أن يقولوا : « راعنا »، لما كان قول القائل: « راعنا » محتملاً أن يكون بمعنى احفظنا ونحفظك ، وارقُبْنا ونرقبك. من قول العرب بعضهم لبعض: « رعاك الله »: بمعنى حفظك الله وكلأك — ومحتملاً أن يكون بمعنى : أرعنا سمعك ، من قولهم : « أرعيت سمعى إرعاءً — أو — راعيته سمْعى رِعاء أو مُراعاة » بمعنى : فرّغته لسماع كلامه ، كما قال الأعشى ميمون بن قيس :

يُرْعِى إلَى قَوْلِ سَادَاتِ الرِّجالِ إذَا أَبْدَوْا لَهُ الحزْمَ، أوْ مَا شَاءه أبْتَدَعَا[1]

يعنى بقوله : « يُرْعى » ، يصغى بسمعه إليه مفرِّغَه لذلك .

وكان الله جل ثناؤه قد أمرَ المؤمنين بتوقير نبيّه صلى الله عليه وسلم وتعظيمه ، حتى نهاهم جل ذكره فيما نهاهم عنه عنْ رفع أصواتهم فوق صوته ، وأن يجهروا له بالقول كجهرْ بعضهم لبعض ، وخوفهم على ذلك حبُوطَ أعمالهم .[2] فتقدمّ

---

(١) ديوانه : ٨٦ ، وسيأتى فى هذا الجزء ٢ : ٥٤٠ وقد سلف تخريج أبيات من هذه القصيدة فى ١ : ١٠٦ ، ٢ : ٩٤ ، وهى فى هوذة بن على كما سلف . يقول قبله :

يَا هَوْذَ ، يا خَيرَ منْ يَمْشِي عَلَى قَدَمٍ بَحْرَ المَوَاهِبِ للوُرّادِ والشّرَعَا

وابتدع : أحدث ما شاء .

(٢) اقرأ قول الله تعالى فى صدر « سورة الحجرات » .

إليهم بالزجر لهم عن أن يقولوا له من القول ما فيه جفاءٌ ، وأمرَهم أن يتخيّروا لخطابه من الألفاظ أحسنَها ، ومن المعانى أرقَّها . فكان من ذلك قولهم : « راعنا » لما فيه من احتمال معنى : ارعنا نَرْعاك ، إذ كانت المفاعلة لا تكون إلا من اثنين ، كما يقول القائل : «عاطِنا ، وحادثنا ، وجالسنا» ، بمعنى : افعل بنا نفعل بك — ومعنى : أرْعنا سمعك ، حتى نفهمك وتفهم عنا [1] . فنهى الله تعالى ذكره أصحاب محمد أن يقولوا ذلك كذلك ، وأن يفردوا مسألته بانتظارهم وإمهالهم ، ليعقلوا عنه ، ٣٧٦/١ بتبجيل منهم له وتعظيم ، وأن لا يسألوه ما سألوه من ذلك على وجه الجفاء والتجهُّم منهم له ، ولا بالفظاظة والغلظة ، تشبهاً منهم باليهود فى خطابهم نبى الله صلى الله عليه وسلم ، بقولهم له : « اسْمَعْ غَيْرَ مُسمع وراعِنا » .

يدل على صحة ما قلنا فى ذلك قوله : « ما يَوَدُّ الذين كفرُوا منْ أهلِ الكتاب وَلا المشركينَ أنْ يُنزَّلَ عَليكم منْ خَيرٍ منْ ربِّكم » ، [2] فدلَّ بذلك أنَّ الذى عاتبهم عليه ، مما يسرُّ اليهودَ والمشركين .

* * *

فأما التأويل الذى حُكى عن مجاهد فى قوله : « راعنا » أنه بمعنى : خِلافاً ، فمما لا يُعقل فى كلام العرب . لأن « راعيت » فى كلام العرب إنما هو على أحد وجهين : أحدهما بمعنى « فاعلت » ، من «الرِّعْية» وهى الرِّقبةُ والكلاءةُ . والآخر بمعنى إفراغ السمع ، بمعنى : « أرعيته سمعى » . وأما « راعيت » بمعنى خالفت ، فلا وجه له مفهوم فى كلام العرب . إلاّ أن يكون قرأ ذلك بالتنوين ، ثم وجهه إلى معنى الرعونة والجهل والخطأ ، على النحو الذى قال فى ذلك عبد الرحمن بن زيد ، فيكون لذلك — وإن كان مخالفاً قراءة القراء — مَعنى مفهوم حينئذ .

* * *

وأما القول الآخر الذى حكى عن عطية ومن حُكى ذلك عنه : أن قوله : « راعنا »

---

(١) قوله : « ومعنى » معطوف على قوله آنفاً : « لما فيه من احتمال معنى : ارعنا نرعاك . . . »
(٢) وهى الآية التى تلى الآية التى يفسرها .

كانت كلمة لليهود بمعنى السبّ والسخرية ، فاستعملها المؤمنون أخذاً منهم ذلك عنهم ، فإن ذلك غيرُ جائز فى صفة المؤمنين : أنْ يأخذوا من كلام أهل الشرك كلاماً لا يعرفون معناه ، ثم يستعملونه بينهم وفى خطاب نبيِّهم صلى الله عليه وسلم . ولكنه جائز أن يكون ذلك مما روى عن قتادة ، أنها كانت كلمة صحيحةً مفهومة من كلام العرب ، وافقت كلمة من كلام اليهود بغير اللسان العربى ، هى عند اليهود سبٌّ ، وهى عند العرب : أرعنى سمعك وفرغه لتفهم عنّى . فعلم الله جل ثناؤه معنى اليهود فى قيلهم ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأن معناها منهم خلافُ معناها فى كلام العرب ، فنهى الله عز وجل المؤمنين عن قيلها للنبى صلى الله عليه وسلم ، لئلا يجترئ من كان معناه فى ذلك غير معنى المؤمنين فيه ، أن يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم به . وهذا تأويل لم يأت الخبرُ بأنه كذلك ، من الوجه الذى تقوم به الحجة . وإذ كان ذلك كذلك ، فالذى هو أولى بتأويل الآية ما وصفنا ، إذ كان ذلك هو الظاهر المفهوم بالآية دون غيره .

* * *

وقد حكى عن الحسن البصرى أنه كان يقرؤه : « لا تقولوا راعناً » بالتنوين ، بمعنى : لا تقولوا قولاً « رَاعناً » ، من « الرعونة » هى الحمق والجهل .

وهذه قراءة لقراءة المسلمين مخالفة ، فغير جائز لأحد القراءةُ بها لشذوذها وخروجها من قراءة المتقدمين والمتأخرين ، وخلافِها ما جاءت به الحُجَّة من المسلمين .

ومن نوّن «راعناً » نوَّنه بقوله : « لا تقولوا » ، لأنه حينئذ عامل فيه . ومن لم ينونه فإنه ترَك تنوينه لأنه أمرٌ محكيٌّ . لأن القوم كأنهم كانوا يقولون للنبى صلى الله عليه وسلم : « راعنا » ، بمعنى مسألته : إمّا أن يرعيهم سمعه ، وإما أن يرعاهم ويرقبهم — على ما قد بينت فيما قد مضى — فقيل لهم : لا تقولوا فى مسألتكم إياه « راعنا » . فتكون الدلالة على معنى الأمر فى « راعنا » حينئذ سقوط الياء التى كانت

تكون فى « يراعيه » ويدلّ عليها — أعنى على « الياء » الساقطة — كسرة « العين » من « راعِنا » .

* * *

وقد ذُكر أن قراءة ابن مسعود : « لا تقولوا راعونا » ، بمعنى حكاية أمرٍ صالحةٍ لجماعةٍ بمراعاتهم . فإن كان ذلك من قراءته صحيحاً ، وجّه أنْ يكون القوم كأنهم نهوا عن استعمال ذلك بينهم فى خطاب بعضهم بعضاً ، كان خطابهم للنبى صلى الله عليه وسلم أو لغيره . ولا نعلم ذلك صحيحاً من الوّجه الذى تصحّ منه الأخبار .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾

٣٧٧/١

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « وقولوا انْظُرنا » ، وقولوا أيها المؤمنون لنبيّكم صلى الله عليه وسلم : انْظرْنا وارقبنا ، نفهم ونتبين ما تقول لنا ، وتُعلّمنا ، كما :

١٧٤١ — حدثنى محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « وقولوا انظُرنا » ، فهّمنا ، بيّن لنا يا محمد .

١٧٤٢ — حدثنا المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « وقُولُوا انظرنا » ، فهّمنا ، بيّن لنا يا محمد .

١٧٤٣ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد مثله .

* * *

يقال منه « نظرت الرجلَ أنظُرُه نَظِرَةً » بمعنى انتظرته ورَقبْته ، ومنه قول الحطيئة :

وَقَدْ نَظَرْتُكُمْ أَعْشَاءَ صَادِرَةٍ لِلْخِمْسِ، طَالَ بِهَا حَوْزِى وَتَنْسَاسِى (١)

ومنه قول الله عز وجل : ﴿ يوم يقولُ المُنافِقُونَ والمُنافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ [سورة الحديد : ١٣] ، يعنى به : انتظرونا .

* * *

وقد قرئ : « أنْظِرْنا » و« أنْظِرُونا » بقطع « الألف » فى الموضعين جميعاً (٢) فمن قرأ ذلك كذلك أراد: أخِّرنا ، كما قال الله جل ثناؤه : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [سورة ص : ٧٩] ، أى أخِّرنى. ولا وَجه لقراءة ذلك كذلك فى هذا الموضع . لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنّما أمروا بالدنوّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاستماع منه ، وإلطاف الخطاب له ، وخَفْضِ الجناح — لا بالتأخر عنه ، ولا بمسألته تأخيرَهم عنه . فالصواب — إذ كان ذلك كذلك —(٣) من القراءة ، قراءةُ من وصل الألف من قوله : « انظُرْنا » ولم يقطعها بمعنى : انتظرنا .

* * *

وقد قيل إنّ معنى « أنظِرنا » بقطع « الألف » بمعنى : أمْهلنا. حكى عن بعض

(١) ديوانه : ٥٣ ، واللسان (نظر) (حوز) (نسس) (عشا) . من قصيدة يهجو بها الزبرقان ابن بدر ، ويمدح بغيض بن عامر من شماس. والأعشاء جمع عشى (بكسر فسكون) : وهو ما تتعشاه الإبل . والصادرة : الإبل التى تصدر عن الماء . والخمس : من أظماء الإبل ، وهو أن تظل فى المرعى بعد يوم ورودها ثلاثة أيام ، ثم ترد فى الرابع . والحوز : السوق اللين ، حاز الإبل : ساقها سوقاً رويداً . والتنساس والنس ، مصدر قولك : نس الإبل ينسها : ساقها سوقاً شديداً لورود الماء . ويروى « إيناء صادرة » . والإيناء مصدر آنيت الشىء : إذا أخرته . يقول الزبرقان ، حين نزل بداره ، ثم تحول عنها إلى دار بغيض (انظر خبرهما فى طبقات فحول الشعراء : ٩٦ — ٩٨) : انتظرت خيركم انتظار الإبل الخوامس لعشائها . وذلك أن الإبل إذا صدرت تعشت طويلا ، وفى بطونها ماء كثير ، فهى تحتاج إلى بقل كثير . يصف طول انتظاره حين لا صبر له على طول الانتظار . وقد شكاه الزبرقان إلى عمر لهذه القصيدة ، ولقوله فيها :

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَاقْعُدْ ، فإنَّكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسِى !

(٢) زدت قول الله تعالى : « أنظرونا » ، من أجل اختلاف الحرفين .

(٣) فى المطبوعة : « إن كان ذلك . . . » ، ليست بشىء .

العرب سماعاً : « أنظرْنى أكلمك » . وذكر سامع ذلك من بعضهم أنه استثبته فى معناه ، فأخبره أنه أراد : أمهلنى . فإن يكن ذلك صحيحاً عنهم « فانظُرنا » و«أنظرنا » — بقطع « الألف » ووصلها — متقاربًا المعنى . غيرَ أنّ الأمر وإن كان كذلك ، فإن القراءة التى لاأستجيز غيرَها ، قراءةُ من قرأ : « وقولوا انظُرْنا » ، بوصل « الألف » بمعنى : انتظرنا ، لإجماع الحجة على تصويبها ، ورفضهم غيرَها من القراآت .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ثناؤه ﴿ وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٠٤)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « واسمعوا » ، واسمعوا ما يقال لكم ويُتلى عليكم من كتاب ربكم ، وعُوه وافهموه ، كما : —

١٧٤٤ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « واسْمعوا » ، اسمعوا ما يقال لكم .

* * *

فعنى الآية إذاً : يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا لنبيكم : رَاعنا سمعك وفرِّغه لنا نفهمك وتفهمْ عنا ما نقول . ولكن قولوا : انتظرنا وترقّبنا حتى نفهمَ عنك ما تعلّمنا وتبيِّنُه لنا . واسمعوا منه ما يقولُ لكم ، فعُوه وأحفظوه وافهموه . ثم أخبرهم جل ثناؤه أن لمن جحدَ منهم ومن غيرهم آياته ، وخالف أمره ونهيه ، وكذّب رسوله ، العذابُ المُوجع فى الآخرة ، فقال : وللكافرين بى وبرسولى عذابٌ أليم . يعنى بقوله : «الأليم » ، الموجع . وقد ذكرنا الدلالة على ذلك فيما مضى قبل ، وما فيه من الآثار .(١)

* * *

(١) انظر ما سلف ١ : ٢٨٣ ، ثم هذا الجزء ٢ : ١٤٠ ، ٣٧٧

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله « ما يود » ، ما يحب ، أى : ليس يُحب كثيرٌ من أهل الكتاب . يقال منه : « ودّ فلان كذا يَودُّه وُدًّا ووِدًّا ومَوَدَّةً » .

* * *

وأمّا « المشركين » ،[1] فإنهم فى موضع خفض بالعطف على « أهل الكتاب » . ومعنى الكلام : ما يحب الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أنْ ينزّل عليكم من خير من ربكم .

* * *

وأما « أنْ » فى قوله : « أن يُنزّل » فنصب بقوله : « يودّ » . وقد دللنا على وجه دخول « مِنْ » فى قوله : « من خير » وما أشبه ذلك من الكلام الذى يكون فى أوله جحد ، فيما مضى ، فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا الموضع .[2]

* * *

١/٣٧٨ فتأويل الكلام : ما يحبُّ الكافرون من أهل الكتاب ولا المشركين بالله من عبدة الأوثان ، أنْ ينزّل عليكم من الخير الذى كان عند الله فنزّله عليكم .[3] فتمنَّى المشركون وكفرةُ أهل الكتاب أن لا ينزّل الله عليكم الفرقانَ ، وما أوحاه إلى محمد صلى الله عليه وسلم من حكمه وآياته ، وإنما أحبت اليهود وأتباعُهم من المشركين ذلك ، حسدًا وبغياً منهم على المؤمنين .

وفى هذه الآية دلالة بينة على أن الله تبارك وتعالى نَهى المؤمنين عن الرُّكون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين ، والاستماع من قولهم ، وقبول شىء مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم ، بإطلاعه جل ثناؤه إياهم على ما يستبطنه لهم أهل الكتاب والمشركون من الضِّغن والحسد ، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مُستبطنون .

* * *

(١) فى المطبوعة : « وأما المشركون » ، والصواب ما أثبت .

(٢) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ١٢٦ ، ١٢٧ ، وكان ينبغى أن يذكره فى تفسير الآية : ١٠٤ أو يحيل كما أحال هنا .

(٣) كان فى المطبوعة : « الذى كان عند الله ينزله عليهم » ، ولا يستقيم الكلام إلا كما أثبتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ (١٠٥)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « والله يختص برحمته من يشاء » : والله يختص من يشاء بنبوته ورسالته ، فيرسله إلى من يشاء من خلقه ، فيتفضل بالإيمان على من أحبَّ فيهديه له . و « اختصاصُه » إياهم بها ، إفرادهم بها دون غيرهم من خلقه . وإنما جعل الله رسالته إلى من أرسل إليه من خلقه ، وهدايتَه من هدى من عباده ، رحمةً منه له ، ليصيِّره بها إلى رضاه ومحبته وفوزه بها بالجنة ، واستحقاقه بها ثناءَه . وكل ذلك رحمة من الله له .

* * *

وأما قوله : « والله ذو الفضل العظيم » . فإنه خبرٌ من الله جل ثناؤه عن أن كل خير ناله عبادُه فى دينهم ودُنياهم ، فإنه من عنده ابتداءً وتفضُّلاً منه عليهم ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه .

* * *

وفى قوله : « والله يختص برحمته مَنْ يَشاء والله ذو الفضْل العظيم » ، تعريضٌ من الله تعالى ذكره بأهل الكتاب : أن الذى آتى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به من الهداية ، تفضُّلٌ منه ،[1] وأنَّ نعمه لا تدرك بالأمانىّ ، ولكنها مَواهبُ منه يختص بها من يشاء من خلقه .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « ما نَنسخْ منْ آية » : ما ننقلْ من حُكمْ آية ، إلى غيره فنبدِّله ونغيره .[2] وذلك أن يحوِّل الحلالَ حراماً ، والحرام

(١) فى المطبوعة : « تفضلا منه » ، وهو خطأ ، بل هذا خبر « أن » .

(٢) كان فى المطبوعة : « مانسخ من آية إلى غيره فنبدله » ، والزيادة من تفسير ابن كثير ١ : ٢٧٣ .

حلالاً ، والمباح محظوراً ، والمحظور مباحاً . ولا يكون ذلك إلاّ فى الأمر والنهى ، والحظر والإطلاق ، والمنع والإباحة . فأما الأخبار ، فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ .

* * *

وأصل « النسخ» من « نسخ الكتاب»، وهو نقله من نُسخة إلى أخرى غيرها . فكذلك معنى «نسخ»الحكم إلى غيره، إنما هو تحويله ونقل عبارته عنه إلى غيرها.[1] فإذا كان ذلك معنى نسخ الآية ، فسواءٌ — إذا نُسخ حُكمها فغُيّر وبُدّل فرضها، ونُقل فرضُ العباد عن اللازم كان لهم بها — أَأُقِرَّ خطُّها فترك ، أو مُحِي أثرُها فعُفِّى ونُسى ،[2] إذْ هى حينئذ فى كلتا حالتيها منسوخة، والحكم الحادث، المبدَّل به الحكم الأول، والمنقول إليه فرضُ العبادِ ، هو الناسخ . يقال منه : « نسخ الله آية كذا وكذا يَنسخها نَسخاً » و « النُّسخة » الاسم . وبمثل الذى قلنا فى ذلك كان الحسن البصرى يقول :

١٧٤٥ — حدثنا سوار بن عبد الله العنبرى قال، حدثنا خالد بن الحارث قال ، حدثنا عوف ، عن الحسن أنه قال فى قوله: « ما نَنسخ منْ آية أو نُنسها نأت بخير منها »، قال: إن نبيكم صلى الله عليه وسلم أقرِئَ قرآناً، ثم نسيه فلم يكن شيئاً ،[3] ومن القرآن ما قد نُسخ وأنتم تقرأونه .

* * *

قال أبو جعفر: اختلف أهل التأويل فى قوله: «ما ننسخ ». فقال بعضهم بما :—

(١) فى المطبوعة : « عنه إلى غيره » ، وفى تفسير ابن كثير : « ونقل عبارة إلى غيرها » . والصواب ما أثبت .

(٢) فى المطبوعة : « أوفر حظها فترك ، أو محى أثرها فعفى أو نسى » ، وهى جملة حشيت تصحيفاً وخلطاً . ومراد الطبرى أن النسخ ، وهو تغير الحكم ، قد يكون مع إقرار الخط كما هو ، والإتيان بحكم آخر فى عبارة أخرى — أو رفع الخط ، ونسيان الناس ما حفظوه عند التنزيل . وقوله « عفى »، من قولهم : عفا الأثر يعفو : درس وذهب . وعفاه يعفيه (بالتشديد) : طمسه وأذهبه .

هذا والجملة التالية : « إذ هى فى كلتا حالتيها منسوخة » ، وحديث الحسن الآتى ، يدل على صواب ما أثبته فى قراءة نص الطبرى .

(٣) فى المطبوعة : « قال أقرىء قرآنا » ، سقط منه ما أثبته ، وسيأتى على الصواب فى الأثر برقم : ١٧٥٤ ، ومنه زدت هذه الزيادة .

١٧٤٦ — حدثني به موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو بن حماد قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « ما نَنسخ من آية » ، أمّا نَسخها، فقبضُها .

* * *

وقال آخرون بما : —

١٧٤٧ — حدثني به المثنى قال ، حدثنا عبد الله بن صالح قال ، حدثني معاوية بن صالح ، عن على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : « ما نَنسخ من آية »، يقول : ما نبدّل من آية .

* * *

وقال آخرون بما : —

١٧٤٨ — حدثني محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم قال، حدثنا عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن أصحاب عبد الله بن مسعود أنهم قالوا : « ما نَنسَخْ من آية »، نثبت خطَّها ، ونبدّل حكمها . ٣٧٩/١

١٧٤٩ — حدثني المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد: « ما ننسخ من آية »، نثبت خطها، ونبدّل حكمها . حدّثت به عن أصحاب ابن مسعود .

١٧٥٠ — حدثني المثنى قال، حدثنا إسحق قال، حدثني بكر بن شوذب ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن أصحاب ابن مسعود: « ما ننسخ من آية » نثبت خطها، [ونبدّل حكمها]. [1]

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾

قال أبو جعفر : اختلفت القرّأة فى قوله ذلك . فقرأها أهل المدينة والكوفة : « أوْ نُنْسها » . ولقراءة من قرأ ذلك وجهان من التأويل .

(١) الأثر : ١٧٥٠ — الزيادة بين القوسين من تفسير ابن كثير ١ : ٢٧٣ ثم ٢٧٤ .

أحدهما، أن يكون تأويلُه: ما ننسخ يا محمد من آية فنغيِّر حكمها أو نُنسها. وقد ذكر أنها في مصحف عبد الله: «ما نُنسكَ من آية أو نَنْسخها نجيء بمثلها»، فذلك تأويل: «النسيان». وبهذا التأويل قال جماعة من أهل التأويل. ذكر من قال ذلك:

١٧٥١ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد بن زريع قال، حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: «ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها»، كان ينسخ الآية بالآية بعدها، ويقرأ نبي الله صلى الله عليه وسلم الآية أو أكثر من ذلك، ثم تُنسى وتُرفع.

١٧٥٢ — حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر، عن قتادة في قوله: «ما ننسخْ من آية أو ننسها»، قال: كان الله تعالى ذكره يُنسي نبيه صلى الله عليه وسلم ما شاء، وينسخ ما شاء.

١٧٥٣ — حدثني المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: كان عُبَيد بن عُمَير يقول: «نُنسها»، نرفعها من عندكم.

١٧٥٤ — حدثنا سوار بن عبد الله قال، حدثنا خالد بن الحارث قال، حدثنا عوف، عن الحسن أنه قال: في قوله: «أو نُنسها»، قال: إن نبيكم صلى الله عليه وسلم أقرئ قرآنا ثم نسيه.(١)

* * *

وكذلك كان سعد بن أبي وقّاص يتأول الآية، إلاّ أنه كان يقرؤها: «أو تَنسها» بمعنى الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنه عَنى: أو تَنسها أنتَ يا محمد. ذكر الأخبار بذلك:

١٧٥٥ — حدثني يعقوب بن إبراهيم قال، حدثنا هشيم قال، أخبرنا يَعلى

(١) الأثر: ١٧٥٤ — انظر الأثر السالف: ١٧٤٥ والتعليق عليه.

ابن عطاء ، عن القاسم [بن ربيعة] قال ، سمعت سعد بن أبي وقاص يقول : « ما ننسخ من آية أو تنسها » ، قلت له : فإن سعيد بن المسيب يقرؤها : « أو تُنسها » ، [1] قال : فقال سعد : إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب ! قال الله : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ [سورة الأعلى : ٦] ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [2] [سورة الكهف : ٢٤]

١٧٥٦ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا هشيم قال ، حدثنا يعلى بن عطاء قال ، حدثنا القاسم بن ربيعة بن قانف الثقفي قال ، سمعت ابن أبي وقاص يذكر نحوه . [3]

١٧٥٧ — حدثنا محمد بن المثنى وآدم العسقلاني قالا جميعاً ، عن شعبة ، عن يعلى بن عطاء قال ، سمعت القاسم بن ربيعة الثقفي يقول : قلت لسعد بن أبي وقاص : إني سمعت ابن المسيب يقرأ : « ما ننسخ من آية أو تُنسها » فقال سعد : إن الله لم ينزل القرآن على المسيب ولا على ابنه ! إنما هي : « ما ننسخ من آية أو تنسها » يا محمد . ثم قرأ : « سنقرئك فلا تنسى » و « اذكر ربك إذا نسيت » [4]

١٧٥٨ — حدثني المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن

---

(١) في المطبوعة : « أو ننسها » . والصواب ما أثبت ، وفي ابن كثير ١ : ٢٧٥ « أو ننساها » ، ولكن أبا حيان نص في البحر المحيط ١ : ٣٣٤ على أن قراءة سعيد « أو تنساها » بغير همزة بضم التاء ، وأما ابن خالويه فقد نص في شواذ القراآت : ٩ قال : « أو تنسها » كذلك ، إلا أنه لم يسم فاعله . سعيد بن المسيب » . فأثبت هذا ، لأنها هي رسم ما في نص الطبري . وانظر الآثار الآتية : ١٧٥٦ ، ١٧٥٧ ، والمستدرك للحاكم ٢ : ٢٤٢ .

(٢) الأثر : ١٧٥٥ — الزيادة بين القوسين من تفسير ابن كثير ١ : ٢٧٥ . والقاسم بن ربيعة ، هو القاسم بن عبد الله بن ربيعة بن قانف الثقفي ، وربما نسب إلى جده . وهو ابن ابن أخي ليلى بنت قانف الصحابية . روى عن سعد بن أبي وقاص في قوله : « ما ننسخ من آية » ، وعنه يعلى بن عطاء العامري . ذكره ابن حبان في الثقات . قال ابن حجر : قرأت بخط الذهبي : ما حدث عنه سوى يعلى (تهذيب التهذيب ٨ : ٣٢٠) . وانظر رقم : ١٧٥٦ ، ١٧٥٧ .

(٣) الأثر : ١٧٥٦ — في المطبوعة : « بن قائف » وهو « قانف » بقاف ثم نون ثم فاء . هكذا نص عليه في الإصابة في ترجمة : « ليلى بنت قانف » .

(٤) الأثر ١٧٥٧ — انظر الأثرين السالفين . وقال الحاكم في المستدرك ٢ : ٢٤٢ : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه » .

أبيه، عن الربيع فى قوله : « ما ننسخ من آية أو ننسها »، يقول : « نُنسها » نرفعها . وكان الله تبارك وتعالى أنزل أموراً من القرآن ثم رفعها .

* * *

والوجه الآخر منهما، أن يكون بمعنى « الترك » من قول الله جل ثناؤه : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٦٧] ، يعنى به : تركوا الله فتركهم . فيكون تأويل الآية حينئذ على هذا التأويل : ما ننسخ من آية فنغيّر حكمها ونبدّل فرضها ، نأت بخير من التى نسخناها أو مثلها . وعلى هذا التأويل تأوّله جماعة من أهل التأويل . ذكر من قال ذلك : ٣٨٠/١

١٧٥٩ — حدثنى المثنى قال، حدثنا عبد الله بن صالح قال، حدثنى معاوية، عن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله : « أو نَنْسها »، يقول : أو نتركها لا نبدّلها .(١)

١٧٦٠ — حدثنى موسى قال، حدثنا عمرو قال، حدثنا أسباط، عن السدى قوله : « أو ننسها »، نتركها لا ننسخها .

١٧٦١ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا هشيم قال، أخبرنا جويبر، عن الضحاك فى قوله : « ما ننسخ من آية أو نُنسها »، قال : الناسخ والمنسوخ.

* * *

قال أبو جعفر : وكان عبد الرحمن بن زيد يقول فى ذلك ما : —

١٧٦٢ — حدثنى به يونس بن عبد الأعلى قال، أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد فى قوله : « نُنْسها »، نمحُها .

* * *

وقرأ ذلك آخرون : « أو نَنسأها » بفتح النون وهمزة بعد السين، بمعنى : نؤخرها، من قولك : « نسأت هذا الأمر أنسؤه نسأ ونساء »، إذا أخرته. وهو من قولهم : « بعته

---

(١) الأثر : ١٧٥٩ — فى تفسير ابن كثير : « أو ننساها » . والصواب ما فى الطبرى، بفتح النون .

بِنَساءٍ »، يعنى بتأخير ، ومن ذلك قول طَرَفة بن العَبْد :

لَعَمْرُكَ إنَّ المَوْتَ مَا أَنْسَأَ الفَتَى ۝ لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِاليَدِ[1]

يعنى بقوله : « أنسأ »، أخَّر.

وممن قرأ ذلك جماعةٌ من الصحابة والتابعين ، وقرأه جماعة من قُراء الكوفيين والبصريين ، وتأوّله كذلك جماعة من أهل التأويل ٭ ذكر من قال ذلك :

١٧٦٣ — حدثنا أبو كريب ويعقوب بن إبراهيم قالا ، حدثنا هشيم قال ، أخبرنا عبد الملك ، عن عطاء فى قوله : « ما ننسخ من آية أو نَنْسأها »، قال : نُؤخرها.

١٧٦٤ — حدثنا محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى قال ، سمعت ابن أبى نجيح يقول فى قول الله : « أو نَنسأها »، قال : نُرجْئها .

١٧٦٥ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « أو نَنسأها »، نرجئها ونؤخرها .

١٧٦٦ — حدثنا أحمد بن إسحق الأهوازى قال ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى قال ، حدثنا فضيل ، عن عطية : « أو ننسأها »، قال : نؤخرها فلا ننسخها .

١٧٦٧ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قال : أخبرنى عبد الله بن كثير ، عن عبيد الأزدى ، عن عبيد ابن عُمير : « أو نَنسأها »، إرجاؤها وتأخيرها .

هكذا حدثنا القاسم ، عن عبد الله بن كثير ، « عن عبيد الأزدى »، وإنما هو عن « عَلى الأزدى » .

١٧٦٨ — حدثنى أحمد بن يوسف قال ، حدثنا القاسم بن سلام قال ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن عبد الله بن كثير ، عن على الأزدى ، عن عبيد

---

(١) ديوانه : ٣١٨ (من أشعار الستة الجاهليين) من معلقته المشهورة . وروايتهم : « ما أخطأ الفتى » . والطول : حبل يطول للدابة لترعى وهى مشدودة فيه . وثنياه : طرفاه . أى إنه لا يفلت من حبال المنية ، وإن أخر فى أجله . وما أصدق ما قال ! ولكننا ننسى !

ابن عمير أنه قرأها : « ننسأها » .(١)

* * *

قال أبو جعفر : فتأويل من قرأ ذلك كذلك : ما نبدلْ مَن آية أنزلناها إليك يا محمد ، فنبطل حكمها ونثبت خطها ، أو نؤخرها فنرجئها ونقرّها فلا نغيرها ولا نبطل حكمها ، نأت بخير منها أو مثلها .

* * *

وقد قرأ بعضهم ذلك : « ما ننسخ من آية أو تُنسَها » . وتأويل هذه القراءة نظيرُ تأويل قراءة من قرأ : « أو نُنسِها » ، إلاّ أن معنى « أو تُنْسَها » ، أنت يا محمد.

* * *

وقد قرأ بعضهم : « ما نُنسِخ من آية » ، بضم النون وكسر السين ، بمعنى : ما ننسخك يا محمد نحن من آية — من « أنْسختُكَ فأنا أُنسخك » . وذلك خطأ من القراءة عندنا ، لخروجه عما جاءت به الحجة من القَرَأَة بالنقل المستفيض . وكذلك قراءة من قرأ « تُنْسها » أو « تَنْسَها » ، لشذوذها وخروجها عن القراءة التى جاءت بها الحجة من قراء الأمة .

وأولى القراآت فى قوله : « أو ننسها » بالصواب ، من قرأ « أو نُنْسِها » بمعنى : نتركها . لأن الله جل ثناؤه أخبرَ نبيه صلى الله عليه وسلم أنه مهما بدّل حكماً أو غيّره ، أو لم يبدله ولم يغيره ، فهو آتيه بخير منه أو بمثله . فالذى هو أولى بالآية ، إذ كان ذلك معناها ، أن يكون — إذْ قدّم الخبرَ ٣٨١/١

(١) الخبران : ١٧٦٧ ، ١٧٦٨ — أبان الطبرى فى الإسناد الأول أن شيخه القاسم قال فى الإسناد : « عبد الله بن كثير ، عن عبيد الأزدى » ، وبين أن صوابه « عن على الأزدى » . ثم ساق الإسناد الثانى على الصواب . وهو كما قال .

عبد الله بن كثير الدارى المكى : هو القارىء ، أحد القراء السبعة . وهو ثقة . مترجم فى التهذيب ، وابن أبى حاتم ١٤٤/٢/٢ .

على الأزدى : هو على بن عبد الله الأزدى البارق ، وهو تابعى ثقة ، مترجم فى التهذيب ، وابن أبى حاتم ١٩٣/١/٣ .

عبيد بن عمير — بالتصغير فيهما — : هو الليثى الجندعى المكى ، ثقة من كبار التابعين ، بل ذكره بعضهم فى الصحابة ، وأثنى عليه الناس خيراً فى مجلس ابن عمر ، فى المسند : ٥٣٥٩ . مترجم فى التهذيب ، والإصابة ٥ : ٧٩ ، وابن سعد ٥ : ٣٤١ — ٣٤٢ ، وابن أبى حاتم ٤٠٩/٢/٢ .

عما هو صانع إذا هو غيّر وبدل حكم آية — أن يُعقّب ذلك بالخبر عما هو صانع إذ هو لم يبدّل ذلك ولم يغيّر. فالخبر الذي يجب أن يكون عَقيب قوله: « ما ننسخ من آية » . قوله : أو نترك نسخها، إذ كان ذلك المعروف الجاري في كلام الناس . مع أن ذلك إذا قُرئ كذلك بالمعنى الذي وصفت، فهو يشتمل على معنى « الإنساء » الذي هو بمعنى الترك ،[1] ومعنى « النَّساء » الذي هو بمعنى التأخير . إذ كان كل متروك فمؤخَّرٌ على حالِ مَا هو متروكٌ .

* * *

وقد أنكر قوم قراءة من قرأ : « أو تَنْسها » ، إذا عنى به النسيان، وقالوا : غير جائز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم نَسي من القرآن شيئاً مما لم يُنسخ ، إلا أن يكون نَسيَ منه شيئاً ، ثم ذكره . قالوا : وبعد ، فإنه لو نَسي منه شيئاً لم يكن الذين قرأوه وحفظوه من أصحابه، بجائز على جميعهم أن يَنسوه . قالوا : وفي قول الله جل ثناؤه : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ [سورة الإسراء : ٨٦]، ما ينبئ عن أن الله تعالى ذكره لم يُنسِ نبيَّه شيئاً مما آتاه من العلم .

* * *

قال أبو جعفر : وهذا قولٌ يشهد على بُطوله وفساده ، الأخبارُ المتظاهرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بنحو الذي قلنا :

١٧٦٩ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قال ، حدثنا أنس بن مالك : أن أولئك السبعين من الأنصار الذين قُتلوا ببئر معونة، قرأنا بهم وفيهم كتاباً: « بلّغوا عنا قومنا أنّا لقينا ربنا فرَضي عنا وأرضانا » — ثم إنّ ذلك رُفع .[2]

---

(١) قد رد أهل اللغة أن يكون الإنساء بمعنى الترك ، وقالوا : إنما يقال نسيت : إذا تركت ، لا يقال : أنسيت ، تركت . وانظر ما جاء في ذلك في اللسان (نسى) ، وسائر كتب التفسير .

(٢) الحديث : ١٧٦٩ — يزيد بن زريع — بضم الزاي — العيشي : ثقة حافظ حجة ، روى عنه شعبة والثوري وغيرهما من الكبار . مترجم في التهذيب ، والكبير ٤/٢/٣٣٥ ، وابن سعد ٧/٢/٤٤ وابن أبي حاتم ٤/٢/٢٦٣ — ٢٦٥ . وسعيد : هو ابن أبي عروبة .

وهذا الحديث مختصر من حديث لأنس ، في قصة القراء الذين قتلوا في بئر معونة . ورواه الأئمة عن أنس ، من أوجه مختلفة .

١٧٧٠ — والذى ذكرنا عن أبى موسى الأشعرى أنهم كانوا يقرأون : « لو أنّ لابن آدم واديين من مَال لابتغى لهما ثالثاً ولا يملأ جَوف ابن آدمَ إلا التراب ويَتوب الله على من تاب » . ثم رفع .[1]

وما أشبه ذلك من الأخبار التى يطول بإحصائها الكتاب .

وغير مستحيل فى فطرة ذى عقل صحيح ، ولا بحجة خبرٍ ، أنْ يُنسِيَ الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم بعض ما قد كان أنزله إليه . فإذْ كان ذلك غير مستحيل من أحد هذين الوجهين ، فغير جائز لقائلٍ أن يقول : ذلك غير جائز .

وأما قوله : « ولئنْ شئنا لنَذهبَنّ بالذى أوحينا إليك » ، فإنه جل ثناؤه لم يخبر أنه لا يذهبُ بشىء منه ، وإنما أخبر أنه لو شاء لذهب بجميعه ، فلم يذهب به والحمد لله ، بل إنما ذهب بما لا حاجة بهم إليه منه . وذلك أنّ ما نسخ منه فلا حاجة بالعباد إليه . وقد قال الله تعالى ذكره : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى • إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [سورة الأعلى : ٦ – ٧] ، فأخبر أنه ينسى نبيَّه منه ما شاء . فالذى ذهب منه ، الذى استثناه الله .

فأما نحن، فإنما اخترنا ما اخترنا من التأويل طَلبَ اتّساق الكلام على نظام فى المعنى ، لا إنكارَ أنْ يكون الله تعالى ذكره قد كان أنسَى نبيه بعضَ ما نَسخَ من وحيه إليه وتنزيله .[2]

* * *

فمن ذلك : أنه رواه البخارى ٧ : ٢٩٧ (فتح البارى) ، عن عبد الأعلى بن حماد ، عن يزيد بن زريع ، بهذا الإسناد . وفى آخره : « قال أنس : فقرأنا فيهم قرآنا ، ثم إن ذلك رفع : بلغوا عنا قومنا ، أنا قد لقينا ربنا ، فرضى عنا وأرضانا » .

وروى مسلم ١ : ١٨٧–١٨٨ ، من رواية مالك ، عن إسحق بن عبد الله بن أبى طلحة ، عن أنس. وانظر تفصيل ذلك فى تاريخ ابن كثير ٤ : ٧١ – ٧٤ .

(١) الحديث : ١٧٧٠ — ذكره الطبرى تعليقاً . وهو جزء من حديث طويل ، رواه مسلم ١ : ٢٨٦ ، من حديث أبى موسى الأشعرى . وذكره السيوطى فى الدر المنثور ١ : ١٠٥ ، ونسبه أيضاً لابن مردويه ، وأبى نعيم فى الحلية ، والبيهقى فى الدلائل .

وقد أفاض السيوطى فى الإتقان ٢ : ٢٩ – ٣٢ (طبعة المطبعة الموسوية بمصر سنة ١٢٨٧) — فى هذا البحث ، ونقل روايات كثيرة فيه .

(٢) فى المطبوعة : « قد كان آتى نبيه بعض ما نسخ » ، والصواب ما أثبت .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله : « نَأْتِ بِخَيْرٍ منها أو مثلها » . فقال بعضهم بما : —

١٧٧١ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا عبد الله بن صالح قال ، حدثنى معاوية بن صالح ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : « نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها » ، يقول : خير لكم فى المنفعة ، وأرفق بكم .

* * *

وقال آخرون بما : —

١٧٧٢ — حدثنى به الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « نأت بخيرٍ منها أو مثلها » ، يقول : آية فيها تخفيف ، فيها رحمة ،[1] فيها أمر ، فيها نهى . ٣٨٢/١

* * *

وقال آخرون : نأتِ بخيرٍ من التى نسخناها ، أو بخير من التى تركناها فلم ننسخها . ذكر من قال ذلك :

١٧٧٣ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو ، قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « نأت بخيرٍ منها » ، يقول : نأت بخير من التى نسخناها ، أو مثلها ، أو مثل التى تركناها .

* * *

« فالهاء والألف » اللتان فى قوله : « منها » ، عائدتان — على هذه المقالة — على « الآية » فى قوله : « ما ننسخ من آية » . و « الهاء والألف » اللتان فى قوله : « أو مثلها » ، عائدتان على « الهاء والألف » اللتين فى قوله : « أو ننسها » .

* * *

وقال آخرون بما : —

١٧٧٤ — حدثنى به المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن

(١) فى تفسير ابن كثير ١ : ٢٧٥ « فيها رخصة » مكان : « فيها رحمة » .

ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : كان عبيد بن عمير يقول : « نُنسها » : نرفعها من عندكم ، نأت بمثلها أو خير منها.[1]

١٧٧٥ – حدثني المثنى قال، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « أو نُنسها »، نرفعها ، نأت بخير منها أو بمثلها.[2]

١٧٧٦ – حدثني المثنى قال، حدثنا إسحق قال ، حدثنا بكر بن شوذب ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، عن أصحاب ابن مسعود مثله .

* * *

والصواب من القول فى معنى ذلك عندنا : ما نبدّل من حكم آية فنغيره ، أو نترك تبديله فنقرّه بحاله، نأتِ بخيرٍ منها لكم – من حكم الآية التى نسخنا فغيّرنا حكمها – إمّا فى العاجل، لخفته عليكم، من أجل أنه وَضْع فرض كان عليكم، فأسقط ثِقْله عنكم ، وذلك كالذى كان على المؤمنين من فرض قيام الليل ، ثم نسخ ذلك فوضع عنهم، فكان ذلك خيراً لهم فى عاجلهم ، لسقوط عبء ذلك وثِقْل حمله عنهم= وإمّا فى الآجل، لعظَم ثوابه، من أجل مَشقّة حمله وثِقَل عبئه على الأبدان. كالذى كان عليهم من صيام أيام معدودات فى السنة ، فنسخ وفرض عليهم مكانه صوم شهر كامل فى كل حَوْل . فكان فرضُ صوم شهر كامل كل سنة ، أثقلَ على الأبدان من صيام أيام معدودات . غيرَ أن ذلك وإن كان كذلك ، فالثواب عليه أجزل، والأجر عليه أكثر ، لفضل مشقته على مكلَّفيه من صوم أيام معدودات. فذلك وإن كان على الأبدان أشقَّ ، فهو خير من الأول فى الآجل لفضل ثوابه وعظم أجره ، الذى لم يكن مثلُه لصوم الأيام المعدودات . فذلك معنى قوله : « نأت بخير منها » . لأنه إمّا بخير منها فى العاجل لخفته على من كُلِّفه ، أو فى الآجل لعظم ثوابه وكثرة أجره .

أو يكون مثلها فى المشقة على البَدن واستواء الأجر والثواب عليه، نظيرَ نسخ الله تعالى ذكرهُ فرضَ الصلاة شَطْرَ بيت المقدس، إلى فرضها شَطْرَ المسجد الحرام .

---

(١) الأثر : ١٧٧٤ – مضى شطره برقم : ١٧٥٣ .

(٢) الأثر : ١٧٧٥ – مضى شطره برقم : ١٧٥٨ .

فالتوجّه شطر بيت المقدس، وإن خالف التوجُّه شَطْر المسجد، فكُلْفة التوجُّه — شطرَ أيِّهما توجّه شطْرَه — واحدة. لأن الذى على المتوجه شطر البيت المقدس من مَؤُونة توجُّهه شطره، نظيرُ الذى على بدنه من مؤونة توجّهه شطر الكعبة، سواء. فذلك هو معنى « المثل » الذى قال جل ثناؤه : « أو مثلها »

* * *

وإنما عَنى جل ثناؤه بقوله : « ما نَنسخ من آية أو نُنسها » : ما ننسخ من حُكم آية أو نُنسِه. غير أن المخاطبين بالآية لما كان مفهوماً عندهم معناها، اكتفى بدلالة ذكر « الآية » من ذكر « حكمها ». وذلك نظير سائر ما ذكرنا من نظائره فيما مضى من كتابنا هذا، كقوله : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾ [سورة البقرة : ٩٣]، بمعنى حب العجل، ونحو ذلك.(١)

* * *

فتأويل الآية إذاً : ما نغيرْ من حكم آية فنُبدّله، أو نتركه فلا نبدله، نأت بخير لكم — أيها المؤمنون — حُكماً منها، أو مثل حكمها فى الخفّة والثِّقل والأجر والثواب.

* * *

فإن قال قائل : فإنا قد علمنا أن العجل لا يُشرَب فى القلوب، وأنه لا يلتبس على من سَمع قوله : « وأشرِبوا فى قُلوبهم العجل »، أن معناه : وأشربوا فى قلوبهم حُبَّ العجل، فما الذى يدلّ على أنّ قوله : « ما نَنسخْ من آية أو نُنْسها نأت بخير منها » — لذلك نظيرٌ ؟ ٣٨٣/١

قيل : الذى دلّ على أن ذلك كذلك قوله : « نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها »، وغير جائز أن يكون من القرآن شىء خيرٌ من شىء، لأن جَميعه كلام الله، ولا يجوز فى صفات الله تعالى ذكره أن يُقال : بعضها أفضلُ من بعض، وبعضُها خيرٌ من بعض.(٢)

* * *

(١) انظر ما سلف من هذا الجزء ٢ : ٣٥٧ — ٣٦٠

(٢) من شاء أن يرى كيف كان أبو جعفر رضى الله عنه يبصر معنى كل حرف، متحرياً للحق والصواب حريصاً على دلالة كل كلمة، فليقرأ أمثال هذا القول فيما مضى وفيما يستقبل.

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٠٦)

قال أبو جعفر: يعنى جل ثناؤه بقوله: « ألم تَعلَمْ أن الله عَلى كل شىء قَدير»، ألم تعلم يا محمد أنّى قادر على تعويضك مما نسختُ من أحكامى، وغيَّرته من فرائضى التى كنت افترضتها عليك، ما أشاءُ مما هو خير لك ولعبادى المؤمنين معك، وأنفعُ لك ولهم، إمّا عاجلاً فى الدنيا، وإما آجلاً فى الآخرة — أو بأن أبدِّل لك ولهم مكانه مثله فى النفع لهم = عاجلاً فى الدنيا وآجلاً فى الآخرة = وشبيهَه فى الخفة عليك وعليهم؟ فاعلم يا محمد أنّى على ذلك وعلى كل شىء قديرٌ.

* * *

ومعنى قوله: « قدير » فى هذا الموضع: قوىّ. يقال منه: « قد قَدَرت على كذا وكذا»، إذا قَوِيتَ عليه، «أقدِرُ عليه وأقدُرُ عليه قُدْرة وقِدْرانًا ومَقْدِرَة»، وبنو مُرّة من غَطفان تقول: « قَدِرْت عليه » بكسر الدال.[1]

فأما من « التقدير » من قول القائل: « قَدَرْتُ الشىءَ »، فإنه يقال منه « قدَرْته أقدُره قَدْرًا وقَدَرًا ».

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١٠٧)

قال أبو جعفر: إن قال لنا قائل: أوَلم يكن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يعلم أنّ الله على كل شىء قدير، وأنهُ له ملك السموات والأرض، حتى قيل له ذلك؟

---

(١) انظر ما سلف ١ : ٣٦١.

قيل : بلى ! فقد كان بعضهم يقول : إنما ذلك من الله جل ثناؤه خبر عن أن محمداً قد عَلم ذلك ، ولكنه قد أخرج الكلام مُخرج التقرير ، كما تفعل مثله العرب فى خطاب بعضها بعضاً ، فيقول أحدهم لصاحبه : « ألم أكرمك ؟ ألم أتفضل عليك ؟ » بمعنى إخباره أنه قد أكرمه وتفضّل عليه ، يريد : أليس قد أكرمتك ؟ أليس قد تفضلت عليك ؟ بمعنى : قد علمت ذلك .

* * *

قال أبو جعفر : وهذا لا وجه لَهُ عندنا . وذلك أن قوله جل ثناؤه : « ألم تعلم » ، إنما معناه : أمَا علمت . وهو حرف جَحد أدْخل عليه حرف استفهام ، وحروف الاستفهام إنما تدخل فى الكلام إمّا بمعنى الاستثبات ، وإما بمعنى النفى ، فأما بمعنى الإثبات ، فذلك غير معروف فى كلام العرب ، ولاسيما إذا دخلت على حروف الجحد . ولكن ذلك عندى ، وإن كان ظَهر ظهورَ الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ، فإنما هو معنىٌّ به أصحابه الذين قال لهم الله جل ثناؤه : «لا تَقولوا رَاعِنا وقُولوا انظُرنا وَاسْمَعوا » . والذى يدل على أن ذلك كذلك ، قوله جل ثناؤه : « وَمَا لكم مِنْ دُون الله من وَلىٍّ ولا نَصير » ، فعاد بالخطاب فى آخر الآية إلى جميعهم ، وقد ابتدأ أولها بخطاب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : « ألم تَعلم أن الله لهُ مُلك السموات والأرض » . لأن المراد بذلك الذين وصفتُ أمرَهم من أصحابه . وذلك من كلام العرب مستفيض بينهم فصيحٌ : أنْ يُخرج المتكلم كلامَه على وجه الخطاب منه لبعض الناس وهو قاصدٌ به غيره ، وعلى وجه الخطاب لواحدٍ وهو يقصد به جماعةً غيره ، أو جماعة والمخاطبُ به أحدُهم — وعلى وجه الخطاب للجماعة ، والمقصودُ به أحدهم . من ذلك قول الله جل ثناؤه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ ثم قال ﴿ واتَّبِعْ مَا يُوحَى إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [سورة الأحزاب : ١ - ٢] ، فرجع إلى خطاب الجماعة ، وقد ابتدأ الكلام بخطاب النبى صلى الله عليه وسلم . ونظير ذلك قول الكميت بن زيد فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إلَى السِّرَاجِ المُنِيرِ أَحْمَدَ ، لاَ يَعْدِلُنِي رَغْبَةٌ وَلاَ رَهَبُ[١]

عَنْهُ إلَى غَيْرِهِ ، وَلَوْ رَفَعَ النَّـــاسُ إلَيَّ العُيُونَ وَارْتَقَبُوا[٢]

وَقِيلَ : أَفْرَطْتَ! بل قَصَدتُ، ولَوْ عَنَّفَنِي القَائِلُونَ أَوْ ثَلَبُوا[٣]

لَجَّ بِتَفْضِيلِكَ اللِّسَانُ ، وَلَو أُكْثِرَ فِيكَ الضِّجَاجُ واللَّجَبُ[٤]

أَنْتَ المُصَفَّى المَحْضُ المُهَذَّبُ فى النِّـــسْبَةِ ، إنْ نَصَّ قَوْمَكَ النَّسَبُ[٥]

فأخرَج كلاَمه على وَجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو قاصد بذلك أهلَ بيته ، فكنى عَنْ وَصْفهم وَمدْحِهم ، بذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن بنى أميَّة ، بالقائلين المعنِّفين . لأنه معلوم أنه لا أحدٌ يُوصف بتعنيف مادح النبي صلى الله عليه وسلم وتفضيله ، ولا بإكثار الضّجاج واللجب فى إطناب القيل بفضله .[٦]

---

(١) الهاشميات : ٣٤ ، والحيوان للجاحظ ٥ : ١٧٠ — ١٧١ .

(٢) « عنه إلى غيره » متعلق بقوله : لا يعدلنى . . . » ، فى البيت قبله .

(٣) أفرطت : أى جاوزت الحد . و « قصدت » من القصد : وهو العدل بين الإفراط والتقصير . والثلب : العيب والذم .

(٤) قوله « فيك » أى بسببك ومن أجلك . والضجاج مصدر : ضاجه يضاجه (بتشديد الجيم) مضاجة وضجاجاً : وهو المشاغبة مع الصياح والضجيج . واللجب : ارتفاع الأصوات واختلاطها طلباً للغلبة .

(٥) هذب الشيء : نقاه وخلصه وطهره من كل ما يعيبه . وقوله « المهذب فى النسبة » ، أى المهذب النسبة ، وأدخل « فى » للتوكيد ، بمعنى الزيادة . ونص الشيء : رفعه وأظهره وأبانه . يعنى أبان فضلهم على غيرهم .

(٦) من شاء أن يعرف فضل ما بين عقلين من عقول أهل الذكاء والفطنة ، فلينظر إلى ما بين قول أبي جعفر فى حسن تأتيه ، وبين قول الجاحظ فى استطالته بذكائه حيث يقول فى كتابه الحيوان ٥ : ١٦٩ — ١٧١ .

« ومن المديح الخطأ ، الذى لم أر قط أعجب منه قول الكميت بن زيد ، وهو يمدح النبي صلى الله عليه وسلم : فلو كان مديحه لبنى أمية لجاز أن يعيبهم بذلك بعض بنى هاشم ، أو لو مدح به بعض بنى هاشم ، لجاز أن يعترض عليه بعض بنى أمية ، أو لو مدح أبا بلال الخارجى لجاز أن تعيبه العامة ، أو لو مدح عمرو بن عبيد لجاز أن يعيبه المخالف ، أو لو مدح المهلب ، لجاز أن يعيبه أصحاب الأحنف ، فأما مديح النبي صلى الله عليه وسلم . فمن هذا الذى يسوءه ذلك؟ » ثم أنشد الأبيات السالفة ، وقال : « ولو كان لم يقل فيه عليه السلام إلا مثل قوله :

وكما قال جميل بن معمر :

أَلاَ إِنَّ جِيرَانِي الْعَشِيَّةَ رَائِحُ دَعَتْهُمْ دَوَاعٍ مِنْ هَوًى وَمَنَادِحُ[(١)]

فقال : « ألا إنَّ جيراني العشيَّة » ، فابتدأ الخبر عن جماعة جيرانه ، ثم قال : « رائحُ » ، لأن قصْدَه — في ابتدائه ما ابتدأ به من كلامه — الخبرُ عن واحد منهم دون جماعتهم ، وكما قال جميل أيضاً في كلمته الأخرى :

خَلِيلَيَّ فِيمَا عِشْتُمَا ، هَلْ رَأَيْتُمَا قَتِيلاً بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي ؟[(٢)]

وهو يريد قاتلته ، لأنه إنما يصف امرأة ، فكنَى باسم الرجل عنها ، وهو يعنيها .

فكذلك قوله : « ألم تَعلم أن الله عَلى كل شيء قدير ● ألم تَعلم أن الله لَه ملك السموات والأرض » ، وإن كان ظاهر الكلام على وَجْه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فإنه مقصودٌ به قَصْد أصحابه . وذلك بيِّنٌ بدلالة قوله : « وَما لكم من دُون الله من وَليٍّ ولا نصير ● أم تريدون أنْ تسألوا رَسولكم كما سُئل موسى

وَبُورِكَ قَبْرٌ أَنْتَ فِيهِ وَبُورِكَتْ بِهِ وَلَهُ أَهْلٌ بِذَلِكَ يَثْرِبُ
لَقَدْ غَيَّبُوا بِرًّا وَحَزْمًا وَنَائِلاً عَشِيَّةَ وَارَاكَ الصَّفِيحُ المنصَّبُ

فلو كان لم يمدحه عليه السلام إلا بهذه الأشعار التي لا تصلح في عامة العرب ، لما كان ذلك بالمحمود ، فكيف مع الذي حكينا قبل هذا ؟ » .

والجاحظ تأخذ قلمه أحياناً مثل الحكة ، لا تهدأ من ثورانها عليه حتى يشتفي منها ببعض القول ، وببعض الاستطالة ، وبفرط العقل ! ومع ذلك ، فإن النقاد يتبعون الجاحظ ثقة بفضله وعقله ، فربما هجروا من القول ما هو أولى ، فتنة بما يقول .

(١) لم أجد البيت فيما طبع من شعر جميل ، ولا فيما جمعته منه . والمنادح : البلاد الواسعة البعيدة . كأنها جمع مندوحة ، حذفت ياؤه . وقال تميم بن أبي بن مقبل :

وَإِنِّي إِذَا مَلَّتْ رِكَابِي مُنَاخَهَا رَكِبْتُ ، وَلَمْ تَعْجِزْ عَلَيَّ المَنَادِحُ

وربما حسن أن يقال إنه جمع لا واحد له من لفظه ، كمحاسن مشابه ، والواحد من ذلك ندح وجمعه أنداح : وهو ما اتسع من الأرض .

(٢) الأمالي ٢ : ٧٤ ، والأغاني ١ : ١١٧ ، ٧ : ١٤٠ ، وهي قصيدة من جيد شعر جميل .

من قبلُ » الآيات الثلاث بعدها — على أن ذلك كذلك.[١]

* * *

أما قوله : « له مُلكُ السموات والأرض » ولم يقل : ملك السموات ، فإنه عنى بذلك «مُلك» السلطان والمملكة دون « المِلْك » . والعرب إذا أرادت الخبر عن «المملكة» التي هي مملكة سلطان، قالت: « ملَكَ الله الخلق مُلكاً ». وإذا أرادت الخبر عن «المِلك» قالت: «مَلَكَ فلان هذا الشيء فهو يَملكه مِلكاً ومَلَكة ومَلْكاً ».

* * *

فتأويل الآية إذاً : ألم تعلم يا محمد أن لى مُلك السموات والأرض وسُلطانهما دون غيرى ، أحكمُ فيهما وفيما فيهما ما أشاء ، وآمُر فيهما وفيما فيهما بما أشاء، وأنهى عمّا أشاء، وأنسخ وأبدّل وأغيّر من أحكامى التى أحكُم بها فى عبادى ما أشاء إذا أشاء ، وأقِرُّ منهما ما أشاء ؟

* * *

وهذا الخبر وإن كان من الله عز وجل خطاباً لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم على وجه الخبر عن عظمته ، فإنه منه جل ثناؤه تكذيبٌ لليهود الذين أنكروا نَسْخ أحكام التوراة ، وَجحدوا نبوّة عيسى ، وأنكروا محمداً صلى الله عليه وسلم ، لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غيّر الله من حكم التوراة . فأخبرهم الله أن له مُلك السموات والأرض وسلطانهما ، فإن الخلْق أهل مَملكته وطاعته ، عليهم السَّمع له والطاعةُ لأمره ونهيه، وأنّ له أمرَهم بما شاء، ونهيهم عمّا شاء ، ونسخَ ما شاء، وإقرارَ ما شاء، وإنساءَ ما شاء من أحكامه وأمره ونهيه . ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه : انقادوا لأمرى، وانتهوا إلى طاعتى فيما أنسخ، وفيما أترك فلا أنسخ، من أحكامى وحدودى وفرائضى ، ولا يَهولنكم خلافُ مخالفٍ لكم فى أمرى ونهيى وناسخى ومنسوخى ، فإنه لا قيِّم بأمركم سواى ، ولا ناصر لكم غيرى ، وأنا المنفرد ١/٣٨٥ بولايتكم ، والدفاع عنكم ، والمتوحِّدُ بنصرتكم بعزّى وسلطانى وقوّتى على من ناوأكم وحادّكم ، ونَصب حرب العداوة بينه وبينكم ، حتى أُعلى حجتكم ،

(١) انظر ما سيأتى بعد قليل : ٤٩٩ — ٥٠٠ .

وأبعدها عليهم لكم .

* * *

و « الولى » معناه «فعيل» من قول القائل : « وَلِيتُ أمرَ فلان »، إذا صرتَ قيِّماً به، « فأنا ألِيه، فهو وَليُّه » وقيِّمه. ومن ذلك قيل: «فلان وَلىّ عهد المسلمين»، يعنى به : القائم بما عهد إليه من أمر المسلمين .

* * *

وأما « النصير » فإنه « فعيل » من قولك : « نصرتُك أنصُرك ، فأنا ناصرك ونصيرك » ، وهو المؤيِّد والمقوِّى .

* * *

وأما معنى قوله : « من دون الله » ، فإنه سوَى الله ، وبعد الله ، ومنه قول أمية بن أبى الصلْت:

يَا نَفْسُ مَالَكِ دُونَ اللهِ مِنْ وَاقِى   وَمَا عَلَى حَدَثَانِ الدَّهْرِ مِنْ بَاقِى[1]

يريد : ما لك سِوَى الله وبَعد الله مَنْ يَقيك المكاره .

* * *

فعنى الكلام إذاً: وليس لكم،أيها المؤمنون ، بعدَ الله من قيِّم بأمركم، ولا نَصير فيؤيّدكم ويقوِّيكم ، فيعينكم على أعدائكم .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى السبب الذى من أجله أنزلت هذه الآية . فقال بعضهم بما : —

١٧٧٧ — حدثنا به أبو كريب قال، حدثنى يونس بن بكير — وحدثنا

---

(١) ديوانه : ٤٣ . ومثله قول ابن أحمر :

إِنْ نَحْنُ إِلاَّ أُناسٌ أَهْلُ سَائِمَةٍ   وَمَا لَهُمْ دُونَهَا حَرْثٌ ولاَ غُرَرُ

يريد : ليس لنا مال سوى السائمة ، فليس لنا زرع ولا خيل .

ابن حميد قال ، حدثنا سلمة بن الفضل-[1] قالا ، حدثنا ابن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت قال ، حدثنى سعيد بن جبير ، أو عكرمة عن ابن عباس : قال رافع بن حُرَيْملة ووهب بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ائتنا بكتاب تنزِّله علينا من السماء نقرؤه ، وفجِّر لنا أنهاراً ، نتَّبعك ونصدقك! فأنزل الله فى ذلك من قولهما :[2] « أمْ تُريدون أنْ تَسألوا رَسولكم كما سُئِلَ موسَى منْ قَبْلُ » ، الآية .[3]

* * *

وقال آخرون بما : —

١٧٧٨ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « أم تُريدون أن تَسألوا رَسولكم كما سُئل موسى من قبل » ، وكان موسى يُسأل ، فقيل له : « أرِنا الله جَهرةً » .

١٧٧٩ — حدثنى موسى بن هرون قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « أم تُريدون أن تَسألوا رَسولكم كما سُئل موسى من قبل » ، أن يريهم الله جهرة . فسألت العربُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيَهم بالله فيرَوْه جهرةً .

* * *

وقال آخرون بما : —

١٧٨٠ — حدثنى به محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله : « أم تُريدون أن تَسألوا رسولكم كما سُئل موسى من قبل » ، أنْ يريهم الله جهرة . فسألت قريش محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله لهمُ الصَّفا ذهباً ، قال : نعم ! وهو لكم كمائدة بنى إسرائيل إنْ كفرتم ! فأبَوْا ورجعوا .

١٧٨١ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن

(١) فى المطبوعة : « قال حدثنا إسحق » ، والصواب ما أثبت .

(٢) فى المطبوعة : « من قولهم » ، والصواب ما أثبت من سيرة ابن هشام .

(٣) الأثر ١٧٧٧ — فى سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٧ .

ابن جريج ، عن مجاهد قال : سألت قريش محمداً أن يجعل لهم الصَّفا ذهباً ، فقال: نعم! وهو لكم كالمائدة لبنى إسرائيل إن كفرتم! فأبوا ورجعوا، فأنزل الله: « أم تُريدون أن تسألوا رَسولكم كما سُئل موسى من قَبل » ،أنْ يُريهم الله جَهرةً.

١٧٨٢ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

* * *

وقال آخرون بما : —

١٧٨٣ — حدثنى به المثنى قال، حدثنا إسحق قال، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، عن أبى العالية قال: قال رَجلٌ : يا رسول الله ، لو كانت كفَّاراتُنا كفَّاراتِ بنى إسرائيل! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اللهم لا نبغيها ! ما أعطاكم الله خيرٌ مما أعطى بنى إسرائيل ، كانت بنو إسرائيل إذا فعل أحدُهم الخطيئة وجدَها مكتوبةً على بابه وكفَّارتَها، فإن كفَّرها كانت له خِزياً فى الدنيا، ٣٨٦/١ وإن لم يكفرها كانتْ له خِزياً فى الآخرة ، وقد أعطاكم الله خيراً مما أعطى بنى إسرائيل ، قال : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ [سورة النساء : ١١٠] . قال : وقال : الصلوات الخمسُ ، والجمُعةُ إلى الجمعة ، كفَّاراتٌ لما بينهن .

وقال : مَنْ همَّ بحسنة فلمْ يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها ، ولا يَهلك على الله إلا هالكٌ » .

فأنزل الله: « أم تُريدون أن تسألوا رُسولكم كما سُئل مُوسى من قبل » . (١)

* * *

(١) الحديث : ١٧٨٣ — هذا حديث مرسل ، من مراسيل أبى العالية . وقد نقله ابن كثير ١ : ٢٧٩ ، عن الطبرى . ونقله السيوطى ١ : ١٠٧ ، ونسبه للطبرى وابن أبى حاتم .

وأبو العالية الرياحى : ثقة من كبار التابعين ، كما قلنا فى : ١٨٤ . ونزيد هنا أنه مترجم فى التهذيب والكبير ٢/١/٢٩٨ ، والصغير : ١٠٩ ، وابن سعد ٧/١/٨١ — ٨٥ ، وابن أبى حاتم ١/٢/٥١٠ والإصابة ٢ : ٢٢١ . ولكن الاحتجاج بحديثه — كغيره من التابعين فمن بعدهم — هو فى الإسناد المتصل ، أما المرسل والمنقطع ، فلا حجة فيهما .

واختلف أهل العربية فى معنى « أم » التى فى قوله : « أم تُريدون » . فقال بعض البصريين : هى بمعنى الاستفهام. وتأويل الكلام : أتريدون أن تسألوا رسُولكم ؟

* * *

وقال آخرون منهم : هى بمعنى استفهام مُستقبَل مُنقطع من الكلام ، كأنك تميل بها إلى أوّله ، كقول العرب : « إنها لإبلٌ ياقوم أمْ شاء » و « لقد كان كذا وكذا أمْ حَدْسُ نفسى ؟ » قال : وليس قوله : « أم تريدون » على الشك ، ولكنه قاله ليقبِّح له صنيعهم . واستشهد لقوله ذلك ببيت الأخطل :

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ ، أمْ رَأيتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلَامِ مِنَ الرَّبَابِ خَيَالاَ[1]

* * *

وقال بعض نحويى الكوفيين : إن شئت جعلت قوله : « أم تريدون » استفهاماً على كلام قد سبقه ، كما قال جل ثناؤه ﴿ الٓمٓ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ [سورة السجدة : ١ - ٣] ، فجاءت « أم » وليس قبلها استفهام ، فكان ذلك عنده دليلاً على أنه استفهامٌ مُبتدَأٌ على كلام سبقه . وقال قائل هذه المقالة : « أم » فى المعنى تكون ردًّا على الاستفهام على جهتين : إحداهما أن تفرِّق معنى « أىّ » ،[2] والأخرى : أن يستفهم بها فتكون على جهة النسق، والذى يُنوى بها الابتداءُ، إلا أنّه ابتداء متصلٌ بكلام .[3] فلو ابتدأت كلاماً ليس قبله كلام ثم استفهمت ، لم يكن إلاّ بـ « الألف » أو بـ « هل » .[4]

---

(١) ديوانه : ٤١ ، ونقائض جرير والأخطل : ٧٠ . وواسط : قرية غربى الفرات مقابل الرقة من أعمال الجزيرة ، وهى من منازل بنى تغلب ، وهى غير واسط التى بناها الحجاج بين البصرة والكوفة . الغلس : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بتباشير الصباح ، فهى سواد مختلط ببياض وحمرة .

(٢) فى المطبوعة : « تعرف معنى أى » ، وفى لسان العرب (أم ١٤ : ٣٠٠) : « أن تفارق معنى أم » وكلتاهما خطأ صرف . والصواب فى معانى القرآن للفراء ١ : ٧١ . وذلك أن قولك : «أزيد عندك أم عمرو » ، معناه : أيهما عندك . ويبين أن « أم » تفرق الاستفهام ، وأن « أى » تجمع متفرق الاستفهام . وقد قال الطبرى فيما سلف فى هذا الجزء ٢ : ١٩٨ : « إن أصل « أى » و « ما » جمع متفرق الاستفهام » .

(٣) فى المطبوعة : « وتكون على جهة النسق ، والذى ينوى به الابتداء » ، والصواب من معانى القرآن للفراء .

(٤) هذا نص كلام الفراء فى معانى القرآن ١ : ٧١ .

قال : وإن شئت قلت فى قوله : « أم تريدون »، قبله استفهام فردٌ عليه . وهو فى قوله : « أَلَمْ تَعلم أنّ الله على كل شىء قدير ».[١]

* * *

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى ذلك عندى، على ما جاءت به الآثار التى ذكرناها عن أهل التأويل: أنّه استفهامٌ مبتدَأٌ، بمعنى : أتريدون أيُّها القوم أن تسألوا رَسُولكم ؟ وإنما جاز ، أن يستفهم القوم بـ« أم » ، وإن كانت « أم » أحد شروطها أن تكون نَسقاً فى الاستفهام لتقدُّم ما تقدمها من الكلام ، لأنها تكون استفهاماً مُبتدأً إذا تقدمها سابقٌ من الكلام . ولم يُسمع من العرب استفهام بها ولم يتقدمها كلام . ونظيره قوله جل ثناؤه : ﴿ أَلَم * تَنْزِيلُ الكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ العَالِمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ [سورة السجدة : ١ - ٣] .

وقد تكون « أم » بمعنى « بل » ، إذا سبقها استفهام لا يصلح فيه « أىّ » ، فيقولون : « هل لك قِبَلنا حقٌّ، أم أنت رجل معروف بالظلم ؟ »[٢] وقال الشاعر :

فَوَاللهِ مَا أَدْرِى! أَسَلمى تَغَوَّلَتْ، أَمِ النَّوْمُ، أَمْ كلٌّ إلىَّ حَبِيبُ[٣]؟

يعنى : بَل كلٌّ إلىَّ حبيب .

وقد كان بعضهم يقول — منكراً قولَ من زعم أن « أم » فى قوله : « أم تريدون »

---

(١) وهذا أيضاً بعض نص الفراء فى معانى القرآن .

(٢) هذا أيضاً ذكره الفراء . ثم قال بعده : « يريدون : بل أنت رجل معروف بالظلم » .

(٣) لم أعرف قائله . وسيأتى فى تفسيره ٢٠ : ٦ (بولاق) على الصواب ، وفى معانى القرآن للفراء ١ : ٧٢ ، واللسان (أم) ، والصاحبى : ٩٨ . وفى المطبوعة هنا : « تقولت . . . أم القوم » ، وهو خطأ محض . وقوله : « تغولت » ، أى تصورت فى صورة امرأة أحسبها وأراها . من تغول الغول : وهى أن تتلون وتتخيل فى صور شتى . يعنى أنها بعيدة لا شك فى بعدها ، ولكنه يخال أنه يراها أمامه ماثلة قائمة . وقال الأخطل :

وَتَعَرَّضَتْ لَكَ بِالأَبَاطِحِ بَعْدَ مَا قَطَعَتْ بِأَبْرَقَ خُلَّةً وَوِصَالَا

وَتَغَوَّلَتْ لِتَرُوعَنَا جِنِّيَّةٌ وَالغَانِيَاتُ يُرِينَكَ الأَهْوَالَا

ثم يقول : « أم النوم » أى : أم هو حلم . بل كلاهما حبيب إلى ، يعنى أى ذلك كان ، فهو حبيب إلى .

استفهامٌ مستقبَلٌ منقطع من الكلام ، يميل بها إلى أوّله — : إنّ الأول خبر ، والثانى استفهام ، والاستفهام لا يكون فى الخبر ، والخبر لا يكون فى الاستفهام ، ولكن أدرَكه الشك — بزعمه — بعد مُضىّ الخبر ، فاستفهم .

* * *

قال أبو جعفر : فإذ كان معنى « أم » ما وصفنا ، فتأويل الكلام : أتريدون أيها القوم أن تسألوا رسولكم من الأشياء نظيرَ ما سأل قوم موسى من قبلكم ، فتكفروا — إن مُنِعتموه — فى مسألتكم ما لا يجوز فى حكمة الله إعطاؤكموه ، أو أن تَهلكوا إن كان مما يجوز فى حكمته عَطاؤكموه ،[1] فأعطاكموه ، ثم كفرتم من من بعد ذلك ، كما هلك من كان قبلكم من الأمم التى سألت أنبياءَها ما لم يكن لها مسألتُها إياهم ، فلما أعطيت كفرت ، فعوجلت بالعقوبات لكفرها ، بعد إعطاء الله إيّاها سُؤْلها .

٢٨٧/١

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « وَمَنْ يَتبدَّل » ، ومن يستبدل « الكفر » ،[2] ويعنى بـ « الكفر » الجحودَ بالله وبآياته ،[3] « بالإيمان » ، يعنى بالتصديق بالله وبآياته والإقرار به .[4]

وقد قيل : عَنى بـ « الكفر » فى هذا الموضع : الشدّة ، وبـ « الإيمان » الرخاء . ولا أعرف الشدة فى معانى « الكفر » ، ولا الرخاء فى معنى « الإيمان » ، إلا أن يكون قائلُ ذلك أرَاد بتأويله « الكفر » بمعنى الشدة فى هذا الموضع ، وبتأويله « الإيمان » فى معنى الرخاء — : ما أعدّ الله للكفار فى الآخرة من الشدائد ، وما أعدّ الله لأهل

---

(١) فى المطبوعة : « أو أتهلكوا » خطأ .

(٢) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ١٣٠

(٣) انظر ما سلف ١ : ٢٥٥ ، ٣٨٢ ، ٥٥٢ وغيرها بعدها .

(٤) انظر ما سلف ١ : ٢٣٤ — ٢٣٥ ، ٢٧١ ، ٥٦٠ وغيرها بعدها .

الإيمان فيها من النعيم ، فيكون ذلك وجهاً ، وإن كان بعيداً من المفهوم بظاهر الخطاب . ذكر من قال ذلك :

١٧٨٤ — حدثني المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه، عن أبي العالية : « ومن يتبدَّلِ الكفرَ بالإيمان »، يقول : يتبدل الشدة بالرخاء .

١٧٨٥ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسن قال ، حدثني حجاج ، عن ابن أبي جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية بمثله .

* * *

وفي قوله : « ومن يتبدَّلِ الكفرَ بالإيمان فقدْ ضَلَّ سواء السبيل »، دليلٌ واضح على ما قلنا :[1] من أن هذه الآيات من قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعِنا »، خطابٌ من الله جل ثناؤه المؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،[2] وعتاب منهُ لهم على أمر سلف منهم ، مما سُرَّ به اليهود ، وكرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ، فكرهه الله لهم ، فعاتبهم على ذلك ، وأعلمهم أن اليهود أهل غِشٍّ لهم وحسدٍ وبغى ، وأنهم يتمنَّون لهم المكارهَ ، ويبغونهم الغوائل ، ونهاهم أن ينتصحوهم ، وأخبرهم أنَّ من ارتدَّ منهم عن دينه فاستبدل بإيمانه كفراً ، فقد أخطأ قَصْدَ السبيل .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ السَّبِيلِ ﴾ (١٠٨)

قال أبو جعفر : أما قوله : « فقد ضل »، فإنه يعني به : ذهب وحادَ . وأصل « الضلال عن الشيء »، الذهاب عنه والحيْد،[3] ثم يستعمل في الشيء الهالك ،

---

(١) انظر ما سلف قريباً : ٤٦٢–٤٦٦، ٤٨٤–٤٨٨، وانظر ما سيأتي قريباً : ٤٩٨، ٤٩٩

(٢) في المطبوعة : « المؤمنين به من أصحاب رسول الله . . . . »، وزيادة « به » خطأ .

(٣) انظر ما سلف ١ : ١٩٥ .

والشيء الذي لا يُؤْبَه له ، كقولهم للرجل الخامل الذي لا ذِكر له ولا نَباهة : « ضُلُّ بن ضُلٍّ » و « قُلُّ بن قُلٍّ » ، وكقول الأخطل ، في الشيء الهالك :

كُنْتَ القَذَى فِى مَوْجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ   قَذَفَ الأَتِىُّ بِه فَضَلَّ ضَلاَلاَ[1]

يعنى : هلك فذهب.

• • •

والذي عنى الله تعالى ذكره بقوله: « فقد ضَلَّ سَواءَ السبيل »، فقد ذهب عن سواء السبيل وحاد عنه .

• • •

وأما تأويل قوله « سَواء السبيل » ، فإنه يعنى بـ « السواء »، القصدَ والمنهج . وأصل « السواء » الوسط . ذُكر عن عيسى بن عمر النحويّ أنه قال : ما زلت أكتبُ حتى انقطع سَوائى » ، يعنى : وسطى . وقال حسان بن ثابت :

يَا وَيْحَ أَنْصَارِ النَّبِىِّ وَنَسْلِهِ   بَعْدَ المُغَيَّبِ فِى سَوَاءِ المُلْحَدِ[2]

---

(١) ديوانه : ٥٠ ، ونقائض جرير والأخطل : ٨٣ وسيأتى فى تفسير الطبرى ٣ : ٢١٩ / ٢١ : ٦١ (بولاق) . وقوله : « كنت » ، يعنى جريراً ، وهو جواب « إذا » ، فقبل البيت :

وَإِذَا سَمَا لِلْمَجْدِ فَرْعَا وَائِلٍ   وَاسْتَجْمَعَ الوَادِى عَلَيْكَ فَسَالاَ

« فرعا وائل » يعنى بكراً وتغلب رهط الأخطل . والقذى : ما يكون فوق الماء من تبن وورق وأعواد . وفى المطبوعة هنا : « أكبر » مكان « أكدر » ، وهو تصحيف ، وأتى على صوابه فى الموضعين الآخرين من التفسير . وقوله « أكدر » يعنى بحراً متلاطما ، فكدر بعد صفاء . ومزبد : بحر هائج مائج يقذف بالزبد . والأتى : السيل الذى يأتى من مكان بعيد . وقوله : « قذف الأتى به » ، صفة للقذى . يقول : كنت عندئذ كالقذى رمى به السيل فى بحر مزبد لا يهدأ موجه ، فهلك هلاكاً . ورواية الديوان : « فى لج أكدر » .

(٢) ديوانه : ٩٨ ، وسيأتى فى تفسير الطبرى ١٠ : ٢٠ (بولاق) ، وهكذا جاءت الرواية هنا « نسله » ، وأظنها خطأ من ناسخ ، أو خطأ فى رواية . ورواية الديوان وما سيأتى فى الطبرى ، وغيرها « ورهطه » . وهو من رثاء حسان رسول الله بأبى هو وأمى صلى الله عليه وسلم. وعنى بقوله : « ورهطه » المهاجرين رضى الله عنهم . والمغيب مصدر غيبه فى الأرض : واراه . و « الملحد » بضم الميم وفتح الحاء بينهما لام ساكنة : هو اللحد ، والقبر .

يعنى بالسَّواء : الوسط . والعرب تقول : « هو فى سَواء السبيل »، يعنى فى مستوى السَّبيل، و « سواء الأرض »: مستواها، عندهم .

وأما «السَّبيل»، فإنها الطريقُ المسبول، صُرف من «مَسبولٌ» إلى « سبيل ». (١)

* * *

فتأويل الكلام إذاً : ومن يستبدل بالإيمان بالله وبرسوله الكفرَ ، فيرتدَّ عن دينه ، فقد حاد عن مَنهج الطريق ووَسطه الواضح المسبول . (١)

وهذا القول ظاهرُه الخبرُ عن زَوال المستبدِلِ بالإيمان الكفرَ عن الطريق، والمعنىُّ به الخبرُ عنه أنه تَرك دين الله الذى ارتضاه لعباده ، وجعله لهم طريقاً ٣٨٨/١ يسلُكونه إلى رضاه ، وسبيلاً يركبونها إلى محبته والفوز بجناته . فجعل جل ثناؤه الطريق — الذى إذا ركبَ محجَّته السائرُ فيه ، ولزم وَسَطه المجتازُ فيه ، نجا وبلغ حاجته ، وأدرك طلبته — لدينه الّذى دعا إليه عباده ، مثلاً ، لإدراكهم بلزومه واتباعه ، طلباتِهم فى آخرتهم ،(٢) كالّذى يُدرك اللازم محجَّة السبيل = بلزومه إياها = طلبتَه من النجاة منها ، والوصول إلى الموضع الذى أمَّه وقصده . وجعل مثل الحائد عن دينه، الجائر عن اتّباع ما دَعاه إليه من عبادته —(٣) فى إخطائه ما رجَا أن يدركه بعمله فى آخرته وينال به فى معاده ،(٤) وذهابه عما أمّل من ثواب عمله ، وبُعده به من ربّه — مثلَ الحائد عن منهج الطريق وقصد السبيل ، الذى لا يزدادُ وُغولاً فى الوجه الذى سَلكه ،(٥) إلاّ ازداد من موضع حاجته بعداً ،

---

(١) لم أجد لقوله : « مسبول » فعلا ، وكأنه أراد أن يؤوب به إلى الأصل، فإن « فعيلا » لابد له من فعل ثلاثى دو « سبل» وإن لم يستعملوه ، وهو مصروف عن « مفعول » . فقال الطبرى : « مسبول » . ويهون ذلك أنهم قالوا : « السابلة » وهو « فاعلة » من فعل ثلاثى . ولكنهم لم يستعملوه ، ومعناه : « السالكة الطريق من الناس » . وقالوا سبيل سابلة: أىمساوكة ، فهذه أيضاً « فاعلة » بمعنى « مفعولة » . فعنى بقوله « المسبول » فى الموضعين : المسلوك .

(٢) فى المطبوعة : « لإدراكهم بلزومه واتباعه إدراكهم طاباتهم . . . » وقوله : « إدراكهم » زائدة من ناسخ .

(٣) فى المطبوعة : « والحائد عن اتباع ما دعاه . . . » ، وأظن الصواب ما أثبت .

(٤) فى المطبوعة : « فى حياته ما رجا أن يدركه . . . » ، وهى مصحفة ولا شك ، وأثبت ما أدانى إليه اجتهادى فى قراءته . لأنهم يقول أخطأ الطريق ، وأخطأ ما ابتغى ، إلى أشباه ذلك .

(٥) الوغول ، مصدر « وغل يغل وغولا ، وأوغل »، إذا ذهب فأبعد المذهب .

وعن المكان الذى أمَّه وأراده نأْياً .

وهذه السبيلُ التى أخبر الله عنها ، أن من يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سَواءَها ، هى « الصِّراط المستقيم » ، الذى أمرنا بمسألته الهدايةَ له بقوله : « اهْدنا الصراط المستقيم ، صراطَ الذين أنْعمتَ عَليهم » .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً﴾

قال أبو جعفر : وَقدْ صَرَّح هذا القول من قول الله جل ثناؤه ، بأن خطابه بجميع هذه الآيات من قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تَقولوا رَاعِنا » — وإن صَرَف فى نَفسه الكلامَ إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم — إنما هو خطابٌ منه للمؤمنين من أصحابه ،[١] وعتابٌ منه لهم ، ونَهىٌ عن انتصاح اليهود ونَظرائهم من أهل الشرك وَقبولِ آرائهم فى شيء من أمور دينهم — ودليلٌ على أنهم كانوا استعملوا أو من استعمل منهم فى خطابه ومسألته رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الجفاءَ ، وما لم يكن له استعماله معه ،[٢] تأسِّياً باليهود فى ذلك أو ببعضهم . فقال لهم ربهم ناهياً لهم عن استعمال ذلك :[٣] لا تقولوا لنبيِّكم صلى الله عليه وسلم كما تقول له اليهود : « رَاعِنا » ، تأسياً منكم بهم ، ولكن قولوا : « انْظُرنا واسمعوا » ، فإن أذَى رسول الله صلى الله عليه وسلم كفرٌ بى ، وجحودٌ لحقِّى الواجب لى عليكم فى تعظيمه وتوقيره ، ولمن كفر بى عذاب أليم ؛ فإن اليهودَ والمشركين ما يودُّون أن ينزَّل عليكم

(١) فى المطبوعة : « للمؤمنين وأصحابه » ، وكأن الصواب ما أثبت .

(٢) سياق العبارة : أو من استعمل . . . الجفاء ، واستعمل ما لم يكن له استعماله معه ، تأسياً باليهود .

(٣) فى المطبوعة : « قال لهم ربهم » ، والصواب زيادة الفاء .

من خيرٍ من ربكم، ولكنّ كثيراً منهم ودّوا أنهم يَرُدُّونكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً من عند أنفسهم لكم ولنبيكم محمد صلى الله عليه وسلم، من بعد ما تبيّن لهم الحق فى أمر محمد، وأنه نبى إليهم وإلى خلق كافة.

* * *

وقد قيل إن الله جل ثناؤه عنى بقوله: «ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب»، كعبَ ابن الأشرف.

١٧٨٦ — حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر، عن الزهرى فى قوله: «ودّ كثير من أهل الكتاب»، هو كعب بن الأشرف.

١٧٨٧ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال، حدثنا أبو سفيان المعمرى، عن معمر، عن الزهرى وقتادة: «ودّ كثير من أهل الكتاب»، قال: كعب بن الأشرف. (١)

وقال بعضهم بما: —

١٧٨٨ — حدثنا ابن حميد قال، حدثنا سلمة قال، حدثنى ابن إسحق — وحدثنا أبو كريب قال، حدثنا يونس بن بكير قال، حدثنا محمد بن إسحق — قال: حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت قال، حدثنى سعيد بن جبير، أو عكرمة، عن ابن عباس قال: كان حُيَيّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهودَ للعرب حسداً، إذْ خصَّهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم. وكانا جاهِدَيْن فى ردّ الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله فيهما: «وَدّ كثيرٌ منْ أهلِ الكتاب لوْ يَرُدُّونكم» الآية. (٢) ٣٨٩/١

* * *

قال أبو جعفر: وليس لقول القائل عَنَى بقوله: «وَدّ كثيرٌ من أهل الكتاب»

(١) الأثر: ١٧٨٧ — فى المطبوعة: «أبو سفيان المعمرى». وهو محمد بن حميد اليشكرى المعمرى البصرى نزيل بغداد، قيل له المعمرى «لأنه رحل إلى معمر بن راشد الأزدى. وهو ثقة صدوق، وذكره ابن حبان فى الثقات. وذكره العقيلى فى الضعفاء، وقال: «فى حديثه نظر» مات سنة ١٨٢ (تهذيب التهذيب ٩: ١٣٢)

(٢) الأثر: ١٧٨٨ — فى سيرة ابن هشام ٢: ١٩٧.

كعبَ بن الأشرف ، معنى مفهوم . لأن كعب بن الأشرف واحد ، وقد أخبر الله جل ثناؤه أن كثيراً منهم يودُّون لو يردُّون المؤمنين كفاراً بعد إيمانهم ، والواحد لا يقال له «كثير» ، بمعنى الكثرة فى العدد ، إلاَّ أن يكون قائل ذلك أراد بوجه الكثرة التى وصفَ الله بها من وصفه بها فى هذه الآية ، الكثرةَ فى العزّ ورفعة المنزلة فى قومه وعشيرته ، كما يقال : «فُلان فى الناس كثير» ، يُراد به كثرة المنزلة والقدْر. فإن كان أراد ذلك فقد أخطأ ، لأن الله جل ثناؤه قد وصفهم بصفة الجماعة فقال : «لَوْ يَردُّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حَسداً» ، فذلك دليل على أنه عنى الكثرة فى العدد = أو يكون ظنّ أنه من الكلام الذى يخرج مَخرج الخبر عن الجماعة ، والمقصود بالخبر عنه الواحدُ ، نظيرَ ما قلنا آنفاً فى بيت جميل ، [1] فيكون ذلك أيضاً خطأ . وذلك أن الكلام إذا كان بذلك المعنى ، فلا بد من دلالة فيه تدل على أن ذلك معناه ، ولا دلالة تدل فى قوله : «ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب» أنّ المراد به واحد دون جماعة كثيرة ، فيجوز صرف تأويل الآية إلى ذلك ، وإحالة دليل ظاهره إلى غير الغالب فى الاستعمال .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾

قال أبو جعفر : ويعنى بقوله جل ثناؤه : «حَسَدًا من عند أنفسهم» ، أن كثيراً من أهل الكتاب يَودُّون للمؤمنين ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم يودونه لهم ، من الردّة عن إيمانهم إلى الكفر ، حسدًا منهم وبغياً عليهم .

* * *

و «الحسد» إذاً مَنصوبٌ على غير النعت «للكفار» ، ولكن على وجه المصدر الذى يأتى خارجاً من معنى الكلام الذى يُخالف لفظه لفظ المصدر ، كقول القائل لغيره : «تمنَّيت لك ما تمنَّيتُ من السوء حسداً منى لك» ، فيكون «الحسد» مصدراً

(١) انظر ما سلف قريباً : ٤٨٧ قوله : «ألا إن جيرانى العشية رائح» .

من معنى قوله : « تمنيت من السوء » . لأن فى قوله : تمنيت لك ذلك ، معنى : حسدتك على ذلك. فعلى هذا نُصب « الحسد » ، لأن فى قوله : « ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يَرُدُّونكم من بَعد إيمانكم كفاراً » ، معنى : حسدكم أهلُ الكتاب على ما أعطاكم الله من التوفيق ، ووهب لكم من الرشاد لدينه والإيمان برسوله ، وخصّكم به من أن جعل رسوله إليكم رجلاً منكم رؤوفاً بكم رحيماً ، ولم يجعله منهم فتكونوا لهم تبعاً . فكان قوله : « حَسداً » ، مصدراً من ذلك المعنى .

* * *

وأما قوله : «من عند أنفُسِهم » ، فإنه يعنى بذلك : من قِبَل أنفسهم ، كما يقول القائل : « لى عِندك كذا وكذا » ، بمعنى : لى قِبَلك ، وكما :

١٧٨٩ — حدثت عن عمار قال، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع بن أنس ، قوله : « مِنْ عِند أنفُسِهم » ، قال : من قبلَ أنفسهم[1]

وإنما أخبر الله جل ثناؤه عنهم المؤمنين أنهم ودُّوا ذلك للمؤمنين، من عند أنفسهم ، إعلاماً منه لهم بأنهم لم يؤمروا بذلك فى كتابهم ، وأنهم يأتون ما يأتون من ذلك على علم منهم بنهى الله إياهم عنه .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : بقوله : « من بَعد مَا تَبينَ لَهمُ الحقُّ » ، أى من بعد ما تبين لهؤلاء الكثيرِ من أهل الكتاب — الذين يودُّون أنّهم يردُّونكم كفاراً من بعد إيمانكم — الحقُّ فى أمر محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، وما جاء به من عند ربه ، والملة التى دعا إليها فأضاء لهم : أنّ ذلك الحق الذى لا يمترون فيه ، كما :—

(١) الأثر : ١٧٨٩ — كان هذا الإسناد مبتوراً ، فأتممته استظهاراً من الإسناد الدائر فى التفسير فى مئات المواضع السالفة ، أقربها رقم : ١٦٤٧ وسيأتى أيضاً رقم : ١٧٩٢ ، وكان الأثر نفسه مبتوراً فأتممته من تفسير ابن كثير ١ : ٢٨٠ ، والدر المنثور ١ : ١٠٧ .

١٧٩٠ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة: « من بعد ما تَبين لَهمُ الحقُّ »، من بعد ما تبين لهم أنّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والإسلامَ دين الله .

١/٣٩٠

١٧٩١ — حدثني المثنى قال، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ،عن أبي العالية : « من بَعد ما تبين لهم الحق »، يقول : تبين لهم أن محمداً رسولُ الله ، يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل .

١٧٩٢ — حدثت عن عمار قال، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، مثله — وزاد فيه : فكفروا به حسداً وبغياً ، إذْ كان من غيرهم .

١٧٩٣ — حدثني موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى: « منْ بعد ما تَبين لهم الحق »، قال: الحقُّ هو محمد صلى الله عليه وسلم، فتبيّن لهم أنّه هو الرسول .

١٧٩٤ — حدثني يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد : « من بعد ما تبين لهم الحق »، قال : قد تبين لهم أنه رسول الله .

* * *

قال أبو جعفر : فدلّ بقوله ذلك : أن كفرَ الذين قصّ قصّتهم فى هذه الآية بالله وبرسوله ، عنادٌ ، وعلى علم منهم ومعرفةٍ بأنهم على الله مفترون ، كما : —

١٧٩٥ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا عثمان بن سعيد قال ، حدثنا بشر ابن عمارة، عن أبي روق ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : « منْ بعد مَا تبين لهم الحق »، يقول الله تعالى ذكره: من بعد ما أضاء لَهم الحقُّ، لم يجهلوا منه شيئاً، ولكن الحسدَ حملهم على الجحد . فعيَّرهم الله ولاَمهم ووَبَّخهم أشدَّ الملامة .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « فاعفوا » ، فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وخطأ فى رأى أشاروا به عليكم فى دينكم ، إرادة صدكم عنه ، ومحاولة ارتدادكم بعد إيمانكم — وعمّا سلف منهم من قيلهم لنبيكم صلى الله عليه وسلم : ﴿ ٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ﴾ [سورة النساء : ٤٦] ، واصفحوا عما كان منهم من جهل فى ذلك — حتى يأتى الله بأمره ، فيحدث لكم من أمره فيكم ما يشاء ، ويقضى فيهم ما يريد . فقضى فيهم تعالى ذكره وأتى بأمره ، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به : ﴿ قَٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [سورة التوبة : ٢٩] . فنسخ الله جل ثناؤه العفو عنهم والصفح ، بفرض قتالهم على المؤمنين ، حتى تصير كلمتهم وكلمة المؤمنين واحدة ، أو يؤدّوا الجزية عن يدٍ صَغارًا ، كما : —

١٧٩٦ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو صالح قال ، حدثنى معاوية بن صالح ، عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتى اللهُ بأمره إن الله على كل شىء قدير » ، ونسخ ذلك قوله : ﴿ فَٱقْتُلُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [سورة التوبة : ٥]

١٧٩٧ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره » ، فأتى الله بأمره فقال : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » حتى بلغ « وهم صاغرون » أى : صغاراً

ونقمةً لهم. فنسخت هذه الآية ما كان قبلها: «فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره».

١٧٩٨ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع فى قوله : «فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره»، قال : اعفُوا عن أهل الكتاب حتى يُحدث الله أمرًا . فأحدث الله بعد فقال : «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر» إلى «وهم صاغرون».

١٧٩٩ — حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : «فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره» قال : نسختها : «اقتلوا المشركين حيث وجدتُموهم».

١٨٠٠ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : «فاعفوا واصفحوا حتى يأتىَ الله بأمره» قال : هذا منسوخ ، نسخه : «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر» إلى قوله «وهم صاغرون» . ٣٩١/١

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٩﴾

قال أبو جعفر : قد دللنا فيما مضى على معنى «القدير» ، وأنه القوى.[1]

* * *

فمعنى الآية ههنا : إن الله — على كل ما يشاء بالذين وصفت لكم أمرهم من أهل الكتاب وغيرهم — قديرٌ، إن شاء انتقم منهم بعنادهم ربَّهم ،[2] وإن شاء هداهم لما هداكم الله له من الإيمان ، لا يتعذّر عليه شىء أراده، ولا يتعذّر عليه أمرٌ شاء قضاءه ، لأن له الخلق والأمرُ.

* * *

(١) انظر ما سلف قريباً : ٤٨٤ رقم ١ : ٣٦١ .

(٢) فى المطبوعة : «إن شاء الانتقام منهم» ، والسياق يقتضى ما أثبت .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ﴾

قال أبو جعفر : قد دللنا فيما مضى على معنى « إقامة الصلاة » ، وأنها أداؤها بحدودها وفروضها ، وعلى تأويل « الصلاة » وما أصلها ، وعلى معنى « إيتاء الزكاة » ، وأنه إعطاؤها بطيب نفس على ما فُرضت ووَجبت ، وعلى معنى « الزكاة » واختلاف المختلفين فيها ، والشواهد الدالة على صحة القول الذى اخترنا فى ذلك ، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع.[1]

* * *

وأما قوله : «وَمَا تُقَدِّموا لأنفسكُمْ مِنْ خير تَجدوهُ عندَ الله » ، فإنه يعنى جل ثناؤه بذلك : ومهما تعملوا من عَمل صالح فى أيام حياتكم ، فتقدّموه قبل وفاتكم ذُخراً لأنفسكم فى معادكم ، تجدوا ثوابه عند ربكم يوم القيامة ، فيجازيكم به .

* * *

و« الخير » هو العمل الذى يرضاه الله . وإنما قال : «تجدوه» ، والمعنى : تجدوا ثوابه ، كما : —

١٨٠١ — حدثت عن عمار بن الحسن قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله : « تجدوه » ، يعنى : تجدوا ثوابه عند الله .

قال أبو جعفر : لاستغناء سامعى ذلك بدليل ظاهرٍ على معنى المراد منه ، كما قال عُمر بن لجأ :[2]

وَسبَّحَتِ المَدِينَةُ ، لاَ تَلُمْهَا ... رَأَتْ قَمَرًا بِسُوقِهِمُ نَهَارَا[3]

وإنما أراد : وَسبّح أهلُ المدينة .

---

(١) انظر ما سلف ١ : ٢٤١ — ٢٤٢ ، ثم ١ : ٥٧٣ — ٥٧٤ .

(٢) فى المطبوعة : « عمرو بن لجأ » ، وهو خطأ .

(٣) سلف هذا البيت وتخريجه فى ١ : ٢٧٩ .

وإنما أمرَهم جل ثناؤه فى هذا الموضع بما أمرهم به ، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وتقديم الخيرات لأنفسهم ، ليطَّهَّروا بذلك من الخطأ الذى سلف منهم فى استنصاحهم اليهود ، ورُكونِ من كان رَكن منهم إليهم ، وجفاءِ من كان جفا منهم فى خطابه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « راعِنا » ، إذ كانت إقامة الصلوات كفارةً للذنوب ، وإيتاءُ الزكاة تطهيراً للنفوسِ والأبدان من أدْناس الآثام ، وفى تقديم الخيرات إدراكُ الفوْز برضوان الله .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١١٠)

قال أبو جعفر : وهذا خبر من الله جل ثناؤه للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين ، أنهم مهما فعلوا من خيرٍ وشرّ سرًّا وعلانيةً ، فهو به بصير لا يخفى عليه منه شىء ، فيجزيهم بالإحسان خيراً ، وبالإساءة مثلها .(١)

* * *

وهذا الكلام ، وإن كان خرج مخرج الخبر ، فإن فيه وعداً ووعيداً وأمرًا وزجراً . وذلك أنه أعلم القوم أنه بصيرٌ بجميع أعمالهم ، ليجدُّوا فى طاعته ، إذ كان ذلك مذخوراً لهم عنده حتى يُثيبهم عليه ، كما قال : « وما تقدِّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » ؛ وليحذروا معصيته ، إذ كان مطّلعاً على راكبها ، بعد تقدُّمه إليه فيها بالوعيد عليها ، وما أوْعدَ عليه ربُّنا جل ثناؤه فمنهىٌّ عنه ، وما وَعَد عليه فمأمور به .

* * *

أما قوله : « بَصير » ، فإنه « مُبصر » صُرِف إلى « بصير » ، كما صرف « مُبدع » إلى « بديع » و « مؤلم » إلى « أليم » .(٢)

* * *

(١) فى المطبوعة : « جزاءه » والصواب من تفسير ابن كثير ١ : ٢٨١ .

(٢) انظر ما سلف ١ : ٢٨٣ ، وهذا الجزء ٢ : ١٤٠، ٣٧٧

القول فى تأويل قوله تعالى جلّ ذكره ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾

٢/١

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « وقالوا » ، وقالت اليهودُ والنصارى « لن يدخُل الجنة » .

* * *

فإن قال قائل : وكيف جمع اليهود والنصارى فى هذا الخبر ، مع اختلاف مقالة الفريقين ؛ واليهود تدفَع النصارى عن أنْ يكون لها فى ثواب الله نصيبٌ ، والنصارَى تدفع اليهودَ عن مثل ذلك ؟

قيل : إن معنى ذلك بخلاف الذى ذهبت إليه . وإنما عنى به : وقالت اليهود : لن يدخلَ الجنةَ إلا من كان هودًا ؛ وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا النصارى . ولكن معنى الكلام لمَّا كان مفهوماً عند المخاطبين به معناه ، جُمع الفريقان فى الخبر عنهما ، فقيل : « قالوا لنْ يَدْخُل الجنة إلامن كان هُوداً أو نَصارَى » الآية — أى قالت اليهود : لن يدخل الجنة إلاّ من كان يهوديًّا ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًّا .

* * *

وأما قوله : « مَن كان هُوداً » ، فإن فى « الهود » قولين : أحدهما أن يكون جمع « هائد » كما جاء « عُوط » جمع « عائط » و « عوذ » جمع « عائذ » و « حول » جمع « حائل » ، فيكون جمعاً للمذكر والمؤنث بلفظ واحد . و « الهائد » . التائبُ الراجع إلى الحق .[1]

والآخر : أن يكون مَصدراً عن الجميع ، كما يقال : « رجل صَوْم ، وقوم

---

(١) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ١٤٣

صَوْم » ، و « رجل فطر وقوْم فِطْرٌ ، ونسوة فِطْرٌ » .[١]

وقد قيل : إنّ قوله : « إلا من كان هوداً » ، إنما هو قوله ، إلاّ من كان يَهوداً ، ولكنه حذف الياء الزائدة ، ورَجع إلى الفعل من اليهودية . وقيل : إنه فى قراءة أبىّ : « إلا من كان يَهوديًّا أو نَصرانيًّا » .[٢]

* * *

وقد بينا فيما مضى معنى « النصارى » ، ولم سميت بذلك ، وجُمعت كذلك ، بما أغنى عن إعادته .[٣]

* * *

وأما قوله : « تلك أمانيُّهم » ، فإنه خبر من الله تعالى ذكره عن قول الذين قالوا : « لن يدخُل الجنة إلاّ من كان هُودًا أو نَصارَى » ، أنه أمانىّ منهم يتمنَّونها على الله بغير حق ولا حجة ولا برهان ، ولا يقين علم بصحة ما يدعون ، ولكن بادّعاء الأباطيل وأمانىّ النفوس الكاذبة ، كما : —

١٨٠٢ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « تلك أمانيُّهم » ، أمانى يتمنَّونها على الله كاذبة .

١٨٠٣ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر : ، عن أبيه ، عن الربيع : « تلك أمانيهم » ، قال : أمانى : تمنوا على الله بغير الحق .

* * *

---

(١) أخشى أن يكون أبو جعفر قد زل زلة العجلان . فإنه ذكر آنفاً (٢ : ١٤٣) مصدر الفعل : « هاد » وهو « هودا » بفتح فسكون ، وعلى ذلك إجماع أهل اللغة ، ولم يأت منه مصدر مضموم الهاء ، حتى يشبه بقولهم « صوم » ، وفطر » ، فهما مصدران . ولا يستقيم كلام أبى جعفر حتى يكون مصدر « هاد يهود هوداً » بضم الهاء ، ولم يقله هو ولا قاله غيره . فسقط هذا الوجه ، حتى تقيمه حجة من رواية صادقة .

(٢) انظر معانى القرآن للفراء ١ : ٧٣ .

(٣) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ١٤٣—١٤٥

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ (١١١)

قال أبو جعفر : وهذا أمر من الله جل ثناؤه لنبيه صلى الله عليه وسلم بدُعاء الذين قالوا: «لن يدُخل الجنة إلا مَنْ كان هُوداً أو نَصَارَى» — إلى أمرٍ عدلٍ بين جميع الفرق: مسلمِيها، ويَهودها، ونَصَارَاها، وهو إقامة الحجة على دَعواهم التى ادّعوا : من أنّ الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى . يقول الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، قل للزاعمين أن الجنةَ لا يدُخلها إلا من كان هوداً أو نصارى ، دُون غيرهم من سَائر البشر : « هاتوا بُرهانكم » على ما تزعمون من ذلك ، فنسلّم لكم دَعْواكم إن كنتم فى دَعواكم — من أنّ الجنة لا يدخلها إلاّ من كان هوداً أو نصارى — محقّين .

* * *

و« البرهان »، هو البيان والحجة والبيّنة، كما : —

١٨٠٤ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة: « هاتوا برهانكم » ، هاتوا بَيّنتكم .

١٨٠٥ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال، حدثنا أسباط ، عن السدى: « هاتوا بُرهانكم » ، هاتوا حجتّكم .

١٨٠٦ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، عن مجاهد: « قل هاتوا بُرْهانكم »، قال : حُجتّكم .[1]

١٨٠٧ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « قل هاتوا برهانكم »، أى حُجتّكم .

* * *

قال أبو جعفر وهذا الكلام، وإن كان ظاهره ظاهر دُعاء القائلين: «لن يدُخلَ الجنة ٣٩٣/١

---

(١) الأثر : ١٨٠٦ — كان فى المطبوعة « حدثنا الحسن » ، وهو خطأ ، إسناد دائر ، والحسين هو الحسين بن داود المصيصى ، ولقبه « سنيد » عرف به .

إلا من كان هُوداً أو نصارَى» — إلى إحضار حجةٌ على دعواهم ما ادَّعوا من ذلك، فإنه بمعنى تكذيبٍ من الله لهم فى دعواهم وقيلهم ، لأنهم لم يكونوا قادرين على إحضار برهانٍ على دعواهم تلك أبداً . وقد أبان قوله : « بَلى مَنْ أَسلمَ وَجْهَهُ لله وهُوَ مُحسن» ، عن أنِ الذى ذكرنا من الكلام ،[1] بمعنى التكذيب لليهود والنصارى فى دعواهُم وما ذكر الله عنهم .

* * *

وأما تأويل قوله : « قل هاتوا بُرْهانكم » ، فإنه : أحضروا وأتوا به .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « بَلى مَنْ أسلم » ، أنه ليس كما قال الزاعمون : « لن يدخل الجنة إلاَّ مَنْ كان هُوداً أو نصارى» ، ولكن من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فهو الذى يدخلها وينعم فيها ، كما : —

١٨٠٩ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى قال : أخبرهم أنَّ من يدخل الجنة هو من أسلم وجهه لله ، الآية .

* * *

وقد بينا معنى « بلى » فيما مضى قبلُ .[2]

* * *

وأما قوله : «من أسلم وجهه لله» ، فإنه يعنى بـ « إسلام الوجه » : التذلل لطاعته ، والإذعان لأمره . وأصل «الإسلام » الاستسلام ، لأنه من « استسلمت لأمره » ، وهو الخضوع لأمره . وإنما سمى « المسلم » مسلماً ، بخضوع جوارحه لطاعة ربه ، كما : —

١٨١٠ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « بلىَ من أسلم وَجهه لله » ، يقول : أخلص لله .

(١) فى المطبوعة : « على أن الذى ذكرنا » ، وهو تحريف .

(٢) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٢٨٠ ، ٢٨١

وكما قال زيد بن عمرو بن نُفيل :

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلاَلاَ[1]

يعني بذلك : استسلمتُ لطاعة من استسلم لطاعته المزْن وانقادتْ له .

* * *

وخصّ الله جل ثناؤه بالخبر عمن أخبر عنه بقوله : « بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ » ، بإسلام « وجهه » له دون سائر جوارحه ، لأنّ أكرم أعضاء ابن آدم وجوارحه وَجهه ، وهو أعظمها عليه حُرْمَة وحقًّا . فإذا خضَع لشيء وجهه الذى هو أكرم أجزاء جسده عليه ، فغيره من أجزاء جسده أحرَى أن يكون أخضع له . ولذلك تذكر العرب فى منطقها الخبر عن الشيء فتضيفه إلى « وجهه » ، وهى تعنى بذلك نَفسَ الشيء وَعينَه ، كقول الأعشى :

أُؤَوِّلُ الحُكْمَ عَلَى وجْهِهِ ، لَيْسَ قَضَائِي بِالهَوَى الجَائِرِ[2]

يعنى بقوله : « على وَجهه » ، على ما هو به من صحته وصوابه ، وكما قال ذو الرُّمَّة :

فَطَاوَعْتُ هَمِّي ، وَانْجَلَى وَجْهُ بَازِلٍ مِنَ الأَمْرِ ، لَمْ يَتْرُكْ خِلاَجاً بُزُولُهَا[3]

---

(١) سيرة ابن هشام ١ : ٢٤٦ وغيره .

(٢) ديوانه : ١٠٦ من قصيدته المشهورة . فى منافرة علقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل ، فهجا الأعشى علقمة لأمر كان بينهما . وفضل عليه عامراً . (انظر الأغانى ١٥ : ٥٠ - ٥٦) . وأول الحكم : قدره ودبره ورده إلى صوابه وأصابه . والجائر : المائل عن سبيل الحق . جار : ظلم ومال . وقبل البيت :

عَلْقَمَ ، لاَ تَسْفَه ، وَلاَ تَجْعَلَنْ عِرْضَكَ لِلْوَارِدِ وَالصَّادِرِ

وبعده :

قَدْ قُلْتُ قَوْلاً فَقَضَى بينَكُمْ وَاعْتَرَفَ الْمَنْفُورُ لِلنَّافِرِ

(٣) ديوانه : ٥٦٠ يمدح عبيد الله بن عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى ، فى آخر القصيدة ، فقال بعد البيت :

فَقَالَتْ : عُبَيْدَ الله مِنْ آلِ مَعْمَرٍ إِلَيْهِ ارْحَلِ الأَنْقَاضَ يَرْشُدْ رَحِيلُهَا

يريد : وانجلى البازلُ من الأمر فتبيَّن — وما أشبه ذلك ، إذْ كان حُسن كلّ شيء وقُبحه فى وجهه ، وكان فى وَصفها من الشيء وجهه بما تَصفه به ،[1] إبانَةٌ عن عين الشيء ونفسه . فكذلك معنى قوله جل ثناؤه : « بَلى من أَسلم وَجهه لله » ، إنما يعنى : بلى من أسلم لله بَدنه ، فخضع له بالطاعة جسدُه ، وهو محسن فى إسلامه له جَسدَه ، فله أجره عند ربه . فاكتفى بذكر « الوَجه » من ذكر « جَسده » ، لدلالة الكلام على المعنى الذى أريد به بذكر « الوجه » .

* * *

وأما قوله : « وهو محسن » ، فإنه يعنى به : فى حال إحسانه . وتأويل الكلام : بلى من أَخلص طَاعته لله وعبادته له ، محسناً فى فعله ذلك .

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١١٢)

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « فله أَجرُه عندَ ربه » ، فللمسلم وجهَه لله محسناً ، جزاؤُه وثوابه على إسلامه وطاعته ربه ، عندَ الله فى معاده . ٣٩٤/١

* * *

ويعنى بقوله : « ولا خوف عليهم » — على المسلمين وَجوههم لله وهم محسنون ،

وقوله : « طاوعت همى » ، ما هم به فى نفسه . يقول : طاوعت ما همت به نفسى . وقوله : « بازل من الأمر » يعنى خطة يركبها . هذا مثل . يقال : بزل ناب البعير بزولا ، أى طلع وانشق وظهر . ومنه قيل : بزل الأمر والرأى : قطعه . وخطة بزلاء : تفصل بين الحق والباطل . فقوله « بازل من الأمر » صفة لما أضمره من قوله « خطة » ، وأتى بها على التذكير ، كما أتوا بها على التذكير فى قولهم : « ناقة بازل » . والخلاج : الشك والتردد والتنازع . يقول : طاوعت ما جال فى نفسى ، فانجلى عن خطة ظاهرة انشقت وظهرت ، فلم تدع للنفس مذهباً فى الشك والتردد ، إذ قالت : اقصد عبيد الله بن عمر بن عبيد الله بن معمر .

(١) الضمير فى قوله ، « وصفها » إلى العرب ، فيما سلف .

المخلصين له الدين فى الآخرة — من عقابه وعذاب جحيمه ، وَمَا قدموا عليه من أعمالهم .

* * *

ويعنى بقوله : « ولاَ هُمْ يحزنون » ، ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم فى الدنيا ، ولا أن يُمنعوا ما قدِموا عليه من نعيم ما أعدّ الله لأهل طاعته .

* * *

وإنما قال جل ثناؤه : « ولا خوف عليهم ولا هُم يَحزنون » ، وقد قال قبل : « فلهُ أجرهُ عند ربّه » ، لأن « مَنْ » التى فى قوله : « بَلَى مَنْ أسلم وجهه لله » فى لفظِ واحدٍ ومعنًى جميعٍ ، فالتوحيد فى قوله : « فله أجره » للفظ ، والجمع فى قوله : « ولا خوفٌ عليهم » للمعنى .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾

قال أبو جعفر : ذُكر أن هذه الآية نزلت فى قَوْم من أهل الكتابين ، تنازعوا عندَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض . ذكر من قال ذلك :

١٨١١ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة — وحدثنا أبو كريب قال ، حدثنا يونس بن بكير قالا ، جميعاً — حدثنا محمد بن إسحق قال ، حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت قال ، حدثنى سعيد بن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما قدِم أهل نَجران من النصارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتتهم أحبارُ يهود ، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رافع بن حُريْملة :

ما أنتم على شيء ! وكفر بعيسى بن مريم وبالإنجيل. فقال رجل من أهل نجران من النصارى : ما أنتم على شيء ! وجحد نبوّة موسى وكفرَ بالتوراة ، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهما : « وَقالت اليهود ليست النصارَى عَلى شَيء وَقالت النصارى لَيَسَت اليهودُ على شيء » إلى قوله « فيما كانوا فيه يَختلفونَ » .[1]

١٨١٢ — حدثت عن عمار قال، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله : « وقالت اليهود ليست النصارى عَلى شيء وَقالت النصارَى ليست اليهودُ على شَيء »، قال : هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

* * *

قال أبو جعفر : وأمّا تأويل الآية فإنه : قالت اليهود : ليست النصارى في دينها على صواب ! وقالت النصارى : ليست اليهود في دينها على صواب ! وإنما أخبر الله عنهم بقيلهم ذلك للمؤمنين ، إعلاماً منه لهم بتضييع كل فريق منهم حُكم الكتاب الذي يُظهر الإقرارَ بصحته ، وأنه من عند الله ، وجحودِهم مع ذلك ما أنزل الله فيه من فروضه . لأن الإنجيل الذي تدين بصحته وحقّيته النصارى ، يحقق ما في التوراة من نبوّة موسى عليه السلام ، وما فرض الله على بني إسرائيل فيها من الفرائض ، وأن التوراة التي تدين بصحتّها وحقيتها اليهود ، تحقق نبوّة عيسى عليه السلام ، وما جاء به من عند الله من الأحكام والفرائض .

ثم قال كل فريق منهم للفريق الآخر ما أخبر الله عنهم في قوله : « وقالت اليهود لَيست النصارى عَلى شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء »، مع تلاوة كل واحد من الفريقين كتابَه الذي يشهد على كذبه في قيله ذلك . فأخبر جل ثناؤه أن كل فريق منهم قال ما قال من ذلك، على علم منهم أنّهم فيما قالوه مبطلون، وأتوا ما أتَـوْا من كفرهم بما كفروا به، على معرفة منهم بأنهم فيه ملحدون .

---

(١) الأثر : ١٨١١ — في سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٧ — ١٩٨ .

* * *

فإن قال لنا قائل: أوَ كانت اليهود والنصارى بعد أن بعث الله رسوله على شىء، فيكون الفريق القائل منهم ذلك للفريق الآخر، مبطلاً فى قيله ما قال من ذلك ؟

قيل : قد روينا الخبر الذى ذكرناه عن ابن عباس قبلُ، من أنّ إنكار كل فريق منهم، إنما كان إنكاراً لنبوّة النبىّ الذى ينتحل التصديق به وبما جاء به الفريق الآخر ، لا دفعاً منهم أن يكون الفريق الآخر — فى الحال التى بعث الله فيها نبينا صلى الله عليه وسلم — على شىء من دينه، بسبب جحوده نبوّة نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم . وكيف يجوز أن يكون معنى ذلك إنكارُ كل فريق منهم أن يكون الفريق الآخر على شىء بعد بعثه نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكلا الفريقين كان جاحداً نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فى الحال التى أنزل الله فيها هذه الآية ؟ ولكن معنى ذلك : وقالت اليهود : ليست النصارى على شىء من دينها مُنذُ دانت دينها ! وقالت النصارى : ليست اليهود على شىء مُنذ دانت دينها ! وذلك هو معنى الخبر الذى رويناه عن ابن عباس آنفاً ، فكذّب الله الفريقين فى قيلهما ما قالا ، كما : — ١/٣٩٥

١٨١٣ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « وقالت اليهودُ ليست النصارى على شىء » ، قال : بلى ! قد كانت أوائل النصارى على شىء ، ولكنهم ابتدعوا وتفرّقوا ، وقالت النصارى : « ليست اليهود على شىء » ، ولكن القوم ابتدعوا وتفرّقوا .

١٨١٤ — حدثنا القاسم قال، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج : « وقالت اليهودُ ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء » ، قال ، قال مجاهد : قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شىء .

* * *

وأما قوله : « وهُم يتلونَ الكتابَ » ، فإنه يعنى به كتاب الله التوراةَ والإنجيلَ ،

وهما شاهدان على فريقَى اليهود والنصارى بالكفر ، وخلافِهم أمرَ الله الذى أمرهم به فيه ، كما : —

١٨١٥ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا يونس بن بكير — وحدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة بن الفضل — قالا جميعاً ، حدثنا ابن إسحق قال ، حدثنى محمد ابن أبى محمد مولى زيد بن ثابت قال ، حدثنى سعد بن جبير ، أو عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : « وَهُم يَتلون الكتاب كذلك قَال الذين لا يَعلمون مثل قَولهم » ، أى كلٌّ يتلو فى كتابه تصديق ما كفر به ، أى يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم من الميثاق على لسان موسى بالتصديق بعيسى عليه السلام ، وفى الإنجيل مما جاء به عيسى تصديقُ موسى وما جاء به من التوراة من عند الله ، وكلٌّ يكفر بما فى يد صاحبه .(١)

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى الذين عَنى الله بقوله : « كذلك قال الذين لا يعلمون » . فقال بعضهم بما : —

١٨١٦ — حدثنى به المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « قالَ الذين لا يَعلمون مثل قولهم » ، قال : وقالت النصارى مثلَ قول اليهود قبلهم .

١٨١٧ — حدثنا بشر قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « قال الذين لا يَعلمون مثلَ قَولهم » ، قال : قالت النصارى مثل قول اليهود قبلهم .

* * *

وقال آخرون بما : —

(١) الأثر : ١٨١٥ — فى سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٨

١٨١٨ ــ حدثنا به القاسم قال ،حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج قال ، قال ابن جريج : قلت لعطاء : من هؤلاء الذين لا يعلمون ؟ قال : أمم كانت قبل اليهود والنصارَى ، وقَبل التوراة والإنجيل .

* * *

وقال بعضهم : عنِى بذلك مُشركى العرب ، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب ، فنُسِبوا إلى الجهل ، ونُفِى عنهم من أجل ذلك العلم . ذكر من قال ذلك :

١٨١٩ ــ حدثنى موسى بن هرون قال، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : «كذلك قَال الذين لا يَعلمون مثل قَوْلهم»، فهم العرب ، قالوا : ليس محمد صلى الله عليه وسلم على شىء .

* * *

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى ذلك عندنا أن يُقال : إن الله تبارك ١/٣٩٦ وتعالى أخبر عن قَوم ــ وصفهم بالجهل ، ونَفى عنهم العلم بما كانت اليهود والنصارى به عالمين ــ أنهم قالوا بجهلهم نظيرَ ما قال اليهود والنصارى بعضُها لبعضٍ ،مما أخبر عنهم أنهم قالوه فى قوله : «وقالت اليهود ليست النصارى على شَىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء» . وجائزٌ أن يكونوا هم المشركين من العرب ، وجائز أن يكونوا أمَّة كانت قبل اليهود والنصارى، ولا أمّة أولى أن يقال هى التى عُنيت بذلك من أخرى ، إذ لم يكن فى الآية دلالة على أىٍّ من أىٍّ ، ولا خبرَ بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتت حُجته من جهة نقل الواحد العدل ، ولا من جهة النقل المستفيض .

وإنما قصد الله جل ثناؤه بقوله : «كذلك قال الذين لايعلمون مثلَ قولهم»، إعلامَ المؤمنين أن اليهود والنصارى قد أتوا ــ من قِيل الباطل ، وافتراءِ الكذب على الله ، وجحودِ نبوة الأنبياء والرسل، وهم أهل كتابٍ يعلمون أنهم فيما يقولون مُبطلون، وبجحودهم ما يجحدون من ملتهم خارجون ، وعلى الله مُفترون ــ مثل الذى قاله أهل الجهلِ بالله وكتبه ورسله ، الذين لم يبعث الله لهم رسولاً ولا أوحى إليهم كتاباً .

وهذه الآية تنبىء عن أنّ من أتى شيئًا من معاصى الله على علم منه بنهى الله عنها، فمصيبته فى دينه أعظم من مصيبة من أتى ذلك جاهلاً به. لأن الله تعالى ذكره عظّم توبيخَ اليهود والنصارى بما وبخهم به — فى قيلهم ما أخبر عنهم بقوله: «وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء» — من أجل أنهم أهل كتاب، قالوا ما قالوا من ذلك على علم منهم أنهم مُبطلون.

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (١١٣)

قال أبو جعفر: يعنى بذلك جلّ ثناؤه: فالله يَقضى فيفصل بين هؤلاء المختلفين، = القائلِ بعضهم لبعض: لستم على شىء من دينكم — يومَ قيام الخلق لربهم من قبورهم — فيتبيّن المحق منهم من المبطل، بإثابته المحقَّ ما وَعدَ أهل طاعته على أعماله الصالحة، ومجازاته المبطلَ منهم بما أوعد أهل الكفر به على كفرهم به = فيما كانوا فيه يختلفون من أديانهم ومللهم فى دار الدنيا.

* * *

وأما «القيامة» فهى مصدر من قول القائل: «قمت قياماً وقيامَةً»، كما يقال: «عُدتُ فلاناً عيادة» و«صنت هذا الأمر صيانة».

* * *

وإنما عنى «بالقيامة» قيامَ الخلق من قبورهم لربهم. فمعنى «يوم القيامة»: يوم قيام الخلائق من قبورهم لمحشرهم.

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾

قال أبو جعفر : قد دللنا فيما مضى قبلُ ، على أن تأويل « الظلم » ، وضع الشيء فى غير موضعه .[1] وتأويل قوله: « ومنْ أظلم » ، وأىُّ امرئ أشد تعدّياً وجَراءة على الله وخلافاً لأمره ، من امرئ منع مساجدَ الله أن يُعبد الله فيها ؟

* * *

و « المساجد » جمع « مسجد » : وهو كل موضع عُبِد الله فيه . وقد بينا معنى « السجود » فيما مضى.[2] فمعنى « المسجد » : الموضع الذى يُسجد لله فيه ، كما يقال للموضع الذى يُجلس فيه : « المجلس » ، وللموضع الذى ينزل فيه « منزل » ثم يجمع : « منازل ومجالس » ، نظيرَ مَسجد ومَساجد. وقد حكى سماعاً من بعض العرب « مساجد » ، فى واحد المساجد ، وذلك كالخطأ من قائله .

* * *

وأما قوله : « أنْ يُذكر فيها اسمه » ، فإن فيه وجهين من التأويل . أحدهما : أن يكون معناه : ومن أظلم ممن مَنع مساجد الله منْ أن يذكر فيها اسمه ، فتكون « أن » حينئذ نصباً، من قول بعض أهل العربية بفَقْد الخافض، وتعلُّق الفعل بها .

والوجه الآخر: أن يكون معناه : ومن أظلم مِمَّن مَنع أن يذكر اسمُ الله فى مساجده ، فتكون « أن » حينئذ فى موضع نصب ، تكريراً على موضع المساجد وردًّا عليه .[3] ٢٩٧/١

* * *

وأما قوله : « وسعى فى خرابها » فإن معناه : ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن

---

(١) انظر ما سلف ١ : ٥٢٣ — ٥٢٤ ، وهذا الجزء ٢ : ١٠١ — ١٠٢ ، ٣٦٩

(٢) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ١٠٤ — ١٠٥

(١) قوله : « تكريراً » ، أى بدل اشتمال .

يذكر فيها اسمه ، ومن سعى فى خراب مساجد الله . فـ « سعى » إذاً ، عطفٌ على « منع » .

* * *

فإن قال قائل : ومَن الذى عنى بقوله : « ومنْ أظلمُ ممن مَنع مَساجد الله أنْ يُذكر فيها اسْمُه وسَعى فى خرابها » ؟ وأىُّ المساجِد هى ؟

قيل : إن أهل التأويل فى ذلك مختلفون ، فقال بعضهم : الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم النصارى ، والمسجدُ بيت المقدس . ذكر من قال ذلك :

١٨٢٠ — حدثنى محمد بن سعد قال ، حدثنى أبى قال ، حدثنى عمى قال ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن ابن عباس قوله : « ومن أظلمُ ممن مَنع مساجدَ الله أن يُذْكر فيها اسمه » ، إنهم النصارى .

١٨٢١ — حدثنى محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله : « ومَنْ أظلمُ ممن مَنع مساجدَ الله أن يذكر فيها اسمه وسَعى فى خرابها » ، النصارى ، كانوا يطرحون فى بيت المقدس الأذى ، ويمنعون الناس أن يُصَلُّوا فيه .

١٨٢٢ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله .

* * *

وقال آخرون : وهو بُخْتَنَصَّر وجُنده ومن أعانهم من النصارى ، والمسجدُ مسجد بيت المقدس . ذكر من قال ذلك :

١٨٢٣ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة قوله : « ومن أظلم ممن مَنع مَساجدَ الله أن يُذكر فيها اسمُه » ، الآية ، أولئك أعداء الله النصارى ، حملهم بُغض اليهود على أنْ أعانوا بُخْتَنَصَّر البابلىَّ المجوسى على تخريب بيت المقدس .

١٨٢٤ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا

معمر ، عن قتادة فى قوله : « وَمَنْ أظلم ممن مَنعَ مساجدَ الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها »، قال : هو بختنصّر وأصحابه، خرّب بيت المقدس ، وأعانه على ذلك النصارى .

١٨٢٥ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « ومنْ أظلم ممن منَع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها »، قال : الرُّوم، كانوا ظاهَروا بختنصّر على خراب بيت المقدس حتّى خرّبه ، وأمر به أن تُطرح فيه الجيف، وإنما أعانه الروم على خرابه،من أجل أن بنى إسرائيل قَتلوا يحيى بن زكريا .

* * *

وقال آخرون : بل عنى الله عز وجلّ بهذه الآية ، مشركى قُريش ، إذ منعوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام . ذكر من قال ذلك :

١٨٢٦ — حدثنى يونس بن عبد الأعلى قال ، حدثنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد فى قوله : « ومن أظلمُ ممن منعَ مَساجدَ الله أن يُذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها »، قال: هؤلاء المشركون، حين حَالوا بَينْ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وبين أن يدخل مكة ، حتّى نحر هديه بذى طُوًى وهادنهم ، وقال لهم : ما كان أحد يُردُّ عن هذا البيت ، وقد كان الرجل يَلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فما يصدُّه ! وقالوا : لا يدخل علينا مَنْ قَتل آباءنا يوم بَدر وفينا باقٍ !

وفى قوله : « وَسعى فى خرَابها » قال : إذْ قطعوا من يعمُرها بذكره ،[1] ويأتيها للحجّ والعمرة .

* * *

قال أبو جعفر : وأولى التأويلات التى ذكرتها بتأويل الآية ، قول من قال : عنى الله عز وجل بقوله : « ومنْ أظلمُ ممن منع مساجدَ الله أن يذكر فيها اسمه »، النصارى . وذلك أنهم هُم الذين سعوا فى خراب بيت المقدس ، وأعانوا بختنصّر

(١) فى المطبوعة : « قالوا إذا قطعوا» ، والصواب من تفسير ابن كثير ١ : ٢٨٥ فهذا جزء من الأثر ، والقائل هو : ابن زيد .

على ذلك ، وَمنعوا مُؤمنى بنى إسرائيل من الصلاة فيه بعد مُنصرَف بختنصّر عنهم ٣٩٨/١ إلى بلاده .

والدليل على صحة ما قلنا فى ذلك ، قيامُ الحجة بأنْ لا قولَ فى معنى هذه الآية إلاّ أحدُ الأقوال الثلاثة التى ذكرناها ، وأن لا مسجدَ عنى الله عز وجلّ بقوله: « وَسعىَ فى خرَابها » إلاّ أحد المسجدين : إمّا مسجد بيت المقدس ، وإمّا المسجد الحرام . وإذ كان ذلك كذلك = وكان معلوماً أن مشركى قريش لم يسعَوْا قطٌّ فى تخريب المسجد الحرام، وإن كانوا قد مَنعوا فى بعض الأوقات رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الصلاة فيه = صحّ وثبت أن الذين وصَفهم الله عز وجل بالسعى فى خراب مساجده، غيرُ الذين وصفهم الله بعمارتها. إذ كان مشركو قريش بَنَوا المسجد الحرامَ فى الجاهلية ، وبعِمارته كان افتخارهم ، وإن كان بعضُ أفعالهم فيه ، كان منهم على غير الوجه الذى يرضاه الله منهم .

وأخرَى ، أن الآية التى قبل قوله : « ومن أظلمُ ممن مَنع مساجدَ الله أن يُذكر فيها اسمُه »، مضَت بالخبر عن اليهود والنصارى وذمّ أفعالهم، والتى بعدَها نبَّهت بذمّ النصارى والخبر عن افترائهم على ربهم ، ولم يجرِ لقريش ولا لمشركى العرب ذكرٌ ، ولا للمسجد الحرام قبلها، فيوجَّه الخبرُ — بقول الله عز وجل : « ومن أظلمُ ممن مَنعَ مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه » — إليهم وإلى المسجد الحرام .

وإذ كان ذلك كذلك ، فالذى هو أولى بالآية أن يوجَّه تأويلها إليه ، وهو ما كان نظيرَ قصّة الآية قبلها والآية بعدَها، إذ كان خبرُها لخبرهما نظيراً وشكلاً، إلاّ أن تقوم حُجةٌ يجب التسليم لها بخلاف ذلك، وإن اتفقت قصصها فاشتبهت.(١)

فإن ظنّ ظانّ أن ما قلنا فى ذلك ليس كذلك — إذ كان المسلمون لم يَلزمهم

(١) أراد ابن كثير أن يرد ما ذهب إليه الطبرى فى تفسير الآية ، فى تفسيره ١ : ٢٨٥ — ٢٨٧ وقال : « اختار ابن جرير القول الأول ، واحتج — بأن قريشاً لم تسع فى خراب الكعبة ، وأما الروم فسعت فى تخريب بيت المقدس ، قال ابن كثير : والذى يظهر والله أعلم ، القول الثانى ، كما قاله ابن زيد . . . » ثم قال : « وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع فى خراب الكعبة ، فأى خراب أعظم مما فعلوا ؟ أخرجوا منها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم. . . »

قطُّ فرضُ الصلاة فى المسجد [المقدس، فمنعوا من الصلاة فيه فياجئون] توجيه قوله[1] : « وَمَنْ أظلمُ ممن مَنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه » ، إلى أنه معنىٌّ به مسجد بيت المقدس — فقد أخطأ فيما ظن من ذلك . وَذلك أن الله جل ذكره إنما ذكر ظُلم من مَنع مَنْ كان فرضَه الصلاةُ فى بيت المقدس من مؤمنى بنى إسرائيل ،

ثم استدل بآيات من كتاب الله وقال : « ليس المراد بعمارتها ، زخرفتها وإقامة صورتها ، فقط ، إنما عمارتها بذكر الله وإقامة شرعه فيها » إلى آخر ما قاله .

وهذا الاعتراض من ابن كثير على أبى جعفر رحمهما الله ، ليس يقوم فى وجه حجة الطبرى على صواب ما ذهب إليه فى تأويل الآية . والطبرى لم يغفل عن مثل اعتراض ابن كثير ، ولكن ابن كثير غفل عن سياق تأويل الطبرى . وصحيح أن ما كان من أمر أهل الشرك فى الجاهلية فى البيت الحرام يدخل فى عموم معنى قوله : « وسعى فى خرابها » ، ولكن سياق الآيات السابقة ، ثم التى تليها ، توجب — كما ذهب إليه الطبرى — أن يكون معنياً بها من كانت الآيات نازلة فى خبره وقصته .

والآيات السالفة جميعاً خبر عن بنى إسرائيل الذين كانوا على عهد موسى ، وتأنيب لبنى إسرائيل الذين كانوا بين ظهرانى مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ما كان منهم لأهل الإيمان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم عتاب بعض أهل الإيمان على ما جرى على ألسنتهم من ألفاظ اليهود فى خطاب نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ثم تحذير لهم من أهل الكتاب جميعاً ، يهوديهم ونصرانيهم ،وذكر لافتراء الفريقين بعضهم على بعض ، وادعاء كل فريق أنه هو الفريق الناجى يوم القيامة . ثم أفرد بعد ذلك أخبار النصارى ، كما أفرد من قبل أخبار بنى إسرائيل ، فعدد سوء فعالهم فى منعهم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، ثم كذبهم على ربهم أنه اتخذ ولداً ، ثم قول بعضهم : « لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية » ، وأن ذلك شبيه بقول اليهود : « أرنا الله جهرة » ، ثم أخبر أنه أرسل رسوله محمداً بشيراً ونذيراً ، وأمره أن يعرض عن أهل الجحيم من هؤلاء وهؤلاء ، ثم أعلمه أن اليهود والنصارى جميعاً لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم وطريقتهم ، فى الافتراء على رب العالمين .

فالسياق كما ترى ، بمعزل عن المشركين من العرب ، ولكن ابن كثير وغيره من أئمتنا رضوان الله عليهم ، تختلط عليهم المعانى حين تتقارب ، ولكن أبا جعفر صابر على كتاب ربه ، مطيق لحمله ، لا يعجله شىء عن شىء ما استطاع . فهو يخلص معانى كتاب ربه تخليصاً لم أجده قط لأحد بعده ، من قرأ كتابه . وأكثرهم يعترض عليه ، ولو صبر على دقة هذا الإمام . لكان ذلك أولى به ، وأشبه بخلق أهل العلم ، وهم له أهل ، غفر الله لنا ولهم .

(١) الذى بين القوسين ، هكذا جاء فى النسخ المطبوعة والمخطوطة السقيمة . ولم أجد نقلا عن أبى جعفر يهدينى إلى تصويب هذا الخلط . فاجتهدت أن استظهر سياق كلامه . فأقرب ما انتهيت إليه أن يكون فيه سقطاً وتحريفاً ، وأن يكون سياقه كما يلى :

[إذ كان المسلمون هم المخاطَبون بالآيات التى سبقت هذه الآية ، وكان المسلمون لم يلزَمْهُمْ قطُّ فرضُ الصلاةِ فى مسجد بيت المقدس ، فمنعوا من الصلاة فيه ، وكان النصارى واليهود لم يمنعوهم قط من الصلاة فيه، فيجوزُ توجيه قوله — : « ومنْ

وإياهم قصد بالخبر عنهم بالظلم والسعى فى خراب المسجد . وإن كان قد دل بعموم قوله : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه » ، أن كل مانع مصليا فى مسجد لله،(١) — فرضا كانت صلاته فيه أو تطوعا — وكل ساع فى إخرابه ، فهو من المعتدين الظالمين .

* * *

القول فى تأويل قوله جل ذكره ﴿ أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَآ إِلاَّ خَآئِفِينَ ﴾

قال أبو جعفر : وهذا خبر من الله عز وجل عمن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، أنه قد حرم عليهم دخول المساجد التى سعوا فى تخريبها ، ومنعوا عباد الله المؤمنين من ذكر الله عز وجل فيها ، ما داموا على مناصبة الحرب ، إلا على خوف ووجل من العقوبة على دخولهموها ، كالذى : —

١٨٢٧ — حدثنا بشر قال ، حدثنا يزيد قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » ، وهم اليوم كذلك ، لا يوجد نصرانى فى بيت المقدس إلا نهك ضربا ، وأبلغ إليه فى العقوبة .

١٨٢٨ — حدثنا الحسن قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة قال الله عز وجل : « ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » ، وهم النصارى ، فلا يدخلون المسجد إلا مسارقة ، إن قدر عليهم عوقبوا .

١٨٢٩ — حدثنا موسى قال ، حدثنا عمرو ، قال حدثنا أسباط ، عن السدى : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » ، فليس فى الأرض رومى يدخلها

أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه » — إلى أنه معنى به مسجد بيت المقدس] . هذا اجتهادى فى قراءة هذا النص المختلط ، والله أعلم .

(١) فى المطبوعة : « فى مسجد الله » ، والصواب ما أثبت .

اليوم إلا وهو خائف أن تُضرب عنقه ، أو قد أُخيف بأداء الجزية ، فهو يؤدّيها .

١٨٣٠ — حدثنى يونس قال، أخبرنا ابن وهب قال، قال ابن زيد فى قوله : « أولئكَ ما كان لهمْ أن يدخلوها إلاّ خائفين »، قال: نادَى رسولُ الله صلى الله ١/٣٩٩ عليه وسلم : لا يَحُجُّ بعدَ العام مُشرك، ولا يطوف بالبيت عُرْيان. قال: فجعل المشركون يقولون : اللهم إنا منعنا أن نَنْزِل !

* * *

وإنما قيل : « أولئك ما كان لهم أن يَدخلوها إلاّ خائفين »، فأخرج على وجه الخبرِ عن الجميع ، وهو خبر عن « من مَنع مَساجد الله أن يذكر فيها اسمه » ، لأن « مَنْ » فى معنى الجميع ، وإن كان لفظه واحداً .[1]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١١٤)

قال أبو جعفر : أمّا قوله عز وجلّ: « لهم »، فإنّه يعنى : الذين أخبر عنهم أنهم منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمُه. أما قوله: « لهم فى الدنيا خزىٌ »، فإنه يعنى بـ « الخزى »: العارَ والشر والذلة[2] ، إمّا القتلُ والسِّباء، وإمّا الذّلة والصَّغار بأداء الجزية، كما :—

١٨٣١ — حدثنا الحسن قال، حدثنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر ، عن قتادة : « لهم فى الدنيا خزى »، قال : يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون .

١٨٣٢ — حدثنا موسى قال، حدثنا عمرو قال، حدثنا أسباط ، عن السدى قوله: « لهم فى الدنيا خزى»، أما خِزْيهم فى الدنيا، فإنهم إذا قام المهدىُّ وفُتِحت القسطنطينية قتلهم . فذلك الخزى . وأما العذاب العظيم ، فإنه عذابُ جهنم الذى لا يخفّف عن أهله ، ولا يقضى عليهم فيها فيموتوا . وتأويل الآية : لهم فى الدنيا الذّلة والهوانُ والقتل والسَّبْى — على منعهم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسَعيهم

---

(١) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٥١٣

(٢) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٣١٤

فى خرابها ، ولهم = على معصيتهم وكفرهم بربهم وسعيهم فى الأرض فساداً = عذابُ جهنم ، وهو العذاب العظيم .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « ولله المشرق والمغرب » ، لله مِلكُهما وتدبيرُهما ، كما يقال : «لفلان هذه الدار» . يعنى بها : أنها له ، مِلكاً. فذلك قوله : « ولله المشرق والمغرب » ، يعنى أنهما له ، ملكاً وخلقاً .

* * *

و « المشرق » هو موضع شروق الشمس ، وهو موضع طلوعها ، كما يقال لموضع طُلوعها منه : « مَطلِع » ، بكسر اللام ، وكما بينا فى معنى « المساجد » آنفاً .[1]

* * *

فإن قال قائل : أوَ ما كان لله إلا مشرق واحدٌ ومغرب واحدٌ ، حتى قيل : « ولله المشرق والمغرب » ؟

قيل : إن معنى ذلك غير الذى ذهبت إليه . وإنما معنى ذلك : ولله المشرق الذى تشرق منه الشمس كل يوم ، والمغرب الذى تغرب فيه كل يوم . فتأويله ، إذْ كان ذلك معناه : ولله ما بين قُطْرى المشرق وما بين قُطْرى المغرب ، إذ كان شرُوق الشمس كل يوم من موضع منه لا تعود لشروقها منه إلى الحوْل الذى بعده ، وكذلك غروبها كل يوم .

فإن قال : أوَ ليس وإن كان تأويل ذلك ما ذكرت ، فلله كل ما دونه ؟[2] الخلقُ خلقُه !

(١) انظر ما سلف قريباً : ٥١٩

(٢) قوله : « فلله كل ما دونه » ، أى كل ما سواه من شىء .

قيل : بَلى !

فإن قال : فكيف خص المشارق والمغارب بالخبر عنها أنها له فى هذا الموضع ، دون سائر الأشياء غيرها ؟

قيل : قد اختلف أهل التأويل فى السبب الذى من أجله خصَّ الله ذكرَ ذلك بما خصّه به فى هذا الموضع . ونحن مُبيِّنو الذى هو أولى بتأويل الآية ، بعد ذكرنا أقوالهم فى ذلك . فقال بعضهم : خصَّ الله جل ثناؤه ذلك بالخبر ، من أجل أن اليهود كانت توجِّه فى صلاتها وُجوهَها قِبَل ببيت المقدس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك مدة، ثم حُوِّلوا إلى الكعبة . فاستنكرت اليهود ذلك من فعل النبى صلى الله عليه وسلم، فقالوا : ما وَلاَّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ فقال الله تبارك وتعالى لهم: المشارقُ والمغاربُ كلها لى، أصْرِف وجوهَ عبادى كيف أشاء منها ، فحيثما تُوَلوا فثَمَّ وجه الله . ذكر من قال ذلك :

١٨٣٣ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو صالح قال ، حدثنى معاوية بن صالح ، عن على، عن ابن عباس قال: كان أول ما نُسخَ من القرآن ، القبلةُ. وذلك أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثرَ أهلها ١/٤٠٠ اليهودُ ، أمره الله عز وجلّ أن يستقبل بيت المقدس . ففرحت اليهود . فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهراً ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحبّ قبلة إبراهيم عليه السلام ، فكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ﴾ إلى قوله ﴿فوَلُّوا وَجُوهَكُمْ شَطْرَه﴾ [سورة البقرة : ١٤٤] ، فارتابَ من ذلك اليهود وقالوا : ﴿مَا وَلَّاهم عن قِبْلَتِهِم الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا﴾ فأنزل الله عز وجل : ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾، وقال: ﴿أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[1] [سورة البقرة : ١٤٢]

(١) الحديث : ١٨٣٣ — على : هو ابن أبى طلحة الهاشمى : ثقة ، تكلموا فيه . والراجح أن كلامهم فيه من أجل تشيعه . ولكن لم يسمع من ابن عباس ، فروى ابن أبى حاتم فى المراسيل، ص: ٥٢،

١٨٣٤ — حدثني موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى نحوه .

* * *

وقال آخرون : بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يَفرض على نبيه صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين به ، التوجُّهَ شطرَ المسجد الحرام ، وإنما أنزلها عليه مُعْلِماً نبيَّه عليه الصلاة والسلام بذلك وأصحابَه أنّ لهم التوجُّه بوجوههم للصلاة حيث شاؤوا من نواحي المشرق والمغرب ، لأنهم لا يوجِّهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحيةً ، إلا كان جل ثناؤه فى ذلك الوجه وتلك الناحية ، لأن له المشارق والمغارب ، وأنه لا يخلو منه مكان ،[1] كما قال جل وعزّ : ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [سورة المجادلة : ٧] ، قالوا : ثم نُسخ ذلك بالفرض الذى

عن دحيم ، قال : « إن على بن أبى طلحة لم يسمع من ابن عباس التفسير » . وروى عن أبيه أبى حاتم مثل ذلك . وفى التهذيب أنه ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : « روى عن ابن عباس ، ولم يره » . فهذا إسناد ضعيف ، لانقطاعه .

ولكن معناه ثابت عن ابن عباس ، من وجه صحيح .

فرواه أبو عبيد القاسم بن سلام ، فى كتاب الناسخ والمنسوخ — فيما نقل ابن كثير ١ : ٢٨٨ — « أخبرنا حجاج بن محمد ، أخبرنا ابن جريج ، وعثمان بن عطاء ، عن عطاء ، عن ابن عباس . . . » فذكر نحوه . وهذا إسناد صحيح ، من جهة رواية ابن جريج عن عطاء ، وهو ابن أبى رباح . وأما « عثمان ابن عطاء » ، فإنه « الخراسانى » . وهو ضعيف . وحجاج بن محمد : سمعه منهما ، من ثقة ومن ضعيف ، فلا بأس .

ورواه الحاكم ٢ : ٢٦٧ — ٢٦٨ ، من طريق ابن جريج ، ، عن عطاء ، عن ابن عباس . وقال : « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه بهذه السياقة » . ووافقه الذهبى . وهو كما قالا . وذكره السيوطى ١ : ١٠٨ ، ونسبه لأبى عبيد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه .

(١) قال ابن كثير فى تفسيره ١ : ٢٨٩ تعليقاً على كلمة أبى جعفر رحمه الله : « فى قوله : وأنه تعالى لا يخلو منه مكان — إن أراد علمه تعالى ، فصحيح . فإن علمه تعالى محيط بجميع المعلومات ، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة فى شىء من خلقه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » . قلت : الذى قاله ابن كثير هو عقيدة أبى جعفر رحمه الله ، وقد بين ذلك فى تفسير سورة المجادلة من تفسيره ٢٨ : ١٠ ، فلا معنى لتشكك ابن كثير فى كلام إمام ضابط من أئمة أهل الحق ، وعبارته صحيحة اللفظ ، ولكن أهل الأهواء جعلوا الناس يفهمون من عربية الفصحاء معنى غير المعنى الذى تدل عليه .

فرض عليهم، فى التوجُّه شطرَ المسجد الحرام . ذكر من قال ذلك :

١٨٣٥ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد، عن قتادة: قوله جل وعز : « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمَّ وجهُ الله »، ثم نسخ ذلك بعد ذلك، فقال الله : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [سورة البقرة : ١٤٩ ، ١٥٠]

١٨٣٦ — حدثنا الحسن قال[1] ، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « فأينما تُولوا فثمَّ وجهُ الله »، قال: هى القبلة ، ثم نسختها القبلة إلى المسجد الحرام .

١٨٣٧ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا الحجاج بن المنهال قال ، حدثنا همام قال ، حدثنا يحيى قال، سمعت قتادة فى قول الله: « فأينما تَولّوا فثمَّ وجه الله »، قال : كانوا يصلون نحو بيت المقدس ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة، وبعدَ ما هاجرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس ستَّة عشر شهراً ، ثم وُجِّه بعد ذلك نحو الكعبة البيت الحرام. فنسخها الله فى آية أخرى: ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ إلى ﴿ وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [سورة البقرة : ١٤٤] ، قال : فنسخت هذه الآية ما كان قبلها من أمر القبلة .

١٨٣٨ — حدثنا يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، سمعته — يعنى زيد — يقول: قال عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : « فأينما تُولوا فثمَّ وجهُ الله إن الله واسعٌ عليمٌ » ، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هؤلاء قومُ يَهود يستقبلون بيتاً من بيوت الله ، لو أنّا استقبلناه ! فاستقبله النبى صلى الله عليه وسلم ستة عشر شهراً ، فبلغه أنّ يهود تَقول : والله ما درَى محمدٌ وأصحابه أين قبلتهم حتى هديناهم ! فكره ذلك النبى صلى الله عليه وسلم، ورفع وجهه إلى السماء ، فقال الله عز وجل:

(١) فى المطبوعة : « حدثت عن الحسن » ، والصواب ما أثبت ، وهو إسناد دائر فى تفسيره أقربه رقم : ١٧٣١ .

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ﴾ الآية[سورة البقرة : ١٤٤].

* * *

وقال آخرون : نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم ، إذْناً من الله عز وجل له أن يصلي التطوعَ حيث توجّه وجهُه من شرق أو غرب ، في مسيره في سفره ، وفي حال المُسايفة ، وفي شدة الخوف والتقاء الزحوف في الفرائض . وأعلمه أنه حيث وجّه وجهه فهو هنالك ، بقوله : « ولله المشرق والمغرب فأينما تُولوا فثم وجهُ الله » . ذكر من قال ذلك :

١٨٣٩ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا ابن إدريس قال ، حدثنا عبدالملك ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عمر : أنه كان يصلي حيث توجّهت به راحلته ، ويذكر أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك ، ويتأوّل هذه الآية : « أينما تُولوا فثمّ وجهُ الله » .(١)

١/٤٠١

١٨٤٠ — حدثني أبو السائب قال ، حدثنا ابن فضيل ، عن عبد الملك بن أبي سليمان ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عمر أنه قال : إنّما نزلت هذه الآية « أينما تُولوا فثمّ وجهُ الله » : أن تصلي حيثما توجهت بك راحلتك في السفر تطوّعاً ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رجع من مكة يصلّي على راحلته تطوّعاً ، يُومئ برأسه نحو المدينة(٢) .

* * *

(١) الحديث : ١٨٣٩ — ابن إدريس : هو عبد الله بن إدريس الأودي ، سبق توثيقه : ٤٣٨ . عبد الملك : هو ابن أبي سليمان ، كما سيأتي في الإسناد التالي لهذا ، وقد سبق توثيقه : ١٤٥٥ .

والحديث رواه أحمد في المسند : ٥٠٠١ ، عن عبد الله بن إدريس ، بهذا الإسناد . وسيأتي تمام تخريجه في الذي بعده .

(٢) الحديث : ١٨٤٠ — ابن فضيل : هو محمد بن فضيل بن غزوان الضبي ، وهو ثقة ، من شيوخ أحمد وإسحق وغيرهما . بل روى عنه الثوري ، وهو أكبر منه . مترجم في التهذيب ، والكبير ١/١/٢٠٧ — ٢٠٨ ، وابن أبي حاتم ٤/١/٥٧ — ٥٨ .

والحديث رواه أحمد أيضاً : ٤٧١٤ ، عن يحيي القطان ، عن عبد الملك بن أبي سليمان ، بنحوه . ورواه مسلم ١ : ١٩٥ ، من طريق يحيي ، وآخرين . وكذلك رواه البيهقي في السنن الكبرى ٢ : ٤ ، بأسانيد من طريق عبد الملك .

وقد رجحنا في شرح المسند الرواية السابقة ، بأن هذه الآية لم تنزل في ذلك ، بل هي في معنى أعم ، وإنما تصلح شاهداً ودليلا ، كما يتبين ذلك من فقه تفسيرها في سياقها .

وقال آخرون بل نزلت هذه الآية فى قوم عُمِّيت عليهم القبلة فلم يعرفوا شَطْرها، فصَلَّوا على أنحاءٍ مختلفة، فقال الله عز وجل لهم : لى المشارق والمغارب فأنَّى وليتم وجوهكم فهنالك وجهى،[1] وهو قبلتكم — معلِّمَهم بذلك أن صلاتَهم ماضية،

* ذكر من قال ذلك :

١٨٤١ — حدثنا أحمد قال، حدثنا أبو أحمد قال، حدثنا أبو الربيع السمان، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه قال : كنا مَع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ليلة سوداءَ مُظلمة، فنزلنا منزلاً. فجعل الرجُل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً يصلِّى فيه. فلمَّا أصبحنا إذا نحن قد صَلينا على غير القبلة. فقلنا : يا رسول الله، لقد صلَّينا لَيلتنا هذه لغير القبلة ! فأنزل الله عز وجل : «ولله المشرق والمغربُ فأينما تُوَلوا فثَمَّ وَجهُ الله إن اللهَ واسعٌ عليم».[2]

---

(١) فى المطبوعة : «فإن وليتم وجوهكم». والصواب ما أثبت.

(٢) الحديث : ١٨٤١ — أحمد، شيخ الطبرى : هو أحمد بن إسحق بن عيسى الأهوازى، كما سبق نسبه كاملا فى : ١٥٩، وهو صدوق، من شيوخ أبى داود، مترجم فى التهذيب، وأبو أحمد : هو الزبيرى. واسمه : محمد بن عبد الله بن الزبير بن عمر بن درهم، وهو ثقة حافظ، من شيوخ الإمام أحمد. مترجم فى التهذيب. والكبير ١/١/١٣٣ — ١٣٤، وابن سعد ٦ : ٢٨١، وابن أبى حاتم ٣/٢/٢٩٧.

أبو الربيع السمان : هو أشعث بن سعيد، سبق فى : ٢٤ أنه ضعيف جداً.

عاصم بن عبيد الله بن عاصم بن عمر بن الخطاب : هو ضعيف، وقد بينا ضعفه فى شرح المسند : ٥٢٢٩.

عبد الله بن عامر بن ربيعة : ثقة من كبار التابعين. وأبوه صحابى معروف، من المهاجرين الأولين، هاجر الهجرتين، وشهد بدراً والمشاهد كلها.

والحديث ذكره ابن كثير ١ : ٢٨٩ — ٢٩٠، عن هذا الموضع. ووقع فيه خطأ فى اسم شيخ الطبرى، كتب «محمد بن إسحق»، بدل «أحمد». وهو خطأ ناسخ أو طابع. ثم أشار ابن كثير إلى روايته الآتية : ١٨٤٣. ثم ذكر أنه رواه أيضاً الترمذى، وابن ماجة، وابن أبى حاتم. ثم نقل كلام الترمذى، قال : «هذا حديث ليس إسناده بذاك، لا نعرفه إلا من حديث أشعث السمان، وأشعث بن سعيد أبو الربيع السمان : يضعف فى الحديث». قال ابن كثير : «قلت : وشيخه عاصم أيضاً ضعيف. قال البخارى : منكر الحديث. وقال ابن معين : ضعيف لا يحتج به. وقال ابن حبان : متروك».

وقد ذهبت فى شرحى الترمذى، رقم : ٣٤٥، إلى تحسين إسناده. ولكنى أستدرك الآن، وأرى أنه حديث ضعيف.

ونقله السيوطى ١ : ١٠٩، مع تخريجه وبيان ضعفه.

١٨٤٢ — حدثني المثنى قال ، حدثني الحجاج قال ، حدثنا حماد قال ، قلت للنَّخَعي : إني كنت استَيْقظت — أو قال : أيْقظت ، شكّ الطبرى —[1] فكان في السماء سحابٌ ، فصليت لغير القبلة . قال : مضت صَلاتُك ، يقول الله عز وجل : « فأينما تولوا فثَمَّ وَجه الله » .

١٨٤٣ — حدثنا سفيان بن وكيع قال، حدثنا أبي ، عن أشعث السمان ، عن عاصم بن عبيد الله ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عن أبيه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة في سفرٍ، فلم ندر أين القبلة ، فصلَّينا، فصلَّى كل واحد منا على حياله ،[2] ثم أصبحنا فذكرنا للنبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجلّ : « فأينما تُوَلوا فثَمَّ وَجهُ الله » .[3]

* * *

وقال آخرون : بل نزلت هذه الآية في سبب النَّجَاشيّ ، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تَنازعوا في أمره، من أجل أنه مات قبل أن يُصلِّي إلى القبلة، فقال الله عز وجل : المشارق والمغارب كلها لى ، فمن وجَّه وجهَه نحو شيء منها يريدني به ويبتغي به طاعتي ، وجدني هنالك . يعني بذلك أن النجاشيّ وإن لم يكن صلَّى إلى القبلة، فإنه قد كان يوجِّه إلى بعض وجوه المشارق والمغارب وَجهه، يبتغي بذلك رضا الله عز وجل في صلاته . ذكر من قال ذلك :

١٨٤٤ — حدثنا ابن بشار قال، حدثنا هشام بن معاذ قال ، حدثني أبي ، عن قتادة : أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن أخاكم النجاشي قد مات فصلوا عليه . قالوا : نصلِّي على رجل ليس بمسلم ! قال فنزلت ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [سورة

(١) لم يرد في كتب اللغة : « أيقظت » لازماً ، وأخشى أن يكون الطبرى يصححها ، وأشباهها في العربية كثير .

(٢) في لسان العرب «فصلى كل منا حياله»، أي تلقاء وجهه، وزيادة «على» لا تضر المعنى .

(٣) الحديث : ١٨٤٣ — هو مكرر الحديث : ١٨٤١ .

آل عمران : ١٩٩]، قال: قتادة ، فقالوا: إنه كانَ لا يصلي إلى القبلة! فأنزل الله عز وجل : « ولله المشرقُ والمغربُ فأينما تولوا فثم وجهُ الله » .[1]

* * *

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك : أنَّ الله تعالى ذكره إنّما خص الخبرَ عن المشرق والمغرب في هذه الآية بأنهما له مِلْكاً - وإن كان لا شيء إلاَّ وهو له مِلك - إعلاماً منه عبادَه المؤمنين أنَّ له مِلكهما ومِلك ما بينهما من الخلق، وأن على جميعهم = إذ كان له ملكهم = طاعتَه فيما أمرهم ونهاهم ، وفيما فرض عليهم من الفرائض ، والتوجُّه نحو الوجه الذى وُجِّهوا إليه ، إذ كان من حُكم المماليك طاعةُ مالكهم . فأخرج الخبر عن « المشرق والمغرب » والمراد به : مَنْ بينهما من الخلق ، على النحو الذى قد بيَّنتُ، من الاكتفاء بالخبر عن سَبب الشيء ، من ذكره والخبر عنه ، كما قيل : « وأشربوا في قلوبهم العجل »، وما أشبه ذلك .[2]

ومعنى الآية إذاً : ولله مِلْك الخلق الذى بين المشرق والمغرب، يتعبَّدهم بما شاء ، ويحكم فيهم ما يريد، عليهم طاعته ، فولُّوا وجوهَكم - أيها المؤمنون - نحو وجهي، فإنكم أينما تُولّوا وجوهَكم فهنالك وجهي .

* * *

فأما القول في هذه الآية ناسخةٌ أم منسوخةٌ، أم لا هي ناسخة ولا منسوخة؟ فالصواب فيه من القول أن يقال: إنها جاءت مجيء العُموم، والمرادُ الخاصُّ . وذلك أن قوله: ٤٠٢/١ « فأينما تُوَلّوا فثمَّ وجهُ لله » مُحتمِل: أينما تُوَلوا - في حال سيْركم في أسفاركم في صلاتكم التطوعَ، وفي حال مُسايفتكم عدوَّكم في تطوعكم ومكتوبتكم - فثَمَّ وجه الله ، كما قال ابن عمر والنخعيّ، ومن قال ذلك ممن ذكرنا عنه آنفاً .

---

(١) الحديث : ١٨٤٤ - هو حديث ضعيف ، لأنه مرسل . وقد نقله السيوطي ١ : ١٠٩ ، ونسبه لابن جرير : وابن المنذر . ونقله ابن كثير ١ : ٢٩١ ، عن هذا الموضع . ثم قال : « هذا غريب » . وأقول : وسياقته تدل على ضعفه ونكارته .

(٢) انظر ما سلف في هذا الجزء ٢ : ٣٥٧-٣٦٠، ٤٨٣

= ومحتمل: « فأينما تولوا — من أرض الله فتكونوا بها — فثَمَّ قبلةُ الله التى توجِّهون وُجوهكم إليها ، لأن الكعبة ممكن لكم التوجُّه إليها منها ، كما قال : —

١٨٤٥ — أبو كريب قال ، حدثنا وكيع ، عن أبى سنان ، عن الضحاك ، والنضر بن عربى ، عن مجاهد فى قول الله عز وجل: « فأينما تُولوا فثَمَّ وجه الله » ، قال : قبلةُ الله ، فأينما كنتَ من شرق أو غرب فاستقبلها .

١٨٤٦ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج ، قال أخبرنى إبراهيم ، عن ابن أبى بكر ، عن مجاهد قال : حيثما كنتم فلكم قبلةٌ تستقبلونها . قال : الكعبة .

= ومُحتمل : فأينما تولوا وجوهكم فى دُعائكم فهنالك وجهى ، أستجيب لكم دعاءكم ، كما : —

١٨٤٧ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنى حجاج قال ، قال ابن جريج ، قال : مجاهد : لما نزلت ﴿ أُدْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [سورة غافر : ٦٠] ، قالوا : إلى أين ؟ فنزلت : « فأينما تولوا فثَمَّ وَجْهُ الله » .

* * *

فإذْ كان قوله عز وجل : « فأينما تولوا فثَمَّ وجه الله » ، محتملاً ما ذكرنا من الأوجه ، لم يكن لأحد أن يزعم أنها ناسخةٌ أو منسوخةٌ ، إلاَّ بحجة يجب التسليم لها .

لأن الناسخ لا يكون إلاَّ بمنسوخ ، ولم تقم حجة يجبُ التسليم لها بأنَّ قوله : « فأينما تولوا فثم وجه الله» معنىٌّ به : فأينما توَجِّهوا وجوهكم فى صلاتكم فثَمَّ قبلتكم ؛ ولا أنها نزلت بعد صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه نحو بيت المقدس ، أمراً من الله عز وجل لهم بها أن يتوجهوا نحو الكعبة ، فيجوز أن يقال : هى ناسخةٌ الصلاةَ نحو بيت المقدس ، إذْ كان من أهل العلم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأئمة التابعين مَنْ ينكر أن تكون نزلت فى ذلك المعنى ، ولا خبرَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابتٌ بأنها نزلت فيه ، وكانَ الاختلاف فى أمرها موجوداً على ما وصفت .

= ولا هى — إذ لم تكن ناسخةً لما وصفنا — قامت حجتها بأنها منسوخة ، إذ كانت محتملةً ما وصفنا : بأن تكون جاءت بعمومٍ ، ومعناها : فى حال دون حال —[1] إن كان عُنى بها التوجه فى الصلاة — وفى كل حال ، إن كان عُنى بها الدعاء وغير ذلك من المعانى التى ذكرنا .

وقد دللنا فى كتابنا ﴿ كتاب البيان عن أصول الأحكام ﴾ على أن لا ناسخَ من آى القرآن وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ ما نَفى حكماً ثابتاً ، وأُلزِم العبادُ فرضَه ، غير محتمل بظاهره وباطنه غيرَ ذلك.[2] فأما إذا ما احتمل غيرَ ذلك — من أن يكون بمعنى الاستثناء ، أو الخصوص والعموم ، أو المجمل ، أو المفسَّر — فمن الناسخ والمنسوخ بمعزل . بما أغنى عن تكريره فى هذا الموضع ، ولا منسوخ إلاّ المنفىّ الذى قد كان ثبت حُكمه وفرضه .

ولم يصحَّ واحد من هذين المعنيين لقوله : « فأينما تُولوا فثَمَّ وجه الله » ، بحجة يجب التسليم لها ، فيقال فيه : هو ناسخ أو منسوخ .

* * *

وأما قوله : « فأينما » ، فإن معناه : حيثما .

* * *

وأما قوله : « تُوَلّوا » ، فإن الذى هو أولى بتأويله أن يكون : تولون نحوه وإليه ، كما يقول القائل : « ولّيتُهُ وجهى ووَلّيته إليه » ،[3] بمعنى قابلته وواجهته . وإنما قُلنا ذلك أولى بتأويل الآية ، لإجماع الحجة على أنّ ذلك تأويلُه ، وشذوذِ من تأوّله بمعنى : تولُّون عنه فتستدبرونه ، فالذى تتوجهون إليه وَجه الله ، بمعنى قبلة الله .

* * *

وأما قوله : « فثم » ، فإنه بمعنى : هنالك .

* * *

---

(١) فى المطبوعة : « أو معناها فى حال دون حال » ، وهو فاسد . ومراده أن الآية جاء عامة ، وتحتمل أحد معنيين : إما فى حال دون حال — وإما فى كل حال ، كما فصل بعد .

(٢) فى المطبوعة : « لظاهره » ، وانظر ما سلف فى معنى « الظاهر والباطن » ٢ : ١٥ والمراجع

(٣) فى المطبوعة : « وليت وجهى » ، والصواب ما أثبت .

واختلف فى تأويل قوله: « فَثَمَّ وَجه الله » .[1] فقال بعضهم: تأويل ذلك: فثم قبلة الله ، يعنى بذلك وَجْهَه الذى وجَّههم إليه • ذكر من قال ذلك :

١٨٤٨ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا وكيع ، عن النضر بن عربىّ ، عن مجاهد : « فثَمَّ وَجْه الله »، قال : قبلةُ الله .

١٨٤٩ — حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال، حدثنى حجاج ، عن ابن جريج قال ، أخبرنى إبراهيم ، عن مجاهد قال : حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها .

* * *

وقال آخرون: معنى قول الله عز وجل: « فثَمَّ وَجهُ الله »، فثم الله تبارك وتعالى .

* * *

وقال آخرون : معنى قوله: «فثَمَّ وجْهُ الله »، فثَمَّ تدركون بالتوجُّه إليه رضا الله الذى له الوَجْهُ الكريم .

* * *

وقال آخرون : عنى بـ« الوجه » ذا الوَجْه . وقال قائلو هذه المقالة : وجهُ الله صفةٌ له .

١/٤٠٣

* * *

فإن قال قائل : وما هذه الآية من التى قبلها ؟

قيل : هى لها مُواصلة . وإنما معنى ذلك : ومن أظلمُ من النصارى الذين مَنعوا عبادَ الله مساجدَه أن يذكر فيها اسمه ، وسَعوْا فى خرابها ، ولله المشرق والمغرب ، فأينما توجَّهوا وجوهكم فاذكروه، فإن وَجْهه هنالك ، يَسعُكم فضْله وأرضُه وبلادُه ، ويعلم ما تعملون ، ولا يمنعكم تخريب من خرَّب مسجدَ بيت المقدس، ومَنْعُهم من مَنعوا من ذكر الله فيه — أن تذكروا الله حيث كنتم من أرض الله، تَبتغون به وجهه .

---

(١) فى المطبوعة : « فثم ، فقال بعضهم » ، والصواب إثبات « وجه الله » .

القول فى تأويل قوله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١١٥)

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « واسعٌ »، يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود والتدبير .

وأما قوله : « عليم » فإنه يعنى : أنه عليم بأفعالهم ، لا يغيب عنه منها شىء ولا يعزب عن علمه ، بل هو بجميعها عليمٌ .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : « وقالوا اتخذَ اللهُ ولَداً »، الذين مَنعوا مساجدَ الله أن يُذكر فيها اسمه. و « قالوا » : معطوف على قوله : « وسعى فى خرابها »

* * *

وتأويل الآية : ومن أظلمُ ممن مَنع مساجدَ الله أنْ يُذكر فيها اسمه وَسعَى فى خَرابها ، وقالوا اتخذَ الله ولداً ؛ وهم النصارى الذين زعموا أن عيسى ابنُ الله ، فقال الله جل ثناؤه — مكذِّباً قيلهم ما قالوا من ذلك ، ومُنتفياً مما نَحلوه وأضافوا إليه بكذبهم وفرْيتهم[1] — : « سبحانه »، يعنى بها : تنزيهاً ، وَتبريئاً من أن يكون له ولد ، وعلوًّا وارتفاعاً عن ذلك . وقد دَللنا فيما مَضى على معنى قول القائل : « سبحان الله »، بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع[2] .

* * *

ثم أخبر جل ثناؤه أن له ما فى السموات والأرض مِلكاً وَخلقاً . ومعنى ذلك :

---

(١) فى المطبوعة : « ومنفياً ما نحلوه » . وانتفى من الشىء : تبرأ منه . ونحله الشىء : نسبه إليه . والفرية : الكذب المختلق .

(٢) انظر ما سلف ١ : ٤٧٤ ، ٤٩٥ .

وكيف يكون المسيحُ لله ولدًا، وهو لا يخلو: إمّا أن يكون فى بعض هذه الأماكن، إمّا فى السموات، وإما فى الأرض، ولله مِلك ما فيهما. ولو كان المسيح ابناً كما زعمتم، لم يكن كسائر ما فى السموات والأرض من خلقه وعبيده، فى ظهور آيات الصنعة فيه.

• • •

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ كُلٌّ لَهُ قَـٰنِتُونَ ﴾ (١١٦)

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك. فقال بعضهم : معنى ذلك : مُطيعون * ذكر من قال ذلك :

١٨٥٠ — حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال، أخبرنا معمر، عن قتادة فى قوله : « كلٌّ له قانِتون »، مطيعون.

١٨٥١ — حدثنى محمد بن عمرو قال، حدثنا أبوعاصم قال، حدثنا عيسى، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد فى قول الله عز وجل : « كل له قانتون »، قال : مُطيعون. قال : طاعة الكافر فى سُجود ظلّه.

١٨٥٢ — حدثنى المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال، حدثنا شبلٌ، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، بمثله — إلاّ أنه زاد : بسجود ظله وهو كارهٌ.

١٨٥٣ — حدثنا موسى قال، حدثنا عمرو قال، حدثنا أسباط، عن السدى : « كل له قانتون »، يقول : كل له مطيعون يوم القيامة.

١٨٥٤ — حدثنى المثنى قال، حدثنا إسحق قال، حدثنى يحيى بن سعيد، عمن ذكره، عن عكرمة : « كل له قانتون »، قال : الطاعة.

١٨٥٥ — حدثت عن المنجاب بن الحارث قال، حدثنا بشر بن عمارة، عن أبى روق، عن الضحاك، عن ابن عباس : « قانتون »، مطيعون.

• • •

وقال آخرون : معنى ذلك : كل له مقرُّون بالعبودية . ذكر من قال ذلك :

١٨٥٦ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا يحيى بن واضح قال ، حدثنا الحسين ابن واقد ، عن يزيد النحوى ، عن عكرمة : « كل له قانتون » ، كل مقرٌّ له بالعبودية .

* * *

وقال آخرون بما : —

١٨٥٧ — حدثنى به المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع قوله : « كل له قانتون » ، قال : كل له قائمٌ يوم القيامة .

* * *

ولِـ « القنوت » فى كلام العرب معانٍ . أحدها : الطاعة ، والآخر : القيام ، والثالث : الكف عن الكلام والإمساك عنه .

* * *

وأولى معانى « القنوت » فى قوله : « كلٌّ له قانتون » ، الطاعةُ والإقرارُ لله عز وجل بالعبودية ، بشهادة أجسامهم ، بما فيها من آثار الصنعة والدلالة على وحدانية الله عز وجل ، وأن الله تعالى ذكره بارئها وخالقها . وذلك أن الله جل ثناؤه أكذب الذين زعموا أنّ لله ولدًا بقوله : « بل لَـهُ ما فى السموات والأرض » مِلكاً وخلقاً . ثم أخبر عن جميع ما فى السموات والأرض أنها مُقِرّة بدلالتها على ربّها وخالقها ، وأن الله تعالى بارئها وصانعها . وإن جَحد ذلك بعضهم ، فألسنتهم مُذعِنة له بالطاعة ، بشهادتها له بآثار الصنعة التى فيها بذلك ، وأن المسيح أحدُهم ، فأنّى يكون لله ولدًا وهذه صفته ؟ ٤٠٤/١

* * *

وقد زعم بعض من قصرت مَعرفته عن توجيه الكلام وِجْهته ، أن قوله : « كلٌّ له قانتون » ، خاصّةٌ لأهل الطاعة وليست بعامة . وغير جائز ادعاء خُصوص فى آيةٍ عامٍّ ظاهرُها ، إلاّ بحجة يجب التسليم لها ، لما قد بيّنا فى كتابنا ﴿ كتاب البيان عن أصول الأحكام ﴾ .

* * *

وهذا خبر من الله جل وعزّ عن أنّ المسيح — الذى زعمت النصارَى أنه ابن الله —

مكذِّبُهم هو والسموات والأرض وما فيها، إمَّا باللسان، وإمَّا بالدَّلالة . وذلك أن الله جل ثناؤه أخبرَ عن جميعهم ، بطاعتهم إيّاه ، وإقرارهم له بالعبودية ، عَقيب قوله : « وَقالوا اتخذ الله ولدًا » ، فدلَّ ذلك على صحة ما قلنا .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « بَديع السموات والأرض » ، مُبدِعها .

* * *

وإنما هو « مُفعِل » صُرف إلى « فعيل » كما صرف « المؤلم » إلى « أليم » و« المسمع » إلى « سميع » .(١) ومعنى « المُبدع » : المنشىء والمحدِثُ ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحدٌ . ولذلك سمى المبتدع فى الدين « مبتدعاً » ، لإحداثه فيه ما لم يسبقه إليه غيره . وكذلك كل محدث فعلاً أو قولاً لم يتقدمه فيه متقدم ، فإن العرب تسميه « مبتدعاً » ، ومن ذلك قول الأعشى أعشى بنى ثعلبة ،(٢) فى مدح هَوْذَة بن علىّ الحنفى :

يُرْعِى إلَى قَوْلِ سَادَاتِ الرِّجالِ إذَا أَبْدَوْا لَهُ الحَزْمَ ، أَوْ مَا شَاءه ابْتَدَعَا(٣)

أى يحدث ما شاء ، ومنه قول رؤبة بن العجاج :

فَأَيُّهَا الغَاشِي القِذَافَ الأَتْيَعَا إنْ كُنْتَ لله التَّقِيَّ الأَطْوَعَا

فَلَيْسَ وَجْهُ الحَقِّ أَنْ تَبَدَّعَا(٤)

يعنى : أن تحدث فى الدين ما لم يكن فيه .

---

(١) انظر ما سلف ١ : ٢٥١ ، وهذا الجزء ٢ : ١٤٠، ٣٧٧، ٥٠٦

(٢) فى المطبوعة : « الأعشى بن ثعلبة » ، وهو خطأ محض .

(٣) سلف تخريجه فى هذا الجزء ٢ : ٤٦٤

(٤) ديوانه : ٨٧ ، واللسان (بدع) من رجز طويل يفخر فيه برهطه بنى تميم . ورواية الديوان « القذاف الأتبعا » ، وليس لها معنى يدرك ، ورواية الطبرى لها مخرج فى العربية . « الغاشى » من قولهم : غشى الشىء : أى قصده وباشره أو نزل به . والقذاف : سرعة السير والإبعاد فيه ، أو كأنه أراد الناحية

* * *

فمعنى الكلام : سبحان الله أنَّى يكون له ولد وهو مالك ما فى السموات والأرض ، تشهد له جميعاً بدلالتها عليه بالوَحْدانية ، وتقرُّ له بالطاعة ، وهو بارئها وخالقها ومُوجدها من غير أصْل ولا مثال احتذاها عليه ؟

* * *

وهذا إعلام من الله جل ثناؤه عبادَه أن مما يشهد له بذلك : المسيحُ ، الذى أضافوا إلى الله جل ثناؤه بُنُوَّته ؛ وإخبارٌ منه لهم أنَّ الذى ابتدع السموات والأرض من غير أصْل وعلى غير مثال، هو الذى ابتدع المسيح من غير والد بقدرته.[1]

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال جماعة من أهل التأويل * ذكر من قال ذلك :

١٨٥٨ — حدثنا المثنى قال، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « بَديعُ السموات والأرض » ، يقول : ابتدع خلقها ، ولم يشركه فى خلقها أحد

١٨٥٩ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى : « بديع السموات والأرض » ، يقول: ابتدعها، فخلقها، ولم يُخْلَق قبلها شىءٌ فيتَمثَّل به .[2]

* * *

البعيدة ، وإن لم أجده فى كتب العربية . والأتيع : لم أجده فى شىء، ولعله أخذه من قولهم : تتايع القوم فى الأرض : إذا تباعدوا فيها على عمى وشدة . يقول : يا أيها الذاهب فى المسالك البعيدة عن سنن الطريق — يعنى به : من ابتدع من الأمور ما لا عهد للناس به، فسلك فى ابتداعه المسالك الغريبة .

(١) نقل ابن كثير فى تفسيره ١ : ٢٩٤ ، عبارة الطبرى ثم قال: «وهذا من ابن جرير رحمه الله كلام جيد ، وعبارة صحيحة» ، فاستحسن ابن كثير ما خف محمله ، ولكن ما ثقل عليه آنفاً (انظر ص : ٥٢٢ تعليق : ١) كان مثاراً لاعتراضه ، مع أنه أعلى وأجود وأدق وألطف ، وأصح عبارة ، وأعمق غوراً . وهذا عجب من العجب فيما ناله ابن جرير من قلة معرفة الناس بسلامة فهمه، ولطف إدراكه.

(٢) الأثر : ١٨٥٩ — كان فى المطبوعة : «ولم يخلق مثلها شيئاً فتتمثل به » ، وهو كلام فاسد . والصواب فى الدر المنثور ١ : ١١٠ .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (١١٧)

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « وإذا قضى أمراً » ، وإذا أحكم أمراً وحتَمه .[1]

* * *

وأصل كل « قضاء أمرٍ » : الإحكام ، والفراغُ منه .[2] ومن ذلك قيل للحاكم بين الناس : « القاضى » بينهم ، لفصله القضاء بين الخصوم ، وقطعه الحكم بينهم ، وفراغه منه به .[3] ومنه قيل للميت : « قد قضى » ، يراد به : قد فرغ من الدنيا وفصَل منها . ومنه قيل : « ما ينقضى عجبي من فلان » ، يراد : ما ينقطع . ومنه قيل : « تقضَّى النهار » ، إذا انصرم ، ومنه قول الله عز وجل : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [سورة الإسراء : ٢٣] ، أى : فصَل الحكم فيه بين عباده ، بأمره إيّاهم بذلك ، وكذلك قوله : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ [سورة الإسراء : ٤] ، أى أعلمناهم بذلك وأخبرناهم به ، ففرَغنا إليهم منه . ومنه قول أبى ذؤيب :

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ ، قَضَاهُمَا دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ[4]

---

(١) حتم الأمر : قضاه قضاء لازماً .

(٢) كان فى المطبوعة : « قضاء الإحكام » ، والصواب ما أثبت .

(٣) فى المطبوعة « فراغه » وزيادة « منه » واجبة .

(٤) ديوانه : ١٩ ، والمفضليات : ٨٨١ وتأويل مشكل القرآن : ٣٤٢ ، وسيأتى فى تفسير الطبرى ١١ : ٦٥ ، ٢٢ : ٤٧ (بولاق) ، من قصيدته التى فاقت كل شعر ، يرثى أولاده حين ماتوا بالطاعون . والضمير فى قوله : « وعليهما » إلى بطلين وصفهما فى شعره قبل ، كل قد أعد عدته :

فَتَنَادَيَا فَتَوَاقَفَتْ خَيْلَاهُمَا وَكِلَاهُمَا بَطَلُ اللِّقَاءِ مُخَدَّعُ

مُتَحَامِيَيْنِ الْمَجْدَ ، كُلٌّ وَاثِقٌ بِبَلَائِهِ ، وَالْيَوْمُ يَوْمٌ أَشْنَعُ

ويروى :

* وَتعاوَرا مَسرودَتَينْ قَضاهُما[1] *

ويعنى بقوله : « قضاهما » ، أحكمهما . ومنه قول الآخر فى مَدْح عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه :[2]

قَضَيْتَ أُمُوراً ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا بَوَائِقَ فِى أَكْمَامِهَا لَمْ تَفتَّقِ[3]

ويروى : « بوائج » .[4]

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ . . . .

« مسرودتان » ، يعنى درعين ، من السرد ، وهو الخرز أو النسج ، قد نسجت حلقهما نسجاً محكماً . وداود : هو نبى الله صلى الله عليه وسلم . وتبع : اسم لكل ملك من ملوك حمير (انظر ما سلف ٢ : ٢٣٧) . قال ابن الأنبارى : « سمع بأن الحديد سخر لداود عليه السلام ، وسمع بالدروع التبعية ، فظن أن تبعاً عملها . وكان تبع أعظم من أن يصنع شيئاً بيده ، وإنما صنعت فى عهده وفى ملكه » . والصنع : الحاذق بعمله ، والمرأة : صناع . ويروى : « وعليهما ماذيتين » ، يعنى درعين . والماذية : الدرع الخالصة الحديد ، اللينة السهلة .

(١) « تعاورا » ، يعنى — كما قالوا : تعاورا بالطعن، مسرودتين . من قولهم : تعاورنا فلاناً بالضرب : إذا ضربته أنت ثم صاحبك . ورأيى أنها رواية مرفوضة ، لا تساوق الشعر فإنه يقول بعده :

وَكِلاَهُمَا فِى كَفِّهِ يَزَنِيَّةٌ فِيهَا سِنَانٌ ، كالمَنَارَةِ أَصْلَعُ
وَكِلاَهُمَا مُتَوَشِّحٌ ذَا رَوْنَقٍ عَضْباً، إذَا مَسَّ الضَّرِيبَةَ يَقْطَعُ
فَتَخَالَسَا نَفْسَيْهِمَا بِنَوَافِذٍ كَنَوَافِذِ العُبُطِ الّتِى لا تُرْقَعُ

فهو يصف ، ثم يخبر أنهما قد تضاربا ضرباً مهلكاً ، ولا معنى لتقديم الطعن ثم العود إلى صفة السلاح ، إلا على بعد واستكراه .

(٢) هو جزء بن ضرار ، أخو الشماخ بن ضرار . وقد اختلف فى نسبتها . نسبت للشماخ ، ولغيره ، حتى نسبوها إلى الجن (انظر طبقات فحول الشعراء : ١١١ ، وحماسة أبى تمام ٣ : ٦٥ ، وابن سعد ٣ : ٢٤١ ، والأغانى ٩ : ١٥٩ ، ونهج البلاغة ٣ : ١٤٧ ، والبيان والتبيين ٣ : ٣٦٤ ، وتأويل مشكل القرآن : ٣٤٣ ، وغيرها كثير) . هذا والصواب أن يقول : « فى رثاء عمر بن الخطاب » .

(٣) البوائق جمع بائقة : وهى الداهية المنكرة التى فتحت ثغرة لا تسد . والأكمام جمع كم (بضم الكاف وكسرها) . وهو غلاف الثمرة قبل أن ينشق عنه . وقوله : « لم تفتق » ، أصلها : تتفتق ، حذف إحدى التاءين . وتفتق الكم عن زهرته : انشق وانفطر . ورحم الله عمر من إمام جمع أمور الناس حياته ، حتى إذا قضى انتشرت أمورهم !

(٤) بوائج جمع بائجة : وهى الداهية التى تنفتق انفتاقاً منكراً فتعم الناس ، وتتابع عليهم شرورها . من قولهم : باج البرق وانباج وتبوج : إذا لمع وتكشف وعم السحاب ، وانتشر ضوؤه .

* * *

وأما قوله: « فإنما يَقول له كنْ فيكونُ»، فإنه يعني بذلك: وإذا أحكم أمرًا فحتَمَه، فإنما يقول لذلك الأمر : «كن »، فيكون ذلك الأمر على ما أمرَه الله أن يكونَ ، وأراده .

* * *

قال أبو جعفر : فإن قال لنا قائل : وما معنى قَوله : « وإذا قَضى أمرًا فإنما يَقول له كنْ فَيكون » ؟ وفى أىّ حال يقول للأمر الذى يقيضه : « كن » ؟ أفى حال عدمه — وتلك حال لا يجوز فيها أمره ،[1] إذ كان مُحالاً أن يأمر إلا المأمورَ ، فإذا لم يكن المأمورُ استحال الأمر ، وكما محالٌ الأ مرُ من غير آمر ، فكذلك محالٌ الأمر من آمرٍ إلاّ لمأمور —[2] أم يقول له ذلك فى حال وجوده ؟ = وتلك حالٌ لا يجوز أمره فيها بالحدوث ، لأنه حادِث موجودٌ . ولا يقال للموجود: « كن موجودًا » ، إلا بغير معنى الأمر بحدوث عَينه ؟

قيل : قد تنازع المتأوّلون فى معنى ذلك . ونحن مخبرون بما قالوا فيه ، والعللِ التى اعتلّ بها كل فريق منهم لقوله فى ذلك :[3]

* * *

قال بعضهم : ذلك خبَرٌ من الله جَلّ ثناؤه عن أمره المحتوم — على وجه القضاء لمن قَضى عليه قضاءً من خلقه الموجودين — أنّه إذا أمره بأمر نفذَ فيه

(١) فى المطبوعة : « وتلك حال لا يجوز أمره » ، بإسقاط « فيها » ، وهى واجبة ، واستظهرتها من السياق ومن الشطر الآتى من السؤال .

(٢) فى المطبوعة : «كما محال الأمر» ، بإسقاط الواو ، وهى واجب إثباتها . ويعنى بقوله: « المأمور »، أى الموجود المأمور .

(٣) أحب أن أنبه قارىء هذا التفسير ، أن يلقى باله إلى سياق الطبرى أقوال القائلين ، وكيف يخلص هو المعانى بعضها من بعض ، وكيف يصيب الحجة بعقل ولطف إدراك ، وصحة بيان عن معانى الكلام ، ومن تأويل آيات كتاب ربنا سبحانه وتعالى ثم لينظر بعد ذلك أقوال المفسرين ، وكيف تجنبوا الإيغال فيما توغل هو فيه ، لثقة بعون الله له ، ثم اتباعاً لأهدى السبل فى طلب المقاصد .

قضاؤه ، وَمضى فيه أمرُه . نظيرُ أمره مَنْ أمر مِنْ بنى إسرائيل بأن يكونوا قِرَدة خاسئين ، وهم موجودون فى حال أمره إيّاهم بذلك ، وحتْمِ قضائه عليهم بما قضى فيهم . وكالذى خَسف به وبداره الأرضَ ، وما أشبه ذلك من أمره وقضائه — فيمن كان موجوداً من خلقه ، فى حال أمره المحتوم عليه .

فوجّه قائلو هذا القول قوله : « وإذا قضى أمرًا فإنما يَقول له كن فيكون » ، إلى الخصوص دون العموم

* * *

وقال آخرون : بل الآية عامٌّ ظاهرها ، فليس لأحد أن يُحيلها إلى باطن بغير حجة يجب التسليم لها .[1] وقال : إن الله عالم بكل ما هو كائن قبل كونه . فلما كان ذلك كذلك ، كانت الأشياء التى لم تكن — وهى كائنة ، لعلمه بها قبل كونها — نظائرَ التى هى موجودة ، فجاز أن يقول لها : « كونى » ، ويأمرَها بالخروج من حال العدم إلى حال الوجود ، لتصوُّر جميعها له ، ولعلمه بها فى حال العدم .

* * *

وقال آخرون : بل الآية ، وإن كان ظاهرُها ظاهرَ عمومٍ ، فتأويلها الخصوصُ . لأن الأمر غير جائز إلا لمأمور ، على ما وصفتُ قبلُ . قالوا : وإذْ كان ذلك كذلك ، فالآية تأويلها : وإذا قضى أمراً : من إحياء ميّت ، أو إماتة حى ، ونحو ذلك ، فإنما يقول لحيٍّ : « كن مَيّتاً ، أو لميت : كن حيًّا » ، وما أشبه ذلك من الأمر .

* * *

وقال آخرون : بل ذلك من الله عز وجل خبرٌ عن جميع ما ينشئه ويكوِّنه ، أنه إذا قضاه وخلقه وأنشأه ، كان ووُجد — ولا قولَ هنالك عند قائلى هذه المقالة ، إلاّ وُجود المخلوق وحدوث المقضىّ — . وقالوا : إنما قول الله عز وجل : « وإذا

---

(١) انظر معنى : « الظاهر ، والباطن » فيما سلف : ٢ : ١٥ والمراجع .

"قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون"، نظيرُ قول القائل: "قالَ فلان برأسه"، و"قالَ بيده"، إذا حرك رأسه، أو أومأ بيده، ولم يقل شيئاً، وكما قال أبو النجم:

وَقَالَتِ الأَنْسَاعُ لِلبَطْنِ الْحَقِ قِدْماً، فَآضَتْ كَالفَنِيقِ المُحْنِقِ[١]

ولا قول هنالك، وإنما عَنى أنّ الظهر قد لحق بالبطن، وكما قال عمرو ابن حُممةَ الدَّوْسيّ :[٢]

فأَصْبَحْتُ مِثْلَ النَّسْرِ طارَتْ فِرَاخُه إذَا رَامَ تَطْيَاراً يُقَالُ لَهُ: قَعِ[٣]

ولا قول هناك، وإنما معناه: إذا رام طيراناً وقع، وكما قال الآخر:

امْتَلأَ الحَوْضُ وَقَالَ: قَطْنِي! سَلاً رُوَيْدًا، قَدْ مَلأْتُ بَطْنِي[٤]!

* * *

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال بالصواب في قوله: "وإذا قَضَى أمرًا فإنما يقول

---

(١) لم أجد الرجز كاملا، والبيتان في اللسان (حنق). يصف ناقة أنضاها السير. والأنساع جمع نسع (بكسر فسكون)، وهو سير يضفر عريضاً تشد به الرحال. ولحق البطن يلحق لحوقاً: ضمر. أي قالت سيور التصدير لبطن الناقة: كن ضامراً. يعني بذلك ما أضناها من السير. وقدماً: أي منذ القدم، قال بشامة بن الغدير.

لاَ تَظْلِمُونَا، وَلاَ تَنْسَوْا قَرَابَتَنَا إطُّوا إلَيْنَا، فَقِدْماً تَعْطِفُ الرَّحِمُ

ويعني أبو النجم: أن الضمور قد طال بها، فإن الأنساع قالت ذلك منذ زمن بعيد. وآض: صار ورجع. والفنيق الجمل الفحل المودع للفحلة، لا يركب ولا يهان لكرامته عليهم، فهو ضخم شديد التركيب. والمحنق: الضامر القليل اللحم. والإحناق: لزوق البطن بالصلب.

(٢) يقال له أيضاً: كعب بن حممة، وهو أحد المعمرين، زعموا عاش أربعمئة سنة غير عشر سنين. وهو أحد حكام العرب، ويقال إنه هو "ذو الحلم" الذي قرعت له العصا، فضرب به المثل.

(٣) كتاب المعمرين: ٢٢، وحماسة البحتري: ٢٠٥، ومعجم الشعراء: ٢٠٩، وهي أبيات.

(٤) أمالي ابن الشجري ١: ٣١٣، ٢: ١٤٠، واللسان (قطط). وفي المطبوعة: "سيلا"، والصواب في اللسان وأمالي ابن الشجري، والرواية المشهورة "مهلا رويداً". وقطني: حسبي وكفاني، وللنحاة كلام كثير في "قطني". وقوله "سلا": كأنه من قولهم: انسل السيل: وذلك أول ما يبتدىء حين يسيل، قبل أن يشتد. كأنه يقول: صباً رويداً.

له كنْ فيكون » أن يقال: هو عامٌ فى كل ما قضاه الله وبرأه . لأن ظاهرَ ذلك ظاهرُ عمومٍ، وغير جائزة إحالة الظاهر إلى الباطن من التأويل، بغير برهان، لما قد بينا فى كتابنا «كتاب البيان عن أصول الأحكام» . وإذ كان ذلك كذلك، فأمر الله جل وعز لشىء إذا أراد تكوينه موجوداً بقوله: «كن» فى حال إرادته إياه مكوَّناً ، لا يتقدم وُجودَ الذى أراد إيجادَه وتكوينه، [1] إرادته إياه ولاَ أمرَه بالكون والوجود — ولا يتأخَّر عنه . [2] فغير جائز أن يكون الشىء مأموراً بالوجود مُراداً كذلك، إلاّ وهو موجود ، ولا أن يكون موجوداً ، إلا وهو مأمو ر بالوجود مراد كذلك .

ونظيرُ قوله : « وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كنْ فيكون » قولُه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ [سورة الروم : ٢٥] ، فإن خروج القوم من قبورهم، لا يتقدَّمُ دعاء الله ولا يتأخر عنه . ١٠٦/١

• • •

ويُسأل من زعم أنّ قوله: « وإذا قضى أمرًا فإنما يقولُ له كنْ فيكون »، خاصٌ فى التأويل ، اعتلالاً بأن أمرَ غير الموجود غيرُ جائز —[3] عن دعوة أهل القبور ، قبل خُروجهم من قبورهم ، أم بعده ، أم هى فى خاص من الخلق ؟ فلن يقول فى ذلك قولاً إلاّ أُلزم فى الآخر مثلَه .

ويسألُ الذين زعموا أنّ معنى قوله جل ثناؤه : « فإنما يقول له كن فيكون » ، نظيرُ قول القائل: « قال فلانٌ برأسه أو بيده »، إذا حرّكه وأومأ، ونظير قول الشاعر : [4]

---

(١) فى المطبوعة : « وجوده » الذى أراد إيجاده » وزيادة الهاء فى « وجوده » لا مكان لها .

(٢) يقول : إن وجود الشىء ، لا يتقدم إرادة الله وأمره ، ولا يتأخر عنهما .

(٣) يقول : « يسأل من زعم . . . عن دعوة أهل القبور » .

(٤) هو المثقب العبدى .

تَقُولُ إِذَا دَرَأْتُ لَهَا وَضِينِي : أَهٰذَا دِينُه أَبَدًا وَدِينِي[1] !

وما أشبه ذلك — : فإنهم لا صوابَ اللغة أصابوا ، ولا كتابَ الله وما دلّت على صحته الأدلّة اتّبعوا — فيقال لقائلى ذلك : إن الله تعالى ذكرُه أخبر عن نفسه أنّه إذا قضى أمرًا قال له : « كن » ، أفتنكرون أن يكون قائلاً ذلك ؟ فإن أنكروه كذّبوا بالقرآن وخرجوا من الملة .

وإن قالوا : بل نقرّ به ، ولكنا نزعم أنّ ذلك نظيرُ قول القائل : « قال الحائط فمال » ، ولا قول هنالك ، وإنما ذلك خبرٌ عن ميل الحائط .

قيل لهم : أفتجيزون للمخبر عن الحائط بالميل أن يقول : إنما قول الحائط إذا أرادَ أن يميل ، أن يقول هكذا فيميل ؟

فإن أجازوا ذلك خرجوا من معروف كلام العرب ، وخالفوا منطقها وما يعرف فى لسانها .

وإن قالوا : ذلك غير جائز .

قيل لهم : إن الله تعالى ذكره أخبرَهم عن نفسه أن قوله للشيء إذا أراده أن يقول له : « كن فيكون » . فأعلم عبادَه قوله الذى يكونُ به الشيء ، ووصَفه ووكّده . وذلك عندكم غير جائز فى العبارة عما لا كلام له ولا بيان فى مثل قول القائل : « قال الحائط فمال » ، فكيفَ لم يعلموا بذلك فرْق ما بين معنى قول الله : « وإذا قضَى أمرًا فإنما يقول له كنْ فيكون » ، وقول القائل : « قال الحائط فمال » ؟

---

(١) المفضليات : ٥٨٦ ، والكامل ١ : ١٩٣ وطبقات فحول الشعراء : ٢٣١ ، وسيأتى فى تفسيره ٤ : ١١٢ (بولاق) من قصيدة جيدة ، يقول قبله فى ناقته :

إِذَا مَا قُمْتُ أَرْحَلُهَا بِلَيْلٍ تَأَوَّهُ آهَةَ الرَّجُلِ الحَزِينِ

ودرأ الوضين لناقته : بسطه على الأرض ، ثم أبركها عليه ليشد عليها رحلها . والوضين : حزام عريض من جلد منسوج يشد به رحل البعير . والدين : الدأب والعادة .

وللبيان عن فساد هذه المقالة موضعٌ غير هذا ، نأتى فيه على القول بما فيه الكفاية إن شاء الله .

* * *

وإذ كان الأمر فى قوله جل ثناؤه : « وإذَا قَضَى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون »، هو ما وصفنا، من أنّ حالَ أمره الشىءَ بالوجود حالُ وجود المأمور بالوجود، فبيِّنٌ بذلك أنّ الذى هو أولى بقوله« فيكون »[1] ، الرفعُ على العطف على قوله[2] : « يقول » . لأن « القول » و « الكون » حالهما واحد . وهو نظير قول القائل : « تاب فلان فاهتدى» و« اهتدى فلان فتاب»، لأنه لا يكون تائباً إلا وهو مهتدٍ ، ولا مهتدياً إلاّ وهو تائبٌ . فكذلك لا يكون أن يكون الله آمرًا شيئاً بالوجود إلا وهو موجود ، ولا موجوداً إلا وهو آمرُه بالوجود .

ولذلك استجاز من استجازَ نَصْبَ« فيكونَ» مَنْ قرأ﴿ إنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إذَا أَرَدْنَاهُ أنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونَ ﴾[سورة النحل : ٤٠] ، بالمعنى الذى وصفنا ، على معنى : أن نقولَ فيكونَ .

وأمّا رَفْع من رفَع ذلك ،[3] فإنه رأى أن الخبر قد تمّ عند قوله : « إذَا أرَدناهُ أنْ نقولَ له كن» . إذْ كان معلوماً أن الله إذا حَتَم قضاءَه على شىء ، كان المحتومُ عليه موجوداً . ثم ابتدأ بقوله : « فيكون » ، كما قال جل ثناؤه ﴿ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فى الأرْحَامِ مَا نَشَاء ﴾[سورة الحج : ٥] ،وكما قال ابن أحمر :

يُعَالِجُ عَاقِرًا أعْيَتْ عَلَيْهِ ... لِيُلْقِحَهَا فَيَنْتِجُهَا حُوَارَا[4]

---

(١) فى المطبوعة : « فتبين » ، والصواب ما أثبت .

(٢) فى المطبوعة : « فيكون على العطف » سقط من الناسخ قوله : « الرفع » .

(٣) وهذه هى قراءة مصحفنا اليوم .

(٤) المعانى الكبير : ٨٤٦ ، ١١٣٤ ، وسيبويه ١ : ٤٣١ ، من أبيات يذكر صديقاً كان له ، يقول :

أرَانَا لا يَزَالُ لَنَا حَمِيمٌ ... كَدَاء البَطْنِ سِلاًّ أو صُفَارَا

يريد : فإذا هو ينتجها حواراً .

* * *

فمعنى الآية إذاً : وقالوا اتخذ الله ولداً ، سبحانه أن يكون له ولد ، بل هو مالك السموات والأرض وما فيهما ، كل ذلك مقرّ له بالعبودية بدلالته على وحدانيته. وأنَّى يكون له ولد ! وهو الذى ابتدع السموات والأرض من غير أصل ، كالذى ابتدع المسيح من غير والد بمقدرته وسلطانه ، الذى لا يتعذر عليه به شىء أراده ، بل إنما يقول له إذا قضاه فأراد تكوينه : « كن » ، فيكون موجوداً كما أراده وشاءه . فكذلك كان ابتداعه المسيح وإنشاؤه ، إذ أراد خلقَه من غير والد .

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهلُ التأويل فيمن عنى الله بقوله : « وقال الذّين لا يعلمون لولا يكلمنا الله » . فقال بعضهم : عنى بذلك النصارى . ذكر من قال ذلك : ٤٠٧/١

١٨٦٠ — حدثنى محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا

يُعَالِجُ عَاقِراً أعيَتْ عَلَيهِ لِيُلْقِحَهَا ، فَيَنْتِجُهَا حُوَارَا
وَيَزْعُمُ أنّه نازٍ عَلَيْنَا بِشِرّتِهِ فَتَارِكُنَا تَبَارَا

جعل هذا الصديق كداء البطن لا يدرى من أين يهيج ولا كيف يتأتى له . وهو يعالج من الشر ما لا يقدر عليه ، فكأنه يطلب الولد من عاقر . جعل ذلك مثلا . والحوار : ولد البقرة . والشرة : حدة الشر ، والتبار : الهلاك .

عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قول الله جل وعز : « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية » ، قال : النصارى تقولُه .

١٨٦١ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد مثله — وزاد فيه : « وقال الذين لا يعلمون »، النصارى.

* * *

وقال آخرون : بل عنى الله بذلك اليهودَ الذين كانوا فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم . ذكر من قال ذلك :

١٨٦٢ — حدثنا أبو كريب قال، حدثنا يونس بن بكير — وحدثنا ابن حميد قال ، حدثنا سلمة بن الفضل — قالا جميعاً، حدثنا محمد بن إسحق قال، حدثنى محمد بن أبى محمد قال ، حدثنى سعيد بن جبير ، أو عكرمة،عن ابن عباس قال : قال رافع بن حُرَيْملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنْ كنت رسولاً من عند الله كما تقول ، فقل لله عز وجلّ فليكلِّمْنا حتّى نسمع كلامه ! فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قوله : « وقال الذين لا يَعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية » الآية كلها . [1]

* * *

وقال آخرون: بل عنى بذلك مشركى العرب . ذكر من قال ذلك:

١٨٦٣ — حدثنا بشر بن معاذ : قال، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية » ، وهم كفار العرب .

١٨٦٤ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « وقال الذين لا يَعلمون لولا يكلِّمنا الله » ، قال : هم كفار العرب .

١٨٦٥ — حدثنى موسى قال، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن

(١) الأثر : ١٨٦٢ — سيرة ابن هشام ٢ : ١٩٨ .

السدى: « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلّمنا الله »، أما «الذين لا يعلمون »، فهم العرب .

* * *

وأولى هذه الأقوال بالصحة والصواب قولُ القائل : إن الله تعالى عنى بقوله : « وقال الذين لا يعلمون » النصارى . دون غيرهم . لأن ذلك فى سياق خبر الله عنهم ، وعن افترائهم عليه ، وادّعائهم له ولدًا ، فقال جل ثناؤه مخبراً عنهم فيما أخبر عنهم من ضلالتهم : أنهم مع افترائهم على الله الكذب بقولهم : « اتخذ الله ولداً » ، تمنَّوا على الله الأباطيل ، فقالوا جهلاً منهم بالله . وبمنزلتهم عنده ، وهم بالله مشركون : « لولا يكلمنا الله » كما يكلّم رسله وأنبياءه ، أو تأتينا آية كما أتتهم ؟ ولا ينبغى لله أن يكلم إلا أولياءه، ولا يؤتى آية معجزةً على دعوى مدّعٍ إلاّ لمن كان محقًّا فى دعواه وداعياً إلى الله وتوحيده؛ فأما من كان كاذباً فى دّعواه وداعياً إلى الفرية عليه ، وادعاءِ البنين والبنات له ، فغير جائز أن يكلمه الله جل ثناؤه ، أو يؤتيه آية معجزة تكون مؤيِّدة كذبَه وفريتَه عليه .

وأمّا الزاعمُ أن الله عنى بقوله[1]: « وقال الذين لا يعلمون »، العربَ ، فإنه قائلٌ قولاً لا خبرَ بصحته ، ولا برهانَ على حقيقته فى ظاهر الكتاب . والقول إذا صارَ إلى ذلك ، كان واضحاً خطؤه ، لأنه ادّعى ما لا برهان على صحته . وادعاء مثل ذلك لن يتعذر على أحد .

* * *

وأما معنى قوله : « لولا يكلّمنا الله » فإنه بمعنى : هلاّ يكلمنا الله ، كما قال الأشهب بن رُمَيْلة[2]

---

(١) فى المطبوعة : « وقال الزاعم . . . » والصواب ما أثبت ، كما استدركه مصحح المطبوعة .

(٢) ليس للأشهب ، بل هو لجرير ، وقد تابعه ابن الشجرى فى أماليه ٢ : ٢١٠ ، كأنه نقله عنه كعادته .

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ بَنِي ضَوْطَرَى، لولاَ الكَمِيَّ المُقَنَّعَا! (١)

بمعنى : فهلاَّ تعدونَ الكمى المقنع ! كما :

١٨٦٦ — حدثنا الحسن بن يحيى قال، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة فى قوله : « لولا يكلّمنا الله » ، قال : فهلاَّ يكلمنا الله !

* * *

قال أبو جعفر : فأما « الآية » ، فقد ثبت فيما قبلُ معنى « الآية » ، أنها العلامة . (٢) وإنما أخبر الله عنهم أنهم قالوا : هلا تأتينا آية على ما نريد ونسأل (٣) ، كما

---

(١) ديوان جرير : ٣٣٨ ، النقائض : ٨٣٣ ، وسيأتى فى التفسير ٧ : ١١٩ (بولاق) غير منسوب ، ومجاز القرآن : ٥٢ ، وأمالى ابن الشجرى ١ : ٢٧٩ ، ٢/٣٣٤ : ٢١٠ ، والخزانة ١ : ٤٦١ . ورواية الديوان والنقائض : « أفضل سعيكم » . والبيت من قصيدة طويلة فى مناقضة جرير والفرزدق . وقوله : « عقر النيب » . عقر الناقة أو الفرس : ضرب قوائمها فقطعها ، وكانوا إذا أرادوا نحر البعير عقروه ، ثم نحروه ، وإنما يفعلون به ذلك كيلا يشرد عند النحر . وكان العرب يتكارمون بالمعاقرة . وهى أن يعقر هذا ناقة ، فيعقر الآخر ، يتباريان فى الجود والسخاء ، ويلحان فى ذلك حتى يغلب أحدهما صاحبه . والنيب جمع ناب : وهى الناقة المسنة ، أسموها بذلك لطول نابها . ويشير جرير بذلك إلى ما كان يفخر به الفرزدق من معاقرة أبيه غالب بن صعصعة ، سحيم بن وثيل الرياحى بمكان يقال له « صوأر » ، فعقر سحيم خمساً ثم بدا له ، وعقر غالب مئة ، أو مئتين . وهذا أمر من أمور الجاهلية ، قال ابن عباس : « لا تأكلوا من تعاقر الأعراب ، فإنى لا آمن أن يكون مما أهل لغير الله به » ، وقال على رضى الله عنه : « يا أيها الناس ، لا تحل لكم ، فإنها أهل بها لغير الله » . (انظر خبر المعاقرة فى النقائض : ٦٢٥ — ٦٢٦) .

وقوله : « بنى ضوطرى » ، يعنى : يا بنى الحمقى . هكذا قيل ، وأخشى أن لا يكون كذلك ، فإن : « ضوطرى » نبز لرجل من بنى مجاشع بن دارم — لم يعينوه — فقال جرير للفرزدق :

إنّ ابن شِعْرةَ ، والقَرِينَ ، وضَوْطَرَي بِئْسَ الفَوارِسُ لَيْلَةَ الحَدَثانِ

فهذا دليل على أنه شخص بعينه ، أرجو أن أحققه فى غير هذا المكان . وقد أراد ذمه بأسلافه على كل . والكمى : الشجاع الذى لا يرهب ، فلا يحيد عن قرنه ، كان عليه سلاح أو لم يكن .

وقوله : « تعدون » أى تحسبون وتجعلون ، فعدى الفعل « عد » إلى مفعولين ، تضميناً لمعنى « جعل وحسب » ، كما قال ذو الرمة :

أَشَمَّ أَغَرَّ أَزْهَرُ هِبْرِزِيٌّ يَعُدُّ القَاصِدِينَ لَهُ عِيالاَ

(٢) انظر ما سلف ١ : ١٠٦ .

(٣) فى المطبوعة : « عما نريده ونسأل » ، والصواب ما أثبت .

تت الأنبياء والرسل ! فقال عز وجل : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فيمن عنى الله بقوله : « كذلك قال ين من قبلهم مثل قولهم » . فقال بعضهم فى ذلك بما : —

١٨٦٧ — حدثنى به محمد بن عمرو قال ، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » ، هم اليهود .

١٨٦٨ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : « قال الذين من قبلهم » ، اليهود .

* * *

وقال آخرون : هم اليهود والنصارى، لأن « الذين لا يعلمون »، هم العرب .[1]

* ذكر من قال ذلك :

١/٤٠٨ ١٨٦٩ — حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة قال : « الذين من قبلهم »، يعنى اليهود والنصارى وغيرهم .

١٨٧٠ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى قال : قالوا : — يعنى العرب — كما قالت اليهود والنصارى من قبلهم .

١٨٧١ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ،

(١) فى المطبوعة : « هم اليهود » ، والصواب ما أثبت ، كما استظهره مصحح المطبوعة ، ودليل ذلك أنه سيروى بعد عن قتادة ، وقد مضى فى رقم ١٧٦٣ بإسناده هذا عن قتادة : أن « الذين لا يعلمون » ، هم كفار العرب ، والأثر التالى تتمة هذا الأثر السالف

عن أبيه ، عن الربيع : « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم » ، يعني اليهود والنصارى .

* * *

قال أبو جعفر : قد دللنا على أن الذين عنى الله تعالى ذكره بقوله : « وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله »، هم النصارى، والذين قالوا مثل قولهم هم اليهود[1] : سألتْ موسى صلى الله عليه وسلم أن يريهم ربهم جهرة ،[2] وأن يسمعهم كلام ربهم — كما قد بينا فيما مضى من كتابنا هذا —[3] وسألوا من الآيات ما ليس لهم مسألته تحكماً منهم على ربهم . وكذلك تمنت النصارى على ربها تحكماً منها عليه ، أن يسمعهم كلامه ، ويريهم ما أرادوا من الآيات. فأخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم قالوا من القول في ذلك، مثل الذي قالته اليهود، وتمنَّت على ربها مثل أمانيِّها ، وأن قولهم الذي قالوه من ذلك، إنما يشابه قول اليهود ، من أجل تشابه قلوبهم في الضلالة والكفر بالله . فهم وإن اختلفت مذاهبهم في كذبهم على الله وافترائهم عليه ، فقلوبهم متشابهة في الكفر بربهم والفرية عليه ، وتحكمهم على أنبياء الله ورسله عليهم السلام . وبنحو ما قلنا في ذلك قال مجاهد :

١٨٧٢ — حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد: « تشابهت قلوبهم »، قلوب النصارى واليهود .

* * *

وقال غيره :[4] معنى ذلك : تشابهت قلوبُ كفار العرب واليهود والنصارى وغيرهم . ذكر من قال ذلك :

١٨٧٣ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد قال، حدثنا سعيد ، عن

---

(١) في المطبوعة : « والذين قالت » . والضمير في قوله « والذين قالوا » إلى النصارى يعود . وانظر دليله فيما سلف قريباً : ٥٥٠

(٢) في المطبوعة : « وسألت موسى » ، وحذف الواو أولى . وكان أحب أن تكون « سألوا » مكان « سألت » .

(٣) انظر ما سلف في تفسير الآية : ٥٥ ، والأثر : ٩٥٩

(٤) في المطبوعة : « وقال غيرهم » ، والصواب ما أثبت ، فإنه روى قول مجاهد وحده .

قتادة : « تشابهت قلوبهم » ، يعنى العرب واليهود والنصارى وغيرهم .

١٨٧٤ — حدثنى المثنى ، حدثنا إسحق قال ، حدثنا ابن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع : « تشابهت قلوبهم » ، يعنى العربَ واليهود والنصارى وغيرهم .

* * *

قال أبو جعفر : وغير جائز فى قوله ، « تَشاَّبهت » التثقيل . لأن « التاء » التى فى أولها زائدة ، أدخلت فى قوله : « تفاعل » ، وإن ثقلت صارت تاءين . ولا يجوز إدخال تاءين زائدتين علامة لمعنى واحد . وإنّما يجوز ذلك فى الاستقبال ، لاختلاف معنى دخولهما ، لأن إحداهما تدخل علماً للاستقبال ، والأخرى منهما التى فى « تفاعل » ، ثم تدغم إحداهما فى الأخرى فتثقَّل ، فيقال : تشَّابه بعدَ اليوم قلوبُنا[1].

* * *

فمعنى الآية : وقالت النصارى ، الجهالُ بالله وبعظمته : هلاّ يكلمنا الله ربنا ، كما كلم أنبياءه ورسلَه ، أو تجيئنا علامةٌ من الله نعرف بها صدق ما نحن عليه على ما نسأل ونريد؟ قال الله جل ثناؤه : فكما قال هؤلاء الجهال من النصارى وتمنَّوا على ربهم ، قال مَنْ قبلهم من اليهود ، فسألوا ربهم أن يريهم الله نفسه جهرة ، ويؤتيهم آيةً ، واحتكموا عليه وعلى رُسله ، وتمنَّوا الأمانى . فاشتبهت قلوبُ اليهود والنصارى فى تمرُّدهم على الله ، وقلة معرفتهم بعظمته ، وجرأتهم على أنبيائه ورسله ، كما اشتبهت أقوالهم التى قالوها .

* * *

---

(١) انظر معانى القرآن للفراء ١ : ٧٥ ، وعبارة الطبرى هنا تصحح الخطأ الذى هناك .

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١١٨)

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « قد بيَّنا الآيات لقوم يُوقنون »، قد بيّنا العلامات التى من أجلها غضب الله على اليهود ، وجعل منهم القردة والخنازير ، وأعد لهم العذاب المهين فى معادهم ؛ والتى من أجلها أخزَى الله النصارَى فى الدنيا ، وأعدّ لهم الخزى والعذاب الأليم فى الآخرة ؛ والتى من أجلها جعل سكان الجنان ، الذين أسلموا وجوههم لله وهُم مُحسنون — فى هذه السورة وغيرها. فأعْلِموا الأسباب التى من أجلها استحقّ كل فريق منهم من الله ما فعل به من ذلك ، وخصّ الله بذلك القوم الذين يُوقنون ، لأنهم أهل التثبت فى الأمور ، والطالبون معرفةَ حقائق الأشياء على يقين وصحة . فأخبر الله جل ثناؤه أنه بيَّن لمن كانت هذه الصفةُ صفتَه ما بيَّن من ذلك، ليزول شكّه ويعلم حقيقة الأمر ، إذْ كان ذلك خبراً من الله جل ثناؤه، وخبرُ الله الخبرُ الذى لا يُعذَر سامعه بالشكّ فيه . وقد يحتمل غيرُه من الأخبار ما يحتمل من الأسباب العارضة فيه من السهو والغلط والكذب ، وذلك منفىٌّ عن خبرِ الله عز وجل . ١/٤٠٩

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾

قال أبو جعفر : ومعنى قوله جل ثناؤه : « إنّا أرْسلناك بالحق بَشيراً ونَذيراً » : إنا أرسلناك يا محمد بالإسلام الذى لا أقبل من أحد غيرَه من الأديان ، وهو الحق ؛ مبشِّراً من اتبعك فأطاعك، وقَبِل منك ما دَعوته إليه من الحق — بالنصر فى الدنيا، والظفر بالثواب فى الآخرة ، والنعيم المقيم فيها — ومنذراً من عصَاك فخالفك ، وردّ

عليك ما دعوته إليه من الحق — بالخزى فى الدنيا ، والذل فيها ، والعذاب المهين فى الآخرة .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (١١٩)

قال أبو جعفر : قرأت عامّة القرأة : « ولا تُسئلُ عَن أصحاب الجحيم » ، بضم «التاء» من « تسئل » ورفع «اللام» منها ، على الخبر . بمعنى : يا محمد إنا أرسلناك بالحقّ بشيرًا ونذيرًا ، فبلغتَ ما أُرسلت به ، وإنما عليك البلاغ والإنذار ، ولست مسئولاً عمن كفر بما أتيته به من الحق ، وكان من أهل الجحيم .

وقرأ ذلك بعضُ أهل المدينة : «وَلا تَسألْ » جزماً . بمعنى النهى ، مفتوح «التاء» من « تَسأل » وجزم «اللام» منها . ومعنى ذلك على قراءة هؤلاء : إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا لتبلّغ ما أرْسلت به ، لا لتسألَ عن أصحاب الجحيم ، فلا تسألْ عن حالهم . وتأوّل الذين قرأوا هذه القراءة ما :—

١٨٧٥ — حدثنا أبو كريب قال ، حدثنا وكيع ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليت شِعرى ما فعل أبواى ؟ فنزلت : « ولا تَسألْ عن أصحاب الجحيم » .

١٨٧٦ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا الثورى ، عن موسى بن عبيدة ، عن محمد بن كعب القرظى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليت شِعرى مَا فعل أبواى : ليت شِعرى ما فعل أبواى ؟ ليتَ شعرى ما فعل أبواى ؟ ثلاثاً ، فنزلت : « إنا أرَسلناك بالحقّ بشيراً ونَذيراً ولا تسألْ عن أصحاب الجحيم » ، فما ذكرهما حتى توفاه الله[1] .

---

(١) الحديثان : ١٨٧٥ ، ١٨٧٦ — هما حديثان مرسلان . فإن محمد بن كعب بن سليم القرظى : تابعى . والمرسل لا تقوم به حجة ، ثم هما إسنادان ضعيفان أيضاً ، بضعف راويهما :

١٨٧٧ ــ حدثنا القاسم قال ، حدثنا الحسين قال ، حدثنا حجاج ، عن ابن جريج قال ، أخبرني داود بن أبي عاصم : أن النبي صلى الله عليه وسلم قالَ ذات يوم : ليت شِعرى أين أبواى ؟ فنزلت : « إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا ولا تَسألْ عَنْ أصحاب الجحيم » [1]

* * *

قال أبو جعفر : والصواب عندى من القراءة فى ذلك قراءة من قرأ بالرفع ، على الخبر . لأن الله جل ثناؤه قصّ قَصصَ أقوام من اليهود والنصارى ، وذكر ضلالتَهم وكفرَهم بالله وجراءَتهم على أنبيائه، ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : « إنا أرْسلناك » يا محمد « بالحقّ بشيرًا » من آمن بك واتبعك ، ممنْ قصصت عليك أنباءه ومن لم أقصص عليك أنباءَه « ونذيرًا » من كفر بك وَخالفَك . فبلِّغ رسالتى ، فليس عليك من أعمال من كَفر بك ــ بعد إبلاغك إيّاه رسالتى ــ تَبِعة ، ولا أنت مسئولٌ عما فعل بعد ذلك . ولم يَجر ــ لمسألة رَسول الله صلى الله عليه وسلم ربَّه عن أصحاب الجحيم ــ ذكرٌ ، فيكون لقوله : « ولا تَسألْ عن

موسى بن عبيدة بن نشيط الربذى : ضعيف جداً، مترجم فى التهذيب ، والكبير للبخارى ٤/١/٢٩١، والصغير : ١٧٢ – ١٧٣ ، وابن أبى حاتم ٤/١/١٥١ – ١٥٢ ، فقال البخارى : « منكر الحديث » ، قاله أحمد بن حنبل . وقال على بن المدينى ، عن القطان : كنا نتقيه تلك الأيام » . وروى ابن أبى حاتم عن الجوزجانى ، قال : « سمعت أحمد بن حنبل يقول : لا تحل الرواية عندى عن موسى بن عبيدة ، قلنا : يا أبا عبد الله ، لا يحل ؟ قال : عندى ، قلت : فإن سفيان وشعبة قد رويا عنه ؟ قال : لو بان لشعبة ما بان لغيره ما روى عنه » . وقال ابن معين : « لا يحتج بحديثه » . وقال أبو حاتم : « منكر الحديث » . وأبوه « عبيدة » ، بالتصغير ، ووقع فى المطبوعة فى الإسنادين « عبدة » . وهو خطأ .

(١) الحديث : ١٨٧٧ – وهذا مرسل أيضاً ، لا تقوم به حجة .

داود بن أبى عاصم بن عروة بن مسعود الثقفى : تابعى ثقة ، ويروى عن بعض التابعين أيضاً . مترجم فى التهذيب ، والكبير ٢/١/٢١٠ – ٢١١ . والجرح ١/٢/٤٢١ . ووقع فى المطبوعة « داود عن أبى عاصم » . وهو تحريف ، صححناه من ابن كثير ١ : ٢٩٧ .

ونقل ابن كثير ١ : ٢٩٦ عن القرطبى أنه قال : « وقد ذكرنا فى التذكرة أن الله أحيا أبويه حتى آمنا به ، وأجبنا عن قوله : إن أبى وأباك فى النار » . ثم علق عليه ابن كثير ، فقال : « الحديث المروى فى حياة أبويه عليه السلام – ليس فى شىء من الكتب الستة ولا غيرها ، وإسناده ضعيف » .

وأنا أرى أن الإفاضة فى مثل هذا غير مجدية ، وما أمرنا أن نتكلف القول فيه .

أصحاب الجحيم » وجه يوجَّه إليه . وإنما الكلام موجَّه معناه إلى ما دلَّ عليه ظاهرُه المفهوم ، حتى تأتى دلالة بينة تقوم بها الحجة ، على أن المراد به غيرَ ما دلَّ عليه ظاهرُه ، فيكون حينئذ مسلَّماً للحجة الثابتة بذلك . ولا خبر تقومُ به الحجة على أن النبي صلى الله عليه وسلم نُهِى عن أن يَسأل — فى هذه الآية — عن أصحاب الجحيم ، ولا دلالة تدلّ على أن ذلك كذلك فى ظاهر التنزيل . والواجب أن يكون تأويل ذلك الخبر على ما مضى ذكره قبلَ هذه الآية ، وعمَّن ذُكر بعدها من اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الكفر ، دون النهى عن المسألة عنهم .[1]

* * *

فإن ظنَّ ظانٌّ أن الخبر الذى رُوِى عن محمد بن كعب صحيحٌ ، فإن فى استحالة الشكِّ من الرسول عليه السلام — فى أنّ أهل الشرك من أهل الجحيم ، وأنّ أبويه كانا منهم — ما يدفع صحّة ما قاله محمد بن كعب ، إن كان الخبر عنه صحيحاً . مع أنّ فى ابتداء الخبر بعد قوله : « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً » بـ « الواو » — بقوله : « ولا تسئل عن أصحاب الجحيم » ، وتركه وَصْل ذلك بأوّله بـ « الفاء » ، وأن يكون « إنا أرْسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً فلاتسأل عن أصحاب الجحيم » —[2] أوضحَ الدلالة على أن الخبر بقوله :[3] « ولا تسئل » ، أوْلى من النهى ، والرفعُ به أوْلى من الجزم . ١/٤١٠

وقد ذكر أنّها فى قراءة أُبَىّ : « وَما تُسأل » ، وفى قراءة ابن مسعود : « ولنْ تُسألَ » ، وكلتا هاتين القراءتين تشهد بالرفع والخبر فيه ، دون النهى[4] .

* * *

(١) حجة قوية لا ترد ، وبصر بسياق معانى القرآن وتتابعها . ولكن كثيراً من الناس يغفلون عن مواطن الحق فى موضع بعينه ، لاختلاط الأمر عليهم لمشابهته لموطن آخر فى موضع غيره ، كما سترى فى التعليق التالى رقم : ٤ .

(٢) كان فى المطبوعة : « بالواو يقول : فلا تسئل عن أصحاب الجحيم ... بشيراً ونذيراً ولا تسئل عن أصحاب الجحيم » ، وهو خطأ ، كما استدركه مصحح المطبوعة فى تعليقه .

(٣) فى المطبوعة : « أوضح الدلائل » بالجمع ، والإفراد هو الصواب ، وكأنه سبق قلم من ناسخ .

(٤) قال ابن كثير فى تفسيره ١ : ٢٩٧ « وقد رد ابن جرير هذا القول المروى عن محمد بن كعب وغيره ، فى ذلك لاستحالة الشك من الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمر أبويه ، واختار القراءة الأولى . وهذا الذى سلكه ههنا فيه نظر ، لاحتمال أن هذا كان فى حال استغفاره لأبويه ، قبل أن يعلم

وقد كان بعض نحويي البصرة يوجه قوله: « ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم » إلى الحال ، كأنه كان يرى أن معناه : إنّا أرْسلناك بالحق بشيرًا ونَذيرًا غيرَ مسئولٍ عن أصحاب الجحيم . وذلك إذا ضَمّ « التاء » ، وقرأه على معنى الخبر ، وكان يجيز على ذلك قراءته : « ولا تَسأَلُ » بفتح « التاء » وضم « اللام » على وجه الخبر ، بمعنى : إنا أرسلناك بالحقّ بشيراً ونذيرًا غيرَ سائل عن أصحاب الجحيم . وقد بينا الصواب عندنا فى ذلك .

وهذان القولان اللذان ذكرتهما عن البصرى فى ذلك ، يدفعهما ما روى عن ابن

أمرها ، فلما علم ذلك تبرأ منهما ، وأخبر عنهما أنهما من أهل النار ، كما ثبت هذا فى الصحيح . ولهذا أشباه كثيرة ونظائر ، ولا يلزم ما ذكره ابن جرير والله أعلم » .

ينسى ابن كثير غفر الله له ، ما أعاد الطبرى وأبدأ من ذكر سياق الآيات المتتابعة ، والسياق كما قال هو فى ذكر اليهود والنصارى وقصصهم ، وتشابه قلوبهم فى الكفر بالله ، وقلة معرفتهم بعظمة ربهم ، وجرأتهم على رسل الله وأنبيائه ، وكل ذلك موجب عذاب الجحيم ، فما الذى أدخل كفار العرب فى هذا السياق ؟ نعم إنهم يدخلون فى معنى أنهم من أصحاب الجحيم ، كما يدخل فيه كل مشرك من العرب وغيرهم . وقد بينا آنفاً ص : ٥٢١ تعليق : ١ أن هذه الآيات السالفة والتى تليها ، دالة أوضح الدلالة على أن قصتها كلها فى اليهود والنصارى ، ولا شأن لمشركى العرب بها . وإن دخل هؤلاء المشركون فى معنى أنهم من أصحاب الجحيم ، وإذن فسياق الآيات يوجب أن تكون فى اليهود والنصارى ، فتخصيص شطر من آية بأنه نزل فى أمر بعض مشركى الجاهلية . تحكم بلا خبر ولا بينة . (وانظر ص : ٥٦٥)

ثم إن ابن كثير غفل عن معنى الطبرى ، فإن الطبرى أراد أن يدل على شيئين : أن خبر محمد بن كعب لا يصح ، وأنه إن صح عنه من وجه ، فإن نزول الآية لم يكن لهذا الذى روى عنه . وبيان ذلك : أن الخبر لا يصح ، لأنه جاء على صيغة التشكك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى أمر بعض أهل الجاهلية : ما فعل به ، فى جنة أو نار ! وهذا مما يتنزه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفرق كبير بين أن يستغفر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبويه الذين كانا من أهل الجاهلية ، وعلى مثل أمرها من الشرك ، وبين أن يتشكك فى أمرها فيقول : « ليت شعرى ما فعل أبواى ؟ » . وإنما يصح كلام ابن كثير ، إذا كان بين هذا التشكك ، وبين الاستغفار رابط يوجب أن يكون أحدهما ملازماً للآخر ، أو بسبب منه .

ثم يرد الخبر أيضاً ، لأن سياق الآيات يدل ظاهرها البين على أنها فى اليهود والنصارى نزلت ، فلا يمكن تخصيص شطر من آية من هذه الآيات المتتابعة ، على خبر لا يصح ، لعلة موهنة له . فلست أدرى لم أقحم ابن كثير الاستغفار والتبرؤ فى هذا الموضع ، مع وضوح حجة الطبرى فى الفقرة السالفة . من جهة السياق ، وفى هذه الفقرة من جهة العربية ؟

إن بعض المشكلات التى يدور عليها جدال الناس ، ربما أغفلت مثل ابن كثير عن مواطن الدقة والصواب والتحرى ، وهم يفسرون كتاب الله الذى لا يخالف بعضه بعضاً ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . اللهم إنا نسألك العصمة من الزلل ، ونستهديك فى البيان عن معانى كتابك .

مسعود وأُبىّ من القراءة،[1] لأن إدخالَهما ما أدخلامن ذلك من «ما» و«لن»، يدل على انقطاع الكلام عن أوله، وابتداء قوله : «ولا تسألُ». وإذا كان ابتداءً لم يكن حالاً.

* * *

وأمّا «أصحاب الجحيم»، ف«الجحيم»، هى النار بعينها إذا شبَّت وقودَها، ومنه قول أمية بن أبي الصلت :

إذَا شُبَّتْ جَهَنَّمُ ثُمَّ دَارَتْ ... وَأَعْرَضَ عَنْ قَوَابِسِهَا الجَحِيمُ[2]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾

قال أبو جعفر : يعنى بقوله جل ثناؤه : «ولن تَرْضَى عنك اليهودُ ولاَ النصارَى حتى تَتبع ملتهم»، وليست اليهودُ، يا محمد، ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طَلب ما يُرضيهم ويُوافقهم، وأقبلْ على طلب رضا الله فى دعائهم إلى ما بعثَك الله به من الحق، فإن الذى تدعوهم إليه من ذلك لهو السبيل إلى الاجتماع فيه معك على الألفة والدين القيِّم، ولا سبيل لك إلى إرضائهم باتّباع ملتهم، لأن اليهودية ضِدُّ النصرانية، والنصرانية ضدُّ اليهودية، ولا تجتمع النصرانية واليهودية

---

(١) فى المطبوعة : «يرفعهما ما روى . . .» والصواب ما أثبت .

(٢) ديوانه : ٥٣ ، وروايته : «ثم فارت» ، وكأنها هى الصواب ، وأخشى أن يكون البيت محرفاً . لم أعرف معنى «قوابسها» هنا، وأظنه «قدامسها» جمع قدموس، وهى الحجارة الضخمة الصلبة ، كقوله تعالى : «وقودها الناس والحجارة» ، وأعرض الشىء اتسع وعرض ، وقوله «عن» أى بسبب قذف هذه الحجارة فيها . هذا أقرب ما اهتديت إليه من معناه ، ويرجح ذلك البيت الذى يليه ، وفيه جواب «إذا» :

تُحَشّ بِصَنْدَلٍ صُمٍّ صِلاَبٍ ... كأنّ الضَّاحِيَاتِ لَهَا قَضِيمُ

وكأنه يعنى بالضاحيات : النخيل . وشعر أمية مشكل على كل حال .

فى شخص واحد ، فى حال واحدة . واليهود والنصارى لا تجتمع على الرِّضا بك ، إلا أن تكون يهوديًّا نصرانيًّا ، وذلك مما لا يكون منك أبداً ، لأنك شخص واحد ، ولن يجتمع فيك دينان متضادَّان فى حال واحدة . وإذا لم يكن إلى اجتماعهما فيك فى وقت واحد سبيل ، لم يكن لك إلى إرضاء الفريقين سبيل . وإذا لم يكن لك إلى ذلك سبيل ، فالزَم هُدَى الله الذى لجميع الخلق إلى الألفة عليه سبيل .

* * *

وأما « الملة » فإنها الدين ، وجمعها المِلَل .

* * *

ثم قال جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل يا محمد — لهؤلاء النصارى واليهود الذين قالوا : « لنْ يَدْخلَ الجنة إلاّ مَنْ كان هُوداً أوْ نصَارَى » — : « إن هدى الله هو الهدى » . يعنى : إن بيان الله هو البيان المقنع ، والقضاء الفاصل بيننا ، فهلمُّوا إلى كتاب الله وبيانه — الذى بيّن فيه لعباده ما اختلفوا فيه ، وهو التوراة التى تقرُّون جميعاً بأنها من عند الله — يتضحْ لكم فيها المحقّ منَّا من المبطل ، وأيُّنا أهل الجنة وأيُّنا أهل النار ، وأيُّنا على الصواب وأيُّنا على الخطأ .

وإنما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم إلى هدى الله وبيانه ، لأن فيه تكذيبَ اليهودِ والنصارى فيما قالوا : من أن الجنة لن يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى ، وبيانَ أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن المكذِّب به من أهل النار دون المصدِّق به .

* * *

القول فى تأويل قوله ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (١٢٠)

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : «ولئن اتبعت» ، يا محمد ، هَوَى هؤلاء اليهود والنصارى — فيما يرضيهم عنك — من تهوُّدٍ وتنصُّرٍ ، فصرت من ذلك

إلى إرضائهم ، ووافقت فيه محبتهم — من بعد الذى جاءك من العلم بضلالتهم وكفرهم بربهم ، ومن بعد الذى اقتصصتُ عليك من نبئهم فى هذه السورة — مالك من الله من ولىّ = يعنى بذلك : ليس لك يا محمد من ولى يلى أمرك ، وقيم يقوم به = ولا نصير ، ينصرك من الله فيدفعُ عنك ما ينزل بكَ من عقوبته ، ويمنعُك من ذلك ، إنْ أحلّ بك ذلك ربك . وقد بينا معنى « الولى » و « النصير » فيما مضى قبل .(١)

وقد قيل : إن الله تعالى ذكره أنزل هذه الآية على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن اليهود والنصارى دعته إلى أديانها ، وقال كلّ حزب منهم : إن الهدى هو ما نحن عليه ، دون ما عليه غيرنا من سائر الملل . فوعظه الله أن يفعل ذلك ، وعلّمه الحجةَ الفاصلة بينهم فيما ادّعى كل فريق منهم .

* * *

٤١١/١ القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهلُ التأويل فى الذين عَناهم الله جل ثناؤه بقوله : « الذينَ آتيناهم الكتاب » . فقال : بعضهم : هم المؤمنون برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ، من أصحابه . ذكر من قال ذلك :

١٨٧٨ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد ، عن قتادة قوله : « الذين آتيناهم الكتابَ » ، هؤلاء أصحاب نبىّ الله صلى الله عليه وسلم ، آمنوا بكتاب الله وصدقوا به .

* * *

وقال آخرون : بل عَنى الله بذلك علماءَ بنى إسرائيل ، الذين آمنوا بالله وصدّقوا رُسله ، فأقروا بحكم التوراة . فعملوا بما أمر الله فيها من اتباع محمد صلى

---

(١) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٤٨٨ ، ٤٨٩ .

الله عليه وسلم ، والإيمان به ، والتصديق بما جاء به من عند الله ٠ ذكر من قال ذلك :

١٨٧٩ — حدثني يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد فى قوله : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونَه حق تِلاوَتِه أولئك يؤمنونَ به وَمَنْ يَكفُر به فأولئك هُمُ الخاسرون » ، قال : من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم من يهود ، فأولئك هم الخاسرون .

* * *

قال أبو جعفر : وهذا القول أولى بالصواب من القول الذى قاله قتادة . لأن الآيات قبلها مضت بأخبار أهل الكتابين ، وتبديل من بدّل منهم كتاب الله ، وتأوُّلهم إيّاه على غير تأويله ، وادّعائهم على الله الأباطيل ، ولم يجر لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى الآية التى قبلها ذكر ، فيكون قوله : « الذين آتيناهم الكتابَ » ، موجَّهاً إلى الخبر عنهم ، ولا لهم بعدَها ذكرٌ فى الآية التى تتلوها ، فيكون موجَّهاً ذلك إلى أنه خبرٌ مُبتدأٌ عن قَصَص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد انقضاء قصص غيرهم ؛ ولا جاء بأنّ ذلك خبرٌ عنهم أثرٌ يجب التسليم له .[1]

فإذْ كان ذلك كذلك ، فالذى هو أولى بمعنى الآية ، أن يكون موجَّهاً إلى أنه خبر عمّن قصّ الله جل ثناؤه [قَصصهم] فى الآية قبلها والآية بعدها ،[2] وهم أهل الكتابين التوراة والإنجيل . وإذْ كان ذلك كذلك ، فتأويل الآية : الذين آتيناهم الكتابَ الذى قد عرفته يا محمد — وهو التوراة — فقرأوه واتبعوا ما فيه ، فصدّقوك وآمنوا بك وبما جئت به من عندى ، أولئك يتلُونه حق تلاوته .

* * *

(١) رحم الله أبا جعفر ، فهو لا يدع الاحتجاج الصحيح عند كل آية ، ولكن بعض هل التفسير يتجاوزون ويتساهلون ، فليتهم نهجوا نهجه فى الضبط والحفظ والاستدلال .

(٢) ما بين القوسين زيادة لا بد منها .

وإنما أدخلت « الألف واللام » فى « الكتاب » ، لأنه معرفة . وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه عرفوا أىَّ الكتب عنَى به .

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾

قال أبو جعفر : اختلف أهل التأويل فى تأويل قوله عز وجل : « يتلونه حق تلاوته » . فقال بعضهم : معنى ذلك : يتبعونه حقَّ اتّباعه . ذكر من قال ذلك :

١٨٨٠ — حدثنى محمد بن المثنى قال ، حدثنى ابن أبى عدى وعبد الأعلى — وحدثنا عمرو بن على قال ، حدثنا ابن أبى عدى — جميعاً ، عن داود ، عن عكرمة عن ابن عباس : « يتلونه حق تلاوته » ، يتّبعونه حقَّ اتباعه .

١٨٨١ — حدثنى المثنى قال ، حدثنا عبد الوهاب قال ، حدثنا داود ، عن عكرمة ، بمثله .

١٨٨٢ — حدثنا عمرو بن على قال ، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، بمثله .

١٨٨٣ — حدثنى الحسين بن عمرو العنقزىّ قال ، حدثنى أبى ، عن أسباط ، عن السدى ، عن أبى مالك ، عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : « يتلُونَه حَقَّ تلاوَته » ، قال : يحلون حلاله ويحرمون حرامه ، ولا يحرِّفونه .[1]

١٨٨٤ — حدثنى موسى قال ، حدثنا عمرو قال ، حدثنا أسباط ، عن السدى قال ، قال أبو مالك : إنَّ ابن عباس قال فى : « يتلونه حَق تلاوته » ، فذكر مثله — إلا أنه قال : ولا يحرِّفونه عن مواضعه .

١٨٨٥ — حدثنا عمرو بن على قال ، حدثنا المؤمل قال ، حدثنا سفيان قال ،

---

(١) الأثر : ١٨٨٣ — فى المطبوعة : « الحسن بن عمرو العبقرى » ، وانظر التعليق على الأثر رقم : ١٦٢٥ وكذلك مضى فى الأثر : ١٦٥٥ « الحسن » ، وهو خطأ ، نصححه .

حدثنا يزيد ، عن مرة ، عن عبد الله فى قول الله عز وجلّ : « يتلونه حَقّ تلاوته » : قال : يتبعونه حقّ اتباعه .

١٨٨٦ — حُدثت عن عمار قال ، حدثنا ابن أبي جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع ، عن أبي العالية . قال ، قال عبد الله بن مسعود : والذى نفسى بيده ، إنّ حَقّ تلاوته : أن يُحلّ حلاله ويحرّم حرامه ، ويقرأه كما أنزله الله ، ولا يحرّف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأوّل منه شيئاً على غير تأويله .

١٨٨٧ — حدثنا الحسن بن يحيى قال ، أخبرنا عبد الرزاق قال ، أخبرنا معمر ، عن قتادة ، ومنصور بن المعتمر ، عن ابن مسعود فى قوله : « يتلونه حقّ تلاوته » ، أن يحلّ حلاله ويحرم حرامه ، ولا يحرفه عن مواضعه .

١٨٨٨ — حدثنا أحمد بن إسحق قال ، حدثنا [أبو أحمد] الزُّبيرى قال ، حدثنا عباد بن العوام ، عمن ذكره ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : « يتلونه حَقّ تلاوته » ، يتبعونه حق اتباعه .

١٨٨٩ — حدثنا أحمد بن إسحق قال ، حدثنا أبو أحمد قال ، حدثنا عباد ابن العوام ، عن الحجاج ، عن عطاء بمثله . ١/٤١٢

١٨٩٠ — حدثنا محمد بن بشار قال ، حدثنا أبو أحمد قال ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، عن أبي رزين فى قوله : « يتلونه حقّ تلاوته » ، قال : يتبعونه حقّ اتباعه .

١٨٩١ — حدثنا عمرو بن على قال ، حدثنا مؤمل قال حدثنا سفيان — وحدثنى المثنى قال ، حدثنى أبو نعيم قال ، حدثنا سفيان — وحدثنى نصر بن عبد الرحمن الأزدى قال ، حدثنا يحيى بن إبراهيم ، عن سفيان — قالوا جميعاً ، عن منصور ، عن أبي رزين مثله .

١٨٩٢ — حدثنا ابن حميد قال ، حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن مجاهد : « يتلونه حقّ تلاوته » ، قال : عملاً به[١] .

---

(١) الأثر ١٨٩٢ — فى المطبوعة : « أبو حميد » ، والصواب ما أثبت ، وهو محمد بن حميد ، وهو كثير ذكره فيما سلف

١٨٩٣ — حدثني يعقوب قال، حدثنا هشيم، قال أخبرنا عبد الملك ، عن قيس بن سعد : « يتلونه حق تلاوته »، قال : يتبعونه حق اتباعه ، ألم تر إلى قوله : ﴿ وَالقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ﴾ [سورة الشمس : ٢] ، يعني الشمس إذا تبعها القمر .

١٨٩٤ — حدثني المثنى قال ، حدثنا سويد بن نصر قال، أخبرنا ابن المبارك، عن عبد الملك بن أبي سليمان ، عن عطاء وقيس بن سعد ، عن مجاهد في قوله : « يتلونه حق تلاوته » ، قال : يعملون به حق عمله .

١٨٩٥ — حدثني المثنى قال ، حدثنا عمرو بن عون قال، أخبرنا هشيم ، عن عبد الملك ، عن قيس بن سعد ، عن مجاهد ، قال : يتبعونه حق اتباعه .

١٨٩٦ — حدثني محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم قال ، حدثنا عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد ، مثله .

١٨٩٧ — حدثني المثنى قال ، حدثنا أبو حذيفة قال ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : « يتلونه حق تلاوته » ، يعملون به حق عمله .

١٨٩٨ — حدثنا عمرو بن علي قال ، حدثنا مؤمل بن إسمعيل قال ، حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن مجاهد في قوله : « يتلونه حق تلاوته » ، قال : يتبعونه حق اتباعه .

١٨٩٩ — حدثني عمرو قال ، حدثنا أبو قتيبة قال ، حدثنا الحسن بن أبي جعفر ، عن أيوب ، عن أبي الخليل ، عن مجاهد : « يتلونه حق تلاوته » قال : يتبعونه حق اتباعه .[1]

---

(١) الخبر : ١٨٩٩ — أبو قتيبة : هو سلم بن قتيبة الشعيرى — بفتح الشين المعجمة — الخراسانى ، وهو ثقة مأمون ، أخرج له البخارى وأصحاب السنن . مترجم فى التهذيب ، والكبير ٢/٢/١٦٠ ، وابن أبى حاتم ٢/١/٢٦٦ .

الحسن بن أبى جعفر الجفرى : حسن الحديث ، تكلموا فيه ، ورجحنا تحسين أحاديثه مفصلا فى شرح المسند : ٥٨١٨ . مترجم فى التهذيب ، والكبير ١/٢/٢٨٦ ، وابن أبى حاتم ١/٢/٢٩ . و « الجفرى » : بضم الجيم وسكون الفاء ، نسبة إلى «جفرة خالد» بالبصرة . كما فى الأنساب واللباب والمشتبه.

أيوب : هو السختيانى ، وفى المطبوعة « عن أبى أيوب » . وهو خطأ . استقينا تصويبه من التراجم .

أبو الخليل : هو صالح بن أبى مريم الضبعى ، وهو ثقة . مترجم فى التهذيب ، والكبير ٢/٢/٢٩٠ وابن أبى حاتم ٢/١/٤١٥ — ٤١٦ .

١٩٠٠ — حدثنا عمرو قال ، حدثنا يحيي القطان ، عن عبد الملك ، عطاء قوله : « يتلونه حقّ تلاوته » ، قال : يتبعونه حق اتباعه ، يعملون به حق عمله .

١٩٠١ — حدثنا سفيان بن وكيع قال ، حدثني أبي ، عن المبارك ، عن الحسن : « يتلونه حق تلاوته » ، قال : يعملون بمُحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويكِلون ما أشكل عليهم إلى عالمه .[1]

١٩٠٢ — حدثنا بشر بن معاذ قال ، حدثنا يزيد بن زريع قال ، حدثنا سعيد ، عن قتادة : « يتلونه حق تلاوته » ، قال : أحلوا حلاله وحرّموا حرامه ، وعملوا بما فيه . ذُكر لنا أنّ ابن مسعود كان يقول : إن حقّ تلاوته : أن يُحل حلالَه ويحرم حرامَه ، وأن يقرأه كما أنزله الله عز وجل ، ولا يحرّفه عن مواضعه .

١٩٠٣ — حدثنا عمرو قال ، حدثنا أبو داود قال ، حدثنا الحكم بن عطية ، سمعت قتادة يقول : « يتلونه حق تلاوته » ، قال : يتبعونه حق اتباعه . قال : اتّباعُه : يحلون حلاله ويحرّمون حرامه ، ويقرأونه كما أنزل .

١٩٠٤ — حدثنا المثنى قال ، حدثنا عمرو بن عون قال ، أخبرنا هشيم ، عن داود ، عن عكرمة فى قوله : « يتلونه حق تلاوته » ، قال : يتبعونه حق اتباعه ، أمَا سمعت الله عز وجل : ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ [سورة الشمس : ٢] ، قال : إذا تبعها .

* * *

وقال آخرون : « يتلونه حقّ تلاوته » ، يقرأونه حق قراءته .[2]

* * *

قال أبو جعفر : والصواب من القول فى تأويل ذلك أنه بمعنى : يتبعونه حقّ اتّباعه ، من قول القائل : « ما زلت أتلو أثره » ، إذا اتّبع أثره ،[3] لإجماع الحجة من أهل التأويل على أنّ ذلك تأويله .

---

(١) الخبر : ١٩٠١ — مبارك : هو ابن فضالة . وهو من أخص الناس بالحسن البصرى . كما قلنا فى : ١١١ .

(٢) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٤١١

(٣) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٤١١

وإذْ كان ذلك تأويله ، فمعنى الكلام : الذين آتيناهم الكتاب ، يا محمد من أهل التوراة الذين آمنوا بك وبما جئتهم به من الحق من عندى ، يتبعون كتابى الذى أنزلتُه على رسولى موسى صلوات الله عليه ، فيؤمنون به ويقرؤون بما فيه من نعتك وصفتك ، وأنك رسولى، فرضٌ عليهم طاعتى فى الإيمان بك والتصديق بما جئتهم به من عندى، وَيعمَلون بما أَحللت لهم ، ويجتنبون ما حرّمت عليهم فيه ، ولا يحرّفونه عن مواضعه ، ولا يبدلونه ولا يغيرونه — كما أنزلته عليهم — بتأويل ولا غيره .

* * *

أما قوله : « حقّ تِلاوته » ، فمبالغة فى صفة اتباعهم الكتاب ولزومهم العمل به ، كما يقال : « إنّ فلاناً لعالم حقُّ عالم » ، وكما يقال : « إن فلاناً لفاضل كلّ فاضل » [1]

* * *

وقد اختلف أهل العربية فى إضافة « حق » إلى المعرفة . فقال بعض نحويى الكوفة غير جائزة إضافته إلى معرفة ، لأنه بمعنى « أىّ » ، وبمعنى قولك : « أفضلُ رجلٍ فلان » ، وأفعل لا يضاف إلى واحد معرفة ، لأنه مبعَّض ، ولا يكون الواحدُ المبعَّض معرفة . فأحالوا أن يقال : « مررت بالرجل حقُّ الرجل » « ومررت بالرجل جيدِّ الرجل » ، كما أحالوا : « مررت بالرجل أىِّ الرجل » . وأجازوا ذلك فى « كل الرجل » و « عين الرجل » و « نفس الرجل » .[2] وقالوا : إنما أجزْنا ذلك ، لأن هذه الحروف كانت فى الأصل توكيداً ، فلما صِرْن مُدُوحاً ، تركن مُدُوحاً على أصولهنّ فى المعرفة .

١/١٣ ٤

وزعموا أن قوله : « يتلُونه حقّ تلاوته » إنما جازت إضافته إلى التلاوة ، وهى مضافة إلى معرفة ، لأن العرب تعتد بـ « الهاء » — إذا عادت إلى نكرة — بالنكرة ، فيقولون : « مررت برجل واحدِ أمه ، ونسيج وحده ، وسيِّد قومه » ، قالوا فكذلك قوله « حقُّ تلاوته » ، إنما جازت إضافة « حق » إلى « التلاوة » وهى مضافة إلى

(١) انظر سيبويه ١ : ٢٢٣ — ٢٢٤ .

(٢) فى المطبوعة « غير الرجل » .

« الهاء » لاعتداد العرب بـ « الهاء » التي في نظائرها في عداد النكرات . قالوا ولو كان ذلك « حق التلاوة » ، لوجب أن يكون جائزاً ، « مررت بالرجل حق الرجل » .

فعلى هذا القول تأويلُ الكلام : الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقَّ تلاوةٍ .

* * *

وقال بعض نحويي البصرة : جائزةٌ إضافة « حق » إلى النكرات مع النكرات ، ومع المعارف إلى المعارف ، وإنما ذلك نظيرُ قول القائل : « مررت بالرجل غلام الرجل » و « برجل غلام رجل »

فتأويل الآية على قول هؤلاء : الذين آتيناهم الكتابَ يتلونه حق تلاوته[1]

* * *

وأولى ذلك بالصواب عندَنا القولُ الأول ، لأن معنى قوله : « حَقَّ تلاوته » أيَّ تلاوةٍ ، بمعنى مدح التلاوة التي تَلوْها وتفضيلها . و « أيَّ » غير جائزة إضافتها إلى واحدٍ معرفةٍ عند جميعهم . وكذلك « حق » غير جائزة إضافتُها إلى واحد معرفة . وإنما أضيف في « حق تلاوته » إلى ما فيه « الهاء » ، لما وصفت من العلة التي تقدم بيانُها .

* * *

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾

قال أبو جعفر : يعني جل ثناؤه بقوله : « أولئك » ، هؤلاء الذين أخبرَ عنهم أنهم يتلون ما آتاهم من الكتاب حق تلاوته ، وأما قوله : « يُؤمنون به » ، فإنه يعني : يصدِّقُون به . و « الهاء » التي في قوله : « به » عائدة على « الهاء » التي في « تلاوته » ، وهما جميعاً من ذكر الكتاب الذي قال الله : « الذين آتيناهم الكتاب » .

فأخبر الله جل ثناؤه أن المؤمن بالتوراة ، هو المتبعُ مَا فيها من حلالها وحرامها ، والعاملُ بما فيها من فرائض الله التي فَرَضها فيها على أهلها ، وأنَّ أهلها الذين هُم أهلُها مَن كان ذلك صفتُه ، دون من كان محرِّفاً لها ، مبدِّلا تأويلها ، مغيِّراً

(١) الصواب أن يقول : « حق تلاوة الكتاب » ، ولعل الناسخ أخطأ .

سُنَنها ، تاركاً ما فرض الله فيها عليه .

* * *

وإنما وصَف جل ثناؤه من وَصَف بما وُصف به من متبعى التوراة ، وأثنى عليهم بما أثنى به عليهم ، لأنّ فى اتباعها اتّباعَ محمد نبى الله صلى الله عليه وسلم وتصديقه ، لأن التوراة تأمر أهلها بذلك ، وتخبرهم عن الله تعالى ذكره بنبوته ، وفرض طاعته على جميع خلق الله من بنى آدم ، وأنّ فى التكذيب بمحمد التكذيبَ لها . فأخبر جل ثناؤه أن متّبعى التوراة هم المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهم العاملون بما فيها ، كما : —

١٩٠٥ — حدثنى يونس قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد فى قوله : « أولئك يؤمنون به » ، قال : من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم من بنى إسرائيل وبالتوراة ، وإن الكافر بمحمد صلى الله عليه وسلم هو الكافر بها الخاسر ، كما قال جل ثناؤه : « ومن يكفُر به فأولئك همُ الخاسرون » .[1]

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ (١٢١)

قال أبو جعفر : يعنى جل ثناؤه بقوله : « ومن يَكفُرْ به » ، ومن يكفر بالكتاب الذى أخبَر أنه يتلوه — مَن آتاه من المؤمنين — حقّ تلاوته . ويعنى بقوله جل ثناؤه : « يكفر » ، يجحد ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتصديقه ، ويبدّله فيحرف تأويله ، أولئك هم الذين خسروا عِلمهم وعَملهم ، فبخسوا أنفسهم حظوظها من رحمة الله ، واستبدلوا بها سَخَط الله وَغضَبه . وقال ابن زيد فى قوله ، بما : —

١٩٠٦ — حدثنى يونس به قال ، أخبرنا ابن وهب قال ، قال ابن زيد :

---

(١) انظر ما سلف فى معنى « الخاسر » ١ : ٤١٧ ثم هذا الجزء ٢ : ١٦٦ .

« ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون »، قال: من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم من يهود ، « فأولئك هُم الخاسرون »

* * *

القول فى تأويل قوله تعالى ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (١٢٢)

١/٤١٤ قال أبو جعفر : وهذه الآية عظةٌ من الله تعالى ذكره لليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتذكيرٌ منه لهم ما سَلف من أياديه إليهم فى صُنعه بأوائلهم، استعطافاً منه لهم على دينه وتصديق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فقال: يا بنى إسرائيل اذكروا أيادى لدَيكم ، وصنائعى عندكم، واستنقاذى إياكم من أيدى عدوّكم فرعون وقومه، وإنزالى عليكم المنَّ والسلوى فى تيهكم، وتمكينى لكم فى البلاد بعد أنْ كنتم مذلَّلين مقهورين، واختصاصى الرسلَ منكم ، وتفضيلى إيّاكم على عالم مَنْ كنتم بين ظهرَانيه ، أيامَ أنتم فى طاعتى —[1] باتباع رسولى إليكم ، وتصديقه وتصديق ما جاءكم به من عندى ، ودَعوا التمادى فى الضلال والغىّ .

وقد ذكرنا فيما مضى النِّعم التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل ، والمعانى التى ذكَرهم جل ثناؤه من آلائه عندَهم، والعالَم الذى فُضّلوا عليه — فيما مضى قبلُ بالروايات والشواهد ، فكرهنا تطويل الكتاب بإعادته ، إذ كان المعنى فى ذلك فى هذا الموضع وهنالك واحداً.[2]

* * *

(١) إن لم يكن قد سقط هنا قوله : « وأعظكم باتباع رسولى . . . » ، فإن قوله « باتباع رسولى » متعلق بقوله فى صدر الخطاب : « اذكروا أيادى لديكم . . . »

(٢) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٢٣ – ٢٦

القول فى تأويل قوله ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (١٢٣)

قال أبو جعفر : وهذه الآية ترهيبٌ من الله جل ثناؤه للذين سَلفت عظته إياهم بما وعظهم به فى الآية قبلها . يقول الله لهم : واتقوا — يا معشر بنى إسرائيل ، المبدِّلين كتابى وتنزيلى ، المحرِّفين تأويله عن وجهه ، المكذِّبين برسولى محمد صلى الله عليه وسلم — عذابَ يوم لا تقضى فيه نفس عن نفس شيئاً ، ولا تغنى عنها غناءً أنْ تَهلكوا على ما أنتم عليه من كفركم بى ، وتكذيبكم رسولى ، فتموتوا عليه ، فإنه يوم لا يُقبل من نفس فيما لزمها فديةٌ ، ولا يَشفع فيما وَجب عليها من حق لها شافع ، ولا هم يَنصرها ناصرٌ من الله إذا انتقم منها بمعصيتها إيّاه .[١]

* * *

وقد مضى البيان عن كل معانى هذه الآية فى نظيرتها قبل ، فأغنى ذلك عن إعادته فى هذا الموضع .[٢]

تم الجزء الثانى من تفسير الطبرى

ويليه الجزء الثالث وأوّله

القولُ فى تأويل قوله تعالى

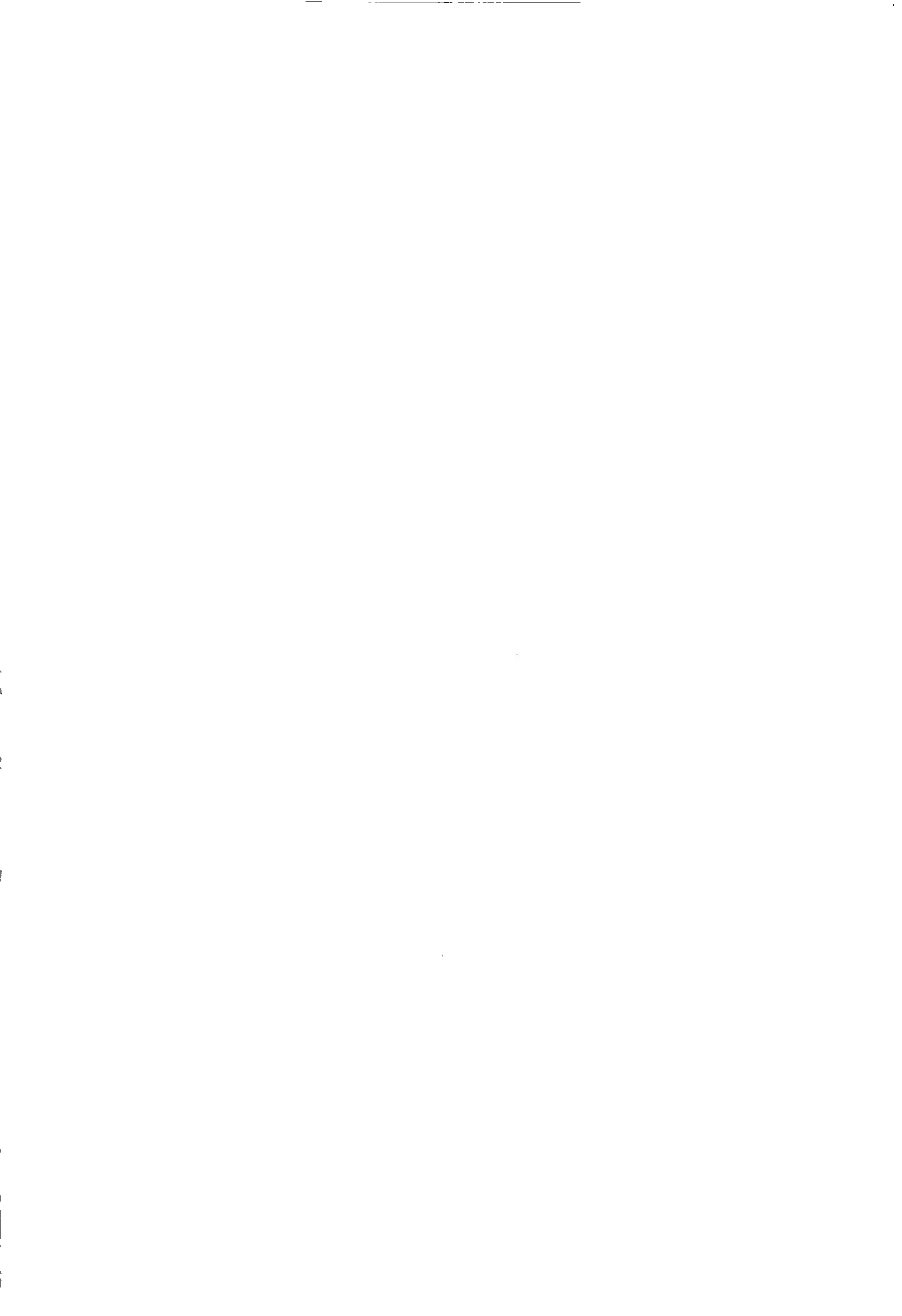
﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ ﴾

---

(١) فى المطبوعة : « ولا هم ينصرهم » ، وهو خطأ ، صوابه ما أثبت .

(٢) انظر ما سلف فى هذا الجزء ٢ : ٢٦ — ٣٦ .

الفهارس



فهرس الآيات التى استدل بها فى غير موضعها من التفسير

فهرس اللغة

هذا الفهرس مرتب على ترتيب معاجم اللغة ، على أصل الاشتقاق، وعلى آخر الأصل باباً ، وأوله فصلاً .

أعلام المترجمين فى التعليق

[الأرقام فى هذا الفهرست هى أرقام الآثار ، لا الصفحات]

* * *

المصطلحات

الرد على الفرق

مباحث العربية والنحو وغيرهما

- إدغام « التاء » فى « الدال » لتقارب مخرجهما : ٢٢٤
- مخرج « التاء » من طرف اللسان وأصول الشفتين
ومخرج « الدال » من طرف اللسان وأطراف الثنيتين : ٢٢٤
- إبدال « الفاء » ، « ثاء » والعكس ، لتقارب مخرجهما : ١٣٠
- إسقاط « الفاء » من جواب « إذ » : ١٨٣
- لا يجوز إسقاط « الفاء » من قولك « قمتُ فعلت كذا » ، لأنها عطف ، لا استفهام يوقف عليه : ١٨٣
- « لام » اليمين نحو قوله : « ولقد علموا » : ٤٥٢
- « الواو »، « الفاء » جعلهما مع الاستفهام ، نحو« أوَ كلّما عاهدوا » « أفكلّما جاءكم » : ٣٩٩ ، ٤٠٠
- « الهاء » فى قوله : «حق تلاوته» وفى نظائرها ، تعدها العرب فى عداد النكرات ٥٧١
- « الهاء » وتعتد بها إذا عادت إلى نكرة بالنكرة ، كقولهم : مررت برجل واحد أمه، ونسيج وحده » : ٥٧٠

* * *

- « إلاّ » يخرج بها ما بعدها من معنى ما قبلها ومن صفته، وإن كان كل واحد منهما من غير شكل الآخر ومن نوعه، وهو « الاستثناء المنقطع » : ٢٦٤
- « إلاّ » كل موضع حسُن فيه مكانها « لكن »، فهو استثناء منقطع ، لانقطاع معنى الثانى عن معنى الأول : ٢٦٤
- « أم » بمعنى الاستفهام / بمعنى استفهام مستقبل منقطع من الكلام ، كأنك تميل به إلى أوله ، كقولهم : « إنها لإبل أم شاء » : ٤٩٢
- « أم » إذا ابتدأت كلاماً ليس قبله كلام ثم استفهمت ، لم يكن إلا بالألف أو بهل : ٤٩٢

* * *

* * *

فهرس التفسير

تصدير الجزء الثانى